د. فتحي عَبد الفتاح

ثنائيّة السّجن والغربَة

دار الشروق

ثنائيّة

السّجن والغربة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص ب ٣٣ البانوراما - تليفون . ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس . ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت . ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس . ٨١٧٧٦٥ (٠١)

فـذلكة
أو
خيانة النص

لا أستطيع أن أقطع تماما من الذى قال إن كتابة المقدمة تعد خيانة للعمل نفسه وتشويها له، لعله فيما أذكر الشاعر والمفكر الألمانى الكبير ولفجانج فون جوته.

وقد كان استاذى وصديقى الدكتور لويس عوض من أصحاب هذا الرأى حيث كان يردد دائما ان الابداع الحقيقى ليس فى حاجة الى مذكرة تفسيرية. .

وقد عاتبنى رحمه الله على المقدمات التى كتبتها للطبعات الأولى لهذين العملين إذ أعطت انطباعا خاطئا بأننا بإزاء مذكرات تتعلق بتاريخ المرحلتين الناصرية والساداتية. .

مع أنهما فى تقديره لم يقدما تاريخا بل عملا روائيا بالدرجة الأولى حتى ولو استمد تفاصيله وأحداثه من وقائع تاريخية ثابتة.

فكل الإبداعات الروائية العظيمة من وجهة نظره تقدم التاريخ الحقيقى للمجتمع وللمرحلة فى شكل الصراعات والعلاقات الاجتماعية والإنسانية فى هذه المجتمعات وتلك المرحلة.

وقد اتفق كاتبنا الكبير نجيب محفوظ أمد الله فى عمره وإبداعاته، ضمنا مع هذا الرأى حين قال فى تعليق له على الكتاب الأول من هذه الثنائية (شيوعيون وناصريون) بأنه يقدم جنسا أدبيا من أجناس الرواية العالمية فى مجال الأعمال التى عالجت قضايا السجون والمعتقلات والقهر.

فهناك رواية (عريان بن الذئاب) للكاتب الألمانى الكبير برونو ابيتز والتى دار محورها حول معتقل (بوخنوالد) الرهيب أيام النازية الهتلرية وهناك (أرخيل الجولاج) العمل الابداعى للكاتب الروسى الكسندر سولجنستاين عن سنوات النفى

والاعتقال ومعسكرات العمل فى سيبيريا وهى الرواية التى حصل عليها جائزة نوبل فى الإبداع الروائى .

بل إن نجيب محفوظ نفسه يعد نموذجا للروائى المؤرخ حين قدم فى ثلاثيته تاريخ مصر السياسى والاجتماعى منذ مقدمات ثورة ١٩١٩ حتى مقدمات ثورة يوليو ١٩٥٢ وذلك من خلال التشابكات والتطورات والتداعيات الإنسانية التى جرت لأسرة أحمد عبدالجواد فى بين القصرين والسكرية وقصر الشوق والتداخل بين التاريخ والرواية أصبح أحد القضايا المهمة فى قراءة ودراسة واستيعاب التاريخ لدى كثير من النقاد والكتاب فى المجالين .

فلم يعد التاريخ مجرد سرد أحداث ووقائع كتبت على المسلات والآثار فى الماضى أو دونت فى كتب وأوراق أو حتى تسجيلها بالأفلام والفيديو فالمؤرخون الكبار من أيام هيرودت حتى تشايلد وأرنولد توينى يلجئون إلى الأعمال الإبداعية والفنية وأساسا فى الرواية والشعر لفهم وشرح المراحل التاريخية التى يتعرضون لها كما ان مدارس النقد الأدبى المعاصر تبحث عن الأبعاد الاجتماعية والسياسية والثقافية بل وحتى الاقتصادية فى تناول الابداعات الأدبية كل فيها يكمل الآخر ويفسره ولقد فعل ذلك طه حسين حين أراد تقديم تقييم نقدى للشعر الجاهلى ويفعل ذلك جميع النقاد الذين نعتز بآرائهم وأفكارهم .

وهل يمكن لمؤرخ أن يتفهم ويستوعب مرحلة الحروب النابوليونية فى أوربا دون قراءة الحرب والسلام للعظم تولستوى وهل يمكن فهم التاريخ الأوربى فى القرن التاسع عشر دون قراءة أعمال إميلى برونتى وستاندال وفيكتور هوجو وشارلز ديكنز وبودلير .

بل ان ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا إبان الحرب العالمية الثانية نال جائزة نوبل عن الأدب الروائى على المذكرات التى كتبها عن تاريخ هذه الحروب وتطوراتها ولا أحسب ان تشرشل حيث صاغ هذه المذكرات كان يجرى فى خاطره ان كبار النقاد والمفكرين سيرون فيها عملا روائيا متميزا مثلما جاء فى قرارهم ولعلى وجدت نفسى فى هذا الموقف وأنا أسجل تجربتين عشتهما وعانيتهما خلال الثلاثين عاما الماضية تجربة السجن والمعتقل فى المرحلة الناصرية مرحلة الانطلاق القومى والأحلام المجهضة .

وتجربة الغربة التى عشتها فى المرحلة الساداتية مرحلة الانفتاح وكامب ديفيد وازدهار النفط وجماعات الهوس الدينى .

والذى أستطيع أن أؤكده وأوثقه أننى حينما جلست لكتابة هذه الأعمال لم يكن فى ذهنى الادعاء بأننى أقدم تاريخا أو حتى وجهة نظر خاصة لتقييم مرحلة تاريخية معينة .

فقد كنت أعرف يقينا أن هذه مهمة لاأقدر عليها حتى لو توافرت لدى الرغبة والنية .

كما أنى أستطيع أن أوكد وأوثق أيضا أنه لم يجر بخاطرى كتابة رواية أحرك أحداثها وشخوصها وتشابكاتها وأسقط عليها مفاهيمى الخاصة .

فلقد كنت ببساطة أعرف أننى أعيد تقديم تاريخ حدث بالفعل ورواية تمت فصولها فهى إعادة إنتاج لواقع عشته وعايشته وتفاعلت معه ولم يكن لى دور فى صياغة الأحداث أو تحريك الشخصيات أو حتى إعادة صياغة الواقع وتلوينه سواء تجميلا أم تشويها .

كل ما قمت به هو تركيب الوقائع التى كانت جاهزة وواقعة سلفا مثلما يفعلون فى المعمار الحديث ليس كمهندس معمارى أو حتى كخبير استشارى يراقب من بعيد بل كجزء من ذلك الواقع وتلك الأحداث كما أنى كتبت ماكتبت ليس دفاعا عن فكرة معينة أو مجموعة أفكار وليس هجوما على أحد أو انتصارا لأحد فهى ببساطة تجارب عميقة عشتها وحاولت تقديمها للقارئ بنفس درجة الصدق والمعاناة التى خضت بها التجربة .

وهل يمكن أن يكون هناك خداع للنفس فى تلك الفترات التى تعانى فيها من السجن والغربة .

واليوم وبعد مرور أكثر من عشرين عاما على صدور الطبعة الأولى من "شيوعيون وناصريون وبعد أكثر من ثلاثين عاما على "التجربة نفسها" وأيضا بعد مرور قرابة العشرين عاما على تجربة "الخروج والغربة" أجد نفسى أقف على نفس الربوة التى أعتليتها من قبل لأعيد تأكيد ما سبق أن قلته وهو أن الأمر كله لا يعنى سوى قضية جوهرية وهى . :

تعميق إنسانية الإنسان المصرى والعربى وحتى لا يتعرض أى مصرى أو مصرية وأيضا أى عربى أو عربية لأى شكل من أشكال التعذيب والقهر البدنى أو النفسى لأنه يحمل آراء قد تتفق أو تختلف مع الآخرين . إن حق الاختلاف هو المقدمة الضرورية لحق الإبداع والابتكار .

وحتى لايطلق البعض الرصاص على العقل . . وحتى . . وحتى . . . كفى . .
ألم أقل من البداية أن كتابة المقدمة خيانة للعمل وتشويها له .

د. فتحى عبدالفتاح

القاهرة - مايو ١٩٩٧

مقدمـــة

لست أدرى بالضبط أى طبعة هذه، هل هى الرابعة أم الخامسة.

الذى أعرفه أنه ومنذ أن صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عن مؤسسة روزاليوسف فى نوفمبر سنة ١٩٧٥، صدرت له طبعتان ملاحقتان فى بضعة شهور فى أوائل سنة ١٩٧٦، نفدتا كلهما فى أقل من شهر.

ثم عرفت بعد ذلك أن دار نشر مجهولة فى بيروت أعادت نشره عن طريق التصوير، بل قرأت بالصدفة أن إحدى دور النشر العربية فى القدس المحتلة، لعلها دار نشر صلاح الدين، قد أصدرت طبعة خاصة من الكتاب منذ سنوات لقد أبهجنى وأسعدنى للغاية بالطبع هذا الاحتفاء الواسع من جانب القارئين المصرى والعربى بهذا الكتاب، هذا الاحتفاء الذى أخذ أشكالا وصورا فاقت كل تصوراتى:

* ففى الاستفتاءات التى أجريت لسنتى ١٩٧٥، ١٩٧٦ اختير كأحسن كتاب، وشارك فى الاختيار نخبة ممتازة من الكتاب والصحفيين والفنانين ورجال الفكر تنوعت وتباينت منابعهم الفكرية، كما تناوله غالبية الكتاب بالنقد والتحليل.

* كان الكتاب موضوعا لرسالة ماجستير فى الأدب السياسى فى جامعة ليبزج الشهيرة، كما اعتمدت عليه عدة دراسات أدبية وسياسية كمرجع أساسى لها وهى تؤرخ للمرحلة الناصرية.

* على أن الأهم من ذلك كله هى عشرات الآلاف من الرسائل التى تلقيتها من مواطنين فى مصر والعالم العربى، ومن نوعيات وشخصيات مختلفة، ليس فقط فى أفكارها بل وفى أوضاعها الاجتماعية والطبقية.

ولن أنسى تلك الرسالة التى تلقيتها من المرحوم الدكتور حسن فهمى الأستاذ فى كلية الهندسة ومؤسس فرقة رضا للفنون الشعبية والتى جاء فيها:

«. . . . أخذت أبحث عنك فى كل مكان بعد قراءتى لكتابك فهو ليس مجرد كتاب ممتاز، بل واحد من تلك الكتب التى يمكن أن يطلق عليها وبثقة «كتاب فريد وعبقري» . .

كنت أبتعد عن السياسة، وأعتبرها حرفة مختلفة تماما عن حرفتى، ولكنى أحسست بأننى واحد من هؤلاء «السذج الغافلين» الذين قدمتهم فى كتابك، والذين غرقوا فى دراساتهم وفى حياتهم الخاصة دون أن يتلفتوا حولهم ليروا كيف تمضى الأمور فى مجتمعهم ويرتبطون بمشاكله وهمومه . .

أعاهدك يابنى أننى سأحاول أن أغير من هذا فى سنوات العمر الباقية لى، لعلى أستطيع أن أفعل شيئا على الأقل فى الهدف الذى كرست حياتك للدفاع عنه، وهو أن تكون مصر للمصريين جميعا، دون تمييز أو اضطهاد، للنساء والرجال، للعمال والمثقفين والمنتجين الحقيقيين بعيدا عن أى تعصب أو إرهاب، وبعيدا عن أى امتهان جسدى أو نفسى . .

* * *

كان ذلك فى الواقع أغلى ثمن يمكن أن يحصل عليه كاتب . . علما بأن كل ماحصلت عليه من حقوق التأليف لم يتجاوز ٤٠٠ جنيه . . وعلما بأننى كان قد سبق لى أن أصدرت قبل هذا الكتاب ستة كتب أخرى من دراسات سياسية واجتماعية وأدبية بما فى ذلك مجموعة قصصية قصيرة، وقد حظى بعضها وخاصة الدراسات المتعلقة بالقرية المصرية باهتمام واسع . .

ولكن أحدا منها لم يكن له هذا الدوى الواسع، ولم يتبوأ مثل هذه المكانة المتفردة . .

ولقد دفعنى ذلك لأن أتوقف كثيرا عند التعليقات والنقد الذى نشر عن الكتاب . .

البعض اعتبره نموذجا جيدا للرواية الواقعية . . والبعض نظر إليه على أنه وثيقة تاريخية هامة، تسجل وقائع وأحداث مرحلة خطيرة فى تاريخ مصر والعالم العربى . .

والبعض الآخر ناقشه على أنه «سيرة ذاتية» تضمنت تجربة متميزة . .

أشاد البعض بالأسلوب، وأبرز البعض الآخر المنهج الموضوعى فى سرد الأحداث وتناولها . .

على أننى حين سئلت قلت، ومازلت أجد هذا القول مقنعا . . إن القضية ليست فى الأسلوب . .

وليست فى القدرة على التناول وعرض الأحداث . .

ولكنها قبل كل شىء تكمن فى خطورة التجربة نفسها .

وإذا كان يقال إن الأسلوب هو الرجل، فإن الكاتب هو التجربة. . وكلما كانت هذه التجربة «عامة وحقيقية» أى تتميز بصدقها وبالتجربة الإنسانية فى مجملها، كلما وجدت طريقها بسهولة إلى قلوب وعقول أوسع قطاعات ممكنة من القراء. .

فلقد كتبت ما كتبت وأنا على اقتناع تام بأننى لست بصدد عرض لمعاناة فرد أو مجموعة أفراد. .

ولم أستهدف الدفاع عن فكرة معينة أو مجموعة من الأفكار، بل كنت متمثلا لقضية أوسع وأعرض بكثير، قضية لاتتعلق بسرد أحداث التجربة فى الماضى، بل تضع عينها فى الأساس على الحاضر والمستقبل، قضية تطمح فى سد الطريق أمام أى شكل من أشكال القهر البدنى أو النفسى لأى مصرى أو مصرية لأنه أو لأنها تحمل آراء قد تتفق أو تختلف مع الآخرين.

والفكرة النابعة من احتياج إنسانى حقيقى، لا تتوه أو تضيع بمرور الأيام، بالعكس تتعتق وتتأصل، ولعل هذا هو الحد الفاصل بين أى إبداع فكرى أو فنى حقيقى، وبين الكثير من اللغو المكتوب الذى تكنسه رياح الزمن وتلقى به إلى صحارى العدم. .

وبعد عشر سنين من صدور الطبعة الأولى للكتاب، وعشرين سنة من أحداث التجربة نفسها، أجد نفسى أقف على نفس الشاطئ الممتد، وأرى كل أبناء وبنات مصر يطمعون مثلما أطمع فى إصدار قرار جماعى حضارى مصرى، متمثلا التاريخ والتراث، ومنطلقا لآفاق المستقبل، وبأن تكون مصر لكل المصريين قولا وعملا. .

* * *

حين يلقى الإنسان بنظرة عريضة على الواقع العربى اليوم، والواقع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى، فلن يختلف أحد فى أن هناك واقعا جديدا مختلفا. .

واقع تتبدل فيه القيم والمفاهيم، وتدخل عوامل جوهرية فى تغيير البيئتين الفوقية والتحتية للمجتمعات، ابتداء من المفاهيم والأسس الاقتصادية إلى المتصورات الثقافية والفكرية. .

تغييرات خلقت ثروات هائلة على السطح، وفقرا مدقعا فى الأعماق. . فمنذ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وحين عبر الأبطال المصريون قناة السويس وخط بارليف، وحتى الآن ارتفع سعر البترول لأكثر من عشرة أضعاف، وتدفقت عائداته الهائلة إلى شركات البترول فى المحل الأول ثم إلى الدول المنتجة حتى ارتفع التراكم الرأسمالى فى بعض الدول العربية إلى آفاق غير مسبوقة فى التاريخ.

وبغض النظر عن التحفظ إزاء التعبير الخاص بالتراكم الرأسمالى إذ إن البعض لايرى فى أرصدة الدول البترولية سوى مجرد فائض مالى أو نقدى، إلا أن هذه الثروة الهائلة من «البترودولار» كان ولابد وان تعكس نفسها فى المنطقة بأكملها وليس فقط فى الدول البترولية . .

وأخطر ما فى هذه «الثروة الطارئة» أنها جاءت فى غالبيتها بعيدة تماما أو تكاد عن وسائل وعلاقات وقوى الإنتاج التى كانت ومازالت فى جوهرها سائدة فى هذه المجتمعات . .

ونجد أنفسنا أمام تناقض غريب . .

رأس مال مالى متراكم يحسب بآلاف المليارات من الدولارات وعلاقات إنتاجية واجتماعية متخلفة، تنتمى غالبيتها إلى المجتمعات القبلية والعائلية والعرقية وجميع الأشكال السابقة حتى على مرحلة التطور الرأسمالى . .

هذا التناقض الغريب أفرز لنا أشكالا وأنماطا حياتية غريبة وغير متسقة، ولكنها كلها تعنى فى النهاية انتصار قيم «الثروة» على قيم «الثورة» . .

وفقدت كثيرا من التعبيرات والمسميات معانيها الحقيقية . . فمن يدعون إلى السلفية والتراث اليوم لايستطيع الإنسان أن يحدد تماما ماذا يستهدفون لأنهم هم أنفسهم غارقون حتى النخاع فى مظاهر الثروة ومباهجها . .

وعلى الطرف الآخر نجد البعض ممن ينادون بالثورة لايدركون تماما ماذا تستهدف أو ماذا تعنى، بل أحيانا ما تكتشف إنهم هم الآخرون وجه آخر لعملة «البترودولار» . .

خلط غريب وجديد فى كثير من الأوراق والمسلمات السابقة . . وعلينا أن نعترف «بأن ذلك الواقع الطارئ» سيستمر ولفترة يفرز لنا كما وأشكالا جديدة من الأفكار والتناقضات، ولكنه بالتأكيد وضع طارئ لايمكن أن يستمر للأبد . .

فى هذه الفترة بالذات، يحتاج الإنسان العربى إلى التمسك بالقيمة الأساسية التى لم تندثر بعد، الخشبة التى يمكن فيما بعد أن نجعل منها سفينة النجاة وسط عواصف وأعاصير البترودولار، وهى احترام حقوق الإنسان العربى، حقه فى أن يعبر عن رأيه بالقول والكلمة بعيدا عن أى مخاوف لظلم أو اضطهاد. إنها القضية الملحة التى يجب أن نكسبها وأن نفرضها فى عالمنا العربى .

ففى مرحلة الترانزيت التى نعيشها تصبح حرية الرأى واحترام إنسانية الإنسان هما الجوهر والمنفذ الوحيد الذى يمكن به للإنسان العربى أن يعيد اكتشاف ذاته ومجتمعه . .

ومن هنا تصبح التجربة التى أقدمها جهدا على الطريق الشاق الذى يحاول أن يخرج بالإنسان العربى إلى آفاق التنوير الإنسانى حتى لانغرق فى الهوة السحيقة التى تعد لنا . .

ودعنا نأمل . .

القاهرة - سبتمبر سنة ١٩٨٥

فتحى عبدالفتاح

[١]

حولك أشباح الأكاذيب وأنت تقيمين لها سوق
الأوهام تعالى بعيدا عن هنا . ياطفلتى..
(طاغور - مسرحية الناسك)

أول يناير سنة ١٩٥٩ :

وصلت إلى الجريدة فى الساعة السادسة صباحا ، دعك عامل المصعد الصغير عينيه وكتم مشروع تثاؤب ، فلم يكن قد حضر بعد سوى عدد قليل من عمال النظافة ، وحتى «عم محرم» ساعى مكتب القسم الخارجى لم يكن قد حضر . .

لم أكن أعرف بالضبط ما الذى دفعنى للحضور للجريدة فى هذا الوقت المبكر . حقيقة إن العاملين فى القسم الخارجى كانوا مطالبين بالحضور المبكر ، ولكن ليس إلى هذه الدرجة فلقد كان هناك أكثر من ساعة كاملة على أن أقضيها وحدى قبل حضور أحد من الزملاء والزميلات ، فما بالك واليوم هو أول السنة الجديدة بما حفلت به الليلة السابقة من حفلات وسهر حتى الصباح .

كذلك فإن وجود بيتى قريبا من الجريدة كان يتيح لى فرصة التحكم فى الوصول إلى موعد العمل دون حاجة إلى أتوبيس أو تاكسى أو حتى عربة الجريدة . فما كان على إلا أن أقطع بعض الحوارى فى بولاق لأصل إلى شارع الصحافة حيث مبنى الجريدة . . وطوال العامين الماضيين أى منذ التحقت بالعمل فى «المساء» وأنا أستيقظ فى حوالى السابعة وفى السابعة والربع أجلس على مكتبى . . . ميزة كنت أتمتع بها ويحسدنى عليها الزملاء ، وخاصة الزميلات اللاتى يقيم بعضهن فى مصر الجديدة ويضطررن إلى أن يبكرن بساعة على الأقل قبل الموعد تحسبا للمواصلات . .

وجاء «عم محرم» وقرأت دهشة فى عينيه الغائرتين كعينى الفأر ، وقبل أن ينطق بكلمة كنت قد طلبت القهوة والشغل . . ولابد أن الرجل قد استشعر أن الأمر خطير ،

فأخذ يهرول بسرعة الخيل إلى غرفة «التيكرز» ويجمعها بدون ترتيب ليضعها أمامى ومعها جرائد الصباح، والحقيقة أنه لم يكن لدى أى حماس للعمل، وكنت قد قرأت جرائد الصباح فى بوفيه «المحطة» ولذلك أزحت أكوام التيكرز وعدت إلى حالتى التى كنت عليها طوال الليل، استكمال لما كان يشغلنى طوال ليلة أمس والتى لم أنم فيها ربما ليس عن قلق فقط بل عن رغبة ايضا . .

والحقيقة أننى حتى لو كنت أريد النوم فلم أكن لأستطيع فلقد كنت أعيش أياما غاية فى الصعوبة والتعقيد، ولقد جربت من قبل وطوال حياتى الجامعية أياما سوداء ولكنها لم ترق أبدا إلى مستوى هذه الأيام، ففى السنوات الخمس الماضية فقدت «الأم»، وكنت فى أول عام فى الجامعة، وبعد ذلك ومنذ عامين فقط، فقدت أخى الأكبر «أنيس»، وقد كان صديقا ورفيقا فوق كونه أخى، عشنا سويا فى القاهرة، هو فى الحقوق، وأنا فى الآداب، تجمعنا غرفة، وأحيانا شقة، ثم مات فجأة بعد مرض قصير . .

وفى هذا العام كنت قد فقدت أيضا ماتصورته فى ذلك الوقت أكبر تجربة عاطفية مرت بى . . زميلة تعلقت بها وتعلقت بى، تزاملنا فى الكلية ثم عملنا فى الصحافة بعد التخرج . . ثم اكتشفت بعد ذلك أننى عشت واهما أو متوهما . . وإن وظيفة محرر فى جريدة مسائية ومرتبا لايزيد على العشرين جنيها لايمكن أن يكونا إغراء كافيا لزميلتى، وخاصة إذا دخل المنافسة بعض الكهول من العاملين فى الصحافة ممن لهم أسماء لامعة ومرتبات دسمة .

وفى كل هذه المناسبات كان الألم يعتصرنى فألجأ إلى الهروب والنسيان . . حين ماتت أمى لم أدخل الدور الأول فى الامتحان، فلقد كان من الصعب على أن أجلس إلى مكتب أو كتاب . . ونجحت فى الدور الثانى وانكسرت حدة الأزمة، وحين مات أخى كنت قد حصلت على الليسانس وعملت فى الجريدة أغرقت نفسى فى العمل ووجدت فيه بعض السلوى .

وحين صدمت فى حبى، أخذت إجازة من الجريدة وذهبت إلى الإسكندرية لمدة أسبوعين، وحينما عدت إلى الجريدة اكتشفت أن البحر استطاع أن يغسل آلامى وحبى، وكنت أول من هنأ زميلتى بخاطبها الجديد .

ولكن هذه المرة كانت المسائل أعنف وأقوى وأعمق . فلم تكن أزمتى وحدى، أو أزمة الجريدة التى أعمل بها، بل كانت أزمة تعيشها البلد كلها .

كان ذلك فى أول ساعات عام ١٩٥٩، وكانت الأمور تمضى فى وتيرة سريعة

وغريبة وغير مفهومة، وكأنما تدفعها قوى خفية لايعرف أحد مصدرها . . وكانت التطورات اليومية تمضى فى خط معاكس تماما لكل المقدمات التى توحى بها السنوات الماضية (الثلاث).

فمنذ أقل من عدة شهور كنت أتصور ومعى الكثيرون أن حركة التحرر العربى بقيادة الثورة المصرية، وجمال عبدالناصر على وجه التحديد، قد كسبت المعركة نهائيا ضد قوى الاستعمار والتخلف في المنطقة، وكانت جريدتنا تعكس ذلك فى ثقة ووضوح . ولقد ولدت جريدة المساء فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وعاصرت أمجاد وانتصارات الشعب المصرى فى مواجهة العدوان الثلاثى بعد شهر من الصدور. ومنذ ذلك التاريخ والثورة المصرية تحقق المزيد من الانتصارات، وبرز جمال عبدالناصر كقائد وطنى شجاع وكنموذج للقيادات الوطنية المخلصة، ليس على النطاقين المصرى والعربى فقط، بل وعلى النطاق العالمى . . فبعد الانتصار على العدوان الثلاثى على مصر والذى اشتركت فيه إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، ثم قوانين التمصير التى ضربت المصالح والشركات الأجنبية التى كانت تنهب الاقتصاد المصرى، ثم الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٥٨ ، وإعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة، ثم سقوط النظام الملكى الاستعمارى فى العراق فى يوليو سنة ١٩٥٨ ، وانهيار حلف بغداد.

كل تلك المكتسبات الرائعة فى خلال فترة زمنية قصيرة كانت توحى بأن أحلام الشعب المصرى، بل والشعوب العربية كلها فى التحرر من الاستعمار والاستغلال والصهيونية قد أصبحت وشيكة.

ولهذا كله فلقد كان مايحدث فى الشهور الأخيرة لعام ١٩٥٨ ، أى بعد أقل من ستة أشهر أمرا لم يكن لأحد أن يتنبأ به، حتى أكثر الناس تشاؤما من قوى الثورة العربية . . ولم يكن لأحد أن يحلم به حتى أكثر الناس إخلاصا للمصالح الاستعمارية والرجعية . كانت الصورة قد تبدلت تماما أو هكذا كانت تبدو على السطح . . الحكم الوطنى فى العراق، والذى جاء متمثلا بكل شعارات ثورة يوليو يدخل بعد أقل من شهرين من قيام الثورة فى تناقض مع القيادة الوطنية فى الجمهورية العربية المتحدة وبدأ تبادل الاتهامات والتراشق بالألفاظ خفيفا ومستترا فى البداية، ثم ينفجر فى معركة عنيفة ، سوداء، فتهاجم القيادة العراقية الجمهورية العربية المتحدة بشراسة وعنف كما لو كانت هى نفسها الولايات المتحدة الأمريكية. وترد الجمهورية العربية المتحدة لتهاجم العراق كما لو كانت هى نفسها بريطانيا العظمى.

وتفشل كل المحاولات التى بذلتها القوى الوطنية العربية لرأب الصداع، بل

وتدخل هذه القوى فى صراع مدمر بينها وبين نفسها . . ليس ضد إسرائيل، أو ضد القواعد والمصالح الاستعمارية فى المنطقة .

وأصبحت القضية هى معركة بين الناصريين والبعثيين والماركسيين، ووقفت القوى الرجعية والعميلة فى المنطقة وقد تنفست الصعداء بعد أن وجهت لها ضربات قاسية طوال السنوات الثلاث الماضية، بل وتبدأ هذه القوى فى إلقاء المزيد من الزيت على الصراعات العنيفة التى بدأت تدور بين هذه القوى والتى كانت حتى الأمس القريب تجمعها وحدة فى الشعارات والعمل .

وأصبحت كلمة ناصرى أو بعثى أو ماركسى مرتبطة بكثير من النعوت والصفات الغريبة داخل كل بلد عربى، فالبعض فى العراق يرى فى «الناصرى» ناصرا للاستعمار، والبعثى نموذجا للانتهازية والعمالة والبعض فى مصر يرى فى الماركسى خائنا وعميلا، والصحف فى العراق لاهم لها إلا الهجوم على عبدالناصر والنظام فى الجمهورية العربية المتحدة . . كنظام توسعى دكتاتورى يسعى إلى اغتنام الخيرات العربية والتنسيق مع الاستعمار والولايات المتحدة الأمريكية والصحف فى مصر وسوريا لاترى فى عبدالكريم قاسم والنظام العراقى سوى نظام شيوعى عميل للشيوعيين ومعاد للقومية العربية ويعمل بوحى من الاستعمار البريطانى .

كيف حدث هذا؟؟ . . وفى خلال شهور فقط من الثورة العراقية التى كانت فى حد ذاتها تعبيرا عن انتصار عبدالناصر ومبادئه فى مطاردة الاستعمار فى المنطقة؟؟ .

هذا ماكان يحير الكثير من المواطنين . وكنت واحدا منهم والذين لايرون مبررا موضوعيا واحدا لكل تلك المعارك القاسية، بين القوى صاحبة المصلحة الحقيقة فى معاداة الاستعمار وتحقيق الأمانى والطموحات المشروعة للقومية العربية والشعوب العربية .

كانت هذه هى الصورة العامة للأزمة . . ولكن الأزمة بالنسبة لجريدتنا كانت تعنى شيئا أكثر تحديدا . . فلقد كانت «المساء» بعد «الجمهورية» هما الجريدتان اللتان أنشئتا فى عهد الثورة . . وحينما استدعى جمال عبدالناصر زميله وصديقه خالد محيى الدين سنة ١٩٥٦ وطلب منه إنشاء جريدة جديدة، طلب منه أن تكون جريدة وطنية تقدمية تعبر عن طبيعة المرحلة التى يمر بها النضال المصرى والنضال العربى . . واستعان خالد محيى الدين بعدد من الكتاب والصحفيين اليساريين والماركسيين، وخرجت المساء فى أكتوبر سنة ١٩٥٦، لتعبر عن الخط الوطنى الديمقراطى المعادى للاستعمار العالمى، ولتثير الكثير من القضايا الداخلية والخارجية التى لم تكن تحوز

فى الصحف الموجودة فى ذلك الوقت سوى مساحات قليلة . . ولقد كانت الصحف الموجودة حتى ذلك الوقت فيما عدا جريدة الجمهورية صحفا قديمة لها تراثها وتفكيرها الخاص قبل سنة ١٩٥٢ .

كانت هناك الأخبار التى يصدرها الأخوان أمين بمدرستهما المعروفة فى الإثارة والتسطيح وتجاهل القضايا الاجتماعية .

وكانت هناك الأهرام التى مازال يحكمها خط أبناء تكلا منذ تأسيسها فى أواخر القرن التاسع عشر وهو خط فاتر بعيد عن الانغماس فى المشاكل الواقعية للمجتمع المصرى . . وكانت هناك جريدة القاهرة المسائية التى تمولها المملكة السعودية ، أما الجمهورية وهى الجريدة التى أنشأها عبدالناصر ، وكان صاحب امتيازها ورأس تحريرها أنور السادات فبالرغم من خطها الوطنى الذى برز من اللحظة الأولى إلا أن صفة الرسمية التى اصطبغت بها من البداية كانت تتيح الفرصة للصحف الأخرى للنيل منها .

وهكذا كان صدور جريدة المساء هو فى الواقع تقديما لمدرسة جديدة فى الصحافة المصرية . . أفردت الصحيفة ومن العدد الأول صفحاتها الواسعة للهجوم على الاستعمار والمصالح الاستعمارية ، ليس فى مصر وحدها والبلاد العربية ، بل وفى العالم كله . وكانت هناك أبواب مثل : من كفاح الشعوب وأضواء على الاستعمار العالمى وقضايا ومشاكل داخلية . وغيرها من الأبحاث والدراسات الجادة التى تقدمها الصحيفة بالنسبة للمشاكل الداخلية والخارجية .

ولذا أشفق كثيرون على هذا اللون من الصحافة الجادة والمقاتلة فى مواجهة أكبر مدرسة كانت تتصدر العمل الصحفى فى ذلك الوقت وهى مدرسة أخبار اليوم ، والتى كانت تعتمد على الموضوعات الخفيفة والمثيرة ، ويومها زار مصطفى أمين خالد محيى الدين فى مكتبه فى المساء وكانت المساقة بين مبنى أخبار اليوم ومبنى المساء لاتتجاوز مائة متر وقال مصطفى أمين ضاحكا لخالد «لو وزعت الجريدة الجديدة عشرة آلاف فإنها تكون قد نجحت . أما خمسة عشر ألفا فستكون قد تفوقت» .

كانت تلك تقديرات مصطفى أمين يوافقه عدد كبير من العاملين فى الحقل الصحفى بمن فيهم العاطفون على الجريدة الجديدة وصدرت الجريدة ، وواكتب صدورها العدوان الثلاثى على مصر وبلغ توزيعها فى تلك الفترة فوق المائة ألف ، وكانت تطبع أحيانا أكثر من طبعة ، بل وتصل الى ثلاث طبعات .

ووصل متوسط التوزيع فى الأيام العادية حوالى ٦٠ ألف نسخة ، وهو رقم كان يفوق كثيرا من الصحف الصباحية فى ذلك الوقت .

ولقد كان من الطبيعي أن تجتذب الصحيفة عناصر كثيرة من المثقفين ذوى الاتجاهات الوطنية واليسارية، فبالإضافة إلى عدد من الشبان الذين عملوا فى مختلف أقسام الصحيفة وبالذات فى القسم الخارجي والذى عملت فيه، كان هناك أيضا عدد من الكتاب والمفكرين اليساريين الذين يعملون فى الصحيفة أو يساهمون فى تحريرها. فهناك عبدالعظيم أنيس، ولطفى الخولى، وعلى الشلقانى، وسعد التاته وأديب ديمترى، وإسماعيل صبرى، وعلى الراعى، وشهدى عطية وعادل ثابت، وعبدالعزيز فهمى، ومحمود العالم، وأنور عبدالملك، والدكتور حسين كمال الدين، ودكتور عبدالرازق حسن.

أما الشبان والذين كنت واحدا منهم، فلقد اتجهنا إلى العمل فى (المساء) عن إيمان بأنها المنبر الوطنى الديمقراطى الذى نستطيع أن نعبر فيه عن مفاهيمنا وأحلامنا فى بناء مصر الوطنية الديمقراطية.

وكان غالبنا حديثى التخرج، وبعضنا عمل بعض الوقت فى صحف أخرى قبل صدور المساء، ولكن الخط الفكرى الذى خرجت به وعبرت عنه المساء كان قوة جذب لنا.

بل إننى وقد عملت بعض الوقت فى صحيفة الجمهورية من خلال علاقة قرابة للأستاذ أحمد قاسم جودة رئيس تحرير الجمهورية فى ذلك الوقت، ثم انتقلت للعمل بعد التخرج فى القسم الخارجى لجريدة الأخبار مع الأستاذ مصطفى غنيم- وجدت نفسى مدفوعا أو مندفعا للعمل فى المساء رغم أن الأجر أو بمعنى أدق المكافأة التى اقترحت لى فى المساء كانت أقل بكثير مما كان يعرض فى الأخبار.

وسبقنى ولحقنى عدد آخر من الشبان، جميل عبدالشفيع، طاهر عبدالحكيم، فيليب جلاب، بهيج نصار، عايدة ثابت، ليلى الجبالى، إبراهيم وهبى، عدلى برسوم، إسماعيل المهداوى، عبدالفتاح الجمل، فاروق منيب، جيلى عبدالرحمن، أمير إسكندر، بدوى محمود، عبدالسلام مبارك، سعيد عثمان، أميمة أبوالنصر، عايدة صالح، صبحى الشارونى، مصطفى الحسينى، فوزى سليمان وعبدالمجيد أبوزيد، أمير العطار، الخطيب عباس، شفيق خالد.

وهكذا كانت هيئة تحرير المساء سواء كانت لامعة أو نصف لامعة أو من الدم الجديد الشاب يمكن كلها أن تندرج تحت توصيف سياسى هو أنها عناصر وطنية ديمقراطية.

كان هناك الماركسيون والاشتراكيون الديمقراطيون والليبراليون، بعضهم ممن له تاريخ طويل فى العداء للملكية والإقطاع والنظام القديم الذى إنهار منذ أربع سنوات،

وبعضهم دخل السجون والمعتقلات قبل ثورة سنة ١٩٥٢ ، وحتى بعدها فى بعض الفترات التى لم يكن مسار الثورة الوطنى الديمقراطى قد تحدد بوضوح وبالذات سنة ١٩٥٤ ، حينما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تكثف جهودها من أجل احتواء الثورة وقيادتها .

ولكنهم كلهم ومنذ سنة ١٩٥٦ ، كانوا يساندون الثورة فى خطوطها العامة خاصة وقد اتضحت هويتها الوطنية ومنطلقاتها الثورية فى العداء للاستعمار العالمى والمعارك السياسية والعسكرية معه ابتداء من رفض وتحطيم حلف بغداد إلى تأميم القناة ومواجهة قوى العدوان الثلاثى ثم كشف وفضح الأهداف الاستعمارية والأمريكية منها على وجه خاص فى المنطقة وإلحاق الفشل بمشروع أيزنهاور ونظرية الفراغ التى تكشفت عنها مخططات جون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية .

وبالإضافة إلى الحماس الشديد الذى عكسته صحيفة المساء للسياسة المعادية للإمبريالية التى أعلنتها وتابعتها القيادة الوطنية فى مصر فى ذلك الوقت ، دأبت الصحيفة أيضا على إثارة ومناقشة عدد من القضايا الحيوية والمهمة التى ترتبط بخط التطور الاجتماعى والاقتصادى .

وخصص لأول مرة فى الصحف المصرية صفحة فكرية هى الصفحة الخامسة ، كانت تتناول وتعالج الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية بمنهج جديد يضع فى اعتباره مصلحة الغالبية العظمى من السكان ، وخاصة العمال والفلاحين .

وأثيرت قضايا مثل تطبيقات قوانين الإصلاح الزراعى والسياسة التعليمية والثقافية والأسعار والأجور والتنظيمات النقابية والتخطيط الاقتصادى ، وهكذا وبكل المعايير الموضوعية كانت صحيفة المساء أكثر الصحف تعبيرا عن أفكار وبرامج الثورة الوطنية الديمقراطية وكانت فى الواقع تجسيدا لجبهة وطنية عريضة تضم جميع المدارس الفكرية الوطنية والاشتراكية .

ولهذا كان من الطبيعى أن تكون المساء بخطها وهيئة تحريرها أكثر الصحف تحفظا وإحساسا بالمسئولية إزاء الانقسام المفاجئ الذى طرأ على الجبهة الوطنية العربية فى لحظة كان يعتبرها الجميع قمة انتصار هذه الجبهة وقيادتها .

والتزمت المساء منذ بداية الأزمة بين القيادتين المصرية والعراقية فى ذلك الوقت بموقف مبدئى وواع بالمسئولية إزاء ضرورة وحدة الصف بين جميع القوى الوطنية ، ولذلك نأت عن الدخول فى معارك الشتائم والشتائم المضادة ، بل وأخذت تحذر من مغبة انقسام القوى الوطنية العربية فى تلك الفترة العصيبة .

وفى الوقت الذى كانت صحف ومجلات أخبار اليوم تزيد النار اشتعالا وتدخل من أوسع الأبواب فى كل سطورها معارك المهاترات بإنتشاء وحرفنة ليس حرصا على هذا أو ذاك بل عملا على توسيع هذه الخلافات بين القوى الوطنية العربية تمهيدا واستعدادا للقضاء على كل القوى المتناحرة، سواء كانوا ناصريين أو بعثيين أو ماركسيين أو قوميين عربا.

ودخل الساحة قوى غريبة ومريبة: الأفاقون ومحترفو الانقلابات والعملاء السافرون للاستعمار فى المنطقة، وكاد يتوه العقل والمنطق، بل لقد تاه بالفعل وسط طوفان من الشتائم والاتهامات المتبادلة.

ووسط هذا الجو المشحون بالانفعالات والتشنجات، كانت المساء هى الجريدة الوحيدة، وربما فى العواصم الثلاث: القاهرة ودمشق وبغداد، هى التى تكافح بالعقل والمنطق.

وأخذت تؤكد فى مقالاتها وافتتاحياتها، عن ضرورة الوحدة الوطنية وتحذر من المنزلقات التى يرميها الاستعمار والرجعية فى الطريق وتؤكد أن مايجمع القوى الوطنية المختلفة سواء كانت ناصرية أو بعثية أو ماركسية أو قومية، أكثر بكثير مما يفرقها، بل وأخذت بموضوعية شديدة تناقش بعض القضايا الخلافية بين القوى والتنظيمات الوطنية المختلفة مثل قضية الوحدة والديمقراطية والقومية.

وكانت تأتى أيام تبدو فيها الأمور كما لو أن العقل قد انتصر فتخف حدة الشتائم والاتهامات المضادة، وفجأة يصدر تصريح من بغداد أو من القاهرة ربما على لسان واحد من صغار المسئولين فيتكهرب الجو مرة أخرى وتنطلق شحنات حاقدة ومدمرة وغريبة.. وستظل أسماء مثل: فاضل المهداوى فى بغداد، وموجهى صحف أخبار اليوم، ومدير إذاعة صوت العرب، وكثيرون غيرهم تثير دائما علامات استفهام كثيرة حول دوافعها وأهدافها الحقيقية فى إشعال نار الخلافات بين القاهرة وبغداد فى تلك الفترة فى وقت كانت القيادتان فى البلدين تنتميان بالقطع لجذر وطنى واحد، بل وتنطلقان من أساس واحد تقريبا.

فلقد كان سخيفا ما ردده البعض فى بغداد من أن فى القاهرة نظاما توسعيا يسعى لضم الدول العربية أو نظاما يقوم بدور الشريك للإمبريالية الأمريكية فى أهدافها.

كما كان يساويه فى السخف ما ردده البعض فى القاهرة أن فى بغداد نظاما شيوعيا أو عميلا للشيوعية أو شريكا للاستعمار البريطانى وأهدافه فى المنطقة، وكان هذا حكم المنطق والأسس الموضوعية، وهذا ما أكدته السنوات القليلة اللاحقة..

ومنطقية لكنها بحق فترة غير منطقية فى تاريخ المنطقة أو هكذا كانت تبدو لبعض العقلاء.

***

كان الزملاء قد بدءوا يفدون.. مجموعة الدقى والجيزة والأطراف المجاورة أولا.. سعيد عثمان والخطيب عباس وعبدالعزيز فهمى وطاهر عبدالحكيم.. وكانت هناك أخبار غير عادية، وخاصة على وجه طاهر الذى تشير ملامحه بالحزن والغموض.

وقبل أن أجد الفرصة لأتأكد كانت مجموعة مصر الجديدة والعباسية والحدائق قد وصلت، وقالت عايدة ثابت وهى تضع حقيبتها وترمى بجسدها على المقعد فى انهداد واضح:

ـ لقد قبضوا على عبدالعظيم الليلة فى الفجر.

هكذا مع أول شعاع للعام الجديد الذى لم يكن قد انقضى على ميلاده بضع ساعات.. واستبد الصمت بالمجموعة ليسوا لأنهم فوجئوا، فلقد كانت المظاهر والأحداث فى الأسابيع الماضية تسير فى اتجاه يمكن أن يصل إلى هذا الحد.

ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن تجرى الأحداث بمثل هذه السرعة، بل إن الدكتور عبدالعظيم نفسه كان قد قال لى صباح اليوم السابق:

إننى أتوقع أن يسود العقل فى النهاية فليس هناك مصلحة لأحد فى استمرار هذا الشقاق بين القوى الوطنية.

كان عبدالعظيم متفائلا مثل كثيرين من قيادة الحركة الشيوعية المصرية فى تلك الفترة، بل كانت البيانات التى كان التنظيم الشيوعى يصدرها سواء «مجموعة الأغلبية» بقيادة أبوسيف يوسف وإسماعيل صبرى عبدالله، وفؤاد مرسى، أو «مجموعة الأقلية»[1] بقيادة كمال عبدالحليم وشهدى عطية الشافعى تلتقى كلها حول ضرورة محاصرة الخلاف القائم بين القوى الوطنية وتعلن ثقتها فى أن عبدالناصر والقيادة الوطنية فى مصر ستدركان خطورة اتساع هوة هذا الخلاف الذى لن يستفيد منه سوى قوى الاستعمار والرجعية فى المنطقة.

(١) أحب أن أنوه هنا إلى أننى أستخدم تعبير الأقلية بالمعنى الكمى فقط فلست أحب ولم يعد من المصلحة الدخول فى تفصيلات حول هذا الموضوع والتهم التى تبادلها الفريقان لفترة. فلقد كانت اقتناعاتى ومازالت أن الخلافات من الفريقين لم يكن لها جذور موضوعية. ولقد أثبتت الأحداث صدق ذلك.

والتف عدد من الزملاء والزميلات حول عايدة يستفسرون ويهدئون فى نفس الوقت من حالة الانهيار الكامل الذى بدا على ملامح وجهها الشاحب، والتى فقدت زوجها أكثر من العمل، وهى التى لم يكن قد مضى على زواجها أكثر من شهور.

ووجدت طاهر عبدالحكيم بوجهه الحزين الغامض يدفع بيده ورقة طواها جيدا وتناولت الورقة «لقد اعتقل فجر اليوم عدد كبير من الزملاء.. بهيج نصار وجميل عبدالشفيع وكل القيادات المركزية فى الحركة الشيوعية وعدد من العناصر الديمقراطية».

وطويت الورقة فى صمت وبدأت فى ترجمة الأخبار.

[٢]

فلنتركها أولا تنفث لهيبها وتبتلع العالم حتى
يمتلئ فمها بالرماد ثم أخيرا، ومن خلال بقايا
الحريق تأتى الفضيلة.

(كازنتزاكس - الإخوة الأعداء)

١٣ مارس ١٩٥٩

تجمعنا فى مكتب مصطفى بهجت بدوى أو مصطفى بك كما نسميه . والواقع أن هذا الضابط والشاعر الشاب الذى كان يعمل مديرا للإدارة حاز وبشكل سريع ثقتنا .

وقد كان كل ما أعرفه حين بدأت العمل فى جريدة المساء أنه واحد من الضباط الشبان الذين شاركوا فى حرب فلسطين وتحمسوا لثورة يوليو كما كان يقرض الشعر وينشر بين الحين والآخر بعض قصائده ، وخاصة فى مجلة الاشتراكى للأستاذ أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى «مصر الفتاة سابقا» .

وكانت الفكرة الشائعة أنه من أهل الثقة ، وأن عبدالناصر قد اختاره مديرا للإدارة فى جريدة المساء ليكون فى الصورة مع خالد محيى الدين ، ولكن هذه الصورة اختفت بعض الشىء بعد أن عملت معه لمدة عامين ، لقد عرفت فيه أولا وقبل كل شىء الوطنى المتحمس الذى قد تختلف معه فى كثير أو قليل ولكنك لايمكن أن تشك فى حماسه الوطنى ، كما كان يتسم بأدب شديد وأخلاقيات «نظيفة» فى معاملته .

ولذلك وحينما أخذ «عم محرم» يمر علينا واحدا واحدا ويهمس فى أذننا بأن «مصطفى بك» يريدنا ، كنا ندرك أو على الأقل نحس بما هو قادم . فبالأمس صدر قرار بتعيين الأستاذ مصطفى المستكاوى رئيسا لتحرير المساء بدلا من خالد محيى الدين .

ووقف الرجل الطيب على مكتبه وعلى وجهه آلام حقيقية ، وفى عينيه حزن غير مصطنع ، وقال وهو يجاهد أن يكون طبيعيا :

- «آسف إذا كنت أحمل أخبارا غير طيبة، ولكنى على يقين من أنكم تقدرون الظروف، ولعلكم مثلى تؤمنون بأنها ظروف طارئة سرعان ماتنجلى على خير».

وتوقف الرجل ثم فتح درج مكتبه وتناول عددا من الخطابات وأخذ يمر علينا ويسلم لكل منا خطابه وهو يقول:

- «لقد تعمدت أن أكون أنا وليس غيرى الذى يسلمكم تلك الخطابات».

وقبل أن ننصرف قال مصطفى بك فى كلمات حماس «أحب أن أنقل لكم أن المسئولين أكدوا لى أن هذا هو أقصى إجراء سيتخذ معكم.. وليس هناك اعتقال..!!»

كان الرجل صادقا حقا فى نقل ماقالوه له، ولكن ذلك لم يمنع بعضنا من أن يدرك السخرية الكامنة فى هذا الكلام.

وخرجنا، ١٣ محررا ومحررة نحمل خطابات ممهورة باسمى مدير الإدارة ورئيس التحرير، تقول:

«بعد أن تقرر إعادة تنظيم جريدة المساء على أسس جديدة لذلك فلقد قررنا الاستغناء عن خدماتكم ابتداء من ١٣ مارس ١٩٥٩.... الخ..»

وذهبنا شبه طابور منتظم الى القسم الخارجى، فقد كانت غالبية الدفعة المفصولة من هذا القسم، وبدأ كل يفتش عن أوراقه الخاصة فى الأدراج.

كان جوا غريبا ومثيرا.. وموحيا أيضا فلقد حسمت قضايا كثيرة طالما أقلقتنا فى تلك الشهور الثلاثة الماضية، أى منذ اعتقالات أول يناير ١٩٥٩، بل ولا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إننى أحسست بالراحة بعد أن كنت أعيش دوامة حقيقية فى الفترة الماضية.

كانت الأمور غامضة طوال تلك الفترة، والأعصاب مشدودة.. تصبح على خبر وتبيت على خبر آخر (٠) يتأكد فى يوم أن هناك من يدبر مذبحة للشيوعيين والقوى التقدمية ثم يصفو الجو فى اليوم التالى.. والآراء تتضارب وتختلف وتقع فى حيرة، خالد محيى الدين يلتقى بجمال عبدالناصر، ثم يؤكد أن الأزمة حوصرت وأن المعتقلين سيفرج عنهم ويشيع جو من التفاؤل، بل ونتلقى رسائل من زملائنا المعتقلين فى القلعة كلها تفاؤل. ولكن أخبار اليوم تشعل النار فى مانشتاتها كل يوم.

وتمتلئ صفحاتها الأولى بإثارة غريبة بين القوى الوطنية.. ولكن وبعد استرداد الأنفاس فى أعقاب حملة الاعتقالات الواسعة فى أول يناير والتى شملت حوالى

مائتين من القيادات الماركسية والديمقراطية، بدأنا نرد ونوضح ونكتب مرة أخرى فى اتجاه شجب كل المحاولات التى تبذل للوقيعة بين القوى الوطنية.

وفى ٨ يناير ١٩٥٩، كتب خالد محيى الدين بمناسبة الاحتفال بعيد الجيش العراقى.

«لاشك أن خطاب عبدالكريم قاسم يريح قلب كل عربى ويقطع على ذوى الأغراض السيئة طريقهم ويحفظ وحدة الصف العربى فى المعركة ضد الاستعمار، ويثبت لنا كذب تلك الأنباء التى كانت تروجها وكالات الأنباء الغربية وصحفهم وعملاؤهم».

وفى ٢٨ يناير كتب خالد محيى الدين أيضا حول حديث الرئيس جمال عبدالناصر فى التليفزيون البريطانى، «إن الاستعمار العالمى بريطانيا وأمريكيا، وغيره يريد أن يعكر صفو العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة، والجمهورية العراقية، وعلينا نحن الشعوب العربية ألا نسمح لهذه المحاولات أن تنجح وأن نفتح عيوننا».

وأبرزت المساء تصريحات الرئيس جمال عبدالناصر ردا على سؤال مندوب التليفزيون البريطانى حول الموقف من الشيوعيين العرب قال الرئيس: «حينما أريد أن أبدى رأيى فى نشاط الحزب الشيوعى السورى فإننى أبديه هنا فى القاهرة ولا أبديه فى إذاعة لندن، لأن الحزب الشيوعى السورى وغيره من الأحزاب الشيوعية العربية هم عرب أولا، ثم شيوعيون».

واصل خالد محيى الدين طوال تلك الفترة فى كل المقالات الافتتاحية تأكيد ضرورة وأهمية وحدة الصف العربى والبحث عن نقط الالتقاء.

وكتب عبدالعزيز فهمى فى بابه الأسبوعى «السياسة فى أسبوع» نفس المعانى، وكتب زملاء كثيرون فى هذا الاتجاه.. ليس فى المساء فقط، بل وفى الجمهورية وروز اليوسف.

وكتبت فى هذه الفترة مقالين تحت عنوان: «الوحدة العربية بمعناها التقدمى»، و«ظروف تمت فيها الوحدة»، بمناسبة العيد الأول للوحدة المصرية السورية، وقد عنيت بشرح المخاطر التى تتعرض لها حركة التحرير العربى، وخاصة إذا غلبنا التناقضات الثانوية بين القوى الوطنية على التناقض الرئيسى القائم مع الاستعمار.

وقلت فى مقال آخر إن أعدى أعداء الوحدة هم الذين يغمضون العين عن الأخطاء، بل ويصفقون لها.. إن كل حريص على الوحدة العربية لابد وأن يطالب بأن

تتوافر لها الأسس الموضوعية، لكى تبقى وتستمر، فالأمر ليس مجرد انفعالة عاطفية فقط، ولكنه يتعلق بمصير وأمانى عزيزة على كل عربى.

وطالبت بأن يكون هناك أساس ديمقراطى سليم ومؤسسات جماهيرية وسياسية حقيقية ومعبرة عن حركة الجماهير لتلعب دورا فى دعم الوحدة حتى لاتصاب وحدتنا بنكسة.

وفى فبراير كان يبدو ان العقل والمنطق قد كسبا المعركة، بان ذلك فى عدد من المظاهر الواضحة مثل التخفيف من حدة الهجمات الإذاعية والإعلامية المتبادلة بين القاهرة ودمشق من ناحية، وبغداد من ناحية أخرى، وأصدر التنظيم الشيوعى فى مصر -بجناحيه- بيانات بهذا المعنى، بل وبدأت حملة جماهيرية لجمع التوقيعات من الكتاب والعناصر الوطنية والديمقراطية تدعو إلى وحدة الصف وحشد القوى ضد المؤامرات الاستعمارية والصهيونية، وجاء خطاب الرئيس جمال عبدالناصر بمناسبة الذكرى الأولى للوحدة المصرية السورية فى ٢١ فبراير خطابا إيجابيا هادئا ليس فقط خاليا من أى هجوم على العراق، بل إنه أشاد بالعلاقات المصرية السوفيتية وبضرورة التضامن بين القوى الوطنية العربية، وحذر من المؤامرات الاستعمارية.

كذلك فلقد أكد مجلس التضامن الآسيوى الأفريقى، وكذلك مؤتمر الشباب الآسيوى الأفريقى اللذان انعقدا فى القاهرة فى فبراير على ضرورة وحدة الصف العربى ضد الاستعمار والصهيونية.

وفى العراق أيضا ألقى عبدالكريم قاسم خطابا رحب فيه باتصالات رسمية على مستوى كبير من المسئولية فى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية، كما أصدر الحزب الشيوعى العراقى بيانا بهذا المعنى وبضرورة توحيد كل القوى صاحبة المصلحة فى الوحدة والتقدم.

بل لقد شاعت أخبار فيها الكثير من الصحة عن اتصالات بين المسئولين فى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية، بعضها دار فى القاهرة وبعضها فى بغداد أو بيروت واشترك فيها بعض الشخصيات العربية لتنقية وتصفية الخلافات.

ولكن أيام فبراير الأخيرة حملت بالإضافة إلى رياحها الباردة على غير العادة أحداثا أخرى ليست باردة على أى حال، بل كانت كفيلة بأن تشعل النار فى المنطقة كلها.

ففى خطاب لخروتشوف ألقاه فى موسكو جاءت فيه فقرة يرد بها على هجوم عبدالناصر على الشيوعيين والاتحاد السوفيتى فى فترة سابقة تقول: «إنه شاب حدث،

أمامه أن يكتسب خبرة طويلة» كما أكد خروتشوف فى نفس الخطاب الدوافع الوطنية المختلفة لدى القادة الوطنيين، وعلى رأسهم الرئيس جمال عبدالناصر .

وحذر من أى شقاق بين القوى الوطنية . وإن هناك دوائر معينة تستخدم سلاح العداء للشيوعية للوقيعة بين القوى الوطنية العربية .

كان خطاب السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى ذلك الوقت وبكل المعايير الموضوعية خطابا هادئا، حاول فيه خورتشوف أن يدافع عن موقف الاتحاد السوفيتى من مساعدة مصر إبان العدوان الثلاثى ومساندة الثورات العربية، ولكنه لم يدخل فى هجوم أوشتائم بل أعاد تأكيد استمرار الاتحاد السوفيتى فى موقفه المساند للقوى الوطنية العربية وجهوده من أجل وحدة هذه القوى .

ولكن دوائر معينة تجاهلت كل ما جاء فى الخطاب وركزت فقط على الفقرة التى وصف فيها عبدالناصر بأنه شاب حدث أمامه أن يكتسب خبرة طويلة، «وبدأت صحف أخبار اليوم وصوت العرب حملة عنيفة ضد الاتحاد السوفيتى والشيوعيين وعلى رأسهم الشيوعيون العراقيون والسوريون وجارتهم فى هذا بعض الصحف الأخرى، بل وبعض الأوساط التى كانت دائما فى انتظار الفرصة، بالرغم من أن الرئيس عبدالناصر أكد فى رسالته التى بعث بها الى خروتشوف بأنه لن يسمح بنجاح المحاولات لإساءة العلاقات بين البلدين .

أما الحدث الثانى فهو انقلاب عبدالوهاب الشواف فى الموصل فى الأسبوع الأول من مارس. لقد كان هذا الحدث الذى انفجر فجأة قنبلة دمرت كل الجهود والمساعى، وبالتالى أى أحلام كانت فى مخيلتنا عن عودة وحدة الصفين العربى والداخلى .

سارعت أجهزة الإعلام والصحافة من اللحظة الأولى إلى التأييد المطلق للانقلاب، ولعب حزب البعث وقيادته فى ذلك الوقت دورا كبيرا فى ذلك .

وخرجت الأخبار والأهرام بعناوين عريضة عن ثورة الشواف ضد الحكم القاسمى الشيوعى ! ! وأخذ أحمد سعيد فى صوت العرب يثير بطريقته البدائية «هيا ياعرب . . أجهزوا عليهم، الشيوعيون الملاحدة . . طهروا التراب والتراث . . اقتلوهم حيثما وجدتموهم . . » إلخ .

كان من الواضح أن حزب البعث وجماعات القوميين العرب فى ذلك الوقت وراء هذا الانقلاب فى الموصل؛ وكان من الواضح أيضا وبعد عدة ساعات من وقوع

الانقلاب أنه فشل إذ قامت جماهير الفلاحين والعمال المسلحين بالزحف على الموصل ومحاصرة الشواف والفرقة التى كان يقودها .

وخرجت المساء بعد ذلك بعنوان يحمل الصورة الحقيقية ، وإن كان قد مثل تناقضا صارخا مع صحف الصباح وما يذيعه راديو القاهرة وراديو دمشق .

كان مانشيت المساء : «فشل انقلاب الشواف» ، كان المانشيت حقيقة ، ولكنه كان حقيقة مرة بالنسبة للآخرين .

وبدأت على الفور أشرس وأعنف حملة شهدتها مصر ضد الشيوعيين والقوى الوطنية الديمقراطية ، ونجح المخطط الاستعمارى تماما .

وبدا واضحا أن القضية الحقيقية ليست «ناصر» أو «قاسم» أو «الشواف» أو حتى حزب البعث ، بل إن الغرض الحقيقى هو أن تغرق الأرض فى بحر من الدم والهيستريا ليس مع القوى الاستعمارية والرجعية ، بل بين القوى الوطنية نفسها ، هذا ما تأكد لدى حينها ، وما أجزم به حاليا . وأرجو أن تكشف الوقائع عن ذلك (٠) إن انقلاب عبدالوهاب الشواف فى العراق دبر بأيد غير عربية ، وإنه كان يستهدف نسف المحاولات والجهود التى كانت تبذل لتهدئة الجو بين القاهرة وبغداد . . ووجدت أخبار اليوم ومعها كل تلاميذ مدرسة الإثارة الفرصة الكاملة لاستعراض كل مواهبهم فى الاختلاق والتلفيق والإثارة ، وخاصة أنه كان الطبيعى أن يصاحب القضاء على انقلاب الشواف فى الموصل بعض العنف .

وخرجت الأخبار لتقول إن الشيوعيين يدوسون المصاحف ويقتلون رجال الدين ويسحلونهم فى الشوارع ويحطمون المساجد ، وركزت أجهزة الدعاية على تلك النغمة الممجوجة وطالبت الأخبار بوضوح بأن تقام مذابح للشيوعيين ، ومن على شاكلتهم فى مصر وسوريا ، وبدءوا يدقون فى هذا الاتجاه (٠) وبمراجعة بسيطة لما كتبته الأخبار فى تلك الفترة سنجد أن مصادرها كانت لمراسلى اليونيتدبرس أو الأسوشيتدس برس الأمريكيتين .

وفى الفترة منذ فشل انقلاب الشواف حتى ١٣ مارس وهو اليوم الذى تسلمنا فيه خطابات الفصل من الصحيفة كانت موجة العداء والهستريا تتزايد يوما بعد يوم ، ويقوم أساتذة من المهيجين يتقنون جيدا جو الإثارة والوقيعة برسم سيناريو يومى عن الشيوعيين الكفرة فى بغداد والموصل وكركوك وكيف يقتلون ويسحلون ويستحلون كل ما هو محرم .

وقد كان البعض يعتبرها جرأة غير عادية منى حينما أدخل فى مناقشة لأوكد أن عبدالكريم قاسم ليس شيوعيا، وأن الشيوعيين دعاة وحدة وطنية وسلام، وليسوا دعاة قتل وإرهاب، وأن ماتنشره الأخبار وأخبار اليوم ويذيعه صوت العرب فيه كثير من المبالغة مأخوذ عن تقارير يكتبها مراسلون أمريكيون معروفون بعدائهم للشعوب العربية.

ولكن يبدو أنهم هم الآخرين فى بغداد كان لديهم نفس القوى التى تحاول إشعال النار لتأتى على كل شىء ويبدو أيضا أن الحزب الشيوعى العراقى، وخاصة بعد انقلاب الشواف فقد جزءا من اتزانه وتعقله وترك نفسه ينزلق هو الآخر فى الحملة العصبية. وقد قدم الحزب بعد ذلك نقدا ذاتيا لبعض التصرفات والاندفاعات فى تلك الفترة. وقد التقيت بزميل عراقى كان عضوا فى الحزب الشيوعى فى تلك الفترة وتحفظت على كثير من آرائه واندفاعاته وخاصة فيما يتعلق بالثقة المطلقة التى يعطيها الحزب لعبدالكريم قاسم والتى جعلته يرفع شعار «ماكو زعيم إلا كريم».

ويومها وكان معنا الزميل إسماعيل المهداوى قلت للزميل العراقى «أنا أفهم أن هناك قوى وطنية قد تكون ضيقة الأفق سواء فى مصر أو فى العراق، وأنها لاتعى تماما مصلحتها، وأفهم أيضا، أن هناك قوى استعمارية أو عميلة للاستعمار تزيد اللهب اشتعالا. ولكن الذى لايمكن أن أفهمه أو أغفره أنكم وأنتم القوى الواعية والمدركة والمسئولة تنزلقون إلى نفس الأساليب».

ويومها قال الزميل العراقى:

- يبدو أنك قد بدأت تتأثر بالدعاية البورجوازية.

وكان وجهه يقول كلاما آخر يتهمنى فيه بأننى فى حالة خوف. وقد كنت خائفا حقا، ليس من الاعتقال كما صور له وهمه الساذج، أو من المضايقات التى يمكن أن نعانيها نحن الماركسيين والديمقراطيين المصريين، ولكنه كان خوفا من النوع العام. حينما تحس أنك أمام عاصفة تحركها قوى مجنونة وليس هناك مجال للعقل.

ولعله بعد سنوات طويلة من ذلك الحدث يتضح إلى أى مدى كنت محقا فى هذا الخوف.

فلقد ذهب عبدالناصر بعد أن أدرك خطأه، وحاول قدر الإمكان إصلاحه وذهب عبدالكريم قاسم بعد أن انقلب على الشيوعيين، ثم انقلب على نفسه حتى قتل.

وذهب كثير من القيادات البعثية والشيوعية والقومية، ولكن كل هذه القوى،

الناصريين والشيوعيين والبعثيين والقوميين يتعرضون للهجوم اليوم من منطلق واحد وتستخدم ضدهم نفس الأساليب والاتهامات التى كانوا يستخدمونها ضد بعضهم البعض. ولست مغاليا إذا قلت إن كل الدعاية والاتهامات المحمومة التى قيلت فى هذه الفترة كان ومازال لها آثارها على كل القوى الوطنية فى المنطقة.

لقد كانت أياما لها ما بعدها. ولسنوات طويلة.

***

لملم كل منا ورقه، ولم يكن هناك فى الواقع ورق كثير، ليلم، فلقد كنا وبإحساس الخطر الذى نعيشه فى الشهور الماضية قد نظفنا أدراجنا.

ووقف الأستاذ الحامولى ومعه عدد من الوافدين الجدد الذين جاءوا ليحلوا محلنا ليعبروا عن أسفهم، وبأنها محنة سرعان ماتنتهى، وضحك بعضنا مدعيا عدم الاهتمام. وتجمعت مشروع دمعة فى عينى وأنا ألقى نظرة أخيرة على المكتب وقد غادرنا مبنى الجريدة حوالى الحادية عشرة (٠) كلنا ثلاثة عشر من محررى المساء من بينهم آنستان وسيدة، ومررنا على دار أخبار اليوم فى الطريق، ورفعت عينى أتأمل المبنى الذى كنت أراه يوميا فى الغدو والرواح، بل وآراه من شباك الجريدة، وكان كل الزملاء والزميلات يفعلون نفس الشىء فى نفس اللحظة، وربما دار فى عقولهم مادار فى ذهنى من أن يوما سيجىء لتصبح هذه المؤسسة ملكا للحقيقة لشعب مصر، فلم أكن أفهم لماذا، ونحن على الأقل زملاء مهنة، لماذا هذا الموقف الغريب والمعادى لأى رأى معارض الذى تتخذه الدار خطا لها، لقد غفر لهم الشعب موقفهم المعادى له وللوفد وانحيازهم للسراى ولأحزاب الأقلية التى كانت تحكم باسم الإنجليز قبل الثورة. فلماذا لم يتعلموا الدرس.

وضحكت أميمة أبوالنصر، وكانت دائما مرحة، وقالت فى خفة دم عصرت الابتسامات على وجوهنا:

- ما العمل أفادكم الله؟؟

وقال فيليب جلاب:

- ليس أمامنا سوى أن نرسل برقيات إلى مكتب العمل وإلى رئيس الجمهورية، فهذا فصل تعسفى.

وقال طاهر عبدالحكيم:

- تشكو من من؟؟.. ولمن؟؟

وأفتى أمير إسكندر :

- ومن يدرينا . . ربما كان الفصل مقدمة لأشياء أخرى . وأكد طاهر إفتاء أمير . . وأضاف بالتأكيد كلنا مرشحون للاعتقال ، وعادت أميمة للتدخل بخفة دمها :

- فال الله ولا فالك . . لاتقل كلنا . . تكلم عن الرجال فقط . . فلم تعتقل فتيات فى مصر حتى الآن .

وتدخلت قائلا :

- سواء اعتقلنا أو لم نعتقل . . المهم أن نستنفد الآن كل الإجراءات الممكنة فيما يتعلق بالفصل التعسفى .

واقترحت أن نرسل بيانا لنقابة الصحفيين باعتبارها الجهة المسئولة عنا ، ثم نذهب إلى محام ليدرس النواحى القانونية فى المشكلة ، وسجل طاهر عبدالحكيم اعتراضه على المنهج الشكلى والقانونى الذى نتبعه ، وإن كان قد صحبنا الى مكتب الأستاذ أحمد مجاهد المحامى .

وجلسنا بعض الوقت فى مكتب المحامى ، وشرحنا الموضوع . . وأخذ منا البيانات اللازمة ، وأكد أكثر من مرة أنها قضية مكسوبة سلفا ، كما حفل حديثه بكلمات التشجيع ، وتواعدنا على لقائه بعد أسبوع ، وعندما كنا نغادر المكتب هرش أحمد مجاهد بعض الشعر المتبقى فى مؤخرة رأسه وهو يقول :

- أفضل أن تعطونى توكيلا شاملا تحسبا للظروف . . ! ! وأدركنا ماذا يعنى ، بل كانت أعماقنا ممتلئة به . . وغادرنا المكتب وكلنا اقتناع بأن شيئا ما فى الطريق . .

[٣]

هناك وقع أقدام جاءوا ليقتلعوا الزهرة جاءوا
ليدسوا الطفل باللتعاسة والضجر.
(بول ايلوار - قصائد حب)

٢٨ مارس ١٩٥٩

كنت متعبا للغاية فى ذلك اليوم، فبالإضافة إلى اللف والدوران طيلة الأسبوعين الماضيين وسط جو عصبى هستيرى يفتك بأعصاب الجمال هاجمتنى الأنفلونزا وبقسوة.

فمنذ أن فصلنا فى ١٣ مارس كانت الأحداث تتصاعد بدرجة خطيرة فتسلم عدد آخر من محررى جريدة المساء خطابات الفصل منهم: الدكتور حسين كمال الدين وعلى الشلقانى وعادل ثابت وإسماعيل المهداوى وعدلى برسوم. كما فصل عدد آخر من الكتاب الصحفيين التقدميين فى عدد من المؤسسات الصحفية الأخرى.

كذلك حدثت بعض التظاهرات فى الجامعة وفى شارع قصر العينى يقودها بعض الطلاب العرب من البعثيين والقوميين العرب تهتف بسقوط الشيوعيين، وحاول بعض هؤلاء الطلاب العرب الذين تأكد للجميع بمن فيهم السلطة المصرية بعد ذلك أنهم فى غالبيتهم العظمى عناصر مشبوهة، الاعتداء على بعض الطلبة المصريين بدعوى أنهم شيوعيون.

وتصدى لهم الطلبة المصريون ومعهم أيضا عدد آخر من الطلاب العرب.

وفيما عدا هذه الأحداث العنيفة وفيما عدا الحملات الهستيرية التى كانت تقودها أخبار اليوم وتدعو علنا لقتل وذبح العناصر الديمقراطية والماركسية تحت دعوى أنهم يفعلون ذلك فى العراق.. كان المواطن العادى المصرى يمضى فى حياته العادية مواصلا همومه ومتاعبه وهو يهز رأسه ويتساءل: لماذا كل تلك الضجة؟

ولم يكن أحد وسط هذه الهستريا يقدم تحليلا موضوعيا مقنعا ليفسر له هذا الانقلاب المفاجئ.

فمنذ فترة ليست بعيدة، كان المواطن يسمع عن العدوان الثلاثي وعن وقفة الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية إلى جانب مصر وإنذار بولجانين الذى اكتسب شعبية كبيرة لدرجة أن بعض العائلات فى الأحياء الشعبية مثل باب الشعرية وبولاق أطلقوا اسم بولجانين على أبنائهم.

ومنذ فترة ليست بعيدة سمع هذا المواطن عن مشروع أيزنهاور ومحاولات أمريكا للنيل من استقلال بلده وتدبير الانقلاب فى الأردن وإثارة الثغرات الطائفية فى لبنان من أجل محاصرة الثورة المصرية.

ومنذ شهور فقط سمع هذا المواطن عن ثورة العراق وإسقاط الملكية ونورى السعيد وزيارة جمال عبدالناصر لبغداد ثم لدمشق وسط طوفان من الترحيب الشعبى العربى الذى وصل الى الذروة فرحا بانتصار الثورة فى العراق وسقوط حلف بغداد.

فما الذى حدث. . ولماذا؟ حتى تنقلب الصورة رأسا على عقب. . ؟

إن أحدا من العاملين فى أجهزة الإعلام المصرية فى ذلك الوقت لم يجهد نفسه للإجابة على تلك الأسئلة بل غرقوا فى نوع من الدعاية والإثارة التى كانت فى أغلب الأحيان تأتى بنتيجة عكسية. . ولعل المسئولين أنفسهم قد أحسوا بذلك وحاولوا أن يوقفوه. فبالإضافة إلى ماكانت تكتبه أخبار اليوم فى ذلك الوقت الذى كان فى حقيقته تحريضا على سفك الدماء وتوسيعا لهوة الخلافات بين الأشقاء كتب أحد الصحفيين المصريين العاملين فى جريدة الجمهورية «رع» مقالا صور الخلاف كله من وجهة نظره شذوذا جنسيا اتهم به بعض القادة العرب.

ولقد منع هذا الصحفى من الكتابة بأمر من الرئيس جمال عبدالناصر صبيحة اليوم الذى ظهرت فيه مقالته.

ووسط هذا كله خرجت مجلة «طريق الشعب» فى الأسبوع الأخير من مارس التى يصدرها الشيوعيون المصريون لتدعو مرة أخرى إلى وحدة الصف الوطنى ولتدين كل من يسعى إلى زيادة شقة الخلاف بين القوى الوطنية الحاكمة سواء فى القاهرة أو بغداد وتطالب بوقف الحملات المتبادلة وتوجيه الجهود واليقظة إزاء المؤامرة الاستعمارية والرجعية التى تستهدف إسقاط الحكم الوطنى فى البلدين. [1]

(١) لابد أن أسجل فى هذا الصدد أن موقف أخبار اليوم والصحف الأخرى لم يكن يعنى أنه كان هناك كتاب وصحفيون عير ماركسيين رفضوا أن يشاركوا فى تلك الحملة القذرة أذكر منهم كامل الزهيرى.

ولم أتحمس في حياتي لشيء قدر حماسي لهذا العدد من طريق الشعب ، كنت أحس أنه صوت عاقل وصارخ . . في البرية . . وأخذت أوزعه بشكل شبه علني في الأتوبيسات . . وعلى المقاهي . . يملؤني إحساس بأن العقل قد يسود ولكني كنت فيما يبدو كمن يحاول أن يوقف الطوفان بيديه .

كان أبي قد جاء إلى القاهرة بعد أن سمع بفصلي - وكم كانت صدمة قاسية له وهو الذي كان يرى في عملي الصحفي بعض العزاء عن فقدان أخي الأكبر - وحاول أن يقنعني بأن أذهب معه إلى القرية حتى تمر العاصفة . . وحينما رفضت حاول أن يهددني بقطع المصروف بعد أن أصبحت بلا عمل . . وحينما جلست صامتا وغاضبا قام الرجل الطيب والذي أحيل إلى المعاش منذ شهر واحد واحتضنني وهو يقول :ـ

لاتحزن . . شدة وتزول . . وإن شاء الله هترجع تاني وتكتب . . بس خاللي بالك من نفسك .

وتناولت الغداء مع هذا الأب والصديق الذي كان يعمل حتى شهر مضى ناظرا لمدرسة القرية الابتدائية والذي تلقى علومه في الأزهر وعاش تقيا متدينا لايترك فرضا . يؤم الصلاة في الجامع ويلقي خطب الجمعة ويلجأ أهل القرية إليه في خلافاتهم ومشاكلهم قبل أن يلجئوا إلى العمدة .

كان أبي يحرص دائما على مناقشتي طوال تلك السنين الماضية فيما أكتب وأقول . . وكان في البداية ، خاصة أيام الجامعة ، يتخذ دائما موقف الأب الحريص على ابنه فيريده بعيدا عن المشاكل . ولكنه في نفس الوقت لم يكن يخفي إعجابه وتقديره لعناد ابنه وللأفكار التي يرددها عن الاشتراكية والعدالة وتوفير حياة إنسانية للفلاحين في القرية وفي كل قرى مصر وكان ينهي دائما مناقشاته معي قائلا :

- كل دا كويس وعظيم . . لكن ياابني لن تستطيع أن تغير الكون . . وحدك . .

- لست وحدي .

فيقول مبتسما وقلقا في نفس الوقت :

- ربنا معاكم . . والله انتو بتفكروني بالمسلمين الأوائل وارتباطهم بالعقيدة الصحيحة . إنكم تحملون سيف أبي ذر . . وكانت كلماته دفعات حانية وقوية . . بل لا

أكون مغاليا حين أقر أن هذا الأب والصديق المؤمن بحق كان أحد الذين دفعونى دفعا إلى الإيمان بالاشتراكية . . دون أن يدرى .

بل إنى مازلت أذكر وقد كنت فى الثقافة العامة حين أخذ يحكى لى ونحن نجتمع حول «موقد النار» بحثا عن الدفء فى ليلة من الليالى الباردة تاريخ حياة أبى ذر الغفارى أحد أصحاب الرسول وزهده وتقشفه ودفاعه عن الحق والمساواة بين الناس إلى أن مات فى إحدى البرارى وحيدا شريدا بين ذراعى امرأته العجوز . . وقد تجمعت الدموع فى عينى وعينى أختى الصغرى بل وأخذت أمى تبكى بحرقة بالغة . وقبل أن أقرأ بعد ذلك كلمة عن الاشتراكية وصراع الطبقات كانت كلمات أبى ذر الغفارى تملأ رأسى بأحلام إنسانية واسعة يعمقها حياتى فى القرية .

وكنت أتصوره دائما ببشرته السمراء وعينيه المدعجتين وجبهته العريضة ووراء جموع الفلاحين من أهل قريتنا يحملون السيوف تنفيذا لكلماته المأثورة «عجبت لرجل لايجد قوت يومه ولايخرج على الناس شاهرا سيفه» .

وقبل أن يغادر أبى القاهرة هذه المرة قال وهو يحتضننى عند محطة أتوبيس المنصورة فى صوت مبلل بالدموع :

يابنى لاتنس أن أبا ذر مات وحيدا وشريدا فى الصحراء . .

* * *

كان أمامى فى ذلك اليوم عدة مشاوير فقد كان على أن أمر على المحامى لأعرف مصير القضية ، كما كان من المفروض أن أذهب إلى نقابة الصحفيين لأسأل عن الشكوى التى تقدمنا بها بعد فصلنا ، ولكن الانفلونزا اللعينة والدوار المستمر فى الرأس المصحوب برعشة داخلية أقنعانى بضرورة الذهاب الى البيت .

ودون أن أقول كلمة لأختى وزوجها اللذين كنت أقيم معهما دخلت إلى حجرتى وألقيت نفسى على السرير .

وجاءت أختى وتحسست جبهتى التى كانت مشتعلة بالتأكيد وصرخت فى ذعر :

– ياخبر دانت نار . . مالك .

– شوية برد .

– أعمل لك شاى .

– أنا أخذت إسبرين . . لما أنام هرتاح .

وجاء سامح ابن أختى الصغير الذى لايتجاوز الرابعة وحاول أن ينام بجانبى كعادته ولكنى طلبت من أمه أن تأخذه معها خوفا عليه من الأنفلونزا . . ولكن الصغير أصر وتكور فى حضنى رافضا كل محاولات الإغراء والتهديد التى بذلتها معه أمه .

وطلبت من أختى أن توقظنى فى العاشرة مساء قبل أن تنام فلقد كان من عادتى أن أبدأ سهرتى فى الكتب بعد تلك الساعة . . ونمت . . نوما طويلا لا أحس فيه بشىء . . دون آلام ودون أحلام .

وحينما أخذت اتقلب على هزات يد أختى وصوتها القادم من بعيد وهى توقظنى كنت أتصور أن الساعة قد أصبحت العاشرة وأخذت أتململ وأطلب منها أن تتركنى ساعة أخرى . . ولكنها عادت تهزنى فى رفق وفى صوت باك . .

وأفقت على دمعة ساخنة تسقط على جبهتى . .

وقمت أدعك عينى وأنظر حولى لأرى الغرفة قد امتلأت بعدد من الملابس الصفراء . . كانت أختى تقف إلى جوار السرير وبجانبها زوجها ووراءهما أربعة من الوجوه الغريبة ينظرون إلى بتركيز غريب . . ودعكت رأسى بعنف متصورا أننى أحلم ولكن شهقة باكية من أختى جعلتنى أعيش الواقع وأدركه بكل تفاصيله .

إذن فقد جاءوا .

كان فى الغرفة أربعة منهم اثنان يلبسان الملابس العسكرية وآخران يرتديان الملابس البلدية بالكوفية والطاقية التقليدية . . وعلى باب الغرفة وقف ضابط فى لون البن المحروق يشاهد المنظر فى هدوء .

وبقيت وسط السرير وأخذت أجول بنظرى بينهم وكأننى أشهد فيلما صامتا ونحيب أختى تقوم بدور الموسيقا التصويرية . . نفس الوجوه التى سمعت عنها كثيرا جمود وبلادة وتحفز . . عيون بعضهم كعينى الصقر تلتقى بها فلا تجفل أما الضابط فقد كان يتلاشى دائما نظراتى . . وابتسمت فلطالما حكى لى جميل عبدالشفيع عن هذا المنظر كثيرا فى تجاربه السابقة كان يقول «إنهم يطبون فى الفجر كالقضاء المستعجل وليس هناك من بد سوى أن يكون الإنسان واثقا من نفسه أمامهم، وتذكرت كل هذا فى لحظات ثم وثبت فى خفة غريبة إلى وسط الغرفة ونسيت المرض، بل وأحسست بقوة طارئة تمدنى بطاقة وتغرينى بأن ألكم أحدهم فى فكه .

وقلت : أفندم!!

وتقدم الضابط الأسمر الممتلئ :

- الصاغ أحمد صالح داود من المباحث العامة.

وقبل أن أسأل تقدم وقد أدرك ما أعنى وقدم مايثبت شخصيته ثم أردف فى لهجة حاول أن يكون فيها مهذبا:

- معى أمر باصطحابك وبالتفتيش.

- من النيابة.

- من الجهات المختصة.

- الجهات المختصة التى أعرفها هى النيابة.

وقلل من محاولته المهذبة وقال فى صوت صارم:

- أستاذ لاداعى لهذا الجدل.. فأنت تعلم جيدا الظروف. هناك قرار جمهورى.. ولم يضيع لحظة وأعطى أمره بالتفتيش.

- وانتشر ثلاثة من الأربعة فى الشقة بينما وقف إلى جانبى شاويش ممتلئ بشوارب كثة وملامح قاسية. اتجه الضابط إلى مكتبى وأخذ يقلب فى بعض الكتب. وابتسمت مرة أخرى وقلت عن ماذا تفتش؟ وأجاب دون أن يلتفت إلى: مجرد إجراء روتينى ثم أمسك بمصحف فى يده التقطه من المكتب وكأنه عثر على شيء لم يكن يتوقعه.

ووضع المصحف مكانه وهو يحاول أن يبتسم.

وقال: غريب هيه.. يمكن أطلع إخوان مسلمين؟!

فيه منشورات.. فيه كتب ماركسية.

قلت: منشورات لا.. لكن كتب ماركسية طبعا.

وهل هناك مثقف واحد فى العالم تخلو مكتبته من الكتب الماركسية.

وسمعت صرخة عالية لأختى تأتى من الحجرة المجاورة.. وغلى الدم فى عروقى وكدت أنشب أظافرى فى رقبة الضابط الذى امتقع وجهه فجأة، ثم اندفعت إلى حجرة أختى وورائى الشاويش والضابط.

وكان كل شيء مقلوبا فى الغرفة، محتويات الدولاب والملابس ملقاة على الأرض وفى أى مكان ومرتبة مقلوبة وأخرى مشقوقة بالطول، والمخبر الملكى يعبث بالقطن ويرميه فى كل مكان وأختى تصرخ وتسب وتلعن. وأمسكت يد المخبر ودفعته تمهيدا للانقضاض عليه.

كان الهدوء الذى التزمته من البداية يخفى وراءه، كل توترات الموقف.

وأحس الضابط بالموقف المتفجر الذى قد يسفر عن معركة سيكون فيها هو الخاسر فلقد كانت التعليمات لديه محددة. «القبض فى الفجر وبدون إثارة أى ضجة».

ووقف الضابط بينى وبين المخبر ولكزه فى جنبه ونهره ببضع كلمات، ثم أخذ يعتذر لأختى التى وصلت إلى حالة هياج شديد وأخذت تلعنهم وتلعن مهمتهم وتدافع عن أخيها.

والغريب أن هذه الأخت الطيبة التى لم تشغل نفسها فى يوم من الأيام بالسياسة والتى كانت تحذرنى دائما من المخاطر اندفعت الكلمات من لسانها كما تندفع طلقات المدفع الرشاش: «إنتو ظلمة.. عاوزين أخويا ليه.. أخويا مع الحق مع الناس، وكل اللى بيقوله صح، بكره هتشوفوا وهيجيلكوا يوم».

كان صوتها يعلو ويعلو مدويا فى صمت ساعات الفجر الأولى.

واستيقظ سامح الصغير على صوت أمه وجاء يفرك فى عينيه ويبكى.. وأحسست كما لابد وأن يكون قد أحس الضابط أن بعض الشبابيك فى العمارة والعمارة المجاورة قد فتحت.

وحاول الضابط بكل ما يستطيع أن يهدئ الموقف، ولكن عيار أختى كان قد انفلت، ولم يعد فى قدرة أحد أن يسكته.

وطلب منى الصاغ صالح داود أن أتدخل لأن الموقف سيتعقد هكذا.. وأخذ يرجونى، بل ويتوسل إلى أن تسكت أختى أو على الأقل تخفض صوتها.. وأخذ يؤكد لى أنها مهمة سخيفة ولكن الأوامر..!!

هكذا... يخافون حتى من الصوت العالى؟؟

وأخذت أختى بين يدى أهدئ من ثورتها التى بدأت تدخل فى تشنج مرتعش، وصرخت فى الضابط والجنود الذين اصطفوا خلفى:

– مادمتم تعرفون أن مهمتكم سخيفة، فلماذا لاتلتزمون الأدب على الأقل؟؟

وجلست أختى على كنبة بجوار السرير واضعة رأسها بين يديها وهى تشهق وتنتحب، بينما حمل زوجها «سامح» الصغير الذى كانت عيناه تعكسان حيرة المتفرج الصغير على مسرحية لايفهم مغزاها، واندفعت أنا إلى شنطة صغيرة أضع فيها بعض

الملابس كما ارتيدت بدلتي على عجل لأهرب من هذا الموقف الذى لم أعد احتمله . . حقيقة لم أعد أحتمل .

وتمالكت أعصابى ووقفت فى الصالة ممكسا بالشنطة .

أنا جاهز . .

وحاول الضابط أن يؤكد أن الأمر بسيط وأننى سأعود اليوم إلى البيت ، وربما بعد ساعتين . ولكنى لم أعد أحتمل كل ذلك السخف .

وصرخت بصوت أعلى :

– من فضلك ياللا أنا جاهز . . . . . وفتحت باب الشقة وارتمت أختى على الأرض تصرخ وصرخ معها سامح :

– آجى معاك ياخالى؟؟

وكنت أقفز درجات السلم حتى لاأسمع . . كان الموقف قد تحول الى «ميلودراما» وكنت أريد أن أظل متماسكا طوال هبوط السلم أو هرولتى عليه ومن خلفى الضابط والعساكر والمخبرون كانت الشقق المفتوحة تنطق بكلمات خاطفة على لسان صاحب الشقة أو زوجته أو ابنه . . وأذنى تلتقط وسط كل هذا الطوفان :

– ربنا معاك . .

وبدون استئذان فتحت باب العربة السوداء الفاخرة التى كانت تنتظر أسفل العمارة وجلست إلى جانب السائق . . وفى الخلف جلس الصاغ ومعه جندى .

أما الثلاثة الباقون فقد ركبوا «بوكس» كان فى الانتظار . . وتحرك الركب سريعا . . وخيوط الصباح الأولى تبدو فى الأفق عند سطح النيل القريب . . وعم مدبولى صاحب محل الخردوات فى العمارة يفتح دكانه ويدفع الباب الصاج بيده ، وباليد الأخرى يحاول أن يقول . . ربنا معاك . .

[٤]

هذه إرادة الله، فالله يقول لنا لتصبحوا بشرا،
كفى تعلقا بأطراف ثوبى كالأطفال الصغار .
انهضوا وتعلموا كيف تمشون.. وحدكم تماما.
كازنتزاكس - الإخوة الأعداء

٢٨ مارس ١٩٥٩.. صباحا

كانت القاهرة قد بدأت تتثاءب وتتمطى استعدادا لليقظة ودارت بنا العربة اللموزين السوداء ووراءها البوكس الأغبر فى اتجاه شارع الكورنيش فجاردن سيتى ثم مبنى المباحث العامة فى لاظوغلى . . وأمام المبنى كانت هناك حركة غير عادية ، عربات كثيرة تقف وأخرى تنطلق ومجموعات تخرج بحراسة وأخرى تدخل بحراسة أيضا .

وحينما كنت أرتقى السلالم العريضة للمبنى ، وأمامى الضابط ، وورائى الشاويش لمحت آخر يهبط وفى يديه قيد حديدى ، وتعثرت قدمه فجأة فسقط على الأرض ، ثم قام بمساعدة الحارس ليفتش عن نظارته .

واندفعت نحوه أعطيه النظارة التى كانت قد قفزت إلى جانبى . .

- سلامتك يادكتور . . خير :

ونظر إلى الدكتور لويس عوض أستاذى فى كلية الآداب وهز رأسه فى صمت ، ثم مضى مع حارسه .

صعدنا إلى الدور الأول ، وكان المبنى الصغير يشغى بالحركة ، والناس جنودا وضباطا ومخبرين . . معتقلين مثلى يحملون شنطهم ، وفى يد البعض القيد الحديدى . . والآخرون لم يستكملوا الإجراءات مثلى . . واكتشفت حقيقة أخرى هى أن الضابط الذى ألقى القبض على شخص هام فى ذلك المبنى ، فالكل يحييه باحترام

شديد بمن فى ذلك الضباط وعرفت أن أحمد بك «كما يناودنه» هو رئيس قسم مكافحة الشيوعية فى المباحث العامة وانتابنى شىء من الغرور . . وكان الرجل والحق يقال يعرف عمله جيدا فهو متمرس وله خبرة واسعة قديمة تمتد إلى عهد الملك . . وربما كان ذلك السبب فى تصرفاته معى التى حاول أن تكون مهذبة قدر الإمكان فى حين أننى سمعت بعد ذلك أن بعض الضباط الذين اشتركوا فى حملة الاعتقالات تلك الليلة تسبب فى كثير من الاشتباكات نتيجة رعونتهم وصلفهم .

واستكملنا بعض الإجراءات الضرورية فيما يبد، من تصويرين أمامى وجانبى وملء بعض البيانات فى كارت أصفر .

ومضى كل شىء هادئا مع تغيير نسبى فى أسلوب أحمد بك الذى بدأت لهجته تتخذ طابع الأوامر الحازمة .

وكان التعليق الوحيد الذى قاله وأنا أسلمه كارت البيانات :

– ياه دانت صغير قوى ٢٣ سنة بس . . أنت طالب؟؟

– لا . . تخرجت منذ ثلاث سنوات . .

وقال وهو ينظر إلى ملف فى يده . . غريبة . . . التقارير عنك تقول إنك خطير . . ومسئول العمل السياسى فى منطقة بولاق ومسئول أيضا عن الصحفيين فى التنظيم بعد يناير . .

وابتسم كلانا فى صمت . . وإن كان مغزى الابتسامتين تختلف تماما . .

كنت أبتسم فى سخرية واعتزاز . . وكانت ابتسامته توحى ببعض خيبة الأمل لاتخلو من تقدير . . وضغط على زر بجواره وطلب ضابطا معينا، حضر إليه فى دقائق وأسر إليه ببعض الكلمات، ثم قال دون أن يرفع رأسه من المكتب :

– مع السلامة يا . . أستاذ . .

وخرجت مع الضابط الشاب والشاويش .

كانت أنوار الصباح تنمو وتنفض اللون الداكن عن الشوارع والعمارات . . كما كانت الشوارع هذه المرة عامرة ببعض المارة وبحركة الترام . . وركبت البوكس فى الخلف وإلى جوارى الشاويش وفى معصمى القيد الحديدى الذى أمر به الضابط الشاب .

وانطلق البوكس مارا بميدان عابدين ثم ميدان العتبة وقفنا أمام قسم الموسكى . .

ونزل ثلاثتنا، وسأل ضابط المباحث عن المأمور، ولما لم يجده قال للضابط النوبتجى:

- خذ هذا عندك لحين الطلب.

وبرغم أن الضابط النوبتجى كان برتبة يوزباشى فى حين كان ضابط المباحث برتبة ملازم إلا أن الأخير جلس على كرسى المأمور فى حين ظل ضابط القسم واقفا، بل وكانت يداه ترتعدان وهو يستوفى إجراءاته.

وأخذت كرسيا كان بجوارى ورميت بجسدى فوقه، وقد أحسست فجأة بتيارات المرض والإجهاد تنال من جسدى وصرخ ضابط المباحث.

- قوم يامسجون.. قوم.

وتلفت حولى فلقد حسبت أنه يأمر إنسانا آخر..

وعاد يقول والشرر يتطاير من عينيه الضيقتين ويشير بعصاه الصغيرة فى يده:

- أنت.. أنت.. ياولد أنت.. قوم.

- أنا لست ولدا.. ولست مسجونا.

ولم أقم..!!

ومضت لحظات.. طويلة وممدودة وعينى فى عين ضابط المباحث، وقد نسيت مرة أخرى المرض والإرهاق فى حين كان ضابط القسم ينتقل ببصره بسرعة بيننا فى حيرة، أما الجاويش فلقد وقف متحفزا بجوارى ويده اليسرى شبه ممدودة استعدادا للصفع أو الضرب.

ولم يكن هناك مخرج فيما يبدو.. وبدأت أعد نفسى لصدام كنت على استعداد له. وكان اليقين الذى غمرنى هو أنى لن أخسر شيئا، فماذا بعد القيود الحديدية؟؟.. إن كل شىء يتضاءل بعد ذلك ولاتنتظر من إنسان يحب الحياة حقا أن يتردد فى الوصول إلى آخر مدى طالما فقد حريته الغالية.. كان هذا هو الشعور الذى تملكنى وانعكس فى نظرتى الثابتة على ضابط المباحث الذى أخذ يضرب بعصاه على المكتب فى رتابة ووجهه يفيض بتيارات العنف والغضب(٠) وفتح الباب فجأة.. دخل مأمور القسم.. لم أكن أعرف بالضبط ماذا سيحدث لو لم يدخل المأمور البدين ليملأ الغرفة بالضحكات والقفشات والترحيب ليس فقط بضابط المباحث.. بل بى أيضا.. شىء واحد كنت أعرفه هو أنى على استعداد لأن أذهب إلى آخر مدى.

وانتهت عملية التسليم وقبل أن يخرج ضابط المباحث رمقنى بنظرة حاول أن يقول فيها أشياء كثيرة ، ثم قال :

-دا معتقل شيوعى خطير . . لابد من التحفظ عليه بشدة ويوضع وحده ياحضرة المأمور . . وخرج ومعه الجاويش وتعمد أن يغلق الباب بعنف . . وكأنما ارتاح الجميع من كابوس ثقيل ، وبان ذلك على وجه المأمور الضاحك الذى بدت حركة من يديه على المكتب تنم عن ذلك ، وقال ضابط القسم بعد أن استرد أنفاسه من الورطة التى وجد نفسه فيها بصوت مسموع :

- احنا مالنا ومال المعتقلين ياافندم . . هنوديه فين دلوقتى الحجز كله مليان .

وقال المأمور دون أن يفقد روحه الخفيفة :

- حجز النساء أخباره إيه؟!!

- فيه اثنتين قدام وإيراد جديد النهارده الفجر .

وأشار المأمور إلى :

- حطه معاهم . .

ثم غمز بعينه وضحك بصوت عال :

- ابسط ياعم . . حبسه حلوة . . ديك وثلاث برابر . .

ودخلت الحجرة وأغلق العسكرى الباب بمفتاح غليظ . . ووقفت أتأمل الغرفة المظلمة كان كل شىء معتما ساكنا . . وكوة صغيرة فى أعلى الجدار المقابل للباب يتسرب منها بعض ضوء النهار الوليد ويتبدد على الجدران العلوية دون أن يكون له انعكاس فى الداخل وأيضا بعض ضجة للشارع المجاور . وأخذت أتحسس بيدى الجدار المجاور للباب ولما لم أجد أحدا وضعت شنطتى على الأرض وجلست فوقها ومددت رجلى فى حذر - خوفا من أن تصدم بأحد ثم أسندت رأسى على الحائط وأحسست ببعض الارتياح . . وبدأت ألتقط أنفاسى .

كانت الساعات الخمس الماضية بكل أحداثها وتوتراتها تساوى حقبة زمنية كاملة عشتها بأعصابى وبذهنى وبمرضى لحظة بلحظة . . وأخذت تمر فى خيالى المنهك بسرعة وبتداخل غريب ، كأنما هناك أكثر من شريط سينمائى يعرض داخل رأسى فى وقت واحد . . الوجوه الغريبة التى تطل على سريرى ، صرخة أختى ، بكاء سامح الصغير ، وصوت عجلات اللموزين وهى تجرى على الكورنيش . . القيد

الحديدى . . بيتنا فى القرية ، شجرة التوت أمامه ، وجه أخى الأكبر الذى مات منذ سنتين . أبى يرتدى بدلته وهو يتمتم بآيات القرآن . . أمى وهى تصر على أن أشرب الشاى باللبن فى الصباح . . خالى وهو يتوعدنى إن لم أكف عن شقاوتى الزائدة ، عم أحمد عجوز القرية وهو يحكى لنا قصص العفاريت والغيلان على المصطبة .

ورحت فى عالم غريب . . خليط من الحاضر والماضى لاهو باليقظة الكاملة ولا هو بالنوم الكامل ، كأنما نام نصفى وبقى نصف آخر يعى أنه فى زنزانة مغلقة وسمعت صوتا أنثويا يهمس قريبا منى :

- دا نام كتير قوى . . الساعة بقت اتناشر . . إيه حكايته؟؟

وقال صوت أنثوى آخر :

- تلاقيه كان سكران طينة خدوه محضر تشرد .

- لاياشيخة دامعاه شنطة ولابس بدلة وباين عليه ابن ناس .

- صلى على «أبو» فاطمة . . هو فيه ابن ناس يترمى هنا ! !

وفتحت عينىَّ .

كانت تفاصيل الزنزانة واضحة تماما . . وعلى مقربة منى فتاتان تجلسان باسترخاء حاولت إحداهما أن تبتسم حين نظرت إليهما ، وهناك فى الطرف الآخر وعلى مقربة منى أيضا أخرى متدثرة فى معطف تضع رأسها بين يديها ومستندة على شنطة ملابس كبيرة ويبدو أنها غائبة عن المكان والزمان . . ثم جدران عالية صماء تكشف بقع الشمس التى تسربت خلال النافذة الضيقة من أنها مصابة برطوبة مزمنة أسقطت أغلب الطلاء .

وأشعلت سيجارة .

وقالت إحدى الفتاتين : اللى يشرب لوحده يشرق .

وقدمت لهما علبة السجائر وتناولت صغراهما سيجارتين بلهفة شديدة وأشعلتهما على الفور ، ثم أعطت واحدة لزميلتها وهى تخرج نفسا طويلا مصحوبا بزفرة حارة .

- ياه أربعة وعشرين ساعة مشربتش سجاير . أنت جيت لنا من السما . .

هكذا أرسلتنى السماء لهذه الفتاة الخرمانة والحلوة أيضا . . أليست مهمة تستحق . . .

واستطردت الصغيرة :

- أنا نرمين راقصة فى الباريزيانا، وسونيا زميلتى، أحنا معروفين ومشهورين قوى

وتوقفت لحظة ثم قالت:

- والله أقولك.. أنا اسمى الحقيقى نوال ودى سعدية مسكنا الآداب واحنا بنرقص فى الباريزيانا.. آى والله.. وعادت لتتوقف ثم تستطرد:

- بالحق بالحق احنا بنشتغل فى الصالة رحنا مع واحد زبون فى شقته كبست الآداب وسبوه هو وخدونا إحنا مع أنه هو اللى غرر بينا، وأخرجت ضحكة نصف ساخرة ونصف ماجنة ثم استطردت.. مش عارفة البلد دى ماشية إزاى.. ماهو يابيقى فيه غلط يامفيش غلط.. طيب يسيبوا الراجل وياخدوا الست ليه.. وأخذت نفسا آخر اعتصرت فيه السيجارة.. ثم التفتت إلى فجأة:

- قوللى. انت إيه ومين وعلشان.. سايبنى أدش من الصبح وأحكى لك على كل حاجة وأنت ساكت كما أبوالهول.. متكونش مخبر؟؟

وفرضت الابتسامة نفسها على وجهى..

كانت الفتاة غلباوية فعلا.. وخفيفة الدم أيضا، ولم يكن من الصعب أن يستشف الإنسان من وجهها المريح وعينيها المتألقتين أنها من هذا النوع المحب للحياة.

وأشارت زميلتها التى تميل إلى البدانة:

- الله دا بيعرف يضحك!!

واتسعت ابتسامتى وتحولت إلى ضحكة لها صوت. قالت التى هى أميل إلى البدانة والكبر..

- هجام.. نشال.. ولاتهريب مخدرات..

قاطعتها خفيفة الدم متألقة العينين:

- لا دا لازم من طبقتنا.. برمجى.. بتاع صالات ولا شقق ولا..

وكنت لابد أن أتدخل بسرعة: لا معتقل.. معتقل سياسى..

وسكتت خفيفة الدم، وبان على وجهها عدم الفهم أو عدم التصديق، أو الاثنان معا..

وقالت الأكثر بدانة وقد وجدت فرصة لتتفوق بها على زميلتها ولو مرة:

- سياسى..

آه شفتهم فى الحبسة اللى فاتت . . ربنا يكفينا الشر دا احنا تهمتنا أخف .

قالت الأخرى وقد اكتشفت شيئا جديدا :

- يعنى إيه . .

- السياسيين دول بيروحوا وراء الشمس . . دول اللى بقى حطين راسهم براس الحكومة . . ربنا يديم علينا بوليس الآداب دا نعمة . .

ثم بدأت تحكى لها ذكرياتها القديمة عن المسجونين السياسيين فى القناطر وسجن مصر . . وفى صوت تعمدت أن تخفضه لكى لايصل إلى مسامعى . . بينما كنت أنا أغرق مرة أخرى فى بحر من ذكريات الأمس .

وانتبهت على المفتاح الغليظ وهو يدوى فى الباب . . ثم صوت الجاويش :

- ثريا حبشى . . المعتقلة اللى جات الفجر فين . .

وجاء صوت السيدة التى كانت تجلس فى الجانب الآخر من الزنزانة :

- إيوه ياشاويش . . فيه إيه . .

- جهزى حاجتك . . البوكس وصل . . خمس دقائق .

- على فين . .

- يمكن القناطر . . الله أعلم .

ثم التفت ناحية الفتاتين وقال :

- الظاهر انتو هاتشرفونا الليلة كمان . . حتى السجن مسألش عنكوا وأغلق الزنزانة .

قلت بصوت عال :

- مدام ثريا . . زوجة المهندس فوزى حبشى .

- أيوه . . مين حضرتك؟؟

- صحفى بجريدة المساء . .

- أهلا . . فوزى كلمنى عنك كثير .

وتقدمت ناحيتها أسلم عليها بحرارة وأساعدها فى لملمة حاجياتها . . وفوجئت بأن وجهها يكتسى بستار من الحزن الكثيف ، وعيناها زائغتان بشكل غير عادى ، تكاد

تحس فيها أنها غائبة عن المكان تماما فتكلفت بعض المرح وأنا أقول :

- حبسة وتفوت يامدام . . ملقوش فوزى خدوكى . .

- أبدا خدونى وخدوا فوزى . . ياريت على قد كدا . . قلت منزعجا :

- والأولاد؟؟

- ماهو دا اللى مجننى . . سبتهم الاثنين عند الجيران . . وأحسست بأن شيئا من الماضى السحيق ينفجر فى عقلى كنت أعرف أن المهندس فوزى حبشى لديه طفلان بين عام وأربعة أعوام . . وقد كنت أتصور وأنا أهرب من صرخات أختى وبكاء سامح الصغير أن هذا شىء فظيع . . ودارت رأسى بسرعة وأنا أتصور المهندس فوزى وزوجته يأخذونهما الفجر ويتركان الطفلين يبكيان ويصرخان بين أيدى الجيران .

إن الإنسان أحيانا يحتاج لأن يعطل عقله ومشاعره لكى لاتنطلق منه مشاعر الذئب .

ولما لم يكن هناك وقت ليضيع . . فأخذت استمد كل قدراتى لكى أخفف عن الأم الملتاعة وأؤكد لها أن الطفلين يلعبان الآن مع جدتهما بعد أن اتصل بها الجيران . . والغريق يبحث دائما عن قشة . . ولقد وجدت لثريا القشة التى حاولت أن تتعلق بها وعدت أؤكد :

- طبعا الجيران اتصلوا بمامتك وخدت «الأولاد» معاها . . شىء مؤكد . .

وشددت على يدها وهى تخرج فى إثر الجاويش الذى جاء يأخذها . وقالت وقد عادت بعض الشىء إلى نفسها :

- لما تشوف فوزى سلم لى عليه . . قالوا لى فى المباحث إنه رايح القلعة .

- شدى حيلك إنتى واطمئنى على «الأولاد» . . وسلامى لأميمة أبوالنصر يمكن تلاقيها فى القناطر .

وخرجت وأخذت أتصور أميمة أبوالنصر منذ أسبوعين وهى تحتج لأن طاهر عبدالحكيم تخيل أن السيدات يمكن أن تعتقل فى مصر .

هل يمكن أن تكون أميمة قد اعتقلت؟

ولم لا . . وقد اعتقلوا ثريا . . أم الطفلين . . فحينما نفقد التعامل بالعقل . . يختلط كل شىء ويضيع

[٥]

تعودت أن أغنى لنفسى طوال حياتى ولست
أدرى لم أتوقف الآن.. فإحساسى بالحياة يزداد؟
يوليوس فوتشيك ـ تقرير من المقصلة

كانت كل ذكرياتى عن القلعة مجرد معلومات تاريخية غير دقيقة مع زيارة واحدة بصحبة والدى منذ سنوات .

فلقد كان من عادته إذا جاء لزيارتنا فى القاهرة أن يصطحبنى معه فى جولاته . . وكان يرسم لنفسه برنامجا دقيقا يحرص على تنفيذه ، هو أن يصلى يوما فى الحسين ، فاذا لم يسافر يصلى اليوم الآخر فى السيدة زينب ، فإذا حدث ولم يسافر وهذه مرات قليلة يصلى اليوم الثالث فى الأزهر . . أما إذا جاء عليه اليوم الرابع فقد كان يطلع إلى القلعة فى جامع محمد على . . . وفى إحدى هذه المرات النادرة أخذنى معه . . وتناقشنا يومها حول محمد على وصلاح الدين ويوسف بن يعقوب باعتبار كل منهم ارتبط تاريخه بالقلعة .

ولكن القلعة التى ذهبت لها هذه المرة كانت تختلف تماما رغم أن الطريق واحد

فلم يكن هناك ذلك العطر التاريخى الذى يملأ عليك الحواس وأنت تمضى على الطريق الصغير المتعرج الموصل إلى القلعة . . لم يكن هناك حتى الإحساس بأنك فى الطريق إلى جزء غال من أرض الوطن ، بل كان يغمرنى الإحساس والبوكس يلتقط البعض منا من الأقسام المختلفة ثم يصعد بنا إلى معتقل القلعة ، أننى أذهب إلى المعتقل الذى بناه الإنجليز كأحد مظاهر سطوتهم وتسلطهم على شعبنا .

كان المعتقل الذى وصلت إليه منذ أيام بعد أن قضيت يوما فى قسم الموسكى قد بدأت تكتظ زنازينه وعنابره بمئات المعتقلين . فالزنازين التى تصطف على الجانبين والتى كان من المقرر أن تتسع الزنزانة لفرد واحد وضع فيها أربعة وخمسة كما حشر فى العنبر السفلى الذى يشبه البدروم والعنبر العلوى أكثر من مائة فى كل عنبر .

وبالرغم من كل شيء فقد كانت القلعة بعد ليلة الاعتقال وليلة القسم تمثل على الأقل بالنسبة لي نوعا من الانفراجة ، فهناك العشرات من الأصدقاء والمعارف الذين يقاسمونك المصير . وهناك الفرصة لأن تجلس وتحكي وتسمع من رفاق يعانون مثلما تعاني ويحلمون مثلما تحلم . . ولقد حاولت قيادة المعتقل من البداية أن تفرض نظاما صارما في إغلاق الزنازين والعنابر . . ولكن ذلك لم يكن ممكنا إذ إنه وفي الأيام الأولى كان هناك تقريبا إيراد كل بضع ساعات وربما كل ساعة .

ومازلت أذكر الزميل سامي عبدالمسيح وهو يقف في العنبر العلوي يراقف باب الإدارة عندما تفد مجموعة جديدة من المعتقلين ليصيح :

- أورد ياخضر . . منين يازملاء؟

ثم يصيح . . المنصورة وصلت . . طنطا شرفت . المنيا بتحيي . . أسيوط على الخط . . إسكندرية صيفت . . وهكذا .

مئات المعتقلين جاءوا من كل شبر تقريبا من أرض مصر الطيبة من أسوان وقرى النوبة إلى الإسكندرية ومطروح والعريش . . عمال وطلبة ، وموظفون وكتاب وصحفيون ومحامون وأطباء . . فلاحون ومدرسون وأساتذة جامعات ومهندسون وعمال زراعيون ، فنانون وضباط سابقون وحرفيون .

كانت الغالبية العظمى منهم قد اعتقلت ليلة ٢٧ مارس الشهيرة . وبعضهم التقط من عمله أو من الشارع . . ثم يردون على القلعة بعد أن شرف بعضهم الأقسام ليوم أو يومين حسب الظروف والتساهيل .

وكان وراء كل واحد قصة ، بعضهم - وخاصة من وفد من الأقاليم - تعرض لألوان من التعذيب الذي يتقنه عادة بعض ضباط وعساكر الأقسام ، وبعضهم حول عملية القبض عليه إلى تظاهرة واسعة اشترك فيها أبناء الشارع وأبناء الحي أو القرية ، وكان من أطرف ماسمعته من صديقي محمد حمام أنه رآني في العربة السوداء فجر «يوم الوعد» على الكورنيش فلم يذهب إلى منزله واستطاع أن يهرب لمدة أسابيع ثم التقطته بعد ذلك عربة سوداء أخرى من ميدان محطة مصر بعد أن اختطفوه على طريقة جيمس بوند . . عاش المعتقلون الأيام الأولى في تلك القصص والحواديت المثيرة كما بدأت تتشكل تلقائيا مجموعات السوابق أي الذين شرفوا المعتقلات في فترة سابقة ليشرفوا على استلام الأكل من المتعهد وليقوموا بتوزيعه إذ كانت خبرتهم السابقة تؤكد أن المتعهدين الذين يوردون الغذاء ، وخاصة للمعتقلين ، يقومون بعملية نهب واسعة على حساب جماعة يعرفون أنها لاحول لها ولا قوة .

كما بدأت تتشكل ـ وخاصة فى العنبر البدروم ـ سهرات ثقافية وترفيهية وسياسية .

وسيظل المعتقلون يذكرون ولاشك الدكتور محمد الخفيف (الذى توفى سنة ١٩٧٢ ، بهبوط مفاجئ فى القلب) بخفة دمه وسرعة بديهته وقفشاته ونكاته ، وقد شكل مجموعة من سعيد الخيال (القاضى) والدكتور سعد بهجت (الصيدلى) ومحمود السعدنى (الصحفى) وعدد آخر من الزملاء كانت تبعث الدفء والضحك فى قلوب المعتقلين طوال الليل .

هذا وبينما كان الدكتور عبدالرازق حسن (مدير البنك الصناعى) ، والدكتور فوزى منصور (الأستاذ بكلية الحقوق) ، ومعهما أحيانا الدكتور لويس عوض ولطفى الخولى يعقدون مايشبه المنتدى الثقافى والسياسى يحضره عدد كبير من المعتقلين ، بالإضافة إلى أنه كان يستدعى كل ليلة بين عشرة وعشرين من المعتقلين ليجرى التحقيق معهم فى مبنى المباحث العامة .

وكان كل واحد منهم يعود بقصة تسمع . . بعضهم رفض أن يحقق معه فى مبنى المباحث العامة ، وقد كنت واحدا من هؤلاء الذين طلبوا من وكيل النيابة أن يجرى التحقيق معى فى سراى النيابة .

والبعض اكتفى بالاحتجاج ، ثم قال رأيه كاملا فيما يحدث وفيما وجه إليه من أسئلة .

وكان من الواضح وخاصة بعد الأيام الأولى ان معتقل القلعة مجرد محطة تجمع ، ففى الأسبوع السابق لوصول دفعة مارس كما تسمى كان المعتقلون السابقون الذين ألقى القبض عليهم فى يناير قد رحلوا إلى سجن الواحات الخارجة . . كما أصبح ضربا من المستحيل أن يستوعب معتقل القلعة تلك المئات التى ملأت زنازينه وعنابره والتى يفد بعض منها كل يوم تقريبا . . لهذا كله لم نفاجأ حينما جاء قائد المعتقل ذات مساء ومعه الحجلات «سلاسل طويلة يربط فيها مابين عشرين إلى ثلاثين معتقلا» . وبدأ ينادى حوالى مائتى اسم كنت واحدا منهم . وتجمعنا فى الممر الطويل بين الزنازين والزملاء الباقون يتطلعون إلينا من فتحات العنابر وفى عيونهم كما فى عيوننا نفس التساؤل . . إلى أين ؟

كانت الأيام العشرة السابقة فى معتقل القلعة بما فيها من تجمع ولقاء وأحداث قد شغلت الكثيرين منا عن حقيقة ما يدور وما يمكن أن يأتى ، بل ربما فى غمرة الالتقاء مع الأصدقاء والرفاق نسى الكثيرون أنهم بدخولهم القلعة قد خطوا خطوة أساسية نحو مستقبل مجهول .

وحينما أوغل ليل الشتاء وانتصف ونحن جلوس فى صفوف متراصة فى الممر بدأ صوت الحجلات برنينها المزعج يقطع الصمت الذى كان قد أطبق على الجميع، والكل يتساءل إلى . . إلى أين؟

واجتاحنى إحساس عنيف بأنى مقبل على أخطر رحلة فى حياتى.

وجاء صوت رخيم ورصين وممتلئ من داخل الزنازين المظلمة أشبه بصوت بول روبسون المغنى الزنجى الأمريكى.

كان صوت محمد حمام:

زعق الوابور على السفر . . . أنا قلت رايحين فين . . رايحين تغيبوا سنة . . وللا تغيبو اتنين.

وبدأ الطابور الطويل يخرج من باب معتقل القلعة ليتلقفنا مجموعة أخرى من الضباط والعساكر. يحشرون كل مجموعة منا يربطها جنزير واحد فى عربة من عربات السجون المغلقة وسط جو من الأوامر والصرخات والتى يفتعلها الضباط والعساكر . . ووقف قائد الترحيلة يلقى بأوامره الأخيرة بصوت عال:

- كله يسمع . . إحنا رايحين معتقل الفيوم . . مش عاوزين صوت ولاضجة . . أى محاولة للخروج على النظام هتقمع فورا . . . . عندى أوامر مشددة بضرب النار فى المليان . . خليكوا عاقلين والترحيلة تمر على خير.

الترحيلة . . الفلاحون فى قريتنا يتجمعون فى ديسمبر من كل عام بجوار الترعة ينتظرون عربات المقاول التى تأتى دائما فى الفجر لتنقلهم إلى بلاد الغربة لمدة شهرين وثلاثة، يعملون فيها من الشمس للشمس فى ظل أقسى أنواع السخرة نظير قروش قليلة . . بعضهم كان يعود وبعضهم كان لايعود . . ويدفن هناك فى أرض الغربة وتظل ذكريات ترحيلة الشتوية بالنسبة لنا أطفال القرية ذكريات حزينة أليمة فيها الوداع والدموع والمجهول . . وهذه ترحيلة أخرى . . من نوع آخر وإن كانت لاتختلف، فطالما استمرت ترحيلة الشتوية للفلاحين فى قريتنا ستستمر أيضا ترحيلات الغربة لأبنائهم ولمن يحسون بفيض الألم والمعاناة الذى يعانيه فلاح مصر.

وزمجرت موتورات لوريات الترحيلة يتصدرها وتحفزها من الخلف بعض عربات السادة «المقاولين».

وأحسست بلفحة من الهواء البارد النقى خلف أذنى واستدرت أودع القاهرة من فتحة كبوت العربة.

كانت القاهرة نائمة ساكنة، الشوارع خالية تغمرها الأضواء فى صمت وبائع جوال يجمع بقايا الخضر ويحملها على عربة كارو صغيرة ويرفع رأسه قليلا يتأمل هذا الطابور الطويل من اللوريات بنبرة نصف نائمة. . وعند كوبرى عباس جماعة من الشباب تتسابق ربما بحثا عن الدفء وفى ميدان الجيزة بعض الذين لم يذهبوا بعد إلى بيوتهم، وآخرون ـ ربما بكروا فى الخروج من منازلهم.

وخرجت بعض الأصوات من داخل إحدى العربات تغنى بصوت خافت:

- بلادى. . بلادى. . بلادى. . لك حبى وفؤادى وبدأ الصوت الخافت يعلو شيئا فشيئا رغم صرخات وأوامر العسكر مصر يا أم البلاد. . أنت غايتى والمراد.

وشملت الأغنية كل عربات الترحيلة. . . وانطلقت أصواتنا قوية عالية . تهزم برد الشتاء وتبدد صمت الليل وسواده، وزادت العربات من سرعتها على طريق الفيوم الصحراوى هربا بالترحيلة السرية.

[٦]

لنضحك فى خفة لأن الحرارة لفحتنا، لأن البرد
قرصنا لأن الجوع أصابنا لأن العطش يستبد بنا
لنضحك حتى يكون حديثنا سخيا سخاء القبل .

بول ايلوار

إبريل ـ سبتمبر ١٩٥٩

واحد تمام . . .

اتنين تمام . . .

تلاتة . . أربعة . . خمسة . . ١٥ تمام، أسطوانة متكررة نسمعها كل نصف ساعة فى هذا المعتقل الغريب الذى بنى أصلا ليكون معتقلا لأسرى الحرب فى الحرب العالمية الثانية . . ثم تحول إلى معتقل لتجار المخدرات . . وانتهى به المطاف ليضم أكثر من أربعمائة معتقل سياسى من الديمقراطيين والاشتراكيين والشيوعيين .

ولست أدرى بالضبط من الذى بنى هذا المعتقل، ولكن المؤكد أن مخططه كان قد زار أو رأى على الأقل معتقلات أو شفيتز وبوخنوالد التى أقامها النازيون فى بولندا وألمانيا مع اختلاف بسيط فى الحجم وعدم وجود غرف الغاز الشهيرة .

وتلك العنابر الممتدة بالعرض على الجانبين أربعة فى الجهة اليمنى ومثلها فى الجهة اليسرى يفصلها ترعة من الأسلاك الشائكة ويحيط بها من كل ناحية سوران من الأسلاك الشائكة بينها منطقة محرمة هى إلى حد كبير شبيهة بالصورة التى رأيتها لمعتقلات النازيين فى أحد الكتب التى تروى بالصورة وبالحدث ماكان يجرى فى تلك المعتقلات .

كان الجو الذى ووجهنا به من اللحظة الأولى فى معتقل العزب بالفيوم يختلف عن الجو الذى ألفناه طيلة العشرة أيام الماضية فى القلعة .

فوضع فى كل عنبر أربعون معتقلا فى البداية ثم تضخم بعد نزوح دفعات جديدة من القلعة فى الأيام التالية، فأصبح فى كل عنبر بين ستين وسبعين معتقلا.

وكانت قوائم الممنوعات والمحظورات كثيرة.

ابتداء من الورقة والقلم اللذين يعدان جرما كبيرا إلى حرية التنقل داخل العنبر الواحد أو كما قالها الضابط البدين حمدى :

- كل واحد على سريره.

أى أن عليك داخل العنبر الواحد أن تجلس وتنام وتتحرك بحرية فى مساحة السرير فقط. بل لقد وصل الأمر بهذا الضابط المغرور الذى كان يتمخطر فى ممرات المعتقل حاملا فى يده كرباجا أن يعتبر أن مجرد الهمس بين زميلين ينامان على سريرين متجاورين مخالفة عقوبتها الجلد.

كان نصيبى فى عنبر (٢) وقد حدد ذلك موقعى فى الحجلة التى ربطت فيها فى «الترحيلة» ولقد كان عنبرا يعبر فى تكوينه عن الوطن الكبير.

فالغالبية العظمى من العمال من شبرا الخيمة وحلوان وكفر الدوار والإسكندرية من بينهم محمود عطاالله رئيس نقابة عمال النسيج، ثم بعض الفلاحين من الشرقية والدقهلية والبحيرة والفيوم ثم مجموعة من المثقفين بينهم الدكتور فائق فريد عضو مجلس الأمة عن شبرا وجزيرة بدران. وعلى الشلقانى الكاتب الصحفى، وجمال كامل الفنان التشكيلى وعادل ثابت العالم المعروف وعبدالسلام مبارك الصحفى فى المساء والدكتور جميل حقى الصيدلى، ثم عدد آخر من طلبة الجامعات.

ومضت الأيام الأولى وقد أخذنا بالمفاجأة والجو الكئيب يسود المعتقل. فكل عنبر يخرج «الفسحة» لمدة ثلث ساعة فى اليوم وعلينا أن نفرغ فى هذه الدقائق من قضاء الحاجة والاغتسال والمشى فى الحوش الضيق الذى يقع خلف العنابر ليقبع كل منا مرة أخرى ولمدة ٢٣ ساعة و٤٠ دقيقة إلى العنبر ليقبع كل على سريره، كل ذلك وسط جو من الهستيريا والتحفز يشيعه قائد المعتقل وضابطه ومعهم على وجه خاص الجاويش محمد غطاس أو حضرة الصول كما يناديه العسكر مصحوبا بنزوات متلاحقة من جانب إدارة المعتقل من شتائم مقذعة إلى الاعتداء بالأيدى على البعض.

ولابد أن الجميع قد أحسوا بما أحسست به حينما فتح عنبرنا فجأة فى الأيام الأولى وصوت غطاس ينبح بصوت عال «انتباه» ليدخل قائد المعتقل ووراءه الضابط حمدى وكرباجه يلعب من الخلف كذيل الكلب.

كـان الشـعـور بالسـخط خـلال تلك الأيام قـد اسـتبـد بى وفى ذلك اليـوم بالذات، وخاصـة وقد حدثت مشادة بينى وبين جاويش الفسـحة حينما كنت أمسح وجهى بالفوطة وأصر على أنى أعطى إشارات لزملائى فى العنابر الأخرى.

وتدخل الزملاء منعا لتدهور الموقف وسكت الجاويش بعد أن حصل على علبة سجائر وينجز، ويبدو أن علبة السجاير لم تؤخر الصدام سوى ساعة بعد أن انتهت كل العنابر من طوابيرها (٠) وقفت أمام سريرى مثلما طلب منا وأخذ طابور العسكر يتمخطر فى هدوء بيننا داخل العنبر. القائد فى المقدمة ووراءه الضابط حمدى ثم الجاويش غطاس ثم جاويش الفسحة.

كان القائد فيما هو واضح من رتبته وسنه الذى جاوز الخمسين أنه ترقى من تحت السلاح أى أنه بدأ حياته «نفرا عاديا» وكان وجهه الجامد وعيناه الغائرتان تعكسن جمودا وغباء شديدين.

وتوقف الركب أمام أحد الزملاء وسأله القائد عن اسمه ومهنته فلما عرف أنه عامل أزاحه بيده فى عنف موقعا إياه على السرير وفرقع حمدى بالسوط يلهبه على ظهره مرتين فى حين انطلق غطاس ينبح بسباب قذر.

وتملكنى شعور بالغيظ والحنق، بينما كان القائد يقترب منى ثم توقف أمامى مباشرة بعد أن صاح جاويش الفسحة:

- هو دا ياأفندم.

وابتسم القائد فى غباء وأخذ يتأملنى بنظرات بلهاء وهو يعبث بعصاه الصغيرة فى شعرى المنكوش، بينما حمدى يفرد كرباجه.

- بتشتغل إيه:

- صحفى فى جريدة المساء.

- يعنى جرنالجى.. مش كده.

- حاجة زى كده.

- علشان كده كنت بتدى إشارات وتكتب على الهواء.

- أكتب على الهواء..!!

- طبعا أنا عارفكم كويس.. إنتم شياطين.. تعلملوا أى حاجة.

- أنا كنت بامسح وجهى بالفوطة.. اللى بتقوله سيادتك دى أوهام..

صرخ الضابط حمدى: أوهام يابن الـ. . . .

وكاد يهوى بسوطه، ولكن يد القائد أسرعت وأمسكته.

- بلاش دلوقتى ياحمدى. . هو هيحرم يعمل كده تانى. . مش كده. . ؟؟

وعلى قدر صرخة حمدى، بل وأعلى من صرخته قلت:

- أنا لم أفعل شيئا. . ثم إن اللى هيشتمنى هشتمه ستين مرة. . هكذا خرجت الكلمات دون أن أفكر فيها.

ومرت لحظات صعبة طويلة لم يستطع حمدى أو غطاس أن يقوم بأى مبادرة بينما بدأت تسود العنبر همهمة غضب ملحوظ. . ورفع القائد يده مهدئا. . وكانت تلك من لحظات ذكائه النادرة، ثم قال موجها كلامه لكل العنبر.

- مش عاوز هيصة. . الأوامر لازم تمشى، واللى هيخرج عن النظام هنعرف نأدبه كويس. . ثم انسحب ووراءه زبانيته. . وأغلق الباب.

وصاح عبدالغفار سلام أحد الزملاء النقابيين فى صوت تعمد أن يكون مسموعا وخافتا فى نفس الوقت:

فى ستين كسحة. . هو كده الشغل.

وشملت العنبر ضجة مرحة. . وانطلقت بعض الضحكات وجاء كثيرون يشدون على يدى ونادى زميل على عنبر واحد وآخر على عنبر تلاتة وقد كنا بين الاثنين وأخذا يحكيان لهما عبر النوافذ الحديدية ماجرى، ولم يتدخل العسكرى الواقف بين العنبرين كعادته فى مثل تلك الأحوال.

أسبوع كامل مضى ونحن نتلقى كل يوم ضربات مفاجئة والمعاملة تسوء وتمضى بوتيرة أسرع وكنا فى تلك الأثناء أشبه بمن دخل الحلبة فى الجولة الأولى وفوجئ بخصمه يكيل له الضربات قبل أن يكون مستعدا. والاتصالات ممنوعة، بل ومحرمة بين عنبر وآخر وحتى فى داخل العنبر الواحد كانت عيون العساكر مسلطة علينا تحصى كل حركة، حتى إن حمدى «أبوكرباج» أخرج زميلا خارج العنبر وانهال عليه باللكمات لأنه تحرك من سريره وكان ماحدث فى عنبرنا فى ذلك اليوم أول لكمة نوجهها الى الخصم لنثبت وجودنا على الحلبة.

والواقع أن الفترة التى قضيتها فى معتقل العزب فى الفيوم كانت كلها مباراة ملاكمة طويلة، بيننا وبين الإدارة. . . أسبوع واحد فقط كانت اللكمات من طرف واحد. . ثم ظهرت بعد ذلك ندية كاملة من جانبنا.

الإدارة بكل هيلمانها وسلطتها وقسوتها توجه لنا لكمة هذا اليوم ونحن بعقولنا وبحبنا للحياة وإصرارنا للدفاع عن القيم الجميلة حتى داخل الأسوار نوجه لها لكمة فى اليوم التالى.

هكذا سارت الأمور طوال قرابة ستة شهور.

من ناحيتنا نجحنا فى تكسير جو الإرهاب الكئيب المحيط بنا وأمكن تنظيم شبكة اتصال عبر النوافذ بين العنابر كلها. ومايجرى فى عنبر واحد أصبح يعرفه سكان عنبر ٨ فى نفس الليلة، وبدأنا نتحرك ونفكر بعقل الجماعة ففرضنا حرية الحركة داخل العنابر كأمر واقع، بل وبدأنا ننظم الجلسات والندوات الثقافية والترفيهية.. هذا يحكى بعضا من القصص العالمية لهمنجواى وشولوخوف وإيليا اهرنبرج وجيمس جويس وجوركى وطه حسين ونجيب محفوظ.

وذاك يعرض مسرحيات لتوفيق الحكيم وشكسبير واسيورن وتشيكوف وسارتر وأونيل وتنس وليامز وبريخت ونعمان عاشور والريحانى وآخر يعرض بعضا من الأفلام.. ومجموعة تقوم بعرض كتب وأفكار لسارتر وهيجل وماركس وفولتير وروسو ومحمد عبده والأفغانى. وآخرون يتغنون بألحان سيد درويش وبول روبسون وعبدالوهاب وعبده الحامولى وفرانك سيناترا.

ورغم كل الحظر والأوامر تمكنا حتى من استحضار بعض الصحف والمجلات(٠) على أن كل هذا كان يحدث خلال معارك متصلة. فالإدارة لم تسكت عنا يوما واحدا، ولم تسلم لنا بأى حق.. كانت تتغافل يوما أو يومين ثم تنزل بكل ثقلها فى اليوم الثالث لتجمع مندوبى العنابر مثلا لتقوم بجلدهم أمام مبنى الإدارة ولتحاول أن تشيع جوا من الإرهاب.. وفى مثل ذلك اليوم يصول ويجول غطاس ولايكف لسانه وذراعه عن العمل.

ونعود لنمسك بالمبادرة فى اليوم التالى فنمتنع عن تسلم الطعام أو نتباطأ فى الدخول إلى العنبر بعد انتهاء مدة طابور الفسحة أو نرسل مندوبين آخرين لقائد المعتقل لينذروه بتحمل المسئولية. وبأن يوما ما سيأتى ويدفع ثمن كل هذا.. فيعود ليعتذر وليقسم بشرفه أن شيئا من هذا لن يتكرر.. ولكن قسمه سرعان ما يضيع بعد بضعة أيام. ولم يكن من الممكن أن تستمر لعبة القط والفأر بيننا وبين قيادة المعتقل.. جاء يوم كان لابد وأن تحدث المعركة الفاصلة.

قبل ذلك بعدة أيام كان أحد الضباط قد عثر على بعض الأوراق مع أحد الزملاء. والورقة والقلم كانا بالنسبة لنا كبيرة الكبائر. فاستدعى المهندس فوزى حبشى إلى

الإدارة وقامت مجموعة من العساكر ومعهم الضابط بضرب الزميل بالشوم ثم جلده على العروسة ولا أدرى لماذا تسمى هذه الآلة الرهيبة بذلك الاسم، اللهم إلا إذا كان ذلك لأن المضروب يربط على الصليب فى حالة احتضان.

وبعد ذلك بيومين أخذت جماعة من الزملاء المرضى الذين كان من المفروض أن يذهبوا بهم إلى مستشفى الفيوم القريب للكشف فضربوا أمام الإدارة بالكرباج وجريد النخل.

وكان لابد إزاء هذا التصاعد فى عدوان الإدارة من التفكير فى خطوة جديدة. . أكثر فاعلية وأكثر خطورة.

وفى هذه الليلة دارت الاتصالات بين جميع العنابر. . وكان القرار. . وفى اليوم التالى رفضنا استلام الأكل. . وحين جاء قائد المعتقل ليرهب وليرغب قابلناه بهجوم شديد، وقال له زميل عامل:

أنت لست أهلا للحديث معنا. . إننا سياسيون ولسنا تجار مخدرات، لذلك فنحن نريد مسئولين من القاهرة للتحدث إليهم. . . وكان من الواضع أنه قد أسقط فى يد القائد الذى حاول ولمدة يوم كامل أن يحل المشكلة حتى لايظهر على الأقل أمام المسئولين أنه عاجز عن قيادة المعتقل.

وإزاء إصرار الخمسمائة معتقل استنجد القائد فى اليوم التالى بوكيل المحافظة الذى جاء إلى المعتقل بفرقة كاملة أحاطت بالعنابر من كل ناحية. . ولمدة ساعة ظلت تمارس علينا عمليات إرهاب نفسى محكم. . ضجة وأصوات عالية وأوامر مشددة هنا. . وعساكر تهرول هناك وأصوات البنادق وتكة الدبشك. . . وبعض الطلقات المدوية فى الهواء.

ووكيل المحافظة وقائد المعتقل يتعمدان أن يصدرا أوامر تكون مسموعة لدينا. . اضربوهم بلا رحمة. . اللى يرفع رأسه اضربه فى المليان. . دول خونة.

ساعة كاملة ونحن قابعون فى عنابرنا المغلقة نوافذها نسمع ونرصد كل حركة وكل صوت وتتقابل عيوننا فى حيرة ودهشة أحيانا. ولكن فى ثقة فى أغلب الأحيان. . كما قد اتخذنا قرارنا بالمواجهة إلى آخر مدى.

وبدأ الماتش. .

أخرجوا عنبر واحد إلى الحوش. . وأمام كل معتقل وقف جندى شاهرا بندقيته ووضعت أوانى الأكل بين المعتقلين والجنود. .

وصاح وكيل المحافظة الذى جاء ليجرب حظه معنا :

- عندى أوامر بضرب النار فى المليان .

وبحركة مسرحية قال : عسكرى استعد .

وأخذ العساكر فعلا وضعهم ووضعوا اليد على الزناد .

وبحركة مسرحية أخرى قال :

- معتقلين . . كل واحد يتقدم خطوة . . ويأخذ أكله .

ولم يتقدم أحد . .

وأعاد وكيل المحافظة أمره السابق بصراخ حاد :

ولكن أحدا لم يتقدم . .

- دخلوهم العنبر . .

وجاء الدور على عنبرنا .

ودخل زملاء عنبر واحد وعلى وجوههم ابتسامة النصر والثقة وتكررت نفس المسرحية . . وتكرر نفس الموقف .

وفى ضيق شديد صاح قائد المعتقل . .

- اضرب ياعسكرى .

ولكن العساكر لم يضربوا وتطلعوا إلى وكيل المحافظة ، ولقد كانوا كلهم من قوة المحافظة وليس من قوة المعتقل .

ولكن وكيل المحافظة أشار بأن يخفضوا بنادقهم . . ثم أشار إلى الزميل محمود عطاالله رئيس نقابة عمال كفر الدوار قائلا :

-أنت تعال هنا . . قرب . . مش عاوز تاخد الأكل ليه؟؟

وبدأ محمود يحكى فى ثبات عن التعسف الذى نلاقيه داخل المعتقل من القائد وضباطه والجلد المستمر الذى وصل إلى حد جلد المرضى وسوء التغذية الذى نتعرض له ومنعنا من طوابير الشمس ومن الورقة والقلم والكتاب والصحيفة والراديو .

وتقدم الدكتور فايق فريد وتقدمت معه لنساعد محمودا على شرح مشاكلنا . كان وكيل المحافظة من ذلك النوع من الموظفين الذين يخلصون لمهنتهم ، ولا تشغلهم السياسة من قريب أو بعيد ، وبالتالى لم تكن لديه مصلحة خاصة فى تعقيد الأمور .

كان موظفا يريد أن يقوم بمهمته بنجاح . . وكانت المهمة الملقاة على عاتقه مثلما أوضح هو أن نوقف التمرد ونأخذ الغذاء .

واستطعنا أن نشرح قضيتنا جيدا فنحن نعرف أن وكيل المحافظة ليس مسئولا عن اعتقالنا لكى نطالبه بالإفراج عنا، وركزنا مطالبنا فى أن نعامل معاملة إنسانية، وأن تقف جميع أساليب التعذيب من ضرب وجلد وإهانات . . . وأن تتاح الفرصة لأن نكتب خطابات لذوينا ونتسلم خطاباتهم وأن تفتح العنابر فترة أطول ويسمح لنا بقراءة الصحف والاستماع إلى الراديو واستخدام المكتبة .

كما أضاف الدكتور فايق فريد موضوع التغذية . . وطالب زيادة مخصصاتنا فى الغذاء حيث إن غذاء المعتقل كان يكلف ٥٦ مليما وهو مبلغ ضئيل لايمكن أن يفى باحتياجات طفل . . كما شكك الدكتور فايق فى أمانة إدارة المعتقل والمتعهد. فقطعة من الجبن القريش ومقادير ضئيلة من الفول وثلاثة أرغفة لايمكن أن تقيم أود أى إنسان إلا إذا كان المطلوب قتلنا بالجوع البطىء .

كان وكيل المحافظة يسمع إلى شكوانا ووجهه يموج بمشاعر كثيرة متضاربة فالمطالب التى نضعها أمامه يتمتع بها أى مسجون عادى فى السجون سواء كان لصا أو قاتلا أو تاجر مخدرات، وكان بين الحين والآخر ينظر إلى قائد المعتقل ومعاونيه يريد من أحدهم أن يكذب الوقائع التى نقدمها .

بينما كان قائد المعتقل والضابط حمدى ينفثان الغيظ والشرر من عيونهما فى صمت .

أما غطاس فلقد وقف وهو يتوعدنا بحركات من يديه ووجهه . . وحينما أثرنا قضية الغذاء وتواطؤ المتعهد مع الإدارة تسلل غطاس متجها نحو مبنى الإدارة .

وكسبنا المباراة . . أو على الأقل هكذا بدت الأمور من السطح . . فنقل الضابط حمدى والجاويش غطاس من المعتقل وأوقف الضرب والجلد .

وجاء متعهد آخر كما سمح لنا باستلام خطابات، بل وطرود أغذية وأدوية من ذوينا، أما المطالب الأخرى فقد حصلنا على جزء كبير منها بالممارسة .

ويبدو أنه فى نفس اليوم الذى حققنا فيه انتصارنا فى معتقل العزب بالفيوم وإنهاء سياسة التعذيب والتجويع . . كان هناك قرار آخر فى القاهرة قد اتخذ بعد أن ثبت أن تجربة الفيوم لم تنجح . . ففى الأسبوع الأول من شهر يونيو أخذوا أربعين زميلا ورحلوهم إلى سجن الواحات الخارجة .

تسلمت أول خطاب من والدى بعد أربعة شهور وبالرغم من أننى قرأت الخطاب فور تسلمه مرة وثلاثا إلا أننى عدت إليه فى المساء أقرؤه على مهل تحت أضواء العنبر الشاحبة .

كان الخطاب مليئا بعبارات موحية ففيه يقول والدى :

«لقد أمسكت بالقلم وقبضت عليه لكى يكتب ما أمليه عليه ولكنه رفض فى إصرار وكأنما يقول لى كيف أكتب وأنت تمسك بخناقى» .

وفى فقرة أخرى يقول الخطاب .

«بالرغم من أنك ابنى الأصغر إلا أنك كنت دائما حكيما عاقلا تحب الخير للناس قبل أن تحبه لنفسك» ، ثم يضيف «ليس عندى سوى ماقاله رسول الله (والله ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبى ذر) . . . . »

وأحسست بمشاعر الطفل الصغير إزاء والده وملأ وجهه الحبيب دمعة ترقرقت فى عينى واجتاحنى إحساس غريب فى تلك الليلة أننا نلتقى فعلا ، وأنه يشد على يدى ويحتضننى ويروى لى مرة أخرى عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعمر بن عبدالعزيز ، وأبى ذر الغفارى ، ثم ضحكاته العالية والصافية وهو يقول : «هل تعرف أن أباذر كان له أخ اسمه أنيس مثلك مرة أخرى أتصور أباذر الغفارى كما تصورته دائما بوجهه الأسمر وعينيه اللامعتين بالحب ومعاوية بن أبى سفيان وقد أصبح خليفة للمسلمين بعد أن اغتال تعاليم الاسلام وهو يصرخ :

– يا أباذر لقد اشتكى الأغنياء منك وقالوا إنك تؤلب عليهم الفقراء .

ويقول أبوذر :

– إنى أنهاهم عن الكنز لقوله تعالى : ﴿الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ .

– إنها نزلت فى أهل الكتاب يا أباذر .

– بل نزلت فينا وفيهم .

– إنى كأمير للمؤمنين آمرك أن تكف .

– والله لأستمر على دعوة الناس ولأبشرن الكانزين بعذاب النار .

– خير لك أن تنتهى عما أنت فيه .

فيقول أبوذر فى ثقة المؤمن بالحياة والناس والخير :

والله لا أنتهى حتى توزع الأموال على الناس كافة ويصرخ معاوية مهددا :

يا أباذر . . هذا فراق بينى وبينك . . حاذرو إلا .

فيردد أبوذر بصوت أعلى :

- والله لا أنتهى حتى توزع الأموال على الناس كافة . . والله لا أنتهى حتى توزع الأموال على الناس كافة . . وخيم الصمت والهدوء والليل على المعتقل . فلقد كانت ليلة استلام الخطابات ، وعاش كل منا حياة خارج الأسوار من خلال خطاب أب أو أم أو زوجة أو حبيبة أو ابن لأول مرة منذ شهور . . كنت أرفع رأسى لأتأمل الزملاء وقد رقدوا فى أوضاع مختلفة بعضهم اضطجع على حافة السرير مغمضا عيونه والبعض الآخر جلس صامتا يعبث بشعره ، وارتدى عادل ثابت بيجاما جديدة وصفف شعره وجلس حالما وفى يده خطاب زوجته . . وأغروقت عينا الدكتور جميل حقى بالدموع وهو يمسك بخطاب أمه . أما عبدالسلام مبارك فقد أخذ يجوب الممر الفاصل بين الأسرة واضعا يده خلف ظهره بعد أن تسلم خطابا من زوجته المعتقلة فى القناطر .

وأدركت أن الجميع مثلى يعيشون فى جزر الأحلام الخاصة التى بدأت تحضر فى أحلامهم بعد أن تسلموا الخطابات .

وفى هدوء الليل انساب نفس الصوت القوى الرصين بنبرته التى تحمل الحزن والألم الخصب :

يااللى انتى بينى وبينك سور .

بكره العيون هتشوف النور . .

بكره ياروحى الهنا

هيفيض على الدنيا

وقبل متفوت سنة

هنعيش فى حرية

كان الصوت قادما من أحد العنابر التى عاشت كلها ليلة خارج الأسوار . . ويبدو أن العساكر قد أدركوا هذا فكفوا ليلتها عن نداءاتهم بالتمام .

كان لليلة سحر وطعم خاص ، ولأول مرة أفكر فى الفيوم الأخرى تلك الواحة التى انتزعها أجدادنا من بين الصحراء وزرعوا فيها الحياة والدفء . ونسيت المعتقل والأسوار وأخذت أجوب واحة بلادى الكبيرة وما أحمله لها من ذكريات . . عين

السلين وكوم أوشيم والسواقى السبع التى اختارها المغنى الشعبى العظيم والمجهول ليبثها شكواه وآلامه فهى بكل مائها تنعى وناره لاتنطفئ . . ويالها من نار عظيمة خالدة تلك التى لاتنطفئ أبدا ، بل تظل مشتعلة تبعث الدفء والنور فى القلوب حتى ولو كانت داخل أسوار شائكة وأمسكت بالقلم أكتب خطابا لوالدى . .

وكتبت كلمات ناظم حكمت :

أبى . . .

إن أجمل الأيام هى تلك التى لم نعشها بعد وأجمل الأحلام هى تلك التى لم نحققها بعد ولو كنت أعرف ما سيأتى لكتبت له .

وأقسى الآلام هى تلك التى لم نعانها بعد .

[٧]

قفوا ساكتين كغابة من الناس كثيفة خرساء
بأذرع مكتوفة ونظرات قوية كأنها السلاح فى
حرب لم تنلها هزيمة

(شيلى - قصائد المقاومة)

سبتمبر ١٩٥٩

الترحيلة مرة أخرى . . . . .

والقمر هو نفس القمر الهادئ الساكن الذى يجوب سماء مصر الصافية يغرق الوادى فى بحر من النور الصامت تتضاءل إلى جانبه تلك اللمبات الكهربائية الشاحبة التى تتناثر على رصيف محطة المواصلة . . . جنوب سوهاج . . ومادام هناك قمر ومادامت الرياح الخفيفة المنعشة تحمل إلى الأنف عطر المزارع والأرض الطيبة المحيطة والممتدة على مرأى البصر تتلاشى الحجلة ويتضاءل القيد الذى يمسك بمعصم اليد ويهون كل شىء .

هكذا رقدنا على رصيف محطة المواصلة بعد رحلة دامت خمس عشرة ساعة من الفيوم الى محطة بنى سويف بالعربات ثم من بنى سويف إلى المواصلة فى عربة مغلقة فى آخر القطار مخصصة لنقل الحيوانات - مرورا بالمنيا وأسيوط وقنا وسوهاج . .

كان من الواضح فى الأيام الأخيرة لنا فى معتقل العزب بالفيوم أنهم بصدد تصفية المعتقل بعد أن فشلوا فى تحويله إلى مكان للإرهاب والتعذيب . . وإن كانوا قد احتفظوا به ليتحول بعد ذلك إلى معتقل (تصفية) . . أى لمن يرغبون أن يخرجوا بالثمن الذى يفرض عليهم . . وكنا نحن الدفعة الثانية التى ترحل إلى الواحات بعد دفعة يونيو . . وقد اختاروا فى هذه المرة أربعين ممن تصوروا أنهم قيادة المعتقل وضمت الدفعة مندوبى العنابر ومجموعة من الشخصيات والكتاب والنقابيين

المعروفين من بينهم الدكتور فايق فريد والدكتور حسين كمال الدين وعلى الشلقانى والدكتور فوزى منصور وأديب ديمترى وفيلب جلاب وشوقى عبدالحكيم وإبراهيم عامر ومحمود عطا الله ومحمد صدقى وفخرى لبيب وفتحى خليل ولطف الله سليمان وفاروق ثابت ومحسن الخياط وعبدالله كامل ومحمود السعدنى وأسعد حليم.

والمواصلة بلدة صغيرة فى أعماق الصعيد تقع بعد سوهاج بعشرات الكيلو مترات حيث يضيق الوادى بشكل محسوس فلاتمتد الخضرة على الجانبين لأكثر من بضع كيلومترات ثم تبدأ هضبات الصحراء الشرقية من ناحية والبحر اللامتناهى من رمال الصحراء الغربية من ناحية أخرى (٠) ودخلت القرية التاريخ المصرى من أوسع الأبواب. . فطوال الخمسين عاما الماضية كان المواطنون المتمردون العاقون من وجهة نظر السلطة يأتون إلى هذه القرية بقطار الصعيد لينتظروا قطارا آخر من نوع قطار الدلتا الصغير لينقلهم إلى أعماق الصحراء. . إلى الواحات الخارجة والداخلة. . على بعد أكثر من مائتى كيلومتر.

ولقد عرف هذا الطريق كل من أحب مصر وخرج معارضا للسلطة دفاعا عن عقائده. منذ حكم الرومان حين هرب المسيحيون الأوائل بدينهم إلى الواحات بعيدا عن طغيان دقلديانوس، ثم كانت المنفى الرسمى لسلطة السراى والإنجليز، وقد قيل إن أنصار سعد زغلول نفوا هناك لفترة. . وفى أيام إسماعيل صدقى ومحمد محمود نفى إليها أعداد كبيرة من الشباب والموظفين وكأن النفى يأخذ شكل تأشيرة بالنقل إلى الواحات، وربما كانت المرة الأولى التى ذهب إليها معتقلون بشكل رسمى فى عام ١٩٤٧ حين نفى إلى هنا عدد من ضباط وصولات سلاح الطيران منهم سيد سليمان رفاعى وفؤاد حبشى ويوسف مصطفى الذين اتهموا بالشيوعية. . ومنذ هذا التاريخ طابت الفكرة للمسئولين لكى يلقوا فى غياهب صحراء الواحات بخصومهم السياسيين بعد أن كان جبل الطور هو المكان المختار لهذا الهدف.

كان الأفق الشرقى الغارق فى أعماق الصحراء قد بدأ يحترق مبشرا بظهور الشمس الوليدة وقد نام بعضنا ساندا رأسه على ظهر أقرب زميل له فى الحجلة، بينما كنت أحس بيقظة شديدة ربما لأنى سرقت بعض الساعات نمت فيها فى القطار وربما للإحساس الذى اجتاحنى وجعلنى ألتهم بنهم شديد كل ما أراه حولى فى تلك البقعة النائية من صعيد مصر التى لم تطأها قدماى من قبل (٠) كانت القطارات السريعة المتجهة إلى أسوان والأقصر والعائدة منهما تتوقف قليلا عند المحطة واستغرق مع الركاب وانفعالاتهم حين تصطدم أنظارهم بالترحيلة. . البعض يتهامس ويشير إلينا

والبعض الآخر يكتفى بالنظرة الجامدة . . وطفلة صغيرة ترمى إلى بكعكة فى يدها . . تماما مثلما كنت أفعل مع الأسود أو القرود فى حديقة الحيوانات . وقال أحمد شوقى عبدالحكيم زميلى فى الحجلة وهو يلاحق بنظراته قطارا كان يغادر المحطة والضربات المتلاحقة للعجل ترن على القضيب .

- ياه . . تعرف كان ممكن كلهم يموتوا تحت العجل .

- مين .

- دفعة يونيو .

وأخذنا نتخيل الصورة كما سمعناها على أرض المعركة كانت الدفعة التى سبقتنا فى يونيو الماضى قد تعرضت لمأساة كادت أن تتحول لتراجيديا جماعية . . فحين وصلوا محطة المواصلة وبدأت إجراءات إنزالهم من العربة فى حين كان هناك بعض الزملاء قد نزلوا على الرصيف ويربط الجميع سلسلة واحدة .

وزادت سرعة القطار والذين فى داخل العربة يتشبثون بمواقعهم فى حين كان الزملاء الآخرون يجرجرهم القطار على الرصيف ثم على الفلنكات . . وأخذت اتصور عبدالستار الطويلة والدكتور رزق عبدالمسيح وعزب شطا وغيرهم والقطار يسحبهم وهم يصطدمون بالزلط وخشب الفلنكات وبين لحظة وأخرى يتوقعون أن تشدهم عجلات القطار لتطحنهم جميعا ومعهم الزملاء الذين كانوا داخل العربة .

لحظات قاسية سواء كانت دقيقتين حسب الرواية التى وصلتنا أو خمس دقائق حسب الرواية الأخرى .

ولقد قال لى عبدالستار الطويلة بعد ذلك وقد كان أقرب المجموعة إلى العجلة .

كانت رأسى تدور بنفس السرعة التى تدور بها عجلة القطار كان مصيرى ومصير الأربعين الآخرين الذين يربطون بالسلسلة الواحدة يتوقفان على مدى قدرتى فى الابتعاد عن عجلة الموت . . كنت قد سمعت ورأيت فى الأفلام عن عجلة الموت . . كنت قد سمعت ورأيت فى الأفلام عن أنواع التعذيب فى القرون الوسطى حين كانوا يربطون الفلاح إلى ذيل حصان جامح أو عربة تجرها مجموعة من الخيول . . ولكن فى هذه المرة كان قطارا جامحا . . صورة كلما تخيلتها حتى هذه اللحظة أغمضت عينى ورعدة شاملة تجتاح كل جسدى . .

ولقد تدخلت الصدفة تماما مثلما يحدث فى الأفلام المصرية لكى لاتمضى المأساة إلى النهاية ، فقد تنبه خفير فى المزارع المجاورة لما يحدث وأطلق عدة أعيرة

نارية مرت بجوار السائق جعلته ينظر إلى الخلف ليرى المأساة وليوقف القطار .

وأخيرا جاء القطار الصغير . .

وملأنا عربتين بينما ربض الحراس فى العربة الخلفية وتحركنا صوب الشرق . . كانت الشمس قد بدأت تنخفض عنها كل آثار المخدر والغلالات الحمراء وغمرت المكان بأشعتها الدافئة ثم الساخنة . . بينما كان القطار هو الآخر وبعد بضعة كيلومترات قد خلف وراءه الوادى الأخضر ويدخل وسط كثبان ممتدة من الرمال وبعد أقل من نصف ساعة كنا قد غرقنا تماما فى بحر من الرمال ، والهضاب والقطار بمن فيه كانا المظهر الوحيد للحياة والحركة .

كانت كل خبرتى السابقة بالصحراء هى طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوى وطريق القاهرة الفيوم ، ثم بعض المعلومات الجغرافية . وبعض الصور ، ولكن ذلك كله شيء والإحساس بالصحراء الذى احتاجنى ونحن نوغل ساعات طوالا فى أعماق الرمال شيء آخر ، إن القضية ليست مجرد امتداد اللون الأصفر الداكن على مدى البصر والإحساس بالوحشة والخوف .

إنها إحساس آخر تماما ربما توصل إليه بعد دراسات مطولة أساتذة التعذيب . . الإحساس بأنك تفارق الحياة فعلا . . وفى كلمة إنه الإحساس بالعدم .

وقد شغلنى فى الساعات الأولى الرؤية الجديدة ، فأخذت أتطلع من نافذة القطار وأسرح بخيالى فى تلك التكوينات الغريبة للرمال والصخور الداكنة . . وبينما كانت الشمس تستبد أكثر وأكثر بذلك الخلاء الموحش بدأت أتخيل على مرمى البصر أشباح غزلان تجرى أو ذئاب تفر مذعورة من صوت القطار . . ولعلى كنت أتشبث بوهم أنه لابد وأن تكون هناك حياة . . ولكن ساعات أخرى بعد ذلك أخرست حتى أوهامى واجتاحنى ذلك الإحساس القاتل . . وهو فقدان الإحساس بالحياة . . وبدأت أستعيد كل الصور التى كنت أقرؤها عن الصحراء كمجرد تعبير وتركيبات لغوية . . ت . س إليوت شاعر اليأس والأرض الخراب وهو يختار الصحراء نموذجا للإفلاس والموت العدم (تعال لترى الموت فى قبضة من الرمال) . . ولا أدرى لماذا أجريت فى ذهنى مقارنة غريبة . . كنت أتصور نفسى فيها وحيدا أصارع أمواج بحر مترام ولا شيء سوى مياه زرقاء ممتدة .

ومرة أتصور نفسى فى غابة كثيفة مليئة بالوحوش العظيمة والوحوش الحقيرة أقفز بين الأشجار هربا ممن يعتبرنى قوته وبحثا عمن اعتبره قوتى .

ثم أعيد نظرة أخرى للرمال الممتدة فأوقن أن حياة البحر رغم أمواجه المتلاطمة وحياة الأدغال رغم المخاطر المتعددة أقل قسوة بكثير من أن يتوه الإنسان فى الصحراء . . على الأقل هناك حركة وحياة يمكن أن تستمد منهما بعض الأمل ، ولكن الرمال جرداء قاحلة تهرب منها كل مظاهر الحياة . .

سبع ساعات والقطار اللاهث يدب على قضبانه الضيقة بلا انقطاع . . وزحفت صفرة الرمال على وجوه الرفاق وكفت ألسنتهم عن الحركة وكانت عيونهم تقول كل شىء .

كانت علامات الطريق المثبت فوقها أرقام الكيلومترات تجرى فى اتجاه مضاد ومساو لسرعة القطار ، كل علامة تقفز تطوى معها صفحات كتاب الحياة فيما قبل سبتمبر سنة ١٩٥٩ .

مائتا كيلومتر مائتان وعشرون ومائتان وثلاثون ، مائتان وخمسون على مرمى البصر سور أبيض غريب ولامع وسط الاصفرار الداكن المحيط ويعلو السور كلما اقتربنا منه وتتضح ملامح المبانى الداخلية ويشير أحمد طه :

- أخيرا وصلنا . . هذا هو سجن المحاريق .

كان أحمد طه الوحيد بيننا الذى يعرف المكان قد غادر هذا المكان منذ ثلاثة شهور فقط بعد أن أنهى فترة العقوبة التى أصدرتها ضده محكمة عسكرية ١٩٥٤ حيث كان من أبرز القادة العماليين الذين سعوا إلى تنظيم وتكوين اتحاد عمال قومى يكون معبرا عن الطبقة العاملة المصرية ، ولقد كان أحمد طه يستلهم فى ذلك تراث أخيه عبدالقادر طه الضابط الأسمر الذى اغتاله الملك فاروق فى أوائل الخمسينيات بعد أن بدأ مثله مثل كثيرين من الضباط الشبان يكشفون فضائح النظام الملكى والمأساة التى عاشها الضباط والجنود فى حرب فلسطين نتيجة خيانة النظام والاتجار بالأسلحة الفاسدة .

كان أحمد مثل أخيه شرسا عنيدا فى الدفاع عن الطبقة العاملة المصرية وكان وهو موظف صغير فى شركة ماركونى يكون اللجان النقابية ويذهب إلى النمسا ممثلا للعمال المصريين فى المؤتمر العالمى للنقابات العمالية . .

وحينما ألقى القبض عليه سنة ١٩٥٤ دافع عن العمال المصريين وعن حقهم فى تنظيم أنفسهم بعيدا عن تدخل السلطات وهاجم ذوى الياقات البيضاء من النقابيين الصفر الذين باعوا مصلحة الطبقة العاملة مقابل بعض الميزات الخاصة الصغيرة التى أغدقها عليهم البوليس السياسى .

وبالرغم من أنه كان قد أتم السنوات التى حكم عليه بها وأفرج عنه فى يناير ١٩٥٩ إلا أن ذلك لم يمنعهم من اعتقاله فى ٢٨ مارس هو وزوجته فقد كانوا يعرفون أنه ليس من النوع الذى يسلم السلاح .

* * *

واقتربنا من بوابة السجن الغريب الموحش وسط صفين من العساكر يقفون فى حالة استعداد ، بينما كل منا يحمل حاجياته وشنطه ، وأقدامنا تغوص فى الرمل الذى لم نتعود عليه . .

كانت الشمس الشديدة طوال النهار قد بدأت تشحب وتصفر أشعتها ، وهى تكاد تغرق من خلفنا وسط الرمال . . ونحن ندخل كالأشباح الأسطورية الزنازين التى أعدت لنا بالأبراش والبطاطين .

وجلست على البرش متعبا مرهقا بعد رحلة دامت أكثر من ٢٤ ساعة ، وإحساس بالوحشة يملأ أعماقى ، بينما كان زميلى محسن الخياط على البرش المجاور مسندا رأسه على جدار الزنزانة يتمتم فى صوت نصف مسموع كلمات بول إيلوار الشاعر الفرنسى الذى أعدمه النازيون .

على الغابة ، على الصحراء
على صدى طفولتى
على كل الصفحات البيضاء
حجارة كانت أو دما
ورقة أو رمادا
أكتب اسمك
على بركة الشمس الآسنة
على بحيرة القمر المتألق
على كل لهفة فجر
على الجبال الرعناء
على مزلاج بابى
على جباه رفاقى

على ملاجئى الخربة
على جدران صخرى
وحتى فوق الصمت
أكتب اسمك .
على عتاب بلا رغبة
على عزلة عارية
على مخاطرة خفية
على أمل بلاذكرى
على خطوات الموت
أكتب اسمك .
وبقوة الكلمة . . أبدأ حياتى ثانية
لقد ولدت لأعرفك . . ولأحبك
ولأسميك . . أيتها الحرية .

[٨]

ومن بين القضبان.. وفى عتمة الليل وبالرغم من
الجدران الثقيلة الجاثمة على صدرى.
فإن قلبى ينبض مع أبعد نجم فى السماء.
(ناظم حكمت)

أكتوبر ١٩٥٩

المحاريق . . . .

ياله من اسم يعبر تماما عن تلك البقعة الجرداء الموحشة . . وأى محاريق أكثر من أن تقبع فى زنزانة خلفها حراس ثم أكثر من مائتى كيلومتر من محيط أصفر يفصلك عن ماء النيل وخضرة واديه . . .

وبغض النظر عن بعض الحكايات التى ترجع إلى وقائع تاريخيه أو إلى روايات أسطورية فإن المكان كان «محرقة» بحق . . . يقولون إن الاسم يرجع إلى العصر الميلادى الأول حينما كان يتعرض المسيحيون الأوائل لعسف واضطهاد الحكام الرومانيين . . وإن جماعة من هؤلاء قد هربوا بمبادئهم إلى تلك البقعة وألقى القبض عليهم فأحرقوا فى أحد الأخاديد . . ومازالت هناك بالفعل ، وعلى بعد بضعة كيلومترات من السجن بعض المقابر والشواهد التى يزورها المسيحيون من حين لآخر . .

والبعض يقولون إن التسمية تعود إلى شدة وقسوة الشمس وأشعتها فى تلك المنطقة حتى إنها تحول كل شىء إلى لون داكن أو فاحم ، وبالفعل فإن كل شىء هناك فى حالة شبه احتراق . . الرمال ليست صفراء بذلك اللون الكهرمانى المعروف ، بل يشوبها رمادية خفيفة وبعض أشجار النخيل والزيتون والخروع المتفرقة هنا وهناك سوداء اللون ضعيفة البنية كالحة . .

حتى الإنسان . . وقد رأينا بعضهم ونحن فى طريقنا إلى السجن ، من النوع القزمى النحيف الذى يخالط شحوب وجهه سمرة داكنة ، وتحس لدى رؤياهم بأنك أمام نماذج متحفية وتاريخية انعزلت عن التطور البشرى ووقفت كجنس منفرد تحيطه الصحراء الشرسة من كل ناحية تفرض عليه الانعزال والضمور . .

ولقد فسر بعض زملائنا الأطباء هذه الظاهرة بأنها نتيجة للنقص فى مركبات الكالسيوم والفسفور المفقودة فى ذلك المكان بالإضافة إلى انعدام الاختلاط والتجانس . . .

ولقد أكد لنا هذه الحقيقة رؤيتنا فى اليوم التالى لوصولنا لزملاء لنا كانوا يقضون فترة سجنهم فى ذلك المكان بعضهم مضى عليه أكثر من خمس سنوات . . كان معظمهم من الأسماء التى سمعت عنها كثيرا عندما كنت طالبا فى الجامعة ثم أسمع بين حين وآخر أنه قد ألقى القبض على البعض وأنه صدرت بحقهم أحكام بالسجن تتراوح بين ٣ سنوات وعشر سنوات . .

كانت البدل الزرقاء التى يلبسونها ووجوهم الشاحبة وعيونهم الغائرة قد أوحت لى من اللحظة الأولى لرؤياهم أنى أمام أشباح هاملتية تعيش فى تلك الصحراء لتعذب ضمير مصر كلها .

كان منهم صلاح حافظ الكاتب الشاب فى روز اليوسف والذى طالما كنت أحس برنة الفرحة والتفاؤل وأنا أقرأ كتاباته .

وكان منهم مصطفى طيبة ومجدى فهمى العاملان اللذان ألقى القبض عليهما قبل سنة ١٩٥٢ ، ومحمد شطا أحد قادة العمال فى شبرا الخيمة ، وحمدى عبدالجواد وفؤاد عبدالحليم الطالبان فى الجامعة المصرية فى أوائل الخمسينات واللذان حوكما لأنهما عملا على تنظيم الفلاحين وتوعيتهم ضد الإقطاع وجبروته .

وزكى مراد ومحمد خليل قاسم المثقفان النوبيان اللذان حاولا إيقاظ أبناء جلدتهما من سبات الجهل والتخلف المفروض عليهم .

وداود عزيز ووليام الملك ، اثنان من أشهر وأصدق الفنانين التشكيليين اللذان كانا يمثلان مدرسة جديدة فى الفن ويتخذان منه سلاحا قويا فى يد المضطهدين من أجل إعلاء كلمتهم .

أكثر من مائة سجين عاشوا فى تلك البقعة سنوات واعتادوا عليها وكانت رؤيتهم لنا والتقاؤنا بهم أشبه بروافد تتجمع بعضها جديد وبعضها قديم لتكون كلها مسارا لنهر

واحد لديه من الشباب وقوة الاندفاع ما يجعله يحلم بأنه سيمرق يوما من هذه الصحراء دون أن تجف مياهه لتلتقى بالنيل العظيم .

هكذا كان شعورى فى الأيام التالية وبعد الالتقاء بالزملاء المسجونين أو بهؤلاء الجدد الذين رحلوا قبلنا من الفيوم أو من القلعة .

كان هناك ثلاثة عنابر كبيرة يضم كل عنبر عشرين غرفة .

وفى عنبر واحد وضعنا ووضع معنا كل المعتقلين سواء الدفعة التى سبقتنا فى يونيو أم هؤلاء الذين رحلوا من القلعة فى مارس . . أما عنبر اثنين فقد أقام فيه المسجونون الشيوعيون . وفى عنبر ثلاثة كان هناك المسجونون من الإخوان المسلمين الذين صدرت ضدهم أحكام سنة ١٩٥٤ فى أعقاب محاولة اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر أثناء خطابه فى ميدان المنشية بالإسكندرية .

لقد استطاع الرفاق حقا أن يخلقوا حياة خاصة ومزدهرة فى تلك البقعة سرعان ما بدأت تستوعبنى وتخفف كثيرا من أحاسيس الوحشة التى انتابتنى فى اليوم الأول .

كانوا فى حاجة لنا مثلما نحن فى حاجة لهم .

ولم يكن غريبا وفى الأيام الأولى أن ترى أحد المعتقلين الجدد مصطحبا أحد المسجونين القدامى . . الأول يحكى عن الحياة الأخرى التى تركها منذ شهور تنبض وتقفز فى الشوارع والمنازل بذكرى شبه خضراء لم تجف بعد ، والثانى يعطيه بعض الخبرات عن عالم السجن الذى عاشه لثلاث أو خمس أو سبع سنوات .

ولقد أدهشنى وأنا أقف أمام بعض اللوحات التى رسمها داود عزيز أو وليام الملك أن أجد نبض الحياة قويا فى الخطوط ، فى الفكرة وفى الألوان . وبقدر ما أدهشتنى تلك القدرة على الخلق والابتكار التى تشع من خلف نظارة صلاح حافظ بعد أكثر من خمس سنوات فى ذلك المكان .

بقدر ما أحسست بالخجل من ذلك الضعف والإحساس بالضياع الذى اجتاحنى ونحن فى الطريق يوم وصولنا .

وأحسست بأن هناك فرقا كبيرا بين أن تحب الحياة وتدافع عنها فى داخلك وبين أن تسمح لليأس والضياع بأن يجريا فى دمك . . إن الدفاع عن الحياة اقتناع وإحساس داخلى وليس مجرد أشكال مظهرية . . فهناك الكثيرون ولاشك الذين يعيشون فى ربوع الوادى بلا قيود ومناف أو سجون لايحبون الحياة ولايدافعون عنها ، بل ويعملون على تشويهها بينما تلمس من اللحظة الأولى فى عيون الرفاق الذين قضى

بعضم أكثر من خمس سنوات بين الأسوار رنة أمل موحية مازالت تنظر إلى مابعد الحاجز الأصفر بطموحات متجددة.

كان كل يوم يمر يزداد الإنسان فيه تكيفا مع العالم الجديد

عالم السجن المنعزل والذى لم يكن فى حاجة بالقطع لهذا السور الأبيض القائم.

وانتهت حكايات اللقاء.. حكايات كلها قديمة وأكثرها حداثة يرجع تاريخه إلى إبريل ١٩٥٩.. وحكايات موغلة فى القدم.

وبدأت، مثلما بدأ الزملاء الجدد، يبحثون عن وجودهم فى عالمنا الجديد.. البعض من الفنانين وهواة الفن التشكيلى والنحت راحوا يمارسون هواياتهم.. وآخرون مثلى بدءوا يضعون مشروعات قصص أو دراسات.. وأغرق البعض أنفسهم فى قراءة الكتب الموجودة ولم تكن قليلة وبعضها جيد.. وتولى بعض الزملاء تنظيم حياتنا العامة فى حدود الإمكانيات المتاحة.. أى أن يتولواهم استلام كل مايرد إلينا من طرود ونقود يرسلها أهالى البعض ثم يقومون بتوزيع الاحتياجات على المعتقلين والمسجونين بالمساواة، بغض النظر من أن الكثيرين، وخاصة العمال والفلاحين لم يكن يصلهم شىء.

وفى المساء وحينما تغلق الزنازين وكانت الزنزانة تضم بين ١٢ إلى ١٥ شخصا يبدأ توزيع المهام التى يكون عمدة الزنزانة قد حددها.

فهذا يعيد طهى الأكل الذى يوزعه السجن والذى لم يكن يختلف كثيرا عن الأكل فى معتقل الفيوم، قطعة الجبن وبعض العسل الأسود وأروانة عدس أو فول وفى بعض الأيام أروانة تورلى - وكنا نسميها الحشائش الغريبة، وبها قطعة صغيرة من اللحم.. وبعد انتهاء العشاء يقوم آخر بصنع الشاى.. هذا بينما يكون هناك زميل قد جهز نفسه ليروى لنا قصة عالمية أو مسرحية أو يحكى بعض خبراته الخاصة، وفى بعض الليالى تدور مناقشات سياسية حول الظروف التى تمر بها البلاد والمنطقة العربية.. بينما يشترك كل اثنين أو ثلاثة فى تدخين سيجارة «ونجز».

وفى الصباح كنت أقوم بزيارة لبعض الزملاء المسجونين فى عنبر (٢) إذ كنت مشوقا لأن أتعرف على تجربتهم الطويلة فى السجون.. وأيضا للتعرف على تقديراتهم السياسية لما يجرى من أحداث.

على أن عنبر (٣) حيث الإخوان المسلمون كان يشدنى هو الآخر، وكثيرا ماكنت أتوقف طويلا فى الفناء الذى يفصل عنبر اثنين عن عنبر ثلاثة لأتأمل بعض هؤلاء

الذين كانوا يتميزون إما باللحية التى أطلقها غالبيتهم أو بالأجسام الممتلئة .

لقد كنت دائما اختلف مع الإخوان المسلمين حتى قبل أن أكون ماركسيا . . فقد كان هجومهم على حزب الوفد وتعاونهم مع الملك أحيانا والغموض الشديد الذى كان يكتنف شعاراتهم الوطنية والاجتماعية يبعدنى عنهم فكريا . . كما أن تجربتى معهم فى الجامعة بعد ذلك وعدم قدرتهم على إجراء حوار أو نقاش واللجوء إلى العنف دائما قد ضاعف من اعتراضى على منهجهم

واليوم يجمعنا سور واحد وتحيط بنا صحراء واحدة وتحكمنا وتتحكم فينا إدارة واحدة .

ولقد كنت أسأل الزملاء الذين عايشوهم لسنوات فى هذا المكان عن علاقتهم بالإخوان ، وعرفت أنها ظلت علاقات جوار طيبة فقط . إذ كان الإخوان وقيادتهم يرفضون إجراء أى حوار مشترك . . . بل إنهم كانوا يعتبرون وجود الشيوعيين فى السجن أمرا طارئا لأن عبدالناصر من وجهة نظرهم أخطر شيوعى فى المنطقة .

وعبثا حاولت أن أنأى بنفسى عن المشاكل . . كنت لا أتصور أن هناك من يضمنى معهم سجن واحد ثم لا أعرفهم حتى ولو كانت آراؤنا متباينة .

وذات صباح رأيته .

زميلى «عاشور» كان طالبا معى فى الآداب وألقى القبض عليه فى ١٩٥٤ وحكم عليه لعشر سنوات لانتمائه إلى التنظيم السرى للإخوان .

وبرغم اللحية وامتلاء الجسم وتغير بعض تضاريس وجهه إلا أننى ناديته ، والتفت إلى بحذر واقتربت منه ولما لم يستطع أن يتعرف على قدمت نفسى له .

وسرعان ما ألقى بالقناع الجامد الذى يضعه على وجهه وتعانقنا طويلا .

كانت تجمعنا ذكريات كثيرة أيام الجامعة . . كنا على طرفى نقيض فى قسم إنجليزى ، ولكننا كنا فى نفس الوقت أكثر الطلبة حوارا ومناقشة وحركة .

كان هو مثلا يصدر مجلة «الهدى» وكنت أصدر مجلة أسميها «الفجر» . . بل وكثيرا ما كنا نلتقى فى الكافيتريا لنجرى حوارا مفتوحا وسط الطلبة حول الأفكار والنظريات المختلفة ومستقبل مصر .

كان هو يرى ذلك المستقبل فى خلافة إسلامية تستمد أسسها وقواعدها من الشريعة الإسلامية .

وكنت أرى هذا المستقبل فى اشتراكية حقيقية تعطى لكل حسب عمله وجهده دونما استغلال أو تمايز طبقى .

وكأن هناك أمرا جديدا بيننا .

كنت أناقشه فى الإسلام الحقيقى لأصل به إلى أن مبادئه الأصيلة تتفق مع الاشتراكية التى أدعو اليها .

وكان هو يناقش فى الاشتراكية لإقناعى بأنها تأتى مع النظام الإسلامى الذى يدعو إليه .

كنت أقول له أنت اشتراكى ترفع لواء الإخوان .

وكان يقول لى وأنت مسلم ترفع لواء الشيوعيين .

لم يكن لديه الجمود التقليدى الذى تميز به الإخوان فى تلك الفترة ، بل إنه لم يكن يحب العنف الذى يلجأ إليه الإخوان فى الجامعة حينما كانوا يستخدمون الكرابيج والسكاكين فى إقناع معارضيهم . . بل كان يدينه وبشدة .

ولقد كنا صديقين حقا رغم اختلاف وجهتى نظرنا ، ولكن لم أشك لحظة فى أن «عاشور» واحد من أبناء مصر المخلصين .

ولقد عشنا يوما كاملا ، وقد جلسنا خلف مطبخ السجن نجتر ذكرياتنا المشتركة ، بل ونضحك حتى تدمع أعيننا .

وعندما حان وقت التمام طلبت منه أن أراه فى الغد . ولكن وجهه اكتسى حيرة مفاجئة ثم قال :

- أفضل أن أراك مرة واحدة فى الأسبوع . . وهنا بعيدا عن العيون .

- أى عيون . . !!

- عيون الإخوان ، إنهم لايرتاحون لمثل هذه اللقاءات .

لماذا؟

وابتسم فى مرارة

- أنت تعرفهم . . ولست أريد مشاكل معهم؟ إنهم إخوان على أية حال .

لهذه الدرجة يجمعنا سجن واحد ومحنة مشتركة وتخافون من المناقشة والجدل ، إننا هنا جميعا لأننا لم نتعلم بعد كيف نناقش الفكرة بالفكرة . . ألم يفهموا الدرس بعد .

وسلم عاشور على اتفاق بأن نلتقى كل يوم سبت فى هذا المكان .

وكان يوم السبت ٧ نوفمبر ، وكان موعد لقائى الثانى مع عاشور وجاء متأخرا بعض الوقت وهو يتلفت خلفه كثيرا وضحكت .

– كأنك تقوم بمهمة سرية .

– إن هناك عقولا متحجرة كما تعرف .

ومرة أخرى غرقنا فى ذكريات الكلية . . وأخذنا نستعيد بعض أشعار شكسبير وشيلى ولورد بايرون وت . س إليوت .

وأخذ يتلو جزءا من قصيدة إليوت «الأرض الخراب» بصوت مرتعش :

سيدة الصمت .

حزينة ساكنة . . ومنهكة

الوردة الوحيدة فى الحديقة

تنتهى بالآلام .

تنتهى بلا نهاية .

فى رحلة بلا آفاق

شجر «العرعر» الخروع

تتناثر العظام .

وفى يوم بارد تباركه الرمال

تتحد العظام فى الصحراء .

هذه هى الأرض التى نقتسمها .

ليس المهم أن نقسم أو نوحد

ولكن هذه الأرض هى التى ورثناها

لقد كان عاشور مغرما بإليوت وبأشعاره الحزينة والبائسة وقد كنت دائما أسخر منه ومن إليوت .

ولكنى استمعت إليه هذه المرة وقد كان يجيد إلقاء الشعر ، ووجدانى كله يهتز ، ليس لما يقوله إليوت ولكن للطريقة التى يقول بها عاشور .

وقبل أن أتركه هذه المرة . . . قال

- على فكرة . . بعض الإخوان كانوا فى الإدارة النهارده وسمعوا كلاما واستعدادات عن حاجة بكرة تخصكوا .

- حاجة زى إيه .

- محدش عارف بالضبط . . يمكن ترحيلة . . يمكن دفعة جديدة أو يمكن حد مسئول هيزور السجن .

قلت له ضاحكا .

- ياسيدى . . على أية حال . . غداً يوم آخر .

وكان بالفعل يوما آخر .

[٩]

أشم شيئا يحترق

أرجو ألا يكون عقلى

(جندى أمريكى فى فيتنام)

٨ نوفمبر ١٩٥٩

اجرى . . اجرى . . اجرى .

الكرابيج والعصى الغليظة لاتترك فرصة للتفكير .

اركع . . اركع . . اركع . .

وضربات الشوم ودبشك البندقية لاتكف عن العمل فى جسدك . . ونار هائلة مشتعلة تكاد تشم منها رائحة أجساد بشرية تشوى . . وبعض رؤساء قبائل «أكلة لحوم البشر» تجلس فى انتشاء وهى تتفرج على الفريسة .

– اسمك إيه ياولد

وسواء أجبت أم لم تجب لابد وأن تنهمر عليك الضربات من كل مكان وبكل وسيلة بما فيها ركلات الأحذية «الميرى» .

– بتشتغل إيه يابن الـ . . .

والشوم والدبشك والأحذية لاتكف عن العمل .

– عاملى سياسى يابن الـ . . .

– قول أنا مرة . . قول أنا كلب . . قول أنا حمار . .

ورغم المفاجأة المذهلة ، ورغم التخطيط المحكم الذى ينقلك فجأة إلى عالم يضيع فيه العقل فإن واحدا من المائتى معتقل لم يشذ عن أحد ثلاثة فى إجاباته :

- أنا مصرى

- أنا اشتراكى مصرى.

- أنا أحسن منكو.

لم يكن أكثرنا تشاؤما يتصور أن ذلك يمكن أن يحدث.. وحين طلب منا فى الصباح الباكر ومن ذلك اليوم أن يحزم كل منا أمتعته فى انتظار الأوامر، دارت كل التصورات والتوقعات حول ترحيلة جديدة.

ولكن إغلاق الزنازين والأوامر المشددة بعدم الكلام ثم ذلك الشحوب القلق الذى يعلو وجه ضابط السجن وعساكره وحتى قائده كان يوحى بأشياء مبهمة صعبة التفسير.

كان كل ما استطعنا أن نعرفه أن اللواء إسماعيل همت وكيل مصلحة السجون ومعه فرقته الشهيرة بفرقة همت قد وصلت مساء أمس إلى الواحات.. وكان ذوو الخبرة فى السجون المصرية يعرفون همت بأنه ناعم الصوت رقيق الجسد أحمر الوجنات تركى الملامح والجذور ثم شديد القسوة فى معاملته للرجال وكأن بينه وبينهم ثأرا، ولديه ولع مجنون بتعذيب من يتوسم فيهم رجولة مكتملة ثم الإصرار على أن يقول واحد منهم «بأنه امرأة».

وبغض النظر عن الحكايات التى تروى عنه وبانتمائه إلى الجنس الثالث الذى هو ليس بين الرجال أو بين النساء، فلقد أكدت لى تجربتى مع هذا الضابط الدموى نظرية كنت قد قرأت عنها بخصوص «التفسير السيكولوجى للشخصية النازية» استخصلها المؤلف من دراسات واقعية على عدد من مجرمى الحرب النازيين والفاشيين، بل وامتد فى دراسته إلى الشخصيات التاريخية التى عرفت بقسوتها واستمتاعها بالتعذيب والقتل.

وتقول النظرية ببساطة إن مثل هؤلاء من الرجال أو النساء غالبا مايعانون من شذوذ جنسى مما يؤدى بهم إلى كراهية عميقة لأنفسهم وللناس والحياة حولهم ويعيشون دائما فى «حالة انتقام».

وبدأت أغرب تمثيلية شهدتها فى حياتى بل وكان لى دور فيها.

ينادى أحد العساكر ستة أسماء ويخرج الزملاء حاملين معهم كل أمتعتهم وتمر بعض الدقائق ثم فجأة نسمع هرولة وصرخات مكتومة وصهيل خيل وفرقعات سياط وكأننا نسمع موسيقا تصويرية لأحد أفلام المعارك.

ثم ينادى على ستة أسماء أخرى.. وهكذا.

وحتى هذه اللحظة، وبمرور أكثر من نصف ساعة على بدء المشهد الأول الذى أخذ يتكرر كل عشر دقائق كان كل ما استطعت أن أصل إليه بانفعالاتى المحتدمة مع الصرخات المكتومة وصرخات حوافر الخيل وفرقعات السياط أن شيئا ما رهيبا يحدث فى الخارج . . ماهو؟!

وجاء دورى، ونودى اسمى مع خمسة آخرين . . كان بينهم الصاغ الدكتور محمود القويسنى، والمهندس الجيولوجى فخرى لبيب، والشاعر محسن الخياط والطالب الجامعى وجيه سمعان وعامل النسيج محمد عبدالواحد .

خرجنا من الزنزانة ثم من العنبر فى صف واحد أمامنا عسكرى وخلفنا عسكرى كل منهما شاهر سلاحه .

وقبل أن نصل إلى بوابة السجن التى كانت مفتوحة على مصراعيها وأمامها صف من الخيالة ممسكين بسياطهم وآخرون ممسكون بالعصى الغليظة . . انسحب الجنديان بسرعة وأحدهما يقول فى ألم واعتصار :

- شدوا حيلكو . . ربنا معاكو .

وانتقلنا فورا إلى القرون الوسطى بخروجنا من البوابة .

اجرى . . اضرب . . كرابيج . . شوم . . الرأس . . العين . . الجسد يلتهب . . اجرى . . فرسان القرون الوسطى يركبون الخيل وفى يدهم السياط يضربون الفريسة وينهكونها . . وعلى الصفين طابور من كلاب الحراسة يمسك بالعصى تنهش . . وصرخات الغابة الوحشية تمتزج فيها ضحكة الضبع الجائع المجنون مع ضوضاء القردة وعواء الذئاب وولولات الصقور .

ثم وعند نهاية سور السجن قرب البوابة الخلفية . . جلست محكمة التفتيش . . رغم كل شىء . . رغم العصى والسياط التى تنهمر كالمطر . . ورغم الأوامر . . اركع . . اقعد . . اخفض رأسك . . فلقد كنت مشوقا أن أراه، إمبراطور الجنس الثالث .

وريث كل ماهو سيئ وحقير وحاقد على الناس والحياة . . الإمبراطور التركى إسماعيل همت .

كان يجلس كجنرال يقود حربا خطيرة تحت مظلة أقيمت له وإلى يساره قائد السجن وإلى يمينه عدد آخر من ضباطه .

كان الدم يكاد ينفجر من خدوده الحمراء المكتنزة وهو يضحك بينما جسده كله

يهتز ونحن نخلع كل ملابسنا لنقف عراة أمامه بينما يقوم الحلاق باجتثاث كل شعر في أجسادنا بموس معه ابتداء من شعر الرأس حتى الحاجبين وشعر الصدر والعانة . . أما ملابسنا وشنطنا فقد ألقيت في نار هائلة مشتعلة .

وبدأ الجنرال النازى يمارس هوايته مع الرجال العرايا .

وأشار بعصاه إلى الصاغ الدكتور محمود القويسنى الذى كان فى أول الصف :

- اسمك إيه ياولد .

- الصاغ دكتور محمود القويسنى .

- صاغ إيه ودكتور إيه يابن القحبة . . . اسمك إيه ياواد .

- صاغ دكتور محمود القويسنى .

- بتتحدى يابن الـ . . والله لحط العصاية دى فى . . . . .

- عيب يا إسماعيل ياهمت ! !

قالها الدكتور القويسنى فى ثقة ومرارة . . بينما العصى والسياط تنهمر على جسده العارى وهمت يصرخ ويشاركهم فى الضرب .

كان الدكتور محمود القويسنى ضابطا فى سلاح الفرسان حتى ١٩٥٤ وكان إسماعيل همت أيامها قد فصل من الجيش «لمسائل أخلاقية» فى بداية ثورة ١٩٥٢ ثم أعيد ضابطا فى مصلحة السجون . . وكان الدكتور القويسنى يعرفه جيدا ويعرف نقاط ضعفه فلطالما وقف إسماعيل همت بين يدى محمود القويسنى ذليلا مستضعفا لايجرؤ على أن يرفع رأسه إليه مبتهلا بالتوسط لإعادته إلى الخدمة .

وجاء الدور على الطالب وجيه سمعان .

- اسمك إيه يابن الـ . . .

- وجيه سمعان . . طالب بآداب القاهرة .

- منين ياوله

- من جزيرة شندويل بسوهاج

وصرخ همت فى نباح كالكلبة .

- يابن الـ . . نصرانى وصعيدى وكمان شيوعى .

هكذا ينظر التركى همت إلى المصريين . . . ونسى أن رئيس جمهورية مصر فى ذلك الوقت جاء من الصعيد . . ونسى أيضا التراث المصرى الأصيل الذى لايفرق بين المسيحى والمسلم فى وادينا الحبيب .

وجاء دورى . . وصمت تماما ، لم أجب على صراخه وأسئلته .

أحسست بالتقزز من كل مايجرى ، نسيت العصى المنهمرة والكرابيج بل نسيت جسدى ونفسى تماما سوى شىء واحد . . لقد كان عقلى متيقظا وكان القرار أن الموت أفضل من أن أفقد إنسانيتى .

– أنت مش سامعنى يابن الـ . . . اكلم ياوله . . هاموتك . ووقفت صامتا ، وكففت حتى أن أرفع يدىَّ لأتلقى الضربات أو أتحرك هنا وهناك هربا من الشوم المنهمر .

ماذا يمكن أن يقول الإنسان لهذا الكلب المسعور .

وتقدم المهندس الجيولوجى فخرى لبيب حيث يقبع همت وهو يصرخ :

– أنت فاشى صغير . . أنت قاتل . . ستدفع الثمن يوما .

وتراجع همت من هول المفاجأة ، ولكن سرعان ماعادت آلة التعذيب والموت كلها تطبق على فخرى . . كل العساكر بما فى أيديهم من كرابيج وشوم تعمل على جسده العارى . وسقط فخرى على الأرض ، وتجرأ همت واقترب منه؟ وأخذ يضربه بحذائه .

وأيقنت أن فخرى قد قتل . . ولكن ذلك لم يكن كافيا من وجهة نظر الفاشى التركى . فأمر بأن يصلب فخرى على العروسة ، ووقف ثلاثة من الزبانية يتبادلون ضربه بالكرباج . . وهمت يصرخ .

– قول أنا مرة .

وصوت فخرى لايكف محملا بكل الآلام ولكنه صادر من الأعماق .

– أنا أحسن منك . . أنا اشتراكى مصرى .

كنت أتابع ضربات الكرباج على جسد فخرى الذى تفجر كله بالدم والكدمات ويجتاحنى إحساس بالعجز الشديد وبالاحتقار الشديد لكل شىء حتى نفسى .

أكثر من سبعين جلدة صمت بعدها صوت فخرى تماما وارتمى رأسه على كتفه ، كان هناك فيما يبدو إصرار على قتله ، فأنزلوه من فوق «الصليب» وأخذ همت يقلب رأسه بحذائه ثم يقول بصوته الأنثوى :

- لسه عايش ابن الثور.

وصرخ فينا قائد المعتقل.

- ياللا.. على العنبر.. خذوه معاكم.

وحملنا فخرى بين أيدينا.

خمسة من العراة يحملون زميلا لهم يطرق الموت جسده، وخلفهم جوقة من الكورس العسكرى الذى لايكف عن الضرب. حتى دخلنا العنبر.

ترى هل واجهت المريميات هذا الموقف وهن يحملن المسيح من فوق صليبه بعد أن نزف حياته قطرة قطرة.

ترى هل كان بلال على نفس الصورة بعد أن ظل ثلاثة أيام يضرب بالسياط وهو مصلوب فى بطحاء مكة إلى أن حمله المؤمنون الأوائل.

ترى هل جاء نفر من رفاق سبارتاكوس بعد أيام ليخلصوا المسامير التى دق بها جسده فى شجرة على الطريق الرومانى المعروف بطريق الصلبان.

المسيح.. بلال.. سبارتاكوس.. كل هؤلاء الذين حلموا بالخير والعدالة والمساواة.. صور حفرت فى رأسى وأنا صغير ولكننى لم أكن أطمع أن أراها وأعيشها مثل ذلك اليوم.

عادوا كلهم إلى ذهنى ونحن نحمل رفيقنا.. وحين دخلنا إلى الزنزانة ظللت صامتا لم أكن مصدوما مثلما تصور رفاقى، بل لقد كنت فى تمام الوعى والإدراك.. كنت أرى فخرى ممدودا وسط الغرفة والزملاء حوله يتلمسونه ويريدون أن يبعثوا فيه الحياة من جديد.

وكنت أرى وأسمع الدكتور القويسنى وهو يهز فخرى بصوت مبلل بالدموع:

- فخرى.. فخرى.. رد علينا.. ثم وهو يقول بصوت أكثر اطمئنانا:

- قلبه بينبض.. الكلاب..!!

وجيه سمعان وهو يمسك بظهره ويتألم فى صمت.

ومحمد عبدالواحد وقد وضع رأسه بين يديه وأخذ ينتحب.

ومحسن الخياط وقد راح يردد:

- دامش معقول.. إحنا فين.. إحنا فى غابة.

وجاءت دفعة أخرى . . دخلوا الزنزانة . . أجساد عارية منهكة . . يختلط عليها الدم بآثار ضربات الشوم والكرابيج . . ويرتمون وهم يلعنون ويتأوهون .

وجاءت دفعة ثالثة . . اثنا عشر زميلا فى زنزانة ، عارون تماما وقد تغيرت ملامح وجوههم ، بلا شعر وبلاحواجب .

وتقدم منى محسن الخياط يتفرس فى وجهى وهو يقول .

- إنت مين .

- أنا . . .

- مش معقول . . داشكلك غريب خالص . . ياخبر . . وضحك .

وتفرست أنا فى وجهه . . وضحكت . . بل وامتدت ضحكاتنا .

وضحك كل من فى الزنزانة . . وبدأت الضحكات ترن فى الزنازين الأخرى . . وفى دقائق كان العنبر كله يضحك .

وجاء العساكر يستطلعون الخبر . . وارتسمت على وجوههم الدهشة وهم يروننا نضحك .

وضرب الشاويش عبدالعظيم - شاويش العنبر - كفا على كف وهو يقول :

- عجيبة .

[١٠]

أتدرون من المفلس؟..
قالوا: المفلس من لادرهم له ولا متاع.
فقال عليه السلام: المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة لصلاة وصيام وزكاة، يأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وضرب هذا وسفك دم هذا.

(حديث نبوى)

٩ نوفمبر ١٩٥٩

وحينما هام الملك لير فى مسرحية شكسبير الخالدة على وجهه وحيدا شريدا ومعه مهرجه المعروف كانت كل أحلام لير تدور حول انتصار قيم الحياة الشريفة ، وليس مجرد العرش .

أما المهرج فحين سأله لير عن أمنياته قال :

- أمنيتى أن أجد حذاء .

ولقد كنت أضحك دائما مع كلمات المهرج الذى لم يشغله فى كل المأساة سوى أنه يريد حذاء يقى به قدميه العاريتين من غول البرد وغائلته .

وفى ذلك الصباح القارس أدركت أهمية الأمنية التى عبر عنها الفيلسوف المهرج . إنها أمنية الحفاة الجائعين .

كان اليوم التالى للحفلة الكبيرة التى أقامها الإمبراطور التركى إسماعيل همت وانطلق صوت البروجى والشمس مازالت فى رحم الأفق المشرق تتجمع فى فناء سجن الواحات ونحن نجلس القرفصاء فى صفوف متراصة .

والرياح الخفيفة المثلجة تعصف بأجسادنا المنهكة شبه العارية والتى لايسترها سوى بعض الخرق الصفراء التى وزعوها علينا لتصبح زينا الرسمى الجديد.

وتحت القدم العارى لسعات الرمال التى تحولت كلها إلى ذرات من البرد الموجع ينفذ من القدم إلى النخاع فترتعش الدماء فى العروق.

ولقد سمعت كثيرا عن الجو القارس فى الصحارى، حيث البرودة برودة حقيقية وحيث الحرارة حرارة مستبدة.. ولكنى فى ذلك الصباح أحسست كما لو كنت قد ألقيت عاريا وسط أكوام من الثلج.

وأمام الصفوف جلس قائد المعتقل على كرسى وأمامه منضدة وفوقها كوب من الشاى الساخن يتصاعد منه البخار.. وتلاحقه عيناى وشفتاى بشغف بالغ.

كوب من الشاى الساخن.. حذاء أو حتى بلغة.. شىء لستر الجسم.. بدلا من هذه الخرقة.

كلها كانت أمانى عظيمة وخالدة فى ذلك الصباح.

وجلسنا أكثر من نصف ساعة فى وضع القرفصاء وأوامر مشددة بأن ننكس رءوسنا، أى تنظر الى مابين قدميك.

ثم نفخ البروجى.. وجاء الجنرال التركى. طاووس منتفخ يحس أنه ليس فى هذه الدنيا، وربما فى السماء، من هو أقوى منه.

وأخذ ينظر إلينا فى تشف غريب، وبإحساس بالزهو والتفوق باحثا عن آثار «حفلته الكبرى» التى أقامها بالأمس.

وكان الجنرال فيما يبدو قد أحس بأنه لم يستطع أن «يذبح» بالأمس ماتصور أنها فريسة سهلة له، حقيقة كان هناك من كسرت ساقه أو ذراعه أو بعض ضلوعه فى «مهرجان الضرب والتعذيب».. ولكن الفريسة لم تخضع ولم تفقد أحاسيسها الإنسانية الدافئة كما تصور.

ولعل آخر شىء سمعه قبل أن ينام فى تلك الليلة، هو تلك الضحكات التى انطلقت من الغرف والعنابر التى كانت تسخر منه، بل وتعمق لديه الإحساس بالحيوانية.

طوال ليلة أمس كان «العقل الجماعى» لنا يفكر. مثلما كان يفكر دائما.. بل إن عقولنا فى تلك الليلة كانت متقدة وسط عاصفة عاتية من الظلمة والتعسف.. ووصلنا إلى قرار..

لابد من هزيمة الغرض الذى جاء من أجله همت . .

وكان الاتفاق بيننا . .

لامانع من أن نحنى رءوسنا قليلا إذا كانت مجرد عاصفة طارئة . .

أى نقاوم أية محاولة لانتهاك آدميتنا وفى إطار عدم إعطاء الفرصة لهمت بأن يجرى مذبحة .

كنا قد عرفنا بالأمس أننا سنذهب فى الغد للعمل فى الجبل وكانت هناك ثلاثة احتمالات فكرنا فيها واستطعنا أن نضع خططا عاجلة ومتغيرة لمواجهتها .

إما أن يكون المطلوب من كل ماحدث هو أن يصلوا بنا إلى نقطة الصفر ، أى تجريدنا من كل الحقوق التى يتمتع بها المسجونون لكى نكف عن الحديث عن السياسة والمطالبة بالإفراج ولحصر مطالبنا فى الحقوق التى سلبت منا . . أى باختصار أن نفقد شخصيتنا السياسية المفكرة لنتحول إلى مجرد مسجونين . . ويتحول صراعنا إلى ذاتية حيوانية من أجل البقاء .

وإما أن يكون هناك مؤامرة عاجلة يدبرها الإمبراطور همت بخروجنا للجبل لانتهاز أى فرصة للتخلص من أكبر عدد منا خارج الأسوار برصاص المدافع الرشاشة . . ويمكن اختلاق مبررات كثيرة . . أبسطها التمرد والهياج . . وخاصة أن له سابقة فى ذلك . .

صدرت الأوامر لنا بالنهوض والتقدم نحو بوابة السجن .

ومضينا فى أربع مجموعات متراصة تحرسنا المدافع الرشاشة من الجانبين وتنهال علينا الشتائم والأوامر وضربات الخيزران اللاسع .

وعند البوابة . . حدث شيء له دلالة :

فعندما بدأنا نخرج . . طلب الإمبراطور همت من قائد المعتقل أن يوقع على كشف البوابة ، وصمت القائد لحظة ثم نادى على اليوزباشى عبدالعال سلومة وكيل السجن وأمره بأن يوقع على الكشف . . وكانت المفاجأة .

قال اليوزباشى سلومة بصوت مسموع :

– متأسف ياافندم . . إنها ليست مسئوليتى . . وأدركنا الموقف على الفور .

لابد أنه قد دار فى عقلى المأمور واليوزباشى سلومة احتمالات أن يمارس الإمبراطور همت نزقه معنا . . وهما لايريدان أن يتحملا مسئولية ذلك .

ومرت لحظات طويلة قاسية مليئة بالانفعال الشديد والصامت . . ونحن وقوف على أعتاب البوابة نشهد الموقف وندرك أبعاده .

ولابد أن الإمبراطور قد أحس بهزيمة مخططه وانكشافه فى تلك اللحظات فعاد يصرخ ولكن بصوت مهزوم . .

- خلصنا ياحضرة المأمور . . دول مسئوليتك . .

ووقع المأمور على كشف البوابة . . ولكن بعد أن أكد مسئوليته . .

وخرجنا إلى الصحراء . . ترحيلة أخرى . .

المقاول همت ومعه قائد المعتقل «وفرقة الحفلات الشهيرة» فى عربات الجيب فى المقدمة . . ثم وطوابير «العمال والفعلة» يحرسهم الخولية بمدافع سريعة الطلقات . . وفى الخلف فرقة السجن تحمل المدافع والبنادق .

ورغم نسمات البرد اللافحة وذرات الرمل والحصى والشوك التى كانت تنغرس فى قدميّ العاريتين . . ورغم كل الاحتمالات التى كانت تدور فى الذهن فيترصدها بين لحظة وأخرى، إلا أن امتداد الأفق أمامي بلا أسوار كان شيئا طيبا فى حد ذاته . . ومع الخطوات السريعة المنتظمة التى أمرنا بأن نمشى بها وشمس نوفمبر التى بدأت تفرض وجودها أحسست بدفء وحيوية تسريان فى عروقى فتهزم ماكان يجتاحنى من أحاسيس بالبرد والخوف .

وأخيرا وصلنا الموقع، على بعد أربعة كيلومترات من السجن . . كان المكان أشبه بواد صغير يقع بين تلين من الكثبان الرميلة . . وكانت أرضه داكنة يختلط فيها لون الرمل الأصفر مع تربة رمادية وانتشرت فيها بعض النباتات الشوكية مما يوحى بأن ثمة حياة كانت هنا .

وحانت اللحظة وكان المسرح معدا بعناية .

صعد همت ومعه فرقته على الكثبان الرملية وأحاطونا بسرعة من كل جانب بالمدافع الرشاشة .

وانتبهت كل حواسى، وتبادل الزملاء نظرات ذات مغزى .

هذه إذن هى المقبرة التى أعدوها لنا . . وبدأ كل منا يعد نفسه للمعركة التى توقعناها . . فمع أول طلقة رصاص تصيب أحدنا . . علينا أن ننشب فيهم أظافرنا .

لحظات جربها ولاشك المسيحيون الأوائل حين كانوا يجمعونهم فى الأخاديد ويعملون فيهم السيف .

وجربها ضحايا النازية والفاشية حين كانوا يطلقون الرصاص على طوابير المعتقلين .

لم أفكر فى أنى قد أكون أول من أسقط ، ولكنى كنت أفكر فى كيف أنتقم . . وكان يجتاحنى إحساس بأننى سأصل إلى همت نفسه ولن أرضى بغيره ، بل وأخذت أتصور كيف سأتصرف معه حين تمسكه يداى بكل الغضب والحقد والألم الذى يجتاحنى .

ونادى همت على المأمور لكى ينسحب هو وضباطه وجنوده .

وصاح الزميل المهندس سيد عبدالله قائلا :

– ياسيادة المأمور . . نحن أمانة فى عنقك وستتحمل المسئولية . .

وانتفض المأمور كالثور الهائج يضرب سيد عبدالله بلكمات عنيفة . . ولكنه لم يتحرك ، ولم يتركنا بل أصدر أوامره للضباط والجنود بالالتفاف حولنا والبقاء معنا .

وكان معنى ذلك ، وبغض النظر عن هياجه وتوتره ، أن المأمور قد حسم أمره وقرر أن يتصرف فى إطار مسئوليته .

وعاد همت ينادى .

ووقف المأمور يصرخ فينا بصوت أعلى من نداء همت . .

– اسمع أنت وهو . . أنا ممكن أقتلكم كلكم . . حياتكم عندى لاتساوى شيئا . . عندى أوامر بضرب الرصاص عند أى تمرد . . فاهمين . . مش عاوز أى تمرد . . فاهمين ، دلوقتى الفئوس والغلقان والدبورة هتتوزع عليكم . . مطلوب أنكم تنقلوا التلال الرملية دى . . أى تقصير فى العمل هاضرب بالنار فورا . . مفهوم .

. . مفهوم . . كان المأمور بجسده الفارع الممتلئ وصوته العالى المنفعل وهو يهدد ويتوعد وفى نفس الوقت يتجاهل نداءات همت أقوى من أى شخصية درامية رسمها أسخيلوس أو شكسبير .

كان من الواضح أن الرجل قد أخذ موقفه ليس دفاعا عنا وعن أرواحنا – بل عن نفسه ، فهو لايريد أن يتحمل مسئولية مجزرة قد يسأل عنها فى المستقبل . . ولعله لايختلف عن همت سوى فى ذلك الأمر . . إنه يعرف أن هناك غدا آخر وقد يكون له حسابات أخرى .

وبدأ الضابط والشاويشية يقسموننا إلى «مصالب» أى فرق عمل ويوزعون علينا الفئوس والغلقان وأدوات العمل الأخرى ، وهم لايكفون لحظة واحدة عن استخدام ألسنتهم وعصيهم . . هذا بينما صعد المأمور إلى همت فوق التل .

وكان الموقف كله أشبه بمسرحية غريبة .

على المستوى الأول ، وفوق التل ، صراع بين نمطين أنتجتهما مدارس التعذيب والعداء للإنسان ، النمط الأول أصبح مسعورا متعطشا للدم بأى شكل وعلى أية صورة مثله مثل النمر المتوحش الذى يسعده البطش بالفريسة حتى ولو لم يكن جائعا .

والنمط الثانى أشبه بالثعلب الذى يجرى دائما حساباته بين رغبته فى الفريسة وخوفه من المفترس . . إذ إنه يدرك فى النهاية أنه يمكن أن يصبح هو الآخر فريسة لمن هو أقوى منه طالما أن الذى يسود هو شريعة الغابة .

كان هذا الصراع الوحشى ، يدور على التل . . ونسمع بعضا منه ممثلا فى صرخة هائلة للنمر ومحاولات التهدئة التى يقوم بها الثعلب .

بينما على المستوى الآخر للمسرح . . وتحت التل ، نروح نجىء محملين بمقاطف الرمل تحت وابل من ضربات الخيزران والشوم التى لاتنقطع ، بينما عقولنا وقلوبنا وآذاننا كلها مع هذا الحوار الدموى الذى يجرى بين النمر والثعلب حول مصيرنا .

ويبدو أن نغمات الضرب المتواصل الذى ينهال علينا مع صورتنا ونحن فى خرقنا البالية نحمل الرمال والصخور مهرولين قد أمتعت عين وسمع النمر وبدأت تشد انتباهه بل وأخذ يروح ويجىء فوق التل متأملا لوحة فنية رائعة تشبع أحاسيسة الحيوانية . . . بل وأخذ يلقى ببعض أوامره للضباط والعساكر الذين يقومون بدور الإيقاع الصوتى بعصيهم وكرابيجهم ويرسمون فى نفس الوقت ظلال القسوة والهمجية المطلوبة .

وكأى مايسترو أصيل ينفعل مع اللحن خرجت أوامره إلى الجوقة :

– العساكر تشد حيلها شوية فى الضرب . المقاطف تتملى كويس . . الأولاد اللى هناك دول ماشيين على مهلهم ، بيتفسحوا ولاد الـ . . . . ضرب الكرابيج أحسن . . . . عاوز أسمع صراخهم . . مفيش رحمة بيهم . . أضرب زى مابتضرب كلب . .

وبالطبع كانت أوامر اللواء «المايسترو» تنفذ على الفور ، فيزيد صفير الكرابيج ووقعها على الأجساد ، كما ترتفع ذبذبات العصى وهى لاتكاد تتوقف لحظة فى أيدى العساكر .

أما صراخنا فلم يسمع منه اللواء المايسترو شيئا لأننا كتمناه فى الأعماق . . وحينما

نفخ البروجى فى النفير يودع السيد اللواء النمر وهو يركب عربته وخلفه فرقته يغادر الموقع بل والواحات كلها إلى القاهرة، تمثل وداعنا له فى بصقات على الأرض خرجت من كل واحد منا وبدون اتفاق سابق، بل وشاركنا فى توديعه «بالبصقات» بعض العساكر وهم يخرجون بعض تنهيدات الارتياح.

وبالرغم من أن الضرب، وربما بنفس الوتيرة، استمر طيلة اليوم إلا أن رحيل همت وفرقته قد أزاح من الموقف عاملا خطيرا ومتوترا كانت فيه أعصابنا، بل أعصاب قوة السجن بمن فيها المأمور، مشدودة متحفزة.

ولاشك أن همت وهو يتجه بعرباته إلى أسيوط ثم القاهرة لم يكن سعيدا مثلما تصور وهو يأتى إلى الواحات.

حقيقة مارس كل إبداعاته الفنية فى الضرب والتعذيب طيلة ٢٤ ساعة، ولكن حقيقة أخرى لابد وقد أحس بها هى أنه لم يستطع أن ينزع منا آدميتنا وعقولنا.

فلقد كان ختام حفلته الليلة الماضية، ضحكات تنطلق من صدورنا تسخر منه ومن حيوانيته.

كما كان ختام مؤامرته فى الجبل، بصقة جماعية تودع هيلمانه الزائف وهو يتحرك.

واجتاحنا إحساس بالانتصار الصامت، عكسته نظرات الثقة التى أخذنا نتبادلها وبعض الابتسامات التى ارتسمت على وجوهنا.

حقيقة ضربنا وأهنَّا بل ومازلنا نضرب ونهان ونعامل بنفس الدرجة التى يعامل بها الحيوان، ولكننا استطعنا أن نؤكد عظمة الإنسان وقدرته حيث لايملك أن يدافع عن نفسه إلا بالعقل والعقل وحده فى مواجهة كل حيوانات الغابة المفترسة.

بل إننا استطعنا أن نكسب من بين صفوف العساكر والضباط الذين دربوهم جيدا وشحنوهم بشحنات حيوانية حاقدة، لقد أيقظنا عقول بعضهم وأثرنا فى نفوسهم مشاعر وأحاسيس إنسانية مرة أخرى وأكسبتهم فيما بعد، وباعتراف كثيرين منهم، احتقارا شديدا لكل ما كان يمارس معنا ولدورهم فيه.

وكانت الساعة قد قاربت الرابعة، حينما أمرنا بالعودة الى السجن.

وشمس الأصيل تفرد ظلالا طويلة ممدودة على الرمال. . وكل منا يحمل فأسا أو مقطفا يعلقه بكتفه.

وتمضى طوابير «الشغيلة» مقتربة من أسوار السجن بعد يوم طويل من العمل الشاق والجهد النفسى . . يوم لن ينساه ولا يجب أن ينساه كل أبناء وبنات مصر الطيبين .

ولسعت حواسى رائحة العدس عند دخولى من البوابة . . ولم ألق بالا لحارس البوابة الذى أصر على أن يختم كلا منا بعصاه وشتائمه لتعويض بعض مما فاته فى الجبل . . كنت جائعا ، وكانت رائحة العدس أجمل رائحة شممتها فى حياتى بل إننى لم أجرب أشهى وأطعم من وجبة العدس فى ذلك اليوم .

[١١]

نحن الذين بلا خوذة
عزل شرفاء
بلا أحذية، بلا قفازات.
يتألق شعاع من النور في عروقنا .
بول إيلوار - قصائد المقاومة

ديسمبر ١٩٥٩

– لماذا؟

كنت أسأل أبى وعينى غارقة فى بحر من الدموع وشهقات البكاء الخانق تأخذ بصوتى وهو يحكى لى ولأخوتى استشهاد الحسين بن على .

– لماذا . . لماذا . .

نعم، لماذا وقد حوصر الحسين من قبل جيوش الفاسق يزيد بن معاوية، ومنع الماء فى كربلاء ولم يبق معه سوى أهله .

لماذا لم يستسلم الحسين إنقاذا لحياته ولحياة أبنائه وأهله، لماذا لم يبايع فى تلك اللحظة والموت يطل عليه من كل ناحية فى أرض الكرب والبلاء ممثلا فى آلاف السيوف المشهرة تريد رأسه طمعا فى المال والسلطة والجاه .

وكان أبى يضمنى إشفاقا ويهدئ من بكائى .

– كان الحسين عظيما، فلم يكن يخشى فى الحق لومة لائم ولاننسى أنه ابن على بن أبى طالب و«فاطمة الزهراء» وسيد شهداء أهل الجنة . . ولكن الأمر لم يكن مقعنا لى تماما وكان هناك شيء ما يكبر معى، وكان يتساءل :

ما الذى يدفع الإنسان لأن يرفض أن يقول كلمة يمكن أن تنقذ حياته وحياة أهله؟ كلمة واحدة كانت مطلوبة من شهيد كربلاء ليذهب طليقا ومعززا .

لقد طلب الحسين من قائد الجيش أن يخلى بينه وبين الماء، ثم يتركه يفكر . . ورفض طلبه .

وطلب أن يعود بأهله إلى المدينة ليتقلب الأمر . . ورفض طلبه . . كان المطلوب كلمة أو الموت، وحمل الحسين سيفه وظل يقاتل ويقاتل حتى خر صريعا وبينه وبين الماء الذى حرم منه بضعة أمتار . . . ولم يقل الكلمة . . لم يقل بالبيعة المفروضة، بل اندفع إلى مصيره المحتوم وهو يقول بالسيف وتحت التهديد :

فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم   كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

وكان على أن أنتظر فترة طويلة لأمر بتجربة عملية لأعرف الجواب الصحيح على السؤال الذى عذبنى صغيرا إشفاقا منى على حياة الحسين .

إن الإنسان الذى يحمل فكرة أو عقيدة ويؤمن بها إيمانا حقيقيا لايمكنه تركها أو هجرها تحت وعيد السيف، إن أصحاب الأفكار الإنسانية دائما مايكونون أكثر تفتحا على الحياة أكثر تفتحا على الأفكار والآراء الأخرى، ولكنهم أمام البطش والسيف أكثر قوة، على عكس من لديهم نزعات إرهابية وفردية، فإن مثل هؤلاء ينكسر بل ويتحطم عند أول عصا ترفع عليه .

وفى موجة الإرهاب الدموى واليومى الذى كنا نتعرض له فى الواحات، كنت أحس بأن الفكرة التى دخلت بها المعتقل تتحول فى داخلى إلى يقين غريب، كنت كلما تلقيت ضربة شومة أو لسعة كرباج أقاومها بمزيد من الإيمان بالاشتراكية والإنسان، بقيم الحب والعدالة والكراهية العميقة لكل ماهو حيوانى واستغلالى، كل مايمتهن الإنسان . . كل من يرفع عصا أو بندقية فى مواجهة فكرة أو رأى . . بل وكان يجتاحنى إحساس بالقوة، ليس فقط إزاء العساكر والضباط الذين يمارسون التعذيب، بل وإزاء من أمروهم بذلك . وكان هذا شعورا جماعيا بين كل الزملاء فى تلك الفترة، ربما فيما عدا زمرة قليلة ممن يتعمدون أن يدسوهم بيننا لإشاعة جو الاستسلام والضعف فى مثل تلك الظروف . . وحتى هؤلاء لم يكونوا ليستطيعوا أن يلعبوا دورهم وسطنا فى تلك الفترة .

وكان الأمر غريبا بالطبع بالنسبة للشاويش محمود والشاويش متى وغيرهما من العساكر .

فبينما كنا نقوم بأعمال السخرة اليومية فى الصحراء نادانى الشاويش محمود، ودار حوار غريب :

- بتشتغل إيه؟

- صحفى .

- عاجبك الضرب والإهانة اللى بتشوفها كل يوم . . . . دانتوا بتتعاملوا ولا الكلاب .

- طبعا مش عاجبنى .

- طب ماتخرج .

- إيدى على إيدك .

- تسيب اللى فى دماغك . .

- قصدك أسيب دماغى . .

- يابنى اخرج ، وأنت صغير ، وعيش ، واتمتع بالدنيا ، وبلاش حكاية الدماغ دى تودى فى داهية .

- آهو لو حصل كده ، أبقى كلب بحق وحقيقى . .

- ياخرابى . انتو دماغكو دا إيه . . مصفح . . حجر . . روح . . روح . . الظاهر انتو غاويين شقا . .

ولقد كان هذا الحوار أو المناقشات تتكرر كل يوم بين أحد العساكر وبين أحد الزملاء . . وخلال شهر واحد ، كانت الغالبية العظمى من العساكر وحرس السجن إما متعاطفون تماما معنا ، أو على الأقل غير قادرين على تنفيذ التعليمات المشددة التى يشحنونهم بها كل يوم بزيادة جرعات الضرب والتعذيب ، بالرغم أنهم - كما علمنا - كانوا يختارون لنا أكثر الحراس شراسة وكانوا لايرسلون للواحات سوى من يتوسمون فيهم القسوة بالإضافة إلى أنهم كانوا يعدونهم فى مراكز تدريب خاصة حيث تلقى عليهم محاضرات خاصة عن التعذيب وشحنهم بشحنات عصبية حاقدة بتصويرنا على أننا «كفرة وملحدون وخونة وعملاء . . . . . . » إلخ .

ولكن العصى دائما تنكسر فى مواجهة العقول «المصفحة» . . كما أن اليد المرتعشة والتى لاتؤمن بما تفعل بل ولاتعرف مبررا معقولا لما تفعل تكون خطرا أكثر على من سلمها البنادق .

وهذا ما بدأت بوادره ، وما كان من السهل علينا وعلى قيادة المعتقل أن تدركه . .

وفى الجبل حيث كنا نعمل من السابعة صباحا حتى الرابعة، بدأ كل حارس يتخذ لنفسه صخرة عالية ويجمع حوله بعض المعتقلين يتبادلون الأحاديث والنكات فى حين يستمر العمل بوتيرة هادئة وبطيئة.

وقلت بل وكادت تنعدم الشتائم وضربات الخيزران والشوم . . وأصبح هناك عقد غير مكتوب بيننا وبين الحرس فى الجبل . . هو أن ننهض فقط للعمل وبسرعة إذا لاح فى الأفق عربة تقل أحد الضباط أو قائد المعتقل.

اخترنا لهذه المهمة زميلا خفيف الدم والحركة نحيف الجسم هو عبدالملك خليل كان يقبع فى قمة تل عال فإذا لمح عربة متجهة نحونا يصيح . . بلوهام . . بلوهام . . فينهض الجميع إلى الفأس وحمل الرمال والصخور.

ولقد ظل الشاويش متى مشغولا فترة طويلة بمعنى كلمة بلوهام . . حتى إنه أقسم «بالعذراء أم الشهيد» بأن يجلد عبدالملك خليل حتى يبوح له بسر كلمة بلوهام . . ولم يقتنع الشاويش متى ربما حتى الآن بأنها كلمة لامعنى لها على الإطلاق تفتقت عنها قريحة عبدالملك الساخرة . . على أن الأمر لم يكن يخلو فى هذه الأيام بأن نفاجأ فى الصباح وقبل أن نصطف فى طابور الجبل بالعنابر تفتح علينا وبالعساكر ينهالون علينا ضربا بالقايش والخيزران . . وعرفنا أن قائد المعتقل كان يحرص على هذه الغارات الصباحية الدامية كل أسبوع أو عشرة أيام لكى يظل الجو ملتهبا وليبعث فى عملية التعذيب «تنشيطا وحيوية» وكذلك كان يحرص على أن يأتى كل أسبوع إلى الجبل فيتحول الجبل يومها إلى حركة سريعة تقطع الأنفاس وتصفر الكرابيج والعصى على أجسادنا، ونعود فى مثل هذا اليوم وكل منا يحمل آثار احمرار على جسده أو دماء متفجرة على جبهته ورأسه، وفى بعض غزوات القائد كان يعود بعضنا برجل دامية من ضرب الفلقة أو ضلع مفقود أو جسد ممزق نتيجة للجلد على العروسة.

وفى اليوم التالى نتلقى الاعتذارات الخفية من العساكر والشاويشية، بل إن أحدهم أقسم بالطلاق يمينا لا رجعة فيه أنه لن يضربنا مرة ثانية حتى لو كان الوزير هو نفسه الذى يأمره. وثمة معركة أخرى كنا نشترك فيها جميعا، عساكر ومعتقلين، فبالإضافة إلى الإحساس بالغربة فى تلك الصحراء القاحلة والبعد عن الزوجة والأم والابن والأب كانت المناطق التى نعمل بها مليئة بالثعابين والحيات الخطرة والعقارب . . وقد كادت تحدث مآس كثيرة حيث كنا نعمل حفاة الأقدام، وكثيرا ما ينفض الإنسان قدمه فجأة بعد أن يحس بأن هناك شيئا يزحف عليها ويكتشف أنها عقرب من النوع الخطر، كذلك فإن حية الطريشة «الحية ذات الأجراس» كانت تمثل لنا انزعاجا

شديدا، وخاصة بعد أن أكد الزملاء الأطباء مختار السيد وعبدالمنعم عبيدوحمزة البسيونى وشكرى عازر وغيرهم أن لدغتها بالقبر.

وحين يصيح أحد الزملاء «طريشة» يسارع الجميع بالفتوس ليقضوا على تلك الحية الخطرة. . لقد كانت حصيلة اليوم الواحد حوالى أربع حيات وعشرين عقربا وأكثر من خمسين ثعبانا مختلفة الأشكال والأحجام. . وبدأنا ندرك ما كان خافيا عنا أو على الأقل لم نكن نعتبره مقصودا فى البداية.

فإلقاؤنا فى هذا المكان بالذات الذى عرفنا فيما بعد أن السكان يسمونه وادى العقارب، حفاة الأقدام شبه عراة فى عمل لاجدوى منه ولا منفعة لايمكن إلا أن يكون فيه من الرسم والعمد بحيث تقوم الحشرات السامة بما لم يستطع أن يقوم به همت وزبانية التعذيب.

وأكد لنا بعض العساكر هذه الفكرة، وخاصة بعد أن كان أول ضحية بلدغة الطريشة هو واحد منهم، ولقد عمق ذلك الإحساس بالسخط وبدأت الحواجز تنهار بيننا وبينهم فى كل لدغة عقرب يصاب بها زميل أو يصاب عسكرى بلدغة ثعبان.

وبدأنا نبلور مطلبا محددا هو أن نذهب للعمل بالأحذية. . وحينما نطق الزميل المهندس سيد عبدالله بهذا المطلب أمام قائد المعتقل ونحن فى طابور الصباح استعدادا للخروج انهال عليه القائد ضربا بعصا أخذها من أحد العساكر وهو يصرخ كالثور الهائج.

- : أنا معنديش مسجون يطلب حاجة. . إزاى تتجرأ ياكلب. . كويس إنكم لسه عايشين.

كانت مفاجأة للمأمور أننا مازلنا آدميين لم نتكيف بعد أكثر من شهرين على معاملة «الحيوانات» التى أرادوها لنا. . وأعطى أوامره فى ذلك اليوم بأن تزيد جرعات العمل وأيضا جرعات الضرب واختار أحد ضباطه المقربين والمغرمين بالتعذيب لكى يصحبنا كل يوم إلى الجبل ليشرف بنفسه على الشغل.

ولحسن الحظ، وربما لأول مرة يكون للبيروقراطية بعض الفوائد، فإن الضابط المدلل الذى يضيق بوجوده فى الواحات بعيدا عن القاهرة ونوادى الخمر والقمار. بعيدا عن راقصة الكبارية التى كان مولها بحبها لم يستطع أن يمارس المهمة فيمرمط نفسه كل يوم معنا فى الجبل وسط الأتربة والرمال والشمس المحرقة، وأيضا وسط العقارب والطريشة والثعابين. .

فسرعان ما نفض يده من المهمة بعد أسبوع مارس فيه معنا كل عقده وغبائه وحاول أن يغرق إحساسه بالغربة فى ذلك المكان بمزيد من الضرب والتنكيل بنا.

فكان يكتفى بعد ذلك بالمرور لمدة قصيرة ثم يذهب بالجيب إلى مدينة الخارجة التى تبعد عشرين كيلو متر عن موقع العمل، حيث كان هناك ممرضة جديدة فى مستشفى الخارجة يقال إن الجميع كان يتنافس عليها من ضباط السجن إلى حاكم المدينة وطبيبها والمهندسين العاملين فيها.

ولقد أتاح لنا ذلك «راحة» منه على أية حال . . وعادت الأمور فى الجبل إلى ماكانت عليه . . حركة شكلية ومجموعات الزملاء تجلس فى حلقات تحت شجيرة خروع أو فى ظلال تل تستمع إلى قصة أو إلى محاضرة سياسية أو ثقافية أو فنية، والعساكر هم الآخرون ينضمون أحيانا إلى بعض الحلقات أو يكونون لهم حلقة أخرى من بعض الزملاء القادرين على تبادل النكات والدردشة معهم.

وحين نسمع صوت عبدالملك خليل الصاروخ فى البرية «بلوهام» تدب الحركة والنشاط فى موقع العمل فلا نسمع إلا صوت الحصى . .

وكان الباشجاويش متى وهو قائد العمل فى غياب الضابط قد أدمن الجلوس إلى الصحفى محمود السعدنى والاستماع إلى نكاته وحواديته الساخرة واللاذعة المعروفة عن السعدنى . . وكان ذلك فى صالحنا بالطبع وخاصة حين يجلس متى فوق صخرة كالملك ويقبع السعدنى بجانبه مضحكا للملك وتنطلق ضحكات متى الضخمة ويعزم على السعدنى بسيجارة ونجز كاملة.

ولقد سافر الباشجاويش متى إلى بلدته بجوار أسيوط فى إجازة لبضعة أيام وعاد يمارس عمله وجلساته مع مضحك الملك . . إلا أننا فوجئنا فى يوم من الأيام بالبشجاويش متى بجسده الضخم يجرى وراء السعدنى الذى أخذ يهرول ويتدحرج على التلال كالفأر الصغير ومتى يقسم «بأم المخلص» ليحطمن رأسه بالشومة . . وتدخلنا بالطبع فى محاولة لتهدئة الشاويش متى ومعرفة السبب فى هذه القطيعة التى لم تكن متوقعة بين الشاويش الهائج والصحفى المذعور.

كان الشاويش متى منذ اليوم الأول لعودته من قريته مهموما حزينا، الأمر الذى جعل محمود السعدنى يحاول أن يهون عليه ليعرف سبب حزنه:

- أصل الواد ابنى أخذ الإعدادية.

- طيب ودى حاجة تزعل ياحضرة الصول دا ابنك يبقى عبقرى.

- أصل اللى مضايقنى ياسعدنى إن الواد عاوز يكمل تعليمه والحال زى ما أنت عارف يدوبك عالقد.

– ياراجل واحد عبقرى زى ابنك لازم يكمل تعليمه وأهوه التعليم بالمجان وربنا يساعدك لحد ما يأخذ التوجيهية .

– طيب وبعد الثانوية ياسعدنى . . يروح فين .

– يروح الجامعة ياحضرة الصول .

جامعة إيه أنت راخر . . هو أنا معايا صلدى واحد . . دا أنا بستلف على ماهيتى قدها مرتين علشان أمشى حالى . . تقوللى يروح الجامعة .

– طبعا لازم يروح الجامعة ولد عبقرى زى كده ماتحرموش من أنه يكمل تعليمه ويروح كلية الطب واللا الهندسة واللا الحقوق واللا الآداب ويبقى مثقف .

– مثقف . . يافرحتى . . طب وبعد كده .

– ييجى هنا معانا ياشاويش .

ثم أشار السعدنى إلينا وهو يقول :

– أهم كل اللى انت شايفهم دول جم هنا علشان بقم مثقفين .

وهنا بالطبع لم يتحمل الشاويش متى سخرية محمود السعدنى فلم يكن الرجل يتصور أن ابنه العزيز والعبقرى يأتى إلى هذا المكان ليعامل «كالكلاب» مثلما نعامل .

وقام وراء السعدنى يقسم ليحطمن رأسه . . ولكن الأمور عادت إلى مجاريها بعد يومين بين الشاويش متى ومحمود السعدنى ، وبذلنا كل ما فى وسعنا لإرضاء الشاويش وقام السعدنى ومعه جوقته المكونة من القاضى أحمد البدينى والكاتب أحمد شوقى عبدالحكيم وعامل ماتوسيان نصر عبدالرحيم بإغراق متى مرة أخرى فى بحر من النكات والقفشات الخفيفة التى أنسته جريمة السعدنى . . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد .

فلقد عرفنا عن طريق السجانة أنهم سيرحلون إلى سجون أخرى لأن فرقة جديدة فى طريقها إلى الواحات .

ولم يكن من الصعب أن نعرف السر وراء هذا التغيير فلقد أدركوا أنه بالرغم من التدريب الخاص للعساكر وبالرغم من النوعيات الخاصة التى يتم اختيارها وبالرغم من كل الإجراءات التى اتخذت معنا والتى تحرمنا من كل شىء يمكن التأثير به على العساكر ، إلا أن عقولنا المصفحة قادرة فى النهاية على أن تهز أعماقهم فتكسر فى أيديهم أدوات التعذيب وتذوب كلمات الإهانة فى حلوقهم ، ويضيع كل شىء مصطنع

ولا يبقى فى القلب سوى الود والتقدير أو على حسب تعبير أحد العساكر الذى كان معروفا بقسوته الشديدة معنا.

- كنت أضربكم بحرقة كنت أريد لكم الموت، فأنتم كفار وخونة وعملاء.. هكذا قالوا لى.. ثم اكتشفت بعد ذلك أنكم أكثر الناس إيمانا وأكثرهم إخلاصا وأكثر الناس حبا لمصر ولشعب مصر.

[١٢]

كانوا يصعدون ويصعدون نحـو الجلجثة والمسيح
فى الأمـام وركبتـاه تلتـويان تحـت ثقل الصليب،
والعذراء خـلفهم وآلاف مؤلفـة من العيـون تبكى.
ومن أحـشـاء الأرض خـرج صـوت.. لاتـبكى
ياسيدتنا.. تشجعى لتعطى الشجاعة للعالم
(**الإنجيل**)

٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٩

الساعات الأخيرة من عام ١٩٥٩ والشمس والتلال والصحراء لاتدرك ولا تعى أن حدثا كبيرا قد هز الإنسان فى مثل تلك الذكرى حين ولد مسيح البشرية ومخلصها الذى جاء يرفع سيف الحق والعدالة فى وجه الظلم والاضطهاد والتعسف يرفع سيف الفقراء والرعاة والصيادين والمضطهدين فى وجه القيصر والحاكم والكتبة الفريسيين الذين عاثوا فى الأرض فسادا وملئوا من عرق المتعبين قنينة النبيذ .

والشمس والتلال والصحراء ومعها هؤلاء الجنود الظالمون والمظلومون لايدركون أن هؤلاء الحفاة والعراة الذين تمتزج فى جبهاتهم حبات العرق والأتربة والرمال، وتنحل أجسادهم وتغور أعينهم ويستبد بهم الجوع مازالوا يؤمنون، مثلما آمن المسيح بالإنسان المتحرر من الخوف والاضطهاد واستغلال أخيه الإنسان يحملون مثلما حمل المسيح صليبهم كل يوم فى رحلة العذاب ويدركون أيضا مثلما بشر المسيح بأنه لايفيد الإنسان إذا كسب العالم وخسر نفسه .

والعساكر الجدد جاءوا منذ أيام مازالوا متجهمى الوجه لايدركون مثلما أدركت الدفعة السابقة أنهم أمام تلامذة المسيح المخلصين ووارثى كل قيم العدالة الإسلامية

التى نادى بها سيدنا محمد وطبقها خلفاؤه الراشدون واستشهد الحسين بن على من أجلها .

ولدى عودتنا إلى المعتقل بعد يوم عمل شاق كان كل مايشغلنا هو كيف نحتفل بهذه المناسبة ، والحقيقة أنه طوال العشرة أيام السابقة على رأس السنة كانت تجرى استعدادات حافلة وعلى قدر الإمكانات المتاحة للاحتفال فى وقت واحد بعيد الميلاد وبمرور عام على بدء اعتقالنا .

فبدأ الزملاء المسجونون يخزنون لنا بعض السكر والشاى لنتذوق هذا المشروب الذى لم نره منذ حفلة اللواء همت الدموية إلا فى أيدى الضباط فى الصباح ، كما أعدت لجنة الحياة العامة التى كانت تتولى تنظيم حياتنا الداخلية بما فى ذلك الاتصال بالإدارة وتدليك العساكر ، مفاجأة عظيمة تمثلت فى كمية من السجائر استطاعت أن تحصل عليها بوسائلها الخاصة لكى يمكن توزيع سيجارة على كل معتقل فى تلك المناسبة ، وتم ترتيب كل شىء بدقة بالغة .

وعندما أغلقت بوابة العنبر الرئيسية بدأت الاحتفالات على الفور . . وفى كل غرفة أشعل الموقد -التوتو- ووضعت «أكواز» الشاى لتعطر الغرفة وجلسنا نتأمل التوتو والشاى تماما بإحساس الإنسان الأول حين وجد النار تشتعل فجأة حين ضرب زلطة بقدمه فاصطدمت بأخرى . . كما وزع على كل فرد سيجارة وينجز كاملة . وأسندت ظهرى ورأسى إلى جدار الغرفة وبجوارى الشاعر محسن الخياط وعامل النسيج مصطفى درويش وأشعلت سيجارة . . وأخذت نفسا عميقا غريبا موحيا لم أجربه قبل ذلك . . كانت رائحة الدخان والكبريت والشاى والعيون المتحفزة التى تنتظر دورها لترتشف قطرات الشاى مع دخان السجائر تشكل صورة رائعة وحزينة ، وناولت السيجارة إلى مصطفى درويش الذى كان فى وضع شبه راقد فوضع ساقا على ساق ووضع السيجارة فى فمه بشكل أرستقراطى ثم أخذ نفسا عميقا كاد ينهى به السيجارة . . ونطق محسن بالشعر وهو يشير إلى مصطفى :

شوف مصطفى درويش .

لما تبرجز شرب الوينجز . . فين مصطفى درويش .

وأخذنا نردد كلنا الأغنية بصوت جماعى بينما مصطفى يكتفى بأن يهز قدمه على اللحن .

ثم بدأت الغرف الأخرى ، وكان العنبر يتكون من عشرين غرفة فى كل غرفة حوالى

١٥ فردا، تدخل فى حالة الانسجام والاحتفال . . . فكان على كل غرفة أن تقدم عملا جماعيا، أغنية أو نشيدا أو تمثيلية، وقدمت غرفة واحد أغنية «فى يوم فى شهر . . فى سنة».

تخلى السجون وتنام .

وعمر سجنى أنا أطول من الأيام .

وقدمت غرفتنا أغنية :

فوق الشوك مشانى زمانى

وغرف أخرى قدمت بعض التمثيليات المضحكة أو بعض القفشات والنكت، وغرف قدمت أغانى سيد درويش . وماج العنبر كله بحياة متدفقة مليئة بالأمل والضحكات . وانقضت ساعات الليل الأولى، ولأول مرة فى سجن الواحات، سريعة خفيفة وتلاشت الأسوار وفقدت تمام الإحساس بالسجن وصاح أحد الزملاء .

- عنبر كله يسمع . . بعد عشر دقائق هيبدأ أول يوم فى السنة الجديدة تحية حب مننا لكل أبناء وبنات مصر، لأولادنا ولأبنائنا وأمهاتنا وزوجاتنا ولأصدقائنا وصديقاتنا، لكل طفل ولكل شيخ ولكل ولد ولكل بنت . . ولمصر أمنا وأختنا وحبيبتنا وانطلق يغنى بصوت أجش .

ياعزيز عينى السلطة خدت ولدى .

بلدى يابلدى وأنا نفسى أروح بلدى

وانطلقنا كلنا نغنى الأغنية التى كان يشدو بها أجدادنا حينما أخذوهم إلى الصحراء حيث ضاعت حياتهم دفاعا عن المستعمر وأذنابه . . وأخذت أغنى بانفعال صوتى، وتجسدت صورة أبى وقد اكتسى وجهه الأسمر حزن وأخذ صوته يرن فى أذنىّ

ياعزيز عينى . . السلطة خدت ولدى

انتباه . . انتباه

صوت آخر فجر الضحكات لدى الزملاء . . كان تقليدا متقنا لصوت حارس مأمور السجن ولكن الصوت عاد يتكرر ولم يكن فى الأمر تقليد إذ فتح باب العنبر فجأة ودخل العساكر وفى خطوات سريعة وخلفهم المأمور وعدد من الضباط وهم يوزعون شتائمهم البذيئة علينا وعلى آبائنا وأمهاتنا بل والبلد التى قدمنا منها . مسكينة يامصر . !!

وفتحت الغرف غرفة غرفة وهجم التتار علينا بالعصى والقايش وأوامر مشددة . . كله يبص للحيط .

وصمت العنبر إلا من صوت المأمور وشتائمه وأوامره للعساكر بتشديد الضرب وبعض التأوهات المكتومة وارتطام الأجسام بالحائط أو بالقايش والعصى .

وتحول الموقف كله إلى نكتة سخيفة ومقززة فى نفس الوقت . . فبعدما انسحب المأمور وزبانيته بعد أن أوسعونا ضربا فى الدقائق الأولى للعام الجديد، اكتشفنا أن هناك دفعة جديدة من المعتقلين قد وصلت إلى السجن وقام المأمور بحملته الهمجية لتوزيعهم على الغرف، وكان نصيب كل غرفة اثنين أو ثلاثة .

كانت الدفعة الجديدة ممن قضوا السنة الماضية فى السجن الحربى نظرا لأن معظمهم من المجندين والضباط، ومعهم أيضا عشرون من أبناء قطاع غزة المعتقلين منهم الشاعر الفلسطينى معين بسيسو وعبدالقادر ياسين وديب الهر بيطى ومدير التعليم فى قطاع غزة .

وبسرعة استعدنا مبادرتنا بعدما أغلق العنبر مرة أخرى وكانت الخسائر بعض الكدمات والجروح البسيطة وأخذنا نرحب بالزملاء الجدد وبفرحة حقيقية . . فهم قادمون من القاهرة الحبيبة، القاهرة البعيدة . . ولاشك أن لديهم الكثير من الأنباء، وخاصة أنهم نجحوا فى عزلنا تماما طوال الأشهر الماضية عن أى أخبار أو أنباء وبدأنا نمطر الزملاء بالأسئلة .

كيف الحال فى القاهرة هل قرأتم الجرائد وأخبار زملائنا المعتقلين الذين تركناهم فى الفيوم والقلعة، والعلاقة حاليا بين مصر والعراق . . . وبين مصر والاتحاد السوفيتى .

وبدأ محمد طه، المجند والذى قضى فى السجن الحربى ثمانية شهور يحكى وفى كل كلمة قالها كانت هناك أكثر من مفاجأة .

عرفنا أن هناك خلافا نشأ بين قادة حزب البعث وبين الرئيس عبدالناصر وأن أكرم الحورانى وصلاح البيطار وغيرهما من قيادات الحزب قد قدموا استقالاتهم احتجاجا على ما سموه انتهاك الديمقراطية، وابتسمنا كلنا فى سخرية وخاصة أن الحورانى والبيطار وكان أحدهما يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية كانا منذ شهور فقط أكثر الناس هيسترية فى الهجوم على الشيوعيين واتهامهم بأنهم «معادون للقومية العربية» لمجرد أنهم كانوا يتصورون أن الأسس الديمقراطية هى وحدها الكفيلة بدعم الوحدة .

هكذا أخذت قيادة البعث درسا بعد أن كانوا يقيسون الديمقراطية بمدى قربهم أو بعدهم هم عن السلطة .

وعرفنا أيضا أن هناك اتفاقا مصريا سوفيتيا ببناء المرحلة الثانية للسد العالى ، وابتسمنا كلنا فى رضى هذه المرة فلقد كنا ندرك أنه ليس فى صالح مصر ولا فى صالح الاتحاد السوفيتى أن تنشب خلافات بينهما ، تلك الخلافات التى عملت القوى الاستعمارية والرجعية على تعميقها وتوسيعها طوال العام الماضى والتى كانت تريد أن تجنى ثماره فى إبعاد مصر عن عمليات التصنيع والتنمية لكى تظل مجتمعا استهلاكيا أسيرا للمجتمعات الصناعية الغربية .

وعرفنا أيضا أن يورى جاجارين رائد الفضاء السوفيتى قد حلق بمركبته فى الفضاء معبرا عن قدرة العلم فى تحقيق أحلام الإنسان من أجل مزيد من الخبرة والاستكشافات وليس من أجل الاستعمار والقهر . . وصفقنا طويلا للنبأ وقام أحد الزملاء العمال يرقص وسط الغرفة ، وشرع محسن الخياط ينظم قصيدة شعر بتلك المناسبة .

جاجارين يسافر إلى القمر والفضاء رمزا لانتصار الإنسان ونحن نسافر إلى غياهب القرون الوسطى ، ولكن محمد طه كان يحمل أخبارا أخرى قتلت الابتسامة على الوجوه وحملت معها جوا من الكآبة الثقيلة . . لقد روى محمد طه أن هناك معتقلين آخرين ألقى القبض عليهم وأنهم ومعهم زملاؤنا الذين تركناهم فى معتقل الفيوم يقيمون الآن فى معتقل أوردى «أبو» زعبل فى ظروف غاية فى القسوة . كان من الواضح أن ماتم فى الواحات على يد همت وفرقته تم أيضا فى أوردى «أبو» زعبل مع مزيد من النضج والإتقان .

وعرفنا أن زملاءنا هناك منذ أن زارهم همت يخرجون للعمل فى الجبل مع تكثيف شديد فى الضرب والإهانة وأنهم حتى الآن مازالوا يعانون من وطأة أساليب التعذيب الوحشى التى يمارسها عليهم قائد المعتقل حسن منير ومعه ضابطان آخران هما يونس مرعى وعبداللطيف رشدى .

وأخذ محمد طه يحكى تفاصيل غريبة عن أساليب التعذيب التى مازالت تمارس مع المعتقلين فى الأوردى ، فبالإضافة إلى العمل الشاق فى الجبل والجلد المستمر على العروسة يجمعون فى الصباح للقيام بطابور رياضى لمدة نصف ساعة حيث يطلب منهم أن يقدموا هتافات معينة أو أغانى يحددها لهم الصول مطاوع .

حقيقة إننا عانينا ومازلنا نعانى من أمثال هذه الأساليب ، ولكن الصحراء والبعد عن

القاهرة والإحساس بالنفى لدى الجميع معتقلين وعساكر وضباطا قد خفف كثيرا من «التطبيق» واستطعنا أن نكسر الحلقة فى عدة نقاط . ولكن الزملاء فى أبى زعبل كانوا سيئى الحظ لقربهم من القاهرة حيث الإشراف المباشر للأجهزة وأيضا لوجود ثلاثة حسن منير وعبداللطيف رشدى ويونس مرعى الذين عرفوا بشراستهم واستمتاعهم بعمليات التعذيب . . وحينما وصل الراوى الى حكايته إلى استشهاد الزميل الطبيب فريد حداد نتيجة التعذيب خرجت أكثر من صرخة ملتاعة . . كان الدكتور فريد حداد طبيبا باطنيا مشهورا تقع عيادته أول شارع شبرا ، وكان معروفا بدماثة خلقه ورقته الشديدة وعلاجه المجانى للفقراء ، الأمر الذى كسب له احتراما وحبا شديدين بين أهالى الحى .

وحين ألقى القبض عليه ودخل إلى أبى زعبل ضمن مجموعة صغيرة من الزملاء أجروا معه بروتوكول الاحتفال فى الضرب عند البوابة وتجريده من ملابسه وجره من قدمه للمسئول أمام قائد المعتقل حسن منير .

وتقدم الضابط يونس مرعى لاعب الكرة الفاشل والذى عرف عنه أنه يفتقد شيئين العقل و . . . ! ! ! وسأل فريد حداد .

- اسمك إيه ياولد

- الدكتور فريد حداد

- دكتور إيه يابن القحبة - إديله ياعسكرى

- أنت شيوعى ياولد

- أنا مصرى أؤمن بالاشتراكية

- يعنى شيوعى ، مصنوع فى روسيا

- أنا مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمال والفلاحين .

- بترد على ياولد يابن الـ . . . .

انهال يونس مرعى ومعه بضعة عساكر بالعصى ودبشك البندقية يحطمون رأس وجسد فريد حداد ، وصاح فريد فى وجه يونس مرعى .

أنت كلب فاشيستى .

وبصق فى وجهه ويقال إنها مازالت بقعة ماثلة على وجه الكلب الفاشى حتى الآن بالرغم من كل المحاولات التى قام بها لإزالة آثارها . . ثم سقط فريد شهيدا .

وخيم الصمت، ذلك الصمت المشحون بأسى الانفعالات، وتساقطت دموع ساخنة، وانتحب بعض من عرفوا الشهيد عن قرب، بينما راح محسن الخياط يردد قصيدة للشاعر الفرنسي بول إيلوار الذى مات فى سجون النازى وهو يدافع عن باريس الحبيبة :

باسم العيون التى أنظر إليها
من أجل اليوم وللأبد
باسم الأمل فى السجون .
باسم الدموع فى الظلمة
باسم الرجال فى السجن
باسم جميع الرفاق
الشهداء والقتلى
لأنهم لم يقنعوا بالظل
دعونى أنفس عن غضبى
وأستثير الحديد
لنحفظ الصورة العالية
للأبرياء الكادحين فى كل مكان
والذين سينتصرون فى كل مكان
والذين سينتصرون فى كل مكان

[١٣]

الظلـم يضـــرب فى كل مكان يـضـــرب الأبرياء
والأبطال والمجانين، ولكنى سمعتهم يضحكون
فى الشـقاء والتعـذيب يضحكون للغـد ويولدون
فى الضحك

(بول إيلوار)

٨ يناير سنة ١٩٦٠

كنت ومازلت متيما بالشاعر الهندى رابندرات طاغور . . ولقد قيل عنه وعن شعره الكثير فهو شاعر الحب والسلام، وهو المؤمن بالإنسان المقدس للمرأة المناضل من أجل المتعبين .

ولكن شيئا آخر كان ومازال يخاطب أعماقى وأنا أقرأ أشعاره، تلك هى جذوة الحزن الكامن والذى يحوله إلى طاقة غريبة يمكنها أن تشع فيضا من الأمل والأحلام .

ذلك الحزن الخصب القادر على الخلق والإبداع هو الذى جعله يغنى للحياة .

لا أريد أن أموت فى هذا العالم الجميل
أريد أن أحيا مع البشر
فى ضو الشمس
فى الحديقة المزهرة
وسط القلوب الحية دعنى أجد مكانا
دعنى أزرع صباح مساء زهورا من أغان جديدة

ولقد كان علينا أن نزرع زهور أغان جديدة وسط تلك الصحراء القاتلة ، ومع كل تلك الأنباء الحزينة عن زملاء آخرين لنا يعيشون فى القرون الوسطى فى غابة أوردى

أبى زعبل على بعد ثلاثين كيلو متر من القاهرة . .

الطريق . . . الطريق . . . .

مجلة تسمع ولا تقرأ . . بعد خمس دقائق فى عنبر واحد . . ولدت أول مجلة صوتية فى ردهات عنبر (١) تقدمُ الصورة والخبر والكاريكاتير والتحليل السياسى والنقد الأدبى والقصة والشعر .

كل ذلك يقدمه رؤساء التحرير بأفواههم .

ونجحت التجربة وتكررت وبات المعتقلون ومعهم الزملاء المسجونون ينتظرون الساعة الثالثة من يوم الخميس كل أسبوع ليسمعوا آخر أخبار مصر والعالم الخارجى مع كل الأبواب التى يمكن أن تصدر بها مجلة أسبوعية مكتوبة مع فارق واحد أنها مجلة منطوقة تسمع ولا تقرأ .

وقد كنت واحدا من ثلاثة يرأسون تحرير المجلة التى اشترك فيها بعد ذلك عدد من كبار المثقفين المصريين والفلسطينيين من أمثال الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله وأبوسيف يوسف وأديب ديمترى وأمير إسكندر والدكتور فؤاد مرسى والدكتور عبدالعظيم أنيس ومعين بسيسو وطاهر عبدالحكيم وحمدى عبدالجواد ومصطفى طيبة وعبدالقادر ياسين وسعيد عارف والدكتور فوزى منصور . . ولم تمض أسابيع قليلة حتى ظهرت مجلة أخرى من نفس النوع هى مجلة الهواء واشترك فيها أيضا بعد ذلك عدد آخر من كبار الكتاب والشعراء من أمثال محمود أمين العالم وإبراهيم عبدالحليم وصلاح حافظ والدكتور شريف حتاتة ورفعت السعيد وعادل حسين . . وكان من الواضح أن كلا من مجلة الطريق والهواء كانت ردا فكريا على الواقع المر الذى حاولوا فرضه علينا سواء فى الواحات أم فى أبى زعبل .

وقد بدأنا نكسر الكثير من الحلقات التى كانت تعمل على عزلنا تماما عن الحياة خارج سور الصحراء الواسع والممتد ، وبدأت تصلنا الجرائد - سرا - كما بدأنا فى استخدام العساكر فى إرسال الخطابات إلى ذوينا واستلام خطاباتهم سرا .

وحاول مأمور السجن والحق يقال أن يقاوم كل ذلك فبدأ بحملات تفتيشية مكثفة بحثا عن الأوراق والأقلام التى كانت تعتبر أم الكبائر بالنسبة لنا ، كما حرص على أن يراقب بنفسه العمل فى الجبل ، ولكن إرادتنا كانت أقوى ، كما أن هناك حدثا آخر كان بمثابة الطعنة القاتلة التى أصابت غطرسة المأمور وتعسفه ، فذات ليلة فوجئنا بالعنبر يفتح واستيقظنا على صوت المأمور وهو يصيح ملتاعا . . عاوز دكتور من فيكم

دكتور . . وخرج له ليلتها الدكتور حمزة البسيونى والدكتور مختار السيد والدكتور رزق عبدالمسيح . . وذهب بهم إلى الفيلا المخصصة له على بعد ثلاثة كيلومترات من المعتقل حيث كان يرقد ابنه الصغير وقد استبدت به الحمى حتى قطعت أنفاسه وأيقن المأمور أن ابنه قد مات .

ولم تحدث المعجزة مثلما تصور، بل إن الأمر ببساطة أن الأطباء الثلاثة الذين ذهبوا معه كانوا يعرفون عملهم جيدا واستطاعوا بوسائل بدائية وبخبرة أن يعيدوا إلى صدر الطفل الصغير الهواء الذى كاد أن ينقطع، بل وتمكنوا خلال عدة ساعات من تخفيض درجة الحرارة حتى استطاع الطفل الذى كان يعتبره ميتا منذ ساعات أن ينهض من فوق فراشه وأن يتكلم .

ومنذ تلك الليلة والمأمور الذى كان يتباهى بقدراته الجسدية وقوته والتى كان يمارسها معنا فى زهو وخيلاء، قد أصبح يتجنب دائما أن يلقانا بل إنه سرعان ما استجاب لمطالبنا فى أن نحول جهدنا الذى نبذله فى الجبل والصحراء فى عمل لا عائد منه إلى عمل آخر يمكن أن يكون نافعا لنا وللسجن كله .

وبدأت قصتنا مع «المزرعة»

فقام عدد من الزملاء المهندسين بمسح المنطقة التى تقع بين السجن وبيوت الضباط وتقع فى حوالى مائة فدان ووضعوا مشروعا متكاملا لاستصلاح تلك الأرض مستفيدين من وجود بعض آبار المياه القريبة من بيوت الضباط وبدأت رحلة الخروج اليومية تتجه نحو المزرعة . . وبخطة علمية مدروسة وبحماس ذاتى من جانبنا بدأ تنفيذ المشروع . . والغريب أننا بدأنا نعمل بجدية فلقد كان استنبات الزرع فى تلك الصحراء يعنى بالنسبة لنا أشياء كبيرة .

فالفكرة فكرتنا والجهد جهدنا وأيضا فإننا كنا فى أمس الحاجة إلى الكثير من الغذاء، وخاصة الخضر والتى كنا نفتقدها تماما .

فطوال العام الماضى وبالذات منذ بدأنا نخرج إلى الجبل وهناك إحساس بالجوع الدائم فأروانة العدس أو الفول وقطعة الجبنة القريش والأرغفة الثلاثة التى كانت تصرف لنا يوميا كنا نلتهمها فور عودتنا من الجبل ليبقى الإنسان حتى الساعة الرابعة من اليوم التالى وهو يعيش فى حالة من الجوع الدائم .

ولقد كان هناك بعض الزملاء الذين يحرصون على أن يحتفظوا بكسرة خبز يتناولونها فى الصباح قبل الذهاب إلى العمل، وكم كانت تحسدهم الغالبية وأنا منهم .

لقد كان بيننا من هو مصاب بقرحة فى المعدة أو التهاب فى القولون. ولكن الجميع كانوا يلتهمون الفول والعدس بنهم والغريب أن الزملاء المرضى بالأمعاء عاشوا ولفترة طويلة لايشكون ألما، ولكن ذلك لم يكن يعنى أن المرض انتهى بل كان يعنى أن إرادة الحياة القوية لديهم كانت تمنحهم الرغبة والقدرة على تحمل الظروف الصعبة التى نعيشها.

وقد بان أثر ذلك بعد فترة حينما بدأ يتساقط عدد من الزملاء بأمراض قاتلة فى المعدة منهم من وصل المرض معه إلى درجة لم تستطع أن تنقذه من براثن الموت.

ففى أول يناير ١٩٦٠ سقط على متولى الديب العامل فى مصنع الألياف بشبرا الخيمة بعد أن أصيب بدوسنتاريا قاتلة، ومات العامل الشاب (٢٨ سنة) ونحن لانملك سوى أن نصرخ فى وجه الإدارة العاجزة محتجين على سياسة القتل البطىء التى تمارس معنا.

وفى نفس الوقت تقريبا وفى زنزانة مظلمة فى معتقل أبى زعبل مات المهندس الشاب رشدى خليل (٣٠ سنة) بعد أن تمزقت أمعاؤه من الحمى.

وبدأنا نفيق على حقيقة مرة.. هى أنه يبدو أن هناك حكما بالإبادة قد صدر ضدنا فمن لم يمت بالتعذيب قتله الجوع والمرض.

ولهذا كله كان حماسنا للعمل فى المزرعة دفاعا عن الذات ومحاولة لإفشال مخطط الموت البطىء الذى بدأ يؤتى ثماره وكان الانفعال الواضح على وجهى المهندسين عبدالمنعم شتلة وحسين طلعت وهما يستحثان الزملاء للعمل يحمل هذا المعنى.

على أن الأيام الأولى للعمل فى المزرعة قد شهدت مأساة هزلية.. ففى فترة الظهيرة كنا نأخذ راحة لمدة ساعة نستنجد بظلال بعض شجر الخروع المجاور لبيوت الضباط من وطأة الشمس القاسية وكانت الأشجار وقتها محملة بثمار الخروع.

وقال ظريف عبدالله المحامى وهو يلتهم ثمرة من تلك الثمار لجمع حوله.

لذيذ... طعمه مثل اللوز.

وكان الجوع الشديد الذى نعانيه كافيا لإقناعنا بالتهام ثمار الخروع.. واشترك فى المأدبة أعداد واسعة حتى الدكتور مختار السيد أفتى بأن أكل الخروع صحى.

وضاعت صرخات عم نوح فلاح البحيرة وهو ينهر الزملاء ويحذرهم من أكل الخروع الذى «لاتأكله الحمير» ولكن الجوع المستبد وثناء ظريف عبدالله وفتوى الدكتور مختار أغرتنا بتناول ثمار الأشجار الموجودة.

قام الجميع بالتهام الثمار المحرمة . . وبعد أقل من ساعة كنا قد تناولنا كل ثمار الأشجار الموجودة .

وكانت ليلة مبكية مضحكة .

فبعد ساعة من إغلاق العنبر والغرف بدأ عدد من الزملاء يحسون آلاما حادة فى أمعائهم وانتاب البعض إسهال شديد ثم قىء، ثم بعد نصف ساعة أخرى كان من الواضح أن أعدادا كبيرة من الزملاء قد أصيبوا بالتسمم . . وبدأنا ندق الأبواب بعنف نستنجد بالعساكر ليفتحوا الغرف، وكانت كل لحظة تمر يسقط أكثر من زميل فاقدا الوعى بعد أن أنهكه الإسهال والقىء . . وقال البعض إنها مؤامرة من نوع جديد لقتلنا . . أما الزملاء والأطباء فلقد بدءوا ينصحون ببعض الإسعافات الأولية لمن وصلت حالتهم إلى درجة الخطورة والإغماء .

وحضر المأمور ومعه قوة السجن وفتح العنبر والغرف التى تحولت بسرعة إلى مستشفى ميدان وبدأ الزملاء الأطباء وكانوا حوالى ١٢ بمن فيهم الطلبة فى السنوات النهائية فى الكلية، بإجراء بعض الإسعافات وذهبت عربة السجن إلى مدينة الخارجة لتحضر بعض الأدوية المتاحة، والغريب أن عم نوح الذى حذر الزملاء من أكل الخروع هو الآخر يتلوى من الألم ثم اعترف بأنه تناول بعض الحبات حينما أثنى الدكتور مختار بأنه صحى أما الدكتور مختار نفسه والذى تناول أكثر من مائة حبة فلقد ظل يتكابر ويخفى آلامه بينه وبين نفسه ليؤكد نظريته ثم سرعان ما انهار وسقط هو الآخر يتلوى .

وحتى الساعة الثالثة من صباح اليوم كان الموقف خطيرا فحوالى ثلث المعتقلين يواصل عملية القىء والإسهال ويصل ببعضهم إلى مرحلة خطيرة والثلث الآخر ممن تناولوا كمية محدودة وقد كنت منهم يتحامل على نفسه فى محاولة لإسعاف الزملاء الآخرين فى حين كان هناك مجموعة أخرى ولحسن الحظ لم تخرج للعمل فى هذا اليوم للقيام بأعمال النظافة داخل العنبر .

وامتلأ العنبر بالحركة وصراخ الألم المكتوم تماما مثل أى مستشفى فى ميدان المعركة وقرر الأطباء نقل ٢٠ زميلا على الفور إلى مستشفى الخارجة حيث كان نبضهم ضعيفا ودخلوا فى مرحلة الخطر بينما أجرى لعدد كبير آخر عملية غسيل للمعدة أو إعطاء بعض المضادات للتسمم .

وليلتها لم ينم أحد فى المعتقل، سوى الزملاء الذين راحوا فى غيبوبة استمرت أكثر من يومين وأمكن إنقاذ حياتهم بعد جهود مكثفة ولكن إلى حين .

فلقد تبين بعد ذلك أن الفنان أحمد البيكار الذى مات بعد عام نتيجة سرطان فى الأمعاء والعامل على زهران الذى مات أيضا بعد حوالى عام ونصف نتيجة تسمم فى البولينا كانا يدفعان ثمنا غاليا لتلك المأساة التى عشناها مع الخروع .

ولقد تصور مأمور السجن الذى أصبح أكثر إنسانية أن من واجبه أن يرسل لحسن المصيلحى . مدير إدارة المباحث العامة فى ذلك الوقت ليخبره بما حدث ربما أملا فى أن يأمر المصيلحى صاحب الأمر والنهى فينا بتخفيف بعض الظروف التى نعيشها وخاصة حالة التجويع البطىء . . واهتم المصيلحى برسالة المأمور وبعث له على الفور برقية يهنئ المأمور فيها بسياسته الحازمة ويعلن سروره بما حدث ! !

[١٤]

ثم بدءوا يدقون المسيح بالمسامير
عند الدقة الأولى اهتزت الفلك.
وعند الدقة الثانية نزلت الملائكة من السماء
يغسلون جروحه.
وعند الدقة الثالثة فقدت العذراء الوعى ومعها
العالم أيضا.
وغرقت الأرض فى الظلام

(**الإنجيل**)

يونيو سنة ١٩٦٠

الطوارئ

حتى الجو أعلن حالة الطوارئ وتحولت الشمس إلى بقعة صفراء مختنقة ورياح خماسينية معربدة تعصف بأطنان الرمال المتوافرة ووسط كل هذا حركة فى الإدارة يشترك فيها المأمور والضباط والحرس تماما مثل حركة الرمال المتحركة التى تلقى بها الرياح لتصل إلى أعتاب العنبر والغرف.

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ولم نخرج إلى المزرعة وكلما سألنا كانت الإجابة: الظاهر فيه حاجة، وأخيرا فتحت الزنازين وتجمعنا فى فناء السجن وقد استبدت بنا الظنون فمن قائل إن هناك ترحيلة ومن مؤكد أن حفلة تعذيب أخرى تعد. أما الغارقون فى أحلام التفاول فلقد راحوا يؤكدون أن هناك إفراجا ويستدلون على ذلك ببرقية عاجلة وصلت إلى المأمور أمس لم يعرف أحد محتواها وإن كان شهود العيان من العساكر يؤكدون أن ملامح المأمور وهو يقرأ البرقية كانت تعكس اهتماما بالغا وحين تجمعنا فى فناء السجن المكشوف نسينا تماما غضبة الرياح ولطمات

الرمال فى انتظار مايمكن أن يحدث أو أن يكون مدبرا أن يحدث، وأخيرا جاء المأمور ولم يجلس على الكرسى الذى كان معدا له بل وقف يتأمل صفوفنا المتراصة الجالسة القرفصاء لعله يشبع نفسه ببقايا مازالت عالقة به حتى بعد ليلة مرض ابنه، وهو يدرك أنه النجم الذى تنجذب إليه كل الأنظار وأنه القائد الآمر الناهى فى عباد الله.

والواقع أن شخصية الرائد فريد شنيش تستحق بالفعل أن تشد إليها انتباه مخرجى المسرح لأنه من السهل أن يجدوا فيها تلك الشخصية الطبيعية دون أى انفعال أو تمثيل شخصية المختال والمعجب بنفسه. خمس دقائق وقف فيها ذلك الممثل الممتاز على خشبة من الرمل وأمامه جمهور من الحفاة ليسوا على استعداد على أية حال أن يصفقوا له وأخيرا ابتسم وانعكست تلك الابتسامة فى شكل تنهدات من الارتياح الصامت خرجت من بعض الصفوف، وإن كنت قد ظللت أراقب المشهد بحذر شديد فلطالما تعودنا من ذلك الممثل العظيم أكثر الآلام والجروح بعد أمثال تلك الابتسامة أو حتى الضحكة العالية المدوية. وتكلم بألفاظ مختارة جيدا على غير عادته وبصوت متهدج على غير عادته أيضا وبنبرة إنسانية لم نتعود عليها من قبل حتى ليلة الأزمة التى مرت بابنه الصغير «لقد جاءت أوامر من القاهرة بتغيير الظروف التى تعيشون فيها ومنذ اليوم، ويمكنكم أن ترتدوا أحذيتكم ويمكنكم أن تتسلموا خطابات من أهاليكم بل وقد سمح لكم أيضا التعامل مع الكنتين وشراء ماتحتاجونه، كذلك لقد أوقف العمل الإجبارى واختتم المأمور أخباره السارة قائلا: أنا سعيد لهذه الأوامر وأرجو أن تفهموا ماحدث فى الشهور الماضية. إنه لم يكن بإرادتى فلقد كنت أنفذ التعليمات. وعموما أنا سعيد وأتمنى أن يكون ماحدث اليوم مقدمات للإفراج عنكم».

ورفع نظارته السوداء ومر بمنديله الأبيض يسمح شيئا ما فى عينيه.

غريب أمر هذا الرجل الذى يستطيع أن يكون متكيفا مع كل موقف فهو مع الضرب والتعذيب الشخصية القاسية التى تقطع صلاتها بكل ما هو إنسانى، وخاصة حينما كان يضحك ضحكاته الشيطانية وهو يكسر ذراع زميل لنا ويوجه لكمات قوية إلى وجهه وجسده، وهو أيضا يمثل الدور تماما فى هذه اللحظات ليكون حملا وديعا تفر الدموع من عينيه.

ولقد قرأت كثيرا مثلما قرأ غيرى عن انفصام الشخصية وازدواجيتها ولكنى لم أر شخصية أخرى ينطبق عليها هذا الوصف قولا وعملا سوى الرائد فريد شنيش ربما فيما عدا القصة المشهورة الدكتور جيكل ومستر هايد.

وقبل أن يتركنا المأمور طلب أن يلتقى فى مكتبه بخمسة من زملائنا حددهم

بالاسم . وعدنا الى العنبر لتبدأ عملية تسليم أحذيتنا ، وكم كانت عملية مثيرة . البعض احتضن حذاءه وهو يبكى ، هؤلاء الذين لم يبكوا فى مواجهة أقصى أنواع التعذيب وتهدجت كلماتهم بالدموع وهم يأخذون من المخزن الحذاء ومعه بعض الحاجيات الخاصة والمتبقية بعد حفلة همت حين أخذوا منا كل شنطنا وفرضوا علينا الملابس المجهزة لهذه المناسبة . البعض أخذ نظارته التى فرض عليه أن يعيش بدونها والبعض وجد علبة سجائر متبقية مضى عليها أكثر من ثمانية شهور والبعض وجد صورا لأولاده أو زوجته أو صديقته ووضعت قدمى فى حذائى وخطوت ماشيا أول خطوات بعد شهور سبعة من الحفاء وتذكرت مرة أخرى أمنية المهرج فى مأساة الملك لير الذى كانت أحلامه تتوقف عند حذاء يضع فيه قدمه ويرد عنه غائلة البرد والثلج .

وخفت الحركة فى العنبر تماما على غير العادة رغم الأبواب المفتوحة فلقد انتحى كل زميل فى ركن من الغرفة أو فى جانب من الممر يعيش مع صورة فى يده قد تكون ابنه وقد تكون زوجته وقد تكون حبيبة يقبلها أحيانا ويتأملها بشغف وأخذت أحملق فى صورة سامح وأهداب ولدى أختى وأعيد تأكيد ملامحهما ومعهما أعبر الصحراء إلى ذكريات الحياة هناك بعيدا فى تلك الشقة التى تقع فى الدور الثالث فى شارع ٢٦ يوليو صراخهما وضحكاتهما ، شقاوتهما مع أمهما الطيبة ، صرخات سامح الصغير وإصراره على أن يمضى معى وعندما جاءوا للقبض على فى فجر اليوم البارد منذ أكثر من عام ونصف ، كانت الحياة تخضر من جديد بعد أن كادت تضيع وتغرق فى تلك الوديان الصحراوية القاحلة .

وجاء الزملاء الخمسة بعد لقاء طويل مع المأمور الذى استمر ثلاث ساعات لم نحس بها إذ كنا غارقين مع ذكريات الحياة البعيدة خارج الأسوار وتجمعنا كلنا حولهم نسمع تفاصيل الحوار مع المأمور الذى كان يبدو أنه كان مشحونا ووقف فخرى لبيب يحكى وقبل أن ينطق بالكلمة الأولى كانت الدموع قد سبقت إلى عينيه ثم بدأت تنهال وهو يقول لقد مات شهدى عطية أول أمس فى أوردى أبى زعبل . . إذن فهذا هو الثمن .

كان شهدى واحدا من ألمع المثقفين المصريين ورائدا من رواد الفكر الماركسى ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وهو يناضل بقلمه وفكره دفاعا عن العمال والفلاحين المصريين وهجوما على الاستعمار والإقطاع وعمل رئيسا لتحرير مجلة الجماهير التى أغلقها الدكتاتور إسماعيل صدقى سنة ١٩٤٦ . ثم اعتقل ولكنه منذ قيام الثورة وقد كان أحد المبشرين لها وتحول إلى أحد المدافعين عنها وخرجت له عدة مؤلفات من أهمها تاريخ الحركة الوطنية المصرية وسجل بها تاريخ الشعب المصرى

من أجل الاستقلال والديمقراطية وعدالة التوزيع، وحتى حينما ألقى القبض عليه عام ١٩٥٩ وقدم للمحاكمة بالإسكندرية أخذ يحذر من هؤلاء الذين يعملون على تفتيت وحدة القوى الوطنية ويرفعون شعار العداء للشيوعية.

كانت تلك آخر الأخبار التى وصلتنا عن شهدى قبل أن نسمع عن استشهاده فى أبى زعبل، وقد كان علينا أن ننتظر يومين لنسمع تلك التفاصيل عن مقتل شهدى وعن الجو الذى عاش فيه زملاؤنا فى أبى زعبل طوال ثمانية أشهر، ولقد وصل إلينا هؤلاء الزملاء بعد أن تقرر إجراء تصفية أوردى أبى زعبل. أكثر من ثلاثمائة رفيق كل منهم يحمل قصة إلى حد الأساطير عن ذلك المعتقل الذى مورست فيه أكثر الأساليب وحشية وربما تلك التى لم تخطر على بال.

وكنا قد سمعنا بعضا منها منذ ثمانية شهور، وخاصة بعد أن عرفنا بوفاة الزميل الطبيب فريد حداد، ولكن الذى لم نتصوره أن يستمر هذا الجو الهيستيرى طوال تلك المدة لتنتهى بمأساة اغتيال شهدى.

إن ما استطعنا أن نفرضه فى الواحات وقد ساعدنا عليه البعد عن القاهرة من ناحية وبالتالى عن الأجهزة المعنية بالتعذيب وأيضا ذلك الإحساس الذى تفرضه الصحراء الشاسعة المحيطة والتى تملأ الكل بإحساس الغربة والوحشة سواء كانوا سجانا أم سجناء، إن ذلك لم يتوافر لزملائنا فى ليمان أبى زعبل الذين ذاقوا الكأس حتى الثمالة.

ثمانية أشهر يضربون طوال الأربع وعشرين ساعة فى طابور الرياضة فى العنابر، فى منتصف الليل فى الفجر حينما يتسلمون «الجراية» أو حتى حينما يشكو أحدهم من مرض.. صورة بشعة لايمكن أن يتصورها إلا مخبول نزع عقله فراح يعربد حرا طليقا من أى منطق ومن أى ذرة إنسانية.. وإذا كان التعذيب علما أو فنا فلابد وأن يعترف الإنسان أن قائد أو ضباط أوردى أبى زعبل يستحقون لقب أساتذة هذا العلم، ولست مبالغا إذا قلت إنهم تفوقوا فى بعض الأمور على أساتذة النازى فى معتقلات دخاو وبوخنوالد واشفيتز. إن الصورة التى سمعناها عن يونس مرعى وهوايته المفضلة فى أن يقف على تل عال ليقذف الزملاء الذين يعملون تحت الجبل بالدبش متعمدا أن يصيب رءوسهم تلك الرءوس التى تحوى عقولا كانت تغيظه وتستفزه وهو الذى لم يقرأ فى حياته سوى روايات أرسين لوبين ولم يعرف متعة فى حياته سوى الخمر والعربدة والفجر مع النساء.

وعبداللطيف رشدى وكيل المعتقل الضخم الجثة الذى لايعرف سوى أن يضحك

ويقتل وحسن منير قائد المعتقل ذو الصوت الثعبانى الذى كان يصفق كالطفل وهو يأمر بجلد زميل أو سحبه على الأرض.

ولقد أخذت أتصور الدكتور لويس عوض المثقف المصرى والعالمى ويونس مرعى يلقيه على الأرض ويضربه بحذائه مثلما يضرب حشرة والدكتور فؤاد مرسى أستاذ القانون بكلية الحقوق وملابسه تخلع عنه ليضرب على المناطق الحساسة فى جسده والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله وقائد الأوردى وزبانيته يتسلون عليه وهم يأمرونه بأن يدور فى حلقة كالثور لتنهال عليه الكرابيج والشوم.. والمئات من خيرة أبناء مصر الطيبين من عمال ومثقفين وفلاحين وطلبة وضباط، وهم يعاملون تلك المعاملة الوحشية.. ثمانية أشهر وكان الدكتور لويس عوض مثلما سمعت يفزع من النوم ليلا ليصيح أين نحن.. لايمكن أن نكون قد رجعنا ألف عام إلى الوراء.. «ولم يهدأ الزبانية ولو يوما واحدا».

وحين انتهت محاكمة شهدى عطية وزملائه فى الإسكندرية ورحلوا إلى معتقل أبى زعبل فى يونيو كان اللواء همت وفرقته التى لاتختلف عن فرقة العاصفة الهتلرية ينتظرونهم على باب المعتقل.. ويومها أقام همت حفلته الهمجية باستمتاع شديد.. الضرب المستمر حتى الوصول إلى البوابة ثم خلع كل الملابس وحرقها ثم جر المعتقل من رجليه إلى داخل السجن.. ويقول شهود العيان إن همت كان فى أوج نشوته فى ذلك اليوم ولذلك أخرج حفلة فريدة من نوعها فاقت كل حفلاته المشئومة السابقة.

وبعد انتهاء المرحلة الأولى من الحفلة التى قام بها همت خارج أسوار السجن بدأت مرحلة أخرى على يد حسن منير قائد المعتقل.

فلابد له هو الآخر أن يرحب بالوافدين الجدد وعلى طريقته الخاصة.. وحينما وصل إلى شهدى عطية بادره.

- أنت بقى شهدى عطية.. عاملى عالم.. أنت شيوعى ياوله قول أنا مرة.

وسكت شهدى فلم يكن هناك مجال للرد على مثل تلك الأسئلة.

فأمر حسن منير بأن يقلب على ظهره ويضرب بشدة على بطنه.

ثم رفعوه بعد ذلك ليمشى ولكن شهدى سقط فعاد الزبانية ينهالون عليه بالضرب.. ولكن شهدى كان قد فارق الحياة.. ويروى الدكتور إسماعيل صبرى هذه اللحظات التى كان شاهدا عيانا لها «كنا قد أمرنا بأن نقف داخل العنابر ووجوهنا

للحائط وكان الضرب شديدا على الوافدين الجدد وسمعنا اسم شهدى يتردد مع صوت الشوم والكرابيج ثم خيم الصمت المفاجئ ولم نعد نسمع إلا أصواتا متباعدة بعضها ينادى: فين أمين التمورجى، وتركنا واقفين ووجوهنا للحائط ولم نخرج إلى الجبل فزاد إحساسنا بأن شيئا غير عادى قد حدث وحاولنا الاتصال بزملائنا الجدد والذين أدخلوهم عنبر (٢) وعرفنا منهم أن شهدى لم يدخل العنبر وأن أربعة آخرين سحبوا من العنبر لخطورة إصابتهم وزاد قلقنا وحاولنا من خلال الشبابيك الاتصال بالزملاء فى كل العنابر لنعرف ماذا حدث.

وعرفنا المأساة، لقد كان جسد شهدى عطية ملقى فى إحدى زنازين التأديب بعد أن وضع قائد المعتقل عليها يافطة «مستشفى» مات شهدى مثلما مات فريد حداد بنفس الأسلوب ومثلما مات رشدى خليفة وعلى الديب.. وقبلهم مات محمد عثمان فى إحدى ردهات مبنى المباحث العامة فى طنطا.

وبقدر مافجر حدث شهدى الدمع والألم فى عيوننا وقلوبنا بقدر ما فجر المأساة التى نعانيها.

ففى تلك الأثناء كان الرئيس عبدالناصر فى زيارة ليوغوسلافيا ووصلت أنباء استشهاد شهدى عطية وأثارت ضجة فى الرأى العام العالمى لما لشهدى من سمعة واسعة ككاتب مصرى تقدمى.

ومن بلغراد أرسل عبدالناصر برقية يطالب فيها بالتحقيق فى مقتل شهدى.. وكان ذلك يعنى وقف التعذيب البدنى الذى كان يمارس علينا.

ووسط الدموع بل وشهقات البكاء ونحن نسمع من زملائنا ملحمة التعذيب فى أبى زعبل وموت شهدى قام محسن الخياط الشاعر ذو الصوت المبحوح ليقول قصيدة مرتجلة:

مستقتلين.

ولا عمرنا نرمى السلاح من يدنا.

مستموتين.

نضحك لأيام الجراح اللى ارتوت من دمنا.

واحنا كده.

من صنع أوجاع الجياع المحرومين من شعبنا.

وأحنا كده .
من صنع أهوال النضال عد السنين من عمرنا
نبدر حياتنا ع الطريق .
ترويها أيام الضنا
تطرح هنا
لا جلادين
ولا سفاحين
هيغيروا طعم الكفاح من بقنا
طعمه جميل . . زيك يانيل
والشمس رامية شعرها وراء ضهرها
زى الغدير اللى انسكب منه الدهب
وانت تسيل . . وانت يانيل . .
تاخد وتدى أرضنا

[١٥]

كانـوا يتوارثون الخـوف.. وكانوا يطلقـون على هذا الخـوف اسم الـحـيـاة وفي يوم جـاء رجل ضـــئيل الحجم.. لم يـقل لهم شيئـا غيـر عادى.. قال أشـياء يعرفونها من قبل ولكنهم نسوها.

قال إنهم آدميون وإن لهم روحـا، إنهم جوعى وأيضا إن هناك شيئا اسمه الحرية وشـيئا آخر اسمه العدالة. وشيئا ثالثا اسمه الثورة.

كازانتزاكس: الإخوة الأعداء

سبتمبر سنة ١٩٦٠

غرقت في الألوان وأخذت أستكشف الوادى مرة أخرى وكأنى أراه لأول مرة.

منذ عام مررت من هنا وذهبت بعيدا . . بعيدا في أعماق الرمال الصفراء، عام طويل طلى بلونين هما الأصفر والكاكى لون الصحراء وبدل العساكر والضباط وأحيانا خضرة باهتة شاحبة . أما أحداثه فتمضى متنوعة حقا ولكنها داخل نمط واحد. . العنبر والمزرعة والبرش.

لكل هذا كان قلبى ينبض بحياة متدفقة وأنا أقف على رصيف محطة المواصلة مرة أخرى، ومعى ضابط وثلاثة عساكر في انتظار القطار القادم من أسوان في الطريق إلى أسيوط.

كانت الشهور الماضية والتى أعقبت وقف التعذيب البدنى والعمل الإجبارى ومجىء الزملاء من معتقل أبى زعبل قد أوضحت إلى أى مدى كنا نعانى قبل ذلك. . فعندما

أصبح هناك وقت لالتقاط الأنفاس اكتشفنا أن الكثيرين قد بدءوا يحتوون على أمراض غريبة، ربما كانت كامنة طوال تلك الفترة الماضية، وربما كان الجسد يستوعبها بإحساسه بالخطر الذى كان يهدده كل لحظة، ولكنها بدأت تظهر وتطفو على السطح حين بدأت تقل المخاطر الخارجية التى يتعرض لها الجسد.

كنا كمن ظل ولعدة شهور يصارع الأمواج العالية والقاسية لتظل رأسه تطل من فوق المياه، وحينما خرج إلى الشاطئ بدأ يحس بالإنهاك والألم للجهد الخارق الذى بذله.

حقيقة إننى كنت معتادا قبل المعتقل على ذلك المغص الذى ينتابنى أحيانا ليذيقنى مرارة الألم ليوم أو يومين.. ولكنه كان قد اختفى تماما منذ الاعتقال حتى بدأت أعتقد أننى قد شفيت منه.. وفجأة عاودنى المغص وبشكل عنيف.

ولقد احترت مثلما احتار الزملاء الأطباء فى تشخيص المرض وعبثا حاولنا أن نعالجه أو نسكنه ببعض الأدوية المتوافرة فى المعتقل فلقد كان يصمت لبضعة أيام ثم يعاود هجماته المريرة فأظل ليلة كاملة أتلوى من الألم والصراخ المكتوم.

ولم تكن حالتى هى الوحيدة، فلقد كان هناك الكثير من الزملاء الذين بدءوا يسقطون تحت هجمات أمراض غريبة كالإغماء المفاجئ وآلام العظام والالتهابات المختلفة مثل تورم الركبتين وتساقط الأسنان والهزال الشديد الناجم عن أنيميا حادة.

وكان الزملاء الأطباء يعالجون من يستطيعون علاجه، ولكن بعض الحالات، وخاصة تلك التى تحتاج إلى أشعة أو تدخل جراحى، فقد كانت تعرض على طبيب السجن ليقرر ترحيل صاحبها.

ومن الطبيعى فى الظروف الجديدة وبعد استشهاد شهدى عطية ووقف التعذيب أن توافق الإدارة على ترحيل الحالات المرضية الشديدة، إما إلى مستشفى أسيوط أو إلى القاهرة.

وعلى هذا الأساس رحلت إلى أسيوط لإجراء أشعة على الكلى.. وطوال الرحلة من الواحات إلى أسيوط كنت أستعيد الكثير من حواسى التى نام بعضها أو تأقلم بعضها على مرئيات معينة ومحدودة.

كانت رؤية الأولاد الصغار والنساء والرجال العاديين دون زى رسمى وكذلك نسمات الوادى ومياه النيل أشياء عظيمة تعيد الخضرة إلى القلب والنفس.

وفى القطار وبالرغم من أننى ومعى الحراس جلسنا فى ديوان مستقل إلا أننى كنت

أمارس حرية الحركة فى الانتقال فى ردهات القطار، وخاصة بعد أن اكتشفت أن الضابط المكلف بترحيلى كان زميلا لى فى المدرسة الابتدائية، وقد تركنى أمرح كالطفل فى هذا العالم الجديد بشرط واحد «هو أنه عند أى محطة يقف عليها القطار لابد وأن أعود إلى الديوان لأن هناك دائما عيونا تنتظر وتراقب».

وقد كان يجتاحنى إحساس بالزهو حين يقف القطار فى إحدى المحطات لأرى صفا من المخبرين والعساكر يقفون على الرصيف فى انتظار الضيف الخطير الذى يقله القطار ويظل بعضهم يتطلع فى الدواوين حتى يقع بصره علينا فيطمئن قلبه ويومئ للضابط برأسه تأكيدا للقيام بالواجب.

وقد علق الضابط المرافق ونحن نغادر محطة قنا.

«ابسط ياعم.. فى كل محطة تشريفات.. ولا رئيس الوزراء».

ولكنى لم أكن أحفل بهذه الاحتفالات، وكان كل مايهمنى أن يتحرك القطار لأستأنف تراشق الكرة مع أحد الأطفال - وهو ابن مهندس يعمل فى السد العالى كان عائدا مع أمه إلى القاهرة.

أربع أو خمس ساعات عشت كل دقيقة فيها أملأ عينى وصدرى وكل حواسى بالحياة التى يعج بها القطار ولا أترك فرصة تفوتنى لكى أرفع رصيد الحياة المخضرة بداخلى بعد أن استنزف هذا الرصيد طوال عام ونصف فى السجون والمعتقلات وقبل أن تطوينى الزنازين مرة أخرى.

وحين وصلنا إلى محطة أسيوط كان بانتظارى فى المحطة فرقة كاملة مدججة بالسلاح تسلمتنى من ضابط الترحيلة.

ومضت بى وسط صفين من الناس الذين تجمعوا ليرقبوا هذا المنظر الغريب شاب يلبس بدلة عادية وفى يده قيد حديدى ويحمل شنطة سفر ووراءه وخلفه وحوله جيش من العساكر شاهرين أسلحتهم.

كنت أمضى مبتسماً بل وأقول سعيداً وأنا أسمع التعليقات المختلفة من الصفوف.

دا معتقل.. شيوعى.. لأ إخوانجى.. والله ظلم.. ربنا معاه.. بكره يخرج دا لسه صغير.

وانطلق بنا البوكس من المحطة إلى سجن أسيوط.. عالم آخر.

كنت قد تنقلت من القلعة إلى الفيوم إلى الواحات.. كما كنت قد جربت الحجز فى الأقسام.. ولكن سجن أسيوط كان أول تجربة لى فى سجن تقليدى..

ومن الواضح أن سجن أسيوط مثله مثل معظم سجون مصر قد شيد على النظام الإنجليزى فهناك ثلاثة أو أربعة مبان يضم كل مبنى أربعة أو خمسة أدوار ويشمل كل دور ما بين أربعين إلى خمسين زنزانة.

ومن اللحظة الأولى التى دخلت فيها بوابة السجن أدركت أننى أمام عالم آخر . . وجديد . . عالم يختلف عن المعتقلات التى عشت فيها .

وبالرغم من أن الزنازين كانت مغلقة فى هذا الوقت إلا أن الضجة الهائلة داخل العنبر أوحت إلى على الفور بأننى أعيش فى سوق أو فى مولد تمتزج فيه الأصوات إلى الدرجة التى لا تستطيع أن تميز منها صوتاً منفرداً . . وقادنى شاويش العنبر إلى الدور الثانى وفتح لى زنزانة جدرانها مكسوة بالفلين والكاوتش وقال لى وهو يحاول أن يستظرف معى «زنزانة لوكس علشان خاطرك . . » وعرفت بعد ذلك أن إدارة السجن وضعتنى فى الزنازين المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام تنفيذاً للأوامر «يعزل المعتقل عن الاختلاط بالمساجين» .

الإعدام مرة واحدة!!!

وبدأت رحلة الاستكشاف داخل السجن الغريب .

عشرون يوماً قضيتها داخل سجن أسيوط خرجت فيها مرتين إلى المستشفى ، مرة للكشف وإجراء الأشعة ومرة لاستلام النتيجة ، ورفضت إجراء العملية فى الكلى بعد أن اكتشفوا بعض الرواسب القليلة وأنها يمكن أن تذوب أو تخرج مع البول مع استخدام بعض الأدوية دون الحاجة إلى عملية ، الأمر الثانى أننى عرفت أنهم يضعون المريض فى غرفة مغلقة فى المستشفى بل ويضعون القيد فى رجله .

لكل هذا فضلت العلاج فى السجن على إجراء العملية فى المستشفى ، رغم إغراء ممرضة حسناء حاولت إقناعى بأنها ستسهر على راحتى وتمسكت بقول يوسف ﴿رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه . . ﴾ وفى سجن أسيوط تعرفت بنماذج ونوعيات جديدة . . بل وأقول واكتسبت بعض الصداقات التى مازلت أعتز بها . . فبالرغم من الأوامر الخاصة بعدم اختلاطى بالمساجين وبالرغم من عنبر الإعدام الذى وضعت فيه إلا أن ذلك لم يقيد حركتى داخل السجن وخاصة أن السجاير كانت متوافرة لدى بعد أن أرسل لى والدى حوالة بريدية بعشرة جنيهات على سجن أسيوط بناء على توصية من زميلى ضابط الترحيلة .

وبعد عدة أيام كنت أعيش «ملكاً» فى سجن أسيوط .

الزنزانة مفتوحة طوال النهار ولدى حرية الانتقال من عنبر لآخر وتجيئنى الجرائد بانتظام كما كان لى الحق فى استعارة الكتب من مكتبة السجن. . أمارس كل ذلك بعلبة سجاير وينجز يلهفها شاويش العنبر كل صباح للتغاضى عن التعليمات الخاصة بعزلى.

ولقد اكتشفت أن سجن أسيوط لا يحوى مجرمين بالمعنى المعروف بالرغم من أن هناك من يمضى فترة عقوبة مؤبدة. . فغالبية المساجين هنا إما للقتل من أجل الثأر وللشرف أو النزاع حول الرى. . قليلون هم الذين دخلوا السجن لسرقة أو اختلاس. . وبمعنى آخر لقد وجدت داخل سجن أسيوط أبناء مصر الطيبين ومعظمهم من الفلاحين والمزارعين مازالوا يحملون كل بصمات المصرى الطيب الذى يناضل مع الأرض بحثاً عن الزرع والقوت ويناضل دفاعاً عن هذه الأرض ضد أى مستغل يحاول أن يمنع عنه المياه أو يسلبه أرضه، ومازلت أذكر "أمير" فلاح موشى الأصيل الذى قضى أكثر من عشرة أعوام فى السجن الخمسة الأولى فى ليمان طرة ثم جاء إلى سجن أسيوط ليقضى بقية العقوبة «٢٥ سنة»، إن كل جريمته أن أحد البهوات من أبناء الأسر الإقطاعية قد حاول أن يسلبه الفدانين اللذين يملكهما وإجباره ليبيعهما، فما كان من "أمير" إلا أن حمل بندقيته ووقف على رأس الغيط يقسم أن يطلق الرصاص على كل من يحاول أن يعتدى على أرضه، وقد أطلق الرصاص فعلاً على اثنين. . سعادة البيه ومهندس الرى اللذين لم يحفلا بتهديدات "الواد الفلاح" ومات أحدهما على الفور وأخرجوا أربع رصاصات من صدر الآخر.

– وأين الأرض الآن يا أمير.

– بيزرعها ابنى.

وهناك «عبدالدايم». . دخل السجن وعمره ١٩ سنة. . كان يدرس فى الثانوية ولكن أمه وضعت فى يده البندقية ذات ليلة وقالت له: «لقد كبرت وأنت تعرف أن أباك مات مقتولا وأن الذى قتله. . .» وحددت له اثنين ولم تترك له فرصة للتفكير بل أخذته من يده فى نفس الليلة ليقتص لأبيه. .

وهناك «عبدالكريم» الفلاح الفقير الذى يعمل بالأجر عند أصحاب الأطيان اكتشف يوماً أن ابنته التى تعمل عند واحد من «الكبار» تنتحب طوال الليل وحينما سألها اعترفت له بأن «الكبير» اعتدى عليها وأنها حامل، وكان لابد وأن يفعل شيئاً وبحث عن «الكبير» فلما لم يجده أخذ يدق على بطن ابنته ليقتل «ابن الكبير» فى بطنها. . وقتل الاثنين معاً الأم والابن. .

وحكايات كثيرة كلها تدور حول الثأر والشرف أو الدفاع عن الأرض . . يرويها أناس طيبون مازالوا يحتفظون بالأصالة المصرية ولا يمكن إلا أن يكونوا ضحايا للمجتمع وعلاقته وقيمه.

ولقد وجدت نفسي أعيش معهم أغلب ساعات النهار أسمع حكاياتهم وأحاول أن أحكى لهم من جانبى أن المجرم فى هذا كله هو التخلف والفقر الذى يفرضه علينا هؤلاء الذين يصرون ويكبرون ويتسلطون.

وأصبحت جلسة "العصر" فى زنزانة «أمير» موعداً مهماً فى القرية نسمع الحكايات ونشرب الشاى الأسود فى أكواب من البلاستيك ونتحدث فى أحوال القرية. يدخل الليل ويصمت الراديو المزعج المنبعث من ميكروفون داخلى وحين تغلق الزنازين وتهدأ الأصوات فى الساعات الأولى من الليل فلقد كنت أعكف على أحد الكتب التى أعثر عليها فى مكتبة السجن، وكم كانت مفاجأة لى أن تكون مكتبة السجن عامرة بمؤلفات جيدة. .

وفى تلك الليالى قرأت غالبية روايات ديستوفسكى "الأبله" و"النائب العام" ومؤلفات طه حسين «شجرة البؤس» و«المعذبون فى الأرض» ومع أبى علاء المعرى فى سجنه وكتاب «الأب عيروط» «الفلاحون والحضارة الهلينية» للدكتور غلاب، بل وأعدت قراءة كل مسرحيات شكسبير وبرنارد شو.

أما فى الصباح وحينما يذهب الرجال للعمل فى المرافق المختلفة فى السجن، سواء فى المزرعة أو المطبخ كانت جلستى المفضلة مع جارى العزيز فى الزنزانة المجاورة. . وهو واحد من المحكوم عليهم بالإعدام.

ولقد سمعت عنه الكثير قبل أن أراه، فلقد حرص الجاويش أن يحكى لى فى ليلتى الأولى فى سجن أسيوط عن رجل الجبل الذى عاش لمدة عشرة أعوام هو ورجاله فى جبال أسيوط مرهوب الجانب يكفى ذكر اسمه لكى تقشعر له الأبدان.

وحسب روايات الجاويش قتل الرجل العشرات وظل بعيدا عن أيدى السلطات رغم أنه كان يتجول فى وضح النهار فى شوارع أسيوط نفسها، وكم من حملة جردت ضده وعادت فاشلة، ولكنه فى يوم من الأيام ذهب إلى قسم البوليس وسلم نفسه لأنهم قبضوا على زوجته وابنته

ومن الطبيعى أن أسعى وفى صباح اليوم التالى للتعرف على جارى العزيز. . وكانت مفاجأة لى فالذى أراه أمامى ورغم البدلة الحمراء التى يرتديها لا يمكن بأى حال أن يكون مجرماً خطيراً مثلما صوره الجاويش، كان الضيف أو خليفة الخط شابا

وسيماً فى العقد الرابع من عمره أميل إلى الطول تشع من وجهه وملامحه المحددة براءة طفولية وتلمع عيناه المصريتان بالأمل الحزين ويكتسى وجهه بعض الشحوب الذى يمتزج بسمرة خفيفة .

وكان من السهل أن نتعارف ، بل ونصبح صديقين ، وهذا ما أحسست به من اللقاء الثانى حينما بدأ الضيف يحكى حياته ومغامراته . . وسمعت منه نفس القصة التى كنت أسمعها فى القرية عن أدهم الشرقاوى والخط وغيرهما من الخارجين على القانون .

فلاح مصرى تلقى العلم فى المدارس الابتدائية ثم لبى نداء الحقل ليعمل مع أبيه لتوفير لقمة العيش للأسرة الكبيرة .

كان يحلم بأن يصبح مهندساً زراعياً ، ولكن ما باليد حيلة فالفدان الذى كان يملكه والده ويشقى عليه طوال العام لا يمكن أن يحقق الحلم ، واكتفى الصغير بالعمل فى الحقل وبسخط طبقى ينمو داخله وهو يرى عربة "الباشا" تمر على الحقل فى طريقها إلى العزبة ، وبكون نصيبه «تراب كثيف» يغطى وجهه . . وكان المتمرد الصغير يقرأ الكتب والجرائد . . وربما هذا هو الفرق بينه وبين أبيه وأخوته وأهل قريته ، وعرف أنه واحد من ملايين الضحايا الذين يولدون وهناك حكم مسبق وأبدى بالشقاء .

ولكن سخط «الضيف» ظل محصورا فى إطار كلمات عنيفة كان يقولها على القهوة أو بين مجموعة من الأصدقاء يلعن فيها الباشا والمأمور . . إلى أن جاء يوم كانت الأرض عطشى . وكان المفروض أن نوبة الرى ستصيب الحوض فى ذلك اليوم ، ولكنه فوجئ بأن المياه لم تفتح بناء على أمر ناظر العزبة تحت دعوى أن أراضى العزبة مازالت فى حاجة إلى يومين آخرين .

وذهب «الضيف» مع مجموعة من الفلاحين يرجون الناظر بأن يفتح المياه لحوضهم الذى طال عليه الجفاف وبدا الزرع يذبل ويجف .

ولكن الناظر الذى تعود أن يأمر فيطاع أنهى المناقشة بكلمات خشنة .

– روح يا واد أنت وهو لسه قدامكم يومين .

– والزرع يا حضرة الناظر . . هيموت .

– يموت ولا يتهبب واحنا مالنا .

وصاح الضيف :

– مالك إزاى . . دا قوت ناس . . إحنا مش بنى آدمين

– لا مش بنى آدمين . . انت هتداقر يا وله . . امش . .

ومشى الضيف . ولكن ليفتح بفأسه مجرى المياه للحوض . . وحينما لطمه الناظر على صدغه وانهال عليه ومعه بعض الخفراء بالضرب بالشوم، دافع عن نفسه بالفأس . . وقتل الناظر وفر الآخرون .

أما أهل القرية الذى شاهدوا الحادث فلقد أعجبوا بما فعله الضيف فلقد كان كل منهم يتمنى أن يفعل ذلك، ولكنهم انسحبوا إلى منازلهم يوصدون الأبواب خوفا من بطش الباشا والبيه المأمور . . وترحموا على الضيف .

ولجأ الضيف إلى الجبل . . وبدأ حياة الطريد . . وانضم إليه بعد ذلك بعض المتحمسين وأيضا بعض المنتفعين .

وطوال عشر سنوات كانت كلمة الضيف مسموعة لدى الجميع . . كان يفرض على كل أصحاب العزب «أتاوات» ومن يرفض ينهب ماشيته ويحرق قصره وأحيانا يعثرون عليه مخنوقا أو مقتولا أو مشنوقا .

– ألم تندم

– ولماذا أندم كنت دائما مع المظلوم، أما أصحاب العزب فلقد رأينا منهم الويل . . ولقد قتلت بيدى اثنين من جماعتى لأنهما تعرضا لفلاح فقير وأخذا منه جاموسته .

– لماذا لم تترك الأمر للقانون من البداية .

– أى قانون . . إن القانون دائما مع الأغنياء ولكن الله دائما مع الفقراء لقد كنت أطبق عدالة السماء .

وحاولت أن أقنع «الضيف» بأن تمرده لن يفيده فالقضية ليست قضية البعض من أصحاب العزب ولا يمكن أن تحل بالقتل والإرهاب . . ولكن "المتمرد الصغير" لم يكن على استعداد لأن يفهم البعد الواسع لمشكلته ومشكلة أهل قريته .

كنت أقول له : إن الأرض المملحة هى التى تنبت الشوك . . ولابد من إصلاح الأرض .

وكان يقول : لقد عملت على نزع الشوك على قدر ما أستطيع .

كان الحوار يجرى بيننا عبر باب الزنزانة الحديدى والذى صمم بشكل خاص لكى يظل "الضيف" فى كل تحركاته مكشوفا لحارسه .

وفى الليلة السابقة على ترحيلى من سجن أسيوط . جلست بجوار زنزانته أكثر من ساعتين أودع صديقا عزيزا . . لم يعرف كيف يثور فتمرد بطريقته الخاصة .

كنت قد عرفت أن التصديق على الحكم قد وصل إلى السجن وأنهم بصدد الإعداد لشنقه فى صباح الغد . .

ولكن الضيف الذى لم يكن يعلم ، كان متعلقا بأمل أن المفتى لن يصدق على الحكم وأن مذكراته لرئيس الجمهورية ستقبل ، بل إنه فى ذلك اليوم كان أكثر مرحا وأكثر إشراقا وهو يؤكد لى أنه رأى حلما جميلا وعاش وسط أولاده . . فى الحلم . . وسألنى الضيف وهو يودعنى بحرارة :

- متى سيفرج عنك . . لابد أن نلتقى فى الخارج

قلت :

- لا أعرف . . ليس لسجنى فترة محددة . . قد يكون غدا وقد يكون بعد عشر سنوات . .

- ياه . . أنا ظروفى أحسن . . يمكن أطلع قبلك . . ولقد خرج هو قبلى فعلا ففى السادسة صباحا كانوا يقتادونه إلى غرفة الإعدام فى السجن ، وبعدها ببضعة دقائق كانوا يقتادوننى خارج سجن أسيوط فى الطريق إلى الواحات .

[١٦]

أيهـا الإنسـان البـائس، تسـتـطيع أن ترفع الجـبـال وتصنع المـعـجـزات.. ولكـنك تمـرغ نفـسك فى الوحل والخـمول. الله فى داخلك تحـمله دون أن تدرك .

أما نحن الذين نعـرفه فسنشمر عن سـواعدنا ونرفع أصواتنا عسى أن ننجح.

الاب باناپوس- الإخوة الاعداء

يناير سنة ١٩٦١

ربما للمرة الأولى منذ سنتين تبدأ الساعات الأولى للعام الجديد بضحكات الآمال الصافية . .

فى العام الماضى احتفلنا بمثل هذا اليوم بغزوة ساخنة قادها المأمور واشترك فيها العساكر بشومهم وكرابيجهم وشتائمهم .

وفى العام الذى سبقه كان زائر الفجر ورجاله يجمعوننا فى عرباتهم السوداء وينزعوننا من وسط الأحضان الدافئة للأم والأخت والزوجة والحبيبة .

وبالرغم من أن الكثيرين وعيونهم تغرورق بالدموع الضاحكة كانوا يضعون أيديهم على قلوبهم مخافة أن تتكرر العادة ويتمتمون : «اللهم اجعله خيرا» . . إلا أن الليلة مرت بسلام فعلا . .

ليس هذا فقط بل وشهدت احتفالات عديدة ومتنوعة استطاعت أن تكسر هذه العزلة والصحراء وتنتقل بالكثيرين منا إلى عالم الحياة المتجدد الصاخب .

ومنذ أن عدت من سجن أسيوط كان الجو قد تغير تماما فى الواحات . . ليس فقط

لأن التعذيب قد أوقف كما أوقف العمل الإجبارى . . ولا لأننا تجمعنا كلنا أخيرا فى مكان واحد بعد إغلاق أوردى أبى زعبل المشئوم . . وليس فقط لبعض الظروف النسبية الأفضل التى بدأنا نعيش فيها سواء بالنسبة للمعاملة أو فتح الزنازين ليلا . . ولكن ثمة رياح تغيير كانت تجتاح الصدور نفسها وتعطينا المزيد من الثقة بالنفس والمزيد من الإحساس بانفراج الأزمة وقرب انتهائها بيننا وبين السلطة . . وبالتالى الإحساس بأننا على أعتاب الخروج إلى الحياة الواسعة مرة أخرى .

كانت الصحف وأيضا الإذاعات المتعددة التى نستمع إليها من خلال الترانزستور تؤكد انتهاء أو على الأقل التخفيف بدرجة كبيرة من حدة العداء والهجمات المتبادلة بين القوى الوطنية العربية . وخاصة بعد أن بدأت الرجعية العربية تتحرك ومعها الاستعمار والصهيونية فى محاولة لجنى ثمار المعركة التى استغلوها بين القوى الوطنية العربية . . وكان الموقف الذى أخذته القيادة المصرية فى مواجهة المؤامرة الاستعمارية إزاء مقاطعة الباخرة المصرية كليوباترا موقفا وطنيا حازما ، كذلك فإن بعض الإجراءات الداخلية التى اتخذت مثل تأميم بنك مصر وتنظيم ملكية الصحف والحديث عن التغييرات والحد من سيطرة رأس المال على الحكم . . كانت كلها بوادر مشجعة توحى بأن الرئيس عبدالناصر قد بدأ يستوعب الدرس أو على الأقل قد بدأ يدرك لمن يوجه مدافعه الرئيسية .

كانت الانفراجة فى الداخل والأخبار الواردة من الخارج تصبغ الجو كله بلون متفائل ، وراهن البعض على أننا سنخرج فى فترة لا تتعدى شهرا واحدا فى حين أن البعض الآخر الأكثر تشاؤما تصوروا أن المسألة تحتاج إلى عدة شهور أخرى . . وحينما استدعى حوالى ٧٥ زميلا إلى الإدارة وأبلغوا بأن عليهم أن يرتبوا أنفسهم للرحيل فى الغد إلى الفيوم تمهيدا للإفراج عنهم لم يعد هناك شك فى أن الطريق إلى تصفية المعتقل قد فتح . .

وحتى هؤلاء الذين لم يروا فى هذا الإجراء سوى محاولة لخلق جو نفسى مصطنع اضطروا لأن يسلموا بأن هناك شيئا جديدا وإن كانوا قد تحفظوا بأن علينا أن ننتظر لنرى .

وقد انتظرنا شهرين . .

كانت المجموعة التى اختيرت محيرة وغريبة ، حقيقة كان بينهم البعض من هؤلاء الذين لم يتحملوا قسوة الظروف الماضية لسبب أو لآخر فأرسلوا عدة بيانات وتقارير «يستعطفون فيها السلطات ، ويعلنون استعدادهم للكف عن أى عمل سياسى» .

ولكن كان بينهم أيضا عدد من الشخصيات القوية والمتوازنة والتى واجهت ظروف التعذيب بشجاعة وببسالة ولم تخفض رأسها من أمثال الدكتور فوزى منصور والدكتور فايق فريد ونبيل زكى وأمير إسكندر وجودة سعيد الديب.

وعدد آخر من المثقفين والعمال الذين كانت لهم مواقفهم البطولية وعرفوا باعتزازهم بأنفسهم وبأفكارهم ولذلك كان من الصعب على الإنسان أن يتصور أنها دفعة للضعفاء والمنهارين كما كان من الصعب أيضا أن اقتنع بأن الأمر بعيد عن لعبة ما؟

وبالرغم من أننى فقدت فى هذه الترحيلة عددا لا بأس به من الأصدقاء بل واثنين من أكثر المقربين إلى قلبى إلا أننى كنت موقنا أنه فى اللحظة التى سيفرج فيها عنهم فسيكون ذلك إنهاء للمعتقل كله . .

وعشنا فى الواحات شهرين اعتبرهما من أقسى الشهور التى مرت بنا جميعا.

الكل يسأل عن أخبار الفيوم . . وماذا حدث للرفاق هناك؟ . . هل أفرج عنهم حقا . . أم إنهم مازالوا رهينة المباحث العامة هناك تمارس معهم أساليب مختلفة للضغط عليهم . . وتتسرب إلينا بعض المعلومات . . بعضها حقيقى وبعضها كان مدسوسا.

وفى يوم من الأيام أكد المسئولون فى سجن الواحات أن جميع الزملاء الذين رحلوا إلى الفيوم قد أفرج عنهم . . وعمت الفرحة جميع المعتقلين . . وبعد ذلك بأسبوع تأتى رسالة من الخارج لتنفى أن أحدا قد أفرج عنه ولتؤكد أن المجموعة التى وصلت الفيوم مازالت فى المعتقل . . وتسرى بعض الشائعات بأنهم يتعرضون هناك لنوع من التعذيب شبيه بذلك الذى تعرضنا له فى الواحات وأبى زعبل منذ فترة.

وشائعة أخرى بأنهم قد نقلوا إلى معتقل القلعة وأنهم يكتبون إقرارات بعدم الاشتغال بالسياسة وباستنكار أفكارهم ومعتقداتهم.

ثم تأتى رسالة أخرى من الخارج لتؤكد أن زميلا آخر قد استشهد فى الفيوم هو عبدالقادر مفتاح المدرس ببنى سويف وهم يرغمونه على فك إضرابه عن الطعام.

موجات غريبة ومتناقضة ومتلاحقة أيضا من الأخبار والشائعات تعصف بنا وبأفكارنا يمينا ويسارا . . فنعيش يوما يملؤنا التفاؤل ونعيش أياما نمضغ الحزن والحيرة.

ولأول مرة تتوه منا الحقيقة ونعيش فى جو ينعدم فيه التوازن بل ولا أكون مبالغا إذا

قلت إن التعذيب النفسى والمعنوى لتلك الفترة كان أشد خطرا وأكثر قسوة منه فى مرحلة سابقة حين كان التعذيب ماديا وملموسا تستطيع أن تواجهه وتحدد معه علاقة واضحة كانت دائما هى الرفض والإصرار.

ولكن حمامات «الساونا» الفكرية التى وجدنا أنفسنا غرقى فيها ننتقل من ماء ساخن يقارب الغليان إلى ماء بارد يقارب درجة التجمد كادت أن تعصف بتماسكنا.

إفراج أو مساومة أو تعذيب . . أم ماذا؟

وانعكس ذلك الموقف بوضوح فى طرقات العنبر ليلا.

فحتى الواحدة بعد منتصف الليل، قليلون الذين كانوا ينامون، أما الغالبية فهى إما راقدة فوق الأبراش تسرح مع أحلام متجددة عن قرب الإفراج، أو مجموعات تجلس فى بعض أركان الطرقة تتسامر وتحكى . . أيضا حول الإفراج . . أما عم نمر حسنين وهو عامل فى أحد المطاحن فى الإسكندرية يبلغ حوالى الخمسين من عمره فقد كان لا يكف طوال الليل عن زرع الطرقة فى خطوات وئيدة واضعا يده خلف ظهره وفجأة يسألنى حين يلمحنى امام الغرفة:

- الساعة كام . .

- اثنين بعد نص الليل

- بالضبط

- اثنين وربع

أكثر من أربع ليالٍ متكررة يسألنى عم نمر هذا السؤال وأجيبه بنفس الإجابة إلى أن انفجرت فيه ليلة.

- جرى إيه يا عم نمر . . يعنى إيه بالضبط، القطر مستنى وخايف يفوتك.

أكثر من عامين ونحن نعيش فى زنازين وغرف مغلقة تضيع فيها معنى الأيام، بل والشهور والسنوات فما بالك عن الساعة . . بالضبط . .

وأحس الرجل العجوز بما يجول فى خاطرى فاقترب منى مبتسما:

- معلهش يا بنى . . دى يمكن أول حبسة ليك لكنها الثالثة بالنسبة لى، ولعلك لا تعرف تلك الأيام التى تسبق الإفراج . . إنها تساوى فترة الحبس كلها.

- من قال إنه سيفرج عنا.

- أعرف أنك من حزب المتشائمين . . ولكن الأخبار تؤكد الإفراج . .

هكذا سيطرت الفكرة على عقلية ونفسية الجميع . . أما المتشائمون أو المستمعون بالمعتقل على حسب تعبير بعضهم وقد كنت واحدا منهم فقد كنا نبنى تحفظاتنا على بعض الظواهر السياسية ، وربما كنا نتحصن بذلك التشاؤم خوفا من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تسببها «روح الإفراج» إذا ما أسفر الموقف عن وجه آخر .

حتى «عاشور» زميل الجامعة ونزيل عنبر الإخوان كان هو الآخر ممن يؤكدون أننا سيفرج عنا وشيكا مؤكدا وجهة نظر الإخوان فى أن عبدالناصر «شيوعى» وإذا كان قد اختلف معنا فذلك ذرا للرماد فى العين ولفترة قصيرة؟!!

ودخلت فى رهان مع عاشور . .

وفى يوم من أيام يناير الباردة عاد الزملاء من الفيوم . . عادوا ولكن ليس كلهم فلقد خلفوا وراءهم فى الفيوم حوالى ٣٣ ممن استسلموا تماما لكل ما طلب منهم مقابل الإفراج .

وحين تجمعنا حول الزملاء العائدين نسمع قصصهم وما تعرضوا له فى الفيوم تأكدت مثلما تأكد الكثيرون أننا بإزاء حملة تعذيب أخرى ومن نوع آخر .

تعذيب لا يستخدم العصا والبندقية والكرباج والعمل الإجبارى ، ولكنه تعذيب معنوى ونفسى يحاول أن يحطم الشخص من الداخل . .

حينما ذهب الزملاء إلى الفيوم وجدوا جوا آخر وظروفا تختلف تماما عن تلك الظروف التى عشنا فيها فى نفس المعتقل منذ عام ونصف . . سرائر نظيفة معدة . . أبواب مفتوحة طوال النهار ، التغذية جيدة كل وسائل الراحة متوافرة الراديو والجرائد والتعامل مع الكانتين بالإضافة إلى زيارة الأهل . .

وبعد أسبوع بدأ «الشغل» . . وانتقل المصيلحى ومعه أركان حربه إلى المعتقل . . وأخذوا يستدعون كل واحد على انفراد . . لماذا تبقى فى المعتقل . . لماذا لا تخرج . . يمكنك أن تخرج إلى أهلك فورا . . فقط مطلوب منك ورقة صغيرة اعترف بأنك كنت مخطئا فى أفكارك وتعهد بأنك لن تعمل بالسياسة بعد ذلك . . ليس هناك أكثر من ذلك . .

والراديو يذيع كل يوم ، بل أسطوانات خاصة تبث أغانى الشوق والضعف . . زيارات مفاجئة من الابن أو الأب أو الزوجة أو المخطوبة . . والحياة مخضرة فى كل مكان . . بعد سنوات الصحراء والعذاب والتعذيب . . والباب مفتوح . . مجرد اعتراف وتعهد .

المسألة تستحق . . الحرية مقابل ورقة . . هكذا رأى البعض . . ولكن آخرين رأوا المسألة كلها لا تستحق . . بل رأوا فيما يعرض عليهم إذلالا وامتهانا لإنسانيتهم . . فالحرية التى يدعونهم إليها بورقة الاعتراف والتعهد لا يمكن أن تكون حرية ولكنها تحطيم للإنسان وإهدار لآدميته . . لأبسط ما يميزه . .

كإنسان . . فكره . . عقله .

قال أمير إسكندر للمصيلحى :

- أنا مصرى . . وكاتب سياسى . . رغما عنك وعما تعرضه . .

قال الدكتور فوزى منصور :

- كيف تطلب منى هذا الطلب الغريب . . ومن تكون أنت حتى تطلب من أستاذ الاقتصاد السياسى فى الجامعة المصرية أن يكتب هذا الهراء .

وقال نبيل زكى :

- الموت فى الواحات أفضل ألف مرة من الحرية الملوثة التى تعرضها .

وقال رمضان شامبوليه «وهو ميكانيكى سيارات من الفيوم» :

- ياعم يا حرية بحق وحقيق يا بلاش . . يفتح الله . . حوالى أربعين زميلا من مجموع الدفعة (٧٥) . . سخروا من أساتذة غسيل المخ .

عزلوهم فى عنبر خاص وسحبوا منهم كل الامتيازات التى أغدقت على الآخرين واستخدموا معهم أساليب الترهيب والترغيب . جاءوا للبعض بزوجته تبتهل إليه بأن يسمع الكلام ليخرج لها ولأولاده .

وجاءوا للبعض بخطابات من زوجة أو مخطوبة تهدد بطلب الطلاق أو بفسخ الخطبة .

وجاءوا بأولاد صغار ليبكوا أمام أبيهم ويشكوا مر العيش واحتياجهم إليه .

ولكن المدافعين عن الحرية الحقيقية . . حرية الإنسان فى أن يفكرويبدع ويقول رأيه . . صمدوا فى مواجهة كل الهجمات الخبيثة التى قام بها سماسرة «حرية الخوف والانهيار الإنسانى» .

وبقدر ما كانت عودة الزملاء صدمة لكثيرين ممن تصورات أن باب المعتقل قد فتح وأنها أيام لكى يكونوا وسط الأهل والأحباب وهيئوا أنفسهم لذلك بقدر ما كانت

قصص البطولة والصمود التى يحكيها الزملاء العائدون توحى بالفخر والعزة وتعيد إصلاح الكثير مما أفسدته روح الإفراج الكاذبة داخل النفوس .

وانفعل معين بسيسو الشاعر الفلسطينى وألقى قصيدة اعتبرها من أهم قصائده وأكثرها صدقا . .

اكتب .

واركع للورقة .

واغرس قلمك فى عينى طفلك

واكتب ما شاء لك السجان بأن تكتب

ومضى معين بكلماته الشعرية كالسياط الحقيقية يلهب ظهر هؤلاء الذين يكتبون ما شاء لهم السجان بأن يكتبوا .

أما محسن الخياط فانفعل هو الآخر بغنوة حلوة . .

أنا عارف طريقى فين

واروح له منين . .

أنا شايفه قصاد العين

بدايته شروق وآخره شروق

مفيش فى الدنيا دى مخلوق

يوقفنى فى طريقى يوم وأنا سارى

حاخلى الريح جناح ليه

وأنا زاحف بإعصارى . . ومهما الحر هاج بيه

هايسجد يوم لتيارى

ومهما هدوس الشوك برجليه . . ويجرحنى

واخلى الجرح يسقينى

ألم يفضل مصحينى

يفكرنى

بطول حرمانى وشجونى

وحرمان اللى عاش فى جوع

وآه ودموع . .

وزملاء آخرون انفعلوا باللحظة وألقوا بقصائد وكلمات . وتحولت عودة الزملاء إلى مهرجان امتلأ بالحماس والانفعال والثقة .

وتركت العنبر يمتلىء بالتصفيق وبالشعر والثقة ، وخرجت وحدى أمشى بجوار السور ، ودموع غريبة تتجمع بهدوء فى عينى . ربما انفعالا بالشعر وبالموقف ، وربما تنفيسا عن أحلام خفية كنت أسمح لها بأن تعبث بداخلى أنا أحيانا .

وناداني "عاشور" قرب المطبخ

- مالك . . دانت سرحان قوى . . على أى حال كسبت الرهان يا عم . .

طلع عندك بعد نظر .

وابتسمت . ابتسامة تساوى الدموع التى كانت تتجمع فى عينى . .

حقيقة كسبت الرهان ، ولكن كنت أود من أعماقى ان أخسر هذا الرهان . . بالذات .

[١٧]

إذا كنت تريد أن تكون شـهـيدا، فـمـا عليك إلا أن تنظر داخل نفسك.. ثم قل ما تراه بصدق وتذكر.
إن المسيح لم يقتل نفسه ولكنهم قتلوه.

بيتر بوك- مسرحية. يو. إس

يوليو سنة ١٩٦١

حينما يكون الجسد هو الذى يتهدده الخطر ، تنحصر المعاناة فى القدرة على تحمل بعض الآثار والآلام الجسدية . .

ولكن إذا كان المستهدف روحك وعقلك كإنسان هنا يكون الخطر فادحا وتكون المعاناة قاسية ومريرة .

ولقد مررنا بفترة المعاناة والآلام الجسدية وسقط ضحايا نتيجة الضرب والتعذيب ، ولكنهم سقطوا كآدميين وكمفكرين وكمناضلين ، ولكن التعذيب الذى بدأ مع ترحيلة الفيوم كان تعذيبا أشد خطرا وأقسى للنفس والعقل . . تعذيب يطلق عليك وحشا داخليا يعربد ويجول مع كل اندفاعة فى جسدك .

فمنذ عودة الزملاء من رحلة «التعذيب النفسى» ومنذ سقوط عدد آخر من الزملاء فى نفس الرحلة تفتحت شهية الأجهزة للاستمرار فى هذا الأسلوب وتعميقه .

اكتب . . واخرج . مفتاح سجنك فى يدك . ما عليك إلا أن تكتب «عريضة» إلى المسئولين تلعن فيها نفسك وأفكارك السابقة ولا بأس من أن تلعن زملاءك . . وعلى الفور ترحل إلى الفيوم حيث ستبقى فترة تتراوح بين أسبوعين إلى شهر . . لتكتب مرة أخرى تلعن فيها نفسك وأفكارك السابقة بتفاصيل أكثر ، ثم تنتقل بعد ذلك إلى القلعة أو السجن الحربى حيث تتلقى بعض المحاضرات من أساتذة دربوا جيدا على عملية غسيل المخ .

فإذا ما كنت مطيعا ومستوعبا لكل ما يطلب منك فتح لك الباب على مصراعيه لتخرج.

هذه اللعبة التى درست جيدا من أجهزة متخصصة تلقت التدريب عليها فى الولايات المتحدة الأمريكية بدأت تمارس معنا بعنف.. وداخل المعتقل.

وجاء عدد من الضباط المتخصصين ليقيموا معنا ليل نهار فى بعثة يمارسون فيها عملية «تحويل المتمرد والثائر إلى خرقة بالية فاقدة الثقة فى النفس وفى كل شيء».

خطابات موجهة تصل من الأهل.. كلها تطلب من الابن أو الأب الخروج «وسماع الكلام».

زوجات يطلبن الطلاق.. وأخريات يكتبن يشرحن لأزواجهن كيف ضاقت فى وجوههن الحياة حتى أصبحن على أبواب الانحراف هكذا.

وطفلة ترسل لوالدها «اخرج من أجلى ومن أجل ماما.. قالوا لى إنك لا تريد أن تخرج لأنك تكرهنا.. أنا أكرهك».

ووالد مسن يكتب لابنه:

«لماذا لا تريد أن تخرج.. إننى على مشارف الموت وكم كنت أود أن أراك قبل أن أموت.. اخرج من أجلى كفاك عنادا».

ومازلت أذكر هنداوى الصادق العامل بشبرا الخيمة، وكم كان مناضلا صلبا ومصريا تعتز به الطبقة العاملة المصرية.. تعرض مرات عديدة للضرب وللجلد أيام التعذيب البدنى ولكن الأمل والإصرار لم ينطفئا فى عينيه، بل كان يخرج من كل «علقة» وهو يقول ساخرا:

زعلانين ليه.. ولا يهمكوا.. دانا زى القطط بسبع أرواح.. أقبل فجأة بدأ ينطوى على نفسه ويخرج كثيرا ليجلس وحيدا بجوار السور ويظل هناك لساعات طويلة.. لقد أصاب السهم كعب أخيل والتقيت به يوما فى عزلته:

- مالك يا هنداوى..

- ولا حاجة..

- إحنا صحاب.. فيه حاجات كثيرة.. قولى

وبكى هنداوى.. بكى كطفل صغير وهو يرمى لى بخطاب وصله من زوجته.. كان الخطاب كما هو واضح كتبه خبير التعذيب النفسى.

«ابنتك هدى أصيبت بالتهاب رئوى . . أذهب بها كل يوم إلى «القصر العينى» ، بعت كل شيء ولم يعد عندى إلا أن أبيع نفسى . . ولابد أن أنقذ هدى . . أما أنت فالله يسامحك؟» .

ويومها احتضنت هنداوى وأخذت أخفف عنه وأؤكد له أن زوجته تبالغ فى الكلام بناء على توجيهات الأجهزة وأن ابنته بخير وأن زوجته لن تعدم وسيلة شريفة لكسب العيش . . أما هم فلن يسامحهم الله .

ولكن مثال هنداوى أخذ يتكرر وبصور أخرى . . أحدهم صرخ فى وجهى وأنا أخفف عنه

- يدك فى الماء البارد . . فأنت لست أبا ولا تعرف .

وآخر قال ساخرا :

- لماذا نعاند وأهلنا فى الخارج يعانون . . من أجل الفقراء والمظلومين . . طظ . . لا أحد يحس بنا . . أولادى يجوعون تلك هى القضية الآن . . لابد أن أخرج .

- قلت له فى هدوء

- تستطيع أن تخرج . .

قال لى فى انفعال :

- كيف . . كيف . . أنا أكتب ما يريدونه .

- ألست تريد أن تخرج .

- ولكن أريد أن أخرج مواطنا شريفا . . وليس خرقة بالية .

هكذا كانت معركة قاسية ضارية تدور فى أعماق كل واحد منا ، وإن تفاوتت مظاهرها وفقا لحجم المشكلة الخاصة التى يواجهها كل واحد ووفقا لمدى نضج ووعى الإنسان بمثل هذه الأساليب .

وبإحساس ذاتى بالدفاع عن النفس ، وبإدراك لأبعاد معركة «التصفية السلمية» التى بدأت تشن على المعتقلين بعنف ، تفجرت الطاقات والإبداعات الفنية والفكرية .

فأنشئت جامعة شعبية تدرس جميع ألوان العلوم والفنون وكانت هيئة التدريس تتكون من مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية مثل الدكتور فؤاد مرسى أستاذ القانون بحقورق الإسكندرية والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله أستاذ الاقتصاد بحقوق القاهرة والدكتور فايق فريد الأستاذ بهندسة القاهرة والدكتور عبدالعظيم أنيس

الأستاذ بكلية العلوم والدكتور عبالمنعم عيد المدرس بكلية الطب قصر العيني والدكتور حسين كمال الدين الأستاذ بعلوم الإسكندرية والدكتور فوزى منصور الأستاذ بكلية التجارة وتمكن عدد آخر من تصميم بناء مسرح رومانى فى حوش السجن واستمر فى العمل أساتذة الجامعات والمختصون فى الفلسفة والفن وألحق بهذه الجامعة عدد كبير من الزملاء، وخاصة العمال والفلاحين كما أقيمت المعارض الفنية للنحت والرسم واشترك فيها فنانون مثل حسن فؤاد وداود عزيز ووليم الملك وصبحى الشارونى وسعد عارف.

وعقدت المسابقات والندوات حول القصة والشعر اشترك فيها معين بسيسو ومحمد صدقى ومحمود أمين العالم ومحسن الخياط ورءوف نظمى وشوقى عبدالحكيم وأمير إسكندر. وإبراهيم عبدالحليم وزكى مراد وصلاح حافظ وفتحى خليل وصنع الله إبراهيم وكمال القلش..

كما بدأ نشاط مسرحى واسع وقام المهندس فوزى حبشى بتصميم بناء مسرح رومانى فى حوش السجن واستمر العمل فيه لأكثر من شهرين وجاء فى حد ذاته تحفة فنية رائعة وافتتح بمسرحية جديدة لألفريد فرج هى «حلاق بغداد» ثم «الخير» لصلاح حافظ ثم توالت عليه العروض المسرحية التى كانت كلها تأليفا وتمثيلا وإخراجا من المعتقلين فقدم لشوقى عبدالحكيم مسرحية "العتمة"، وقدمت مسرحيتا "الكوبرى" و"الغائب" ومسرحيات أخرى للويس بقطر ومحمود أمين العالم.. كما قدم على المسرح عدد آخر من المسرحيات التى كانت تعد فى الخارج مثل «عيلة الدوغرى» لنعمان عاشور و«السبنسة» لسعد الدين وهبة وبعض مسرحيات شكسبير وبرنارد شو ونجيب الريحانى.

كما زاد الاهتمام بإثراء المكتبة.. وقام كثير من الزملاء باستجلاب كتب من مكتباتهم الخاصة حتى وصل مجموع الكتب عندنا إلى حوالى ١٠ آلاف كتاب كلها من النوع الجيد وتضم أحسن وأحدث المؤلفات فى الثقافة والفلسفة والقصة والمسرح والتربية وعلم النفس والاقتصاد.

وهكذا ماج المعتقل بحركة ثقافية وفكرية واسعة فى مقابل حملات التصفية التى كانت تواجه ضدنا.

كان سلاحنا فى مواجهة عمليات «للتخريب النفسى» هو مزيد من الثقافة والفكر ومزيد من الوعى والإدراك بواقع بلدنا والعالم الذى نعيش فيه.

الفكر . . سلاح الإنسان الجديد إنسان المستقبل فى مواجهة كل أساليب التعسف والاضطهاد وامتهان الإنسان سواء كان امتهانا جسديا أم تعسفيا .

وكان سباقا شاقا ومجهدا .

وعلى الطرف الآخر أساتذة لا يقيمون وزنا للإنسان كل ما درسوه وعرفوه هو التقاط نقاط الضعف وتضخيمها بكل الوسائل والإمكانات المتاحة يمارسون خبراتهم فى مجموعة من المعتقلين المعزولين عن الحياة فى صحراء قاحلة .

وآخرون يؤمنون بالإنسان ، بطاقته بقدراته بغد مشرق تذوب فيه الفوارق الطبقية فتحاصر فيه نقاط الضعف تطور فيه كل ملكات الإنسان من أجل أن يعطى ويبتكر ويبدع لخيره ولخير شعبه . .

ولا سلاح فى يدهم إلا ذلك الإيمان بالغد وفى أتون هذه المعركة ، الهادئة من السطح المستعرة فى الأعماق يسقط بعض الضحايا .

فقد ثلاثة من الزملاء عقولهم فى المعركة بعد أن اختلطت عليهم الأمور وتجاذبتهم الرغبة فى الخروج إلى الأهل والرغبة أيضا فى الاحتفاظ بآدميتهم فتاهت عقولهم . .

وزملاء آخرون ، وثقوا مثلما وثق الأب ياناريوس فى رواية الإخوة الأعداء للكاتب اليونانى كازانتزاكس يعرفون أين الحق والخير والعدالة ولكن ضعفهم يجعلهم يقفون على قمة الجبل الفاصل بين رجال الكابتن الأحمر وجيوش الكومندان الأبيض . . لا يجدون مخرجا من كل هذا إلا بمزيد من اللجوء إلى الله تماما مثلما كان يلجأ الأب ياناريوس إلى المسيح والعذراء ليبكى الليالى الطوال فى المذبح وتحت الأيقونة المقدسة «يجب أن أحصل على جواب . . أريد جوابا واسم الله . . آه لو كان يستطيع أن يسير فى هذا العالم دون أن يسقط فى اليأس والخوف واللعنة . . ولكن يا إلهى ما أقسى ما يحتمل الإنسان من الصراع والألم قبل أن يبلغ ذلك . . »

وكان رزق مكارى وهو واحد من الزملاء الذين تاهت عقولهم وهم فى خضم معركة الذات القاسية ، يعذب كلا منا ونحن نراه يمضى فى فناء السجن أو فى طرقات العنبر يردد منولوجا طويلا وبصوت عال أحيانا وبتخفيض أحيانا أخرى وكأنه هملت حينما لم يكن قادرا على الحسم بعد .

– أخرج أو لا أخرج . . عملت إيه ولا حاجة ، كل الخير لكل الناس . . كفاية قتل كفاية ضرب . . مراتى أولادى . . أنا جاى . . لأ لأ . . استنوا اصبروا . . ها . . ها . . يحيا الوفد . يحيا كل حاجة ويسقط السمك فى الماء . . ها . . ها . . ولقد طلبنا بأن

يذهب رزق والزميلان إلى المستشفى أو يفرج عنهم ولكنهم رفضوا، وكان مغزى الرفض واضحا هو أن يظل رزق والزميلان الآخران بيننا كنوع من الأشباح المعذبة تلعب دور الساحرات والمتنبئات فى المسرحيات الإغريقية لكى يظل شبح المأساة معلقا أمامنا وكأنه قدر لا مفر منه.

وجاء حسن المصيلحى نفسه ومعه أركان حربه إلى أرض الواحات ولأول مرة ليشن معركة مباشرة، و«ليضع شعارا»: «إما الموت فى الصحراء» و«إما الجنون» وإما كتابة ما يملى عليك، وارتكب قائد التصفية بذلك خطيئة عمره، فلقد كان مجرد وجوده فى الواحات حافزا لإطلاق طاقات هائلةمن القوة والصلابة فى اتجاه معاكس تماما لأغراضه.

لقد حسب المصيلحى وفقا للتقارير التى وصلته عن حالة بعض الزملاء وصمت بغضهم وفقدان البعض للعقل، ان البذرة قد تآكلت من الداخل وأنها نزهة المنتصر الذى سيقلع البذور بضربة فأس واحدة.

وحينما بدأ يستدعى فى الليل، وبعدما تغلق العنابر، مجموعات من الزملاء يساومها على الإفراج بشروطه كان ما سمعه من هؤلاء الزملاء معاكسا تماما لكل أحلامه وتصوراته.

كلهم رفضوا عروضه ومزقوا الورق الذى قدمه لهم ورموه فى وجهه، وألقوا فى وجهه أيضا بكلمات لا يمكن أن ينساها طيلة حياته.

أنت عميل للمخابرات الأمريكية وعدو لمصر وشعب مصر. قالها له عامل بسيط هو هنداوى الصادق الذى اختاره المصيلحى بعد تجربة الخطاب الذى أرسلته زوجته.

بل إن رزق مكاوى استعاد عقله معه، وجرى وراءه وهو يصر أنه كلب مسعور لابد من التخلص منه.. وقيل له.. أنت فاشى صغير.. وسيأتى يوم تحاسب فيه على كل جرائمك البشعة..

ولم يتحمل المصيلحى أكثر من ليلة ثانية غادر بعدها المعتقل وهو الذى كان قد أعلن عقب وصوله أنه سيبقى أسبوعا ليصفى المعتقل بشروطه.

ولابد أن مرارة الفشل هى التى جعلته يقسم أن أحدا لن يخرج من هذه الصحراء إلا فى حالتين.. إما محمولا على أربع أو صاغرا لأوامره ومنفذا لتعليماته.

ومرة أخرى نكسب معركة الثقة بالنفس والقدرة على مواجهة أساليب التعذيب النفسى.

ليس هذا فقط بل لقد كان لزيارة المصيلحى جانب إيجابى آخر ، فلقد أوضحت على الأقل أن هناك رغبة فى تصفية المعتقل وأمسكنا بالخيط ، ودارت مناقشات واسعة بين كل الزملاء .

هل نبقى مدافعين فقط ، تمارس علينا كل الأساليب المختلفة من التعذيبين البدنى والنفسى والضغوط الخارجية والداخلية لنواجهها الواحد تلو الآخر . . أم أن علينا أن نبادر بالهجوم وبكل الإمكانات المتاحة .

وكان لابد من عمل شىء . . شىء أكثر حسما . . وكان القرار . . الإضراب عن الطعام . . حتى الموت أو الإفراج . . وكان قرارا خطيرا .

[١٨]

يأيها الشرفاء لا تهنوا إذا طغت الذئاب، لا ترهبوا
طرق الهداية إن خلت من عابريها، سيروا بنا
نستخلص الإنسان من عار العذاب

الحسين ثائرا- عبدالرحمن الشرقاوى

يوليو ١٩٦١

فى اليوم الأول حماس.

فى اليوم الثانى إحساس جارف بالجوع.

فى اليوم الثالث بعض الآلام فى المفاصل وكأن صواميل الجسم تفك.

فى اليومين الخامس والسادس مرحلة انتقالية غريبة تحس فيها كما لو كان شيء آخر منفصل ينمو داخل شرنقة الجسد.

وابتداء من اليوم السابع انتقال تام إلى مرحلة أخرى، الذهن فيها صاف وهائم والجسد نائم متبلد والأحلام كلها تدور حول موائد فيها ما لذ وطاب، ثمانية عشر يوما منذ بدأ الإضراب عن الطعام الذى دخله أكثر من ٣٥٠ معتقلا بعد ان استبعد الأطباء عددا كبيرا ممن لا يستطيعون تحمل مشقة الإضراب نتيجة مرضهم أو هزالهم.

وقد أصررت مثلما أصر عدد آخر من الزملاء على الدخول فى الدفعة الأولى فى اليوم الأول بالرغم من التحفظات الشديدة التى أبداها الدكتور عبدالمنعم عبيد، فلقد كان الإحساس الجارف أننا وصلنا إلى مرحلة يمكن أن يضحى الإنسان بحياته حفاظا على قيمه وإنسانيته.. كان المطلوب فى البداية ١٥٠ متطوعا وتطوع أربعمائة وتدخل الأطباء يختارون. وفى اليوم الأول أعلن مائتان الإضراب عن الطعام، وفوجئت إدارة السجن وحاولت فى البداية إقناعنا بالعدول، ولكنها فى النهاية بعدما أدركت إصرارنا

بدأت تتخذ الإجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالة، وهى عزل المضربين والكف عن تقديم الطعام أو أى شىء آخر فيما عدا المياه.

وبعد الدفعة الأولى بيومين أعلن مائة آخرون انضمامهم للإضراب.

وفى اليوم الرابع دخل خمسون آخرون.

وأدركت الإدارة أنها بإزاء معركة أكبر من طاقتها واستنجدت بالقاهرة.. فمرور أكثر من خمسة أيام على الإضراب يعنى أن هناك جدية ويعنى أيضا أن حياة المضربين يمكن أن تكون فى خطر..

وانقضى الأسبوع الأول فى مهرجانات من الاحتفالات النضالية والأناشيد.. كانت كل دفعة جديدة تدخل الإضراب تلهب المشاعر وتضرم نار الصدور المتلهفة والتى ترى فى معركة الإضراب أول تحد كبير من ناحيتنا فى مواجهة إهدار القانون والحريات وإهدار إنسانية الإنسان.

كان إحساسى مثل إحساس كل الزملاء الذين يشاركوننى الغرفة أننا فى معركة حقا وأننا نقاتل بسلاح لا يستطيع أن يملكه إلا من هانت عليه الحياة دفاعا عن الحياة.

وكان لبعض الأناشيد تأثير خاص وأنا أسمعها بعد أسبوع من الإضراب وخاصة ذلك النشيد:

شتتونا فى المنافى ... واملئوا منا السجون

سوف تأتيكم ليالى ... ظلها حتف المنون..

أنعيم وبنوكم ... فى المنافى تائهون..

وكنت أضيف على قدر ما استطيع أن أرفع صوتى.. جائعون.. جائعون وفى اليوم العاشر جاء الحاكم العسكرى لمنطقة الوادى الجديد.. والتقى بعدد منا وطلب فك الإضراب مقابل مزيد من المكاسب مثل فتح السجن ليلا ونهارا وزيادة مخصصات الأكل والسماح بالزيارات ورفضنا.. كان مطلبنا الموت أو الإفراج.

وبعد ذلك بيومين جاء مندوب من القاهرة ليعرض بالإضافة إلى المكاسب السابقة أن يحمل مذكرة بآرائنا مشفوعة بطلب الإفراج ورفضنا.. وكان مطلبنا الموت أو الإفراج.

وجاء الكثير من المسئولين.. وكان موقفنا ثابتا، بالرغم من أن حالتنا الصحية بدأت تسوء، ودخل عدد من الزملاء فى حالات إغماء خطرة ومع ذلك رفضنا فك الإضراب.

وفى اليوم الخامس عشر كان من الواضح أننا على وشك أن نقدم ضحايا فلقد ساءت للغاية حالة زميلين هما الدكتور رءوف نظمى والمهندس عبدالله كامل .

وجاء نائب الأحكام العسكرى فى المنطقة ليسجل الحالة وليفتح محضرا بأقوالنا وشهادتنا وملأ أكثر من مائة وعشرين صفحة ستظل واحدة من أهم وأنصع الوثائق فى تاريخ نضال الشعب المصرى من أجل الديمقراطية . . حاول الرجل والحق يقال أن يخلى مسئوليته فسجل شهادتنا بالكامل .

وفى يوم ٢١ يوليو أى فى اليوم السادس عشر للإضراب جاءنا مندوب من الرئاسة ليتحدث إلينا بتفويض من الرئيس جمال عبدالناصر .

وأكد الرجل إدانته باسم الرئيس جمال عبدالناصر لكل ما تعرضنا له من تعذيب وأنه يجرى حاليا محاسبة للذين نفذوا هذه السياسة . .

كما أكد أيضا أن الظروف التى أدت إلى اعتقالنا قد انتهت وأن هناك بحثا جديا على أعلى المستويات للإفراج عنا وأن الرئيس عبدالناصر ومعه عدد آخر من مجلس قيادة الثورة مقتنعون تماما بضرورة الإفراج ، ولكن بعض أعضاء المجلس مازالوا معترضين وأن هذا الاعتراض فى طريقه لأن يزول .

وقال كلاما كثيرا . . بل وقال إنى موفد لأقول لكم إنه لن يفرج عنكم فقط ، بل إننا محتاجون لكم وبشدة فى المرحلة القادمة .

وكان من الطبيعى أن نرفض فك الإضراب ، فحتى الآن لم نسمع سوى كلام . .

وطلب المسئول شيئا واحدا نأخذ بعده قراراتنا وهو أن نستمع لخطاب الرئيس جمال عبدالناصر مساء غد (٢٣ يوليو سنة ١٩٦١) ففيه تأكيد عملى لكل ما قاله لنا بل وعلى حد تعبيره فإن هناك مفاجأة كبرى ستعلن غدا . . وهى الثورة الاشتراكية وليس من المعقول أن تعلن الثروة الاشتراكية فى حين يبقى الاشتراكيون فى السجون والمعتقلات .

واتفقنا للانتظار غدا لسماع خطاب عبدالناصر .

وكانت المفاجأة . .

تأميم واسع للقطاعات الإنتاجية فى الصناعة وتأميم البنوك والشركات والتأمين والتجارة الخارجية . .

إعلان ما سمى بالإصلاح الزراعى الثانى ووضع حد أقصى لملكية الأسرة بمائة فدان . .

الهجوم على الرأسمالية المصرية الكبيرة وتشريحها.

الدفاع عن مصالح العمال والفلاحين واشتراك العمال فى مجالس إدارات المؤسسات والشركات وتوزيع نسب الأرباح عليهم.. تبنى النظرية الاشتراكية فى التطور.

باختصار كان الخطاب يبدو من الوهلة الأولى تحقيقا لغالبية الشعارات والأهداف التى كنا نرفعها فى السنوات الماضية..

وقررنا فك الإضراب على أساس أن هناك انتصارا سياسيا قد تحقق بإعلان تلك الإجراءات الاجتماعية والوطنية المهمة. وعلى أساس أن الإفراج عنا فى ضوء تلك السياسة أمر مفروغ منه.

فليس من المعقول، كما قال مندوب الرئيس أن نبقى فى السجون فى حين أن الأهداف والشعارات التى دخلنا من أجلها السجن، تتحقق وتتبناها الدولة وتعلنها بشكل رسمى.

ولكن فك الإضراب لم يكن سوى بداية لمرحلة جديدة.

مرحلة طويلة ومريرة لا تقل، بل ربما تزيد قسوة عن المرحلتين السابقتين.. فإذا كانت المرحلة الأولى هى ما يمكن أن نسميه بالتعذيب الجسدى وإذا كانت المرحلة الثانية هى التعذيب النفسى والروحى فإنه يمكن القول إنه بالنسبة لنا بدأت مرحلة الصراع السياسى العنيف داخل الأسوار. وفرق بأن تفكر وأنت حر طليق أو أن تفكر داخل الزنازين والأسوار.

فبعد السكرة الأولى فى أعقاب الخطاب وأيضا فى أعقاب إنهاء الإضراب والتى استمرت أكثر من أسبوعين لكى يسترد الكثير من الزملاء صحتهم وقدرتهم على استيعاب وهضم وتحليل ما حدث.، بدأت أعنف وأعمق مناقشات سياسية يمكن أن تجرى.

وتبلور داخل المعتقل ثلاثة اتجاهات رئيسة:

اتجاه يرى فى التأميمات الواسعة التى أعلنت نوعا من رأسمالية الدولة ودعما للنمو الرأسمالى فى صورة جديدة حيث إن الرأسمالية المصرية ضعيفة وغير قادرة على مواجهة متطلبات مرحلة النمو فلقد قامت الدولة بالتدخل للإسراع فى تنظيم ودفع التطور الرأسمالى.

واتجاه آخر يرى فى إجراءات التأميم تحقيقا للاشتراكية وأخذا بالمنهج الاشتراكى

فى التطور وضربا للنمو الرأسمالى وذهب هذا الاتجاه إلى القول بأنه توجد على قمة السلطة «مجموعة اشتراكية» يجب مساندتها بلا حدود وبدون تحفظ .

وبين هذين الاتجاهين برز اتجاه ثالث كان يرى فى الإجراءات ضربا وتصفية للرأسمالية الكبير وقطاعات من المتوسطة وأنه يفتح الطريق أمام نمو غير رأسمالى . ولكن هذه الإجراءات ستبقى عاجزة عن السير فى هذا الطريق دون توفير المناخ والأسس الديمقراطية التى تساعد الحركة الجماهيرية والشعبية على إعطائها العمق والبعد الاجتماعى اللازمين .

وحول هذه الاتجاهات الثلاثة الرئيسة وعشرات التفريعات الأخرى دارت أعنف وأقسى مناقشات سياسية وأغناها فى نفس الوقت . .

ولقد سافرت بعد ذلك كثيرا وحضرت ندوات سياسية وعلمية كثيرة فى الداخل والخارج ، ولكنى مازلت أزعم أنها كانت أغنى وأعمق مناقشة سياسية مررت بها . . فقط كان يشوبها ظلال السجن . . وظلال السجن يمكن أن تضفى على الآراء السياسية . أبعادا قد لا تحس بها فأحيانا قد تكون متحمسا لفكرة ، ولكنك تخفى هذا الحماس الزائد أو على الأقل تخفف منه حتى لا تتهم أو يثور فى نفسك الإحساس بأن هذا جاء نتيجة خوف أو رغبة فى الخروج . .

وأحيانا قد تنبهر بفكرة ويكون هذا الانبهار نابعا ودون ان تدرى من سنوات العزلة القاسية التى فرضت علينا وكانت هناك ثلاثة منابر أساسية يعبر كل منبر منها عن رأى من الآراء الثلاثة ، كان هناك مجلة الطريق التى اتخذت لفترة ما الخط الأول وهو الذى يقول إنها إجراءات رأسمالية متقدمة ولن يكون لها فاعلية حقيقية إلا بتوفر المناخ الديمقراطى .

وكان هناك أيضا مجلة «الهواء» التى ذهبت إلى أننا بصدد إجراءات اشتراكية وكان هناك أيضا «الأفق» وهى التى أخذت موقفا وسطا بين الموقفين .

ولكن كان هناك بعض وأنا منهم يمسك ترمومترا أساسيا للحكم على أى إجراءات وهو انعكاس ذلك على الحركتين الجماهيرية والسياسية وفى المحل الأول تصفية المعتقلات .

ولم نكد نفيق من مناقشة الإجراءات الاقتصادية والتى أعلنت ٢٣ ، ٢٦ يوليو حتى حدثت مفاجأة سياسية أخرى ربما كانت أبعد أثرا وهى الانفصال السورى فى سبتمبر من نفس العام .

وعشنا أياما نلتف فيها حول أجهزة الراديو ونتابع لحظة بلحظة مجريات الأمور ومن جميع الإذاعات. . القاهرة، دمشق، لندن، صوت أمريكا، موسكو وبغداد.

وقامت «واس» أى وكالة أنباء عبدالستار الطويلة بدور كبير فى نشر ملخص لما تقوله الإذاعات المختلفة حول ذلك الحدث مرتين فى اليوم.

كان الموقف خطيرا فى اليوم الأول، وكنا نضع أيدينا على قلوبنا، خاصة بعد أن سمعنا الرئيس عبدالناصر يأمر بتوجيه فرقة من المظليين إلى اللاذقية للقضاء على الانقلاب.

ولم ينم أحد ليلتها. . فلقد كان الإحساس الأول أنها ضربة من تخطيط استعمارى رجعى مستفيدة من الأخطاء القاتلة التى صاحبت عملية الوحدة نفسها. . ولكن أن تصل الأمور إلى حد إرسال قوات فإن ذلك خطر أكبر ليس فقط على سوريا بل وعلى مصر نفسها.

ولكن سرعان ما ساد العقل، وفى اليوم التالى أذاع الرئيس عبدالناصر بيانا أدان فيه الانفصال، ولكنه وفى الوقت نفسه أعلن أن مصر لن تستخدم السلاح فى فرض الوحدة.

كان الانفصال السورى مفاجأة تامة لنا داخل المعتقلات، وإن كنا نحن قبل أى إنسان آخر قد حذرنا منذ ثلاث سنوات من أن قيام الوحدة على أسس ليست ديمقراطية سيعطى الفرصة واسعة لأعداء الوحدة العربية من إمبرياليين ورجعيين بالانقضاض عليها. . ولقد كان ذلك الرأى الذى قلناه، والذى جر علينا متاعب كثيرة هو الذى دفع بالقطاعات الوطنية المختلفة فى ذلك الوقت لاتهام الماركسيين بأنهم أعداء الوحدة وأعداء القومية العربية.

بل إن جوهر المعركة السياسية سنة ١٩٥٩ كان يدور حول هذه النقطة. . وحدة فورية شاملة غير مدروسة وتقوم على أساس إلغاء كافة التنظيمات السياسية الجماهيرية والوطنية.

أم وحدة مدروسة تتم على خطوات وعلى أسس ديمقراطية سليمة واضعة فى اعتبارها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكل بلد. . فالقول بأن القوى الإمبريالية والرجعية هى التى ضربت هذه الوحدة قول صحيح ولم يكن فى حاجة إلى مزيد من الوثائق لفضح تآمر تلك القوى، ولكن هذه القوى ما كانت تستطيع أن تضرب حلما جماهيريا لدى الشعوب العربية بتلك البساطة ما لم تكن هناك ثغرات وأخطاء استطاعت أن تنفذ منها وتضلل.

ومن الصدف الغريبة أن «أبو» سيف يوسف كان سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى المصرى فى ذلك الوقت كان يحاكم فى الإسكندرية أمام محكمة عسكرية خاصة برئاسة الفريق الدجوى، وكان أبو سيف يدافع عن آرائه وخاصة تلك التى تتعلق بالوحدة العربية وكان مما قاله :

«إن الوحدة العربية على الأساس الذى تمت عليه بين مصر وسورية فيها الكثير من الأخطاء التى يمكن أن تعطى للقوى الإمبريالية والرجعية الفرص لضربها . . إنى أطالب فورا بدراسة هذه الأخطاء وبوضع حلول حقيقية لها وذلك بإعطاء الجماهير فرصة أوسع وبإشاعة الديمقراطية وذلك حفاظا على دعم أمنية غالية وسدا للطريق أمام محاولات الرجعية والإمبرالية لضرب هذه الأمنية وإلا فهناك خطر الانفصال» .

وفى اليوم التالى جاءت أنباء الانفصال، ووقف أحمد مجاهد المحامى عن أبوسيف يوسف ليسجل أمام المحكمة .

«إننى أطالب بالإفراج الفورى عن موكلى الذى أثبت أنه كان أبعد نظرا وأكثر قدرة على فهم مشاكل العمل الوطنى والوحدوى» ولكن أبوسيف لم يفرج عنه كذلك لم يفرج على أى منا .

وكان علينا أن ننتظر أكثر من سنتين ونصف .

لماذا؟ . . سؤال محير .

[١٩]

إذا أردتم نصيحة أيها الحملان الصغيران فاقفزا
من فوق سور الحظيرة.
اخرجوا من قبوركم يا أولادى المساكين.
كازنتزاكس- الإخوة الأعداء

مايو سنة ١٩٦٢

لم يجف الصراع السياسى داخل المعتقل بل استمر يتخذ مجراه ولكن على أرضية أقل توترا وأكثر روية.

كانت المناقشات فى البداية، وعقب إعلان الإجراءات الاجتماعية الواسعة فى يوليو ثم بعد ذلك الانفصال السورى فى سبتمبر، وتجرى كلها وهناك شبه اقتناع بأن الإفراج عنا مسألة وشيكة.

أليست الإجراءات الاجتماعية التى اتخذت من ضرب المصالح الرأسمالية الكبيرة وتأميم واسع للشركات والمؤسسات الأساسية هى انحياز لوجهة نظرنا التى طالبنا بها ودافعنا عن تحقيقها طوال السنوات الماضية، وأليس الدور الذى اتضح وقام به الاستعمار والقوى الرجعية من داخل الاتحاد القومى نفسه، للعمل على مؤامرة الانفصال هو خير شاهد على صحة وجهة نظرنا التى سبق أن أعلناها فى الوحدة.

ليس هذا فقط بل إن عبدالناصر القى خطابا بعد الانفصال بعدة أيام فى جامعة القاهرة قدم فيه نقدا ذاتيا حول كثير من التصرفات والإجراءات التى تمت فى السنوات الماضية.

وكان مما قاله فى هذا الخطاب الكثير مما سبق ونبهنا إليه وحذرنا منه.

قال إن الرأسمالية الكبيرة المصرية حاولت أن تسرق الثورة وتصوروا أن معركة

الاستقلال التي خاضها الشعب المصرى سنة ١٩٥٦ وما أعقبها من تمصير وتأميم للشركات الأجنبية هى فرصة لهم لزيادة كعكتهم على حساب الجماهير.

وقال لقد ثبت أن الرجعية تغلغلت داخل الأجهزة، وكانت تعمل من أجل السيطرة الكاملة على الدولة، وقال إن الذين تآمروا على الوحدة كانوا عناصر قيادية داخل الاتحاد القومى وداخل أجهزة الدولة. وإن مصر ستضع يدها مع قوى الثورة العربية والعالمية فى كل مكان.

وقال إنه لا طريق أمامنا سوى مزيد من الحرية للجماهير والاعتماد على حركة الجماهير من أجل بناء مجتمع تسوده الكفاية والعدل.

بتلك المقاييس التى قالها عبدالناصر نفسه بعد ثلاث سنوات تكون تلك المجموعات التى ألقيت فى السجون ولاقت ما لاقت خلال تلك الفترة هى أصدق وأكثر الجماعات تعبيرا ودفاعا عن الحقيقة.. هذا الكلام الذى أصبح سياسية رسمية للدولة على لسان رئيسها والذى قيل منذ ثلاث سنوات وصدرت بسببه الاتهامات المخجلة «بالخيانة والعداء للوحدة» على لسان المصفقين والمهللين وكذابى الزفة والمرتزقة.. ويبدو أن هذا السبب بالذات كان وراء تأجيل الإفراج عنا فإذا كان كذابو الزفة والمرتزقة قد فضحوا فى سوريا فإنهم فى مصر موجودون وقادرون على التلون والتكيف تماما كالحرباء.. وكانوا متخصصين داخل الأجهزة وجهاز المباحث العامة على وجه خاص..

ولأن رئيس الجمهورية نفسه قد اعترف بصدق الأقوال التى دخلنا من أجلها السجن والمعتقل منذ ثلاث سنوات، ولأن الإفراج عنا كان يعنى تلاحما بين أقوال عبدالناصر وبين القادرين على وضع هذه الأقوال موضع التنفيذ ولأن حسن المصيلحى، ومنذ عدة شهور فقط، قد أقسم بشرفه- وهو شرف تعرفه جيدا المخابرات الأمريكية- أننا لن نخرج من هذه الصحراء إلا محمولين على الأعناق، أى موتى، وإما منفذين لما يطلبه ويريده.

لكل هذا ولأمور أخرى كثيرة اتضحت فيما بعد لم يفرج عنا، ليس هذا فقط بل وواصلت أجهزة المصيلحى معركتها القذرة فى محاولة التصفية النفسية والمعنوية للمعتقلين.

وعرفنا فيما بعد أنه عندما طلب عبدالناصر من المصيلحى البدء فى الإفراج عن المعتقلين طلب المصيلحى مهلة للتصرف «حتى لا يخرجوا ولديهم إحساس بأنهم أبطال».

وكانت أول رسالة واضحة وصلتنا بهذا المعنى، حينما أعيد إلى المعتقل عدد من الزملاء المسجونين الذين كان قد حكم عليهم فى أوائل الخمسينات (من سنة ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤) بأحكام تتفاوت بين ثمانى وعشر سنوات.

كان هؤلاء قد أتموا سنوات الحكم كاملة رغم أن بعضهم كانت جريمته أنه حاول إسقاط الحكم فى أيام النظام الملكى.

وعندما رحلوا إلى القاهرة للإفراج عنهم لم يكن يخالجنا شك فى أنهم خارجون وخاصة بعد كل تلك الظروف.

ولكنهم عادوا إلينا بعد أيام وقد تحولوا من مسجونين إلى معتقلين أى أن يرتدوا الزى الأبيض بدلا من الأزرق ويقيموا فى عنبر اثنين بدلا من عنبر واحد.

كانت عودة حمدى عبدالجواد وداود عزيز وزكى مراد ومصطفى طيبة ووديع وهيب ومحمد شطا بعد أن رفضوا عروض المصيلحى والجلوس على كرسى اعترافه المهيمن، تأكيدا لنا بأن ما تصورناه فى البداية أمر طبيعى وهو أن الإفراج عنا ليس بتلك البساطة.. وكان تأكيدا فى الوقت نفسه لمغزى ظل ملازما للمرحلة كلها وهو أن الهوة بين الأقوال والأفعال ستظل موجودة ومتسعة مهما تغيرت أفكار القيادات التى ترسم السياسة، فالأجهزة المنفذة هى نفسها لم تتغير.

وقد ثبت كما تأكد بعد ذلك بسنوات أن الحديث عن تغيير جذرى فى المجتمع بنفس أجهزة الدولة القديمة يظل دائما مجرد أمانى رومانسية قد تدور فى عقل أحد القادة ولكنها لا يمكن أن تتحول إلى واقع فعلى.

وفرض الواقع الجديد نفسه حتى على أكثرنا تفاؤلا..

ولكن الأمور لم تعد مثلما كانت.. فلقد كانت التغييرات السياسية التى تجرى فى الخارج تعطينا المزيد من الإحساس بالثقة، والغريب أيضا المزيد من الزهد فى أى إفراج يلوثه أى شرط..

ومضت وتيرة الحياة فى الصحراء بعد أن استعادت نبضها الهادئ. الجامعة الشعبية تحتفل بتخريج أول فوج فى جميع الفروع والتخصصات.. والندوات السياسية والثقافية مزدهرة، بل وبدأت تصدر كتب ومؤلفات ومجلات مكتوبة «بخط اليد طبعا».

وحركة الترجمة تتسع.. ومكتبتنا عامرة.. وبين الحين والآخر تقام سهرة فنية على المسرح الرومانى تقدم فيها عروض مسرحية جيدة..

وفرقة العمل فى المزرعة برئاسة المهندسين حسين طلعت وعبدالمنعم شتلة تتحفنا كل أسبوع بمنتجات المزرعة من طماطم وخيار وخس وبطيخ وأنواع من الخضر المختلفة لتعوض بعض الشىء النقص الواضح فى التغذية وفى الكالسيوم والفسفور الذى نعانى منه.

ولكن ظاهرة أخرى بدأت تبرز . .

فلقد بدأ عدد متزايد من الزملاء يسقطون فريسة أمراض مختلفة ابتداء من الدوسينتاريا حتى أمراض المثانة والكلى والمعدة . . والعيون . . ويبدو أن فترة الإضراب الطويلة عن الطعام قد قضت على بعض المقاومة لدى البعض فهاجمتهم الأمراض بعنف.

ورحل العامل على زهران إلى قصر العينى بعد اكتشاف بولينا حادة ولكن عليا فارق الحياة بعد يومين فى قصر العينى.

وكذلك أسعف أحمد البيكار من نزلة معوية قاسية وأرسل إلى قصر العينى، ولكنهم أفرجوا عنه هناك بعد ان اكتشف الأطباء أن حالته ميئوس منها . . ومات البكار بعد أسبوع من الإفراج عنه . .

ولقد أحسست فى تلك الفترة بشىء ما فى عينى . .

كان يجتاحنى أحيانا صداع عنيف أعانيه فى صمت ثم يعقب نوبات الصداع ضعف ملحوظ فى إبصار عينى وقد كتمت المسألة بينى وبين نفسى لفترة، فلقد حسبتها مسألة عارضة لا تستحق وأنها سرعان ما تنتهى فلم أكن لأريد أن أزيد متاعب الزملاء، وخاصة ونحن نواجه كل يوم بعض حالات المرض الشديد، ولكن الصداع استمر كما استمر تدهور الإبصار بشكل ملحوظ . . وفى هدوء توجهت إلى أحد الزملاء الأطباء وشكوت له مما أعانى . . واستمع الزميل فى هدوء ثم قام يكشف أولا على عينى، وقال وقد امتلأت ملامحه بجدية غريبة.

- منذ متى تحس بذلك

- منذ شهور

- ولماذا سكت

- أحسبها مسألة بسيطة

- إن ضغط العين مرتفع جدا . . ولابد من علاج سريع.

وفى اليـوم التـالى كنت أعـرض على طبـيب السـجن الذى اتفق مع الزمـيل فى التشخيص وفى خطورة الإصابة وكتب تقريرا بترحيلى إلى مستشفى قصر العينى فورا .

وطوال الأسبوع الذى انتظرته حتى جاءت الموافقة بالسفر إلى القاهرة كان يتزايد لدى الإحـسـاس بخطورة الإصـابة . . انعكس ذلك فى اهتمـام الزمـلاء الأطبـاء وفى نظرات الزملاء ورعايتهم وإصرارهم على ألا أزاول أى عمل .

وكم كان ذلك يضايقنى بل ويحز فى نفسى كثيرا ، فحتى أسبوع مضى كنت واحدا من المجموعات التى شكلت لخدمة المرضى ولرعاية الزملاء الذين يعانون من بعض الأزمات النفسية والخاصة . . ولقد كنت سعيدا وفخورا بهذا العمل الذى كان ينمى بداخلى قدرة هائلة وطاقة غريبة على هضم المشاكل ومحاصرتها حتى إن سيد البكار كان يقول دائما إننى أكثر الناس تفاؤلا فى العـالم وإن لدى قدرة غير محدودة على تحويل الدمعة إلى ابتسامة .

لهذا كنت أتألم . . ليس فقط للصداع القاتل الذى يهاجمنى يوميا وليس لآلام العين وتدهور البصر ، بل وأكثر من هذا لأنى كففت عن الدور الذى كنت أقوم به باستمتاع بل وتحولت أنا الآخر إلى حالة .

وفى صباح ٦ مايو حملت أمتعتى ولبست بدلتى وودعت الزملاء الذين حرصوا كلهم على الخروج لتوديعى واتجهت ومعى الحرس إلى الأتوبيس فى الطريق إلى أسيوط ومنها إلى القاهرة .

كانت الرحلة على الطريق الصحراوى الجديد الذى فتح هذا العام ويصل الواحات بأسيوط تستغرق حوالى ست ساعات قضيتها كلها نائما أو شبه نائم ، فطوال الليلة الماضية ظللت وسط الزملاء والأصدقاء الذين أصروا على أن يقضوا معى تلك الليلة ، وربما لإحساس بعضهم أننى قد لا أعود ونظرا لخطورة الحالة . وربما لإشفاق بعضهم من التجربة . . وقضينا الليلة كلها نروى ونحكى ونسترجع الذكريات ونحاول أن نتخيل صورة الغد . .

ووصلنا إلى أسيوط وانتظرنا فى المحطة بضع ساعات أخرى حتى جاء قطار السابعة مساء واحتللت أنا وحراسى ديوانا فاخرا . . كان هناك بعض المظاهر المتكررة والتى رأيتها فى رحلتى السابقة إلى أسيوط . . الحرس الذين يملئون المحطة ليبعدوا أى إنسان من الاقتراب منك ، ثم صف الحراس الذى يقف عند كل محطة يمر عليها القطار ليطمئنوا إلى أن الراكب الخطير قابع فى ديوانه .

ولكن الرحلة هذه المرة إلى القاهرة . . الحبيبة .

ومضى القطار يقطع الليل والأرض مبددا سكون الوادى بصفيره وعجلاته ، بينما التزمت بشباك فى الممر أتطلع منه إلى الحقول النائمة فى حضن أضواء القمر المكتمل .

ومرت ملوى ومنفلوط والمنيا وبنى سويف ، مدن لم أرها من قبل ربما فقط سمعت بأننا مررنا عليها عندما رحلت من الفيوم إلى الواحات فى سبتمبر ١٩٥٩ .

وكانت علامات مضيئة ومشعة فى الطريق إلى القاهرة .

لم أنم لم أستطع أن أجلس لحظة واحدة ، كنت أجهز نفسى لاستقبال القاهرة أكثر من ثلاث سنوات مررت على هذا الطريق بعيدا عن القاهرة .

وحينما لمحت على ضوء القمر أهرامات الجيزة تطل من بعيد كان قلبى يذوب فى الدقات العنيفة التى اجتاحته .

نسيت عينى ونسيت آلامى وكف الصداع أو لم أعد أحس به ، شىء واحد كان يجتاحنى والقطار يدخل الجيزة ثم يدور حولها من خلف الجامعة وبين السرايات وبولاق الدكرور وإمبابة ليدخل فى أحضان قاهرتى الدافئة . . مدينتى العظيمة . . الصامدة ، الغارقة فى الأضواء . . ها أنا أعود . . وامتلأت عيناى بالدموع .

وبالرغم من أننا وصلنا فى ساعة متأخرة من الليل إلا أن ميدان المحطة كان كعادته حيا زاخرا ، وألقيت نظرة على بوفيه المحطة . . هو نفسه لم يتغير وكأنى كنت أجلس عليه بالأمس . . وتعود الحياة كلها فى لحظات على نفس المقعد كنت أجلس أتناول إفطارى أحيانا وأقرأ جرايد الصباح ، ومن هذه البوابة كنت أخرج فى الطريق إلى الجريدة . . وعلى بعد مئات الأمتار فقط يقبع بيتى . . أختى وأولادها . . وعلى بعد مئات الأمتار يوجد الآن الكثير من الأهل والأصدقاء والرفاق . . كنت أحس بهم ويقربهم منى . . رغم أنهم ليست لديهم فكرة على الإطلاق بأننى هنا . . أخيرا . . فى القاهرة .

وكان البوكس فى الانتظار . وركبناه فى الطريق إلى القلعة حيث قضيت بضعة ساعات فى زنزانة مغلقة .

وفى الصباح كنا فى الطريق إلى قصر العينى .

معتقل وضابط . . وثلاثة عساكر .

[٢٠]

الموسيقى تأتي عبر النهر المظلم وتناديني
واحترق قلبي ألما أوه. دلني على الطريق

طاغور الناسك

مايو سنة ١٩٦٢

النيل يجرى في هدوء وعلى سطحه الرقراق ومياهه الصافية التى لم تشبها بعد حمرة الفيضان، تنعكس الأنوار المنبعثة من الجانبين.

ومن شرفة العنبر الواسعة تقف بعض العمارات العملاقة على الجانب الآخر.. في الجيزة.. معظم نوافذها وشرفاتها مفتوحة بعضها يغمره النور والبعض الآخر يكتنفه الظلام وبعض منها غارق فى أضواء برتقالية خافتة.

وموسيقا تنبعث من مكان ما يصعب تحديده، تتضح أنغامها وتعلو أحيانا ثم تخفت وتتوه الأنغام أحيانا كثيرة مع صوت إحدى العربات التى تمرق في خفة على كوبرى الجامعة..

وتحت العين والقدم، وعلى الشاطئ المجاور عند كازينو «البل في» يضم ثنائيات عاشقة أو رباعيات ساهرة تنعم بليل القاهرة ونيلها وتصل إلى أذنى أحيانا ضحكة عالية متموجة تثير داخلى تيارا فائرا متفتحا للحياة يوقظ مشاعر وأحاسيس مضى عليها وقت طويل دون أن تمارس حتى كدت أنساها.. ودقت ساعة الجامعة المجاورة اثنتى عشرة دقة تتبعتها واحدة واحدة.. كل دقة كانت تلقى بحجر فى بركة الداخل فتثير العديد من التموجات المتلاحقة وتعصف بالسكون المفتعل الذى كان يخيم، ويمتد شريط الحياة متحركا ملونا.. في كافيتريا الآداب، والطريق لم يتضح بعد والعقل متفتح على استعداد لأن يفهم ويستوعب، وقضايا كثيرة تفرض نفسها عليه ومناقشات صاخبة وهادئة فى البوفيه وفى المدرجات ومع الأساتذة والبحث عن طريق لمصر الحرة مصر المستقلة مصر الديمقراطية مصر التى هى ملك لكل أبنائها وبناتها.

وشاب ريفى يحمل فى عينيه ورأسه مآسى كثيرة رآها وعاشها فى قريته، البؤس والفقر والتخلف . . والخوف، ثم يدرس الأدب الأوربى والفلسفة ويقارن بين أحوال قريته وبين كل كلمة يسمعها من أستاذ أو يقرؤها فى مسرحية مقررة أو قصيدة شعر يدرسها ويسأل ويناقش ويختلف مع بعض الأساتذة ويعجب ببعضهم . ويحك رأسه بعنف ويواصل مسيرة الفهم والاستيعاب . . ويتضح أمامه الطريق، إنه ما جاء إلى الجامعة لكى يصبح مدرسا أو موظفا يتقاضى أجرا بمقدار الليسانس، بل يغمره وعى غريب بأنه مبعوث قريته بكل مشاكلها إلى المدينة وأن عليه أن يقنع تلك المدينة بعدالة قضية قريته . . ويخطو خطواته الأولى نحو الإدراك والوعى الحقيقى . . بذاته ومجتمعه .

- حيلك . . دانت مش هنا خالص .

قالتها الحكيمة السهرانة التى كانت قد تسللت دون أن أدرى .

ورميت بنفسى على كرسى فى الشرفة بينما وقفت : سحر : بقوامها الممتد والمتناسق وقد أسندت ظهرها إلى جدار الشرفة وساهم ضوء القمر مع امتداد أضواء الشارع والكازينو فى رسم صورة مجسمة لها لأتبين تفاصيلها مثل آلهة الإغريق وعادت تقول فى رقة أكثر

- تشرد كثيرا . .

ودون أن تنتظر ردا، راحت كعادتها تحكى فى سخرية ضاحكة عن «الحرس» الذين نام أحدهم على باب العنبر بينما ارتمى الآخر على سرير خال، وأنها أصبحت الآن مسئولة عنى ليس فقط من ناحية العلاج بل ومن ناحية الحراسة . . ثم انتقلت من موضوع الحرس إلى موضوعات أخرى كثيرة، ابتداء من شكواها من إرهاق العمل إلى ظروف والدتها المريضة إلى الخطاب الكثيرين الذين ترفضهم إلى قطة صغيرة سوداء فى بيتها إلى استعراض ساخر للأطباء الذين تعمل معهم، وكيف يغازلها كل على انفراد ويحذرها من الآخر، واقترحت سحر أن نشرب كوبا من الشاى وقامت تعده بنفسها . . كانت تلك الليلة الثالثة لوجودى فى عنبر ١٣ «عيون» فى قصر العينى بعد أن استقبلنى فى اليوم الأول الدكتور عصام توفيق الأستاذ المساعد للعيون وكتب لى بالدخول فورا «لإجراء عملية جلوكوما» وبالرغم من أن الدكتور عصام قد أبدى انزعاجه لتدهور الحالة إلا أنه طمأننى وفى عينيه بريق إنسانى، وهو يتأمل القيد فى يدى .

- معلهش . . جت سليمة لم تتأخر كثيرا . . سأجرى لك العملية بعد خمسة أيام . .

وخلال اليومين الماضيين اللذين قضيتهما فى غرفة خاصة فى عنبر ١٣ كانت كل ساعة بل كل دقيقة مليئة بما يمكن أن يكون تعويضا عن السنوات الثلاث فى الصحراء .

فى اليوم الأول . . جاءت أختى وأولادها . . وكانت واحدة من تلك اللحظات المليئة بالانفعال حين أخذت تضمنى وتبكى ومعها سامح الذى كبر واقترب منى فى توجس فى البداية ثم اندفع نحوى بعد أن تعرف على «خاله» .

وفى اليوم الثانى جاء أبى من القرية وعلى لسانه كلمة يرددها :

«الحمد لله . . رأيتك مرة ثانية . . الحمد لله . . » .

وبالرغم من الأوامر التى كانت لدى الحراس بمنع الزيارة أو الاختلاط بالمرضى إلا أن ذلك لم يكن من الممكن تنفيذه فالعنبر ملىء بعشرات المرضى الذين يزورهم ذووهم كل يوم كذلك كان من السهل تدبير بعض المظاهر الشكلية حتى لا يضار أحد الحارسين اللذين كانا على استعدادا لتقديم أى الخدمات . كنت أقضى النهار كله غارقا مع مشاعر الأهل أحكى القليل وأسمع الكثير . . أخى الأكبر رشدى ويعمل مدرسا راح إلى مبنى المباحث بعد أسبوع من الاعتقال يسأل عن مكانى فكان نصيبه علقة محترمة مع حجز فى المباحث لمدة ٢٤ ساعة وأكبر إخوتى تزوج ، وأختى أصبح لهـا أهداب وهانى إلى جانب سامح . . وابنة عمى دخلت كلية الآداب قسم إنجليزى . . ابنة الجيران تزوجت وأهل القرية يبعثون السلامات الحارة .

وكان أبى يجلس النهار كله يتأملنى ويتحسسنى كما لو كان قد عثر على شىء فقده منذ زمن طويل

«الحمد لله . . رأيتك مرة ثانية»

وحكى أبى كيف أنه بعد اعتقالى بفترة ذهب إلى الأستاذ محمد نصر - والد صلاح نصر مدير المخابرات - وكانا زميلين فى الدراسة بالإضافة إلى أنه ابن قريتنا .

وحاول الأب أن يدفع «صلاح» ابنه ليتدخل للإفراج أو على الأقل لنقلى إلى القاهرة بعيدة عن التعذيب الذى كانوا يسمعون عنه .

ولكن «صلاح» قال :

مستحيل . . إن أمرهم فى يد الرئيس شخصيا ولا يمكن لأحد منا أن يتدخل .

وأحيانا ما كان يمر الدكتور عصام ونائبه الشاب الدكتور أحمد فيجلسان قليلا ليسألا عن صحة ما سمعوه وقرءوه فى الصحف الأجنبية والتعذيب الذى تعرضنا له.

ولكن الدكتور «عصام» كان يقطع الحديث فجأة وهو يتطلع حوله قائلا :

- المهم عينيك . . إحنا هنا للعلاج .

ويمضى بابتسامة جانبية ذات معنى . .

أما «الطيور الجارحة» من المباحث العامة فقد كانت تحوم دائما حول الغرفة ، وقد كان من السهل على أن أكتشفهم بالحاسة الخاصة التى نمت عندى بعد طول معاشرتهم حتى إننى أزعم أنه أصبحت لدى القدرة على أن أشم رائحتهم .

كانوا يكتفون بالمراقبة ورصد حركة من يزورنى ولكن أحدا منهم لم يتدخل .

مرة واحدة فى صباح اليوم الثانى جاء شاب مهذب لم استطع أن أشمه من البداية ، وقدم نفسه على أنه ضابط المباحث العامة وأنه موفد من قبل «المصيلحى بك» للاطمئنان على صحتى وحالة عينى وللتأكيد بأن "المصيلحى بك" حزن جدا حينما عرف بمرض عينى وأنه يتمنى لى الشفاء سريعا .

وقال الشاب المهذب وهو يسلم .

- إن شاء الله تخرج من القصر على بيتكم .

وخرج . واعتبر أبى أن ذلك تأكيد بأنهم سيفرجون عنى . وتركت الرجل الطيب يملأ صدره بالآمال ، ولكنى أحسست بضيق غريب وأنا أسمع عبارة الضابط المهذب واجتاحنى إحساس بأن وراء الكلمات معنى آخر .

وأحيانا ما كنت أنزل- ومعى الحرس- إلى عنبر المعتقلين فى الدور الأول ، حيث خصص لنزول المعتقلين القادمين للعلاج سواء من الواحات أو من زميلاتنا المعتقلات فى سجن القناطر أو من القلعة .

كان فى العنبر حوالى ثمانية معتقلين وست من المعتقلات . ولقد كنت دائما أتساءل بينى وبين نفسى ، لماذا لم يدخلونى عنبر المعتقلين والمعتقلات فى قصر العينى .

ولكن سؤالا أكثر إلحاحا كان يثور . . ماذا يجرى داخل الغرف الثلاث المغلقة على ١٤ زميلا وزميلة؟

ولماذا يوضع الجميع فى مكان واحد .

ولم يكن من الصعب على أن أعرف السبب بعد أن نزلت إليهم مرتين وجلست إلى

بعضهم عدة ساعات .

كان عنبر المعتقلين فى قصر العينى إحدى الخطط الذكية لأساتذة «القتل المعنوى» فلم يكن يسمح بالبقاء فى هذا العنبر سوى لبعض من الزملاء «الذين أبدوا استعدادا للتفاهم» بعضهم كان يعانى مرضا خفيفا ، ولكن غالبيتهم كانوا من أصحاب الحظوة لدى الأجهزة كذلك فإن إبقاء بعض الزميلات معهم يمكن أن يؤدى إلى قصص تصلح بأن تكون سلاحا يستخدم ضد الاشتراكية والاشتراكيين .

حقيقة أنه حدثت بعض التجاوزات ، ولكن الحقيقة الأكثر والمشرقة أنه بالرغم من كل تلك الظروف الصعبة التى صنعت بإحكام لانزلاق الزميلات إلا أن غالبيتهن استطاعت أن تتماسك بل وتقدم القدوة والمثل العظيمة لكيف تكون أخلاقيات الفتاة الاشتراكية .

وجاءت سحر بالشاى . .

ولكنها جاءتنى بشىء آخر أكثر سخونة . . فلقد غيرت ملابسها وارتدت ثوبا من الشيفون الأحمر لا يكاد يخفى شيئا .

وناولتنى الفنجان وعطرها يملأ أنفى ومنبت النهدين يشدان كل ما لدى من إبصار .

- شاى يعجبك قوى

هكذا قالت وهى تشد كرسيا وتجلس جانبى .

- أين الحرس . .

قلتها بدون وعى وأنا أشد الكرسى بعيدا عنها .

- واحد نام أمام العنبر . . والثانى نايم على سرير فى العنبر .

قالتها وهى تقترب بالكرسى منى ، وقبل أن أحاول أن ابتعد بمقعدى أمسكت يدى بعنف

- . . كله نايم .

وتهت للحظات . . كانت يدها أشبه بتيار كهربائى صاعق لم أكن لأحتمله . . بل لم أكن لأحتمل منذ رأيت سحر فى اللية الأولى . كانت ببساطة شديدة جميلة جذابة ، من النوع الذى يدعوك ويدفعك فى أول لحظة لأن تضمه بين يديك . . ولم يكن ذلك تخاريف معتقل قضى ثلاث سنوات فى الصحراء فلقد أجمع على ذلك كل نزلاء العنبر

وعلى رأسهم الشاويش عبدالسلام الذى كان يقول لها دائما :

- ليلة واحدة معاكى على سنة الله ورسوله . . وبعديها أموت وأنا مبسوط .

وكانت ترد بضحكة لينة وخفة دم لا تبارى .

- يا راجل إنت عجزت . . متستحملش ساعة .

ومنذ ليلة أول أمس حينما مرت سحر على فى الغرفة وقدمت نفسها على أنها «السهرانة» وأحاسيس جارفة تنطلق وتعربد داخلى ، مرت الليلة الأولى بسلام وبدردشات وتعاريف اشترك فى جزء كبير منها الشاويش عبدالسلام وزميلاه .

ومرت الليلة الثانية بسلام صعب . . فبعد أن انتهت سحر من توزيع الأدوية ووضعت القطرات فى العيون المريضة جاءت إلى غرفتى وأخذنا ندردش بعض الوقت ثم قرأت لى فصلا من أحد الكتب وبعض المقالات فى مجلة روزاليوسف . ونمت ليلتها مثلما نام شهريار على صوت شهرزاد الذى كان ينفذ إلى النخاع .

أما تلك الليلة فيبدو أن الأمور لا يمكن أن تمضى بسلام . . نام العنبر من العاشرة كالعادة وأغلق الباب الخارجى ولم يبق سوى أربع عيون سهرانة .

عينان يتهددهما الخطر لم تريا لمدة ثلاث سنوات سوى رمل الصحراء ووجوه الزملاء والعساكر المتكررة وعينان تلمعان بالجاذبية والدفء تنفذ نظرتهما - كأشعة إكس - إلى الأعماق وتشد كالمغناطيس بنبضات قلبك ورعشات جسدك . . وتحججت بالذهاب إلى التواليت .

وهرولت مذعورا ومسحورا إلى الغرفة . . وارتميت على السرير .

وبعد قليل كانت خطوات الأميرة «السهرانة» تقترب من الغرفة وتدخل . . ثم جلست على الفوتيه المجاور للسرير ووضعت ساقا على ساق فانفتح الروب وتعرت ساقاها تماما .

يا كل قوة فى الأرض ويا كل قدرة على التماسك والمقاومة . لقد واجهت الشومة الغليظة وهى ترتفع ثم تهوى على الجسد تلهبه وتمزقه وقاومت ، وواجهت الكرباج ينفرد ويطير ويلسع وقاومت . . وواجهت الجوع ثمانية عشر يوما بلا طعام ، وكسرة الخبز تعنى الحياة . . وقاومت . . وواجهت قلما وورقة يمكن أن يكتبا شيئا يخرج بى من السجن . وقاومت . . ولكن الساقين اللذين تنفتح عنهما غلالة الروب ، والجسد الملتهب الذى يشع ويضىء من خلف الشيفون ، ، والشفة السفلى المكتنزة والشعر

الأسود المنسدل إلى الخلف كموجات بحر أسود . . وذلك الصمت المتفجر الذى يلف العنبر بل وقصر العينى كله ليكمن خلف قنبلة متفجرة اسمها «سحر»

قالت فى ابتسامة هادئة :

– عندك حق . . الغرفة أفضل من الشرفة .

يا ساحرات أوليس . . أيتها المنشدات الجميلات . . دعن أوليس يعود إلى أهله .

عادت تقول :

– هل اقرأ لك . . اشرب الشاى إنه ليس سما . .

– أحس بإرهاق . . سأحاول النوم .

– تخدعنى أم تخدع نفسك . . مش هتنام .

ياتاييس ، رفقا بالراهب . . لا يملك إلا إيمانا وعقيدة .

– قوللى . . اوصف لى أول حب لك . .

– سحر . . أريد أن أنام . . عينى تؤلمنى وصداع قاس فى رأسى . .

– ألف سلامة

قالتها فى رقة وعذوبة ثم فتحت الكوميدينو وقامت تضع بعض قطرات «البيلوكارمين» فى عينى

ولم أعد أحتمل ونهداها يكادان يفران من فتحة الروب ويلامسان أنفى وأحتضنهما بعنف .

ولكنى سرعان ما عدت ودفعتها بعيدا وهى شبه مخدرة ، وقد لمعت الفكرة فى ذهنى وتجسدت فى سور كبير يفصلنى عنها . .

كانت تلك الفكرة هى التى جعلتنى أعانى الليلتين السابقتين . . وهى التى أربكت كل تصرفاتى وجعلتنى أستطيع مرة أخرى أن أحاصر عواطف الحرمان والطبيعة التى كادت تنفجر .

ومن يدرى . . ربما دفعوا بها إليك للقضاء عليك .

ومن لم يسقط بالتعذيب البدنى والنفسى يسقط خرقة بالية فى حضن امرأة .

وصرخت فى وجهها وقد تمثلت أمامى مثل «عروسة الجلد»

- اخرجى من فضلك . . قولى لهم أنا مش مراهق ساذج . . أنا صاحب رأى وعقيدة . . اخرجى .

ونظرت إليها تماماً مثلماكنت أنظر إلى أدوات التعذيب الأخرى . . ولابد أن وجهى قد اكتسى بتغيرات حادة ، إذ ظلت سحر تنظر إلى فى استغراب شديد ثم لملمت نفسها وهى تقول فى صوت مبحوح مبلل بمشروع بكاء :

- أنت مجنون . . مجنون

وتكورت فى السرير أكاد أمزق الغطاء ، ثم نهضت إلى الباب وكدت أصرخ أناديها بكل الرغبة المتفجرة ، ولكنى عدت لأرتمى على السرير مرة أخرى وأنا أصارع «ذات» خطيرة جائعة بدرجة وحش بوهيمى لم يأكل لسنوات طويلة ، لقد طلب أوليس البطل المنتصر فى حرب طروادة أن يقيده زملاؤه ويربطوه رباطا وثيقا فى سارى المركب وهو يمر بجوار جزيرة الساحرات الهامسات ، وللآن لم يكن ليستطيع أن يقاوم إغراءهن وصرخ أوليس ويكى وهو يطلب من زملائه أن يفكوا وثاقه فلقد كان السحر أقوى من أن يقاوم ، ولعلى فى عمرة الصراع تهت أو نمت وربما فقدت الوعى لفترة . وكل ما أذكره أننى حينما فتحت عينى وجدت كل شىء ساكنا هادئا ونائما ليس فى الغرفة وحدها بل وفى العنبر كله ، بل وأحسست بهدوء نفسى غريب مع قطرات من العرق البارد على جبهتى ثم إحساس شامل مبهج ، وفرحة داخلية هادئة .

لقد انتصرت فى معركة قاسية كان لابد وأن أخسرها بكل الشواهد المنطقية والإنسانية .

وأخذت أستعرض الأحداث مرة أخرى ولكن بطريقة العرض البطىء وأحس بمزيد من الثقة بالنفس . قد أكون دون كيشوت حاربت أوهاما وأشباحا لا توجد إلا فى ذهنى .

وقد أكون تجاوزت الحقيقة وتصرفت بغباء .

وقد تكون «سحر» مظلومة من التهمة التى تصورتها .

وقد أكون خسرت «ذكرى» جميلة كان يمكن أن تتحول إلى نقطة مضيئة وسط سنوات من الظلام الكثيف مع الصحراء والألم .

قد يكون كل ذلك صحيحا ، ولكنى حينما أتذكر تلك الليلة ، فإنى أتذكر على الفور أقسى معركة دخلتها كنت فيها معاديا على طول الخط لذاتى ومشاعرى ولغريزتى .

لقد كان انتصارا يساوى إن لم يفق بكثير متعة ليلة جميلة مع أحلى امرأة اشتهيتها فى حياتى .

[٢١]

ليست العبرة فى قتل الحسين العبرة فيمن
قتلوه ولماذا قتلوه.
أنا ثأر الله إن مت شهيدا فاطلبوه

الحسين ثائرا- عبد الرحمن الشرقاوى

يونيو ١٩٦٢

صاح الصديق محمد على عامر أو شيخ العرب كما نسميه وقد بانت الدهشة على وجهه، فلم يكن العم العجوز يتصور الخروج من العنبر ليشم هواء الصحراء قبل بزوغ الشمس.

كنت قد وصلت إلى سجن الواحات بعد رحلة استمرت خمس عشرة ساعة وكان الإرهاق والمرارة لا يتركان فرصة لمتابعة الإجراءات الروتينية التى تتبع عند حجرة البوابة كما لم يكن عندى رد على الدهشة التى اكتست وجه الرفيق الطبيب.

ودخلت العنبر وبعض الزملاء يتثاءبون ويتركون أعينهم للتأكد من أننى أقف أمامهم مرة أخرى . . والدهشة والحيرة تملآن العيون وتطردان النعاس بسرعة . . وعشرات الأسئلة تحاصرنى وتتجمع كلها حول البرش الذى ارتميت فوقه . . كيف حدث هذا؟ لماذا عدت هكذا بسرعة؟ وعينيك؟ لم يمض على رحيلك للقاهرة سوى أربعة أيام!! ماذا حدث؟ وكلما زادت الأسئلة وكلما تكاثر الزملاء حولى يمطروننى باستفساراتهم وإحساسى بالمرارة والألم يزداد ويعمق، فلقد كان أكثر ما يثيرنى أن أحس أننى أصبحت «حالة» تثير الشفقة والاهتمام.

وكدت أصرخ فى وجه الزملاء بأن يتركونى وحدى، بل تكورت قبضة يدى وكدت ألكم أمير إسكندر وهو يهزنى بعنف ويقول فى عصبية.

ـ : تكلم . . ماذا حدث . . لماذا عدت بسرعة . . وحالة عينيك . . ولكنى عدت أجتر الألم والمرارة ولما لم يكن هناك مفر أمام مئات العيون المتسائلة والآذان المتلهفة . . فلقد حكيت ما حدث . . كان قد مضى على فى قصر العينى ثلاث ليال آخرها ليلة الحكيمة السهرانة وفى صباح اليوم الرابع جاء الضابط المهذب مبعوث مصيلحى بك مرة أخرى . . ولكنه فى هذه المرة كف عن ارتداء ثوب الرقة الزائف الذى كان يرتديه فى المرة السابقة . . حقيقة كان ناعما ولكن كلماته كانت موجهة بعناية كطلقات مسدس كاتم الصوت .

حدثنى فى البداية عن الزيارتين اللتين قمت بهما لعنبر المعتقلين والمعتقلات فى الدور الأول وحرص على أن أعرف أن كل كلمة قلتها هناك وصلتهم بما فى ذلك كلمات التحذير التى قلتها لبعض الزميلات هناك من الوقوع فى الفخ المنصوب لهن وضبط تصرفاتهن .

ثم قال وهو يطلق رصاصته الأولى .

- أجدر بك أن تقبع فى عنبرك دون تدخل فى أمور الآخرين . . هذا إذا كنت تريد أن تعالج عينيك .

وتركتها تمر فلم أكن أبحث عن معارك . . ولكنه عاد يطلب أمرا غريبا . . فبعد أن أكد اهتمام الجهاز كله ـ وعلى رأسه مصيلحى بك بحالتى وحزنهم فى نفس الوقت اقترح . . أن أكتب التماسا بالإفراج نظرا لحالة عينى المتدهورة . . وإلى هنا والأمر مقبول .

واستطرد . . وأن يكون الالتماس مشفوعا بتأكيد من عندك بأنك لن تعمل بالسياسة ولن تعود مرة أخرى إلى ما كنت تعمله .

واتسعت ابتسامته المفتعلة وهو يقول :

- بس يا عم . . تكتب الكلام ده دلوقتى وإن شاء اللّه بعد يومين ولا أسبوع بالكثير تكون بره . . ومبروك مقدما ! !

قلت وأنا أحاول قدر استطاعتى أن أبلور الكلمات وأهدئها حتى لا تخرج بانفعال أو عصبية .

- أنا جاى أتعالج . . مش جاى أكتب «استنكار» .

وكسا وجهه بعلامات دهشة مصطنعة .

- استنكار . . بلاش الكلام الكبير ده . . وده برضه معقولة نطلب منك أنت بالذات حاجة زى كده . . ده مجرد كلمتين روتين مع الالتماس .

وصمت قليلا اضبط نفسى وأيضا كلمات الرد ، فقد كنت حتى هذه اللحظة لا أريد خناقة أو انفعالا . . ويبدو - كعادتهم دائما - أنه فهم صمتى نوعا بين الحيرة والبلبلة . . فأخذ يزيد من طلقاته . .

- إيه . . مش كفاية أكثر من ثلاث سنين ضاعت فى الصحراء . . إحنا شباب ونفهم بعض . . صدقنى مفيش حاجة تستاهل . . اخرج بجلدك وشوف عينيك ومستقبلك .

وأدركت أن على أن أوقف على الفور هذا السيل ، فقلت بحزم أكثر .

- لو سمحت أنا جاى القصر علشان أتعالج مش علشان أتناقش فى الخروج أو عدمه . . والمفروض أنى هعمل العملية بكرة .

وكانت لهجتى فيما يبدو قاطعة وانعكس ذلك على وجه الضابط المهذب بإحساس بخيبة الأمل ثم رمقنى بنظرة طويلة غريبة وهز رأسه قائلا :

- إن شاء الله تعمل العملية بكرة وتنجح .

وخرج .

وعند الظهر أخذت الممرضة أوراق علاجى من الغرفة بناء على طلب الدكتور أمين زايد .

- ومن هو أمين زايد؟

قالت التلميذة الطيبة :

-مدرس فى قسم ٢١ رمد .

وأبديت دهشتى وخاصة أننى أتبع قسم «١٣» وهو القسم التابع للدكتور عصام توفيق .

ولم تستطع الممرضة أن تفسر لى السر وراء طلب أوراقى ولكنها خمنت وأعتقد أنها لم تكن تعرف ، بأنه من المحتمل أن يشترك الدكتور أمين زايد مع الدكتور عصام فى إجراء العملية غدا .

وكنت على استعداد لتصديق ما قالته الممرضة فلم تكن هناك أى احتمالات أخرى ونسيت الأمر كله حينما جاءت أختى بأكلة سمك طلبتها ، فطوال فترة المعتقل السابقة لم أتذوق هذا الطعام الذى كنت أحبه ولقد سألت أحد الفلاحين من سكان الواحات

الذى كان يساعد فى أعمال المزرعة عن السمك فقال الفلاح الفقير الطيب باللهجة السريعة المضغومة .

- ما بنزرعش الشجرة دى هنا .

وقبل أن أنتهى من الوجبة الشهية جاءت الممرضة وطلبت منى أن أصحبها لأن الدكتور أمين زايد يريد أن يرانى .

وانتقلنا أنا والممرضة ومعى الحرس - إلى العنبر المقابل .

وكان يجلس فى غرفة الحكيمة . . وجه عادى مثل كل الوجوه ليس هناك ما يميزه سوى التواء بسيط فى الفك الأسفل وشد واضح فى عضلتى الفك كما لو كان يقرض أسنانه وبادرنى فى صوت جاف :

- أنت المسجون الشيوعى .

- أنا معتقل مش مسجون .

هكذا وجدت نفسى أرد على الفور وقد أخذت بأسلوبه الخشن فى الكلام بالإضافة إلى أنه لم يكلف نفسه الرد على تحيتى .

وقام من الكرسى وانفرد أمامى ماردا طويلا عريضا وأخذ يتطلع إلى بنظرات لم أستطع تفسيرها . . واكتشفت حركة عصبية واضحة فى عينه اليسرى ثم انفجر بصوت أعلى .

- متفرقش . . يعنى غلطت فى البخارى ياخى . . مانتو معروفين دايما مسحوبين من لسانكم . . عارف أفكاركم المهببة . . هذا الطبيب . . أهى قضية عين يتهددها الخطر أم أفكار مهببة كما يقول . ماذا يعنى؟

وصمت ، فلقد تعودت أن أستوعب أى استفزاز مقصود المهم العملية . . وعاد يقول وهو يشير بأصبعه كما لو كان يوجه اتهاما .

- عينك سليمة ، مفيش حاجة . . ومفيش داعى لوجودك فى القصر . .

قلت فى هدوء ولم أكن قد أدركت أبعاد الموقف بعد :

- الدكتور عصام توفيق كشف على وقرر إجراء عملية غدا لأنى مصاب بجلوكوما حادة .

وانتفض أمامى انتفاضة عنيفة وصاح فى صوت غليظ مشروخ :

- هتفهم في الطب كمان هتعلمني شغلي، أنا قلت عينيك سليمة. . اديني ورق سعادة البيه الفيلسوف. . اتفضل خروج اليوم ١١ مايو ١٩٦٢ . . إمضاء. . أمين زايد.

كان يكتب على أوراقي وهو يؤكد على الكلمات بغيظ شديد وغير مفهوم!! أهو تار بايت. . ولماذا؟ إنني لم أعرف أبدا أحدا في حياتي بهذا الاسم، لم أسئ له، ولماذا هذا الموقف الغريب. . حقيقة إن صوته وكلماته جافة خشنة، ولكنه على أي حال طبيب، وقد كنت حتى هذه اللحظة أعتقد أن أحدا لا يمكن أن يمارس تلك المهنة العظيمة دون أن يكون إنسانا أولا وأخيرا.

كما أنه ليس الطبيب المعالج، فأنا في عنبر الدكتور عصام ولست في عنبره، والدكتور عصام أستاذ مساعد وهو مدرس. إنه لم يكلف نفسه بالكشف على. . ومع ذلك يكتب بخروجي من المستشفى. . وبصري الذي يذهب!! وعيني التي دخلت مرحلة الخطر كما أجمع كل الأطباء الذين كشفوا على!! ماذا يعني هذا؟ ماذا يهدف بالضبط الدكتور أمين زايد؟

وعدت أحاول معه. وأكلم فيه الطبيب.

- يا دكتور. . معنى ذلك أن أعود إلى الواحات. ويضيع بصري، فلننتظر الدكتور عصام. . يا دكتور.

ولكن أمين زايد فر هاربا من الغرفة ومن العنبر كله دون أن يكلف نفسه بالنظر وراءه وهو يعطي أوامره للممرضة بأن تبلغ الإدارة فورا بتأشيرته، ووقفت في الغرفة ومعي الممرضة منكسة الرأس والشاويش عبدالسلام وزميله وقد انعكس الموقف على وجهيهما.

وقال الشاويش عبدالسلام:

- داه دكتور بيطري ده. . مش بني آدم.

وتهت لفترة واجتاحني شعور بالحيرة الشديدة مع إحساس زاحف بالضياع، ولكن سرعان ما استعدت نفسي وقررت أن أقاتل دفاعا عن عيني.

عرفت من الممرضة أن الدكتور عصام توفيق كان موجودا في الصباح وأنه أعطى أوامره بإعدادي للعملية غدا. وطلبت الدكتور «عصام» في البيت وفي العيادة بعد أن أعطتني الممرضة أرقام تليفوناته ولم أجده، وجاء الدكتور أحمد النائب الشاب وسمع الحكاية وأعلن اعتراضه واحتجاجه على تصرف الدكتور أمين، وأكد لي أنني أصبحت تحت مسئولية الدكتور عصام، وأن أحدا آخر لا يملك إخراجي، كما أكد لي أن حالة عيني خطرة فعلا.

وأحسست بالراحة وبشيء من التعويض وأنا أرى أحمد الطبيب الشاب يقف إلى جانبى بحسم فيتصل بمدير المستشفى ثم حاول الاتصال بالدكتور عصام .

أحمد نموذج آخر لا أعرفه ولم أره سوى مرتين حينما كان يمر فى العنبر خلف الدكتور عصام ويستمع إلى توجيهاته وملاحظاته عن الحالات ، كنت أراقبه وهو يضرب التليفون بعصبية بعد أن ينهى حديثه مع أحد المسئولين فى المستشفى ، ثم يقول فى مرارة :

ـ مش ممكن . . دا كلام فاضى . . !! .

وأخيرا عثرنا على الدكتور عصام فى منزله ، وحكى أحمد ما حدث بنفس الطريقة التى كان يمكن أن أحكيها ، وناولنى السماعة لأسمع صوت الدكتور عصام وهو يقول بعصبية :

ـ إزاى دا حصل . . مش ممكن . . دا كلام فاضى .

ووعد بأنه سيتدخل ، وطمأننى الرجل على قدر ما يستطيع ، وإن كنت قد أحسست من صوته أنه فى وضع ليس أفضل من وضعى كثيرا .

أما أختى فقد وقفت المسكينة ترقب الجهود التى أبذلها ويبذلها معى الدكتور أحمد وهى الأخرى تكرر فى هلع :

مش ممكن . . دا كلام فاضى .

ساعتان تزيدان قليلا ضاعا فى غمرة معركة الإنقاذ التى كنا نمارسها كان كل المسئولين فى المستشفى يبدون استنكارهم فى البداية ، ولكن هذا الاستنكار كان يتحول إلى صمت أو تعليقات مبهمة حينما يسمعون اسم أمين زايد ، ولكن الذى لم يكن ممكنا من وجهة نظر أختى والدكتور أحمد والدكتور عصام أصبح ممكنا .

وحدث الكلام الفاضى ، وفى حوالى الرابعة وصلت فرقة الترحيلة «ضابط وثلاثة عساكر» ومعهم الأوامر بترحيلى إلى سجن الواحات . . ووقفت أختى والدكتور أحمد والممرضة والشاويش عبدالسلام وزميله يرقبون الموقف فى صمت مثير وأنا ألملم حاجاتى واعتصر كل طاقاتى حتى لا أضعف أمامهم وحينما وضع الضابط القيد الحديدى فى يدى صرخت أختى ودخلت فى نفس الحالة التى مرت بها ليلة الاعتقال . . مسكينة لقد رأت المسيح يصلب مرتين . . أما الطبيب الشاب الذى وقف بجانبى حتى آخر لحظة كان هو الوحيد الذى لم يبلع استنكاره ولم يمضغ الكلمات المبهمة حينما يسمى اسم أمين زايد . . والتفتت عيوننا ، كان وجهه يموج بانفعالات

متداخلة بمزيج من السخط والضيق واليأس والتمرد . . كان فيما يبدو يمر بالصدمة الأولى . . وبإحساس بأنه فى حاجة ربما أكثر منى لمن يسانده ، أمسكت بيده بقوة وقلت وأنا أحاول الابتسام .

معلهش بسيطة . . بكرة هرجع تانى .

ولم أكد انتهى من حكايتى التى سمعها أكثر من مائة زميل التفوا حولى حتى سمعنا صرخة ملتاعة :

- انهضوا . . داود عزيز . . مات . . بيموت . . عنده ذبحة .

وهرول الكثيرون من الزملاء ، وقام الأطباء بمحاولتهم المستميتة لكى يظل النبض الخافت لواحد من أكبر الفنانين التشكيليين فى بلدنا .

ولم أعد أحتمل الموقف كله ، وتركت الزملاء وداود والأطباء يتشبثون بالحياة ويحاولون قهر الذبحة التى أسقطت الزميل وخرجت إلى السور . كنت فى أمس الحاجة لكى أجلس مع نفسى . . وحيدا ، وحالة من حالات الضعف واليأس تجتاحنى وأخذت أردد أغنية أحيانا ما كان يهمس بها محسن الخياط وكثيرا ما كنت ألومه لترديدها .

مدى إيدك ليه . . فى المنفى البعيد

مدى إيدك ليه . . من بين الحديد

وافرديها

واحضنى بنورك جروحى

قبل ما تميل بروحى للغروب

قبل ما تدوب الأمانى

وتشوفيها

لحن تايه

لحن أنغامه فى دموعى

ووجدت صوتى يختنق والدموع تتساقط ويجد بعضها طريقه إلى شفتى ثم انفجرت فى بكاء عميق .

[٢٢]

آه لو تنكشف الغـمة عن عـينى كى أبصر أبـعاد
الطريق.
ما عسـى أن تبصر العينان فى ليل بهـيم طمست
فيه النجوم.
ما عسى أن يبصر المحزون من خلف الدموع

الحسين ثائرا- عبد الرحمن الشرقاوى

يونيو ١٩٦٢

مرة أخرى فى قصر العينى .

البوكس يعبر بنا البوابة . وعند الاستقبال يتوقف . . ويبدأ الموكب التقليدى الضابط فى المقدمة وأنا خلفه أحمل أمتعتى وعلى اليمين واليسار حارسان يحملان التومى جن كنت قد وصلت إلى القاهرة يوم الخميس بعد ثلاثة أسابيع قضيتها فى الواحات .

وفيما عدا اليوم الأول لوصولى للواحات والذى كان يوما مريرا وحزينا حقا ، فإننى وبمساعدة الزملاء سرعان ما استعدت معنوياتى ، بل وعدت أمارس مهمتى كرئيس تحرير لمجلة الطريق واستكمل مشروع مسرحية كنت قد خططتها .

كنت قد أدركت أبعاد اللعبة التى مورست معى ، واشترك فيها الضابط المهذب والدكتور أمين زايد . . لقد كان المطلوب تأديبى وترويضى . . ولهذا اندفعت فى مقالاتى فى المجلة نحو مزيد من فضح أساليب التصفية ، ولكى أرد برسالة واضحة لمن رسموا اللعبة بأنى لست ممن يروضون . . وفيما عدا بعض آلام العين وحالات الصداع الشديد أحيانا فلقد حاولت أن أنسى الموضوع كله . . ولكن الزملاء لم

يستطيعوا أن ينسوا، فبعد ترحيل داود عزيز للعلاج بعد وقف تدهور حالته واصل المسئولون الاتصال بالإدارة بالضغط من أجل سفرى للعلاج وبالتهديد باتخاذ إجراءات تحمل الإدارة المسئولية، كما قام الأطباء المعتقلون بكتابة تقرير بحالتى وخطورتها وأرسلوه إلى كل الجهات المعنية بما فيها نقابة الأطباء وانضم لهم طبيب السجن الذى أراد أن يتخلى من مسئوليته . . وأثمرت المجهودات وبعد عشرين يوما جاء الأمر بالترحيل إلى القاهرة . . ولكن أمرا غريبا حدث لدى وصولنا إلى محطة مصر فبدلا من الذهاب إلى قصر العينى مباشرة، ذهبوا بى إلى مستشفى سجن مصر حيث قضيت الخميس والجمعة والسبت . . وفى صباح الأحد كنت فى الطريق إلى استقبال العيون فى قصر العينى . . جلست على الأريكة بين الحارسين بينما ذهب الضابط بالأوراق فترة عاد ليصحبنى إلى الطبيب الذى سيكشف على .

ودخلت الغرفة . . ورأيته .

أمين زايد، يرتدى البالطو الأبيض هذه المرة . . ولم يتحرك .

لم يفاجأ، كان يعرف فيما يبدو، بل ولم ينظر إلى وقال موجها حديثه للضابط :

- حالته ميئوس منها .

وسأل الضابط فى سذاجة الذى اشترك فى لعبة لا يعرفها :

- سيادتك مكشفتش عليه . . أنت عارف الحالة قبل كده .

- عارف يا سيدى . . بسلامته كان هنا من ثلاثة أسابيع ومش عاجبه التشخيص .

وتدخلت بعد أن أفقت من صدمة المفاجأة وسيطرت على أعصابى جيدا .

- يا دكتور أمين أنا صحفى لا أفهم فى الطب . . سيادتك بتقول دلوقتى إن حالتى ميئوس منها ومن ثلاثة أسابيع قلت إن عينى سليمة . . يعنى إيه . . مش فاهم .

ورد فى برود غريب :

- ولا عمرك حتفهم .

ويبدو أنهم قد حذروه هذه المرة من الانفعال بعد أن كشف نفسه فى المرة الأولى . . وصحت بعد أن كدت أفقد أعصابى وفهمت السبب الذى ركنونى من أجله فى مستشفى سجن مصر الأيام الثلاثة الماضية .

- عاوزنى أفهم إيه . . أنا لحد دلوقتى أعاملك كطبيب مش ضابط مباحث .

ويبدو أننى قد نلت منه فى مقتل فصرخ

- ولد . . بلاش قلة أدب

وكنت على استعداد للذهاب إلى آخر مدى فماذا بعد العين ولوحت بيدى فى وجهه .

- أنا مش ولد واحترم نفسك ومهنتك . . واللى بتقوله ده مش بس قلة أدب دا إجرام . . عملت فيك إيه!

ويبدو أن انفعالى كان يزداد ويطرد وأنا اقترب منه فالتفت بسرعة وجعل الضابط بينى وبينه ، بينما أخذ الضابط يهدئنى برقةوقد أدرك الموقف وقادنى إلى كرسى وهو يربت على كتفى

- اهدأ يا أستاذ . . هنشوف حل ، اهدأ . . امسك أعصابك . . ثم التفت إلى أمين زايد

- والحل يا دكتور . .

- عينه اليسرى وصلت إلى حالة ميئوس منها ، لابد من استئصالها .

- استئصالها . . مش ممكن . . أنت جزار .

هذا الوحش الكريه .

منذ ثلاثة أسابيع كان يصرخ فى وجهى ليقول إن عينى سليمة واليوم يريد استئصال عينى لأنها وصلت إلى حالة ميئوس منها . . وقبل أن أنفجر بشحنة أخرى من الغضب أسرع الضابط يقول وهو يضغط على يدى

- استئصال استئصال . . المهم اكتب له دخول دلوقتى . وعاد الضابط يضغط على يدى وهو يهمس منتهزا فرصة ذهاب أمين زايد إلى المكتب ليؤشر على الأوراق .

- اعقل المهم تدخل القصر . . وبعدين تتصرف .

***

بعد يومين فى عنبر ١٣ فى قصر العينى اكتشفت فيها أن نصيحة الضابط كانت فى محلها ، فقد كنت محتاجا لإجراء بعض الاتصالات . . فأرسلت مجموعة من الخطابات باسم الدكتور عبدالمنعم عبيد المدرس فى قصر العينى والمعتقل بالواحات إلى كثير من أساتذة كلية الطب . . كذلك كلفت أبى بإرسال خطابات تحكى ما يجرى معى على يد الدكتور أمين زايد بإيعاز من المباحث إلى كل المسئولين .

وفى نفس الوقت الذى كنت أنشر فضيحة أمين زايد على الملأ وأسجل سقطته ،

كنت أرفض بالاتفاق مع الممرضة استخدام القطرات والأدوية التى قررها إلى بعد اكتشفت أنها «تقتل العين» . كنت فى البداية أحسب أن اللعبة ستنتهى عند هذا الحد، وأن ما حدث فى المرة الأولى وفى بداية هذه المرة لم يكن سوى محاولة للإنذار، ولكن لم يدر بفكرى أن أمين زايد سيمضى فى اللعبة إلى هذا الحد . . الاستئصال .

والغريب أنه كان جادا متحمسا للغاية . بل كان يأتى كل يوم إلى العنبر ليكشف وليطمئن أن أدويته القاتلة تقوم بمفعولها وفى كل مرة ينظر إلى الممرضة ويسأل .

– متأكدة أنه يأخذ القطرات والمراهم .

وتضطر المسكينة أن تكذب، وشجعها على ذلك الدكتور أحمد نائب عنبر ١٣ والذى كان يحظى باحترام كبير بين الممرضات رغم أنه مازال نائبا شابا . . وقد حرصت بالطبع أن أسألها عن سحر وكان ما لديها من معلومات أنها نقلت إلى عنابر الجراحة وأنها فى إجازة للزواج من ضابط بوليس .

كان أول شيء فعلته هو الاتصال بالدكتور أحمد الذى سهر معى ليلة كاملة، وقد سعدت بهذه السهرة «العنبرية» ليس فقط لأنى رأيت مرة أخرى صديقا شريفا كسبته من خلال معركة قاسية، ولكن الأهم أن أحمد الذى رأيته هذه المرة يختلف عن أحمد الذى رأيته منذ ثلاثة أسابيع . . حقيقة ظل الإنسان الشريف النقى، ولكنه تخلص من كثير من أحاسيس الضعف والعجز والحيرة والشعور بالصدمة، لقد كان كل ما جرى فى المرة الماضية مثلما قال صدمة هامة كان يحتاجها . ولقد عرفت أن الاحتجاج والسخط لا يكفيان لإصلاح الأمور .

واشترك أحمد معى من اليوم فى رسم الخطة وتتلخص فى إظهار الرضوخ لرغبة أمين زايد، وذلك فقط لكسب الوقت إلى أ ن نجح فى كشفه بعد الاتصالات المكثفة التى نقوم بها يوميا مع أساتذة الكلية والنقابة والمسئولين .

وأحسست أن أحمد لا يتحرك وحده بل ومعه مجموعة من النواب والمدرسين والأساتذة . . ويبدو أنهم قاسوا على يد أمين زايد الكثير .

ولكن أمين زايد كان فيما يبدو مسنودا إلى أقصى حد . . ففى اليوم الرابع، وبعد أن كشف على عينى وتأكد بالطبع أننى لم آخذ القطرات والمراهم التى قررها أمر بتغيير الممرضة فورا وطلب ممرضة معينة بالاسم ثم قال لى فى حزم :

– أنا ألعب . . لقد دخلت هنا لكى نستأصل العين اليسرى، وسأجرى العملية غدا . .

ثم أخذ يلقى التعليمات المشددة للممرضة التى طلبها، وقبل أن يخرج قال للحكيمة . .

- لازم يمضى على إقرار بموافقته على الاستئصال اليوم ويرفق بأوراقه .

المسألة دخلت فى الجد ولم يعد هناك فرصة للمناورة وكسب الوقت .

وأسقط فى يدى وفى يد الدكتور أحمد فرغم الجهود المكثفة التى بذلت فإن رد الفعل لهذه الجهود تأخر وتعثر كثيرا .

الدكتور إبراهيم الشربينى، وكان سكرتيرا لنقابة الأطباء فى ذلك الوقت، قال لأبى إن مثل هذه الأمور حساسة ولا يمكن للنقابة أن تتدخل بشكل رسمى . ووعد بمحاولة حل المشكلة وديا .

حسين فهمى، نقيب الصحفيين أبدى انزعاجه واهتمامه الشديد بحالتى، ولكن الظروف، على حسب تعبيره لأخى حيث قابله، لا تترك مجالا واسعا للحركة .

الدكتور عصام توفيق أخذ إجازة لعله يحل صراعا داخليا لابد وأنه كان يعانيه بين الرغبة والاقتناع والعجز وعدم القدرة .

وفى تلك الليلة وجدت نفسى وحيدا أمام قدر يبدو أنه لا مفر منه . . حتى الحرس هذه المرة قد اختيروا بعناية، حاولوا أن يلعبوا دورا فى تضييق الخناق على، فبالإضافة إلى وجوههم المتجهمة ورفضهم أن يتركونى للحظة فإنهم لم يكفوا بين الفترة والأخرى عن إلقاء بعض الكلمات والإيحاءات بأنه ليس هناك من حل سوى «التفاهم وتليين الدماغ» .

كان المرضى فى العنبر قد بدءوا ينامون، بينما جلست مع سامى الطفل الصغير الذى لم يتجاوز السبع سنوات، أحاول أن أنسى فى بعض الحكايات التى أرويها له .

كان سامى هو الآخر سيجرى عملية الاستئصال فى الغد وكنت أحس بتعاطف شديد مع سامى، ليس فقط لأنه على وشك أن يفقد عينا فى الغد وهو فى مثل هذا السن، بل لأن الطفل كان ذكيا لماحا ومن اليوم الأول لوجودى فى العنبر فرض نفسه على وأصبحنا صديقين، لا يترك غرفتى إلا حينما يأتى والداه لزيارته، بل كثيرا ما كان يصحبهما ويأتى إلى الغرفة ويحكى لهما بطريقته الخاصة عن حكايتى .

ونام سامى بعد أن نهرته الممرضة، وأخذت أتجول فى العنبر بين صفين من الأسرة يخرج من كل منهما صوت خاص يتراوح بين شخير مزعج وأنفاس مسموعة . .

حتى النيل والقاهرة الساهرة وأضوائها المنعكسة عجزت كلها من أن تشفى ذلك الأخطبوط الذى عشش فى رأسى وجعلها تكاد تنفجر . . كنت وبحركة تلقائية أتحسس عينى لأتأكد من أن شيئا لم يحدث بعد، وأحلم وأنا واقف فى الشرفة فأرى أمين زايد وقد استبدل البالطو الأبيض بثوب أسطورى فضفاض، بينما برزت قرونه وقدحت عيناه بالنار وكشر عن أنيابه وفى يده سيخ محمى يقترب منى ويغرسه فى عينى، وأكتم صرخة كادت تخرج ويسرى الإرهاق فى جسدى ولكنى لا أريد أن أنام ولا أستطيع . . وقد كنت لا أطيق الغرفة حيث يجلس الحارسان يستمعان إلى الراديو وبين حين وآخر يقذفاننى بنظرات باهتة لا تختلف كثيرا عن تلك النظرات التى كنت آراها فى شبح أمين زايد. كان ما يحيرنى ويثير حنقى فى نفس الوقت هو ذلك الإصرار الغريب على الاستئصال. ولقد كنت مستعدا وأعلم مسبقا أننى وقد وقعت فى أيديهم وبعد أكثر من سنوات من الاعتزاز ورفع الرأس فلابد أن يفعلوا شيئا لينفذوا داخلى ولكنى لم أكن أتصور أنهم سيصلون بى إلى طريق مسدود وليس أمامى سوى أن أختار واحدا من الطرق التى يفتحونها أمامى فكل منها معتم مظلم . . إما أن أكتب وأتفاهم . فيكون العلاج . .

وإما أن أرفض السقوط . . فيكون السفر إلى الواحات مع مزيد من فقد الإبصار وضياع فرصة العلاج . . وضياع العين نفسها .

وإما أن أستأصل عينى اليسرى لأكون مثلا وعبرة لمن يرفض الركوع .

اختيارات صعبة وأصعب منها أن تكون وحدك وأنت تختار وليس من رأى يساند فيما عدا الطبيب الشاب ومحاولاته البائسة .

وتمثلت الكثير من الشخصيات التى واجهت مواقف الاختيار الصعب . . عطيل وقد تمزق بين حب عميق لديدمونة وبين غيرة عاتية أثارها ياجو . . وهملت وقد شرد فى ردهات قصر أبيه المقتول يكرر كلماته «أكون أو لا أكون» وهو يتشبث بين أن يحبها ولكنها خائفة وبين أوفيليا المقدسة ولكنها ابنة واحد ممن اشتركوا فى قتل أبيه .

وأوديب بعد أن اكتشف المأزق الخالد بزواجه بأمه .

ولكن كل هؤلاء الأبطال المسرحيين بكل ما كتب عنهم كانوا أسعد حالا فقد قتل عطيل ديدمونة وقتل نفسه وانتهى بذلك الصراع، وقتل هاملت قاتل أبيه ومات بين أحضان أمه المحتضرة، وفقأ أوديب عينيه وهام فى جبال اليونان . . كانت أزمات فردية خاصة، ولكن القرار هنا لم يكن يتعلق بى فقط بل بالمئات الذين تركتهم فى الواحات يعانون ويتألمون ويثقون فى الغد والملايين من أبناء مصر الطيبين البسطاء

الذين تصورت أننى أدافع عنهم وعن حقهم فى أن يكون لهم إرادتهم المستقلة .

وارتميت على السرير عند الفجر وفتح الشاويش عينيه يراقبنى وأنا أتقلب فى قلق .

- هتعمل إيه بكره .

- وصرخت

- استئصال . . لأ . . لأ

عاد يقول فى برود مدرب عليه :

- إذن تكتب لى ورقة أذهب بها فى الصباح إليهم فى لاظوغلى فتحل كل الأمور

وعدت أصرخ بعصبية :

- لأ . . لأ . . لأ . . مش أنا

فأشعل الشاويش سيجارة وأخذ ينفث الدخان إلى أعلى وهو يقول :

- إذن فقد اخترت سكة الندامة .

[٢٣]

قال المدرس: ها أنت ترى أيها الأب المبجل أننا لم نحدث تغييرا . فالمسيح أصبح الشعب.

وقاطعه القسيس. الشعب ليس الله يا مصيبتنا إذا كان الأمر كذلك

قال المدرس: الشعب هو الله يا مصيبتنا إذا كان الأمر غير ذلك.

كازنتزاكس - *الإخوة الأعداء*

أغسطس ١٩٦٢

كان الأمر قد تحول إلى ميلو دراما سخيفة . .

وهذا ما قررت أن أضع له حدا أيا كان الثمن .

وعندما عدت إلى الواحات هذه المرة بعد أن رفضت "الاستئصال" كان لى رجاء واحدا للزملاء . . هو أن ننسى الموضوع كله .

فلقد كنت أخشى أن تتحول عينى إلى قبر معتم يزوره الزملاء تعطفا وشفقة . واحترم الزملاء رغبتى أو على الأقل تظاهروا بذلك . كذلك فلقد حاولت أنا الآخر أن أبدو متماسكا . . على الأقل من الظاهر . . حتى آلام العين والصداع المدمر الذى يلح بين حين وآخر تحملتهما فى صمت . . وحينما كنت أحس ببوادرهما أسارع إلى «البرش» لأتظاهر بالنوم . ولقد كان ذلك يعطينى على الأقل إحساسا بالرضا عن ذاتى وعن قدرتى فى تحمل قدرى بوعى وتجلد دون أن يكون له انعكاس على أقدار الآخرين ، وقد ساعدنى على الاستمرار فى عمليات الهروب التى أمارسها كل يوم أن المعتقل «غرق» مرة أخرى فى مناقشات سياسية لا تخلو من سخونة أحيانا ، وخاصة بعد صدور ميثاق العمل الوطنى فى يوليو والمناقشات التى سبقته . .

كان الميثاق بكل المعايير الموضوعية وثيقة مهمة وخطيرة . . فلأول مرة يقدم تحليل تاريخى علمى لنضال الشعب المصرى طوال القرن الماضى منذ ثورة عرابى حتى ثورة ١٩٥٢ باعتبارهما حلقتين متصلتين من نضال الشعب من أجل الاستقلال والتحرر .

ولأول مرة يجرى الحديث عن الصراع الطبقى وعن ضرورة أن يحل هذا الصراع لصالح الغالبية من الجماهير العاملة ، وعلى رأسها العمال والفلاحون بل ويذكر الدور الطليعى للطبقة العاملة فى إجراء التغيير الاجتماعى .

بل إن الميثاق يتحدث عن الاشتراكية كطريق حتمى للتقدم بل ويذهب إلى مدى أبعد وينص على الاشتراكية العلمية .

أفكار وآراء ليست جديدة علينا بالطبع ، ولكن الجديد أنها صدرت من القيادة التى كانت ومازالت تتحفظ علينا فى السجون والمعتقلات .

وكان السؤال الطبيعى الذى فرض نفسه . . إذا كان ذلك صحيحا فلماذا نبقى فى المعتقلات ، فالميثاق بالمبادئ التى نادى بها هو حتما أقرب إلى تفكيرنا من أى إنسان آخر من هؤلاء الذين كانوا يصفقون له ، وهو يتلى فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة أو هؤلاء الكتاب الذين كانوا أبعد ما يكونون عن تلك المبادئ ثم يتولون مهمة شاقة بالنسبة لهم فى محاولة تفسيره والدفاع عنه . . ولقد كان من المضحك أحيانا أن نقرأ مقالا عن الاشتراكية لكاتب لم يقرأ فى حياته كتابا واحدا عنها أو كان يعدها كبيرة الكبائر التى لا تغتفر ، وكان يثير الاشمئزاز بقدر ما يثير السخرية حين ينبرى أحدهم فى إحدى الصحف ليتكلم عن العمال والفلاحين وحتمية الحل الاشتراكى وهو الذى لم يكن يعرف أن يتكلم سوى عن القصور وخباياها ولم يشغل نفسه يوما بمن كان يسميهم الغوغاء والدهماء ، ونكتشف أنه خواجة يتحدث عن أمور غريبة عنه فيخرج الكلمات مثلما كادت تخرج عن الخواجات الذين يحاولون التحدث بالعربية . . «يخيا العمال والفلاخين» .

وحدث ترحيب جماعى بالطبع بالميثاق . . وإن كادت التفسيرات قد اختلفت وتباينت .

وكان رأى مجلة الهواء أن الميثاق جاء تأكيدا لفكرة أن هناك فى السلطة «مجموعة اشتراكيين» وأن هويتها بدأت تبين بوضوح وأنه لابد من تلاحم صفوف جميع الاشتراكيين والاندماج فى بوتقة واحدة .

وكان رأى مجلة الطريق وكنت أحد رؤساء تحريرها أن الميثاق يعتبر وثيقة وطنية ديمقراطية هامة وأنه يصلح كأساس لجبهة وطنية ديمقراطية بين جميع القوى مع التأكيد بأن استمرار اعتقال «الاشتراكيين» وعدم وجود حركة وتنظيمات سياسية وجماهيرية قوية يمكن أن يفرغا الميثاق من كثير من مضمونه.

والتقيت بعاشور السجين الإخوانى زميل الدراسة وكان عاشور فى السنتين الأخيرتين مع مجموعة من الإخوان قد بدءوا يشكلون تيارا متميزا داخل المسجونين من الإخوان المسلمين يمكن تسميته بالتيار الاشتراكى الإسلامى.. وكان هذا التيار يتفق مع الماركسيين تقريبا فى معظم المنطلقات الوطنية والطبقية فى محاولة لوضع كل ذلك على أرضية إسلامية.. وقد أطلق الإخوان على هذا التيار النامى وصفهم بأنهم «جماعة المؤيدين» وحاولوا عزلهم واتهموهم بأنهم متأثرون بالفكر الشيوعى.. أما بقية الإخوان فلقد ظلوا يعيشون على أمل تحقيق شعار واحد.. الانتقام من عبدالناصر.

كان عاشور متحمسا للغاية للميثاق بل ومنفعلا بدرجة كبيرة، ولكن السؤال الذى كان يحيره هو.. لماذا يبقى الماركسيون والاشتراكيون فى السجون والمعتقلات.

وحاولت أن أشرح له وجهة نظرى من أنه بالرغم من أن الميثاق والإجراءات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة التى سبقته يمثلان حقيقة «نقلة» فكرية تقدمية إلا أن الأمر يتم ببطء بل وتتهدده الأخطار لأنه ليس هناك حركة جماهيرية منظمة ولأن نفس الأجهزة هى التى تشرف «فى التطبيق» على هذا التحول.

ولكن «عاشور» الذى لم يمكن قد تعود بعد على المنهج العلمى كان يرى أن "الأمر غير مفهوم" وكان يحتد فى مناقشته أحيانا وهو يقرأ نصوصا من الميثاق ويقول فى حيرة تامة:

قل لى: كيف يتسنى أن يكون ذلك هو السياسة الرسمية ثم تبقوا فى السجون.. لقد سمعت منك منذ الجامعة نفس التعبيرات والشعارات والأهداف فلماذا تبقى أنت على الأقل داخل الأسوار لكى يمرح أمثال المصيلحى وغيره أو يتحولون بقدرة قادر إلى اشتراكيين..!

وكان أمرا محيرا حقا (تلخبط اللخبطان) على حد تعبير عدلى عزيز وهو زميل مدرس عرف بخفة الدم خرج بنظرية تقول إننا سنقدم فى القريب العاجل إلى المحاكمة باعتبارنا من القوى الرجعية المعادية للتقدم والاشتراكية والديمقراطية.

كنت طوال النهار أغرق مع الآخرين فى هذه المناقشات واللامعقوليات التى تحيط بها.. أما فى الليل وحينما تهدأ الحركة فى المعتقل فقد كنت ألجأ إلى بعض الكتب، وخاصة تلك التى تقدم نماذج للمقاومة أستمد منها عونا كنت أحتاجه لإراحة أزمتى

الخاصة التى لم استطع بالطبع أن أنساها . ومن بين الكثير من هذا النوع من الكتب التى تتحدث عن استشهاد بول إيلور الشاعر الفرنسى العظيم على أيدى القتلة الفاشيست ، وآلام فرتر «ولمن تدق الأجراس» وأشعار ناظم حكمت وبابلو ناردا ولويس أراجون . كان كتاب «تقرير من المقصلة» ليوليوس فوتشيك هو أقرب كتاب إلى قلبى .

بل أستطيع أن أقول إنه تقمصتنى لفترة روح فوتشيك وحفظت الكثير من كلماته الإنسانية القوية التى كانت حقا تلعب دور الإكسير المقوى لمعنوياتى ولقدرتى على هضم وتحمل أزمة عينى .

بل وتعمدت قبل أن أنام أن ألقن وصاياه العشر كما لو كنت أتلو كلمات من كتاب مقدس :

«إننا أناس من معدن خاص صنعنا من مادة خاصة . . إننا نحب الحياة ، ولذلك فإننا لا نتردد فى المخاطرة بحياتنا لكى نشعل ونمهد الطريق نحو حياة حقيقية حرة كاملة مرحة ، إننا لا نتردد مطلقا فى التضحية بمصالحنا الشخصية لكى نفوز بمكان لائق تحت الشمس من أجل إنسان حر سليم مرح لا يتعرض لإرهاب أو استغلال .

إننا نحب الحرية ولذلك فإننا لا نتردد لحظة واحدة فى إخضاع حريتنا من أجل حرية البشرية كلها .

إننا نحب العمل الخلاق نحب النمو البناء ، ولذلك فلن نضن بجهد أو تضحية فى النضال من أجل تحقيق نظام نجد فيه جميع القوى الخلاقة فى البشرية وكل فرد فيها مجالا وتطويرا كاملا . . إننا نحب السلام ولذلك فنحن نكافح» .

كنت فى حاجة ماسة ليوليوس فوتشيك ذلك الشاب الصحفى التشيكى الذى ارتبط بآلام وأحلام شعبه وحينما قاده الجلادون النازيون إلى غرفة الإعدام كان آخر كلماته : «أيها الشعب . . إنى أحبك» .

وسأظل مدينا لروح فوتشيك قبل أى إنسان آخر فى تلك الطاقة التى كان يشعها داخلى لأتحمل مصيرا كان يتراقص أمامى كالشبح الأسود لينذر بالظلام وانطفاء النور وإلى الأبد .

بل لقد كان فوتشيك هو الذى يجعلنى أقول وأنا أتقلب على البرش وسط الزملاء الذين استغرقوا فى النوم «فلتذهب العين إذا كانوا يريدون ذلك ولكن سأظل أحبك . . أيها الشعب» .

كان قد مضى حوالى الشهرين منذ عودتى الأخيرة من قصر العينى وكان الزملاء الأطباء قد رأوا أن الخطر الأساسى يتمثل فى عينى اليسرى التى بدأت أحوالها تتدهور بشكل ملموس أما العين اليمنى فلقد كان الخطر مازال بعيدا . . ولقد عملوا طوال الشهرين على أن أتعاطى بعض الأدوية التى تخفف أو تقلل من الأخطار بقدر الإمكان .

وذات مساء جاء إلى غرفتى الزميل أبوسيف يوسف والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله وفوجئت بهما يعرضان على بعض الصحف والمجلات العربية والأجنبية وفيها موضوعات تحت عنوان «إنقذوا عين الصحفى الشاب. . . » وقد كانت لحظة تعويض لا تقدر. . إذن فلم يكن هناك سكون وصمت طوال الشهرين الماضيين كما كنت أتصور، بل كان هناك عمل عظيم من جانب الزملاء. . وفى صمت وانعكس فى كل تلك النداءات التى امتلأت بها الصحف العربية والأجنبية.

وقال أبوسيف:

– كنا نقدر الظروف، ولم نرد أن نعمق الإحساس بخطورة حالتك، ولكن الوقت الآن يختلف. . إن هناك حملة واسعة من أجل إنقاذ عينيك، ولقد حان الوقت لنتخذ موقفا حاسما.

كم هو جميل أن تضمك روح الجماعة وتثير فى قلبك مشاعر سامية تهبك قدرة شمشون وحاولت أن أقول شيئا فلم أستطع كانت المفاجأة أقوى وأعظم من أى كلمة يمكن أن تقال بعد ذلك، واجتاحنى إحساس بأننا أقوياء فعلا قادرون على الحب والدفاع عن الحياة.

وتذكرت الحملة التى نظمناها فى جريدة المساء منذ سنوات من أجل إنقاذ جميلة بوحريد وكيف نجحنا فى هذه الحملة بأن يذهب أكثر من مليون خطاب إلى الحكومة الفرنسية وإلى همرشلد سكرتير الأمم المتحدة فى ذلك الوقت من أجل إنقاذ المناضلة الجزائرية من حكم الإعدام الذى صدر ضدها وأدركت ساعتها وبشكل علمى إحدى معانى النظرية التى كنت أؤمن بها وهى أن أى دفاع عن حق الإنسان فى الوجود والتحرر فى أى مكان فى العالم هو دفاع ذاتى أيضا.

وحنيما كنت أقرأ برقية لاتحاد الصحفيين العالمى فى براغ وأخرى لاتحاد الشباب العالمى وثالثة من لجنة الكنائس و. . . كلها تطالب بإنقاذ عينى غمرنى إحساس بأنى جزء من جسد كبير يسعى كله إلى لفظ الآفات والجراثيم من داخله.

وأحسست أن كل شىء يمكن أن يهون مقابل لحظة مثل هذه تتجسد فيها كل تلك المعانى الإنسانية. معنى تتجسدفيها وتتوحد قوى الخير الكامنة فى البشرية كلها.

وفى صباح اليوم التالى كانت هناك مفاجأة ثانية.

لقد أضرب أربعة من الزملاء عن الطعام حتى يتم نقلى وعلاجى فى القاهرة. . وقد اختير الأربعة من ذوى الأسماء المعروفة على النطاق المحلى والعربى والعالمى وهم الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله ونبيل الهلالى وعبدالمنعم شتلة وحلمى يس.

وحاولت أن أعترض وأن أؤكد أننى فى حالة جيدة ولست أريد لأحد أن يضار من أجلى، وخاصة أن أمامنا مهام ونضالا أكثر إلحاحا من قضية خاصة مثل عينى.

وصرخ فى وجهى الزميل أبوسيف ربما لأول مرة فى حياته:

– يا أخى هذا ليس دفاعا عنك، وإنما دفاع عن كل الزملاء . . إنك لم تتخلص بعد من الحساسيات البرجوازية الزائفة .

وبقدر ما آلمتنى كلمات أبوسيف بقدر ما أحسست بصدقها وحقيقتها . الحساسيات البرجوازية الزائفة ربما قلتها قبل ذلك عشرات المرات، ولكنى لم أكن أدرك معناها الحقيقى أن تكون فى وضوح تام مع النفس ومع الآخرين وحتى لو كنا أبناء مجتمع منافق كذاب مخادع . . ولا نعرف كيف نزعم لأنفسنا أننا نعرف أفكارا وقيما جديدة؟؟

لقد كنت بالفعل أخسر كل يوم جزءا من قدرتى على المقاومة ولقد كنت فى حاجة ماسة أحيانا لأن أصرخ :

– عينى تذهب . . عينى تذهب .

ولكن النفاق البرجوازى الزائف كان يجعل الأمور تمضى من السطح كما لو كان كل شىء على ما يرام، كم كان صادقا ورائعا هذا الرفيق أبوسيف الذى فجر فى داخلى دملا آخر من دمامل النفاق كان يختبىء فى أعماقى .

وفى اليوم الرابع من الإضراب جاءت الأوامر من القاهرة بترحيلى إلى القاهرة .

وطوال الطريق كانت معى أشعار ناظم حكمت وهذا الدفء الغريب الذى يعكسه وهو يعانى السنوات الطوال داخل السجن . . كنت أقف بجوار نافذة القطار أردد بصوت مسموع على حقول القطن الغارقة فى ضوء القمر .

أيها الأخوة
فى أوربا وآسيا وأمريكا
لست فى السجن . .
بل أنا مستلق على مرج أخضر . .
وفى مساء يوم من الأيام
أرى عيونكم فوق رأسى
تلمع مثل النجوم
تلمع مثل عينى أمى
ويد حبيبتى
أيها الإخوة
إنكم لم تهجرونى . .
وكم أنا سعيد . .
وقد كنت حقا سعيدا فى تلك الليلة .

[٢٤]

وعندما تغلق الزنازين فى سكون الليل ويغلب
النعاس جفون المساجين يتجه قلبى إلى منزل
صغير.

ناظم حكمت

أكتوبر ١٩٦٢

واحد يا ورد . . اثنين يا فل . . ثلاثة يا ياسمين .

ويصرخ شاويش العنبر :

– أنت يا واد يا بتاع زنزانة ١٥ . . اتخمد نام الساعة بقت ١٢ . . ويواصل الصوت بعد مساء الليل على غفر الليل . . شنجي وكنجي وبرنجى .

ويعود شاويش العنبر ليحتج بلهجة أكثر عنفا :

– قلت اتخمد أحسن ما يحصلكش طيب .

ولكن الصوت يستمر :

واحد يا ورد . . اثنين يا فل . . ثلاثة يا ياسمين أربعة يا أجدع ناس معلمين .

– طيب والله يا بن الرفضي لأوريك بكرة . . الصباح رباح .

ويعلو الصوت :

خمسة يا كركية . . وبقيت الدور لومانجية
ستة يا زهرة الشباب والحركة الوطنية
سبعة يا قرانات ولومانجية
ثمانية يا رجالة حي البطلية

نشيد غريب كل ليلة تقريبا من إحدى الزنازين المغلقة كمقدمة للإعلان عن الإفراج عن أحدهم وينتهى عادة .

نعرفكم يا إخوانى أن فلان من أعيان روض الفرج خارج إفراج بكرة . . وعقبال عندنا وعندكم يا حبايب .

وغالبا ما يكون هذا الفلان الذى هو أحد أعيان روض الفرج نشالا محترما أو هجاما أو لص خزائن أو تاجر حشيش .

ولقد كنت كثيرا أحاول أن أهدئ من ثائرة الشاويش السهران فى العنبر حين تقلقه هذه الأصوات وتوقظه من نومه فيحاول أن يتوعد صاحبها بالويل والثبور والتأديب .

وغالبا ما كان الشاويش بعد أن يكون النوم قد طار من عينيه يأتى إلى زنزانتى لنتحدث سويا . . وقد كانت المصالح المشتركة . . فأنا أزوده بالسجائر وبعض ما صرفته من الكنتين بينما يزودنى بالشاى وبعض الخطابات والحواديت عن سجن مصر . . وأراميدان . . أو القصر العالى كما وصفته بهية وهى تنعى ياسين .

كانت هذه أول مرة أبقى فيها لفترة طويلة فى سجن مصر لأستكشف عالما غريبا ومثيرا يختلف تماما عن العالم الذى يحيط به ولا يفصلهما سوى أسوار السجن .

حقيقة أننى تنقلت فى معتقلات كثيرة كما زرت سجن أسيوط ولكن أراميدان الذى يقبع على بضع خطوات من حى القلعة أقدم أحياء القاهرة ، كان استكشافا بالنسبة لى على طول الخط .

إن أشهر سجن فى مصر والذى كان من أول ثمار «التعمير البريطانى» لا يختلف كثيرا فى مبناه عن بقية السجون المصرية التى بنيت هى الأخرى على الطراز البريطانى . . عنبر أو ثلاثة يحتوى كل عنبر على أربعة أدوار ويحتوى كل دور على خمسين زنزانة تطل أبوابها على ممر دائرى . . نفس نظام سجن أسيوط .

ولكن المحتوى هنا يختلف .

فإذا كنت فى أسيوط قد رأيت فلاحى مصر الطيبين الذين دخلوا السجن فيما يمكن أن يسمى بجرائم القيم القديمة مثل الثأر والعار والشرف أو نتيجة للصراعات الطبقية والاجتماعية بين فقراء الفلاحين وكبار الملاك .

فإن سجن مصر ملىء بما يمكن أن يطلق عليهم «حرافيش النشالين والهجامين» بمختلف تخصصاتهم المهنية ، و«العاهرات» . .

والسماسرة والقوادون وتجار المخدرات .

ثم المختلسون والنصابون والمزيفون .

أى أنها تلك الفئات التى تخرج عن إطار أى تصنيف طبقى والتى تحولت ، رغم أنها فى النهاية ضحية ظروف وعلاقات اجتماعية متخلفة إلا أنها قد خربت تماما من الداخل وأصبحت عاجزة عن أن تقدم شيئا نافعا للمجتمع .

ولقد كانت هناك أمور كثيرة لم أكن لأستطيع أن أفهمها دون معونة الشاويش عبدالستار جاويش الليل .

فمثلا هذا النشيد الذى يلقى لدى الإفراج عن أحدهم وماذا يعنى هذا التصنيف

للعنابر، وخاصة عنبر ستة باعتباره زهرة الشباب والحركة الوطنية.
– أصل عنبر ستة «زمان» كانوا يضعون فيه السياسيين والطلبة زى حضرتك. . من أيام صدقى كان عنبر ستة عنبر الثوار.

وجه فى العنبر ده. . الدكتور مندور ووسيم خالد وأنور السادات وعبدالرحمن الخميسى ولطفى الخولى. . وكثير وكثير قوى كلهم بعرفهم وكنت أدردش معاهم زى حضرتك. . ومن يومها المساجين تقول على عنبر ستة الكلام اللى سمعته.
– طيب والكركبة يعنى إيه
– المستجدين. . اللى ينسجنوا لأول مرة. . واللومانجية الفاقدين. . أما القارانات فهم أصحاب المدد الطويلة.

ساعدنى الشاويش عبدالستار على معرفة بعض قاموس اللغة فى سجن مصر.

ولكن «النورس» كان استاذا لى حقا فى فهم واستيعاب عالم سجن مصر.

وكان النورس أحد القارانات يعتمد عليه شاويش العنبر فى أمور كثيرة ابتداء من توزيع الجراية إلى التمام على الزنازين عند إغلاقها فى المساء. . وما كان من الممكن أن يحتل بالطبع هذا المركز الممتاز إلا إذا كان يتحلى بقدرة وسيطرة على الزملاء فى العنبر.

وهذا ما كان يحيرنى فمظهر «النورس» أو أحمد عبدالصبور لم يكن يوحى بأى قدرة أو سيطرة فجسده ضئيل نحيل وعيناه غائرتان كعينى الفأر، بل إنه يتكلم بسرعة ويتهته كثيرا.

وأكتشف بعد فترة أن قدرة النورس تتركز فى أنه يملك «دماغا». . لقد كان ذكيا ولماحا إلى أقصى حد.

كان من الطبيعى أن تتوطد العلاقة بينى وبين النورس ولقدكانت المصلحة مشتركة أيضا.

فالنورس هو قائد العنبر الذى يضم نوعيات ليس هناك من طريق لإقامة علاقات معها من نشالين وقوادين وبورمجية.

ومن ناحية أخرى كان يهم «النورس» أن يتعرف على الأستاذ الغريب فى هذا العنبر والذى يحترمه الشاويش ويسكن فى زنزانة منفردة وتمتلىء زنزانته ببعض منتجات الكانتين من سجاير وخلافه.

كان النورس حال ما يفرغ من مهام القيادة فى العنبر يأتى إلى زنزانتى فأنفحه سيجارة وينجز يدخنها بشبق وهو جالس على باب الزنزانة ثم يبدأ حواديته.
– ولماذا سموك النورس؟ . .

- النورس ده يا بيه طائر بحر . . ذكى سريع . . زيى بالضبط هو يطير فوق البحر ويلمح سمكة وبسرعة ينزل ينقرها ويطلع . . أنا أبقى ماشى فى الشارع ألمح "الزبونة" وبسرعة آخذ الشنطة واختفى . . كان النورس متخصصا فى خطف شنط السيدات، والسيدات الجميلات بشكل خاص .

- ليه بقى؟ . .

- شوف يا بيه . . لازم «زبونتى» تبقى حلوة ومدندشة وباين عليها العز . . لسببين، من ناحية تبقى الخطيفة تستاهل ومن ناحية أخرى انتقم لنفسى

- تنتقم من مين؟

- مرات أبويا . . كانت حلوة ودلوعة وحطت أبى فى جيبها . أنا كنت باتعلم ووصلت لغاية ثانوى وكان فى دماغى حاجات كثيرة وكبيرة زى حضرتك كده . . إنما مرات أبويا . . والدلع والحرمان والفلوس وخيانتها لأبى مع كل واحد فى العمارة . . وأبويا يغفر لها ويضربنى أنا ويحرمنى أنا .

ويسرح «النورس» أحيانا ويكتسى وجهه بسحابات كثيفة منذرة سرعان ما يعود إلى ضحكه وسخريته .

- ما أنا برضه ثائر . . بس على قدى . . مش كده واللا إيه . . كان من الممكن أن يكون فيلسوفا أو كاتبا أو حتى موظفا كبيرا لا أقل من رئيس مجلس إدارة . . !

- ألم تفكر فى التوبة والاستقامة . .

- التوبة . . أنت تقول هذا . . أتوب من ماذا؟ . . من ظلمهم، من جبروتهم، من تعسفهم، من تملكهم لكل شىء . . الفرق بينى وبينك أنك حالم تعيش فى الخيال . . شاعر . . تبنى قصورا فى الهواء، إنما أنا واقعى . . أنتقم لنفسى وبطريقتى .

- ولكن السرقة لا تحل المشكلة حتى بالنسبة لك .

- ومن قال لك إننى أريد أن أحل مشكلة . . إننى ألعب معهم لعبة القط والفأر . . هم بالطبع القطط يحصلون على كل شىء . . ولكنى أشعر بسعادة بالغة حينما أتمكن من حرمانهم من قطعة جبن صغيرة .

- ولكنك فى النهاية فأر . . تقع دائما فى المصيدة . .

- ولو . . ولكنى أحرمهم أحيانا من قطعة جبن . . هذا يكفى فلست على استعداد لتكوين اتحاد عام للفئران .

وننهى بالطبع مناقشتنا إلى لا شىء . . فهو مقتنع بأنه يعيش فى غابة من الوحوش والحشرات ، وهو مقتنع بأنه حشرة وليس وحشا ، وبالتالى فهو قانع بالفتات الذى يسرقه .

ومع ذلك فلم يكف النورس عن ممارسة عادة سيئة على حد تعبيره وهى قراءة الكتب، ولقد اكتشفت أنه قرأ لكتاب مصريين وأجانب كثيرين وأنه أتى على كل كتاب فى مكتبة السجن.

وحينما سألته إذا كان قد قرأ كتب أرسين لوبين وشرلوك هولمز نظر إلى فى عتاب

– لقد قرأت لهمنجواى وطه حسين وشكسبير وتشيكوف. حقيقة أنا فأر.. ولكن فأر مثقف.. آكل الجبن والكتب الدسمة.. وذات يوم كنت قد ذهبت إلى الحمام وتركت الزنزانة مفتوحة، وحينما عدت اكتشفت اختفاء بعض علب السجاير والسلمون وكوزين حلاوة كنت قد اشتريتهما من كانتين السجن.

وأبلغت النورس بالحادثة وأبدى استغرابا وانزعاجا شديدين وخاصة وقد لمح فى نبرات صوتى رنة اتهام له ولم يعلق ولم ينطق بكلمة واحدة وانسحب فى هدوء مثير.

وقبل التمام ولدى عودتى من دورة المياه اكتشفت ان المسروقات قد عادت وليس هذا فقط بل وكميات أكثر من تلك التى اختفت.

وعبثا حاولت أن أعثر على النورس فى ذلك اليوم بل اختفى تماما لعدة أيام عرفت أنه طلب خلالها أن يذهب للعمل فى المكتبة. وحينما التقيت به بعد أسبوع وبعد إلحاح من جانبى على الشاويش عبدالستار لمحت على وجهه انفعالات غريبة ومحاولة من جانبه بألا ألتقى بعينيه اللتين امتلأتا بالدموع.

– لماذا قاطعتنى كل تلك الفترة؟..

– لم أقاطعك، ولكنى كنت حزينا للغاية حينما أحسست بأنك تتهمنى.. حتى أنت تعاملنى كفأر.. وطيبت خاطرة وأقسمت له أننى لم أكن أعنيه هو..

وحكى لى كيف أنه بعد أن تركنى مر على كل زنزانة وأخذ يلعن النزلاء لهذه الجريمة الشنعاء..

– من الذى سرق الأستاذ يا أولاد الـ.. ألا تعرفون أنه فى السجن هنا من أجل الغلابة.. لازم قبل التمام تروح له كل الحاجات.. ولازم أعرف من الذى عمل العملة السودة دى..

والذى حدث أنهم جمعوا فيما بينهم تلك الحاجيات وأرسلوها إلى الزنزانة فى محاولة لاسترضائى.

– ألم تعرف من الذى فعلها؟

– عرفته.. وقد ندم بشدة وهو يريد أن يأتى ويعتذر لك..

كانت الأمور تجرى من السطح وطوال ذلك الشهر الذى قضيته فى سجن مصر فى علاقات وحكايات مع النورس والشاويش عبدالستار، ولكن ذلك لم يكن سوى الصورة من السطح..

فمنذ رحلت إلى القاهرة بعد إضراب الزملاء الأربعة فى الواحات جاءوا بى إلى سجن مصر وبعد أربعة أيام وبالتحديد فى يوم الأحد، ذهبوا بى إلى قصر العينى لأعرض مرة أخرى على . . أمين زايد . . ورفضت بالطبع أن أعرض عليه فلم أكن فى حاجة إلى معرفة رأيه . . وطالبت بأن أعرض على الدكتور عصام توفيق أو أى طبيب آخر . .

والحقيقة أننى فقدت أعصابى تماما فى ذلك اليوم فلم أكن أتصور بعد كل ما حدث بينى وبين أمين زايد وبعد تلك الضجة التى أثيرت وشهرين قضيتهما فى الواحات أفقد كل يوم جزءا من بصرى نتيجة موقف هذا الطبيب أن أركن فى السجن لكى أعرض فى نفس اليوم الذى يكون فيه مسئولا عن استقبال العيون.

وأخذت وأنا فى حالة هياج شديد أوزع الانفعالات والشتائم دون معايير أو ضبط . .

وعدت إلى سجن مصر بعد أن أشر الضابط المرافق والذى كان مختارا بعناية، بأننى رفضت العلاج!!

أكثر من شهر ونصف مضيا على فى تلك الزنزانة فى دور ستة فى سجن مصر أحتج وأكتب المذكرات وأقابل المسئولين فى السجن ابتداء من مدير السجن حتى الضابط وطبيب مستشفى السجن ولا أجد ردا محددا سوى تعاطف مع حالتى مع عجز عن أى تصرف، وحينما التقيت بمدير السجن وقد كان حقيقة إنسانا طيبا، وهددت بأنه يتحمل مسئولية تدهور حالتى وبقائى فى السجن دون علاج قال الرجل فى لحظة صدق هادئة.

– اسمع يا بنى . . أنا عندى ولد زيك طالب فى الجامعة ومريض . . ومقدر حالتك تماما وأود أن أفعل شيئا ولكنك تعرف أنك «وديعة» عندنا فقط . . المسئولة عنك هى المباحث العامة ولست أنا . . وعلى أى حال فلقد تحدثت معهم مرارا بشأنك وسيأتى أحدهم لمقابلتك غدا ولم يأت المسئول المباحثى فى الغد ولكنه جاء بعد يومين . . كان نفس الضابط المهذب الذى التقيت به فى قصر العينى وفى غرفة وكيل السجن كان الصراع.

جاء مهاجما هذه المرة ومتخليا عن كل الشكليات التى كان يحرص عليها.

– ماذا تريدنا أن نفعل . . جئنا بك للعلاج ثلاث مرات وأنت الذى ترفض؟! . .

– إننى لم أرفض العلاج وأنت تعرف هذا جيدا . . ولكنى أرفض أمين زايد . . وما دخلنا نحن . . إنه مدرس فى القصر ويمارس عمله كطبيب؟

– هناك عشرات غيره . . هناك عصام توفيق وأساتذة آخرون لماذا رفضتم تشخيص عصام توفيق ولماذا تصرون على عرضى كل مرة على أمين زايد . . ليه . . ليه . . ؟

ودار الحوار هكذا فى طريق مسدود وهو يحتد أحيانا، ولكن بحساب وأنا أحتد دائما وبدون حساب، ووكيل السجن يتدخل بين الحين والآخر لتلطيف الجو . .

منطقه أن مسئوليتهم تتحدد فقط فى عرضى على الإخصائى وأنهم قد أخلوا مسئوليتهم بترحيلى ثلاث مرات إلى قصر العينى . .

قلت : إذن فهناك إصرار من جانبكم على أن أفقد بصرى، ليكن . . فلماذا تضعوننى هنا فى سجن مصر؟ . .

– هنا أفضل بعيدا عن الصحراء والشمس والرمال . .

– هذا ليس مكانا للمعتقلين فإما أن أعالج فى أحد المستشفيات أو أرحل إلى الواحات . .

– ترحل للواحات لتثير زملاءك مرة أخرى . . بصراحة نحن لا نريد صداعا؟

– ولكن سجن مصر ليس مكانا للعلاج؟ . .

– على أى حال فهذا أفضل بالنسبة لنا من أى مكان آخر حتى نصل إلى قرار فى أمرك . .

– حضرة الضابط، الأمر لا يحتاج إلى قرار ودراسة ومماطلة . . كل شىء واضح، إما أن أرسل للعلاج فى أحد مستشفيات الجامعة أو أعود إلى الواحات .

– يا أخى . . لماذا تعقدها هكذا . . يمكن قعادك هنا خير . . الطريق لبيتك أقصر . .

قال هذه الكلمات وهو يعود إلى طريقته المهذبة القديمة .

ورفضت أن أن ألتقط الطعم الذى رماه وعدت أطالب إما بالعلاج وإما بالعودة إلى الواحات . . ؟

ولكنه عاد يتحدث عن الإفراج وعن دراسة حالتى والمشاكل التى أسببها لهم وبأنهم يريدون أن يرتاحوا منها . .

ثم قال وهو يغادر الغرفة :

– مالك كده مش زى عوايدك، خلى نفسك طويل البال دانت راجل رئيس تحرير . . يمكن يا سيدى تطلع من هنا على بيتكم . . المسألة سهلة زى ما أنت عارف . .

وترك الغرفة بسرعة حتى قبل أن أفكر فى الرد عليه . . وتأكد لى، ولأول مرة، أننى وقعت فى فخ حقيقى . . بعيدا عن العلاج، بعيدا عن الزملاء وروح الجماعة . . فى زنزانة مظلمة معتمة وسط أناس لا يمكن أن تعايشهم . . والعين تضيع فى كل لحظة . . والطريق إلى بيتك قصير . .

كان فخا محكما . .

[٢٥]

دع المصباح يشتعل لأرى وجهك والزهور
تنتظم لتتوج جبهتك قبل أن أذهب، دعنى أردد
نغمتى الأخيرة لأتم موسيقاه.

طاغور

نوفمبر ١٩٦٢

ليست المشكلة فى أن تعانى طالما تعرف لماذا، وتظل فى النهاية قادرا على أن تحسم المعاناة والألم بقرار داخلى حاسم يغمرك بسلام نفسى عميق.

ولكنها تصبح مشكلة حقا حين تعجز عن تحقيق هذا السلام الداخلى، فتهتز الصورة أمامك ويتوه خيط التفكير فى الرأس وتحاصرك أزمة المعاناة فى حلبة ضيقة فلا تعرف أين تتجه خطواتك وهل هى فى الطريق الصحيح أم لا؟ . . وهنا يمكن أن يحدث أى شىء.

ولقد كنت طوال الأشهر الماضية، أى منذ بدأت معركة عينى، قادرا على أن اتخذ القرار الداخلى الحاسم.

ولكن الأمر فى زنزانة ٣٠ فى دور ستة سجن مصر لم يكن يشجع على الإطلاق للاستمرار فى هذه القدرة. . والغريب أنى كنت أعى ذلك تماما.

ستون يوما مضت منذ جئت إلى هذا السجن قابعا فى تلك الزنزانة التى لا تزيد عن ثلاثة أمتار طولا وعرضا وفتحتها المقبضة إلى أعلى. بعيدا عن العلاج بعيدا عن الزملاء بعيدا عن أى رفقة من أى نوع سوى نماذج مستهلكة مخربة فقدت إحساسها بآدميتها، وتعودت أن تعيش مثلما تعيش الجرزان تقاتل من أجل قطعة جبن وتلوذ إلى جحورها هاربة مذعورة لدى صفارة الشاويش.

حتى «النورس» بما فيه من بعض بقايا إنسانية رحل من سجن مصر إلى طرة بعد أن صدر ضده حكم بالأشغال الشاقه المؤقتة.

وأخذت أمضغ الوحدة وألوكها بمرارة ، وكل يوم يمر أحس بأن بعض قطرات الأمل والثقة تتبخر من داخلي ويزداد إحساسي بالكآبة .

وبدأت أعزف عن التسلية الوحيدة التي كنت أهرب فيها بعض الساعات وهي القراءة بعد أن استنزفت تقريبا كل ما يمكن أن أقرأه في مكتبة السجن ، وبدأت الأيام تمر دون أن أتبادل كلمة مع إنسان حتى شاويش العنبر الجديد كان مملا إلى الدرجة التي لا تغري بضياع دقيقة واحدة معه . . بل وبدأت أفقد الإحساس بالفرق بين الليل والنهار أو بين الاستيقاظ والنوم ، وكثيرا ما كنت أستلقي على السرير الحديدي وعيناي مفتوحتان وهمهمات السجن في أذني ، ورأسي تدور في أماكن أخرى تماما ، أحيانا في الواحات بين الزملاء وأحيانا في قصر العيني وكثيرا ما أنسى الحاضر كله واستسلم لشريط باهت من ذكريات ما قبل الاعتقال . . وفي بعض الأحيان أقف وسط الزنزانة وألقي خطبة طويلة بصوت مسموع أو أقوم بتمثيل بعض المشاهد المسرحية أو أؤلف لنفسي دورا خاصا أمثل به على نفسي . .

وتحولت الدقائق إلى ساعات والساعات إلى أيام حتى القلم لم يعد يجدي ، وفقد سحره وعجزت لأول مرة على أن أكتب جملة مفيدة . . حاولت ولليلة طويلة أن أكتب شيئا ولكن القلم لا يكتب والعقل شارد غير قادر حتى أن يحلق في أجواء الزنزانة ، وكانت حصيلة ليلة كاملة عدة سطور لا يمكن أ تكون فيما بينها جملة مفيدة .

أما لعبة السيجة التي استطاعت أن تشغلني ليلة أو ليلتين وأنا أقوم بدور اللاعب والطرف الآخر معا فسرعان ما سئمتها وألقيت بالكرات التي شكلتها من لبابة العيش في جردل البول . . وبدأت أخاف على نفسي . . نعم بدأت أخاف .

وأخذت أتذكر هؤلاء الزملاءالذين كنت أشفق بهم وأحرص على مساندتهم ، حينما كانوا يترددون إلى جانب السور يعيشون مع أزماتهم الخاصة في وحدة وصمت . . وتذكرت ذلك الزميل الذي كنت أواسيه وأشجعه على تحمل مأساته وهو يقول لي بصوت مختلج :

– يدك في الماء البارد . . فأنت لا تعرف .

ولكن يدي يا زميلي هي الآن في الزيت المغلي وبدأت أعرف الخوف والقلق المدمر . . وحينما كنت أقضي الليل كله أقطع الأمتار الثلاثة ذهابا وإيابا ويدي خلف ظهري كانت رأسي تموج بتيارات شتى .

رزق مكاوي وهو يجوب عنبر الواحات يتساءل . . أخرج أو لا أخرج .

والضابط الشاب وهو يقول في آخر لقاء . . أنت قربت الآن من منزلك والمسألة بسيطة كما تعرف .

وأبى يقول لى فى آخر مرة فى قصر العينى :

– يا بنى . . انقذ عينيك وشبابك وما فى القلب فى القلب . . وأفعل ما أمر به رسول الله بلالا الحبشى حينما كانوا يعذبونه فى بطاح مكة . . والدكتور عبدالمنعم عبيد يقول لى فى الواحات قبل السفر الأخير .

– لابد من إجراء العملية وبسرعة ، لا ترجع هذه المرة دون علاج . . وأبو سيف يوسف يقول فى صوته الهامس .

قلوبنا معك . . إنها ليست قضية عينيك وحدك . إنها قضيتنا جميعا .

ومحسن الخياط يغنى على البرش بجوارى :

عشان إنسان
أحب وأثور وأتألم
واغنيله . .
وفجرى لو يطول ليله
أناديله
واولع له قناديله
مادام عندى أمل بكرة . . أشوف الفجر
بكرة الفجر هينور

ولكن أكثر من فجر يمر يا محسن وقلبى حزين ودائرة الكآبة تضيق الحناق على القلب . . متى يأتى هذا الفجر بدون أسوار وحراس ، متى يأتى هذا الفجر الحر ، متى . . . كنت قد كففت عن الاحتجاج بعد أن أدركت متأخرا أنهم كلما كان يبلغهم ضيقى بسجن مصر واضطراب أعصابى كلما كان ذلك يفتح شهيتهم للاستمرار فى اللعبة .

ولكن بالرغم من كل مظاهر التماسك الخارجى التى كنت أخرص عليها ، وخاصة أمام المسئولين فى السجن إلا أن أعصابى بدأت تخوننى وبوضوح فى مرات كثيرة . . ففى إحدى الليالى أخذت أدق بعنف متواصل على باب الزنزانة . . وفى يوم آخر ألقيت بالأكل فى وجه الحارس المساعد للعنبر ، وفى يوم آخر رفضت بإصرار إغلاق الزنزانة عند التمام واضطر الشاويش أن يستنجد بوكيل السجن .

كانت كلها انفعالات تلقائية وغير مجدية ولكنها تعبر فى النهاية عن العجز والإحباط وعدم القدرة على التصرف والتحكم .

ولقدكان يعقب كل هذا استدعاء من جانب وكيل السجن الذى كان فيما يبدو موصى على لكى يعيد على مسامعى استعداده لبذل مساعيه الحميدة لدى المباحث

بشرط . . أن أكون مستعدا للتفاهم . . أي تفاهم يا حضرة الضابط ! ! . . أن أعيش خرقة بالية ! أن أشرخ كياني كله لأعيش بعد ذلك فاقد الثقة بالنفس وبالحياة وبكل شيء . . أن أتحول إلى «أغا» جديد فاقد الطعم واللون والرائحة ، والعمى . . أليس هو الآخر بديلا مزعجا . . أن تحتفظ بلونك الداخلي وتفقد القدرة على تمييز الألوان الخارجية . . أن تعيش في ليل دائم في سجن أبدى من الظلمة والظلام . . وأصبحت الواحات أملا لي في صحراء سجن مصر . . ابتسامة الرفاق ودفء الآمال في الصدور رئة المستقبل التي مازالت تتردد في كلماتهم . .

الإنسانية المتفجرة في القلوب ، كم أنا محتاج لكم ، كم أنا في أشد الاحتياج لكم . . لماذا لا تمدون أيديكم الطويلة لتخطفوني . . إني أختنق ، أتعذب ، كأني خائر . . إنني أضعف وأصبحت أخاف على نفسي . . عيني تذهب ، صبري ينفد ، والأمل الكريه لأول مرة يتراقص على وجه ضابط المباحث وإيحاءاته .

لو كانت القضية مجرد إيمان بفكرة لهان الأمر فلن تخسر الفكرة كثيرا إذا فقدت واحدا ، ولكن القضية أنا . . . إنسانيتي ، إحساسي بذاتي . . كيف أشرخ نفسي بنفسي . . كيف يمكن أن أعيش محني الرأس يلازمني إحساسي بالعجز والضعف أمضي على رصيف الشارع وأخاف الظل . . لا أستطيع .

بالله عليكن يا بنات أورشليم هل رأيتن فتى كان جبينه الأسمر ينضح بالحب والحياة . . لا تتركنه يتوه منكن في شعاب الحيرة والتردد واليأس . . وماذا يفيد الإنسان إذا كسب نفسه وخسر العالم ، وماذا يفيد الإنسان إذا كسب عينيه وخسر حريته ، وماذا يفيد الإنسان إذا كسب حريته وخسر عينه . . ماذا يفيد . . وماذا لا يفيد . . ؟

لا أحد يجيب . . ولكن إشارات كثيرة .

الضابط المهذب يشير بأصبعه ليعطيني قلما وورقة ، والزملاء من بعيد يفتحون أذرعتهم ، وأبي الصامت وعيني تذهب والسجن كئيب كئيب . . والجو ثقيل كالرصاص وأنا أصرخ . . أصرخ تعالوا معي . . وقابلت وكيل السجن ، وقلت له إنني أريد أن ألتقي بمسئول من المباحث العامة ، ولم يخف الرجل فرحته فلقد أحس أنه نجح في مهمته . . وبعد ساعة واحدة كان الضابط المهذب في غرفة وكيل السجن وعلى وجهه ابتسامة الانتصار واسعة :

– يبدو أنك قد عقلت أخيرا . .

– . . . .

– أنت تعرف الصيغة . . اعطه ورقة وقلما . .

– . . . .

– لماذا لا تكتب . . المسألة لا تحتاج إلى تفكير . . بعد أقل من أسبوع ستنتقل إلى قصر العينى لتعالج . . وغالبا سيتم الإفراج هناك .

– حضرة الضابط . . أنا لم أطلبك إلى هنا لكى أكتب شيئا . . ولكنى أريد أن أبلغك أننى أطالب بترحيلى فورا إلى معتقل الواحات وأحملك مسئولية أى تأخير .

قلت هذه الكلمات وسكت فلقد أخذت الليل كله أختارها كلمة كلمة لكى لا أبدو منهارا، ولكى لا تشير كلماتى بالإحساس الكامل بالضياع . . ولن أنسى نظرة الضابط الملتهبة الغاضبة وهو يخرج فى عصبية والدهشة التى ارتسمت على وجه وكيل السجن الذى كان يمنى نفسه بترقية والذى استدرك نفسه وخرج مهرولا وراء ضابط المباحث .

وظللت وحدى فى غرفة وكيل السجن أستعيد المنظر وأستعيد من خلاله جزءا من الثقة التى افتقدتها، ولكن ذلك لم يدم طويلا فلقد عاد الوكيل بوجه مكفهر وهو يصرخ حسرة على الترقية .

– إيه اللى أنت عملته ده . . هو شغل عيال . . اتفضل على الزنزانة ويكون فى علمك أنك لن ترحل من هنا إلى أى مكان آخر . . وهناك تعليمات جديدة بشأنك . . الكتب ممنوعة الجرائد ممنوعة . . الفسحة ساعة واحدة والزنزانة مقفولة طوال الوقت . . اتفضل . . اتفضل . . اسحبه يا عسكرى .

وعدت إلى الزنزانة التى أصبحت مغلقة طوال الوقت، ولكن ذلك ليس هو المهم . . فلم أكن لأحفل بقائمة التهديدات والممنوعات التى حفل بها حديث وكيل السجن، فلقد كفت هذه الأشياء الصغيرة من أن تصبح شيئا مغريا لى منذ فترة . الكتب والجرائد والكانتين والفسحة، كلها تحولت إلى أشياء بلا معنى فى ظل إحساس متزايد يستبد بكيانى من أنه لابد وأن يحدث شىء . شىء حقيقى يغير الصورة كلها . . حقيقة لم أعد أحتمل وجودى يوما واحدا فى سجن مصر . . ولكن كل الطرق الأخرى مغلقة .

وتذكرت الحسين بن على بعد أن فقد كل أنصاره وأهله ولم يبق معه سوى حفنة من الأهل غالبيتهم من النساء والأطفال . سدوا عليه كل الطرق، حالوا بينه وبين المياه يروى عطشه . وحالوا بينه وبين العودة إلى مدينة جده وحالوا بينه وبين المضى إلى الكوفة . . وحتى مقابلة الحاكم منعوه إياها .

وكان الرد قاسيا : والله لا نتركك حتى تبايع ليزيد أو نجتز رأسك . . لقد كان الحسين أكثر حظا، كان معه سيف على الأقل . . ولكن أين سيفى . . إن جسدى كله

ينهد وأتكور كجرء كبير فى ركن من الزنزانة . . أليس من حل! . . أدرك، أدرك تماما أننى أصبحت ضعيفا وأننى يمكن أن أنهار . . أبايع بطريقتهم الخاصة . . ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا، كيف أمسك الورقة والقلم . . ماذا أكتب . . مستحيل أريد أن أظل لآخر لحظة إنسانا حقيقيا وليس دمية مستهلكة . . لقد آمنت بعظمة الإنسان بحريته بقدراته وطاقاته . . يا إلهى . . يا كل الآلهة، يا كل رموز الخير . .

أليس من حل .

يا حسين بن على، يا فوتشيك يا ناظم يا كل من دافع عن الإنسان والحياة يا كل من دافع عن قيم الحرية والعدالة .

إننى فى حاجة إليكم . . ماذا أفعل . . ؟

ودوامات عاصفة وتمزق كامل وعجز حتى عن الحركة . . ماذا جرى . . أين إشراقة الأمل التى كنت دائما أتعلق بها أين البحار التى لم أعبرها بعد، أين تلك الأيام الجميلة التى لم أعشها بعد أين تلك الأحلام التى لم أحققها بعد . . أين يا ناظم . . كم أنا فى حاجة إليك . .

موجات سوداء قاتلة والخوف . . الخوف أن تتحول إلى لا إنسان . كل شىء ممكن إلا أن تتحول إلى لا إنسان .

وإذا كان لا مفر .

وتناولت حبة نوفالجين، واسترعى انتباهى وجود كميات كبيرة من النوفالجين واللومنيال فلقد كنت أحرص على أن تتوافر لى أكبر كمية من المسكنات والمنومات فى الفترة الماضية .

ولمعت الفكرة فى العقل المكدود . . أيمكن أن يكون هذا . ولم لا . . ليس هناك من سيف تدافع به عن إنسانيتك سوى . . ولكنه هروب من الحياة . . ولم لا يكون دفاعا عن الحياة . . ولكنه إحساس بالعجز والضعف . . نعم ولكنه أيضا إنهاء للعجز والضعف قبل أن يصل بك إلى حظيرة الحيوانات .

ماذا يقول الزملاء خاف وانهار . . بل سيقولون خاف أن ينهار .

لقد استشهد الحسين، بل إنه قد انتحر فى واقع الأمر حين جرد سيفه وحيدا فى مواجهة جيش بالآلاف وقد رفض أن يبايع

وأعدم فوتشيك وقد رفض أن يبيع إنسانيته . . الأمر لا يختلف . . بل الأمر يختلف . . الموت يمكن أن يكون دفاعا عن الحياة .

ولكن الانتحار هروب . . فى بعض الأحيان يمكن أن يكون شجاعة . . هروب، شجاعة، خوف، ثقة . . كل هذه الكلمات المتناقضة تتداخل . . ولكن لابد من قرار

فى النهاية قبل أن أفقد القدرة تماما على اتخاذ القرار . . إن يوما آخر قد يعقد المشكلة فقد يصل الخوف إلى القلب ولحظتها لا يمكن التحكم .

لابد من قرار .

أكثر من أربع وعشرين ساعة وسط تلك الدوامة الكاسحة وفى الساعة العاشرة من مساء ٢١ نوفمبر أى نفس الليلة والساعة اللتين ولدت فيهما منذ ٢٦ عاما . . استطعت أن أتخذ القرار . .

وأحسست بارتياح من نوع غريب . . ارتياح من استطاع أن يقول كلمة مفيدة فى النهاية حتى ولو كانت تعنى الموت .

وجلست فى هدوء وصفاء ذهنى نادرين أكتب ثلاثة خطابات . . كتبت الأول إلى أبى العزيز . . وكتبت الثانى إلى رفاقى العظام . . وكتبت الثالث إلى حسن المصيلحى . . استعدت مع أبى فى الخطاب ذكريات حلوة معه وقلت له فى النهاية . . لقد كنت دائما تقول : «إن الرجل هو الذكرى» واعتقد أنك لن تفقد ابنا آخر ، فلقد تركت شيئا أعتقد أنك يمكن أن تفخر به .

وكتبت إلى الرفاق أشرح الموقف باختصار وأبرر موقفى وقرارى بأنه ليس هروبا من الحياة بل دفاع عنها .

أما المصيلحى فقد كتبت له عدة أسطر . مازلت أذكرها بالحرف الواحد :

«خابت أمانيك ومخططاتك اللا إنسانية . . ولعلك تدرك الآن من منا يستطيع أن ينتصر . . الإنسان بعقله وقلبه أم الوحش بمخالبه . . فلقد انتصرت عليك حتى بالموت . . » وجلست على السرير ، أدخن آخر سيجارة وأتأمل جدار الزنزانة الداكن وأرى أبى يخلع نظارته بهدوء ويمسح دمعه ونبيل زكى بملابس الواحات يمد يده والمصيلحى يصرخ وأمين زايد يمسك بسيخ محمى بالنار وأختى تضع يدها على خدها فى استسلام . . وتتراقص وتتداخل صورهم بل وأحيانا أصواتهم وكأننى أشاهد أحد أفلام الموضة الجديدة .

أفقت على الترانيم التى تسبق أذان الفجر من المسجد المجاور ، وتناولت أنبوبة النوفالجين وأخذت عشر حبات وأذبتها فى قدر قليل من الماء وشربتها . . وأحسست بغصة فى الحلق فتناولت قدرا آخر من المياه ثم جلست على السرير مرة أخرى أرقب فى انتباه غريب أى تأثيرات سريعة يمكن أن أحس بها ومضت عدة دقائق لم أحس فيها بشىء وبدأت المرحلة الثانية أخذت عشر حبات لومينال تناولتها خمسة خمسة مع كوب من الماء . . ثم ألقيت الكوب فى جردل البول .

إذن فقد انتهى كل شىء ولم يعد هناك فرصة للتراجع . . ومن قال إنى فكرت فى

التراجع . . وحاولت أن أمشى قليلا فى الزنزانة ولكنى بدأت أحس بدوار يلف رأسى تماما مثلما كنت أحس وأنا صغير بعد لعبة "دوخينى يا ليمونة" وزاد الدوار وبدأ السقف يميل ويهتز وكذلك الجدران وأسرعت أرقد على السرير وأغمض عينى . . ولكن الدوار يزداد وعرق بارد غزير بنساب وتهاوت حبات منه إلى شفتى وأحس بطعم غريب . . كانت لدى رغبة جارفة فى أن أظل واعيا مدركا حتى آخر لحظة . . كنت أريد أن أسجل اللحظة الأخيرة .

ولكن رأسى تدور وجسدى يطير فى الهواء ، مازلت أدرك أننى فى الزنزانة . . أين . . لا أعرف . . هذا سرير . . وهذا جردل البول . . كل شىء واضح رغم هالة الغيم . . وماذا . . قل وماذا . . هذه يدى . . وتلك أصابعى . . خمسة . . لا أتكلم . . ما هذا . . ستائر كثيفة الغيم تلف كل شىء . . بحر عميق . . خيالات . . شىء ينقض بقسوة . . أمعائى . . أين رأسى . . تلك الموجة العالية . . إنها تقترب تغمرنى . . عبثا أحاول . . أين . . من . . لا . .

وضاع الزمان والمكان .

[٢٦]

أنا متهم وقضاتي ذئبان الليل أنا لا أملك حتى
صمتي فبعض الصمت يدوى فى أرجاء الأرض
ويعلن موقف صاحبه برضاه المدعن أو
بالرفض

عبد الرحمن الشرقاوى - الحسين ثائرا

٢٢ نوفمبر ١٩٦٢.

لحظات غريبة نادرة هى تلك التى تفتح فيها عينيك ولا تعرف إذا كان ما تراه حقيقة أو خيالا . . إنها لحظات بلا منطق بلا توازن بلا مقياس ، لحظة تبدو فيها طفلا رضيعا يرى ولا يعرف يسمع ولا يدرك ، وتنمو اللحظة فى دقائق يصل فيها الطفل إلى سن التمييز والنضج والإدراك .

وعاد الزمان والمكان . . وبدأت أعى ما حولى .

وظللت اتفرس بنظرات طويلة فى الوجوه المطلة حولى ، أتنقل من وجه لآخر وكأننى أمر على صفحات بيضاء ليس فيها كلمة واحدة ، ثم أتذكر فجأة فأعود إلى الوجه الذى تركته . . هذا طبيب السجن وهذا مدير السجن وهذا ، آه إنه ضابط المباحث . . ولكن هذا الوجه جديد تماما . فلأتذكر لا . . بالتأكيد إنه جديد .

وأترك الوجوه التى تطل على وتنظر فيما بينها وأجول فى المكان حولى . . صفان من الأسرة بعضها مشغول والبعض الآخر خال . . والسقف عال على غير العادة . . ثم إن هناك شبابيك . . نعم شبابيك وليست فتحات . . بالتأكيد إننى لست فى الزنزانة أين أكون . . وماذا حدث . . صمت غريب . . لا أسمع . . ووقر شديد فى الأذن وسمعت صوتا خافتا قادما . . من بعيد .

- لقد انتظم النبض وبدأ يفيق .

والوجوه الملتفة حول السرير تتقارب . . يبدو أن بينهم حديثا . . ولكنى لا أسمع شيئا . . ماذا جرى . . وحاولت أن أقوم وأجلس على السرير ، ولكنى أحسست برأسى ثقيلة كما لو كانت كتلة من الحديد . . حتى يدى التى رفعتها سرعان ما هوت إلى جانبى فى وهن شديد . . وأسرعت أكثر من يد تسندنى واقترب طبيب السجن من أذنى وقال شيئا . . ولم أسمع سوى موجات خافتة كأنما تأتى من بئر عميق .

قلت : لا أسمع سيئا

سمعت صوتى جيدا ، ولكن بطريقة غريبة ، لقد أحسست أن الكلام يخرج من بطنى وليس من فمى . . وقام الطبيب ببعض الحركات والإشارات وعرفت أنه يطلب منى أن أستريح تماما ثم ناولنى كوبا من اللبن الساخن . أحضره التمورجى . . وامتنعت فى البداية ثم بدأت أرتشف بعض القطرات على مضض ، وأحسست بأن حلقى ملتهب ومشروخ وأخد الطبيب يحثنى على استكمال الشرب ويشجعنى بحركات يده . . ورغم مرارة الحلق والشعور بالتقزز الشديد من طعم اللبن إلا أننى واصلت الشرب فلقد كنت أحس بجفاف شديد فى عروقى .

وبدأت أدرك أكثر .

كان الانعكاس الأصفر الباهت على الشباك المجاور يوحى بأن الشمس على وشك المغيب ، وحامل الجلوكوز والخرطوم الصغير الممتد يؤكد أننى كنت وطوال فترة تحت العلاج المستمر .

واقترب الطبيب مرة أخرى وسمعت صوته هذه المرة ، ولكن بصعوبة شديدة .

– أنت أحسن دلوقتى . . أنقذناك بأعجوبة .

وحاولت أن أنظف أذنى .

– لا معلهش . . ستظل أذنك ثقيلة لفترة .

واقترب مدير السجن وقال شيئا . . كما قال ضابط المباحث شيئا آخر ، ولكنى أشحت بوجهى عنه ، وهذا الوجه الآخر الجديد قال بعض الكلمات . . لم أستطع أن أسمعها جيدا ، ولكن فهمت من طبيب الجسن أنهم سيتركوننى لفترة .

وبدأت أستعيد حواسى شيئا فشيئا ، كانت رائحة الأدوية أول ممارسة لحاسة الشم . . بل وسمعت ضربات حذاء التمورجى وهو يتحرك وانتقلت من مرحلة التعرف إلى مرحلة الإدراك . وبدأت أعى الموقف . . وأتذكر تفاصيل ما حدث فى الزنزانة ، النوفالجين ، واللومينال والخطابات الثلاثة . . وبدأ التمورجى يكمل لى الحلقة المفقودة منذ فجر اليوم حتى مسائه . .

لقد اكتشف شاويش العنبر وهو يفتح زنزانتى فى الصباح أننى لا أتحرك من السرير وحينما اقترب منى ليهزنى فوجئ بأن جسدى بارد ويدىّ تقعان إلى جانبى فصرخ الرجل . . وانقلب السجن كله .

وجاء إلى زنزانتى مأمور السجن والوكيل وكل الضباط وكل المظاهر حولهم تؤكد أننى فارقت الحياة ، ولكن الطبيب اكتشف أنه مازال هناك نبض خافت للغاية فنقلنى فورا إلى مستشفى السجن وأجرى غسيل معدة مرتين مع ملاحقتى بالجلوكوز وأدوية أخرى طلبها من خارج السجن . وعرفت من التمورجى أيضا أن الدكتور كمال طبيب السجن كان متوترا للغاية ، وكاد يفقد أعصابه أكثر من مرة مع إدارة السجن ومع ضابط المباحث الذى حضر بعد الحادث بقليل وأنه كان يحملهما المسئولية طوال الوقت .

وعرفت أيضا أنه منذ السابعة صباحا لم يتركنى طبيب السجن لحظة وأنه أصر على أن يشرف بنفسه على عملية الإنعاش التى أعقبت عملية الغسيل والإنقاذ وكذلك مدير السجن .

كما أبدى التمورجى دهشته البالغة ليس فقط لاهتمام طبيب السجن والمدير ، بل وأيضا والتليفونات الكثيرة التى تتوالى كل خمس دقائق تقريبا من جهات رسمية كثيرة تستفسر عن حالتى وقال الرجل الطبيب وهو يناولنى كوبا دافئا من عصير اليمون .

– أنت حاجة من اثنين . . يامهم قوى . . يا خطير قوى .

ولم أكن فى حالة تسمح بالرد على التمورجى فقد كان ذهنى يشتغل مرة أخرى بالأحداث والصور . . كان يغمرنى إحساس مبهم بالسعادة لأننى عدت للحياة مرة أخرى ، بل وأحسست للحظات بمعنى أن يولد الإنسان من جديد ، ولكن موجة عاتية ومكثفة تحمل كل معاناة الشهور الماضية تجتاح هذا الإحساس فتكاد تقتله ، وكان السؤال يغمرنى بالكآبة والضيق . . وتسرى موجة باردة فى الجسد كله .

وجاء الدكتور كمال وحده هذه المرة ، وقاس النبض والضغط ، وابتسم مطمئنا ولكنه أكد ضرورة الحرص على الراحة وعدم مغادرة السرير إطلاقا وأخذ يعتب على فيما فعلته مبتسما .

– لقد كنت ذكيا للغاية . . اخترت توقيتا جيدا .

ولم أفهم ماذا يعنى الدكتور كمال وحاولت أن أستفسر منه ولكنه قال ضاحكا .

– عقلك الباطن كان يعرف ماذا يفعل . . لقد أخذت الجرعة القاتلة قبل فتح الزنزانة بساعة فقط ، ونصف ساعة أخرى قبل ذلك كانت كفيلة بالقضاء عليك .

وحاولت أن أرد فوضع يده على فمى .

- المهم ترتاح . . حققت غرضك وقلبت الدنيا كلها .

سأتركك الآن لأرتاح أنا الآخر . . وهناك آخرون يريدونك . . وكن هادئا ولا تنفعل . . وحيا الدكتور كمال ومضى . . وودعته بنظرة حب وتقدير حقيقى . . لقد أسأت فهمه طوال الشهرين الماضيين حينما كنت أشكو له حالى وأطلب منه التدخل فيمد شفته السفلى ويشير بيده عجزا عن عمل أى شىء ، وفى فترة كنت أحسب أنه يكمل دور ضابط المباحث ووكيل السجن . . كم هو رائع أن تكتشف إنسانا وسط غابة كهذه .

وجاء ضابط المباحث وجاء معه الوجه الجديد . . ووراءه آخر يحمل شنطة ومعهم مأمور السجن . وحاول ضابط المباحث أن يقول كلاما ودودا ومرة أخرى أشحت بوجهى عنه ونظرت إلى الناحية الأخرى فلم أكن على استعداد لأن أسمع منه شيئا آخر . . وتقدم الوجه الجديد .

- وكيل نيابة الخليفة .

وفتح الكاتب المحضر .

وبدأت الأسئلة . . اسمك . . سنك . . عملك . . تهمتك . .

- أى تهمة .

- الجريمة التى دخلت من أجلها السجن ومدة الحكم .

- لا أعرف !

- لا تعرف . . أرجوك هذا محضر رسمى .

- حقيقة لا أعرف . . لست مسجونا ، ولم توجه لى أية تهمة ولم يصدر ضدى أى حكم .

- أستاذ . . لا تضيع وقت النيابة . . ما هى مدة الحكم عليك .

- قلت لك إنه لم توجه لى أية تهمة حتى الآن أنا معتقل منذ أربع سنوات ولم يجر معى تحقيق . . وسيادتك أول مسئول قانونى ألتقى به طوال تلك الفترة .

- مش ممكن . . أربع سنوات بدون تحقيق . . لماذا لم يقولوا هذا . . وأخذت أتأمل وجه الشاب وكيل النيابة .

وكان فيما يبدو خريجا حديثا لم يمض عليه فى العمل وقت طويل ليكتسب خبرة ودراية ببواطن الأمور .

كانت ملامح وجهه البسيطة والمعبرة وانفعالاته البكر تشى بطالب مثالى ظل يجد طوال أربع سنوات ليحصل على درجة تؤهله لتحقيق طموحه فى أن يصبح وكيلا للنيابة . . وفى غمرة الدراسة والتفانى من أجل تحقيق الهدف لم يكن لديه الوقت لينظر حوله ، وليدرك أن القانون الذى تفوق فى دراسته يوضع على الرف ببساطة فى كثير من الأحوال .

والتفت وكيل النيابة إلى مأمور السجن يسأله الحقيقة .

وأكد المأمور : هو معتقل وليس مسجونا .

وصرخ الشاب البكر وقد أحس بأن مقدساته تنتهك .

- كيف يا حضرة المأمور . . كيف يوجد فى سجنك إنسان لم يحقق معه ولم يصدر ضده أى حكم وليس على ذمة أية قضية . . . كيف . . افتح «محضر» حالا مع السيد مأمور سجن مصر .

يا بن البساطة والحقيقة لا تكن ساذجا إلى هذا الحد . . . وتدخل ضابط المباحث ليحاول أن يشرح لوكيل النيابة الشاب الموقف .

- الأستاذ معتقل بقرار جمهورى وفقا لقوانين الطوارئ .

أما مهمة سيادتكم فهى التحقيق فى حادث الانتحار فقط .

ضربة أخرى أصابت مثاليات الشاب المنفعل والذى لم يكن قد جرب بعد فيما يبدو سلطة ضابط المباحث . . لقد تعلم فى الكلية أنه السلطة الوحيدة القادرة على تكييف التهمة وتوجيهها وأن إجراءات وتحقيقات ضابط البوليس لا تتعدى كونها مجرد محضر إثبات قد لا يكون بعيدا عن الشبهات . . فكيف بهذا الضابط يكلمه بصيغة الأمر فى لهجة من يملك ويحكم .

وثار وكيل النيابة الشاب . وأصر على أن يفتح محضرا مع مأمور السجن لوجود إنسان غير متهم فى جريمة ولم يصدر ضده حكم فى سجنه . . وعبثا حاول المأمور أن يشرح له الموقف ، وصمت ضابط المباحث بعد أن أدرك مدى الجدية والإصرار لدى وكيل النيابة .

وكان كل ما يهمنى فى تلك المعركة الساخرة هى الانفعالات الجديدة والحية التى

تموج على وجه الوكيل الشاب . . إنه نموذج آخر للدكتور أحمد نائب قصر العينى ولآلاف من الشبان الذين ابتعدوا عن العمل فى السياسة وأغرقوا أنفسهم فى دراساتهم وتفوقوا فيها ، ثم يواجهون الحياة والتجربة ليدركوا أن هناك هوة واسعة بين مادرسوه وبين ما هو واقع بالفعل . . بل هى فى واقع الأمر مأساة لجيل كامل من الشبان توهموا وأوهموا بأن الطالب للدراسة فقط وأن السياسة شىء آخر ، وحينما تخرج طلاب الأمس اكتشفوا أن دراسة الطب والهندسة والقانون والكيمياء لا يمكن أن تكون بمعزل عن واقع بلدهم ، وأن عليهم من الصدمات الأولى التى يواجهونها أن يختاروا بين طريقين . . إما التكيف مع هذا الواقع الذى يلغى تخصصاتهم وأحيانا إنسانيتهم ويصبحون أدوات طيعة فى يد النظام الحاكم أو الاصطدام معه والبحث عن طريق ليكون العلم فى خدمة الانسان .

قلت رافعا صوتى فى محاولة لوقف المهزلة اللامعقولة التى تجرى .

– يا حضرة وكيل النيابة ، بدلا من إضاعة الوقت فى قضايا لا تملك أن تحسمها ولا السيد المأمور فإنى أرجو من سيادتك إذا كنت متحمسا حقا لقضيتى أن تأمر إما بعلاجى فى أحد المستشفيات الخاصة أو بنقلى إلى سجن الواحات .

– لا . . بل سأصدر أمرى بالإفراج عنك فورا .

– يا حضرة!

ولكن صوتى تاه مرة أخرى فى موجة من الانفعال والحماس اجتاحت وكيل النيابة الشاب وهو يتكلم عن القانون وضرورة سيادة القانون و . . . . . و . . .

وخرج ضابط المباحث . . وتبعه مأمور السجن .

واندفع خلفهما وكيل النيابة الشاب وهو يصيح .

– مش ممكن أسكت على الانتهاك ده . . . مسجون بدون تحقيق أو قرار اتهام أو حكم محكمة مش ممكن . . .

وعاد الهدوء مرة أخرى بعد أن خرج الفرسان الثلاثة ليواصلوا معركتهم فى حجرة المأمور . . معركة غريبة حقا تشترك فيها أجهزة السلطة . . أى أجهزة؟!

وإذا قلنا إن وكيل النيابة الشاب يمثل السلطة التشريعية ومأمور السجن يمثل السلطة التنفيذية . . فأى سلطة يمثلها ضابط المباحث . . إنه فرعون مصر – إمبراطور روما وقائد التتار وهتلر ألمانيا وسالازار البرتغال .

كنت أعرف بالطبع من سينتصر فى تلك المعركة وأشفق فى نفس الوقت على الشاب الذى قدس القانون.

وأحسست برأس ثقيلة وبجفون منهكة . .

وغبت فى نوم عميق.

[٢٧]

أترى أمنحه بيعة ذل؟ بعدها آمن فى بيتى

وأهلى. مثل شاة فى قطيع!!

عبد الرحمن الشرقاوى - الحسين ثائرا

ديسمبر ١٩٦٢.

مربوط العينين أرقد على السرير والموسيقا تنبعث من الراديو المجاور وصمت مطبق فى الساعة الأولى للعام الجديد . .

أكثر من عشرين يوما منذ أن أجريت العملية فى مستشفى الدمرداش ، ومطلوب منى أن أظل راقدا على ظهرى بلا أية حركة قد الإمكان .

فقط منذ أيام سمح لى الدكتور فاروق حسنى الأستاذ بطب الدمرداش بالحركة وبالذهاب إلى دورة المياه .

ولكنها لم تكن أياما قاسية .

لقد أجريت العملية أخيرا بعد أكثر من ستة شهور من المعاناة والمعارك المتصلة . . بالرغم من المصيلحى وبالرغم من أمين زايد وبالرغم من كل الخطط القاسية التى وضعت بإحكام وكانت كلها تهدف إلى أن تكون عينى ثمنا لعقيدتى .

كان الإحساس بالانتصار يلون كل شىء ويملؤنى بالإحساس بالثقة والقدرة . . وأكتشف من خلال تجربتى الأخيرة أن الذى يملك القدرة على التضحية بحياته ويتخذ القرار وينفذه ، يملك وبنفس الدرجة على أن يحب الحياة ويلونها بطاقة أمل لا تنفد . . .

كان القرار بترحيلى إلى مستشفى الدمرداش بعد أسبوع واحد من حادث الزنزانة هو بكل المعايير هزيمة لكل أعداء الحياة الإنسانية والإنسان ولكل أساليبهم التى مارسوها معى . .

وكان قرار الدكتور فاروق حسنى الأستاذ بطب عين شمس وزميلته المدرسة فى نفس الكلية فضحا وكشفا لما سبق أن ردده أمين زايد بأن حالتى ميئوس منها ، وبأنه لا مناص من الاستئصال . .

حقيقة نجحوا فى تعطيلى ستة أشهر كان المرض خلالها قد استبد بالعين وأجرى فيها وفى إبصارها أكبر قدر من التخريب . . وحقيقة أيضا فرضوا على معركة قاسية مريرة خضتها أعزل من أى سلاح سوى الإيمان بالإنسان . . وحقيقة أيضا مرت على فترات أحسست فيها بالضعف والخوف والقلق ولكن لم أستسلم ، وكان أقصى ما وصلت إليه هو أن تنتهى حياتى قبل أن تنتهى قدرتى على التمسك بإنسانيتى .

وعدت أسرح مع لحن جميل جاء معبرا تماما عن اللحظة التى أعيشها فى تلك الساعات الأولى من العام الجديد .

كان اهتمام الدكتور فاروق حسنى بل وهيئة التدريس فى طب عين شمس بحالتى تعويضا إنسانيا عن المآسى التى عانيتها على يد أمين زايد الذى كاد يفقدنى الثقة فى الأطباء .

وبالرغم من أن الدكتور فاروق حسنى لم يعلق على ما سمعه منى عن الظروف التى مرت بى خلال الأشهر الماضية إلا أنه كان يؤكد دائما أن العملية لو أجريت قبل ذلك بعدة شهور لأمكن إنقاذ عينى تماما . . ولقد عرفت أن العملية التى أجريتها هى فقط لوقف المرض وتدهور الحالة . أما ما فقدته من إبصار العين اليسرى فلم يعد من الممكن علاجه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليقلل من قيمة إحساسى بالانتصار ، ولقد كان ذلك واضحا فى تصرفات الطرف الآخر .

فمنذ ذلك اليوم الذى نقلت فيه إلى مستشفى سجن مصر بين الحياة والموت لم أر ضابط المباحث ولا أى مبعوث آخر منهم . . لقد عرفت بعد ذلك أن الخبر قد انتشر وذاع بين كل الأوساط المحلية والعربية والعالمية ، وخاصة بعد أن نشرت جريدة الاخبار بناء على مبادرة من أحد الصحفيين الشرفاء - الخبر فى اليوم التالى للحادث .

بل وأستطيع أن أقول إن تلك الحادثة نبهت المسئولين إلى ما يجرى داخل المعتقلات فى الوقت الذى كان هناك تفكير جدى فى الإفراج .

وقد تأكد لى أن الأوامر الخاصة بنقلى إلى مستشفى الدمرداش جاءت من الرئاسة . . وبعد إجراء العملية بيومين جاءنى أبى بخطاب رسمى وصله من الرئاسة فيه :

«نجلكم قد نقل إلى مستشفى الدمرداش وأجريت له عملية فى عينه كما أنه يحظى بالرعاية الطبية الكاملة . . مع تمنياتنا بالشفاء . . »

وكان الخطاب ممهورا بإمضاء على صبرى رئيس المجلس التنفيذى فى ج . م . ع .

والحقيقة أن الفترة التى قضيتها فى مستشفى الدمرداش كانت فترة سلام نفسى رائع . . وغم أننى قضيت غالبية الفترة معصوب العينين إلا أن قلبى كان ينبض بالحب والثقة والأمل .

وجاء لزيارتى هذه المرة وفود من أهل القرية ، بل وبعض الأصدقاء الصحفيين والمثقفين . . وكانت أحاديثهم الدافئة تنبض بأحاسيس جديدة . . لم يكن هناك ذلك الخوف الذى كنت ألمسه حتى فى أحاديث الأهل فى الزيارات السابقة .

وأذكر أن شابا من قريتى من طلبة الجامعة جاء لزيارتى ومعه عدد آخر من زملائه الطلبة ، وطوال الحديث كنت أحس بلهجة التقدير العالية التى يحدثوننى بها وفى المرة الوحيدة التى حاولت أن أتدخل كان ذلك لحرضى عليهم ولخوفى من أن يمسهم أى ضرر . . ولكنهم مضوا فى حديثهم غير آبهين بالمخاطر التى ذكرتها .

أنتم الرواد . . لقد تحملتهم عنا الكثير .

- لابد أن تخرجوا فورا من المعتقلات . . لا نقبل أن تبنى الاشتراكية بدون الاشتراكيين الحقيقيين .

وحينما كنت أختلى إلى نفسى ولم يكن ذلك متاحا إلا بعد منتصف الليل ، حين يتركنى الزوار . . كنت أستعيد تلك الصور الجديدة لأتأكد أن هناك شيئا جديدا بالفعل يجرى فى المجتمع .

فى الزيارات السابقة كان الخوف والقلق يسيطران . . حتى كلمات أبى كان يختارها بعناية . . كان أقسى ما كنت أسمعه ويمزقنى كلمة كان يقولها ضابط المباحث ويكررها الحرس وأحيانا يقولها أبى :

- لماذا لاتخرج . . إن أحدا لا يحس بك .

لقد كانت كل المظاهر السابقة توحى بأن هذا صحيح ، ولقد كان إحساسا قاتلا ينفذ كالسكين الحاد يعبث بكل المقدسات التى تحرص عليها وتضحى من أجلها . . لا أحد يحس بك وأنت الذى تتحمل كل هذه المعاناة من أجل هؤلاء الذين لا يحسون بك . . ولكن هذه المرة أعادت كثيرا من الثقة بمغزى التضحية . . فقد يفرض الخوف

ستارا من الصمت لفترة ، ولكن أى بذرة خيرة لابد أن تنبت فى النهاية بل ويمكن أن تزهر وتثمر .

لقد كان ما سمعته من الأهل والأصدقاء والمعارف والزوار وأطباء المستشفى كفيلا بتجديد الثقة بالنفس وبأهمية إعطاء المثل والقدوة .

وعادت الموسيقا تسحبنى بأنغامها الهادئة .

لعلها أول بداية لعام جديد منذ أربع سنوات تفتح امام القلب صفحات جديدة ناصعة بالحب .

وأصوات العربات فى شارع رمسيس تمرح بعد منتصف الليل والأغانى المتقطعة التى تشدو بها المجموعات السهرانة .

كنت أسمعها وأعيشها بإحساس من يشاهد ويسمع فيلما سينمائيا جيدا يستغرق فى أحداثه لحظات أو ساعات ولكنه سرعان ما يفيق ليدرك أن هذا العالم الملون المتحرك حوله مازال بعيدا عنه تفصله أسوار عالية وصحراء ممتدة ولكنها كانت ليلة عيد ميلاد سعيد حقا .

ففى صباح ذلك اليوم امتلأ العنبر الصغير بمجموعة من أهل القرية جاءوا ومعهم سلال البرتقال والفطير المشلتت وعسل النحل وأخذوا يوزعون على الممرضات والمرضى ويملئون العنبر بمرحهم وأصواتهم العالية .

قال عم عبده أبو حجاج وقد جرب السجن فى التظاهرات التى اجتاحت مصر فى الثلاثينات فى عصر الطاغية صدقى باشا .

– ولا يهمك يا أستاذ . . السجن للرجالة .

أما أنور شرف ابن خالى والفلاح الشاب فقد شغل نفسه بالحراس وراح يتقرب إليهم وينفحهم السجاير ومن حين لآخر يؤكد لهم أن من يحرسونه هو ابن عمته وكأن ذلك مصدر فخر له .

بينما راح عمى ، وكان يعمل تاجرا للقطن ، يذكر أسماء عدد من زملائى فى الواحات من أبناء قرى المركز ويعطينى بعض رسائل من ذويهم ثم يقول ضاحكا :

– ياه . . فى كل بلد رحتها فيها واحد واللا اثنين . . انتو لكو شجرة فى كل بلد .

وأختى وقد صحبت معها ابنة الجيران الطالبة فى الجامعة وزوجتى بعد ذلك ، والتى لم أكن أعرفها حتى ذلك اليوم ثم وهى تهمس لأختى :

– عامل زى فيلم فى بيتنا رجل.

ثم إصرار الجميع على أن أحكى كل شىء طوال السنوات الأربع الماضية وتعليقاتهم الساخرة أحيانا وصمتهم الحزين أحيانا أخرى. . وقد سمعوا من الشاعر الحديث معصوب العينين قصصا لم يقلها لهم شاعر القرية بربابته وبفرسانه العديدين.

كان يوما من أيام التعويض . . سيظل يذكره العاملون فى مستشفى الدمرداش.

أما بالنسبة لى فقد كانت بداية مشرفة لعام جديد.

وسمعت صوت الممرضة:

– أستاذ . . أنت لسة صاحى . . تعبان واللاحاجة.

وقلت وأنا أسحب الغطاء وفى صوت بين النوم واليقظة

– لا أبدا . . بس بفكر إمتى هقدر أشوفك . . صوتك بيقول إنك حلوة قوى. قالت بمزيج من المفاجأة والسخرية.

– بكرة تشوفه لما الدكتور يشيل الرباط . . بس أوعى تتصدم.

ولم يكن هناك شىء يمكن أن يصدمنى بعد ذلك.

عدت إلى سجن مصر بعد شهر قضيته فى الدمرداش فى أعقاب العملية، وكان تقدير الدكتور فاروق حسنى أن العملية نجحت تماما وفى وقف المرض، وإن كنت سأحتاج إلى الإشراف والرعاية لمدة شهور، وكان ذلك يعنى أن أظل فى المستشفى تحت المراقبة والعلاج.

ولكن الذين أجبروا على إرسالى لمستشفى الدمرداش بعد كل ما حدث لم يكونوا ليوافقوا على أن أبقى شهورا فى المستشفى وسط الأهل والأصدقاء . . فبعد أسبوع من فك رباط العين نقلت إلى مستشفى سجن مصر وفى طريق العودة حدث شىء لا أعرف إذا كان مخططا أم لا.

فعندما انطلق بنا البوكس من مستشفى الدمرداش فوجئت بأنه يعبر نفق العباسية فى اتجاه مصر الجديدة بدلا من الاتجاه جنوبا وقبل أن أسأل وجدت البوكس أمام مبنى السجن الحربى وتوجست أول الأمر، وخاصة بعد السمعة السيئة للغاية التى اكتسبها هذا السجن وأخذت أمهد نفسى لمرحلة جديدة من التعذيب البدنى.

ودخلنا البوابة وفوجئت بمنظر آخر.

عشرات من الزملاء الذين غادروا الواحات منذ عدة أشهر بعد أن «كتبوا المطلوب

منهم» يمرحون داخل فناء السجن . . وكانت المفاجأة لوجودى بينهم لا تقل عن مفاجأتى بهذا الأمر وقال أحد الزملاء :

أنت . . كنت آخر واحد نتوقع حضوره هنا . . وأين مقالاتك الملتهبة فى مجلة الطريق .

قلت فى حسم :

- أنا لم أكتب شيئا ولن أكتب شيئا

ولكن غالبيتهم هزوا رءوسهم غير مصدقين .

لقد كانت آخر المعلومات التى وصلتنا عن هؤلاء الزملاء «المستنكرين » منذ شهور أنهم فى القلعة تمهيدا للإفراج عنهم ، وعرفت منهم أنهم كانوا فعلا على وشك الخروج ، ولكن أساتذة «غسيل المخ» الذين كانوا يعطونهم المحاضرات اليومية رأوا بعد امتحانهم أنهم لم يتكيفوا بعد وأنهم يحتاجون إلى «كورس جديد» لكى يكونوا أكثر استعدادا وتأهيلا لمساعدة الأجهزة بعد ذلك فجاءوا بهم إلى الحربى .

وأخذت أقلب وجوه الأمر ومجيئى إلى الحربى . . هل تصور الأغبياء أننى قد أصبحت على استعداد للتنازل ؟ أم أنها لعبة لتشويه موقفى لدى الزملاء فى الواحات . .

لم تدم الحيرة طويلا . . فبعد أقل من ساعة جاء قائد الحربى ونادانى فى حوش السجن ثم قال :

- آسفين ، لقد جاءوا بك إلى هنا عن طريق الخطأ .

وجاء البوكس . . واتجهنا إلى سجن مصر .

وأدرك الزميل الذى قال ملاحظته حقيقة الموقف ، فحرص على أن يصحبنى حتى البوابة الخارجية وشد على يدى قائلا :

- إحنا فى داهية . . معلهش ، قدراتنا كده . . البركة فيكوا أنتوا . . خليكوا جدعان .

انتوا الأمل .

[٢٨]

أنتم نور العالم ، ولا حفاء المدينة قائمة على رأس
جبل وما من سراج ليوضع تحت المكيال لكنه
يرفع على المنار ليرى به جميع من فى الدار .
- *المسيح* -

مارس - يوليو ١٩٦٣

كالطفل التائه العائد لأحضان أمه ، كعامل الترحيلة المغترب وقد لاحت قريته من بعيد ، كالحمل الوحيد انفردت به الذئاب فى أعلى التل ثم فجأة أرعدت السماء وأمطرت ووجد نفسه سالما فى النهاية في الوادي . . كالحبيب الغائب الذى أمضه الشوق وألمت به النوائب فى الغربة ثم اقترب من أرض الحبيبة وشم رائحتها . . مثل أوليس وهو على أعتاب طيبة بعد حروب طروادة ومشاق العودة ينادى على بنيلوب . .

هكذا كانت مشاعرى وأنا أقف على بوابة سجن الواحات .

آخذ الرفاق بالأحضان وأجول بعينى فى المكان وكل مترفيه ينبض بذكريات حية ولأتاكد أننى مرة أخرى مع رفاق الأمل فى واحة الحب .

غريب هذا الشعور الذى اجتاحنى منذ غادرت القاهرة فى طريق العودة إلى الواحات بعد حوالى خمسة شهور من المعارك الفردية المتصلة . . فأعطى ظهرى للقاهرة بأضوائها وبكل ما فيها من مظاهر الحياة ووجدانى كله معلق بحياة أخرى تفيض بالصدق وتحلم بالغد رغم الأسوار ورغم الصحراء المترامية الممتدة .

وأيقنت لحظتها أننى طوال تلك الشهور الخمسة ووسط دوامة المعاناة القاسية قد استطعت أن أتخلص من أدران النفاق والمظاهر السطحية وأننى باليقين سأظل أبحث عن الأمل الحقيقى حتى لو كان وسط صحراء قاحلة .

كان الرفاق يسألوننى عن الأخبار وعن القاهرة التى خلفتها ورائى ، وكنت أنا مشوقا لأن أتلمسهم وأسمع أخبارهم وأحاديثهم . . أى نشاط قاموا به فى تلك الفترة وما هى أخبار المجلة والمسرح والمزرعة والأشياء الصغيرة التى خلفتها قبل أن أسافر ، والقصة التى لم تكتمل ومشروع دراسة القرية الذى خططت له .

كانوا قد عرفوا كل شيء بالتفصيل ولم أعد بحاجة لأن أحكى . . بل سمعت منهم تفصيلات لم أكن أعرفها .

عرفت أنه فى الوقت الذى كنت أدخل المعركة وحيدا فى سجن مصر كانوا هم فى الواحات لا يكفون عن تقديم مذكرات الاحتجاج والتهديد باتخاذ إجراءات عنيفة من أجل إنقاذ عينى .

وعرفت أنهم أقاموا احتفالا كبيرا ليلة ٢١ نوفمبر أى ليلة عيد ميلادى ورسم الفنان سعيد عارف صورة كبيرة لى علقت فى طرقة العنبر وأنهم قصدوا بتلك الحفلة تظاهرة أمام الإدارة .

أكد الزملاء أيضا أن موقفى فى سجن مصر والضجة التى أثيرت حوله فى الداخل والخارج أوقفا نهائيا حملة التصفية وأن الأوامر قد صدرت من القيادة السياسية العليا للمباحث العامة بوقف أى عمليات من هذا النوع .

كان كل هذا يعطينى المبررات الكافية لأنسى لحظة الضعف القاسية التى قررت فيها التخلص من الحياة ، وإن تلك اللحظة لم تأت بكل هذه النتائج فحسب ، سواء إنقاذ ما أمكن إنقاذه من عينى أو إنقاذ زملاء آخرين من التعرض لنفس الأسلوب - بل لعل أهم نتيجة استخلصتها لنفسى هى أننى لن أستطيع أن أكون كاذبا مع ذاتى حتى لو كان الثمن هو الموت . . ولعل الآحرين قد استخلصوا نفس النتيجة .

وبعد حوالى أسبوع من المشاعر المتدفقة بينى وبين الزملاء كنت أمر فيها كل ليلة على غرفة من الغرف أحكى التجربة ونخرج بالاستخلاصات . بدأت أمارس حياتى من جديد مثلما كنت أمارسها طوال السنوات الأربع الماضية ، إعداد لمجلة الطريق الاستماع إلى عدد من الإذاعات العربية والأجنبية وتقديم التحليلات السياسية الخاصة بالوضعين الداخلى والعالمى ثم الغرق فى القراءة ليلا ومحاولة استكمال بعض المشروعات والخطط الخاصة بالقصص أو بالدراسات .

أما الموقف السياسى فقد كان محيرا حقا .

فمنذ ميثاق العمل الوطنى وقبله الإجراءات الاجتماعى الواسعة التى اتخذت وتم

خلالها تأميم أكثر من ٨٠٪ من المرافق الصناعية والتجارية ، ثم ما يعلن كل يوم من إجراءات أخرى مع اللهجة الشديدة المعادية للإمبريالية التى اتسمت بها الصحف وأجهزة الإعلام ، كل ذلك كان يعمق من إحساسنا بالحيرة حقا .

إننا نوافق على كل هذه الخطوات ، ولسنا فى حاجة حتى لأن نعلن ذلك . . فلماذا نظل فى المعتقل؟

عامان مضيا منذ تلك الانعطافة الهامة فى السياستين الداخلية والخارجية ونحن مازلنا فى المعتقلات وكأن شيئا لم يحدث .

هل حقيقة لأن هناك صراعا داخل السلطة بين عبد الناصر وعدد من قادة الثورة من ناحية وعدد آخر من ناحية أخرى؟

أم أن الأجهزة ، وبالتحديد - المباحث العامة - طلبت تأخير الإفراج عنا حتى لا نخرج بشعور الأبطال؟

أم أن كل ما يتم ويعلن من إجراءات لا يعدو أن يكون تغييرا على السطح دون إجراء تغيير فى جوهر السلطة ؟

إن الصحف المصرية مليئة بالحديث عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والتحالف بين قوى الشعب العامل وبالذات بين العمال والفلاحين ، بل وبالدور القيادى للطبقة العاملة .

وهى مليئة أيضا بالهجوم على القوى الاستعمارية والرجعية ليس فى المنطقة العربية وحدها بل وفى العالم كله .

إن ما كنا نكتبه فى جريدة المساء واعتبر فى ذلك الوقت انحرافا أقل بكثير مما يكتب اليوم فهل هى قضية شخصية إذن؟

هل يمكن أن يكون مصطفى أمين وعلى أمين وصالح جودت وغيرهم ممن كانوا يأخذون صف الملكية وصدقى ومحمد محمود من أعداء الحرية والديمقراطية قبل يوليو ١٩٥٢ هم أنفسهم الذين يدافعون عن الاشتراكية وتحالف قوى الشعب العامل ويفضحون الأساليب الاستعمارية . . بينما نبقى نحن فى المعتقلات وشعاراتنا تتردد فى كل مكان .

وعرفنا أن الكتاب الشرفاء فى الخارج كانوا يطرحون نفس القضية ويطالبون بسرعة الإفراج عنا . . عبدالرحمن الشرقاوى نجيب محفوظ والدكتور محمد أنيس ولطفى الخولى الذى كان قد أفرج عنه منذ سنوات .

كانت تصلنا من بعضهم رسائل شخصية توحى بقرب الإفراج . . ولكن أحدا لم يستطع أن يفسر لنا تماما الحقيقة وراء كل هذا التأخير، إنه ليس فى صالح أحد، فلا يمكن أن تكون فى معركة شرسة مع الاستعمار والرجعية وأعدى أعداء الاستعمار والرجعية ما زالوا فى السجون والمعتقلات .

وجاء الصيف بحدثين مهمين . .

أولهما : محادثات الوحدة التى جرت بين قيادة حزب البعث التى وصلت إلى السلطة فى كل من سوريا والعراق وبين القيادة المصرية .

جرت المحادثات لعدة شهور ثم أعلن فجأة عن توقفها وفشلها . . وبعد ذلك بقليل بدأت الإذاعة المصرية تذيع محاضر المحادثات . . ولقد كشفت المحادثات عن بعض الجوانب الخفية التى كنا نجهلها . . كان من المعروف أن هناك التقاء جذريا فى منطلقات البعث والفكر الناصرى الجديد كما عبر عنه الميثاق . . فكلاهما يعبر عن اتجاه وطنى تقدمى فى حركة التحرر العربى، وكلاهما يعبر عن أمانى البورجوازية الصغيرة فى بناء مجتمع مستقل تتوفر فيه بعض ملامح العدالة الاجتماعية . .

والغريب أن كلا من عبدالناصر وميشيل عفلق كان يستخدم فى تلك المحادثات التعبيرات الماركسية بل ويرجع إلى نصوص من لينين وستالين وماوتسى تونج .

ولكنهما اختلفا رغم كل هذه الالتقاءات الموضوعية، بل بدأت أجهزة الإعلام فى البلدين تتبادل الشتائم والهجوم مرة أخرى .

لقد كشفت لى تلك المحادثات عن حقيقة هامة ولعلها فسرت الكثير من الموقف المحير الذى كنا نتساءل حوله .

إن افتقاد الحركة الجماهيرية الواسعة فى العالم العربى جعل القيادات الوطنية حتى وهى تتطور وتنضج ، يتم ذلك بطرق علوية ذاتية دون وجود روابط وثيقة ودون إشراك جماهيرى واسع . . والنتيجة أن تظل هناك هوة واسعة بين الأقوال والأفعال من ناحية، وأيضا أن يظل الخلاف والاتفاق مرتبطين إلى حد كبير بالزعامات الفردية وليس بالالتقاء الموضوعى .

ولقد كان ذلك فيما اعتقد هو السبب الرئيس فى تأجيل الإفراج عنا وفى الخلافات التى نشبت بين البعث والقيادة الناصرية .

إن كل المعايير الموضوعية كانت تؤكد أن البعثيين والناصريين والماركسيين يقفون فى ذلك الوقت على أرضية مشتركة بغض النظر عن بعض الخلافات الفكرية والتفصيلية .

ولكن الصورة الواقعية كانت عكس ذلك تماما .

الناصريون يهاجمون البعثيين بشراسة والبعثيون يردون الاتهامات بنفس العنف . . والماركسيون غائبون فى أعماق سجون الواحات والمزة وبغداد .

فى الوقت الذى كان فيه الاستعمار الأمريكى متعاونا مع الرجعية العربية يعمل بكل طاقة وجهد على استنزاف طاقات الجمهورية العربية المتحدة فى اليمن .

والحلف المركزى يواصل مؤامراته على سوريا والعراق بتفجير مشكلة الأكراد والمساندة الإيرانية لهم وأيضا بمحاولة إنشاء دولة عميلة للبريطانيين فى عدن والقضاء على الشخصية العربية لإمارات الخليج .

أما الحدث الثانى فقد تمثل فى الإفراج عن الزميلات المعتقلات فى سجن القناطر وكن حوالى ٣٥ زميلة .

ولقد كان للخبر دوى واسع بيننا . . فهذه أول مرة منذ أربع سنوات يتم فيها الإفراج عن مجموعة كاملة وبذلك الشكل الواسع ودون أى شروط أو قيود . . وقد استخلصنا جميعا من ذلك أن الباب قد فتح أخيرا وهو وإن كان للسيدات فقط إلا أنه لا يمكن أن يكون مجرد إجراء «شرقى» بالرغم أن مجموعة من الزملاء وعلى رأسها الزميل نور غنيم أو نور إعدام كما كنا نسميه قد سخروا من استخلاصنا وراحوا يبررون الإفراج عن المعتقلات بأنه شىء خاص بمجتمع الحريم . . وحيث إن هذه أول مرة تعتقل فيها سيدات فإنه لأمر طبيعى أن يفرج عنهن بعد أربع سنوات .

وكانت هذه المجموعة الصغيرة لا ترى أى أمل فى الإفراج فى القريب . . كذلك فلقد كان للإفراج عن الزميلات مغزى خاص لدى الكثيرين من الأزواج والأخوة .

فمن بين حوالى ٤٠ معتقلة كان هناك حوالى العشرين منهن زوجات أو شقيقات أو قريبات للزملاء المعتقلين .

فهناك أسماء حليم زوجة أسعد حليم، وثريا حبشى زوجة فوزى حبشى، وثريا أدهم زوجة حلمى ياسين، وثريا إبراهيم زوجة الدكتور مختار السيد، وفاطمة زكى زوجة نبيل الهلالى، وسعاد بطرس زوجة شكرى عازر وشقيقة سعد بطرس، وسميرة الصاوى زوجة أحمد طه، وانتصار خطاب زوجة صلاح خطاب وزينات الصباغ زوجة إسماعيل المهداوى وليلى شعيب خطيبة رجاء طنطاوى وإنجى أفلاطون خطيبة الدكتورفوزى منصور . . ونوال الحملاوى زوجة عبدالسلام مبارك . . وليلى عبدالحكيم شقيقة طاهر عبدالحكيم وعايدة بدر شقيقة أحمد بدر .

وكم كان أحمد طه سعيدا للإفراج عن زوجته بعد أن اطمأن على ابنه عبدالقادر الذى تركوه ولديه من العمر بضع سنوات لدى الجيران، كذلك فوزى حبشى وأسعد حليم الذى ولد ابنه في السجن وقضى عاما مع أمه فى زنازين القناطر . . وليلتها سهرت مع أحمد طه وقد كان سعيدا حقا وهو يحكى عن عبدالقادر الصغير الذى حرم من الوالد والأم فى ليلة سوداء . . ثم يسرح بفكره إلى شبرا ويتصور لقاء عبدالقادر مع أمه بعد غيبة طويلة وبعد أن أصبح شابا فى الثالثة عشرة من عمره . ثم بين الحين والآخر يؤكد:

– لقد انكسرت الحلقة . . سنخرج كلنا بالتأكيد . . قريبا .

[٢٩]

وكـان بحـرا يندفع، فـوق الزمـان وترتفع..
أيديهم العليـا فى سـاحـة الدنيـا، ويكذبون
الموت

بابلونيردوا.

يناير ١٩٦٤:

أيام خطرة بل ربما كانت أخطر أيام الاعتقال على الإطلاق . . نلتف حوله فى صالة القسم الخارجى فى المساء وهو يحكى لنا عن تجربة اعتقال سابقة له فى أوائل الخمسينات

وأتذكر هذه الكلمات للزميل الذى فقد حياته هذه المرة دون أن يجرب وللمرة الثانية تلك الأيام الخطرة . . أيام يكون فيها الإفراج على كل لسان وتشير كل الدلائل إليه بالمنطق البسيط ولكنك مازلت فى المعتقل . . وأعود إلى وصف جميل . . إنها أيام تفقد فيها التوازن، فالشعور بالاستقرار الذى اكتسبته طوال ٥ سنوات فى المعتقل يتحطم ويحل محله شعور جديد يتعلق بالأمل الذى لاح فوق الشجرة .

ومن هنا تأتى خطورة تلك الأيام حين تظل عيناك معلقتين على العصفور فوق الشجرة وتتحول مشاعرك إلى حرص وخوف وقلق على مصير ذلك العصفور، فقد يطير وقد تقتله رصاصة رش من يد صبى . . وقد تنقض عليه حدأة كاسرة تسكت أغانيه الصغيرة قبل أن يتحول إلى واقع حى . .

وتتعقد المشكلة وتدخل فى دائرة أكثر تعقيدا حينما تتحول هذه الأيام إلى شهور بل وإلى حوالى العام . .

هكذا قضينا الصيف والخريف من ذلك العام، صوت العصفور على الشجرة يغنى

بالإفراج . . ويزداد سماعنا لتلك الأغانى يوما بعد آخر . . ولكن عواصف الخريف بكل ما تخلطه من أوراق وتثيره من رمال تنقضى ويدخل الشتاء ونضطر فى المساء لأن نتدثر بأكبر قدر من البطاطين ، فشتاء الصحراء قاس بقدر قسوة صيفه .

أصبح الإفراج على كل لسان بعد أن أصبحت كل المعايير والمقاييس الموضوعية للسياستين الخارجية والداخلية المعلنتين تؤكد أن الشاذ الغريب هو بقاؤنا فى المعتقلات . .

وأيريك رولو الصحفى الفرنسى الشهير والمسئول عن قضايا الشرق الأوسط فى جريدة ليموند الفرنسية ، وهو بالمناسبة مصرى بالمولد والنشأة ، يأتى إلى مصر ويلتقى بالرئيس عبدالناصر ويجرى حديثا مهما وخطيرا حول الأوضاع الداخلية والخارجية وتصورات عبدالناصر عن المعركة مع الاستعمار والصهيونية والرجعية .

ريسأل رولو فى آخر الحديث عن «المعتقلين الشيوعيين» فى الواحات :

ويجيب عبدالناصر بوضوح هذه المرة . . إننا بصدد تصفية المعقلات وفى القريب . .

وربما كان ذلك أول اعتراف رسمى منذ سنوات بوجود معتقلين . . قبل ذلك بعدة شهور وفى مؤتمر صحفى عالمى قال الرئيس عبدالناصر إنه ليس هناك فى مصر معتقلات . . !! وفسرنا هذا الحديث يومها بأنه دليل جديد على قرب الإفراج رغم تجاهل وجود أكثر من ٦٠٠ معتقل فى ذلك الوقت غير حوالى مائتى مسجون سياسى .

ولكن القيادات السياسية فى المعتقل كانت تعرف ومنذ فترة أن هذا التأخير ليس مجرد تناقضات داخل أجهزة الحكم . . ولكن وراءه سببا آخر .

وقد ظلت القيادات متكتمة على هذا السبب فى أضيق الحدود . .

بل لقد كانت هناك مراسلات طيلة الوقت بين القيادات السياسية داخل المعتقل وبين عبدالناصر والقيادات السياسية فى الخارج ، وكان يقوم بدور الوساطة عناصر يسارية محترمة تؤمن بضرورة التلاحم بين الماركسيين والسياسة الناصرية الجديدة . . وكانت غالبية هذه العناصر اليسارية ممن لم يعتقلوا معنا إنما نتيجة ارتباطات سابقة بتنظم الضباط الأحرار أو لأنهم ابتعدوا فى الخمسينيات عن وجود أى علاقات تنظيمية مع الماركسيين .

ولم يكن أحد يشك فى إخلاص هذه العناصر وهويتها التقدمية والوطنية .

باختصار كان المطلوب حل التنظيمات الماركسية قبل الخروج من المعتقل .

ولقد ظلت تلك المراسلات تدور فى تكتم شديد طوال أكثر من عام .

كانت الاتصالات تدور أحيانا بصفة فردية وأحيانا بصفة تنظيمية مع كل قيادات التنظيمات الموجودة أو بمعنى أصح التنظيمين الموجودين .

أحدهما يقوده فؤاد مرسى وأبو سيف يوسف إسماعيل صبرى عبدالله ، والثانى يقوده إبراهيم عبدالحليم وزكى مراد ومحمد شطا .

كان موقف التنظيمين قد اقترب كثيرا من الناحية السياسية خلال عامى ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ .

فكلاهما أعلن مساندته للميثاق وللإجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى الخارج .

وكليهما فى عدة بيانات صدرت أكد مساندته للتحولات الاقتصادية والتقدمية التى تجرى .

بل إن كلاهما اتفق على أن هناك ضربا لقطاعات من الرأسمالية ولكن الخلاف فى هذه القضية انحصر فى موقفين أساسيين .

موقف تنظيم الأغلبية وكان يرى أن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تجرى ضربت فى الأساس الرأسمالية الكبيرة فى الزراعة والصناعة والتجارة كما ضربت قطاعات من المتوسطة ذاتها ، وبذلك تفتح الطريق أمام بناء رأسمالى .

وموقف تنظيم الأقلية وقد كان يرى أن على رأس السلطة فى مصر «وبالتحديد قيادة عبدالناصر» مجموعة اشتراكية وأن الإجراءات التى اتخذت هى ضرب لكل قطاعات الرأسمالية وتحول نحو البناء الاشتراكى .

على أ ن هناك مجموعة ثالثة كانت تتشكل داخل التنظيمين فى شكل معارضة سياسية ، وكانت أفكار هذه المجموعة الثالثة التى لم يكن يربطها تنظيم واحد تتلخص فى ثلاث نقاط رئيسة :

* إن الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت ورغم طابعيها الوطنى والتقدمى إلا أنها لا تلغى قوانين المجتمع الرأسمالى ، وضرب الرأسمالية الكبيرة فى الصناعة والزراعة وخاصة تلك التى كانت تتخذ مواقف معادية من قيادة الثورة لا يعنى أن هناك نموا غير رأسمالى وأن قوانين الاستغلال قد ألغيت .

* إن التأميم فى حد ذاته ليس إجراء اشتراكيا أو غير رأسمالى ولكن العبرة بعلاقات الإنتاج القائمة . . فالتأميم تلجأ إليه دول رأسمالية ودول اشتراكية ويظل الفرق بين الاثنين هو المستفيد فى الواقع من التأميم! . . فإذا كانت علاقات الإنتاج القائمة مازالت علاقات رأسمالية وإذا لم يكن هناك ذلك القدر من الديموقراطية التى تتيح للطبقة العاملة قيادة وتوجيه الاستثمارات المؤممة ، وإذا ظلت القيادات البيروقراطية والقديمة هى التى تقود هذه المؤسسات فإن الأمر لا يعدو أن يكون تنظيما رأسماليا لدفع الإنتاج والتصنيع ولمواجهة متطلبات العصر . . وبالتالى فإن حركة التأميمات الواسعة التى تمت لا تعدو كونها رأسمالية دولة .

ويؤكدون آراءهم هذه بكثير من الأمثلة فى تاريخ الحركة الثورية ، وخاصة بعد ثورة فبراير سنة ١٩١٧ وإقدام حكومة كيرنسكى فى روسيا فى ذلك الوقت على تأميم عدد من المؤسسات الاقتصادية وتعليق لينين على ذلك بأنها «رأسمالية دولة وأن العامل الروسى لن يستفيد كوبكا واحدا . . . . » .

ويسوقون أمثلة أخرى كثيرة من تأميمات تحدث وتتم فى مجتمعات رأسمالية بل واحتكارية .

* النقطة الثالثة هى فيما يتعلق بالديمقراطية باعتبارها من وجهة نظرهم هى حجر الأساس فى الحكم على كل ماحدث من تطورات . . فوجود ديمقراطية واسعة وإعطاء الحق للطبقات الوطنية فى تشكيل تنظيماتها الجماهيرية والسياسية مع إلغاء القوانين الاستثنائية والمحددة للحريات هى فقط الضمانة لدفع التطور الاجتماعى ولإعطاء الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت فاعلية حقيقية وعمقا يمكن بواسطتها إجراء تحولات جذرية فى علاقات الإنتاج والتطور نحو مجتمع لا رأسمالى .

وفى أواخر عام ١٩٦٣ وفى مؤتمر علنى ، أعلن قادة تنظيم الأقلية حل نفسه تمشيا مع أفكاره بضرورة الاندماج ووحدة العمل التنظيمى مع «القيادة الاشتراكية على رأس السلطة» وأعطى توجيهاته لأعضائه فى الداخل والخارج بالانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى باعتباره الوعاء السياسى الذى يمكن أن يتحول إلى تنظيم ثورى قائد بزعامة عبدالناصر .

وأثار هذا القرار ردود فعل واسعة داخل المعتقل .

فقد أعلن بعض الأفراد من داخل هذا التنظيم ، وبينهم عناصر قيادية رفضهم لقرار الحل وإن كانوا لم يقدموا بديلا تنظيميا .

ولكن رد فعل القرار كان أكثر دويا بالنسبة للتنظيم الآخر (الأغلبية) . . فبالرغم من الاتصالات السرية التى كانت تجرى بين قيادة تنظيم (الأغلبية) وبين ممثلى السلطة فى الخارج، وبالرغم من أن هذه القيادة فى غالبيتها لم تكن ترفض بشكل حاسم فكرة الحل طالما تتوفر هناك ظروف موضوعية لذلك إلا أنها تمسكت على الأقل بفكرة أن قرار الحل لايمكن أن يتخذ داخل المعتقل تحت تأثير العزلة والتهديد.

كان أقصى ماوصلت إليه القيادة هو «الوعد» بعقد مؤتمر موسع بعد الإفراج يناقش القضية.

وهكذا كانت الصورة فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٦٣ .

فريق أعلن بوضوح حل التنظيم والعمل تحت قيادة عبدالناصر .

وفريق لم يرفض تماما فكرة الحل، ولكنه رفض أن يكون ذلك ثمن الخروج وبالتالى أجل المناقشة التنظيمية .

ومجموعات كانت أصلا تنتمى إلى الفريقين، رفضت الحل وتمسكت بضرورة أن يظل هناك منبر مستقبل للماركسيين وأن هذا لايمنع الدخول فى تحالف أو جبهة مع الاتحاد الاشتراكى باعتباره تنظيم السلطة الوطنية وأى تنظيمات أخرى ترفع شعارات وطنية ديمقراطية .

ولكن الجميع وقفوا فى ذلك اليوم من أيام ديسمبر فى صفوف مهيبة فى حوش المعتقل ونحن نودع جثمان رفيق عزيز لفظ أنفاسه الأخيرة بعد كفاح استمر أكثر من ٧٥ عاما ظل فيها يحلم بمصر الاشتراكية ومصر الديمقراطية .

ووراء جثمان عم شعبان حافظ الذى لف فى علم مصر مشينا فى جنازة مشحونة تلف به حول عنابر السجن ويمشى معنا الحرس والضباط وبعض المسجونين من الإخوان المسلمين . . وقبل أن يضعوا الجثمان فى البوكس تمهيدا لترحيله إلى أهله فى الإسكندرية أخذنا ننشد - بصوت حزين نشيد الوداع لذلك الرفيق البطل .

كان عم شعبان يمثل بالنسبة لنا جميعا تاريخا ثوريا ونضاليا .

فمنذ العشرنيات وحياة شعبان حافظ سلسلة من النضال والتضحيات من أجل مصر، من أجل المطحونين والمسحوقين، من أجل العمال والفلاحين . . فقد شارك مع حسنى العرابى وسلامة موسى وعبدالله عنان والشيخ صفوان أبوالفتح والشيخ عبداللطيف نجيب - من مدرسة القضاء الشرعى - وأنطون مارون وغيرهم من أبناء مصر المخلصين فى أول تنظيم سياسى يتبنى الاشتراكية العلمية ويدعو إلى إلغاء

الفوارق بين الطبقات وإلى مصادرة الملكيات الكبيرة وتوزيع الأرض على الفلاحين وخلق مجتمع يعطى لكل حسب عمله ويأخذ من كل على حسب طاقته.

وظل ذلك الحلم يراود شعبان حافظ طوال أربعين عاما لم يكف فيها لحظة واحدة عن العمل من أجل تحقيقه.

ومنذ أصدرت محكمة جنايات الإسكندرية فى أكتوبر ١٩٢٤ حكمها على شعبان حافظ وزملائه بالسجن، وهو يخرج ليناضل من أجل أفكاره ويعود إلى السجن مرة أخرى..

ولكن عم شعبان، الوحيد الذى كان رمزا لاتصال نضال الأجيال، شاء هذه المرة أن يموت فى السجن مخلفا وراءه ٧٥ عاما من المعارك المتصلة من أجل عمال وفلاحى ومثقفى مصر. ومنذ أسبوع واحد فقط وكنت أجلس إليه كعادتى مثلما يجلس التلميذ الصغير أسمع من فمه الخالى من الأسنان صورا من تاريخ نضال شعبنا الحى.. وقد قال يومها فى ضحكة الشيخوخة البريئة:

- كل أمنيتى فى الحياة أن أموت فى المعركة.. أما أنتم فستشهدون انتصار الحلم.. وستعيشون الاشتراكية.

نفس الأمنية التى جالت فى ذهن القائد الكبير خالد بن الوليد.. لقد كافح خالد وناضل بسيفه المسلول من أجل القيم الجديدة والإنسانية التى بشر بها الدين الجديد.. وكم كان حزينا أن يموت على فراشه..

ولكن شعبان حافظ مات فى المعركة.. وبين أيدى أبنائه وأحفاده.

وفى مساء نفس الليلة، والمعتقل يخيم عليه رنة حزن عظيم، فوجئت بهم يطلبوننى فى الإدارة لأجهز نفسى للسفر إلى القاهرة وكنت قد نسيت تماما أن الدكتور فاروق حسنى فى مستشفى الدمرداش قد أصر على أن يتابع الكشف على عينى كل شهر، ولما كان ذلك يعنى أن أبقى فى سجن مصر فلقد طلبت منه أن يزودنى بكل التعليمات والعلاج اللازم على أن أعرض عليه كل ستة شهور.

وكانت أكثر من ستة شهور قد انقضت منذ أن أجريت العملية.

وسافرت ليلتها إلى القاهرة.. ومعى الحرس.

ومعى أيضا جثمان الأب العظيم شعبان حافظ.

-٣٠-

فلتذكرونى بالنضال..

فلتذكرونى عندما تعدو الحقيقة وحدها حيرى حزينة.

فلتذكروا ثأرى العظيم لتأخذوه من الطغاة، وبذاك تنتصر الحياة .

عبدالرحمن الشرقاوى - الحسين شهيدا

٤ أبريل ١٩٦٤:

أصبح الإفراج أمرا مؤكدا . . ولكن متى؟

أكثر من ثلاثة شهور وأنا أعيش فى مستشفى سجن مصر . . وكل يوم أسمع أنباء عن قرب الإفراج . .

فبعد أن انتهيت من الكشف مرة أخرى فى مستشفى الدمرداش والاطمئنان على حالة العين لم أرحل ثانية إلى الواحات .

وحرصت المباحث العامة على أن ترسل هذه المرة أحد ضباطها ليفسر لى الموقف خوفا من أى مضاعفات أخرى

قال إن إبقائى فى سجن مصر هو فقط لأن كشوف الإفراج تعد ولم يعد هناك حاجة لترحيلى إلى الواحات .

أبى وإخوتى يحرصون على أن يرسلوا لى خطابات تؤكد أن الإفراج وشيك ، بل وحضر أبى أكثر من مرة ووقف عند أحد التلال البعيدة التى تطل على مستشفى السجن واستجمع الرجل كل ماالديه من صوت ، مثلما كان يفعل أهالى وزوجات المسجونين ، ليبلغنى أن صلاح نصر نفسه قد أكد الإفراج عنا جميعا .

والصحف هى الأخرى توحى من خلال عرض الأحداث والأخبار بأن الإفراج سيكون وشيكا .

فالانتخابات الجديدة لمجلس الأمة قد تمت ، وهناك تصريحات عن إلغاء الأحكام العرفية وكل الإجراءات الاستثنائية المترتبة عليها .

والكل فى انتظار خطاب عبدالناصر فى ٢٥ مارس فى افتتاح مجلس الأمة .

كل المؤشرات تنبئ بأن الأبواب المغلقة على وشك أن تفتح .

حتى الدكتور كمال وضباط السجن بل والمسجونين أنفسهم يعاملوننى كضيف على وشك الرحيل . . وعم محمد الممرض العجوز يحجز معى موعدا للمرور على فى المنزل لكى أكتب عن مشكلة ابنه فى الجرائد ! !

وتمر الأيام ، وأحاول جاهدا أن أخلق إحساسا بالهدوء والاستقرار الداخلى وسط كل تلك الدوامة التى توشك أن تقذفنى مرة أخرى إلى عالم آخر . . عالم يعيش بعيدا عن الأسوار والحرس والأوامر والقيد الحديدى .

وكانت الظروف هى الأخرى قد تغيرت فى مستشفى السجن منذ أن تركته فى العام الماضى . . معظم نزلاء المستشفى من طراز جديد . . غالبيتهم يشغلون مناصب كبيرة فى الخارج ودخلوا على ذمة قضايا جديدة بدأ معدلها يزداد فيما يبدو فى الأيام الأخيرة . . قضايا تتعلق بالاختلاس أو سوء استخدام السلطة والتهريب .

كان هناك الدكتور السمنى وكيل وزارة الإصلاح الزراعى ومعه عدد من كبار موظفى الوزارة .

وكان هناك رؤساء مجالس إدارات وباشوات سابقون وبعض الأجانب المهتمين بالتهريب . . وبحكم الزمالة فى المستشفى الذى كان عنبرا ممتدا يحتوى حوالى ثلاثين سريرا متجاورة وأيضا لأنى لم أفقد طوال تلك السنوات حاسة الصحفى الباحث عن الحقيقة كونت علاقات بينى وبين غالبيتهم .

كان فيهم «البيك» المتحفظ الذى يصر على أن يعامل كل من فى المستشفى بمن فيهم أنا ، بل وعلى رأسهم أنا ، كما لو كانوا من العاملين فى عزبته أو قصره .

وكان فيهم الموظف الكبير الذى اتهم بالاختلاس واستغلال مركزه وهو بالطبع لايكف عن اتهام النظام كله بأنه أصبح «شيوعيا» ولم يعد فيه مجال للكفايات الخاصة من أمثاله ولذلك اتهموه بالاختلاس ! !

على أن أظرفهم وأخفهم دما هو المليونير بسيونى جمعة . . لم يفقد حيويته ولم يكتف بإنزال اللعنات على المجتمع «الذى لايقدر كفايته» أو النظام الذى يغلق أبواب الرزق أمام «الكفايات» . . بل كان فى حالة مرح متصل . . يلقى بالنكت والقفشات ويكون مجموعة السهرانين بالليل ليحكى عن مغامراته التجارية والنسائية بلهجة بسيطة وبلا تعقيد أو محاولة لإخفاء الحقائق .

كان يقول وهو يضحك من أعماقه :

- أعمل إيه . . أنا راجل شاطر . . أمسك التراب يبقى ذهب زى الملك الرومانى القديم . . أظن كان اسمه ميداس . .

وبسيونى جمعة شاطر حقا . . فى أعقاب الانفصال السورى صودرت ثروته وكانت أكثر من مليون . . وبدأ من الصفر وبعد سنتين صودرت ثروته مرة أخرى . . وكانت أكثر من مليونين هذه المرة . . ولكنه على يقين من أنه سيخرج يوما ما وسيتحول التراب مرة أخرى فى يده إلى ذهب . .

كيف؟ . . ويضحك المليونير المصادر .

- ماهى دى بقى الشطارة . .

- لكن كل شىء تقريبا أصبح مؤمما .

- ربنا يخلى الموظفين الكبار . . شوف فى بلدنا أبعد عن السياسة تكسب على طول الخط . .

نصيحة يؤكدها دائما المليونير المصادر ثم يقول فى مزيج من السخرية والمرح :

- خمس سنين ياراجل علشان رأى . . اسمح لى دا غباء . .

دا أنت لو خبطت لك خبطة بمائة ألف جنيه وانكشفت ديتها سنة واللا اثنين . . شوف بقى ضاع منك كام فى الخمس سنين . .

منطق ! !

يشبه من الناحية الأخرى منطق الشاويش متى فى الواحات حيث لم يكن عقله يستطيع أن يهضم أن هؤلاء الذين يضربون كل يوم ويحملون الحجارة ويقضون زهرة شبابهم فى المعتقلات منهم الطبيب والمهندس والكاتب والضابط والطالب والعامل وأن كل جريمتهم هى فكرة يحملونها فى رءوسهم . .

كان الشاويش متى يصيح . . عمرى ماشفت أغبى منكم!

وحدث . . .

فى الساعة العاشرة من صباح يوم الاربعاء ٤ إبريل . . جاءنى عم محمد الممرض لاهثا وهو يحتضننى .

- أستاذ . . ألف مبروك . . إفراج . .

كنت أعرف كل شىء . . بل وعرفت من أخوتى بالأمس أن بعض الزملاء الذين أفرج عنهم من الواحات زارونى فى البيت على ظن منهم أنه قد أفرج عنى . . وأكدوا أنهم أفرجوا عن دفعات كثيرة من الواحات . .

ورغم هذا فلقد كان لكلمات عم محمد وقع المفاجأة . .

وتلفت وسط عنبر المستشفى فى حالة تامة من انعدام الوزن . . وعقلى تائه تماما لايعرف فيما يفكر . . والممرض وآخرون يرددون كلمات التهانى ، وعم محمد يلم حاجاتى بجوار السرير ويشدنى من يدى لأنزل . . وعند البوابة تسلمت «الأمانات» الحقيبة المهلهلة تضم ملابس وجنيهين ونصفا متبقية من حساب كانتين السجن . .

وحرص مأمور السجن والضابط على توديعى ، وكان الوكيل أكثرهم إطراء لى وإصرارا على أن نلتقى فى الخارج . .

وخرجت من البوابة ومعى حارس واحد وبدون قيود . .

وألقيت نظرة طويلة على السجن من الخارج . .

كثيرا ماخرجت من هذه البوابة فى الطريق إلى قصر العينى أو مستشفى الدمرداش أو الواحات . . . وكنت دائما أعود . .

ولكن هذه المرة . . خروج بلا عودة . .

وانطلق بنا «الجيب» . . . شارع محمد على ثم شارع بورسعيد فميدان السيدة . . وأخيرا لاظوغلى . .

ونزلنا أمام مبنى المباحث العامة .

كنت هنا منذ خمس سنوات وسبعة أيام .

المبنى لم يتغير . . والسلالم العريضة . . على تلك الدرجة انكفأ الدكتور لويس عوض . . منذ خمس سنوات وسبعة أيام . .

وسلمنى الحارس إلى أحدهم الذى قادنى إلى إحدى الغرف .

ورأيت ضابط المباحث الذى كان يزورنى فى قصر العينى وفى سجن مصر . .

– ألف مبروك .

– شكرا . . .

– . . أخبار عينك إيه؟ . .

– أحسن . . .

وقدم ورقا وقلما وهو يبتسم .

– تحب تكتب لنا بعض البيانات .

وهززت رأسى وأنا أيضا أبتسم . .

واستوفى بياناته . . السن . . العمل . . العنوان .

ثم قام من مكتبه وصافحنى وهو يقول .

– آسف لكل ماحدث . . كنت أقوم بواجبى الوظيفى . .

قلت له :

– وأنا كنت أقوم بواجبى الوطنى .

– وخرج معى إلى باب الغرفة وأشار بيده .

– مع السلامة .

وتحركت قدماى بعض خطوات فى الردهة . . ثم وقفت أتلفت حولى . . لا أحد ورائى وتحركت خطوات أخرى . . لا أحد يرقبنى . . الكل مشغول بأعمال أخرى . . واجتزت الردهة وبدأت أنزل السلم العريض . . وخيل لى أن أحدا ينادينى والتفت . . لا أحد . .

ونزلت إلى الفناء ثم إلى الباب الرئيس . . وترام يمرق فى سرعة وضجة . . والشارع ملىء بالعربات والناس . . ونظرت إلى الحارسين اللذين يقفان عند البوابة كأنما أستأذنهما . . ولم يلتفتا إلى . . وخطوت على رصيف الشارع . . خطوة، اثنين . . أربعة . . خمسة . .

وتحولت إلى قطرة تائهة فى بحر الحياة التى يمتلئ بها الشارع . . وأسرعت أخترق

الشارع إلى الجهة الأخرى . . وكدت أصطدم بتاكسى . . وصاح السائق :

- بطلوا الهباب اللى بتخدوه . . فوقوا بقى ! !

وابتسمت لوقاحة السائق ولما كان يمكن أن يحدث لو أن الرجل لم يستطع أن يتفادانى . . وأخذت جانبا على الرصيف ووضعت الشنطة على الأرض . .

كنت فى حاجة لأن أتأكد أنه قد أفرج عنى حقا . . مبنى المباحث قد ابتعد . . ولا أحد خلفى . . بل ولا أحد يهتم بى . . الشارع مزدحم على غير العادة بالناس والعربات . . وأخرجت منديلا أمسح بعض العرق . . وابتسمت طالبة صغيرة وهى تنظر إلى وتشير لزميلتها . . وأخذت أفتش فى نفسى . . بالتأكيد هناك شىء ما أثار تلك الابتسامة ، ملابسى ، الجاكتة طويلة أكثر من الجاكتات التى أراها ، ولكن هكذا كانت الأمور منذ خمس سنوات . . والبدلة مكسرة . . كان لابد أن أكويها . . ولو . . ماذا قالت عنى الفتاة . . ربما قالت فلاح يأتى مصر لأول مرة . .

وحملت الشنطة مرة أخرى وسرت فى اتجاه باب اللوق .

فكرت فى أن أنادى تاكسى أو أركب اتوبيسا أو تراما ولكنى لم أستقر على شىء كانت قدماى تمضيان بلا تفكير وعيناى تجولان فى الشارع بلا هدف محدد . . واصطدمت بالمارة أكثر من مرة واعتذرت . . ولكن لم أناد تاكسى . . كنت أريد أن أمشى . .

وتوقفت مرة أخرى أمام محل لعصير القصب وطلبت «شوب» ثم وقفت أتأمل نفسى وملابسى فى مرآة المحل . .

وأعدت تصفيف شعرى وأنفض الكثير من التراب والبقع فى الجاكتة .

- أستاذ . . العصير . .

وأخذت «الشوب» . .

قال الرجل . .

- حضرتك كنت «معتقل» .

وامتقع وجهى لذكر الكلمة وقبل أن أقول شيئا قال الرجل :

- أصل كل زمايلك فاتوا من هنا . . كلهم شربوا «عصير» .

وابتسمت فى بلاهة وخرجت مسرعا وناديت تاكسى .

- شارع ٢٦ يوليو يا أسطى.

وأخذت نفسا عميقا بعد أن تركنا الشارع واختفى مبنى المباحث العامة.. ودخل التاكسى فى شارع هدى شعراوى ثم ميدان التحرير فالكورنيش.. وأخذت أحملق فى مبنى التليفزيون العملاق.. تركته مجرد أرض واسعة ووابورات تدك الأساس.. وقال السائق أشياء لم أسمعها كانت كل حواسى تتركز فى عينى.. وكانت عينى تعيد اكتشاف المرئيات.. الناس أكثر والشوارع أزحم والبنات أحلى، وخاصة فى «المينى جيب».

ونزلت من التاكسى.. ووقفت أمام العمارة.. لم ينقص حجر واحد. حتى الشرخ فى زجاج البوابة لم يزدد.. ظل كما هو.. وأسرعت إلى الداخل وبدأت أرتقى الدرجات الأولى..

وشدنى عم مدبولى من الخلف.

- نورت يا أستاذ.. ألف حمد الله على السلامة.

وخرج البواب من غرفته واحتضننى بعنف وهو ينادى على أختى..

وفتحت أبواب الشقق.. وانطلقت الزغاريد.. ووجدت نفسى فى الدرجات الأولى وحولى جمهرة من الجيران، وشقت أختى الجموع وأخذتنى بين يديها.. ونزل أبى السلالم مهرولا وانكسرت نظارته..

وتحركنا درجة درجة حتى وصلنا إلى الدور الثالث.

منذ خمس سنين وعدة أيام نزلت هذه الدرجات قفزا وهروبا من تشنجات أختى وبكاء سامح الصغير.

ودخلت الشقة.. كانت مزدحمة واندفعت بغريزة مفاجئة إلى غرفتى وأسرعت أختى تفتحها.

ووقفت على أعتاب الغرفة أتأملها وأعيد اكتشافها.

كل شىء فى مكانه.. والسرير والمراتب المقلوبة.. والكتب الملقاة فى كل مكان.. وبقايا السجاير.. وكتاب كنت أقرؤه فى نفس الليلة.. فى مكانه ورائحة غريبة تملأ الغرفة.. وكدت أشم أنفاس الضابط ورجاله.. فى تلك الليلة الكئيبة منذ خمس سنوات.

قال أختى :

- منذ تلك الليلة لم نفتحها . . لم أكن أستطيع .

ثم أسرعت إلى النافذة تفتحها ، وانهكمت فجأة فى ترتيب كل شىء ، بينما كانت الغرفة تموج بهواء جديد .

فذلكة ختامية

من الناحية الفنية يعتبر الفصل السابق هو ختام تلك المرحلة أو تلك الملحمة، أو تلك التراجيديا أو سمها كما شئت.

فبكل المعايير انتهى الحدث بالأسس المعترف بها فى البناء الدرامى.. بداية المشكلة ثم تعقدها ثم الوصول إلى حل.

ولكن هذه المعايير تسقط تماما إذا كان العمل المقدم ليس بناء دراميا أو قصصيا، ورغم ماحفل به من وقائع ترقى إلى هذا المستوى - ولكنه أولا وأخيرا مرحلة تاريخية كاملة، ولما كانت الوقائع التاريخية، وخاصة إذا كان هناك التزام بسردها.. أكبر بكثير من مجرد اعتقال فرد أو مجموعة من الأفراد والجماعات تم الإفراج عنها - فلقد وجدت القلم يلعب فى يدى بعد أن وضعت السطر الأخير، بل وأحسست بقلق داخلى غير مريح..

وكان هذا يعنى أن هناك أشياء أخرى يجب أن تقال وإن هذه الأشياء تفرض نفسها من واقع الإلزام والالتزام.

والإلزام طالما زعمت لنفسى فى المقدمة أن هذه المرحلة من أخطر المراحل التى مرت بها مصر والعالم العربى، فهنا يكون لزاما على أن أحاول أن أصل إلى نتائج وضعت مقدمات بعضها، ولم يكن من الممكن أن تبقى الحقيقة ناقصة مبتورة تحت دعوى أن الإفراج قد تم فى إبريل سنة ١٩٦٤.. إنه تاريخ مهم ولاشك - ولكن الوقوف عنده يوحى كما لو أن فترة الاعتقال قد تحولت إلى جملة اعتراضية بين قوسين دون أن يكون لها أثر أو تأثير فى مسار الأحداث.

بالتأكيد إن الأمر لم يجر على هذه الصورة.

والالتزام بالإحساس بالمسئولية إزاء العمل المقدم، فالقضية فى النهاية ليست رواية مثيرة، رغم ماقد يكون فيها من إثارة.. وليست عرضا لمعاناة ذاتية لفرد أو مجموعة أفراد.. ولانريد أن تكون مجرد صرخة من صرخات الاحتجاج على ماقد

حدث . . ولكنها فى الواقع قصة شعب بأسره أو هكذا كانت ومازالت اقتناعاتى قضية تعلو فوق كل الخلافات الفكرية والأيديولوجية فى الماضى والحاضر . . إنها قضية حضارية . . قضية تتعلق بالإنسان المصرى . . بإمكانات تنظيم صراعاته وخلافاته على أسس حضارية بعيدا عن كل أساليب التعذيب والقهرين البدنى والنفسى اللذين مارستهما أو تمارسهما أو قد تمارسهما أى سلطة فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل .

ولقد قيل ، وهو قول صحيح أعتقد أنه من مأثورات جواهر لال نهرو ، إن السلطة مفسدة وإن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة ، ولعل هذا هو الدافع لأن تلجأ غالبية النظم الحضارية سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكية إلى محاولات التقليل من هذه المفسدة ومطلقاتها .

الدول الاشتراكية تحاول أن تواجه هذه المفسدة بأكبر قدر ممكن من المشاركة الجماعية والجماهيرية ، وبأكبر قدر ممكن من الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى تقلل أو تحد أو حتى تلغى الفوارق والامتيازات الطبقية .

والدول الرأسمالية المتحضرة لديها هى الأخرى ماكينتها الخاصة متمثلة فى نظام الأحزاب والبرلمانات والنقابات والاتحادات والتى تخرج من خلالها دخان العادم القادر على موازنة حركة الموتور أو بمعنى آخر حركة النهب والاستغلال الرأسمالى .

ولست بالطبع ممن يبنون الأوهام أو على استعداد لأن تخدعهم الواجهات الديمقراطية التى تستخدمها الدول الرأسمالية المتحضرة . .

فحين يتكلم الإنسان عن النظم الحضارية فإن الأمر هنا نسبى إذ لابد وأن نتفق على أن هناك خطا فاصلا ، وإن لم يكن حاسما ، بين مجتمعات تسود فيها القيم الحضارية العامة متمثلة فى الديمقراطية الاشتراكية أو حتى الديمقراطيات الرأسمالية القائمة على نظرية «دخان العادم» وبين مجتمعات تنطلق فيها السلطة بلا حدود أو حواجز ، حتى ولو كانت حواجز شكلية . . ولايشك القارئ للحظة واحدة أن الديمقراطية الصحيحة فى مفهومى هى تلك التى تستمد معناها من أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، أى باختصار - الديمقراطية الاشتراكية .

ولكن أيضا لا أريد للقارئ أن يشك فى أننى حين أواجه واقعا معينا ومرحلة معينة يكون من الصعب فيهما تحقيق الديمقراطية الاشتراكية فإننى أصوت على الفور للنظام الرأسمالى الذى يضع فى اعتباره نظرية الشكليات الديمقراطية .

إن ذلك أفضل بالتأكيد من نظام رأسمالى يعطى لنفسه تفويضا مطلقا تحت أية دعوى، فهناك فرصة فى الاختيار الأول لحركة الجماهير ولسيطرتها على صمام «دخان العادم» ولحظتها تستطيع الجماهير أن تحطم الموتور الرأسمالى ذاته وتستبدله بطاقة اشتراكية جماهيرية.

حقيقة إن الثورة الاشتراكية لم تتحقق حتى الآن من خلال البرلمانات والانتخابات الرأسمالية، هذا لو أسقطنا من اعتبارنا تجربة تشيللى المجهضة، ولكنها أيضا مسألة واردة ليس من الناحية النظرية فحسب، بل وأيضا من خلال دراسة صبورة لمجريات الأمور فى بعض البلدان الرأسمالية، وعلى وجه التحديد إيطاليا وفرنسا وبشكل أحدث البرتغال واليونان.

وحين آمنت ومن خلال دراسة ووعى بواقع مصر وظروفها بالاشتراكية، وبالاشتراكية العلمية كحل قومى وطبقى وإنسانى لهذا الواقع وتلك الظروف، فلقد آمنت وفى نفس اللحظة أنه الحل الديمقراطى الأوحد.

ولم يحدث لمرة واحدة أن وجدت تناقضا فى فهمى للضرورة الاشتراكية وللمتطلبات الديمقراطية.

ولعلى لاأتجاوز الحقيقة إذا قلت إن الذين تصوروا أنهم يبنون الاشتراكية قفزا على حرية الإنسان وحركة الجماهير واعتماداعلى أجهزة سلطوية أو منقطعة الجذور مع واقعها هم فى النهاية أبعد الناس عن الاشتراكية أو بأقل المعايير وأكثرها تساهلا مشوهون لها.

فالاشتراكى الحقيقى بقدر ماهو وطنى حقيقى بقدر ماهو ديمقراطى حقيقى، إن هذه الحقائق الثلاث المتكاملة هى التى تعطى للاشتراكى أيضا عواطفه الأممية الحقيقية.

والذين يبحثون عن تناقضات بين أن تكون اشتراكيا وديمقراطيا أو أن تكون وطنيا وأمميا هم العاجزون عن استيعاب وفهم الأسس الحقيقية للاشتراكية العلمية..

ولكل هذا ولبعض منه، فليس فى نيتى أن أتخذ مسوح القاضى القادر على إصدار حكم فى هذا الكتاب، إن هذا لم يطرأ على الذهن ولم أسمح لنفسى بأن تغرق فى متاهات لست قادرا عليها كما أنى لست مؤهلا لها.

كذلك فلست ممن يريدون لأنفسهم موقف الشهادة سواء بالسلب أو الإيجاب لتأكيد التهمة أو نفيها.

إن كل ما أحلم به من خلال ماقدمته هو أن أكون مجرد واحد من المحلفين الذين لعبوا دورا فى القضية . . والقضية التى أعنيها ليست قضية الأمس بل قضية اليوم والغد .

قضية أطمح أن يكون كل أبناء وبنات مصر مشاركين فيها شهودا ومحلفين وقضاة . . وأن يكون حكمهم «حتى لايتعرض أى مصرى أو مصرية لأى نوع من أنواع القهرين البدنى والنفسى لأنهم يحملون رأيا يختلف مع الآخرين» تلك هى قضيتى وأعتقد أنها قضية الجميع . .

واضعا فى الاعتبار كل تلك الظروف . . فلقد وجدت أنه من الأفضل لو أجملت بعض الملاحظات السريعة التى واكبت هذه المرحلة وكانت بمثابة علامات طريق :

أولا : إنه بعد تصفية معتقل الواحات ثم بعد ذلك الإفراج عن المسجونين الشيوعيين الذين كانت قد صدرت بحقهم أحكام . كان هناك قدر كبير من التفاؤل فى أن مصر بإزاء مرحلة انطلاق وطنى ديمقراطى عارم ، وقد كان هناك مبررات قوية لهذا التفاؤل فصدر الدستور الذى يضع فى صلبه عددا من الأسس التى تدشن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت ، لذلك تلاحقت الإجراءات الخاصة ، بالمزيد من التأميمات والتشريعات التى كان من الممكن أن تضع حدا للنمو الرأسمالى ولكن الانعكاسات الحقيقية لتلك الإجراءات والتشريعات فى واقع الناس وحياتهم ظلت أقل بكثير ، إذ إن الذى أشرف على التنفيذ ظل فى الأساس هو نفس الأجهزة والقوى السابقة دون أن يطرأ على جهاز الدولة أو نظامه أى تغيير جذرى .

ثانيا : قامت التنظيمات الشيوعية أو بمعنى أدق التنظيمان الشيوعيان بعد حوالى عام من الإفراج أى فى سنة ١٩٦٥ بعقد مؤتمر موسع وقررا حل نفسيهما على أساس أن الاتحاد الاشتراكى العربى هو التنظيم الثورى المؤهل لكى يقوم بدور قيادى وطليعى وباعتباره تنظيم السلطة الثورية . ولقد كانت هناك أقلية فى التنظيمين تعارض الحل على أساس أن يبقى التنظيم الشيوعى مع الدخول فى جبهة متحدة مع الاتحاد الاشتراكى كمرحلة أولى ، ومن الممكن من خلال الجبهة وضع أسس التنظيم الثورى الواحد .

وبالرغم من أن هذه الأقلية سجلت رأيها إلا أنها لم تتخذ أى خطوة بعد قرار الحل فى اتجاه إعادة التنظيم .

ثالثا : بينما عاد الصحفيون الذين كانوا فى المعتقلات إلى عملهم بعد أقل من شهر من الإفراج عنهم ، وكذلك معظم المثقفين إلا أن العمال فى غالبيتهم العظمى لم

يعودوا إلى أعمالهم السابقة، وظل الكثيرون من المعتقلين من العمال بلا عمل لسنوات بعد ذلك والتحق غالبيتهم بأعمال فى القطاع الخاص . .

كذلك فإن المدرسين وأساتذة الجامعات لم يسمح لهم بالعودة إلى عملهم السابق فألحقوا بوظائف إدارية .

ومن الملاحظ أيضا أنه بينما أعطيت عضوية الاتحاد الاشتراكى لعدد من المثقفين من المعتقلين والمسجونين السابقين إلا أنها حجبت بشكل شبه مطلق عن العمال .

كما عرف بعد ذلك أن كل من عاد إلى عمله كان يشفع بقرار العودة قرار سرى آخر يحذر من تولى الشخص أى مسئولية قيادية! رغم أن وثيقة الحل كانت قد أعلنت ورغم الحماس المطلق للمعتقلين السابقين للتجربة .

رابعا : فيما عدا عدة شهور فى أواخر سنة ١٩٦٤ فإن معتقل القلعة وسجن طرة عادا من جديد يستقبلان نماذج من المعتقلين الشيوعيين تحت دعاوى كثيرة بلغت إلى حد أن أحد الزملاء - فرانسيس لبيب - اعتقل بتهمة أنه «يلسن» على النظام، واعتقل لفترة أيضا الزملاء الذين سجلوا رأيهم فى المؤتمر الموسع للتنظيم الشيوعى وكانوا ضد قرار الحل .

بل إن عددا من قيادات منظمة الشباب الاشتراكى وأساتذة المعهد العالى للدراسات الاشتراكية قد اعتقلوا سنة ١٩٦٦ تحت دعوى الترويج للمذهب الماركسى .

خامسا : حقيقة ضم إلى التنظيم الطليعى والذى كان يضم كل المحافظين ورؤساء مجالس الإدارات وقيادات الأجهزة عدد من الماركسيين، ولكن هذا العدد الذى لم يتجاوز العشرين بأية حال من الأحوال كانت غالبيتهم من المثقفين ومن العاملين فى أجهزة الإعلام بوجه خاص .

ولقد كانت قيادة التنظيم السرى - ويعلم الله لماذا كان سريا رغم أنه تنظيم السلطة - تختار نوعيات خاصة تثق فى ولائها . . ولست أدرى أيضا لماذا يحلو للبعض دائما أن يقرن الماركسيين بالتنظيم السرى رغم أنهم كانوا فى غالبيتهم العظمى بعيدين عنه .

سادسا : إن ثورة ٢٣ يوليو هى فى النهاية ثورة وطنية تقدمية عملت بقدر طاقة وإمكانيات قيادتها على أن تخطو فى طريق التطور الوطنى الديمقراطى وبالذات فى الستينات، والإجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى تلك الفترة غيرت الكثير من أوراق الماضى ومؤلفاته .

ولكن ظل الاعتماد فى الأساس على الأجهزة الرسمية وكذلك عدم الثقة فى إيجاد

تنظيمات سياسية وجماهيرية ناضجة بما فى ذلك الاتحاد الاشتراكى نفسه وهو الذى أعطى لكثير من قوى التخلف الفرصة الواسعة للهجوم على الثورة ومنجزاتها، وهو نفس العامل الذى حال دون أن تلعب القوى الوطنية والديمقراطية دورها الجماهيرى الحقيقى لتأصيل وتطوير تلك الأفكار والمنجزات.

وأظن أنه لاطريق أمامنا الآن سوى أن نعرف كيف نختلف وكيف نتفق ولماذا نختلف ولماذا نتفق؟ . . مع إلغاء جميع القيود التى تمنع الإنسان المصرى من أن يعبر عن رأيه صراحة دون أن يتعرض لأى شكل من أشكال القهرين المادى والمعنوى.

مقدمة

إن هذه المذكرات لا تزعم لنفسها أنها تقدم تاريخاً . .

بل إنها لا تدعى أنها تقدم تقييماً لمرحلة تاريخية . .

فهذه مهمة لا أقدر عليها حتى لو توافرت لدى الرغبة . .

ولكنها بالتأكيد تقدم شهادة واقعية أو فلنقل لوناً من ألوان السيرة الذاتية لإنسان عاش تلك الأحداث وعايشها . . ليس كمراقب من بعيد ؛ بل كجزء من الحركة نفسها . .

لقد احتفل النقاد كثيراً: اختلفوا وتباينوا بشكل أكثر حول كتاب «شيوعيون وناصريون» الذى صدر فى السبعينيات . .

فبينما اعتبره البعض وثيقة سياسية واستخدم بالفعل كأحد المراجع الضرورية فى تقييم المرحلة الناصرية سواء فى المحاكم أم فى دراسات الجامعة لنيل الماچستير والدكتوراه . .

فإن البعض الآخر نظر إليه «كرواية تاريخية» تحكى بشكل فنى أحداثا واقعية . . امتزج فيها البعد الذاتى بالبعد الموضوعى ، بينما رأى كاتب كبير مثل نجيب محفوظ أنه يجسد جنساً خاصاً من أجناس الإبداع الأدبى والفنى يقف على قدم المساواة إن لم يفق أعمالاً شبيهة صدرت فى الغرب مثل «عريان بين الذئاب» للكاتب الألمانى برونو آبيتز ومثل : «النفى فى سيبريا» للكاتب الروسى سولجستاين الذى حاز على جائزة نوبل . .

والحقيقة أننى لم أفكر كثيراً فيما ذهب إليه النقاد والكتّاب فقد كان «شيوعيون وناصريون» تجربة عميقة عشتها وحاولت أن أقدمها للقارئ بنفس درجة الصدق والمعاناة التى خضت بها التجربة . .

والأمر كذلك بالنسبة «للخروج» والتى هى فى الواقع امتداد لنفس التجربة فى ظروف ومرحلة جديدة . .

ويقال دائما إن لحظات الصدق الكلى مع الذات تتحقق بشكل خاص فى «السجن والحرب والغربة» . . ففى هذه الظروف الخاصة يتعرى الإنسان أمام نفسه تماماً ، وتسقط كل عوامل الزيف والخداع . .

فهى تجارب طاحنة فاصلة ، إما أن تدمرك تماماً وإما أن تصقلك تماماً . . وليس هناك خداع أو حل وسط . .

لقد كان الأمر كذلك فى تجربة الاعتقال والسجن فى «شيوعيون وناصريون» مثلما هو فى تجربة الغربة فى «الخروج» .

مع كل الحب .

فتحى عبدالفتاح

القاهرة ١٩٩٠

[٣١]

هذا زمن لا تبكى فيه العيون ورغم ما فيه من
معاناة وحزن فستسميه الأجيال القادمة الزمن
الذى لا تدمع فيه العيون.

جوانترجراس - الطبل الصفيح

١٢ فبراير سنة ١٩٧٦ ..

صالة الترانزيت فى مطار القاهرة، بعد ساعتين من منتصف الليل وقبل الساعتين من بزوغ الفجر، تغرق فى فيض من الأضواء الصامتة تملأ فراغها الكبير الموحش الذى خلا إلا من عدة أفراد تناثروا فى المقاعد وتاهوا بينها. وأخذت ركناً قريبا من الكافتيريا . . ورميت بنفسى فوق الكرسى فى انهداد واضح بينما وجد ولداى عمرو (٨ سنوات) وياسر (٥ سنوات) فرصة مثالية للانطلاق والمرح فى الصالة الخالية فراحا يتسابقان فى الجرى والزحلقة على الأرض فى احتجاج طفولى واضح على السكون المنعقد، وفى إزعاج واضح للبعض الذى كان قد غفا أو شطح بعيداً مخترقاً الزمان والمكان . .

كان يوماً من الإرهاق المكثف، من الصبح وحتى بعد منتصف الليل، زائرون ومودعون من الأهل والأصدقاء، وإجراءات لا نتذكرها عادة إلا ساعات قليلة قبل السفر لابد وأن تنجز.

ويضيع اليوم، وينتصف الليل ويصل الذهن فيها إلى حالة مطلقة من الشرود أو انعدام الوزن، إضافة إلى فيض المشاعر المبهمة الغامضة التى تجتاحنى أحاول تغطيتها بابتسامة هادئة أودع بها الأخت والأخوة والأصدقاء الذين أصروا على توديعى حتى باب المطار . .

كان ذلك السكون البارد المضىء فى صالة الترانزيت، ورغم عبث الطفلين الذى لم ينقطع، فرصة لتجميع شتات الذهن أو على الأقل للخروج من تفاصيل اللحظة الراهنة.

كم مرة جلست فى هذه الصالة فى السنوات العشر الماضية متجهاً إلى باريس أو روما أو موسكو أو وارسو ودمشق وعدن وبغداد وتونس أو حتى برلين فى رحلات عمل صحفية أو فى مؤتمرات دولية، منفرداً أو ضمن وفد من الوفود، وأنا سعيد بجولة تمتد أسبوعين أو ثلاثة أو حتى شهراً أزور فيها بلاد الله الواسعة وأتعرف عن قرب على ملامح حضاراتها وثقافاتها. فلقد كان السفر وركوب الهواء بشكل خاص يشكلان بالنسبة لى حالة انتعاش وجدانى تعمقه تلك السنوات الخمس الطويلة التى قضيتها فى المعتقل فى أوائل الستينات حبيس جدران صماء.

ولكن السفر هذه المرة يختلف . .

فهى ليست مجرد قفزة منفردة محدودة فوق البحر المتوسط تعود بعدها بأسبوعين أو ثلاثة مشحوناً بفيض من المعلومات والذكريات والخبرات . .

وحتى تذكرة السفر تخلو من تلك الدائرة التى كانت دائماً تبدأ بالقاهرة رحيلا وتنتهى بالقاهرة وصولا . . فالتذكرة هذه المرة تحمل طريقاً واحداً . . القاهرة- برلين.

أما العودة فقد تكون بعد شهور، وقد تكون بعد عام . . وقد تكون بعد عامين أو قد لا . . لا . . لا يمكن أن تمتد إلى أكثر من ذلك بأية حال من الأحوال.

لماذا هذا الطيف من المشاعر الحزينة الذى يغمرنى فى موجات هادئة نعم، ولكنها متلاحقة تبحر فى أعماق محيط ساكن غامض؛ ربما كان إجهاد اليوم وإرهاقه المكثف. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً فكثير من الأصدقاء لاحظوا فى الأسبوعين الماضيين أن هناك بريقاً حزيناً يعكسه الوجه والعينان. وكان الصديق عبدالعزيز عبدالله مدير تحرير الجمهورية ووكيل نقابة الصحفيين فى ذلك الوقت يفاجئنى بلهجته الصعيدية المحببة.

«مالك يا جدع أنت . . بالذمة دا شكل واحد مسافر لأوروبا» . .

كان عبدالعزيز عبدالله أحد الذين اقترحوا علىّ السفر إلى الخارج بعد أن لمس بنفسه الظروف الصعبة التى أمر بها فى الجريدة، فمقالاتى تشطب أو يشطب الجزء الأكبر منها، وقال لى يوماً، وقد كان فى موقع يسمح له بمعرفة خبايا الأمور فى عالم الصحافة . . إن هناك توجيهاً بإلغاء قسم الأبحاث والدراسات الذى أشرف عليه.

إننى أعرف تماماً لماذا أنا مسافر وإلى أين. ومع ذلك يبقى هناك شىء ما يمر بالخاطر، لمحة سريعة غامضة التفاصيل مبهمة الملامح محملة بجو أسطورى حزين.

فأنا مسافر إلى برلين عاصمة ألمانيا الديموقراطية لأعمل فيها مراسلا لجريدة الجمهورية أو على حسب نص قرار رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة فى ذلك الوقت الأستاذ/ عبدالمنعم الصاوى «مدير مكتب جريدة الجمهورية فى برلين» وكان قد سبقنى إلى ذلك العمل أو ذلك المكتب ثلاثة زملاء منذ إنشائه سنة ١٩٦٦ . . ولكننى فى نفس الوقت لم يدر بخلدى فى يوم من الأيام أن أعمل مراسلا وفى هذا المكتب الذى شاركت فى إنشائه، لقد كان ذلك آخر ما أتصوره . . أن أعمل خارج مصر . .

ففى سنة ١٩٧٠، وبعد عودة الزميل عدلى برسوم من برلين عرض على الأستاذ الصديق مصطفى بهجت بدوى رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة ذلك وكان ردى الاعتذار الحاسم .

وحتى فى سنة ١٩٧٣ حينما فصلت أو بشكل أدق حينما أحالتنى لجنة النظام فى الاتحاد الاشتراكى إلى المعاش ضمن ٣٦ صحفيا وكاتباً منهم أحمد بهاء الدين ولطفى الخولى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ومكرم محمد أحمد وميشيل كامل ثم لحقهم سبعون آخرون نقلوا إلى مصلحة الاستعلامات تحت دعوى أننا جزء من القلة الحاقدة التى تعمل على إثارة القاعدة الطلابية السليمة فى ذلك الوقت، حتى فى ذلك الوقت العصيب الحرج، لم أفكر فى السفر والعمل خارج مصر .

وذهب الكثير من الأصدقاء والزملاء الذين فصلوا أو نقلوا إلى بغداد وبيروت وطرابلس وإلى عواصم عربية أخرى، وبقيت فى القاهرة مع مجموعة أخرى من الزملاء نلتقى يوميا فى نقابة الصحفيين ونضع الخطط والبرامج لمقابلة المسئولين وغير المسئولين لفضح هذا القرار الجائر وغير المسبوق فى تاريخ الصحافة المصرية .

بل إننى اعتذرت عن عرض محدد من الصديق عبدالفتاح إسماعيل الذى كان فى ذلك الوقت السكرتير العام للجبهة القومية، وهى الحزب الحاكم فى اليمن الديموقراطية لأن أتولى مسئولية مؤسسة ١٤ أكتوبر الصحفية فى عدن، وشكرت للصديق حسن ثقته وقلت له بعد ذلك فى لقاء فى منزله على الربوة العالية المطلة على باب المندب : «لقد أحسست بالاعتزاز والتقدير بعرضك الغالى فى تلك الظروف والتى كنت فيها مفصولاً ومطارداً وأنت تدرك مدى ارتباطى الوجدانى بالثورة فى اليمن الديموقراطى ودورك القائد فيه، فلقد كانت هى أول شرارة أمل تتقد فى جو الظلام الحالك الذى فرض نفسه على مصر والأمة العربية بعد هزيمة سنة ١٩٦٧

الثقيلة . . ولكنى لم أستطع أن أقبل عرضك الكريم ، ببساطة لأنى لا يمكن أن أتصور لى أرضاً أقيم فيها غير مصر» .

ويضحك هو يومها قائلاً : «أعرفكم أيها المصريون . . مغروسون فى الأرض مثل شجر الجميز» .

وتكرر نفس الشىء فى عرض عراقى للعمل فى جريدة الثورة العراقية ، حتى إن أحد الأصدقاء وقد أثاره ذلك الموقف «الفلاحى الغبى» على حد تعبيره أرسل لى رسالة حامية يستثيرنى للخروج ويعدد الأسباب الدافعة إلى ذلك ، ويبدى استغرابه لإصرارى على البقاء فى مصر رغم أنى مفصول وممنوع من دخول الجريدة أو الكتابة والعمل وقال فى النهاية : «ماذا تنتظر بالله . . هل تنتظر حتى يقبضوا عليك ويرسلوك مرة أخرى إلى معتقل الواحات فى أعماق الصحراء . . ربما تكون قد اشتقت إليه . . » وقد انتهى هذا الموقف بعد صدور قرار عودتنا إلى العمل فى الأسبوع السابق لحرب أكتوبر العظيم نتيجة لظروف موضوعية كانت تؤكد أننا لم نكن قلة حاقدة تعمل على تأليب الجماهير وإثارة القواعد الطلابية السليمة ، بل إننا كنا نعبر عن نبض وحس الجماهير المصرية والعربية حينما كنا نطالب بالدخول فى معركة تحرير الأرض والعرض من المغتصب الصهيونى الجائر .

عندما التقيت بهذا الصديق فى رحلة بعد ذلك إلى البلد الذى يعمل فيه ، انفرد بى ليلة كاملة يشكو متاعب العمل وضيقه ببعض التصرفات التى لا تتدخل فقط فيما يكتب بل وفيما يفكر على حد تعبيره .

قلت له فى تلك الليلة الربيعية المقمرة فى حديقة البيت الذى يقيم فيه ضاحكاً هازلاً : . . يعنى الواحات بقى أفضل ؟ !

وقال فى كلمات قاطعة فاجأتنى شخصيا وأخرست الضحكة فى فمى : ألف ألف مرة . . !

فما الذى جعلنى أقبل بل وأسعى إلى ما كنت أرفضه منذ وقت قريب ما الذى دفعنى لأن أحزم أمتعتى وولدىَّ مثل بعض من سبقونى خارج حدود الأرض الطيبة فى رحلة عمل قد تستغرق سنوات . وأيقظنى ياسر الصغير من شتات أفكارى البعيدة إلى صالة الترانزيت مرة أخرى حينما جاء يشكو لى أخاه وداعبته مهدئاً ونظرت إلى عينه اليسرى المكسورة وكتمت تياراً مريراً من الألم اجتاحنى ويجتاحنى دائما وأنا أنظر إلى عين الصغير اللاهى . .

كانت عين ياسر قد أصيبت فجأة منذ عامين بمرض غريب وصفه الدكتور نبيل الجندى أستاذ جراحة العيون فى طب قصر العينى بأنها «حساسية خاصة . . » .

ومنذ تلك الليلة التى اكتشفت فيها احمراراً قانياً فى عينه اليسرى أعقبته فى ساعات قليلة سحابة بيضاء تغطى العين ، وأنا أعيش فى دوامة لا تنتهى من الهموم والحزن ، ضاعفت منها تجربتى الخاصة والمريرة بالنسبة لعينى اليسرى التى فقدتها فى المعتقل . وبالرغم من تأكيدات الدكتور بأن هذه الحساسية ليست وراثية إلا أننى ظللت أحمل دائماً إحساسا بالذنب إزاء هذا الطفل البرىء المهدد بفقد عينيه . كنت أحياناً أفزع بالليل فى غرفة المكتب وأصيح مخاطباً نفسى أو مخاطباً الله . . لقد كنت أتحمل قدرى حينما أصيبت عينى فى المعتقل ، ولكن ما ذنب هذا الصغير ليولد موصوماً بهذه الكارثة . . خمس مرات فى أقل من عامين تكررت الحالة ، وخمس مرات رقد فيها الصغير على سرير العمليات مستسلماً ليد الطبيب الذى أحسست أنه هو الآخر يشاركنا تلك المعركة المريرة فى محاولة لإنقاذ عين ياسر الصغير . . كنا نتخذ كل الإجراءات والاحتياطات التى ينصح بها الطبيب . فمن المفروض ألا يتعرض الطفل لبرد أو زكام وألا يتعرض كثيراً لأشعة الشمس أو الحرارة أو البرودة أو الأتربة . . وتعليمات أخرى كثيرة كان من الصعب طبعاً تنفيذها لأنها شبه مستحيلة فكيف يمكن أن تبقى طفلاً فى غرفة زجاجية مغلقة .

وتمتد فترات سكون الفيروس شهرين أو ثلاثة فيزداد الأمل فى أن تكون العملية الأخيرة قد استأصلته ، ولكن يعاود الهجوم مرة أخرى وبشراسة أكثر . . وفى العملية الخامسة ، وكان ذلك فى منتصف ليلة من ليالى نوفمبر الباردة ، لاحظ الطبيب بعد إجراء العملية حالة الحزن المكثف الشامل الذى اجتاحنى ومشروع دمعة تحجرت فى العينين ، وأنا أرقب جسد الصغير المخدر النائم وصحبنى إلى مكتبه ، وقال وهو يخلع ملابس العملية ويعيد ترتيب هندامه : إننا مازلنا قادرين على التحكم فى الفيروس من خلال العمليات الجراحية . .

نحن فى سباق مع الزمن . . فكلما كبر الطفل ازدادت قدرة الجسد والعين على مقاومة ذلك الفيروس ، وقد يزول الخطر نهائياً حينما يبلغ الطفل العاشرة أو الثانية عشرة من عمره ، فقد ثبت بشكل عملى أن سن البلوغ عند الأطفال يقضى على كثير من الفيروسات التى تسبب الحساسية . .

ثم التفت إلىّ يوجه كلمات محددة متفرساً فى الوجه :

- المشكلة أنه مازال أمامنا خمس سنوات طوال فى تلك المعركة ولا يمكن أن

نجرى عملية كل ثلاثة أو أربعة أشهر، فالعملية فى حد ذاتها تضعف مقاومة العين أكثر فتجعلها أكثر استعداداً للهجوم القادم.

لابد من البحث عن حلول أخرى..

- .. وكيف يا دكتور.. إننى على استعداد لأى شىء لإنقاذ عين الصغير.

- .. بصراحة.. إنه فى حاجة إلى مكان تقل فيه حدة أشعة الشمس، كما تقل فيه كمية الغبار والأتربة.. وهذا لا يتوافر إلا فى أوروبا.. أو على الأقل فى مدن ساحلية مثل الإسكندرية أو بورسعيد.. ولم أعلق، فلم يكن هناك أيضاً ما يمكن التعليق به.. سامحك الله أيها الطبيب العزيز.. هل تعرف أننى حصلت على شقتى التى أقيم بها فى نفس المكان الذى أوانى وأنا طالب بالجامعة.. فكيف لإنسان مثلى لا يملك إلا راتبه أن يدبر شقة أخرى فى الإسكندرية أو بورسعيد فما بالك بأوروبا..

ونسيت أو تناسيت

على أن هذا الظرف الخاص كان جزءاً من ظروف عامة أشمل وأعمق تلعب دورها فى ذلك الوقت وتدفعنى دفعاً إلى الحائط..

كانت حرب أكتوبر التحريرية والمنظر الخالد الذى لا ينسى ولا يجب أن ينساه أى مصرى لجنودنا البواسل وهم يعبرون قناة السويس ويحطمون خط بارليف قد بعثا الآمال عظيمة وحية فى النفوس وغسلاها من أدران اليأس والعجز الذى كاد أن يقضى عليها بعد هزيمة سنة ١٩٦٧.

ووقفت مثلما وقف ملايين المصريين فى شارع رمسيس يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أصفق بعقلى وقلبى وعواطفى للرئيس السادات الذى جسد فى تلك اللحظة لى وللملايين غيرى المغزى العظيم للعبور.. لقد كانت الآمال فتية متفتحة على آفاق رحبة واسعة لتغيير الوضع فى مصر وفى العالم العربى كله للعبور إلى المستقبل.. استرداد الأرض واسترداد النفس والثقة والعبور إلى مجتمع الديموقراطية والرخاء والتنمية والتفوق.. كانت فرصة عبقرية لا تكرر ليس فقط لإعادة بناء كل شىء، بل وللوثوب بالبناء إلى آفاق عالية رحبة.. فمثلما لعب المارسيليزدوره التاريخى منذ أكثر من مائتى عام وهزم جيش الثورة الفرنسية جيوش قياصرة وأباطرة أوربا وأعطى فرنسا الدفعة الخالدة التى مازالت تعيش بها حتى الآن، ومثلما لعب نشيد الأممية دوره الخالد فى تمكين جيش الثورة الروسية المحاصرة الضعيف فى أن يهزم جيوش ١٨ بلداً أسرعت للتدخل لإجهاض الثورة ولتنتقل روسيا أو الاتحاد السوفيتى من

مصاف الدول الضعيفة الفقيرة إلى واحدة من أغنى وأقوى وأكبر دول العالم . . تلك اللحظة العبقرية الخالدة التى تعطى دفعة العمر ، وحققها الجنود والضباط المصريون ومن خلفهم الشعب المصرى كله فى العبور . .

ولم يكن أحد يتصور أو يمكن أن يتصور أن هناك أية قوة فى الأرض تستطيع أن تجهض هذه اللحظة العبقرية التى توحدت فيها القدرة والمعاناة والألم والتاريخ . .

ولكن الذى حدث بعد ذلك جاء فى البداية غير متوافق ثم متناقضاً تماماً لكل المقدمات الموضوعية التى أتاحها العبور . .

ويجمد العبور عند حدود معينة بل وتبذل قوى عديدة معادية فى الأساس للشعب المصرى ودوره التاريخى ، جهودا شيطانية لتجريد العبور من مغزاه وتفرض علينا أموراً كانت ترفض من قبل وكأن شيئاً لم يكن ، وكأن معجزة عبدالعاطى وزملائه فى الجيش الأول والثانى والثالث لم تكن إلا حلماً جميلاً طاف فى المخيلة . . ويأتى هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا فى ذلك الوقت ليحقق كما أكد هو فى مذكراته بعد ذلك نصراً لإسرائيل لم تستطع أن تحققه فى ميادين القتال . .

واكبت ذلك على الصعيد الداخلى قائمة مفصلة من القوانين الغريبة تحت دعاوى سياسة الانفتاح والتى تفتح فى الواقع أبواب مصر على مصاريعها لكل وافد أو عابث ، حتى التاريخ ، وفرضت قوانين لم تكن تفرض إلا فى بلدان مستعمرة مستباحة تعطى لرأس المال الأجنبى وللصناعة الأجنبية الحماية والأولوية على حساب الصناعة المصرية ورأس المال المصرى .

وطرحت أفكار ونظريات غريبة ، وحقيقة فجة وسوقية عن السوق المفتوحة والكوزمبولتانية وعن تحويل مصر كلها إلى منطقة حرة مثل طنجة وهونج كونج ، تلك الأفكار التى كانت الوطنية المصرية منذ عرابى حتى مصطفى النحاس وجمال عبدالناصر قد تمرست فى محاربتها والقضاء عليها . .

وكان أغرب ما فى تلك المفاجأة المذهلة ، أن يتم هذا بعد أقل من عام واحد من لحظة العبور الخالدة . وهو ما لم يكن يتوقعه ومالم يكن من الممكن أن يتوقعه أو يتحسبه إلا من أسقط من حساباته العقل والمنطق والوطنية وراح يعبث فى مقدرات البلد والتاريخ والتراث وبلا حدود .

كانت الأحداث تتوالى أو تتداعى بلا منطق على الإطلاق .

وما كان يقال فى البداية خفية أو على خجل أصبح يقال جهراً بل ويوضع بعضه فى التطبيق . .

وأحسست مثلما أحس غيرى بالخطر . .

لم تكن القضية هى الخوف على الاشتراكية ، فلم أكن من المؤمنين فى يوم من الأيام بأن هناك اشتراكية حقيقية قد طبقت فى مصر . .

ولم تكن القضية الدفاع عن القطاع العام وعن إعادة تمليك أرض مصر للأجانب ولم تكن القضية أيضاً أن تجعل من العدو الذى قتل أبناءنا ودمر منشآتنا بقنابله وطائراته صديقا ، وأن تحول الصديق الذى ساعدنا فى بناء السد العالى وبناء صناعة مصرية حديثة وأعطانا السلاح الذى ندافع به عن أنفسنا إلى عدو . .

كل ذلك قابل للنقاش وقابل للإصلاح والترميم . .

ولكن الخطر الذى أحسست به أن دور مصر التقليدى ، دورها الذى وهبته لها عوامل جغرافية وتاريخية وبشرية وحضارية عديدة ، جعلتها دائماً وعلى امتداد التاريخ البشرى هى مفتاح المنطقة الإستراتيجى .

ذلك الدور الذى أكده مينا ورمسيس ودافعت عنه كليوباترا وفهمه واستوعبه صلاح الدين والظاهر بيبرس ومحمد على وعمر مكرم وأبرزه مصطفى النحاس وفجره جمال عبدالناصر . . هذا الدور بدا وكأنه يباع فى المزاد . .

ولم أسكت . . ولم يسكت غيرى ، وكتبت فى الجمهورية مع المجموعة الممتازة من الزملاء فى قسم الأبحاث الذى كنت أشرف عليه ، صلاح عيسى ، أسامة الغزالى ، عبدالقادر شهيب ، عبدالعال الباقورى ، أحمد شرف ، محمد أبوالحديد ورياض سيف النصر وفى مجلة الطليعة واشتركت فى عدد واسع من الندوات التى نظمتها الجامعة أو النقابة أو بعض الاتحادات أحذر من نتائج هذه السياسة العابثة التى تتشعب كالأخطبوط تتخذ لها ألف رأس وألف شكل .

بل إننى فكرت ومعى الصديق العظيم البسيط قبارى عبدالله عضو مجلس الشعب فى إصدار صحيفة خاصة لفضح هذه المخاطر واستشعاراً منا بأهمية تعبئة كل الطاقات والإمكانات حتى لا تتحقق ، واستطعنا بعد جهود ومحاولات عديدة استثمرنا فيها كل علاقاتنا فى الحوصل على ترخيص بإصدار مجلة «الحرية» .

ووضعنا كل ما نملك من جهد ومال وأصدرنا العدد الأول فى ٨ إبريل سنة ١٩٧٥ . . والذى صودر فور طباعته . .

كان المانشيت يحتوى على تقرير أمريكى خاص وخطير عن الإستراتيجية الأمريكية الجديدة فى مصر والشرق الأوسط فى أعقاب حرب أكتوبر ، وكنا قد حصلنا

على نسخة من هذا التقرير السرى الخطير من خلال علاقة خاصة بين قبارى عبدالله وأحد كبار المسئولين فى ذلك الوقت .

كان التقرير عبارة عن نتائج جلسات استماع طويلة نظمتها لجنة خاصة فى الكونجرس الأمريكى وباشتراك مع أجهزة اتخاذ القرار الأخرى مثل المخابرات المركزية والمباحث الفيدرالية واشترك فيها تقريباً كل من له اهتمام أو اختصاص فى قضايا الشرق الأوسط . . أساتذة جامعات ، وزراء خارجية سابقون ، وزراء دفاع ، أعضاء الكونجرس ومستشارو الأمن القومى .

وكان الجميع يردون على سؤال واحد . . هو . . كيف يمكن رسم إستراتيجية أمريكية جديدة بعدما أسفرت عنه حرب أكتوبر وخاصة بعد استخدام البترول كأداة سياسية . . ؟!

وكانت أهم النتائج التى وصل إليها التقرير هى محاولة استيعاب الموقف الجديد فى الشرق الأوسط من خلال ثلاثة محاور :

١- عزل أكبر دولة عربية وأكثر ها خطورة (مصر) وذلك بالاستفادة من اتجاهات الرئيس السادات مع دراسة إمكان الاستفادة من عدة عوامل مثل الأقباط والمسلمين ، والتيارات الدينية والسلفية والأوضاع الاقتصادية الحادة .

٢- الحيلولة دون أى شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد أو التنسيق بين الدول العربية وتعميق الخلافات الموجودة حالياً بين الشرق العربى والمغرب العربى . وبين الدول البترولية وغير البترولية ، ووضع لبنان الخاص ووجود المارونيين المسيحيين المتميز . . والخلافات بين البعث فى سوريا والعراق ، والانقسامات الدينية والطائفية والعائلية .

٣- الإسراع فى الأبحاث والدراسات الخاصة بخلق وترشيد استخدام الطاقة وخاصة البترول وبخلق بدائل على المديين القصير والبعيد .

وخرجنا نفضح المؤامرة . . وصودر العدد الأول فور طباعته . .

وقال ممدوح سالم وزير الداخلية ونائب رئيس الوزراء فى لقاء معه فى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم الذى صودرت فيه المجلة ، بعد أن بحثت عنه أنا وقبارى فى كل مكان .

- إيه اللى عملتوه ده . . انتم مش عايشين فى البلد ، مش عارفين الريح راحة فين . . كان من الواضح أن الرياح القادمة عبر الأطلنطى قد أصبحت عاصفة لا قبل

لأحد بمواجهتها وكان من يمسك الدفة فى مصر ويملك القرار، وفى ظل غياب طويل امتد لأكثر من ثلاثين عاماً لأى شكل من أشكال التنظيمات السياسية والجماهيرية المستقلة، يتخذ لمساره بوصلة أخرى ومعايير أخرى . .

وتوالت القوانين فى الصدور، وتوالت الأحداث . .

وكانت البداية فقط . . فى الانفتاح . .

وانتبهت على ضجة هائلة تغرق صالة الترانزيت فجأة وتضع حدا لتلك الخواطر التى توافدت على ذهنى المكدود . .

وتأملت الصالة التى كانت تشكو الفراغ والسكون فى تلك الساعة من الليل وقد امتلأت بعدد كبير من الفلاحين وعمال الزراعة بعضهم يحمل حتى الفأس والغلق التقليدى على كتفه . . وافترش غالبيتهم أرض الصالة فى حلقات دائرية وراحوا يتبادلون النداءات والحوار العالى الصوت، ويحولون فى لحظات برد الصالة الموحش إلى سامر أو مولد أو مقهى بلدى . . وجرى عمرو الصغير نحوى ليقول فى براءة الطفولة .

- بابا . . بابا . . الفلاحون بتوع بلدنا جم هنا علشان يودعوك مش كده . .

وكتمت ابتسامة مريرة .

- لا يا صغيرى إن الأمر ليس كذلك، فالفلاحون فى بلدنا يرحلون هم الآخرون . . ! !

ولم يكن هناك وقت فلقد نادى الصوت الرخيم النائم فى المطار . .

«نرجو من السادة المسافرين إلى برلين على الطائرة الألمانية . انترفلوخ فى الرحلة رقم . . . . أن يتوجهوا إلى باب الخروج رقم ٦ . . »

وجمعت ولدىَّ من صالة الترانزيت واتجهت إلى باب الخروج .

[٣٢]

إن الذى يبحث عن اللآلئ يجب أن يغوص
فى الأعماق

جون درايدن - شاعر إنجليزى

١٣ فبراير سنة ١٩٧٦..

العربة تنطلق مقتربة من المدينة . . الهر أو السيد هوفمان الذى استقبلنى فى المطار باسم إدارة الصحافة فى وزارة الخارجية فى الأمام بجوار السائق وغارقاً معه فى حديث جاد أو هكذا يبدو بالألمانية التى لا أفهم فيها شيئا ، وبين الحين والآخر يلتفت إلى الخلف حيث أقبع أنا والطفلان ليقول فى عربية متآكلة . . أهلاً وسهلاً فى برلين . . والسماء مازالت ملتحفة باللون الداكن الأقرب إلى الظلمة ، والطريق وعلى مدى الشوف يكتسى باللون الأبيض القطنى الزاهى حيث تتراكم الثلوج فى كل مكان . . والمداخن الألمانية التقليدية العالية فى أطراف المدينة تنفث دخانها الكثيف الذى سرعان ما يلتحق بالسحب الداكنة المنخفضة والتى تكاد تحتضن المدينة وغابات الصنوبر العملاقة على جانبى الطريق تذكرك بأشباح الغابة المتحركة فى ماكبث شكسبير الخالد أو بملايين الجنود الروس والألمان الذين وقفوا وجهاً لوجه ولمدة ثلاثة شهور فى معركة برلين فى الحرب العالمية الثانية . . والساعة تقترب من التاسعة صباحاً ولكن النهار لم يستطع أن يفرض وجوده بعد .

والهر هوفمان يقطع حديثه مع السائق فجأة ليلتفت إلى الخلف .

- انتبه يا سيد فتاح . . لقد تركنا الآن حى جريناو والذى كان مدينة مستقلة بذاتها منذ سنوات ، ولكنه الآن أصبح حيا من أحياء برلين . . ثم ينطلق فى جدية تامة ليعطى معلومات تفصيلية عن الحى وتاريخه . . ويصمت فترة ثم يعاود التفاته إلى الخلف .

- انتبه يا سيد فتاح . . نحن الآن فى تريبتو الحى الشهير الذى دارت فيه ولمدة شهرين المعركة الفاصلة بين الجيش الأحمر الذى حرر ألمانيا وبين القوات النازية

البربرية . . و . . وهذه هي محطة «أوست بانهنوف» الشهيرة وهي المعبر الوحيد لكل القطارات الأوروبية نحو الشرق، وقد دمرت تماماً في الحرب ولكننا أعدنا بناءها . . و . . وعندما توقفت العربة في النهاية أمام إحدى العمارات العالية وسط المدينة قال الهرهوفمان .

- انتبه يا سيد فتاح . . لقد وصلنا الآن إلى المنزل الذي ستسكن فيه مع أسرتك . .

ولقد ظل ابني عمرو ولفترة طويلة يطلق على الهرهوفمان «السيد أنتبه» من كثرة استخدامه للكلمة في ذلك الصباح ولاحظت بعد ذلك أن الكلمات الألمانية مثل «انتبه» «خد بالك» و«حاسب» تتكرر كثيراً في الأحاديث الأمر الذي قادني بعد ذلك إلى التعرف على أحد الملامح العريضة للشخصية الألمانية، الحرص الشديد والدقة المتناهية في كل شيء في العمل في الشارع في الإجازة وفي أماكن اللهو . . كل شيء محسوب ومبرمج ومنظم . . ويحتاج الانتباه .

كانت الشقة التي تقع في شارع «هولز ماركت» في عمارة حديثة ترتفع عشرين دوراً، وفي كل در ثماني شقق تقع في وسط المدينة وعلى مقربة من «ألكسندر بلانز» أكبر وأشهر ميادين برلين . . ومع ذلك فلم نلتق فيها سوى بحارس المنزل "البواب" الذي جلس في مكتب أنيق في المدخل وحيا بابتسامة محايدة مع إزاحة القبعة قليلاً إلى الوراء . . ثم سكون مطبق وكأنك تدخل مغارة منعزلة في بطن جبل عال وليس إلى عمارة من عشرين طابقاً وتحتوي على ١٦٠ شقة ويسكنها حوالي أربع مائة إنسان .

والواقع أن هذا الإحساس لم يتولد فقط من العمارة الخالية، بل إن الشوارع الواسعة والممتدة والعمارات الشاهقة وسط المدينة تكاد تكون خالية إلا من نفر قليل تائه على أرصفتها العريضة أو بعض العربات المارقة بسرعة . . وهو إحساس يصيبك بصدمة هادئة ملؤها الوحشة والرهبة، ويعمق الشعور بالغربة ويمثل تناقضاً حاداً مع ما تعودنا عليه في القاهرة .

لقد كان الهدوء والصمت الذي يلف كل شيء يعمقان إحساساً داخليا غامضاً بدائيا يكاد يدفعني لأن أصرخ بأعلى صوتي، على الأقل لألقي بحجر هذا الصمت الراكد . . وربما لاحظ الهرهوفمان ما يموج على وجهي وهو الذي عمل أربع سنوات ملحقاً صحفيا في إحدى البلاد العربية . وقال بنفس الطريقة الجادة وكأنه يشرح نظرية اقتصادية مهمة :

– العمارة تبدو خالية، فالجميع ذهبوا إلى العمل، والأولاد فى المدارس، والأطفال فى الحضانة، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة موناليزية غير مفهومة.

وأدرت المفتاح فى باب الشقة رقم ٨ فى الدور التاسع.. ودخلت ومن ورائى الولدان والهرهوفمان والسائق، كل يحمل فى يده شيئاً من المتاع المحدود الذى جئت به من القاهرة.. برلين..

برلين. أورشليم الجديدة، هنا صلب المسيح من جديد عندما انطلقت شرارة حربين عالميتين مدمرتين..

ومن هنا، ومن هنا فقط، يمكن أن تندلع شرارة حرب عالمية ثالثة.. وهنا، من برلين، تخرج صيحات السلام على الجانبين، وأمامى وعلى مرمى البصر صورة كبيرة بعرض الشارع لامرأة تحمل طفلها وترفع يدها فى وجه القنابل والطائرات المدمرة صارخة "كفاية".

وعلى مرمى البصر أيضاً ذلك السور الأبيض الممتد فى تعرجات أحياناً غير مفهومة لتقسيم المدينة إلى شرقية وغربية ومع السور محاذياً له يمضى نهر شبراى الصغير الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه، ليس لأنه نهر عظيم أو كبير مثل النيل والمسيسبى والراين والدانوب، فهو أصغر منها جميعاً ولا يكاد طوله يمتد لأكثر من ٥٠ كيلو متر، يبدأ من أطراف برلين الجنوبية وينتهى عند أطرافها الشمالية.. ولكن شبراى الصغير أصبح يمثل للعالم كله خط الأمان. المنطقة المحرمة التى تفصل ليس فقط بين حدود برلين الغربية والشرقية، وليس فقط بين دولتين بل يمثل الحد الفاصل بين نظامين عالميين وخلفهما أكبر حلفين عسكريين، الأطلنطى على جانب ووارسو على الجانب الآخر، والويل للعالم كله لو حاول أحد الطرفين أن يعبر النهر الصغير إلى الضفة الأخرى.

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، شهد العالم الكثير من الأزمات الساخنة والحادة والتدخلات العسكرية والمعارك الحربية، ولكنها كلها تجرى خارج أوروبا وبالتحديد بعيداً عن منطقة الحساسية الكبرى..

فلقد كانت ومازالت هناك معارك وحروب الشرق الأوسط والشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا بل وحتى فى إنجلترا نفسها وفى إيرلندا الشمالية، ولكن كل هذه الحروب الساخنة والباردة محكومة ومحددة مثلما يعبر العسكريون والمخططون الإستراتيجيون.

ولكن العالم كله يكتم أنفاسه ولديه كل الحق إذا بدت بوادر أزمة حتى ولو صغيرة فى برلين، هنا يكون خطر الحرب ماثلاً بالفعل حيث يتلامس ويتواجه الحلفان العسكريان على ضفتى شبراى وعلى امتداد الحدود بين ألمانيا الديموقراطية وألمانيا الاتحادية ولقد حدث ذلك مرتين . .

مرة عندما قرر ستالين فى أواخر الأربعينيات فرض الحصار على برلين الغربية وأعلنت الدول الغربية رفضها لهذا القرار .

ومرة أخرى فى أوائل الستينيات حينما قررت ألمانيا الديموقراطية أن تقيم سورا حول حدودها مع برلين الغربية .

ويومها كانت هناك مخاطر حقيقية لاندلاع حرب عالمية ثالثة . .

برلين، برلين . . سرة العالم كله، قاتلة الأنبياء وباعثة رسل السلام . . برلين التى أبدع لها بتهوفن موسيقاه الخالدة وفاجنر وشتراوس وهايدن قمم الموسيقا العالمية . برلين التى احتضنت الأعمال الخالدة لجوته وشيللر وعشرات المبدعين من الكتّاب والفنانين الألمان .

برلين التى بشر فيها ماركس وإنجلز بالاشتراكية ومن قبلهما هيجل بالجدلية . وصرخ فى ميادينها هتلر وجوبلز بالنازية . .

برلين التى تسببت فى مقتل ثلاثين مليونا من البشر فى أقل من ثلاثين عاماً على يد فردريش ويلهام أو غليوم إمبراطور ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى أو على يد أودولف هتلر فى الحرب العالمية الثانية .

وهى التى قدمت للعالم أيضا قمماً فى الفن والثقافة والأدب والموسيقا . . المدينة المقسمة وذات الألف وجه . .

إنها تحمل الآن وجهين فقط، وجه يتجه إلى الاشتراكية شرقاً ووجه يتجه إلى الرأسمالية غرباً . . يفصلهما أصغر وأخطر نهر فى العالم . . ولكن كم من الوجوه الأخرى تحمل برلين ؟ !

كان الولدان قد ناما بعد ساعات من العبث والاستطلاع الطفولى فى أرجاء الشقة الجديدة، استلقى الأصغر على بساط الصالة، بينما تكور الأكبر على سريره الصغير بعد أن كان الإجهاد قد نال منهما بعد أكثر من ٢٤ ساعة دون نوم . أما الهرهوفمان فقد قضى معى بعض الوقت يشرح لى بعض التفاصيل عن سير العمل بالنسبة لى

كمراسل، ولم أكن حقيقة فى وضع أو ظرف يعيننى على الاستيعاب. كل ما فهمته أن هذه الشقة ستكون بمثابة سكن ومكتب، وأن اتصالى سيكون بإدارة الصحافة الأجنبية فى وزارة الخارجية ثم قائمة بالمواعيد ابتداء من الغد للالتقاء بالمسئولين عن «مركز الصحافة الأجنبى» الخاص بالمراسلين الأجانب وحديث آخر عن الولدين وكيفية التحاقهما بالمدارس ثم حديث طويل عن علاقات الصداقة التقليدية التى تجمع بين الشعب المصرى وشعب ألمانيا الديمقراطية، وخاصة وأن مصر كانت أول دولة خارج المعسكر الاشتراكى تقيم علاقات مع ألمانيا الديموقراطية.

وتمنيات بالنجاح فى عملى الجديد كمراسل لجريدة الجمهورية القاهرية فى صالح البلدين والشعبين . .

وعندما ودعته على الباب التفت إلىّ قائلاً فى تحذير:

- انتبه يا هر فتاح . . إن العمل اليومى يبدأ عندنا من السابعة صباحاً.

وجلست وحدى فى الشقة، أحاول أن أستعيد نفسى وانتقل ببصرى وقدمى من الصالة إلى غرفة المكتب إلى غرفة النوم وغرفة الولديان والمطبخ والحمام، ثم حجرة الكرار أو المخزن! الأثاث بسيط ولكنه عملى ووظائفى.

وقمت بإعداد فنجال من القهوة، وتمنيت لو استطعت أن أشرب هذا الفنجال بالذات فى بالكون شقتى فى العجوزة. . ولكن الشقة الألمانية خالية من هذا الترف الشرقى وحتى لو كان هناك بالكون، فمن العبث أن يخترق الإنسان هذا الزجاج الكثيف الذى تترامى خلفه مدينة داكنة غارقة فى الثلوج، ندف الثلج المتساقطة تستهوينى وتشدنى بعض الشىء، وأسفل على امتداد الشارع العريض المتجه إلى ميدان «الكسندر بلاتز» تمضى العربات والناس وسط أكوام الجليد المتراكم، ولم ينس الهرهوفمان أن ينبهنى أن الشتاء هذا العام جاء قاسياً لم تشهده ألمانيا منذ أكثر من عشرين عاماً وأن درجة الحرارة تصل إلى ٢٠ تحت الصفر، لقد تركت القاهرة ودرجة الحرارة تصل إلى قرابة العشرين درجة، فوق الصفر طبعاً، أى أننى عبرت فى الساعات الخمس من القاهرة إلى برلين أكثر من ٤٠ درجة، وإذا كان الجسد قادراً على تحمل هذه الساونا المكثفة بمزيد من الملابس الصوفية، فهل يستطيع العقل نفسه أن يتكيف، وكيف يتكيف وعلى أية صورة. .

إن الخروج من باب الشقة المكيفة إلى الخارج يعنى أيضاً عبور ٤٠ درجة مئوية، ولكن الحياة تمضى فى حركة دائبة فى الشارع وفى الميدان القريب ولا تستطيع أن

تقطع إذا كنت مازلت فى النهار، أم أن الليل قد قدم فالأضواء الكهربائية تغرق الشوارع فى فيض من النور المثلج . .

ومع ذلك فقد شدنى عاشقان أو زوجان جلسا على مقعد أسفل العمارة يتبادلان الحب والقبلات ويشعان دفئاً محسوساً فى هذا الفضاء المثلج . .

هل هناك علاقة حقا بين الجغرافيا والبشر، إن كثيرا من المفكرين الأوروبيين ركزوا فى السنوات الأخيرة على ذلك العامل، والغالبية منهم بالغت فى أهميته حتى جعلوا منه ربما العامل الرئيس للتفرقة بين شعب وشعب، وبالتالى بين الشعوب الأوروبية وشعوب العالم الثالث، فالبيئة والجو والمناخ لم تلعب دوراً فقط فى تلوين الشعوب إلى أبيض وأسمر وأسود، بل لعبت دوراً كذلك فى تكييف عقلية وعادات هذه الشعوب.

ورغم أننى كنت أتحفظ دائماً على هذه الأفكار، وخاصة الجانب العنصرى الخطير والمتخفى وراءها، إلا أنه لابد للإنسان أن يعترف بأن للجغرافيا بمعنييها البيئى والمناخى دوراً ولاشك فى صياغة شخصية كل شعب . .

ولقد كان أمراً طبيعيا أن تبدأ الرحلة الحضارية للإنسان من مصر، فجغرافيتها كانت مهيئة للإنسان الأول بأن يتطور ويخلق ويبدع، شمس مشرقة طوال العام ومناخ ملائم للحياة والعمل ليلاً ونهاراً وأرض منبسطة ونهر كبير يجرى وسطها . . ولقد كان من الطبيعى أن يظل تاريخ الحضارة البشرية وحتى خمسمائة عام فقط متركزاً فى منطقة وسط البحر المتوسط، فالظروف الجغرافية الأوروبية، الجو والثلوج المتراكمة أغلب العام، والطبيعة الجبلية كل ذلك فرض على الإنسان الأوروبى أن يمكث طويلاً فى كهوفه وملاجئه لقرون طويلة، وذلك قبل أن يخرج إلى هذه الطبيعة القاسية ليتحداها ويصارعها. لقد انعكس ذلك حتى فى الأساطير والملاحم فسنوحى البحار المصرى القديم الذى ركب البحار بحثاً عن العلم والمعرفة وعاد إلى أحضان النيل يتغنى بانسيابه ووداعته الماء والخضرة التى ينشرها على ضفافه، كذلك أوزوريس البطل الأسطورى الذى علم شعب مصر كيف يبذر البذور ويرعاها ويرويها حتى تصير أشجاراً يافعة، وكيف يشق الترع والقنوات ويرفع مياهها لتروى الحقول العطشى . .

إن أوزوريس وسنوحى النموذجين المجسدين لصورة البطل فى التراث المصرى يختلفان بشكل حاد مع سيجفريد البطل الجرمانى الأسطورى الذى تنحصر قدراته فى قوته الجسمانية الهائلة التى استطاع بها أن يواجه الطبيعة القاسية والتنين ذا الألف

ذراع . ولاشك أن اكتشاف الفحم يمثل فى واقع الأمر الطاقة التى دفعت الحضارة الأوروبية للخروج من جيتو الطبيعة القاسية المفروض عليها . . وتصورت حياة الإنسان فى برلين بدون طاقة وحرارة وتكييف مثلما كان الحال فى عصور مضت . . وأحسست برعدة داخلية : منذ خمسمائة عام فقط خرج رجال الثلوج والغابات الصنوبرية بحثاً عن الشواطئ الدافئة ، بعد أن تمرسوا على صراع طويل مرير مع الطبيعة القاسية .

وكانت البداية مع الإنجليز فى أقصى الشمال ثم الفرنسيين ثم الروس والألمان . . وتوارت شيئاً فشيئاً حضارات الشرق الأوسط وسيادته المطلقة لأكثر من سبعة آلاف عام من تاريخ البشرية . . هل يمكن أن تكون الجغرافيا هى صانعة التاريخ ؟ !

وأين دور الإنسان نفسه . .

ووجدتنى أسترجع فى ذهنى ما كتبه أرنولد توينبى وتشايلدز وكارل ماركس وجوته ونيتشه وغيرهم عن التاريخ .

وقطع ياسر طفلى الصغير ، تلك الجولة الطويلة التى امتزج فيها الحاضر بالماضى وتاه فيها الزمان والمكان . بصرخة مفاجئة . .

وجريت إليه أستطلع الأمر . . وأشار الصغير إلى الشارع قائلاً فى ذعر

– الحق يا بابا . . فيه مظاهرات ، والعساكر زمانها جاية وهتضرب نار . .

ونظرت إلى الشارع ، كان ممتلئاً بالفعل بحركة دائبة على الجانبين بعضها يتجه إلى محطة المترو القريبة والبعض الآخر يخرج منها ، والشارع نفسه يموج بالعربات ، والليل مازال مسيطراً . . ونظرت إلى الساعة ، كانت حوالى السادسة صباحاً . .

وأخذت أتأمل تلك الحركة المكثفة التى دبت فجأة فى المدينة وأحالتها إلى خلية نحل حقيقية ، إنها ساعة الذهاب إلى العمل والمترو والأتوبيسات تقذف بالآلاف وتلتهم الآلاف على ضوء المصابيح الكهربائية ، فأول شعاع لضوء النهار لا يبدأ إلا بعد التاسعة صباحاً . .

وعاد ياسر يتكلم فى ذعر عن المظاهرات والعساكر واحتضنته مهدئاً ومحاولاً أن أشرح له أنها ليست مظاهرات وليس هناك عساكر ستأتى لتضربهم بالبنادق . .

ولكنهم ذاهبون إلى عملهم لأن الشمس تتأخر هنا فى الظهور . .

وأخذته إلى سريره محاولاً أن أبعد به عن ذلك المنظر الذى رآه منذ ثلاث سنوات حين كان عائداً من الحضانة عندما فتح البوليس النار على تظاهرة طلابية كانت تطالب بالخبز والحرية . .

ومن يومها حفر هذا الحادث فى ذهنه الصغير . .

ولم ينسه حتى الآن .

[٣٣]

أفتح نوافذى لتهب علىّ الرياح من كل جانب وأستنشقها، ولكنها أبدا لم تستطع أن تقتلع جذورى.

المهاتما غاندى

إبريل سنة ١٩٧٦..

فرق كبير أن تزور أوروبا لمدة أسبوع أو أسبوعين أو حتى شهر للعمل أو للسياحة، وبين أن تعيش وتعايش المجتمع نفسه وأنت تقيم داخله . . إن الفرق بين الاثنين لا يقل عن كونك تجلس فى الصالة تتفرج على مسرحية وبين أن تكون أنت شخصيا تلعب دورا فى هذه المسرحية ولقد أدركت بعد فترة الخطأ الفادح الذى وقع فيه كثيرون ممن زاروا أوروبا زيارات عابرة وعاشوا على السطح وعادوا ينقلون إلينا انطباعات خاطئة وأحياناً متناقضة تماماً مع الواقع الحقيقى، إن أغلبهم يزورون العواصم وبتحديد أكثر يزورون سرة المدينة أو «السنتر» ويقيمون فى الفنادق العالمية ويختلطون بمن يسمح لهم بمخالطتهم أو بمن تفترض طبيعة عملهم أن يلتقوا به .

والعواصم ومراكز المدن الكبرى والفنادق، وحتى المسارح ودور اللهو لها طبيعتها الكوزموبوليتانية المتكررة المتشابهة فى غالبية البلدان . .

كذلك فرق كبير أن تذهب إلى بلد أوروبى للدراسة أو العمل فتبحث عن مجموعات الأجانب أو بنى وطنك لتعايشهم طوال فترة الدراسة أو العمل ولتعيش، مثلما يفعل كثيرون، فى جيتو شبه عائلى أو قبلى داخل المجتمع الأوروبى . . وبين أن تذهب إلى تلك البلد وفى أعماقك رغبة داخلية فاوستية واستعداد فطرى لأن تعيش المجتمع الذى وفدت عليه وتعاشره وتجرى حواراً حقيقيا مع الشعب الذى يستضيفك فى محاولة منك لفهمه ليس فقط فى الصورة التى تراه عليها، بل وتتمثل تاريخه وتراثه الثقافى والحضارى والفكرى . .

ولعل ذلك كان أحد الأسباب المفسرة، لظاهرة عانينا ومازلنا نعانيها كثيراً، ممن يعودون إلينا من الخارج، وخاصة من أوروبا وأمريكا بعد غربة دامت بعض السنوات. . بعضهم جاء مفتوناً مبهوراً وأكاد أقول منسحقاً أمام مظاهر الحضارة والتقدم التى رآها، وبعضهم عاد كارهاً معادياً لتلك المجتمعات على طول الخط ولأسلوبها فى الحياة متهماً إياها بالانحلال والضياع. .

وكلاهما سواء من جاءوا مبهورين مسحوقين، أو من جاءوا كارهين معادين لم يعايشوا هذه المجتمعات معايشة حقيقية، بل اكتفوا بالحياة على السطح والحكم على المظاهر وقضوا أغلب وقتهم فى الغربة فى حارات مسدودة أو جيتو عائلى، وعادوا وكأنك يا أبو زيد ما غزيت غير قابلين للتفاعل مثل العامل المساعد فى الكيمياء، أو ذابت معادنهم وأيضاً معالمهم تماماً فى مظاهر المجتمعات التى وجدوا فيها. . دون محاولة منهم للوصول إلى الأعماق. . ولعلى فى هذا لا أستثنى طوال تاريخنا الحديث، ممن مروا بتجربة التعايش مع المجتمعات الأوروبية سوى حفنة معدودة محدودة، بشرت بالجديد المستحدث دون أن تفقد أصالتها ومعدنها المصرى وأثرت الحياة العلمية والفكرية كما أزالت الكثير والكثير من التراكمات العتيقة والبالية حول التراث. .

رجال من أمثال رفاعة الطهطاوى وطه حسين. . ومحمد مندور ولويس عوض حملوا لواء التجديد والتنوير بعد عودتهم دون انسحاق أو افتنان، وبشروا بالحرية وحب العمل والوطن دون تعصب أو كراهية للمجتمعات التى عاشوها وأحبوها. . لقد تمكن الشيخان طه والطهطاوى من الوصول إلى الجوهر والتعايش والتفاعل معه دون انبهار يؤدى إلى الانسحاق . . ودون عداء بدائى نابع من عقدة النقص ويعمق انفصام الشخصية ويرى فى الحرية انحلالاً وفى التقدم وتقديس العمل مادية ممقوتة ويرفع رايات التخلف الرثة تحت دعاوى عنصرية أو قبلية أحياناً باسم التراث وأحياناً باسم الدين. . والتراث والدين منهم بريئان.

ومن حسن الحظ أو سوئه أننى استوعبت هذا الدرس جيداً ومنذ سنوات طويلة قبل مجيئى إلى ألمانيا، وكان ذلك فى أوائل الستينات فى أول قفزة لى عبر المتوسط، عندما ذهبت لأشارك فى مؤتمر ثقافى لدول البحر الأبيض المتوسط، وفى أول يوم ركبت مترو الأنفاق للذهاب إلى المؤتمر، وجدت نفسى فى عربة نصف ممتلئة وأمامى فتى وفتاة عاشقان أو صديقان أو زوجان وقد جلسا فى وضع غرامى حار متعانقين ومتلاصقين يمارسان الحب، وأحسست لحظتها بالدم يجرى فى عروقى والعرق يتصبب والخجل ينتابنى وأنا أرى ذلك علناً ولأول مرة، وحاولت أن أغمض

عينى لكى لا أرى، والركاب كل مهموم بأمره لا أحد يتدخل ولا أحد يلتفت هذا يقرأ فى كتاب وتلك تنظر عبر النافذة وامرأة بدينة تنهر طفلها الصغير الشقى . .

وقفزت من العربة فى أول محطة توقف فيها المترو . .

ووقفت على المحطة الخالية تماماً أحاول أن ألملم نفسى عندما زلزلها ما رأيت، وأحاول أن أقنع نفسى أيضا بأن ذلك أمر طبيعى وأننى فى أوروبا وليس فى مصر حيث الحب المباح مستباح كالماء والهواء . .

وفجأة أقبلت فتاة جميلة جذابة أو هكذا خيل لى، وظلت تمر بجانبى جيئة وذهاباً فى انتظار المترو، وتشجعت فابتسمت لها فابتسمت ثم أخذت أغازلها وأطرى جمالها بالإنجليزية التى بدا أنها تفهمها بالقطع وزادت ابتسامتها، ثم تجرأت وأمسكت يدها، فسحبت يدها من يدى فى رقة، قلت فى نفسى . إن من الواضح أن الحب مباح مستباح هنا فلأمارسه ولا مانع من الجرأة والاقتحام . ووثبت نحوها فجأة وأمسكت بذراعها وحاولت أن أقبلها، فتخلصت منى بسرعة ولطمتنى لطمة لن أنساها وهى تسب وتلعن وترطن بالإيطالية التى لا أفهمها . وذهبت إلى المؤتمر ولطمة الفتاة قد تحولت وتفاعلت فى داخلى إلى رفض حاد للمرأة الأوروبية وحكم عليها بالانحلال والعنصرية ومعاداة الأجانب، لقد كان لابد أن أبحث عن تفسير يريحنى على الأقل . .

ونسيت الأمر كله وغرقت فى المؤتمر الذى استمر أربعة أيام، ولكنى لاحظت أن فتاة كانت تحاول دائما أن تقترب منى وتسألنى عن بلدى وتطرى إعجابها بالشعب المصرى وحضارته العريقة، بينما كنت أحاول دائماً البعد عنها وعن غيرها متخذاً موقف التعالى والتسامى ومخفيا فى الأعماق جرح الإهانة التى تلقيتها من فتاة أوروبية متعصبة ! ! بالرغم من إعجابى بالفتاة وخاصة بعد مداخلاتها الذكية فى المناقشات التى كانت تجرى فى المؤتمر . .

وانطلاقتها وبساطتها فى التعامل مع الجميع، وابتعادها عن استخدام سلاح الأنثى مع الرجال رغم جمالها وفتنتها الجذابة دون رتوش .

وعندما ألقيت كلمة باسم المثقفين المصريين، جاءت تشد على يدى وتطرى الأفكار الجديدة والجريئة التى عبرت عنها .

وفى اليوم الأخير للمؤتمر وبعد انتهاء الجلسات جرت نحوى تدعونى للعشاء معاً، ولم تترك لى فرصة للرفض، ومرت علىّ فى الفندق مساء وأخذتنى إلى مطعم جميل فى فيللابورجيزى وهى منطقة ساحرة وسط روما تتخللها الغابات والبحيرات وكان موسولينى يخطط لأن تكون أجمل منطقة فى العالم .

وسهرنا ليلتها حتى الصباح نسمع الموسيقا، ونرقص ونتناقش فى الثقافة والفكر والسياسة والفن. . والحب.

وكانت مفاجأة عندما اكتشفت أنها نفس الفتاة التى لطمتنى فى محطة المترو منذ أيام. . وأحسست أننى أمام وردة حلوة متفتحة مبهجة لا تغريك بأن تقطفها بل تدفعك لأن تحميها وترويها لتظل هكذا تبعث الأمل والدفء والحياة. .

قالت وهى تودعنى، لا تنس أن أية شرارة يمكن أن تنطفئ وتصبح بقعة سوداء بغيضة ويمكن أيضاً أن تتحول إلى شعلة لا تنطفئ لو استطعنا أن نحميها ونغذيها بالهواء النقى. . وتعلمت من إيفا ابنة الطليان، الدرس الأول فى التعرف على المجتمعات الأوروبية.

* * *

وانطلقت بنا العربة الفولجا مرة أخرى خارج برلين بعد وصولى إلى العاصمة الألمانية بأقل من أسبوعين. . وفى المقدمة سائق بدين مرح لا يكف عن إلقاء النكت والتعليقات الساخرة باللغة الألمانية مع رجاء فى كل مرة للمرافقة التى تجلس بجانبى فى المقعد الخلفى بأن تقوم بالترجمة. .

كانت المهمة رحلة لمدة عشرة أيام فى ربوع ألمانيا الديموقراطية، تقررت منذ اليوم الأول للقائى مع مسئول الصحافة الأجنبية فى وزارة الخارجية الألمانية حين أخذ يشرح لى ظروف العمل التى تحكم المراسلين الأجانب ووسيلة الاتصال بمصادر المعلومات والأخبار وحاجتى إلى مترجمة أثناء حضورى المؤتمرات الصحفية لجهلى التام باللغة الألمانية، وقطعت عليه الحديث قائلاً:

– قبل الدخول فى كل هذه التفصيلات الضرورية وقبل أن أمارس عملى، فإننى أطمع فى جولة لمدة أسبوع أو أسبوعين أستكشف فيها بلادكم الجميلة. .

ورحب الرجل بالفكرة بل واعتبرها لمحة جديدة من مراسل أجنبى يريد التعرف على ميدان المعركة قبل أن يبدأ الإطلاق على حد قوله. .

وهكذا انطلق ثلاثتنا صباح ذلك اليوم. . السائق البدين المرح والمرافقة الشقراء ذات الملامح الجرمانية الصارمة وأنا على طريق الأوتوستوراد. وجلست فى استرخاء أتأمل على الجانبين غابات الصنوبر العملاقة التى يكسوها الجليد وأشعة شمس الشتاء الباهتة من خلف زجاج العربة المكيفة تنمى لدى إحساساً بالخدر الممتع، وفى بعض الأحيان أضطر أن أضحك، مجاملة لتعليقات أو نكت السائق، أو أختلس بعض

النظرات إلى وجه المرافقة التى لا تنفرج شفتاها الجميلاتان إلا على ابتسامة باهتة مع إصرار على ارتداء مسوح الجد، وربما التعالى رغم انفراج الساقين الجميلين وبروز النهدين الناهدين . . وانقلاب الشفة السفلى بشكل جذاب ومثير .

وكانت محطتنا الأولى مدينة درسدن على بعد ١٧٠ كيلو متر فى الجنوب من برلين . ووصلنا المدينة بعد ساعتين وعلى الفور أخرجت المرافقة ورقة فى يدها وأخذت تتلو علىّ برنامج الزيارة كما لو كانت جنرالة تلقى بأوامرها إلى الجندى المسكين المتبقى من الفرقة .

- من العاشرة صباحا حتى الثانية عشرة والنصف زيارة متحف الجاليرى .

- الثانية عشرة والنصف حتى الثانية غداء فى مطعم جاليرى .

- من الثانية حتى الخامسة زيارة لمنطقة باستاى والقلعة خارج المدينة .

- من الخامسة حتى السابعة عودة إلى المدينة وزيارة الكنيسة المهدمة وبعض معالم المدينة .

- فى السابعة عشاء فى فندق انتر أوتيل "نيفيا" .

- فى التاسعة النوم فى الفندق . .

- الاستيقاظ فى السابعة صباح الغد، تناول الفطور فى الفندق، ثم السفر إلى مدينة ليبزج . .

ثم تعطفت والتفتت إلىّ قائلة فى لهجة آمرة ناهرة :

- هر فتاح . . هل لديك ملاحظات . .

وقبل أن أنطق بكلمة مضت تقول بنفس اللهجة الحاسمة . .

- إذن فلنبدأ بزيارة الجاليرى . .

وتحملت، فقد كنت حتى الآن مقدراً لجمالها الشامخ بأنفة وليس لدى رغبة فى بدء معركة ونحن فى اليوم الأول لجولتنا الممتدة، كما أن زيارة الجاليرى كانت رغبة أصيلة لدى، فهو واحد من أهم ثلاثة متاحف فى العالم هى اللوفر باريس والأرميتاج فى لينينجراد، ويضم مجموعة نادرة وتاريخية للأساتذة الرسامين الكلاسيكيين ابتداء من ليونارد دافنشى ورفائيل ورمبرانت وروبنز حتى سلفادور دالى وبوكاسو، وعندما كانت الطائرات الأمريكية تدك مدينة درسدن فى نهاية الحرب العالمية الثانية عبرت الملايين فى جميع أنحاء العالم عن إدانتها لهذا الهجوم الذى لم يكن له ما يبرره،

وخاصة أن ألمانيا النازية كانت قد استسلمت بالفعل وخوفاً من تعرض الجاليرى لأية مخاطر باعتباره تراثاً فنياً للإنسانية كلها . .

ومن الطبيعى أن الجاليرى يحتاج إلى أيام وأسابيع لكى يستطيع الإنسان أن يتذوق ويستوعب مئات اللوحات الشهيرة التى يحفل بها . . ولكن لا بأس من أخذ جولة سريعة مختصرة فى ساعتين . . وتوقفت بشكل خاص أمام بعض لوحات رامبرانت وروبنز اللذين استكملا رحلة الفن التشكيلى والرسم بشكل خاص فى التحرر من الأجواء الكنسية والخروج إلى الحياة الطبيعية والإنسان، تلك الرحلة التى بدأت مع رسامى عصر النهضة العظيمين رفائيل ودافنشى . .

وطوال الجولة لم تكف المرافقة عن إعطاء بعض المعلومات عن بعض اللوحات وبعض الفنانين، وبالرغم من أننى كنت أعرف عن المتحف ورساميه وتاريخه أكثر بكثير مما قالته إلا أننى لم أشأ أن أحطم لديها الدور الذى تقمصته ومارسته. دور المدرسة أو الأستاذة وهى تلقى بدروسها على تلميذ من دول العالم الثالث الغلبان . .

وأخذنا ننفذ البرنامج المرسوم وفى المواعيد المحددة بدقة متناهية، ووقفنا أمام الكنيسة الفرنسية وبعض المبانى التاريخية التى دكتها الطائرات الأمريكية فى غاراتها البربرية وغير المبررة على المدينة والتى تركتها السلطات على نفس حالتها كنوع من الذكرى والتذكر بهذا العمل المشين . .

وذهبنا إلى مرتفعات وقلعة باستاى ذات الطبيعة الساحرة الخلابة وكم كان مثيراً أن تنظر من فوق قمة هذه المرتفعات الجبلية العالية والتى ترتفع فى شكل مخروطى حاد كالمآذن لترى نهر الألب يتلوى أسفل الوادى ويبدو كثعبان متعرج من هذا العلو الشاهق . . وذهبنا إلى الأحياء الجديدة والقديمة بما فى ذلك الصناعات التى اشتهرت بها المدينة، وعلى العشاء لم تتوان المرافقة عن سرد المعلومات والإحصاءات عن التطور الذى جرى فى الثلاثين عاماً الماضية، وحل مشاكل الإسكان والصحة والتعليم، وكأنما تتلو علىّ التراتيل الدينية قبل النوم . .

ثم وقفتَ فجأة بعد انتهاء العشاء وقالت بنفس اللهجة الآمرة :

– والآن يا هر فتاح انتهى برنامج اليوم، وعليك أن تذهب إلى غرفتك لتنام.فأمامنا صباح الغد برنامج حافل .

قلت لها متلطفاً ومتجنباً أية محاولة للصدام :

– فراوباربارا . . تستطعين أن تذهبى إلى غرفتك، ولكنى سأبقى هنا بعض الوقت

فليس لى رغبة فى النوم.

ونظرت لى كتلميذ خرج عن الصف.

- ماذا ستفعل إذن؟

قلت فى هدوء:

- سأخرج إلى الشارع وأتمشى قليلاً . .

قالت فى انزعاج شديد:

- وحدك . .

- نعم وحدى تماماً . . حتى السائق لا أريده . .

قلت ذلك وأنا أؤكد الكلمات الأخيرة، ويبدو أنها فوجئت بموقفى أو بعنادى فهزت كتفيها وتحدثت إلى السائق بالألمانية ثم قالت لى وهى تمضى إلى غرفتها:

- سنلتقى هنا فى السابعة من صباح الغد . . طبت مساء . .

وخرجت من الفندق إلى الشارع البارد الذى تكسوه الثلوج . . الساعة لم تتجاوز التاسعة مساء، والشوارع خالية تماماً إلا من نفر قليل على الجانبين بالرغم من أن الفندق الذى أقمنا به يقع فى وسط المدينة، وأسرعت بخطواتى بعض الشىء بحثاً عن الدفء وتلمساً لمكان أجلس فيه بعيداً عن هذا البرد الذى يصل إلى العظام . . وعند أحد المنحنيات سمعت موسيقا واتجهت على الفور ناحية المرقص . . ودخلت . .

المراقص فى ألمانيا وأوروبا بشكل عام تختلف تماماً، شكلاً ومضموناً عما نسميه عندنا بالمراقص أو الكباريهات، فالمراقص هنا شكل من أشكال الساحات الشعبية أو مثلما يطلق عليها البعض الرياضة المسائية، يذهب إليها الجميع فى عطلة نهاية الأسبوع أو بعض الليالى مثلما يبحث الإنسان عن مقهى أو كافيتيريا على النيل، بل لعل الكثيرين مواظبون على زيارة المراقص أكثر من زيارة الكنائس فهى تراث شعبى متأصل عندهم، يذهب إليها الرجال والنساء من مختلف الأعمار من العشرينيات حتى السبعينيات، ومن مختلف الطبقات والفئات من أساتذة الجامعة حتى البائعة وعاملة النظافة. ولا تدهش بعد ذلك عندما تقرأ فى خطط التنمية الثقافية فى تلك البلدان فترى برامج للتوسع فى بناء مسارح ومكتبات ودور عرض ومراقص جديدة . . أى أن المراقص ينظر إليها باعتبارها مراكز للتنمية الثقافية والفنية تماماً مثل المسارح والمكتبات، وجلست إلى ركن فى البار وأخذت أتأمل على أضواء المرقص الخافتة

الرواد من الرجال والنساء المنتشرين حول المناضد بعضهم يجلس وحيداً والبعض الآخر فى ثنائيات أو رباعيات من الجنسين، وحينما تبدأ الجولة الموسيقية تدب حركة تنقلات بين المقاعد . . الرجل يتقدم من السيدة وينحنى فى أدب، وتنهض الفتاة معه، وسرعان ما امتلأت ساحة الرقص «البست» بالثنائيات الراقصة أحياناً على أنغام التانجو الهادئ وأحياناً على أنغام الفالس الحالم وكثيراً على أنغام الجاز السريعة المرحة . . وتنتهى الجولة الموسيقية ويسارع الرجال إلى اصطحاب السيدات إلى مقاعدهن ويمسك الرجل، بالمقعد من الخلف حتى تجلس السيدة ثم ينحنى مرة أخرى وفى أدب شديد وينسحب إلى مقعده.

طقوس غريبة يحوطها جو من الاحترام والتبجيل، تدفعك على الفور لأن تعود بالرقص والموسيقا إلى جذورهما الأصيلة عند قدماء المصريين والأغريق عندما نشأ هذان الفنان العظيمان فى أحضان المعابد تعبيراً عن تقديس الإنسان للحياة وخالقها.

ومرت فى ذهنى مفارقات ومقارنات بين هذه الممارسة الإنسانية الفنية للرقص وبين تحول الرقص عندنا ومحاصرته فى خانة ضيقة وارتباطه بالابتذال والجنس . . بالرغم من أن جداتنا من راقصات المعابد فى مصر القديمة كن يمارسن هذا الفن بما يستحقه من التقديس! ولا أحسب إلا أن المسئولية عن تدنى نظرتنا للرقص إنما تعود إلى تراث عصر التخلف والانحطاط الثقافى والفكرى أيام المماليك والأتراك العثمانيين الذين قامت دولتهم وحضارتهم على السيف والقهر والقتل والغزو دون أى أبعاد إنسانية أو حضارية أو فنية . . وفقدت الفنون عندهم أهدافها الإنسانية والثقافية، وتحول كل شيء إلى إشباع الغرائز البدائية للإمتاع والترفيه.

وتركت المرقص فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن مارست الرقص أكثر من مرة ومع أكثر من سيدة وتعرفت على طبيب وصديقته وتبادلنا العناوين.

وفى الصباح كانت «الفولجا» تنطلق بنا مرة أخرى إلى ليبزج . . كنت متعباً بالطبع فلم أنم سوى ساعات قليلة، وعقدت العزم على أن أعوض ذلك بالنوم فى العربة ولابد أن باربارا المرافقة قد أدركت ذلك، فكثيراً ما كانت تلهينى بنظراتها الحادة وملامح التساؤل الساخر على شفتيها . . أين قضيت الليلة . .

ولكنها بالطبع لم تسل، ولم أكن من ناحيتى متحمساً أو مهتماً لأن أحكى، وأشاحت عنى وانشغلت مع السائق فى حديث بالألمانية أحسست أننى موضوعه . . وبعد ساعتين من النوم المتقطع داخل العربة الدافئة وصلنا إلى ليبزج، أو باريس الصغيرة كما أطلق عليها شاعر ألمانيا العملاق ولفجانج فون جوتة.

وليبزج هي واحدة من أعرق المدن الأوروبية على الإطلاق، وعرفت بمدينة الطباعة عندما اكتشف وطور أحد الألمان في بداية عصر النهضة آلة بسيطة للطباعة كانت تمثل في ذلك وقت انقلابا بل ثورة جديدة في عالم الكتب والمطبوعات، وكانت بمقاييس العصر أكثر خطورة من ثورة التكنولوجيا والأقمار الصناعية في مجال الإعلام المعاصر.

ويقولون إن الحضارة الأوروبية الحديثة قامت على اختراعين أو قدمين أساسيين هما الطباعة والبارود الذي كان بمثابة القدر القادر الذي ألحق العاجز بالقادر، فالطباعة حققت للحضارة والفكر الأوروبي الانتشار الواسع والبندقية مكنت لهذا الفكر من السيادة والسيطرة.

وعلى مر القرون تحولت ليبزج إلى أكبر مركز صناعي وثقافي في أوروبا وبدأ فيها أول معرض عالمي للاختراعات والاكتشافات الجديدة في جميع الميادين منذ أكثر من ٢٠٠ عام وأطلق عليها اسم مدينة المعرض ومازالت تحتفظ بهذا اللقب حتى الآن إذ يقام فيها معرضان عالميان كبيران أحدهما في الربيع والآخر في الخريف.

وكان أدولف هتلر يعتبر أن هناك جوهرتين تزينان عرش الرايخ الثالث الذي أنشأه وهما ڤيينا وليبزج.

ولقد تعرضت ليبزج بالطبع مثل الكثير من المدن الألمانية لغارات مكثفة من جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية دمرت جانبا مهما من المدينة، ولكنها لحسن الحظ لم تدمر المدينة كلها أو الجانب الأكبر منها مثلما حدث في برلين، بل بقي جزء مهم من المدينة القديمة التاريخية بما في ذلك مبنى البلدية والسوق القديم والمكتبة القديمة التي تعتبر واحدة من أعرق المكتبات العالمية وأهمها من زاوية الوثائق والمخطوطات التاريخية. وحالما دخلت العربة كردون المدينة بدأت باربارا تفرد أوراقها لتتلو عليّ البرنامج الدقيق والمحدد بالساعة والدقيقة لتفاصيل الزيارة.

الساعة العاشرة وحتى الثانية عشرة زيارة لأرض المعارض.

الساعة الثانية عشرة والنصف غداء في فندوق أستوريا- الخ.

قلت لها بعد أن انتهت من تلاوتها المباركة الآمرة:

- سيدتي العظيمة، إنني لست في زيارة سياحية أو زيارة عابرة، لقد جئت إلى هنا لأقيم ولسنوات كمراسل صحفي، وسآتي إلى ليبزج والمدن الأخرى عشرات المرات أثناء إقامتي وهناك فرصة لأرى كل شيء، ولكنني أريد هذه المرة أن أرى الناس وأعايشهم.

ولا أدرى هل كانت إنجليزيتى مفهومة أو مضغومة، أم أن صوتى جاء عالياً وحاداً أم أن تفاعلات الإحساس بالقهر والتسلط قد انعكست فى نبرتى ألفاظى.

فقد اكتسى وجهها الجامد ولأول مرة بتموجات عنيفة ومتلاحقة وخلعت النظارة تمسحها فى ارتباك وبدا وجهها بسيطاً جذاباً، ولكنها سرعان ما استردت قناعها التقليدى والتفتت إلى فى حدة وتحد قائلة:

- ماذا تعنى هر فتاح؟

- أعنى أن لدى بعض الأصدقاء هنا فى جامعة ليبزج وحبذا لو استطعت أن ألتقى بهم.

قالت وقد تصاعدت إليها نبرة التحدى:

ولكن البرنامج حافل ولا يسمح

قلت فى انفلاتة تلقائية:

- ليس هناك لكن، والبرنامج ليس أمرا مقدساً. لقد وضع لى وأنا أملك تغييره، لا يمكن أن أكون فى ليبزج ولا أرى الأستاذ الدكتور لوثر راتمان والأستاذ الدكتور آرمين بييرنر..

قالت فى اندهاش أدهشنى أنا شخصيا.

- هل تعرف حقا بروفسور راتمان، إنه مدير الجامعة..!!

وكانت نظرتها والطريقة التى ألقت بها الكلمات تعنيان باللغة غير المنطوقة:

.. أنَّى لك أيها الصحفى الوافد من إحدى بلدان العالم الثالث أن تعرف أستاذاً ألمانيا كبيراً كهذا.. ولكنها إزاء الإصرار الذى لمسته فى كلماتى أعطت أوامرها للسائق بالتوجه إلى مبنى الجامعة، ذلك المبنى الحديث الذى يتكون من حوالى ثلاثين دوراً وصمم على صورة كتاب مفتوح بعد أن تهدمت المبانى القديمة للجامعة التاريخية أثناء الحرب.

ولقد كانت مفاجأة لى حقا أن أعرف أن بروفسور راتمان قد أصبح مدير أقدم وأكبر جامعة فى ألمانيا، بل ومن أقدم الجامعات الأوروبية ومن حسن الحظ أننا وجدنا بروفسور راتمان ومن حسن حظى المضاعف أن الرجل لم ينسنى وبالرغم من مشاغله العديدة وزيارتنا المفاجئة فقد استقبلنى فى ترحاب بالغ فى مكتبه وأصر على أن نلتقى سويا على الغداء فى مطعم الجامعة..

وبروفسور لوثر راتمان واحد من ألمع المثقفين الألمان المهتمين بالشرق الأوسط وبمصر بشكل خاص وله أبحاث ودراسات منشورة عن التاريخ المصرى الحديث والقديم ولا ينافسه فى ذلك سوى تلميذه وصديقه بروفسور بيرنر، وكلاهما زار مصر فى الستينيات والسبعينيات زيارات متعددة وعملا فى الجامعات المصرية (القاهرة وعين شمس) كأستاذين زائرين أقاما أثناءها علاقات وطيدة مع عدد من المثقفين والأساتذة المصريين منهم الدكتور محمد أنيس والدكتور رءوف عباس والأستاذ لطفى الخولى وعدد آخر من أساتذة الجامعات المصرية . . وقد التقيت وتعرفت بهما أثناء هذه الزيارات وأدهشنى إلمامهما الواسع والدقيق بتطورات الحركة الثقافية والفكرية فى مصر والعالم العربى، وكان للبروفيسور راتمان دور خاص فى تشجيعى على مواصلة الدراسات التى كنت قد بدأتها حول القرية المصرية مؤكداً أن ذلك يسد فراغا فى المكتبة العربية حول هذا الموضوع . .

وعلى الغداء فى مطعم الجامعة لحق بنا بروفسور بيرنر وجلسنا لأكثر من ساعة نتبادل الأحاديث بمزيج من الذكريات حول القاهرة المدينة ذات المذاق الخاص على حد تعبير راتمان وعن الأصدقاء والجامعة، عن تطورات الأوضاع فى مصر والشرق الأوسط، وعن أحدث الكتب والدراسات التى صدرت حول هذا الموضوع فى مصر وألمانيا . . وعن آخر زيارة لراتمان للقاهرة منذ سنتين حين التقينا فى فندق سميراميس وقدمت له فيها ورقة عن مشروع دراسة جديدة لى وعلق يومها . . إنها لا تصلح لأن تكون رسالة للدكتوراه . . واعتذارى لضيق الوقت . .

وفوجئت بأن الاثنين قد قرآ كتابى الأخير «شيوعيون وناصريون» الذى صدر فى القاهرة عن مؤسسة روزاليوسف منذ أقل من شهرين، والذى كان يحكى تجربة اعتقالى فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات . .

وعندما تصافحنا وودعنا . . قال بروفسور راتمان وهو يشد على يدى بقوة :

– . . والآن ليس هناك عذر بضيق الوقت، إننى فى انتظارك فى الأسابيع القادمة لدراسة مشروع الدكتوراه . .

كانت باربارا أثناء لقاء المطعم قد انزوت فى ركن من المائدة تراقب الموقف والحديث وقد وجدت نفسها بلا دور لأول مرة منذ التقينا . فالصديقان اللذان التقيت بهما يتحدثان الإنجليزية بل وأحياناً ما كنا نتحدث بالعربية التى يفهمانها جيداً، وهكذا وجدت نفسها ليس فقط مبعدة عن الحوار بل وغريبة فى أحيان كثيرة . .

ولقد ظلت صامتة أغلب الوقت بعد ذلك أثناء زيارتنا للمكتبة التاريخية فى ليبزج، وخاصة قسم الوثائق الذى يضم مجموعة نادرة من المخطوطات العربية لأبى بكر الرازى وابن رشد وابن سينا والفارابى ثم فى زيارتنا لمبنى المحكمة العليا واستماعنا إلى التسجيل الصوتى الحى للمحاكمة التاريخية التى جرت فى هذه القاعة سنة ١٩٣٣ للزعيم البلغارى ديمتروف واتهامه من قبل النظام النازى بالاشتراك فى حرق الريسنتاخ الألمانى «البرلمان» وهى المؤامرة التى دبرتها العصابة النازية الحاكمة بزعامة هتلر للتخلص من الشيوعيين والاشتراكيين والحوار العاصف الذى جرى بين ديمتروف وجورنج وجوبلز القطبين النازيين فى ذلك الوقت، كنت فى الزيارتين الأخيرتين مشحوناً بطاقة من المرح والحيوية، أقدم التعليقات وأحياناً التفسيرات وبإحساس خفى بالسعادة والتحرر، بينما اكتفت بربارا بالتأمل والاستماع. .

وحينما أخذت أشرح بفخر واعتزاز وإسهاب ونحن فى طريق عودتنا للفندق عن أثر الثقافة العربية على النهضة الأوروبية الحديثة كما هو واضح فى قسم الوثائق فى مكتبة ليبزج قالت باربارا فى نبرة خافتة:

- يبدو أن هذا صحيح. .

التقينا على العشاء فى مطعم فندق أستوريا ولاحظت أن باربارا قد ارتدت فستان سهرة أبرز مفاتن جسدها الرائع كما لاحظت ولأول مرة مسحة خفيفة من «الميك أب» والرتوش حول العينين والشفتين. . مع ابتسامة حقيقية لا يشوبها الاصطناع والسخرية والتعالى. .

قالت فى صوت بدا لى غريباً لعذوبته البالغة:

- أنت كاتب، إذن، هل لديك مؤلفات مترجمة إلى الألمانية؟

- ليس بعد، لماذا لا تتعلمين العربية. .

وضحكت، وضحكت وامتدت ضحكاتنا وبصوت عال يلفت أنظار القريبين لما فى المطعم، ورأيت عينيها وهما تضحكان من الأعماق تلمعان ببريق حلو دافئ ويشعان البهجة والسعادة والانطلاق، وأحسست بسقوط الأقنعة والأسوار التى كانت تفصلنى عنها، إنها بالتأكيد ليست بربارا التى التقيت بها منذ يومين بنظراتها الحادة المتعالية وبوجهها الذى يكتسى مسوح الجدية، حينما قالت لى يومها فى نبرة محتجة وكأنى ارتكبت إثماً لا يغتفر. . لماذا لم تتعلم الألمانية؟!

وانطلق الحوار بيننا فجأة بركاناً متفجراً منطلقاً معوضاً أياماً طويلة من الكبت والتحفظ والتحفز من الجانبين .

حدثتها عن القاهرة المدينة ذات الألف وجه من الزمالك وبولاق والحسين والسيدة زينب والمعادى وهليوبوليس ، الوجه المعاصر والوجه التاريخى ، الوجه الأرستقراطى والوجه الشعبى ، عن النيل والشمس وزهور البرتقال والفل والمشمش والشوارع الممتلئة بالناس حتى منتصف الليل وحدثتنى عن حياتها بعد التخرج فى جامعة ليبزج حيث تخصصت فى دراسة الإنجليزية وعملها كمترجمة وصحفية بعض الوقت ، وعلاقتها بأحد الشبان أثناء دراستها أثمرت ابنة صغيرة تعيش معها .

واعتذرت عن جهلها بمصر المعاصرة رغم تقديرها الشديد لدور مصر التاريخى والحضارة المصرية القديمة : الأهرام ونفرتيتى وكيلو باترا ومكتبة الإسكندرية

وسألت كثيراً عن وضع المرأة فى المجتمع المصرى والعلاقات بين الجنسين . . وتحولت الأستاذة الآمرة الساخرة إلى طفلة صغيرة شقية تفتح فمها فى دهشة وهى تسمع منى أن فى مصر ١٦ جامعة ثلث طلبتها من الفتيات ، وأن المرأة فى مصر اقتحمت منذ فترة طويلة ميدان العمل ولدينا وزراء وسفراء من السيدات ، وأن التماسيح وفرس النهر لا تطأن نيل مصر منذ آلاف السنين ، وأن الإبل لدينا محدودة وليست هى وسيلة الاتصال والتنقل وأن مصر مجتمع غير صحراوى فالغالبية العظمى من السكان تقيم فى وادى النيل رغم وجود الصحارى الممتدة .

واقترحت بربارا أن نسهر فى الحانة القديمة التى كان يتردد عليها جوته وشيللر أشهر كتّاب ألمانيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحكت لى كيف أن جوته شرب بكثرة ذات يوم ولم يكن معه نقود كافية فترك معطفه عند صاحب الحانة كرهينة لسداد ديونه وهناك لوحة تسجل هذا الحدث التاريخى عند مدخل الحانة وورقة بخط جوته يعترف فيها بدينه .

وطوال السهرة كانت الحواجز والأسوار تنهد وتنهار الواحدة تلو الأخرى ، واكتشفت أن ما تصورته عنصرية وتعاليا من جانب بربارا لم يكن إلا أوهاماً ، ولعلها خاصية تميز بها الشعب الألمانى فى علاقته مع الأجانب ونتيجة لظروف تاريخية وجغرافية . إنه يحمى نفسه فى البداية بسور من التحفظ والشك ، وحالما يتجلى الموقف وتظهر الحقيقة سرعان ما تكتشف الأبعاد الإنسانية والحضارية العميقة له . . هكذا أكدت لى تجربتى مع بربارا . .

لقد عاش الألمان قروناً طويلة فى جيتو فى وسط أوروبا وعندما بدءوا ينفضون عن

أنفسهم ثلوج وركام تخلف القرون الوسطى ، واكتشفوا أن شعوباً أوروبية أخرى كانت قد سبقتهم إلى ركوب البحار وارتياد آفاق جديدة وعوالم جديدة فى آسيا وإفريقيا وأمريكا . . كان الإنجليز والفرنسيون والأسبان بل وحتى الهولنديون قد خرجوا إلى الدنيا القديمة الدافئة بينما ظلوا هم محاصرين ومحصورين فى رقعتهم المحدودة .

ولعل الإحساس بأنهم جاءوا متأخرين ، كان الدافع وراء القفزات الكبيرة والملموسة لهم فى القرن التاسع عشر حين خرجت لهم قمم عقد لها اللواء فى مجالات الثقافة والفن والفلسفة والموسيقا والعلوم . . وأيضاً الفنون العسكرية . .

مثلما كان ذلك الدافع وراء حربين عالميتين . .

وقضينا ليلة ممتعة فى أجواء الحانة التاريخية وحققنا عمليا الوحدة العضوية بين المجتمع الأوروبى الاشتراكى المتقدم وشعوب العالم الثالث النامى .

وأثبتنا معاً أنه من الممكن أن يجرى حوار شامل وخصب ومثمر بين الشمال والجنوب وأن الغرب والشرق يمكن أن يلتقيا على أرضية المشاعر الإنسانية المشتركة وكان الصباح يحمل لنا مفاجأة مثيرة .

[٣٤]

ستضاف إلى اليوم الطويل وتنفجر البراعم فى
صمت. براعم الزهور أو النيران. لكن شيئاً ما
لابد أن يزدهر لينمو ويكبر بيننا.

بابلونيرودا - نهاية العالم

٣ إبريل سنة ١٩٧٦..

عدنا إلى برلين فى صباح ذلك اليوم بدون استكمال الرحلة. . والسبب مكالمة تليفونية فى الصباح من إدارة الصحافة بوزارة الخارجية تقول إن هناك ضيفاً مصريا كبيراً ينتظر الهر فتاح فى شقته فى برلين. .

واسمحوا لى أن أعترف أننى صببت اللعنات على هذا الضيف الذى جاء فى هذا الوقت بالذات ليقطع على رحلة كنت قد هيأت نفسى لمعايشتها والاستمتاع بها ولمدة عشرة أيام استكشف فيها هذه الدنيا الألمانية التى قرأت عنها وسمعت بها وبفنونها وآدابها وفلاسفتها ومحاربيها ولأجوب البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. .

وزادت لعناتى على الضيف، خاصة بعد أن بدأت الأمور تجرى فى مسارات إنسانية حلوة مع مرافقتى الحسناء. . وبعد الليلة التى استطعنا أن نخلق جوا من التآلف والتفاهم. . واتجهت السيارة الفولجا جنوباً نحو برلين وبدلاً من أن تتجه شمالا نحو مدينة إيرفورث التاريخية والتى تعتبر من أقدم المدن الألمانية على الإطلاق وتقع فى إقليم تورنجا الذى يطلقون عليه سويسرا الألمانية حيث استطاعت الطبيعة الخلابة بجبالها ووديانها وبحيراتها المتناثرة أن تخلق إنساناً على سجيتها ووفقاً لمزاجها الطبيعى.

أجهضت مكالمة برلين الصباحية أحلامى فى قسوة، وأحسب أن الأمر كان كذلك بالنسبة لبربارا التى حاولت ونحن فى طريق العودة جنوباً إلى برلين أن تخفف عن نفسها مرددة فى ابتسامة ودودة محملة برنة إحباط. .

- لاشك أنه سيمكنك أن تواصل الجولة بعد الانتهاء من ضيفك المصرى . .

- وأنت معى أيضاً . .

- لا أحد يستطيع أن يضمن ذلك ، فربما اختاروا لك مرافقة أخرى . . ! !

الله يخرب بيتك . . مين . . قبارى عبدالله . . .

أى رياح دفعت بك إلى هنا ، ولماذا لم تخبرنى من قبل ببرقية أو بالتليفون . .

كان مجرد رؤيتى لقبارى فى المنزل بعد عودتى إلى برلين كافياً لأن يبهجنى ويسعدنى حتى إنى نسيت تماماً ثورتى وانفعالى على هذا الضيف الذى تصورته ثقيلاً وغير مرغوب فيه . . وجلست استمع إلى أحاديثه التلقائية المتصلة كموجات إرسال موسيقى عاصف لا ينقطع لأكثر من ساعتين . .

لقد كان فى زيارة مع وفد برلمانى مصرى لأثينا فانتهز الفرصة ليخطف رجله إلى برلين التى لم يرها من قبل بعد أن أصبح له «عزوة وبيت هناك» .

. . ولعل ذلك كان دائماً مفتاح شخصيته إخلاص وتفان على أرضية إنسانية حبيبة . . كانت ضحكاته العالية وكلماته الخضراء كفيلة بأنْ تنسينى أننا فى برلين وتنقلنى إلى حى معروف وقصر النيل وخالتى المباركة «أم سيد» التى كانت تسكن فوق الغرفة التى يستأجرها قبارى فى حارة معروف وتتحفنا أحياناً بالفتة اللذيذة بالثوم وبمواسير العظم وما تحتويه من «إكسير الحياة» مثلما يصفها قبارى . .

كانت السنوات الماضية قد قاربت ما بيننا كثيراً منذ أن التقيت به فى أواخر الستينيات شاب مرح خفيف الدم ، يملك شفافية وذكاء فطريا لم يستكمل تعليمه فسافر إلى إيطاليا وعاش فيها ثلاثة أعوام عمل كهربائيا فى إحدى الشركات وتفتح على الحياة السياسية والفكرية فى روما وميلانو واشترك فى تظاهرات وإضرابات العمال ثم عاد إلى مصر ولديه حلم بسيط فى أن يتحقق على أرضها ديموقراطية وعدالة حقيقية أو كما يقول دائماً . . نفسى أغمض وأفتح وألاقى فى مصر «ناس» تقول آه من قلبها وناس تقول لأ من قلبها ، وكل واحد صغير وكبير يبقى حاسس إن دى بلده وملكه . . مش مهم بعد كده الكلام الكبير عن الرأسمالية والاشتراكية . .

وحينما جاء فى يوم فى كافيتريا فندق الكونتيننتال فى أوائل السبعينيات حيث كنت ألتقى أنا وأحمد طه وعدد من الأصدقاء مساء كل أربعاء ليقول إنه قرر نزول معركة انتخابات مجلس الشعب . ضحك الجميع باعتبارها نكتة ساخرة .

وكان رده عاصفاً ساخراً مرحاً وهو يقول :

«يخرب بيتك أنت وهو . . مش عاجبكم . . اشمعنى أحمد طه» . .

ولكننى صدقته وشجعته وشاركته المعركة القاسية التى كان ينافس فيها بعضاً من كبار محترفى الانتخابات وبعضا من كبار حملة الأسماء والمراتب . . كان تحفظى الوحيد هو اختياره لدائرة قصر النيل ، وهى دائرة كانت تضم فى ذلك الوقت ، الزمالك وجاردن سيتى ووسط البلد . على أساس أنها دائرة أرستقراطية لا يمكن أن يشدهم عامل مثقف يرفع شعارات الاشتراكية والديموقراطية ويومها أخذنى فى جولة فى الزمالك ، وتوقف بى فى شارع البرازيل قائلاً :

انظر فى هذه القصور والفيلات والعمارات الفخمة ، فى كل فيلا منها يسكن رجل وزوجته وابن أو ابنة من البهوات والباشوات وغالبيتهم لا يذهبون إلى الانتخابات لأنهم ليسوا مهمومين ، ومشاكلهم محلولة فى كل العصور والأزمان ولكن فى كل فيلا ستجد عشرة من الآخرين ، رجالى . . البواب والجناينى وسائق العربة والطباخ والسفرجى . . وكل هؤلاء رجالى بتوعى لأنهم مهمومون مثلى . .

واكتسح قبارى الانتخابات فى أول جولة وبدون إعادة . . وتحول هو الآخر ، مثل أحمد طه فى الساحل وشبرا ، إلى أمل حقيقى يلتف حوله العاملون والمجهدون والمتعبون يتبنى همومهم وطموحاتهم ويثيرها فى البرلمان ويسعى لحل مشاكلهم الصغيرة والكبيرة ، ويقيم معهم فى حارة ضيقة فى غرفة فى الدور الثانى فى بيت تطلع سلالمه بدون مسند . . أو حاجز . . ولا أحسب أنه وطوال السنوات المنفلتة من السبعينيات قد مر أسبوع دون أن ألتقى أنا وهو وأحمد طه وكلاهما كان له صوت مسموع فى البرلمان . نناقش قضايا وهموم الشعب والبلد ونخرج باقتراحات بعضها كان يتحول إلى استجوابات أو أسئلة فى البرلمان ، وبعضها كان يتحول إلى ندوات ولقاءات جماهيرية وبعضها كان يخرج فى شكل مقالات أو دراسات أكتبها أو يكتبها أحدهما . .

وأصبحت جلساتنا فى الآتيليه أو فى ناشيونال وأحياناً فى كارلتون شبه ندوات أسبوعية لا تشغل نفسها بشقشقة الكلام والتخريجات التى شغف بها المثقفون بقدر ما هى مهمومة بالمشاريع والخطوات العملية التى تعكس مصالح الناس وحياتهم . .

ولقد كنت وسأظل سعيداً وفخوراً بأننى وجدت نفسى مع اثنين يعتبران بكل المعايير ، أكثر وجهين جماهيريين لليسار المصرى ، كسبا ثقة الجماهير بشكل أفسد على السلطة والمعادين كل المحاولات وأحياناً المؤامرات ضدهما . .

ومن الطبيعى أيضاً أننا كنا مهمومين بالتطورات الغريبة والمفاجئة التى كانت تجرى فى ذلك الوقت ، وخاصة بعد سياسة الانفتاح والتقارب مع أمريكا . .

وأذكر أننا لاحظنا فى بعض جلساتنا أننا مراقبون، فقد كان هناك دائماً من يتعمد أن يجلس فى مكان قريب موجهاً أذنيه لالتقاط أحاديثنا وكان الأمر مثيراً وفجا فى نفس الوقت. . وذات يوم صحبنى قبارى إلى ممدوح سالم وزير الداخلية فى ذلك الوقت والذى كان متعاطفاً معه من الناحية الشخصية ويطلق عليه «بربرى البرلمان» وذلك لخفة دمه ودماثة خلقه. وقال له قبارى يومها. .

- سيد ى الوزير. . من حقك أن تراقبنا وتسجل لنا ما شئت فهذا عملك حتى ولو كنا أعضاء فى البرلمان وكتّاباً. .

وكل ما أرجوه أن تستخدم الوسائل الحديثة فى عملك بدلاً من الاعتماد على المخبرين اللزجين وسحنتهم الغبراء لأنهم يفسدون علينا جلساتنا.

ويومها ضحك ممدوح سالم قائلاً له:

«حاضر يا بربرى، قلت لك مراراً ابعد عن اليساريين. . مالك ومالهم. .».

والواقع أن قبارى كان يحب ممدوح سالم ويصفه بأنه وطنى مخلص ونظيف ويؤكد أنه على خلاف مع السادات فى توجهات سياسية كثيرة، وربما كان ذلك السبب فى أن البعض من المثقفين اليساريين الذين تنحصر الثورة عندهم فى كلمات ودردشات وتعبيرات يطلقونها فى جلساتهم على المقاهى «الثورية» وأشاعوا عن قبارى فى فترة أنه عميل «السلطة» بل إن بعضهم جاء يوما ليحذرنى منه عندما قررنا أن نصدر أول جريدة مستقلة خارج إطار الاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت فى محاولة لكشف الخطوط التى كانت تتكامل فى منتصف السبعينيات لتقذف بمصر مرة أخرى فى أحضان التبعيتين الاقتصادية والسياسية وقلت يومها لهذا الصديق الثورى للغاية والذى كان هو نفسه ضالعاً مع السلطة فى أواخر الستينيات. .

- ربنا يخليك ويخلى أمثالك حتى تجهزوا تماماً على اليسار فى مصر. . !!

***

- أهلا بك يا قبارى فى برلين. .

- اسمع يا سيدى لا أهلا ولا سهلا، أنا جاى يومين ومسافر مصر للهم والمشاكل، قوم بنا فسحنى وفرجنى على البلد ونسائها الجميلات. .

ولقد سمعت أن أكمل وأنضج نساء فى العالم هن الألمانيات. .

وفى المساء اصطحبته إلى أحد المراقص المعروفة فى برلين حيث كشف لى عن

جانب فى شخصيته لم أكن اكتشفته من قبل، فقد كان راقصا ماهرا ويملك إحساسا موسيقيا مرهفا إلى الدرجة التى جعلته وبعد جولتين من الرقص والموسيقا يفرض نفسه كسيد حقيقى للمكان حتى إن إحدى الفتيات جاءت إلى المنضدة التى يجلس عليها وانحنت أمامه قائلة فى لغة إنجليزية مهترئة :

- هل يسمح لى السيد سدنى بواتيه بشرف هذه الرقصة؟!

وقال لها وهو ينهض وفى صوت عال وبالعربية . .

- أنا اسمى قبارى عبدالله يا مدموازيل . . ومن مصر . . تعرفى مصر وبولاق ومعروف وشبرا وأحمد طه وخالتى امباركة . .

وانفجر فى ضحكته المعروفة . . كان قبارى بسمرته النوبية وشفتيه الغليظتين المقلوبتين يشبه إلى حد كبير، وخاصة فى أضواء المراقص الخافتة، الممثل الأمريكى الزنجى سدنى بواتيه، وقد حكى لى كثيراً عن بعض الحوادث وأحياناً الكوارث التى كادت أن تحدث له فى إيطاليا من جراء ذلك . . ولذلك كان يحرص دائماً على أن يعلن هويته من البداية حتى لا تتعقد الأمور وخاصة وقد عرفت منه أن فتاة إيطالية فى ميلانو مهووسة وممسوسة بشخصية بواتيه رفعت فى وجهه المسدس ذات ليلة طالبة منه أن يذهب معها وإلا أطلقت عليه وعلى نفسها الرصاص . .

وحينما نسأله . . هيه وعملت إيه يا قبارى؟

يرد فى كلمات متموجة غارقة فى الضحك . .

- طبعاً . . أطلقت علىّ الرصاص . .

وأخذت أتأمله وهو يرقص فى البست مشاركاً وأحياناً قابعاً على الكرسى وهو يتمايل ويدق بقدميه ويرفع يديه فى رقصات فيها مزيج من الرقص العربى والغربى والإفريقى متصايحاً وبالعربية من الحين والآخر بكلمات تحيا مصر . . تنتخبوا مين . . أحمد طه . . أو مردداً الأغنية الحبيبة إلى قلبه «قالوا البياض أحلى ولا السمار أحلى» يعلو بها أحياناً على صوت الموسيقا ورفيقته فى الرقص لاتفهم ولكنها بالتأكيد فى حالة من السعادة والنشوة لهذا الراقص الأسمر الغريب القادم من أعماق الصعيد وأنا فى كل الأحوال غارق فى الضحك إلى درجة عدم القدرة على التقاط الأنفاس . .

إلى هذا الحد يمتلك البعض جاذبية خاصة تجعله قريباً من قلوب الناس، وقد كان «لكاريزم» الذى يحيط بشخصية قبارى نابعاً من خط أصيل فى شخصيته يتركز فى ثلاث كلمات . . البساطة والتلقائية والصدق . .

وعند الثانية صباحا، وبعد أكثر من أربع ساعات جلجلت فيها رقصاته وضحكاته ومناغشاته فى الصالة كلها التفت إلىّ قائلا . .

- كفاية كده النهارده . . ياللا بنا نروح . .

وخرجنا إلى الشارع المثلج بعد أن أحكمنا المعاطف والبيريهات وحاولت أن أطلب تاكسيا ولكنه أصر على أن نذهب سيراً على الأقدام. فالجو جميل منعش . . وقد كان الجو بالفعل جميلاً ومنعشاً بدرجة اثنين تحت الصفر . .

وغرق فى صمت لفترة وهو يتأمل الشارع العريض الذى تحيط به أشجار الزيزفون من الجانبين وسألنى عن اسم الشارع :

- شارع إنتردن لندن

- يعنى إيه؟!

- يعنى شارع تحت ظلال الزيزفون . .

وانفجر صارخاً . .

- ولاد الإيه . . سرقوا الاسم من المنفلوطى . . !

وعاد يقهر البرد ويملأ الصمت بضحكته المجلجلة الراعدة والمتموجة . . ثم عاد إلى صمته المتأمل مرة أخرى والتفت إلىّ فجأة قائلاً . .

- السادات لغى المعاهدة امبارح

- بتقول إيه . .

- بقولك السادات لغى معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية امبارح .

- إزاى

زى الناس يا أخى، انتهز فرصة وجودى فى أثينا وذهب لمجلس الشعب ولغاها . .

وعاد يضحك ولكنى نهرته وأوقفته بصوتى الذى كان فيما يبدو جاداً ومأخوذاً

- بتتكلم جد . . بلاش هزار . .

- هزار إيه يا جدع أنت . . والنعمة الشريفة حصل . .

راح المجلس أمس وطلب التصويت على إلغاء المعاهدة والمجلس وافق . . بس مش بالإجماع زى ما كان عاوز . . فيه اثنين رفضا . . أحمد طه وأبوسيف يوسف .

وتوقفت فى الشارع وأمسكت حزام معطفه وقد تملكنى الغيظ ليس لإلغاء المعاهدة بل للطريقة التى قال بها الخبر وانفجرت فيه.

- بقالنا يوم كامل مع بعض دشيت فيه كل حاجة.. وجاى آخر الليل تقولى على الخبر..!! وخلص حزام البالطو من يدى وقال ضاحكاً:

- ما هو لو قلتلك الخبر ده من أول النهار، كنت قلبتها غم وسياسة ووجع دماغ ومكناش جينا المرقص، أنا قلت آخذ حقى حلفا وأستمتع ليلة ببرلين وبعدين يحلها حلال..

وعاودنا السير فى صمت وتحت ظلال الزيزفون وصوت أقدامنا يتردد فى ضربات ليست رتيبة فى الشارع الواسع والخالى إلا من نسمات البرد المثلجة..

لم يكن إلغاء المعاهدة السوفيتية المصرية هو الذى أقلقنى ولكن الخبر المفاجئ كان تأكيداً للمسار الخطر والذى كان يتكامل خلال السنوات الماضية.. فأيا كانت المآخذ على السياسة السوفيتية، وقد كانت لى شخصيا تحفظات على بعضها، إلا أن أى وطنى حقيقى لا يمكنه إلا أن يعترف بأن العلاقات المصرية السوفيتية طوال العشرين سنة الماضية قد لعبت دوراً كبيراً ليس فى حماية الاستقلال الوطنى وتأكيده فقط فى مواجهة المؤامرات الإسرائيلية والمدعومة من الولايات المتحدة، بل والأهم من ذلك فى بناء قاعدة حقيقية لاقتصاد وطنى مستقل، ففى تلك الفترة وبمساعدة من السوفيت تم بناء السد العالى والذى أجمع الكل فى الشرق والغرب على أنه واحد من أخطر المشروعات الإستراتيجية التى أنجزت فى القرن العشرين، كما تم كهربة الريف ومد الطاقة المحركة إلى أكثر من ٤٠٠٠ قرية مصرية، بالإضافة إلى بناء حوالى ٨٠٠ مصنع من بينها صناعات إستراتيجية مهمة مثل الحديد والصلب وكيما ومجمع الألمونيوم.

وقد كان السادات نفسه هو الذى طلب وألح على السوفيت عقد معاهدة الصداقة بعد تخلصه من الجناح الناصرى المناوئ له فى السلطة فى مايو سنة ١٩٧١، وكان مجلس الشعب الذى وافق عليها بالإجماع فى ذلك الوقت هو نفسه الذى قرر إلغاءها..

وقد كنت شخصيا غير متحمس لهذه المعاهدة، ربما لإحساس بالظروف التى فرضتها، وربما لعدم الارتياح والحساسية التاريخية لكل مصرى من المعاهدات السابقة مع بريطانيا وغيرها رغم الاختلاف الواضح والمؤكد بين المعاهدة المصرية السوفيتية والمعاهدات المصرية البريطانية السابقة، ولقد كتبت أيامها فى الجمهورية

أقول إن العبرة بالعلاقات ليست فى الكلمات المكتوبة بل بالوعى الحقيقى بحجم وأهمية المصالح المشتركة والمتبادلة بين البلدين وتنميتها. ولذلك لم يكن ليشغلنى كثيرا إلغاء هذه الورقة مثلما لم يسعدنى كثيراً توقيعها، فلقد كانت العلاقات السوفيتية فى أوج ازدهارها فى الستينيات وكانت هناك قوات وطائرات سوفيتية تحمى العمق المصرى دون أن يفكر أحد فى توقيع معاهدة صداقة..

بل إنه فى ظل المعاهدة وفى أعقابها مباشرة كان السادات يبنى من جديد علاقة خاصة بالولايات المتحدة ويضع السياسات والتوجهات سواء فى السياسة الداخلية أو الخارجية التى تخدم هذا الغرض.. وفى ظل هذه المعاهدة قام السادات بطرد القوات السوفيتية التى جاءت بعد إلحاح مكثف من عبدالناصر والقيادة المصرية وبعد تمنع شديد وممتد من جانب السوفييت ولمدة شهور كانت أجواء مصر وأعماقها مكشوفة ومفتوحة للطيران الإسرائيلى يعبث بها ويخترقها كما يشاء ويشل الجهود الجبارة التى كانت تبذل لبناء حائط الصواريخ فى الضفة الغربية للقناة، ولقد سمعت من الدكتور مراد غالب نفسه والذى كان سفيرا لمصر فى موسكو، كيف عارضت القوات السوفيتية بعناد الفكرة التى طرحها عبدالناصر بإرسال بعض القوات السوفيتية لحماية العمق المصرى الذى كانت تنتهكه قوات الفانتوم الأمريكية يوميا وقد وصل عبدالناصر نتيجة هذه المعارضة إلى درجة من التوتر والانفعال حتى إنه قال له فى موسكو والله العظيم لو فضلوا على رفضهم لأطربقها على دماغهم.

وبعد شهور من المباحثات المكثفة الصعبة جمع برجنيف اللجنة المركزية للحزب السوفيتى للتصويت على هذا القرار الخطير الذى لم يكن يريد أن يتحمل وحده مسئوليته.

ولكن كل هذا شىء وإلغاؤها فى ذلك الوقت بالذات شىء آخر.. لقد كان تأكيداً نهائيا على أن المخاوف والتوجسات التى راودت القطاعات الوطنية إزاء التوجهات السياسية للسادات قد أصبحت حقيقة واقعة وأنه يمضى فى طريق بلا رجعة.

وكان يعنى أن السادات قد اختار وبشكل نهائى أن يضع كل البيض فى السلة الأمريكية.. وفى الصباح اصطحبت قبارى وهو نصف نائم يتخبط فى البالطو الواسع الذى أقرضته إياه لنشهد الاحتفال الشعبى والرسمى بعيد أول مايو..

كان الاحتفال قد خصص له ميدان فسيح ممتد فى «طريق كارل ماركس» وهو أعرض وأطول شارع فى برلين.. كما كان أول شارع جديد أقيم فى المدينة بعد دمارها الشامل فى نهاية الحرب العالمية الثانية..

اصطفت القيادات السياسية والحزبية مع عدد من الضيوف البارزين ومن خلفهم البعثات الدبلوماسية والصحفيون والمراسلون الأجانب فى منصة أقيمت على جانب الميدان . .

ثم بدأت مئات الألوف من سكان برلين يمرون فى الشارع حاملين الأعلام وسط جو مرح من الموسيقا والأغانى ، كان سكان كل حى فى المدينة يمضون فى جماعات ، الرجال يحملون الأطفال على أكتافهم والنساء تضرب الدفوف أو تعزفن ويرقصن فى مجموعات والكل يغنى فى مرح ، وقد ارتدى الجميع ثيابهم الزاهية . . ومن الحين والآخر تصدح الأناشيد التى تتغنى بذكرى ذلك اليوم الخالد فى تاريخ البشرية . .

مأساة العاملين الأمريكيين اللذين اتهمتهما إدارة المصنع فى مدينة شيكاغو فى أواخر القرن التاسع عشر بالتخريب والتدمير ، ويساند البوليس الإدارة ، وقبض عليهما وعذبا ثم حكم عليهما بالإعدام ، وأعدما بالفعل على الكرسى الكهربائى .

ثم يصحو ضمير أحد المخبرين الذين اشتركوا فى المأساة ، فيعترف بعد عدة سنوات بالحقيقة ويكشف أبعاد المؤامرة التى اشترك فيها صاحب المصنع الرأسمالى النصاب بالاشتراك مع البوليس . . وتبرأ ساحة العاملين . . ولكن بعد إعدامهما . .

ويثور الرأى العام فى أمريكا وتخرج التظاهرات فى جميع أنحاء العالم تهتف بحياة العاملين أو الشهيدين الأمريكيين . .

ويتقرر أن يكون أول مايو ، وهو اليوم الذى جلس فيه العاملان على الكرسى الكهربائى القاتل ، هو عيد العمال فى كل مكان . . عيد المنتجين الحقيقيين الكادحين من أجل دفع التطور والتقدم . . عيد الانتصار على قوى القهر والاستغلال وأعداء البشر والحياة . .

وهذه الجماهير المحتشدة الراقصة والصاخبة فى ذلك الموكب الشعبى الحافل والمزدهر بالحياة والأمل والموسيقا فى شارع برلين ، وقبارى عبدالله وهو يخرج من صفوف المنصة ويلتحم مع تيار الجماهير وسط الشارع يرقص ويغنى معهم ويحمل طفلاً ألمانيا على كتفه يراقصه ويداعبه . .

وأسراب من الحمام الأبيض والأسود تنطلق بين الحين والآخر تظلل الشارع بأجنحتها المنطلقة إلى أعلى رمزاً للسلام ، والورد والزهور وهى تنتشر فى كل مكان . .

وأهازيج الحب والدفء والسعادة والإحساس بقيمة الإنسان وهى تتبلور من نغمة جماهيرية يعزف عليها مئات الألوف من سكان برلين . .

وأعود بالذهن لأكثر من ٢٥ عاما للوراء ، حيث كانت تضمنا جامعة القاهرة فى سنى الدراسة بكلية الآداب وكنا مجموعة من الطلاب يحلمون بالغد ويعملون له ، تقرر الاحتفال بعيد أول مايو والذى كان محرماً الاحتفال به فى ذلك الوقت تحت دعوى أنه عيد شيوعى ، رغم أن العالم كله وعلى رأسه الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا كان يحتفل به . .

ويقرر الفتى الجامعى ومعه عدد من الطلاب أن يشاركوا الآخرين فى هذا الاحتفال العالمى ونرفع شعار «وردة فى الجاكتة» يوم أول مايو . . وتنجح الدعوة ، ويجىء أول مايو سنة ١٩٥٤ ويحضر مئات الطلاب إلى حرم الجامعة وقد ثبت كل منهم وردة حمراء أو بيضاء فى عروة الجاكت أو على القميص . . ثم نجتمع فى الحوش الواقع بين مبنى قسم اللغة الإنجليزية فى كلية الآداب ومبنى مكتبة الجامعة . . ويقوم بعضنا بشرح أسباب هذا العيد وظروفه التاريخية ومغزاه المعاصر ثم ننشد كلنا نشيد العاملين الكادحين . .

وينفض الاحتفال الصغير الذى أقمناه ونتفرق إلى الخارج ، ولكن البوليس السياسى كان يقف لنا بالمرصاد على أبواب الجامعة وتلتقطنا أياديهم الخشنة التى كانت تمتد أول ما تمتد إلى الوردة الحمراء تنتزعها وتلقيها على الأرض ثم تدهسها بكعوب أقدامهم الحديدية ، ثم يقذفون بنا فى البوكس لنقضى عدة ليال فى تخشيبة الأقسام بتهمة «الاحتفال بعيد أول مايو الشيوعى» أتذكر هذا كله وأنا أرىَ أمامى تلك الحياة المتدفقة والملونة التى تموج أمامى احتفالا بهذا العيد الذى أصبح أيضاً عيداً رسميا فى بلدى تشارك الدولة به وتتعطل فيه المدارس والمصانع . .

وبين أول مايو سنة ١٩٥٤ فى فناء كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، وأول مايو سنة ١٩٧٦ فى شوارع برلين الراقصة . .

بين المبيت ثلاث ليال فى تخشيبة قسم الدقى ، وبين المنصة التى أقف عليها فى ذلك الميدان الواسع للعاصِمة الألمانية . .

بين الصفعات والركلات التى تلقيتها من الأحذية الميرى فى القسم فى تلك الليالى من أعداء الحياة والإنسان ، والأغانى والتهانى وروح النشوة والسعادة التى تنطلق أمامى من فتيات كالزهور ومن رجال كالأحلام المشرقة ومثل قبارى عبدالله النموذج النقى للعامل والمثقف الوطنى . .

عشرون عاماً، كانت كلها بالنسبة لى على الأقل معارك متصلة متشابكة لم تهدأ حرارتها يوميا . . شهدتها وعشتها وشاركت فيها فى بلدى ليس كمراقب من بعيد، بل كمشارك يحاول أن يلعب دوراً فى دفع عجلة التقدم والازدهار . . أحياناً ينجح وأحياناً يفشل . . وهو الآن ولأول مرة فى حياته يعيش خارج بلده . .

ترى إلى أى مدى سيصل هذا النفى الاختيارى . .

وتدفقت بضع قطرات من الدموع الساكنة فى عينى . .

تختلط فيها الفرحة بتيار من الحزن العميق والخوف من المجهول الذى هو آت . .

[٣٥]

والآن يرقدان عاجزين فى حفرة زمن جبان لم
يبق سوى وضع أجوف فقد تحولا إلى أكذوبة
فيليب لاركن - شاعر إنجليزى معاصر

يوليو سنة ١٩٧٦

جوزيف بروز تيتو . . فى بدلة الجنرال البحرى التى يعشقها والمطرزة والموشاة بالذهب وعشرات الميداليات تغطى صدره يقف وسط القاعة متأبطاً عصا المارشالية زاهياً بنفسه وبشعره المصبوغ ووجهه اللامع المكتنز متجاهلا ومتحديا ٧٥عاما مؤكدا لكل من يقترب منه ودون أن يقول كلمة منطوقة . . إنه أنا ذلك الشاب الأسطورى الذى قاد المقاومة فى يوغوسلافيا ضد الاحتلال النازى الذى كان مسيطرا على أوروبا واستطاع أن يحرر بلده بنفسه دون مساندة من الجيش الأحمر .

ولذلك استطعت أن أواجه ستالين وأتحداه حتى مات هو وبقيت أنا . . ملكاً بين الزعماء الشيوعيين . .

وأرنستو برلنجوير بقامته الطويلة ووجهه المسحوب وعينيه اللامعتين بالثقة الحزينة وإبتسامته غير المكتملة يستمع إليك بجميع حواسه وكأنه قسيس على كرسى الاعتراف ، وحين يتكلم تنطلق مع لسانه حركات اليد والحواجب وكأنه ممثل فى المسرحيات الشعبية الإيطالية «كوميديا دى لاتى» لا يترك فرصة لأحد ليخطئ فى أنه هو الزعيم الوحيد بين كل الحاضرين الذى يرأس أكبر حزب شيوعى فى بلد رأسمالى ، منتشياً بالنصر الذى حققه منذ شهرين فقط حينما حصل حزبه فى الانتخابات الإيطالية على نسبة ٣٥ ٪من الأصوات وأصبح أكبر حزب فى إيطاليا بلا منازع . .

وجورج مارشيه سكرتير الحزب الشيوعى الفرنسى والذى يتحرك فى كل مكان ويتبادل الأنخاب مع الزعماء الآخرين ومع الصحفيين مؤكدا للجميع أن تعبير الشيوعية الأوروبية «يروكومونيزم» ليس فيه خروج على الماركسية . . يواصل تحركاته وتنقلاته بين معسكر المتشددين ، ومعسكر الليبراليين مؤكدا أنه متعاطف مع على كما أنه ليس ضد معاوية . .

وفيدل كاسترو وقد وقف وسط القاعةالمكتظة . . عملاقاً بارزاً بجسده الفارع وذقنه الكثيفة وخصلات الشعر الأبيض التى بدأت تجتاح شعره . . وكأنه روبين هود استقر بعد حياة طويلة من المعاناة يشارك بأقل القليل فى الكلام النظرى ، وتلمع عيناه ويرتفع حاجباه وترتسم موجات الانفعال على وجهه وهو يتكلم عن الأوضاع فى كوبا وأمريكا اللاتينية والأخ الأكبر الرابض فى الشمال ثم . . ليونيد برجينيف واقفاً أحياناً ، وجالساً فى أحيان كثيرة غارقا فى رداء تكسوه عشرات النياشين ، جامد الوجه تائه النظرات يقف قليلا لتبادل النخب مع برلنجوير ، ويجلس كثيرا إلى جوار تيتو وبين الحين والآخر يشعل له أحدهم سيحارة يدخنها فى شغف . . وقد تحك رأسك أحيانا وأنت تتأمله لتتساءل كيف أمكن لمثل هذا الرجل أن يصل إلى المكان الذى شغله يوما لينين وستالين وحتى خروشوف . . ! !

ثم إيريك هونيكر المضيف وصاحب البيت ، مرحاً منتشياً وهو يحيى ضيوفه وتجلجل ضحكاته بين الحين والأخر وفى أعماقه إحساس بالزهو وكأنه يقول للجميع . . أهلا بكم فى برلين الاشتراكية التى انتزعناها من أيدى الهتلرية وجعلنا منها عاصمة حلوة لأول بلد اشتراكى على الأراضى الألمانية ، وتحاول تحقيق محاولة لينين التى كتبها يوما . . اشتراكية + الشعب الألمانى= إنجازاً مثاليا . .

وعشرات الزعماء والقادة والأخرون الذين احتشدوا فى حفل الاستقبال الختامى والذى أقيم فى القاعة الكبرى للقصر الجمهورى الجديد بعد اختتام أول مؤتمر للأحزاب الشيوعية والعمالية يعقد بعد عشر سنوات . .

كان المؤتمر والذى استمر يومين أول وأكبر فرصة أتيحت لى أن أرى وأتأمل عن قرب هؤلاء الزعماء والقادة الذين توافدوا على برلين ، وخاصة وقد سمح للصحفيين المعتمدين متابعة أعمال المؤتمر من خلال دائرة تليفزيونية مغلقة ، كما دعينا لحضور الجلسة الافتتاحية وكذلك الحفل الختامى . .

وقد كان المؤتمر حدثاً جديداً فى تاريخ الحركة الشيوعة ومختلفاً عن المؤتمرات السابقة ولأول مرة يحضر مثل هذا المؤتمر شخصيات مثل تيتو الذى كان مبعداً ومبتعداً بعد أن طرده ستالين من الكومنفورم .

ولأول مرة تتعرض سياسة الاتحاد السوفيتى وبعض الدول الاشتراكية لهجوم شديد من جانب الأحزاب الشيوعية الأخرى، وخاصة أحزاب أوروبا الغربية فى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا الذين خرجوا فى تلك الأيام بنظرية «الشيوعية الأوروبية» وهى تؤكد على أهمية الديمقراطية والعمل الديمقراطى فى النظرية وفى التطبيق الاشتراكى . .

ولأول مرة تنشر هذه الخلافات على الملأ بعد أن كان هناك حرص شديد فى مثل هذه المؤتمرات أن تدور فى قاعات مغلقة ولا يخرج عنها سوى بيانات مقتضبة . .

وقد تأكدت بنفسى من أن صحيفة «نيوز دوتشلاند» وهى الناطقة باسم الحزب الاشتراكى الألمانى الموحد- وهو الحزب الحاكم فى ألمانيا الديمقراطية- كانت تنشر تباعاً النص الكامل للخطب التى ألقاها زعماء الأحزاب بلا استثناء . .

وسمعت برلنجوير وهو يقول فى خطابه فى المؤتمر إن بعض التطبيقات فى بعض الدول الاشتراكية قد تجمدت عند مفاهيم نظرية قديمة لم تعد تواكب التطور وإن هذه السلبيات وخاصة فيما يتعلق بالديموقراطية تعزل فئات واسعة ممن لها مصلحة أساسية فى الاشتراكية بل وقد تجعل منها رصيداً للقوى المعادية للاشتراكية . . ثم وهو يهاجم بعنف تدخل قوات حلف وارسو فى تشيكوسلوفاكيا فى صيف سنة ١٩٦٨ ويدافع عن تجربة دوبشيك الإصلاحية وربيع براغ الذى اغتالوه، وسمعت وقرأت خطاب سكرتيرالحزب الشيوعى الإسبانى وهو يشن حملة نقد عنيفة، اعتبرها البعض غير مسبوقة، على البيروقراطية فى الدول الاشتراكية وحول مخاوفه من أن تغرق المكاسب المادية للإنسان فى المجتمعات الاشتراكية مع اختفاء روح النقد وتأليه القيادات الحزبية الحاكمة والمساس ببعض حقوق الإنسان مثل حرية السفر والاختلاف . .

وكان جورج مارشيه يحاول أن يركب جوادين فى وقت واحد فيهاجم الجمود المذهبى والدوجما مرة ثم يهاجم ما أسماه بالانفلات النظرى مرة أخرى يشير إلى التطورات الجديدة فى العلاقات الدولية وفى العلاقات الطبقية دون أن يدخل تحديداً فى تفسير ما يعنى أو تطبيقه . . يتكلم عن الجديد الذى لابد من اكتشافه لمواجهة تحديات العصر ثم يعادل ذلك بضرورة التمسك بالنظرية الماركسية دون تحريف أو مراجعة . . وقد كان فيما يبدو معبراً عن الوسط فى الصراع الدائر داخل الحزب الفرنسى بين الأرثوذكس والبروتستانت أو بين الجروند واليعاقبة أو بين الجامدين والليبراليين، ذلك الصراع الذى ما زال دائراً حتى الآن وأدى إلى شبه الشلل فى

الحركة وتراجع فى مواقع الحزب فى السنوات الأخيرة . .

أما فيدل كاسترو وعدد من قادة الأحزاب الشيوعية فى دول أمريكا اللا تينية فقد كانوا مهمومين فى الأساس بالصراع الوطنى المحتدم الذى يخوضونه حيث الفناء الخلفى للولايات المتحدة القوة الكبرى التى تقبع فوق رءوسهم . . وتتردد فى بعض كلماتهم تعبيرات عن الحاجة إلى التجديد وعما أسموه بالترهل الثورى عند البعض دون تحديد لمن يقصدون ولمن يوجهون هذه الانتقادات . .

أما الأحزاب الشيوعية العربية فقد ألقت خطبا تقليدية تدور فى الأساس حول حركة التحرر العربى والدور الخيانى لقوى الرجعية والتحالف الصهيونى الإمبريالى، وعلى رأسه الإمبريالية الأمريكية من ناحية، والتحالف بين قوى التحرر والقوى الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى . . وكلمات ومجردات تأخذ شكل المقولات العامة دون تشريح حقيقى لطبيعة المرحلة التى تمر بها المنطقة العربية، دون اكتشاف معمق للعوامل الطارئة التى جدت على المنطقة العربية والتى اتضحت آثارها الخطيرة فى السنوات القليلة التى تبعت ذلك مثل تراكم أموال النفط وسيادة المفاهيم المرتبطة به دون حتى استشفاف لبروز العوامل الدينية على السطح وأسباب ذلك . . والمتغيرات التى طرأت على التركيبات الطبقية والاجتماعية فى الحقبة الأخيرة . .

ولم يحتو خطاب واحد منهم على نقد ذاتى أو نقد للآخرين، الأمر الذى يوحى بأن الأمور العملية والنظرية تمضى فى تمام التمام، حتى إن أحد الأصدقاء من الصحفيين المصريين وهو عبد الملك خليل مراسل الأهرام فى موسكو لكزنى ونحن نستمع إلى خطاب مطول لزعيم كبير لحزب شيوعى عربى قائلا

– هذا الكلام كان من الممكن أن يقال منذ خمسين عاما . . ولكزته بدورى هامسا :

– لا ليس صحيحا، فهذا الكلام ينطبق أكثر على الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية . . أى منذ ٣٠ عاما فقط . .

كان من الواضح أن المؤتمر الذى أرادوا له أن يكون تعبيرا عن وحدة الحركة الشوعية والاشتراكية بعد غياب طويل امتد لأكثر من عشرة أعوام، قد كشف عن إرهاصات قوية تموج تحت السطح، عن أفكار ومنطلقات جديدة لم تعد راضية عن حالة الجمود والسكون، بل والركود التى اجتاحت الجبهة النظرية والتى كان يسيطر عليها رجال مثل سوسلوف وبونوماريوفوف ودشنتها شخصية بريجنيف الذى كان واضحا أنه شخصية وعقلية ستاتيكية تعمل لأن تعيش وفى هدوء على أمجاد تحققت

دون أن ينتابها قلق أو شبق إلى المستقبل . . رجال جمدوا المفاهيم النظرية للاشتراكية العلمية فى إطار الواقع الذى كان سائدا من قبل دون محاولة جادة لفهم التطورات الكبيرة والخطيرة والجذرية فى بعض الأحيان التى كانت تجتاح عالم ما بعد الستنيات، مابعد انحسار أشكال الاستعمار التقليدية وحصول الغالبية العظمى لدول آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية على الاستقلال . . كما أن مشاكل أساسية للمرحلة الجديدة مثل مشاكل التنمية فى الدول النامية، بل وفى الدول الاشتراكية وتدور رحاها فى قوة، وفى قسوة فى دول العالم النامى لم تحظ بالقدر الكافى من التشريح والتحليل، لم تناقش مشاكل مثل الديون وأزمة الغذاء والشركات المتعددة الجنسيات، وبالتالى لم توضع خطط أو خطوط لمواجهتها . . تلك المشاكل التى اتضح بعد ذلك أنها أخطر الأشكال الإمبريالية فى استنزاف موارد العالم الثالث، كذلك مشاكل التطور الديموقراطى والثورة العلمية والتكنولوجية والإعلامية والتى كانت ثمارها ومشاكلها تطل بوضوح لم تجد من يعالجها ويشرحها ويقدم الخطط والمقترحات والمنطلقات النظرية والعلمية لمواجهتها سوى عدد قليل ومحدد من أحزاب أوروبا الغربية .

بل إن بعضها عولج فى إطار المؤامرات الإمبريالية والرجعية والدعاية المضادة التى تشنها أجهزة الإعلام الاستعمارية لتشويه منجزات المعسكر الاشتراكى وحركة التحرر العالمى وكفى الله المؤمنين شر القتال . . وعاشت الاشتراكية دائما منتصرة وتسقط الإمبريالية الجديدة والقديمة ما ظهر منها وما بطن . .

ومع ذلك فقد كانت الكلمات القليلة والصادقة التى أطلقها البعض فى هذا المؤتمر مثل أزمة الديموقراطية فى الدول الاشتراكية والدفاع عن تجربة دوبشيك المحدودة فى تشيكوسلوفاكيا أو ربيع براغ سنة ١٩٦٨ والتى انتهت بتدخل القوات السوفيتية وقوات حلف وارسو فى أغسطس من نفس العام، وكذلك الإشارة والتنبيه إلى الثورة التكنولوجية فى العلوم والإعلام وضرورة مواكبتها وملاحقتها وانعكاس ذلك على مفاهيم الصراع الطبقى، بل وتركيب ودور الطبقات نفسها . . كما كان هناك تأكيد غير عادى من بعض الأحزاب على استقلالية كل حزب فى اختيار سياسته وفقا لظروف وأوضاع المجتمع الذى يعيشه وبالمساواة المطلقة بين كل الأحزاب وعدم الاعتداد بنظرية المركز أو أى وضع خاص لأى حزب من الأحزاب .

كانت تلك الأفكار الجديدة والمحددة أشبه بدوامات محركة على سطح كان يبدو هادئا قانعا بما أنجز، وأثارت لونا من القلق الخصب الذى كان من الواضح أنه سيزداد ويتسع بعد ذلك . .

***

على أننى نسيت هذا كله، فى المساء وأنا أشاهد باليه جزيل للموسيقار تشايكوفسكى تقوم به فرقة «أوبرا الدولة» فى برلين وعلى مسرح القصر الجمهورى الجديد احتفالا بإنهاء المؤتمر . . ذلك المسرح الذى أقيم فى أكبر قاعة عرض شهدتها فى حياتى، تلك القاعة التى تتسع لأكثر من ١٣٠ ألف شخص، وصممت بشكل يمكن أن تتحول فيه من قاعة اجتماعات إلى صالة عرض فى لحظات . .

ولا أدرى لماذا حملنى الجو الأسطورى للباليه و الموسيقا النابضة والخالدة المصاحبة له وأنا أرى شبح جزيل تلك الفتاة التى ماتت فى ربيع العمر حزناً وأسى على حبيبها الذى هجرها، تعود لتنقذ ذلك الحبيب بعد أن استدرج لوادى الأشباح، إذ تقول الأسطورة إن الفتيات اللاتى يمتن عذارى، ينهضن من قبورهن فى ضوء القمر المكتمل ليرقصن على حافة الغابة ينتقمن لأنفسهن من أى شاب يقترب منهن، ويبتهل شبح الفتاة جزيل إلى زميلاتها العذارى بأن يتركن حبيبها بعد أن غفرت له، حتى ولو كان ذلك يعنى أن حبيبها سيكون بعيداً عنها . . استمرارا للحياة ودفاعا عنها . . هذا الحب والعشق الخالد المتجدد والنامى والمتطور هو ما نحتاج إليه حقا . . وبالذات هؤلاء الذين يزعمون أنهم يدافعون عن قيم الحياة الجميلة فى تحرير الإنسان من كل الموبقات التى تقلل من قدراته وطاقاته الإنسانية فى الإبداع والبناء . . بالتأكيد إن بعضهم يقيس ذلك وفقا لمصلحته الذاتية المحددة، وتنتهى عنده كل القيم والنظريات إذا أصبح فى وضع قادر على المنح والمنع على الأخذ والعطاء . .

وتمنيت أن يكون منظرو الاشتراكية- مثل شبح جزيل- قادرين على تفهم الظروف الجديدة والمتغيرة فيتركون الحياة تبدع وتتجدد وتتدفقْ ويواكبونها، فإذا عجزوا عن ذلك فلينسحبوا إلى قبورهم مثل عذارى جزيل لتبقى ذكراهم عطرة على الأقل وليتركوا الساحة للشباب القادر على تفهم مجرى النهر الجديد الذى يعبرونه . .

ولقد كان وما زال هذا ببساطة هو مفهومى للاشتراكية، بل إننى انجذبت إليها ومن البداية لإحساسى بأنها تعبر عن حب للحياة والإنسان فى بؤرتها، ودفاع عن إنسانية الإنسان وإطلاق طاقاته، وإمكاناته المبدعة الخلاقة دون حدود أو قيود . .

ولذلك فقد كنت فى نظر البعض من هؤلاء الذين فهموا الاشتراكية وطبقوها على

أنها كهنوت جديد توضع له المراسيم والتراتيل، وتتجمد فى معبد الكهنة والرهبان مجرد «ليبرالى» تقدمى فى أحسن الأحوال . .

وخرجت من المسرح مع عبد الملك خليل الذى كان قد جاء من موسكو حيث يعمل مراسلا للأهرام منذ أكثر من عشرة أعوام لحضور مؤتمر الأحزاب الشيوعية وقطع أكثر من ١٥٠٠ كيلو متر من موسكو إلى برلين بسيارته اللادا فى ثلاث ليال، قضى ليلة منها فى وارسو، ولقد عرفت عبد الملك عندما كنا طلبة فى الجامعة، وتوطدت علاقتنا بعد العمل فى جريدة المساء فى أواخر الخمسينيات، وكان يستوقفنى أحيانا فى الطريق أوينزل بى من أتوبيس إذا التقينا صدفة ليلقى علىّ قصيدة شعر جديدة سمعها أو دبجها وأحيانا ما كان يجمع بين التأليف والاقتباس، ثم جمعنا بعد ذلك عنبر واحد ولمدة خمس سنوات فى معتقل المحاريق فى الواحات وكانت فرصة طيبة له انتهزها بالكامل ليسمعنى ويسمع غيرى كل ما حفظه أو كتبه من الشعر، وقد كان- والحق يقال- حافظاً لكثير من عيون الأدبين العربى والعالمى، فهو يتلو لك قصيدة «من أب مصرى للرئيس ترومان» للشرقاوى مثلما يردد أشعار بابلو نيرودا أو ناظم حكمت ولوركا ومقطوعات من مسرحيات بريخت أو بيتر فايس وفصولا كاملة من روايات كازانتزاكس وجوته وجوركى وشتاينبك. . ولم تكن هناك فرصة بالطبع فى المعتقل للتحقق من أن ما يقوله من شعر ونثر هو حقا من تأليف هؤلاء، وإن كان اعتقادى أنه كان يبلور أو يطور أحياناً وعلى طريقته الخاصةا لأعمال التى يرددها . .

ولكن خفة دمه ونهمه الشديد للقراءة والحفظ لا يتركان لك أية فرصة لمراجعته فى نص يتلوه . . وتجولت مع عبد الملك فى القصر الجمهورى الجديد الذى استمر بناؤه أكثر من أربع سنوات، وكان افتتاحه بمناسبة المؤتمر الثامن للحزب الاشتراكى الألمانى الموحد، ثم كان مؤتمر الأحزاب الشيوعية بعد ذلك بشهرين هو أول مؤتمر دولى يعقد فيه . .

ولقد بنى القصر الجمهورى على أسس جديدة تماما سواء فى فن المعمار أو فى مضمون المبنى نفسه، فلقد أقيم فى مواجهة جزيرة المتاحف التاريخية فى وسط المدينة بمبانيها القديمة والتى حرص الألمان على إعادة ترميمها وبنائها بعد الدمار الذى لحق بها فى الحرب العالمية الثانية، وعلى نفس النمط المعمارى القديم الذى اشتهر به وسط أوروبا، وهو خليط من الفنين القوطى والرومانى، المدرج الواسع الفسيح ثم الأعمدة الرومانية وفى الداخل الممرات القوطية بسقفها المخروطى . .

كما أقيم أيضا فى مواجهة واحدة من أكبر وأقدم الكنائس التى عرفتها برلين فى القرون الوسطى «الكاتدرائية» وهى التى تقارن دائماً بكنيسة نوتردام دى بارى . فى باريس . .

وجاء القصر الجمهورى على أسس معمارية حديثة تماما فهو مغلف من جميع الجهات بالزجاج النحاسى العاكس ، أى أنك من الخارج لا ترى شيئاً ومن الداخل ترى كل شىء ، ويمتد فى مستطيل بمحاذاة نهر شيراى لمسافة ٣٠٠ متر ويرتفع إلى خمسة طوابق تنتهى بسقف مسطح وينقسم إلى ثلاثة أجنحة فى منتصفها قاعة فسيحة لا يحدها إلا السقف .

ويربط بين أدواره المفتوحة سلالم كهربائية عديدة للنزول وللصعود وحالما تدخل من الأبواب الرئيسة تأخذك الفخامة والأبهة العصرية البادية فى كل شىء ، فالأرض مفروشة كلها وفى جميع الطوابق بالموكيت والسجاد الفاخر ولكل طابق لون ، والنجف الضخم العملاق والحديث أيضاً الذى يتدلى من أعلى السقف ووردة زجاجية ملونة وعملاقة وسط القاعة وعلى الجدران لوحات فنية ضخمة لفنانين معاصرين يغلب عليها الطابع التجريدى ، وربما كانت هى الشىء الوحيد الذى لم يعجبنى تماماً ثم شاشات الكمبيوتر فى كل مكان لترشدك إلى أين تمضى مع موسيقا خفيفة خافتة ، تشيع نغمة من البهجة والانبهار ، وفى كل طابق تصعد إليه تكتشف قاعات وممرات جديدة ، بعضها دائرى وبعضها مستطيل والبعض الآخر نصف دائرى ويملؤك الإحساس بأنك داخل مبنى عظيم فخم بديع جديد تماما فى طرازه المعمارى ومحتواه الحضارى لا يمكن مقارنته بالقصور التاريخية المعروفة مثل الفرساى فى فرنسا أو سان سوسى فى ألمانيا أو برمنجهام فى إنجلترا أو قصر الشتاء فى روسيا . . إنه يختلف عن كل ذلك تماما . .

أما مضمون القصر نفسه فهو أكثر إثارة ، فالجناح الغربى منه قصر البرلمان أو مجلس الشعب كما يسمى ، والجناح الشرقى يحوى القاعة الرئيسة التى ينعقد فيها مؤتمر الحزب الحاكم ، ويحتوى القصر على أكبر قاعة للاجتماعات يمكن أن تضم حوالى ٥٠ ألف شخص ، كما يحتوى على عدد كبير من القاعات ، وهناك مسرح كبير وآخر متوسط وثالث تجريبى ، وأكثر من خمسة مطاعم ، و٦ كافتيريات ومقهى ، وخمسة مراقص وجناح كامل للشباب يضم مرقصين للديسكو ، وأربع مكتبات وحديقة سطح . . وكلها مفتوحة للجمهور من الصباح حتى منتصف الليل .

وباختصار إنه قصر الشعب والحكام ، فى بعض قاعاته يجتمع أعضاء البرلمان

لمناقشة سياسة الدولة وفى بعض قاعاته يجتمع الشباب ليرقص على أحدث أنغام الجاز والديسكو، وعلى مسارحه تجرى العروض المسرحية المختلفة من باليه وأوبرا وأوبريت أو أعمال مسرحية لبريخت وشكسبير وجوتة، بينما يكون جزء منه، وفى نفس الوقت مغلقا على اجتماع حزبى على مستوى عال.

ولقد سألت المهندس الذى أشرف على تصميمه يوم الافتتاح عن الفكرة الأساسية التى حكمت تصميماته لهذا القصر فقال..

أردت له أن يكون نموذجا لقصر الشعب فى القرن الحادى والعشرين بعد أن كانت كلمة قصر ترتبط فى ذهننا دائما بالملوك والأباطرة والحكام...

وبعد جولة امتدت ساعة فى القصر الجمهورى أو قصر الشعب كان فيها عبد الملك مأخوذا ومبهورا، جلسنا فى إحدى الكافتيريات المطلة على نهر شيراى وقال عبد الملك.

- اسمع هذا مجتمع ديناميكى حقا، لقد اقتنعت الآن بما قاله هونيكر إنهم يبنون الاشتراكية المتقدمة.

وقد كان تعبير الاشتراكية المتقدمة قد استخدم لأول مرة منذ شهر أثناء انعقاد المؤتمر التاسع للحزب الاشتراكى الألمانى الموحد، وكان يعنى مثلما جاء فى تقرير السكرتير العام للحزب الانتقال من مرحلة وضع أسس البناء الاشتراكى مثل استكمال البنية الأساسية ووضع وتأصيل القاعدة المادية للإنتاج فى الزراعة والصناعة والانتهاء من توفير الخدمات الرئيسية فى الإسكان والتعليم والعلاج إلى مرحلة جديدة تقوم على أساسين، تكثيف نوعية الإنتاج بما يعنى ليس فقط الكم بل والكيف بما فى ذلك استخدام أحدث الوسائل العلمية المتطورة وتجديد التكنولوجيا، وتحسين نوع الخدمات المقدمة للمواطنين بما فى ذلك إشباع الطموحات الاستهلاكية والخدمات الثقافية والمعيشية..

وقد انعكس ذلك بوضوح خلال تلك السنوات الأخيرة فى الطفرة الواضحة فى المبانى والمنشآت الفخمة التى بدأت تجتاح ألمانيا الديمقراطية منذ منتصف السبعينيات والانعكاس الذى لا تخطئه عين مراقب فى ارتفاع مستوى المعيشة الواضح فى شكل ومظهر المواطنين وفى كم العربات التى تجرى ونوعيتها..

ولقد كانت لى تجربة خاصة فى هذا المجال تجعلنى مؤهلا لأن أرى بعينى وأحكم على هذا التطور..

فمنذ أكثر من عشر سنوات قمت بزيارة لبرلين عاصمة ألمانيا وقد كان ذلك فى الحقيقة أول زيارة لى لعاصمة اشتراكية بعد أن كنت قد زرت بعض العواصم الأوروبية فى الغرب مثل روما وباريس ولندن . .

ولن أنسى أننى ظللت فى الأيام الأولى للزيارة مصدوماً فى الأعماق . .

قد كان الفارق فى التطور شديداً وحادا بين عواصم الغرب التى زرتها وبين برلين فى ذلك الوقت ، تلك المدينة التى كانت مازال هناك أجزاء كبيرة منها ، وخاصة وسط المدينة فى حالة خراب ، وخاصة ذلك الحى المجاور لسور برلين العتيق ، ونزلت فى تلك الفترة فى فندق جديد كان يعتبر فى ذلك الوقت أفخم فندق فى المدينة وكان لا يقارن بأى فندق من الدرجة الثالثة فى العواصم الغربية . . وقد كان من السهل أن يعد الإنسان عدد العربات التى تمر فى اليوم كله ، كذلك كانت المحلات العامة تكاد تخلو إلا من بعض السلع الضرورية ، الإنسان الذى تراه فى المترو أو فى الشارع يمضى فى ملابس متواضعة مهموماً متعباً والشوارع الواسعة الجديدة خالية من الناس وأحيانا من البيوت وبعض العمارات الجديدة قد أقيمت هنا وهناك فى شكل معمارى بدائى .

وقد تعمق لدى هذا الإحساس بالصدمة حين قمت فى الأيام التالية بزيارة برلين الغربية على الطرف الآخر من السور حيث مظاهر الثراء فى المجتمع الاستهلاكى العصرى تبدو فى كل شىء فى المبانى والأبراج الجديدة العملاقة وفى الأضواء التى تبهرك والمحلات العامرة بكل السلع والعربات الفخمة التى تمر فى الشوارع والمظهر العالى الذى يبدو فيه الناس فى ملابسهم وفى شققهم الخاصة حيث تتوفر كل الأدوات الكهربائية الحديثة .

ويومها طرحت هواجسى بما فى ذلك أحاسيس الصدمة لأحد الأصدقاء الألمان والذى كان يتولى منصبا مسئولا فى اللجنة المركزية للحزب الحاكم فى ألمانيا الشرقية ، وقد كان تفسيره أنهم فى الغرب وجدوا من يساعدهم بعد انتهاء الحرب كما أن الولايات المتحدة كانت حريصة على أن تعيد بناء برلين الغربية وبسرعة بل وتقديمها كنموذج مبهر باعتبارها تقع وسط أراضى ألمانيا الديموقراطية . .

أما فى الشرق فقد كان علينا أن نبدأ من الصفر ، أو حتى بما هو دون الصفر ، والكلمات للمسئول الألمانى ، كان علينا أن نربط الأحزمة وبعنف ونشقى ونعمل كثيرا من أجل وضع الأساس المادى من جديد للبناء والتطور . . وأستطيع أن أؤكد لك أننا نجحنا بعد عشرين عاما من بناء قاعدتى الصناعات الثقيلة والخفيفة ومن إعادة تنظيم الإنتاج الزراعى بعد جهود وتضحيات واسعة . .

أما استكمال الخدمات وإشباع الاحتياجات الاستهلاكية عند الجماهير فسيتم ذلك فى مرحلة قادمة وقريبة . .

كان ذلك منذ أكثر من عشرة أعوام .

وأشهد أن كلمات ذلك المسئول قد بدأت تتحقق وبشكل مذهل وكأنها نبوءة عراف كان على يقين مما يقول . .

ولم يكن القصر الجمهورى الجديد وحده هو شاهد تلك المرحلة ، بل عشرات من المبانى والمنشآت التى بدأت تتكامل بما فى ذلك الحى الذى كان شبه مهجور ومخرب حول السور ، فلقد أعيد بناء شوارع كاملة منها شارع ليبزجر الذى ارتفعت فيه العمارات والأبراج لتفوق مثيلتها فى الغرب ، كما أقيمت عشرات الفنادق الجديدة والفاخرة ، ومئات المخازن ومحلات البيع والشراءالعامرة بكل شىء . .

وبان ذلك بوضوح فى مظهر المواطنين فى ملبسهم وفى عرباتهم وفى شققهم الجديدة ، بل وفى المساكن الصيفية الخاصة التى انتشرت حول البحيرات والغابات والتى يطلقون عليها القطعة الخضراء . .

باختصار لقد أصبحت برلين التى أعيشها وأراها فى منتصف السبعينيات تختلف اختلافا يكاد يكون جذريا عن برلين التى زرتها فى منتصف الستينيات . .

قال عبد الملك وقد استمع إلى حكايتى مع برلين .

- الألمان . . علينا أن نعترف بأنهم شعب له طبيعة وقدرات خاصة . . قلت ضاحكا :

- إياك أن تقع فى مطب الفكرة النازية عن الشعب المتميز .

- هر فتاح . . هر فتاح . .

والتفت لأجد بربارا وابنتها . .

وقد سعدت حقا لألتقى مرة أخرى مع مرافقتى فى الرحلة الأولى التى لم تكتمل ، ووجدت نفسى أعانقها فى شوق وسعادة من عثر على حلم ومضى واختفى بسرعة ، وخاصة قد تاهت منى تماما بعد عودتنا إلى برلين منذ شهور . . وقدمتها لعبد الملك الذى وقف يتأملها بعين ناقد متفحص معجب بالعمل الذى يراه ثم أخذ يداعب ابنتها الصغيرة . .

وحكت بربارا عن تركها عملها القديم فى مكتب الرحلات وأنها الآن تعمل فى مؤسسة صحفية كبرى ، ولقد حاولت مرارا أن تعثر علىّ وذهبت مرتين إلى مركز الصحفيين الأجانب ولكننى لم أكن هناك . .

- إذن فهذه هى ابنتك . .

كانت بربارا قد حدثتنى عن ابنتها التى تبلغ السابعة ولكن الذى لم تحدثنى عنه أن البنت سمراء بعينين سوداوين لامعتين وشعر أسود فاحم . . قالت بربارا وهى تعبث بشعر ابنتها وقد عادت سحابة حزن عابرة تظلل وجهها الضاحك . .

- نعم . . نعم ، إن أباها كان أحد الثوريين من شيلى ، كان يدرس فى برلين ، ثم ذهب إلى شيلى أيام سلفادور الليندى ولم يعد ، قتله الفاشست هناك . .

وحملت الطفلة وضممتها إلى صدرى بإحساس من الحنان المتدفق ربما لمأساة والدها الذى لم تره ، وربما إشفاقا منى على نفسى وعلى ولدىَّ من مصيركل من يجرؤ على الحلم النبيل فى عالمنا الثالث الحزين ، وربما لاكتشاف هذا الاعتزاز الحلو الذى ينعكس على وجهها الأسمر والذى ورثته بالتأكيد عن أمها . .

وعادت الضحكة إلى وجه بربارا :

- قل لى . . هل تعلمت الألمانية فى تلك الشهور .

- أحاول . . ولكن لغتكم صعبة . . لغةالآخ والإيش والآن . .

وصاح عبد الملك فى تلقائية :

- آختونج . .

وضحكنا ، بما فى ذلك لينا الفتاة الصغيرة ، فكلمة آختونج بالألمانية وتعنى «تحذيراً أو تنبيهاً» أصبحت من الكلمات التى دخلت التاريخ ، وخاصة وأن قوات الاحتلال الألمانية كانت تكثر استخدامها فأصبحت رمزا للعسكرية والسيطرة الألمانية . .

وعادت بربارا لتقول :

- ولكن لغتكم أيضا صعبة . . لغة الضاد والقاف إن هناك حروفا فى العربية لا أستطيع نطقها . .

- وكيف عرفت ذلك . .

قالت فى ابتسامة حلوة وممدودة :

- لأننى أدرس العربية الآن فى كورس خاص فى الجامعة

- حقيقى

- طبعاً . . وأستطيع الآن أن أقرأ وأكتب بالعربية هل تعرف أول جملة مفيدة نطقتها في الدرس . .

أنا أهب فتاح المسرى

نطقتها في لغة عربية مسلوقة

وأهب تعنى أحب

و المسرى تعنى المصرى

صاح عبد الملك :

- يحيا شعبنا العربى فى ألمانيا .

[٣٦]

مهما يكن فستدفع الزفرات أشرعة التقدم مهما
تكن سحب الشقاء كثيفة فأنا أرى الزمن السعيد
وراء كثبان الشفق

عبد الرحمن الشرقاوى

من أب مصرى للرئيس ترومان

سبتمبر سنة ١٩٧٦

غريب أمر هذه القاهرة . . التى أعشقها . . الجو الملبد بالأتربة وحوائط الأسمنت المسلح المتلاصقة والتى تبدو من الطائرة كأنها شواهد قبور ضائعة فى الصحراء، وفوضى المرور التى تجاوز أحيانا أية قدرة على التصور، والضجة الهائلة المختلطة التى تكاد فى بعض الأحيان أن تغطى أذنيك بطبقة من الشمع غير المرئى، والفهلوة التى استبدلها واستخدمها البعض بديلا للذكاء والتى تلمسها من بعض كشافى الجمرك فى المطار حتى سائق التاكسى وبواب العمارة . .

ومع ذلك ، ومع ما هو أكثر من ذلك والذى يدفعك أحيانا لأن تصرخ وتلعن بل وتلقى عليها، يمين الطلاق.

إلا أنه بعد أسبوع أو أسبوعين، وبحد أقصى شهر يتبدد كل ذلك وتحس بحنين جارف ومستبد لتلك القاهرة الغانية اللعوب ذات الألف جسد . . لياليها السهرانة الغنية فى الحسين والسيدة والمقاهى، وبحرها أو نيلها الفريد الذى تتضاءل إلى جانبه كل الأنهار والذى يحيطها ويلف حولها فى شوق وحب وبنيت على شاطئيه أحاسيس الدفء والارتياح التى لا يمكن أن تشمها إلا على شاطئه، أو لم يكن يسميه أجدادنا النهر الإله، ونهر السماء الأبدية . . الغورية وجاردن سيتى بولاق والزمالك والمعادى ومصر القديمة الحسين والأزهر والعجوزة، شبرا، الهرم، القلعة، أشياء تتناقض وتتصارع وتتكامل، عبق التاريخ وإرهاصات المستقبل، السحر والغموض والعلمانية

والدروشة تجتمع كلها فى مدينة لا تقارن، المدينة الوحيدة فى جميع أنحاء العالم التى تتجول فيها يوما فتعبر فى ذلك اليوم أكثر من ٦ آلاف عام. . هكذا وصفها المستشرقون الألمان. .

قاهرة الكذاب، وليست قاهرة الكذاب، كلمات قالها شاعر عربى، أعتقد أنه معين بسيسو شاعر الثورة الفلسطينية وهو يتغنى بالقاهرة أثناء اعتقاله فى أحد سجونها. . الحوارى الضيقة الرطبة، والشوارع الفسيحة الممتدة، البيوت أو الأكواخ الصغيرة المتلاصقة والأبراج والعمارات الشاهقة، الفيلا والكوخ، القصور ومدينة الموتى، الأزهر وكنيسة مارى جرجس وكنيسة العذراء، الأهرام والقلعة الصحراء والجبل والخضرة والنيل. . أحيانا أتصور أنى أكبر عاشق لهذه الغانية الطروب الأسطورية والتى لها ألف ذراع وألف وجه، وألف جسد، ملايين العشاق الذين يخادعونها كل يوم ومع ذلك يتصور كل منهم أنه الحبيب الوحيد. .

لقد نغنى جيمس جويس بمدينة دبلن الآيرلندية وجعل من المدينة الشخصية الرئيسة فى رواياته «صورة فنان وهو شاب» و«أوليس» وهام بوشكين بحب سان بطرسبرج وبعده ديستوفسكى- لينجراد حاليا- وتغنى بشتائها الثلجى بقنواتها وقصورها وبيوتها وشوارعها.

وارتبط جوته الألمانى بمدينة ليبزج التى أسماها باريس الصغيرة، بحاناتها وأقبيتها ولمحة الثقافة الحزينة على وجهها.

وكان ستاندال وإميل زولا وبلزاك لا يتصورون أنه يمكن أن تكون هناك ثقافة وصراع وحياة وثورة إلا فى باريس المعشوقة، بمقاهيها العامرة بالمناقشات الصاخبة وضفاف السين ومونمارتر وسان ميشيل .

وأشاد ألبرتومورافيا بروما ولعنها وقدسها وامتهنها وقدمها فى رواياته، بل ومسرحياته كشخصية مستقلة تفوق كل شخصياته النسائية الشهيرة. .

وربط نجيب محفوظ تاريخ مصر كله بحى واحد فى القاهرة فى السكرية وقصر الشوق وبين القصرين ولكننى، ولسبب لا يخلو من بعض التعصب وقليل من الشوفينية أحسب أن كل هؤلاء الكتاب الذين تغنوا بمدنهم فى إبداعاتهم الروائية والشعرية لو عاشوا فى القاهرة لوقعوا فريسة ذلك الحب غير العذرى معها أو هكذا خيل لى على الأقل هذه المرة، وأنا أعود إليها زائرا. . وبعد غياب متصل ولأول مرة لمدة ستة شهور كاملة، طبعا إذا تجاوزنا مدة الاعتقال الطويلةالتى امتدت لأكثر من خمس سنوات فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. .

قال عبد الرحمن الشرقاوى صديق العقل والقلب وهو يستقبلنى فى مكتبه فى روزاليوسف والذى كان يعمل رئيسا لتحريرها فى ذلك الوقت . .

- أهلا بك فى القاهرة . . وحشتنا يا رجل . . حدثنا عن ألمانيا والألمانيات . .

قلت فى اندفاع طفولى . .

- بل أنا المشوق لأن تحدثنى عن القاهرة وما يجرى فيها . .

إن ستة شهور من الغربة وكأنها ألف سنة مما يعدون . .

إزيك ، وازى الناس والأصدقاء . . وإلى أين تمضى الأمور الخاصة والعامة .

وغرق الشرقاوى فى ضحكته القلبية العميقة المعروفة عنه :

- عينى عليك ، وكأنك قادم من صحراء الواحات وليس من عند أهل الشمال حيث أبدع الله الطبيعة والخلق . .

كان من الطبيعى أن تكون أول زيارة لى فى القاهرة هذه المرة لعبد الرحمن الشرقاوى لأسباب خاصة وعامة . .

فقد جمعتنى وإياه علاقة خاصة وفريدة ، عرفته منذ أن كنت طالبا فى السنة الأولى فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية ، قادما من أعماق الريف ، أخطو بحذر وشوق وانبهار فى مدينة الألف عام وأدرس الحضارة والآداب والفلسفة الأوروبية ، وأعانى واجتر صدمات حضارية منعشة ومقلقة فى نفس الوقت وتتفتح أمامى طرق ومغارات وآفاق جديدة غريبة أخافها وأحبها ، أشتهى الانطلاق إليها وأخشى أسرارها وطلاسمها الغريبة ، وأقف على الحد الفاصل بين ما كان وبين ما سيكون بين واقع محدد عشته فى قرية أو مدينة صغيرة وبين حلم نبيل جديد يتجسد فيما أدرسه فى الجامعة وفيما أعيشه فى القاهرة . .

وأيامها بدأت جريدة المصرى تنشر رواية جديدة اسمها «الأرض» للأديب الشاب عبد الرحمن الشرقاوى . .

وتابعت الحلقات فى شغف وتجسد لـ «محمد أبوسويلم وعبد الهادى ووصيفة» فى نماذج رأيتها وعايشتها وأحسست بكلمات حلوة صادقة تعبر عن واقع قريتى ثم تحاول أن تتجاوزه بتعميق مفاهيم جديدة فى النضال والبحث عن العدالة ورسم ابتسامة حقيقية على وجه المجهدين والمتعبين والحالمين بمستقبل أفضل . .

وأحسست وكأن الشرقاوى هذا الكاتب الشاب قد كتب هذه الرواية خصيصا لى ، وكأنه يمد إلى طالب تائه حائر حبل النجاة والأمل ويرسم له الطريق . .

وقررت أن التقى به وأن أراه وذهبت صباح أحد الأيام إلى مبنى جريدة المصرى فى شارع قصر العينى وطلبت من العجوز الواقف على باب الجريدة بأن يعرفنى بالشرقاوى وأعطيته قطعة فضية، عشرة صاغ كانت تمثل مصروفى اليومى . .

وظللت يومها حتى الساعه الثانية بعد الظهر أراقب الوافدين على الدار من كتّاب ومحررين أعرف بعضهم من الصور وبعضهم يخبرنى بهم الحارث العجوز . . أحمد أبو الفتح، عبد المنعم مراد، عبدالرحمن الخميسى، خالد محمد خالد، الشيخ سعاد جلال . .

وأخيراً وبعد أن كدت أيأس من وصوله أشار الحارس العجوز إلى شاب نحيل يمشى خجلا ويركز نظارته بين الحين والآخر وهو يهم بدخول المبنى وأقبلت عليه أقدم نفسى وأبدى إعجابى بروايته ورغبتى فى رؤياه . .

وتأملنى الشرقاوى فى لحظة ثم وضع يده على كتفى وشدنى معه داخل المبنى وهو يقول فى بساطة وتلقائية

– يا خبر . أربع ساعات واقف علشان تشوفنى قد كده أعجبتك الرواية . . أنت أذهلتنى وأسعدتنى . . لازم تشرب قهوة معايا . .

ومنذ ذلك اليوم تطورت علاقة التلميذ والأستاذ إلى صداقة عمر ممتدة اختلفنا فيها واتفقنا يقرئنى كل مخطوطاته قبل أن يدفع بها إلى المطبعة ويأخذ ببعض ما أبديه من ملاحظات وأطلعه على كل مشروعاتى و أفكارى بل وخواطرى . . وأحسست طوال رحلتى معه أننى كسبت صديقا غاليا وأخا أكبر وفوق كل ذلك أستاذا وفنانا وإنسانا . .

كان الشرقاوى فى ذلك اليوم يعقد اجتماعا لتلك المجموعة الأسطورية فى رزواليوسف وصباح الخير التى استطاعت وفى فترة وجيزة أن تحقق إنجازاً صحفيا يعتبر مثالياً وبكل المعايير حين قفزت بتوزيع المجلتين إلى آفاق لم تصلها من قبل أية مجلة مصرية إذ بلغ توزيع روزاليوسف أكثر من ١٧٠ ألفا بعد أن كانت لا تتجاوز الثمانية آلاف كما أن صباح الخير تجاوزت المائة ألف .

صلاح حافظ وحسن فؤاد وفتحى غانم ولويس جريس . . كل واحد منهم فى حد ذاته يعتبر مدرسة ومؤسسة استطاع الشرقاوى بقدراته التجميعية الهائلة المعروفة عنه أن يؤلف منهم أنجح مجموعة ذهبية فى الصحافة المصرية، وقد ساعد فى ذلك أيضا الانفتاح الليبرالى النسبى الذى حدث فى أعقاب حرب أكتوبر والذى أدى إلى إعلان المنابر السياسية كمقدمة لإعلان النظام الحزبى، والثقة الكبيرة فى النفس التى قاد بها

الشرقاوى المجلة بتوجيهات سياسية محددة فى الدفاع عن التقدم والديمقراطية ومصالح الغالبية العظمى من الجماهير الكادحة والتى كانت تعانى من وطأة الغلاء والأزمة الاقتصادية والبدايات الأولى للانقلاب الانفتاحى فى الاقتصاد المصرى التى اختطها نظام الرئيس السادات . .

وفى مرحلة كان هيكل قد ترك الأهرام وسيطرت على الصحف والمجلات عناصر تقليدية برزت روزاليوسف وتأكد دورها فى كثير من المواقف باعتبارها أجرأ مجلة تصدر وأكثر الصحف التصاقاً بهموم الجماهير وطموحاتها . .

حاولت أن أعتذر على أن نلتقى بعد الانتهاء من الاجتماع ، ولكنهم أصروا على أن أشاركهم هذا الاجتماع باعتبارى «خبيراً أجنبياً» على حد قول صلاح حافظ . .

ولقد وضعنى هذا الاجتماع والذى استمر أكثر من ساعتين فى الصورة تماماً وزودنى بكثير من المعلومات عن الظروف التى تعيش فيها البلاد والتى واصلت ما كان قد انقطع لدىّ بعد غياب تلك الأشهر الستة . .

ناقش الاجتماع دور المجلة فى المعركة الانتخابية التى كانت على الأبواب والتى تجرى ولأول مرة فى ظل وجود ثلاثة منابر لليسار واليمين والوسط داخل الاتحاد الاشتراكى وتكلم صلاح حافظ عن ضرورة تبنى مشاكل الجماهير ، وخاصة بعد موجة الغلاء الطاحن وظهور عناصر الانفتاح الطفيلية والدفاع عن المرشحين الذين يتبنون برامج وطنية ديموقراطية دفاعاً عن القطاع العام والإصلاح الزراعى ومكتسبات ثورة يوليو التى كان الهجوم ضارياً عليها فى تلك المرحلة .

وأشار حسن فؤاد إلى ضرورة الاهتمام بالتطوير الفنى وبالكاريكاتير بشكل خاص كسلاح تميزت به المؤسسة وتوجهه ضد مظاهر البذخ السفيه والفساد الذى بدأت رائحته تزكم الأنوف . . وتساءل فتحى غانم عن المدى الذى يمكن للمجلة أن تذهب إليه ، وخاصة أن هناك رؤوساً كبيرة تلعب دوراً واضحاً فى الفساد .

وقال لويس جريس : إن التوزيع فى تزايد مستمر وإنه يجب التوقف عن زيادة التوزيع نتيجة لأزمة الورق وللخسارة الحقيقية مع زيادة التوزيع إلا إذا تم التوسع فى صفحات الإعلانات على حساب التحرير . .

وتكلم الشرقاوى . . وقال إنه كان فى لقاء مطول مع الرئيس السادات أمس فى استراحته فى القناطر . وكشف الشرقاوى الخطوط العريضة للمناقشة بينه وبين السادات مما أوضح كثيرا من الصورة وخاصة بالنسبة إليّ .

وكان الموضوع الأول شكوى السادات من أن كثيراً من المسؤلين شكوا إليه بأن روزاليوسف قد أصبحت وكراً للشيوعيين وأنها تشكك فى سياسة الانفتاح التى تتبناها الدولة، كما أنها تهاجم الولايات المتحدة بعنف برغم أواصر الصداقة التى بدأت تتوثق بين النظام والسياسة الأمريكية . .

وإنه- أى السادات- طلب من وزير الإعلام أن يحقق فى أخطاء منسوبة إلى أحد المحررين، وطلب السادات تخفيف "اللون الأحمر" فى المجلة . . رفض الشرقاوى ذلك وقال إنه المسئول عن كل كلمة تكتب وإنه إذا كان هناك خطأ من أى محرر فالمؤسسة هى التى تحاسبه وليس وزير الإعلام . .

وقال الشرقاوى للسادات: إن هؤلاء المسئولين يثيرون هذه الاتهامات لكى يستروا عوراتهم وأخطاءهم التى تكشفها روزاليوسف . .

وكان الموضوع الثانى الذى أثاره السادات هو منبر اليسار الذى كان قد أعلن رسميا ضمن المنابر الثلاثة وأعرب السادات أنه كان يفضل الشرقاوى على رأس هذا المنبر . . مشيراً بذلك إلى الخلاف الذى كان قد نشب بالفعل بين المجموعة المؤسسة لمنبر اليسار ومجموعة روزاليوسف التى كانت ترى أن المنبر لابد وأن يتكون فى البداية على الأقل من منظمات اعتبارية . باعتبار أنه يضم اتجاهات فكرية مختلفة يجمعها برنامج سياسى مرحلى وهم الناصريون والماركسيون والاتجاهات الليبرالية والدينية المتحررة .

ودافع الشرقاوى عن اختيار خالد محيى الدين أميناً للمنبر وأكد أن روزاليوسف ستدافع عن مرشحى اليسار نظرا لأن بقية الصحف تتجه وبوضوح نحو اليمين والوسط .

وكشف السادات فى هذا اللقاء للشرقاوى عن نياته فى أن تتحول المنابر إلى أحزاب بعد الانتخابات ورحب الشرقاوى بالفكرة . .

وطالب الشرقاوى فى ختام ملاحظاته الأربعة الكبار فى المؤسسة بالانطلاق بلا حدود أثناء المعركة الانتخابية فى الدفاع عن مبادئ ثورة يوليو وكشف الفساد والمفسدين، وخاصة الفئات الانفتاحية الجديدة وتبنى المشاكل الحقيقية للجماهير وقال ضاحكا .

- ابعدوا عن شخص الرئيس ثم هاجموا من شئتم بعد ذلك . .

وضحك الجميع وفهموا ما ألمح إليه الشرقاوى فكلهم يعرفون القصة الحقيقية

لبداية العلاقة بين أنور السادات وعبد الرحمن الشرقاوى كان ذلك فى عام ١٩٥٥ . . وكان الشرقاوى قد انتقل للعمل كاتباً فى جريدة الجمهورية التى كان يرأس إدارتها البكباشى أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة . .

وقد كان السادات يذهب كل ليلة إلى الجريدة ببدلته العسكرية ويحرص على كتابة مقال يومى على عمودين فى الصفحة الأولى ، فلقد كان لديه شبق وحتى قبل الثورة للكتابة فى الصحف . .

وعندما اختير السادات سكرتيراً للمؤتمر الإسلامى الذى أعلن عن تشكيله فى القاهرة بدأ يوجه كتاباته وكأنه القائد المسئول عن العالم الإسلامى فى كل بقعة من الأرض . .

وبدأ سلسلة من المقالات عما أسماه تحرير المسلمين فى الاتحاد السوفيتى والخطر القادم من الشرق . .

وقد حدث فى تلك الأيام أن الشرقاوى كتب مقالا فى إحدى صفحات الجمهورية الداخلية يطالب فيه بمحاولة إقامة علاقات مع الدول الاشتراكية بما فيها الاتحاد السوفيتى ، وخاصة بعد إصرارالغرب والولايات المتحدة على تجاهل أمانينا الوطنية والقومية سواء فى تسليح الجيش أوفى تمويل بعض المشروعات الاقتصادية المهمة . .

وفى المساء وعندما كان السادات يتصفح بنفسه بروفات الجريدة الماثلة للطبع ينبهه أحد المحررين الصغار فى ذلك الوقت إلى مقالة الشرقاوى التى جاءت فى تعارض تام وحاد مع مقالة السادات فى الصفحة الأولى . .

الأمر الذى أثار حفيظة السادات واستثار غضبه وهياجه «الألمانى العنيف» وخاصة وقد تصور أن الشرقاوى يتعمد الرد عليه . .

وأعطى أوامره لمدير مكتبه النصف مصرى والنصف ألمانى «آيلر» أو حسين عزت . أن يكلف أحمد أنور مدير الشرطة العسكرية بإحضار هذا الشرقاوى من تحت الأرض وفوراً . وانطلقت الشرطة العسكرية فى القاهرة تبحث عن ذلك الكاتب الآبق الذى تجرأ وهاجم أفكار السيد البكباشى عضو مجلس قيادة الثورة ومدير الجمهورية .

وعثروا عليه قبل منتصف الليل مع مجموعة من الأصدقاء فى مقهى صغير بميدان تريامف بمصر الجديدة ، واقتادوه قسرا وركلا إلى الدور الثالث فى مبنى الجمهورية فى شارع الصحافة فى ذلك الوقت حيث كان السادات ومكتبه يتابعان العملية كواحدة

من أخطر العمليات العسكرية ؛ وأحاول تذكر كلمات الشرقاوى نفسه وهو يصف هذا اللقاء العاصف والمثير ما بين منتصف الليل والفجر . .

«أدخلونى إلى الغرفة الواسعة للبكباشى أنور السادات، ووقفت وسطها مشدوهاً مشدوداً خائراً وخائفاً . . إن أحداً من الذين ألقوا القبض علىّ فى القهوة لم يكلف نفسه بتفسير لما يحدث، ولم أعرف سوى أن البكباشى طلبنى للمثول بين يديه . .

وأخذت أتأمله وهو يدور حولى ويلعب بمسدس فى يديه مركزاً نظراته على ومزمجراً أحياناً فى غضب . . لم أكن أعرفه قبل ذلك وكان كل ما سمعته عنه قبل الثورة هو اشتراكه مع آخرين فى التجسس لحساب الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية فى دهبية الراقصة حكمت فهمى ثم اشتراكه فى محاولات اغتيال أمين عثمان ومصطفى النحاس وقد كنا نسميه فى جلساتنا الخاصة "أبو الأسود الهتلرى" نظراً لإعجابه الشديد والواضح بالنازية . .

وصرخ البكباشى أنور السادات فجأة حتى إنى تصورت أنه أطلق رصاصة من مسدسه :

– كيف تجرؤ يا . . . .

وحزمت أمرى وتساءلت :

– أجرؤ على ماذا يا أفندم؟

– مقالك المسموم أيها الشيوعى القذر . . كيف تجرؤ على أن ترد على كتاباتى وفى نفس الصحيفة التى أرأسها

وخرجت كلمات تلقائية عفوية منى :

– هو حضرتك كتبت إيه . . ؟!

وكأنما صببت زيتاً على النار المشتعلة، فزاد هياج البكباشى أنور السادات وشتائمه التى لا أستطيع حصرها، وقد ظلت عيناى وأحاسيسى كلها مركزة على المسدس فى يده، فلقد كنا نسمع عن صراع المسدسات الذى يدور أحياناً فى مجلس قيادة الثورة .

ثم قال يحسم الأمر وهو يضع المسدس فى جرابه فى حركة تمثيلية رائعة

– خسارة فيه الرصاصة . . خدوه وارموه زى الكلب فى السجن الحربى . . وانطلقت بى عربة البوليس إلى السجن الحربى فى العباسية وألقوا بى فى زنزانة صغيرة مظلمة . .

ظللت قابعاً فى الزنزانة فى حالة قرفصاء يفرضها إحساسى المتزايد بالبرد والخوف، وكل حواسى تتركز فى أذنى التى أصبحت مثلما رادار مرهف يسمع أو يتسمع نباح كلب فترتجف أوصالى لما لكلاب السجن الحربى من سمعة مدوية، أو صرخة مكتومة مشروخة فتتوالى فى ذهنى المكدود كل ما كان يحكى من تهاويل يشيب لها الولدان فى السجن الحربى . . ساعتان أو تزيد كنت فى حالة استيقاظ نائم أو نوم مستيقظ .

والتقطت أذنى فيما التقطت أذان الفجر يأتى متماوجاً متقطعاً من بعيد، وفجأة سمعت وقع أقدام تقترب وهمهمات حديث خافت ثم المفتاح يدور فى غلظة ويفتح باب الزنزانة فى صرير مزعج ويطل علىّ اثنان يحملان كشافاً قويا . . كان أحدهما البكباشى أنور السادات أما الآخر فقد كان قائد المعتقل حمزة البسيونى الذى استلمنى منذ ساعات . .

ووقفت ملتصقا للحائط فى انتظار قبضة قوية تهوى على وجهى أو كلب مسعور يطلق فى الزنزانة . .

ولكن السادات بادر قائلاً فى صوت بدا لى غريباً :

– تعال يا شرقاوى . . تعال . . اخرج . .

ولا أدرى ما الذى دفعنى إلى الاستنجاد بقائد المعتقل مستجيراً من الرمضاء بالنار قائلاً فى ابتهال . .

– يا سيادة القائد . . أنا أمانة هنا فى سجنك . . أرجوك

وضحك قائد المعتقل ضحكة طفولية، وحتى الآن لا أدرى ما العلاقة بين القسوة والضحكة الطفولية :

– متخفش يا شرقاوى . . سيادة البكباشى عفا عنك . .

وقهقه السادات قائلا :

– خلاص يا حمزة . . هات دفتر سجنك أمضى على استلامه . . عاوز يطمئن ياسيدى . . أصلك ما تعرفش المثقفين يا حمزة . .

وخرجت معهما صامتاً ونسمات الفجر الندية غير قادرة إلا على زيادة هواجسى . . وعلى باب السجن، كانت هناك عربة فولكس فاجن صغيرة فتحها السادات وأجلسنى بجواره ثم انطلق يقودها بنفسه . . وخلال الطريق وحتى منزله فى الهرم كان كل حديثه

عن نضاله فى الأربعينيات ودوره فى الثورة واهتمامه بالكتابة فى الصحف والمجلات . . وأنا أسمع فقط ، وأحاول عبثاً أن أستكشف الموقف . .

ودخلنا منزله مع تباشير الصباح الأولى وجلسنا فى غرفة المكتب الصغيرة ثم قال مازحاً . .

- تحب تفطر فول وطعمية زى حالاتى . . ولا أنت من بتوع المربى والزبدة . . ! !
ثم بدأ على الفور يقدم لى صوراً مما كان يكتبه فى الصحف فى الأربعينيات مؤكداً أن الكتابة هى مهنته المفضلة ثم متسائلاً بشىء من الاستنكار والعتاب كيف أنى لم أقرأ له قبل ذلك . وعلى مدى ساعتين دار حوار أو بمعنى أدق منولوج من ناحيته حكى لى فيها أشياء كثيرة كانت غالبيتها تدور حول شخصيته ونضاله وبين الحين والآخر يطلب منى أن أنسى ما حدث مؤكداً إعجابه بشجاعتى المزعومة التى أكدت لى أننى كاتب يعتز بأفكاره . . » .

ويضيف الشرقاوى فى روايته أنه عرف بعد ذلك أن عبدالناصر حينما سمع ما جرى له طلب من أنور السادات أن يفرج عنى فوراً فلقد كنت لا أعرف أن مقالى هذا الذى أثار رئيس تحرير الجمهورية جاء معبراً فى تلك الفترة عن أفكار كانت تدور فى ذهن عبدالناصر والذى كان يستعد لحضور مؤتمر باندونج التاريخى . .

وكانت تلك هى بداية علاقة بين الشرقاوى والسادات استمرت لأكثر من ٢٥ عاماً ! اختلفا فيها فى كل شىء ولكن على أرضية لمسة إنسانية ظل كل منهما مخلصاً لها حتى النهاية . .

* * *

كانت تلك الأسابيع الثلاثة فى القاهرة أشبه بحمام تركى ساخن أنستنى تماماً أنها مجرد إجازة أعود بعدها إلى برد أوروبا وثلوجها . . فقد كان المجتمع المصرى وهو على أعتاب مرحلة جديدة لم تتشكل ملامحها بعد يموج بتيارات قوية ، وعنيفة أحياناً من الحركة والصراع مبشراً إما بفجر جديد أو بقفزة إلى المجهول . .

كانت البلاد تستعد لأول انتخابات تجرى فى أكتوبر فى ظل المنابر السياسية . .

والتقيت بكل الأصدقاء أحمد طه وقبارى عبدالله وعبدالمنعم الصاوى وخالد محيى الدين والدكتور القاضى ومصطفى بهجت بدوى ، وسيد البكار وأحمد تربای ، من قادة الطليعة الوفدية . .

كان أحمد طه قد قرر أن يدخل الانتخابات مستقلاً بعد ان اختلف مع منبر اليسار لأنه لم يحقق من وجهة نظره التوازن المطلوب لقوى اليسار داخله . .

أما قباري فقد اختار ، بعد جهد مني ومن بعض الأصدقاء أن يدخل الانتخابات على قوائم اليسار ، موجهاً ما يشبه الإنذار لى بأنها آخر مرة يسمع كلامى . .

وكان عبدالمنعم الصاوى متفائلاً عن طبيعة المرحلة القادمة ، وخاصة وقد تحسنت علاقته بالسادات بعد أن كان يرفض مقابلته فى أوائل السبعينيات ويصفه بأنه نقيب «الشيوعيين» لأن الصاوى عندما انتخب نقيباً للصحفيين فى أول مرة سنة ١٩٧٣ ناضل بشرف وصلابة من أجل عودة الصحفيين المفصولين والذين كانوا ينتمون إلى اليسار عموماً. ولقد قلت للصاوى يومها فى مكتبه فى الجمهورية :

- سمعت أحاديث حول اختيارك للوزارة

فرد بانفعال حاسم :

- فال الله ولا فالك . . حرام عليك . . كن على يقين بأننى سأرفضها فأنا ولدت لأن أكون من أصحاب الأقلام وليس من أصحاب السلطان . .

أما مصطفى بهجت بدوى والذى أصبح كاتباً فى الأهرام بعد أن ترك رئاسة تحرير ومجلس إدارة الجمهورية فلقد كان الوحيد ممن قابلتهم الذى كان يبدى قلقا من تطورات الأوضاع السياسية والاقتصادية ، وأذكر أنه قال لى مع فنجال القهوة فى مكتبه فى الأهرام . . أرى خلال الرماد وميض نار . . ويرر ذلك باحتدام الأزمة الاقتصادية وزيادة الأسعار مع الهجمات الانفتاحية الأولى للشركات الاستثمارية .

وكان خالد محيى الدين منشغلاً فى حماس بإعداد قوائم مرشحى منبر اليسار فى الانتخابات القادمة مؤكدا خلال جلسة غداء العمل السريع التى ضمتنا فى كافتيريا الهيلتون أن اليسار أمامه فرصة طيبة لعمل جماهيرى حقيقى خلال المعركة الانتخابية .

وفى الليلة الأخيرة قبل السفر ، التقيت بالشرقاوى ومجموعة أخرى من الأصدقاء على العشاء فى النادى الثقافى المصرى . . وكان الشرقاوى متفائلاً بمستقبل الديموقراطية فى مصر . . على أساس أن طموح السادات هو أن يكون «عمدة» للجميع بدون تحيز لأحد . .

وتركت القاهرة هذه المرة ، وأعماقى ممتلئة مع كل ما جمعته واختزنته خلال تلك الزيارة . . أن هناك شيئا ما على الطريق .

[٣٧]

هناك أناس كزهور النرجس يبدون فى غاية
الطرافة يخسرون ويربحون وكما توجد الذئاب
كذلك يوجد المجانين؟؟

الأوديسا- أراجون

١٧ يناير سنة ١٩٧٧

باريس . . باريس . . .

مدينة الأحلام والأحزان والثورة . . عروس الثقافة ، رائدة الابتذال ، وكر الحرية وقبر الأحرار الشجعان . . كانت دائما هى البادئة برفع رايات الثورة والتحرر ، وكانت دائما وفى نفس الوقت هى البادئة بالانسحاب والتراجع . . وكأنها ورثت كل صفات العاشق الجسور الجبان والذى سميت باسمه باريس الذى اختطف جميلة الجميلات هيلين فألحق الدمار بشعبه وبلده طروادة وجبن فى مواجهة أجاممنون وآخيلوس وأفليسوس .

باريس التى قدمت الجنرال بيتان يوماً وجعلت منه بطلها القومى ثم ألحقت به العار والخزى ، قررت ذلك مع نابليونها قبلا وديجولها بعداً . . جعلت من جان دارك قديسة ونبية ثم أشعلت فيها النيران وأحرقتها كساحرة شيطانية ؛ فاتنة مزهوة بجمالها وشبابها رافعة شعارات مضيئة كالحرية والإخاء والمساواة ، وعند أول خطر يحدق بها تحرق أبناءها وتبيعهم بثمن بخس لكى تحافظ على نفسها كغانية تفتح أبوابها لكل مقتحم غاز . .

فعلت ذلك عشرات المرات . . سلمت أبناء الكومونة الأولى ثمناً للغازى الألمانى بسمارك حتى لا يشوه وجهها الجميل بمدافعه . . وارتمت تحت قدمى هتلر واختارته سيدا لها حتى لا يقص شعرها الذهبى أو يجرى حروقاً ونتوءات على جسدها .

اللوفر أغلى معبد فنى مقدس فى تاريخ البشرية، ومدينة مونمارتر والهال حيث الإنسان رخيص يباع لساعات قليلة بحفنة من الفرنكات . .

كعبة الأدباء والفنانين، وملاذ الدجالين والنصابين والمشعوذين . . ومع ذلك يبقى لها سحرها المنفرد الذى يأخذك دائما مع أول خطوة على أرضها سواء كان ذلك فى محطة جاردى ليون أو فى مطار أورلى أو شارل ديجول . .

كانت هذه هى المرة الثانية التى أزور فيها باريس وقد جاءت بعد عشر سنوات تماما من زيارتى الأولى لها سنة ١٩٦٨ حين انتهزت وجودى فى روما لحضور مؤتمر ثقافى لدول البحر الأبيض المتوسط . وفى ذلك الوقت ركبت القطار إليها ولم يكن فى جيبى إلا ثمن التذكرة وتكفل الأصدقاء أنور عبدالملك وبهجت النادى وعادل رفعت أو محمود حسين بكل شىء بعد ذلك فى إقامتى التى امتدت لأسبوعين . .

ولكنى ذهبت إلى باريس هذه المرة معززاً مكرماً بعد إلحاح من أمير إسكندر بأنه من غير المعقول أن أكون فى برلين ولا آتى لزيارة مجموعة باريس، أو جماعة باريس . .

كانت باريس قد بدأت تستقطب عدداً من أفواج المثقفين المصريين فى رحلة الخروج التاريخى الذى بدأ فى منتصف السبعينيات . . فهاجر إليها البعض ممن كانوا قد استوطنوا بغداد أو بيروت وعواصم عربية أخرى لبضع سنوات ثم أدركوا عن قصد أو بدون قصد أنه يوجد فى تلك العواصم نفس العوامل التى أدت إلى خروجهم من القاهرة بل وأكثر فرحلوا إلى باريس . .

كان من هؤلاء أمير إسكندر وعبدالسلام مبارك وطاهر عبدالحكيم وغالى شكرى وأحمد عبدالمعطى حجازى وجورج البهجورى ثم انضم إليهم ميشيل كامل ومحمود أمين العالم وعدد آخر من شباب المثقفين .

مثلما استقطبت لندن عدداً آخر من المثقفين المصريين جاءوا إليها هم الآخرون من بغداد وبيروت وطرابلس ولنفس السبب من أمثال أحمد عباس صالح ومحمود السعدنى وصبرى حافظ وعبدالمجيد فريد ومجدى نصيف وبكر الشرقاوى وألفريد فرج . .

وربما كان الدافع الرئيس وراء ذلك هو الحرب الأهلية اللبنانية التى كانت قد بدأت منذ أكثر من عام مما أدى الى انتهاء ظاهرة «بيروت» واحة الديمقراطية والنشر، مثلما كان يطلق عليها فى العالم العربى ولجوء عدد كبير من الناشرين وأصحاب الصحف

. وجورج البهجوري وغالي شكري وميشيل كامل ووجيه سمعان غالبيتهم كانوا يقيمون في هذا الحي أو في الحي المجاور «أفيني دى اتالي» كما كان هناك عبدالملك خليل الذى حضر من موسكو بالصدفة . .

ودار الحديث حول الأوضاع في مصر، وحكيت لهم ما رأيته وسمعته ولمسته خلال زيارتي الأخيرة، وكنت قد أصبحت أكثر ميلاً للتفاؤل، وخاصة بعد إجراء الانتخابات التي كان هناك شبه إجماع في نظافتها النسبية والتي أدت إلى حصول منبر اليسار على ٩٪ من الأصوات ودخول أربعة من أعضائه في البرلمان منهم قباري عبدالله وخالد محيي الدين وأبوالعز الحريري ثم مالحق ذلك من إقرار تحويل المنابر إلى أحزاب في أول جلسة للبرلمان المنتخب وتغيير الدستور فيما يتعلق بنظام الاتحاد الاشتراكي واستبداله بالتعددية الحزبية . . راهن البعض على التجربة الليبرالية الوليدة مؤكدا أنه مع استمرارها وتعمقها فإن ذلك سيعطى فرصة حقيقية لحركة الجماهير بأن تؤكد نفسها في الساحة بعد غياب طويل فرض عليها تحت مسميات كثيرة . .

في حين رأى البعض أن هذه الانفتاحة الليبرالية المحدودة تخفي وراءها انفتاحا اقتصاديا غير محدود سيؤدى في النهاية إلى تصفية إنجازات ثورة يوليو وعودة إلى سيطرة الطبقات القديمة وأبدى البعض تحفظهم إزاء ذلك مؤكدين أن السادات خرج من عباءة ثورة يوليو وهو واحد من أبرز أبنائها وسياسته امتداد طبيعي لخط التراجع الذى اتخذته الثورة بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ .

وتحدث البعض عن أزمة اليسار ليس في مصر وحدها بل وفي العالم العربي كله لظروف ذاتية وموضوعية، أما الذاتية فتتعلق بفشله في الارتباط وتحريك القطاعات الواسعة من الجماهير ممثلة في العمال والفلاحين والمثقفين كذلك الجمود والتخلف في بعض الأحيان اللذان أصابا الفكر الاشتراكي العالمي عامة والعربي بشكل خاص .

وأشار آخرون إلى متغيرات جديدة تطرأ على واقع مصر والعالم العربي متمثلة في التراكم الرأسمالي بوتيرته السريعة للدول النفطية والتي يمكن أن تحدث تغيرات هائلة وغير متوقعة في التطور الرأسمالي للعالم العربي، الأمر الذى يضع الأساس الحقيقي لوحدة أو ثورة عربية موحدة . .

في حين رأى آخرون عكس ذلك تماما، وفسروا بداية الحقبة النفطية بأنها ستؤكد التخلف والتبعية وأن قيم الثورة والصراعين الطبقي والقومي ستحاصر بشدة وتخلي مكانها لقيم الثروة والكسب السريع والاستهلاك النزق والأخرق . .

وخلص بعض الزملاء أن الرئيس السادات قد فتح الباب واسعا للنفوذ الأمريكى فى مصر والعالم العربى وأنه أجهض النتائج التى كان من الممكن أن يسفر عنها حرب أكتوبر وأن رحلات كيسنجر المكوكية واتفاقية الكيلو ١٠١ وزيارة نيكسون للقاهرة ثم فتح السوق المصرى للبنوك والشركات الأجنبية والأمريكية منها بشكل خاص، هى بداية لمرحلة جديدة من التبعية.

فى حين أكد البعض الآخر أن هذا كلام سابق لأوانه بدليل أن القطاع العام والإصلاح الزراعى وكثيراً من الإجراءات التى اتخذت فى الستينيات لدعم الاقتصاد الوطنى مازالت قائمة تحميها حركة الجماهير التى بدأ صوتها يعلو فى صياغة الأمور السياسية والاقتصادية . .

ودار النقاش على هذه الوتيرة محتدماً أحياناً، هادئاً أحياناً كثيرة ممزوجا بكثير من القفشات والضحكات حتى ساعات الصباح الأولى، كنت خلالها أشارك أحياناً وأنسحب مراقباً ومتأملا وأعود فيها بذاكرتى إلى أيام المعتقل . . هناك فى قلب الصحراء فى الواحات منذ حوالى ١٥ عاما . .

كثير من المشاركين فى هذه الليلة، كانوا أيضا هناك وشاركوا فى سنوات الألم والأمل وظلوا يناقشون ويحلمون حتى خرجوا من المعتقل سنة ١٩٦٤ مع ما كان يبدو وقتها من أن الأحلام على وشك التحقيق . .

واليوم وبعد كل هذه السنوات تدور المناقشات مرة أخرى فى شقة صغير عارية من الأثاث فى قلب باريس وعلى بعد آلاف الأميال من الوطن . . ونكتشف أن كل الأحلام صارت مجهضة . .

هل يمكن أن تكون الغربة لوناً من ألوان الاعتقال . . كلاهما على أية حال يفرض العزلة ويبعد عن الواقع وينمى جذورا ذاتية . .

وأخذ الرفاق ينسحبون الواحد بعد الآخر إلى بيوتهم أو زنازينهم الجديدة، وبقيت أنا وعبدالملك خليل فى شقة أمير ونام كل منا على كنبة عارية فى الصالة . .

وفى ظهر اليوم التالى اصطحبنى أمير إلى شقة فى الدور الرابع فى أحد الشوارع المتفرعة من الشانزليزيه حيث توجد مكاتب مجلة الوطن العربى التى يعمل بها . . وهناك التقيت بوليد «أبو ظهر» صاحب المجلة ونبيل المغربى رئيس التحرير.

كان وليد أبوظهر منذ عدة سنوات بعيداً تماماً عن مجال النشر والصحافة إذ كان يعمل بالتجارة التى تعتبر غريزة موروثة لدى اللبنانيين، فإذا كنا نقول إن مصر هبة

النيل، فإنه صحيح تماماً أن نقول إن لبنان هبة التجارة . . كانت كل صلته بالصحافة أنه شقيق للصحفى اللبنانى الكبير هشام أبوظهر الذى كان يصدر جريدة المحرر ذات الاتجاه الوطنى التقدمى والذى كان على علاقة وثيقة بالرئيس عبدالناصر، وحينما مات هشام، ذهب من أقنع الأخ الأصغر أن الترخيص الصحفى الذى تركه أخوه الأكبر يمكن أن يدر ربحا ونفوذا أكثر عشرات المرات من العمل التجارى الذى يزاوله . .

ودخل وليد مجال الصحافة، وعندما نشبت الحرب الأهلية هاجر برأسماله إلى باريس حيث أسس دار الوطن العربى للطباعة والنشر كشركة فرنسية برأسمال محدود . .

قال وليد أبوظهر حتى قبل أن أشرب فنجال القهوة الذى أمر به . .

– اسمع يا أخ فتحى، أنا راجل تاجر لا تهمنى الأيديولوجيات أو النظريات، وقد عرفت من الزملاء المصريين أنك كاتب مقروء وأن كتابك الأخير قد طبع ثلاث طبعات فى أقل من سنة . . وهذا ما أريده . . فأنا أبحث عن البضائع الرائجة . .

وقد عرفت أنك تقيم فى برلين الشرقية، الشيوعية يعنى، مش مهم، المهم أن تكتب لنا أربعة موضوعات كل شهر عن الأوضاع فى مصر وسندفع لك ١٥٠٠ فرنك، تمام يا سيدى . . كان واضحاً كرجل أعمال، لم يحاول إخفاء الحقائق أو الادعاء ومع ذلك كانت تشوب لهجته خفة دم لا يخطئها من يجلس إليه . .

قاطعته قائلا : إنما

ولم يترك لى فرصة . .

عارف، المبلغ مش قد المقام، أعدك بعد شهر أو شهرين أن نرفعه، المهم تبتدى، اشرب قهوتك بقى . .

أحسست ببعض الامتهان وقررت أن أفرض نفسى عليه قلت :

– القضية مش بس قضية فلوس، أنا لن أكتب عن الأوضاع فى مصر لأنى بعيد عنها ممكن أكتب عن الأوضاع السياسية والثقافية فى ألمانيا، فى الشرق والغرب وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال .

ورفع نظره يتأملنى لحظة وكأنه سمع شيئاً لم يتوقعه ثم قال ضاحكاً :

– لأ ذكى، عامل حسابات كويس، ماشى اكتب اللى أنت عاوزه، برضه مفيد تكتب لنا عن المصريين والعرب فى ألمانيا، أحوالهم وأوضاعهم . . سمعت أن عددهم يتزايد أهو نكسب القارئ العربى فى ألمانيا . . هما يطلعوا كام . .

- مين

- العرب فى ألمانيا.

- فى برلين الغربية والشرقية حوالى ٥٠ ألفا، لكن مش دا المهم، القضية مش حكاية أنى عامل حساباتى زى ما قلت فعلا أنا لا أستطيع أن أكتب عن واقع أنا معزول عنه..

- يا سيدى موافق خلاص.. اكتب اللى تكتبه، إحنا كلنا آهو بعيد عن بلدنا عن إذنك مضطر أخرج عندى موعد الآن فى..... نبيل المغربى هيعطيك كل الأوراق المطلوبة..

وتركنا فى الغرفة وخرج.......

وأخذت أتطلع إلى غالى شكرى وأمير إسكندر بحثاً عن تفسير وقال غالى

- هو كده وليد أبوظهر، مشغول دائما.. إنما طيب وابن حلال ويحب مصر والمصريين.. دا سايب الشغل كله فى إيدينا.. حتى الافتتاحية، المهم عنده المجلة توزع.. قوم بينا نخلص مع المغربى.

بقيت يومين آخرين فى باريس، راحا كلهما فى زيارات للأصدقاء...

جلست مع محمود العالم فى قهوته المفضلة فى سان ميشيل فى الحى اللاتينى..

وسهرت ليلة مع جورج البهجورى فى الأستوديو الذى يستأجره وسط عشرات من الإبداعات الكاريكاتيرية التى ملأته والتى مزجت بين بساطته الصعيدية المعروفة وبين اللمسة الباريسية المستجدة فى الخطوط..

وتعشيت ليلة مع وجيه سمعان وظريف عبدالملك وريمون دويك.. نجتر ذكريات الغربة وجلست مع ميشيل كامل فى مكتبه أشرح له أسباب رفضى للانضواء فى أى تنظيم سرى.

وقلت له بوضوح إنى ومنذ حل الحزب سنة ١٩٦٥ بعد الخروج من المعتقل قد قررت ألا أرتبط بأى عمل تحت الأرض، وأن أدافع عن أفكارى بقلمى وعلناً، وأن هذا هو الدور الحقيقى لأى فنان وكاتب.

وذكرته بأن هذا الموقف ليس طارئا، فقد رفضت من قبل حتى الانضمام إلى التنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى، فلم أكن أفهم كيف تنشئ السلطة تنظيماً سريا؟!

وقلت له إن فهماً موضوعيا للظروف فى مصر يجعل من وجود حزب علنى لليسار ممثلا فى حزب التجمع الوطنى التقدمى فرصة تاريخية لابد وأن تنجح وأنه ليس هناك أمل سوى فى تجمع حقيقى لكل القوى الوطنية والديموقراطية.

وبالرغم من إحساسى بأن ميشيل لم يقتنع بتفسيراتى لموقفى الرافض للتنظيمات السرية إلا أن ذلك لم يفسد للود بيننا قضية، وخاصة وبغض النظر عن أى خلافات أو تحفظات، فقد كنت أحمل ومازلت لميشيل أطيب الذكريات كصديق مخلص وشهم وصادق.

وحينما انطلق بى القطار من محطة «جاردى أوست» أى محطة الغرب فى الطريق إلى برلين عابراً ولمدة عشر ساعات أراضى فرنسية وبلجيكية وألمانية غربية، تزاحم على ذهنى المكدود المتقلب بين النوم واليقظة، كل الصور والأصدقاء الذين تركتهم خلفى فى مدينة النور.. حقيقة قضيت أسبوعاً دافئاً بين أصدقاء جمعتنى وإياهم فى مصر رحلة الآمال والآلام، كما تجمعنى بهم رحلة الغربة عن أرض الوطن.

ولكن ما كان يلح على دائماً، وأنا أتذكر شقة أمير إسكندر الخالية من الأثاث، وجورج البهجورى، وحياة الكفاف التى يعيشها الآخرون فى تلك المدينة التى تعتبر من أغلى مدن العالم.. إننى أدفع إيجاراً لشقتى فى قلب برلين مالا يزيد عن ١٠٠ مارك أى أقل من ٥٠ جنيها مصريا فى حين يبلغ الإيجار الشهرى لأقل شقة فى باريس مالا يقل عن ٤٠٠٠ آلاف فرنك وهو ما يساوى قرابة الألف جنيه مصرى فى ذلك الوقت..

وهم كلهم ليسوا من رجال التجارة والمال، لا يملكون إلا فكراً وقلماً وبعض الصحف والمؤسسات اللبنانية التى يعملون فيها لقاء دراهم معدودات. ماذا يجرى لو طالت أيام الغربة..!!

سؤال كان يلح علىّ ويزعجنى أحياناً لدرجة أن أقفز إلى ممر العربة وأفتح النافذة لتغمرنى الرياح المشبعة بالثلوج، والقطار ينطلق كالصاروخ فى اتجاه برلين..

وحين وصلت إلى بيتى فى ساعات المساء الأولى، لم ينهض عمرو وياسر لاستقبالى كعادتهما بالترحيب الصارخ، بل كانا جالسين فى الصالة حول جهاز التليفزيون مستغرقين تماما فيما يريانه.. ولما لمحانى قالا فى صوت سريع مضغوم.. تعال.. بابا.. تعال.. انهض.. شوف مصر بيجرى فيها إيه..

[٣٨]

عندما تعصف السحب السوداء بالسماء ويدوى
الرعد فى صخب هائل مطبق تحس كل القلوب
بأنها فى قبضة قدر غادر

شيللر- عروس مينا

آخر يناير سنة ١٩٧٧

مرتين . . أحسست فيهما وبشكل مكثف معنى العجز والإحباط . . ولجأت فيهما إلى أحلام اليقظة ، كأى طفل صغير فأتصور أو أتمنى أن يكون لى جناحان فأطير بهما إلى القاهرة . . قافزاً فوق مرارة الواقع وعدم القدرة . .

المرة الأولى حيث كنت فى معتقل الواحات تبعدنى عن القاهرة مئات الكيلو مترات وأسوار السجن وسمعت عن مرض شديد ألم بوالدى . . وأيامها كنت أصرخ وأتمزق فى داخلى وفى صمت ، وكلى رغبة متفجرة فى أن أكون فى القاهرة إلى جانبه حتى لو دفعت حياتى ثمناً . وهذه المرة ، وأنا أبعد عن قاهرتى آلاف الأميال ، وأرى وأسمع من خلال أجهزة التليفزيون والراديو ما يجرى فيها . .

كانت الأحداث التى بدأت فى ١٨ يناير قد فرضت نفسها على جميع الصحف والإذاعات والتليفزيونات فى العالم .

وقبعت إلى جوار التليفزيون أرى تلك الأفلام الحية التى تصور ما يجرى . . تظاهرات جماهيرية صاخبة بدأت فى الصباح مع إعلان الحكومة رفع الأسعار تنفيذاً لتوصيات صندوق النقد الدولى ، وانطلقت كالعادة من حلوان وجامعة القاهرة . . أى من المركزين الرئيسين للعمال والطلبة .

وبعد الظهر كانت التظاهرات قد شملت القاهرة كلها ، ثم تردد صدى ذلك فى الإسكندرية والمنصورة والإسماعيلية وأسيوط وأسوان وكل مدن مصر الكبرى . .

اصطدامات بالبوليس، وضحايا يسقطون من الجانبين. فأرى معركة فى ميدان التحرير، وأخرى فى الأزهر، وثالثة فى باب الشعرية.. ورابعة فى الإسكندرية، وخامسة فى أسوان. عدد القتلى والجرحى يقدر بالمئات..

وأنتقل إلى قناة أخرى وتليفزيون آخر، فلقد كان بإمكانى فى برلين أن أرى أكثر من ست قنوات تليفزيونية من الغرب والشرق بما فى ذلك قناة أمريكية خاصة تذيع فى وسط أوروبا.. الأمور تتطور بسرعة.. المتظاهرون لا ينفضون فى المساء كالعادة بل يقيمون المتاريس فى الشوارع، والشعارات تتطور من الشكوى والغلاء والقوانين الجائرة، إلى المطالبة بإسقاط الحكومة بل والنظام، وتتحول الهتافات من مطالب اقتصادية إلى مطالب سياسية..

عاوزين حكومة حرة.. العيشة صبحت مرة.

هنا بيضربونا.. واليهود فى سينا.

الشعب المصرى فى كل مكان.. ضد سياسة الأمريكان.

لم كلابك يا سادات.. يوم الشعب هو الآت.

وأنتقل إلى راديو القاهرة الذى يمكن سماعه بوضوح بعد التاسعة مساء فأسمع بيانا مقتضبا من الحكومة عن بعض الشغب الذى أثارته قلة منحرفة من الشيوعيين وأصحاب المبادئ الهدامة استغلوا معاناة الشعب وحاولوا استغلالها، ثم إعلاناً حكوميا مقتضباً بإلغاء قوانين الأسعار الجديدة بناء على توجيهات الرئيس السادات ثم بياناً آخر بأن الحالة هادئة تماماً وأمكن القبض على بعض مثيرى الشغب..

ولكن الإذاعات الأخرى فى لندن وأمريكا ومونت كارلو وبرلين تؤكد وحتى ساعة متأخرة من الليل أن الأمور تتطور بشكل سريع، وأن الجماهير تسيطر بالفعل على مناطق كثيرة فى القاهرة والإسكندرية..

وأقضى الليل كله متنقلا من إذاعة إلى أخرى وأحاول الاتصال بالقاهرة والجريدة أو بالشرقاوى أو بأى من الأصدقاء ولكن الترنك الدولى يرد بأن الاتصالات مقطوعة.

وفى الصباح اتصلت بالصديق رءوف غنيم المستشار الأول للسفارة المصرية فى برلين، ولم يكن لديه تفاصيل أكثر، كل ما قاله أن الوضع يبدو خطيرا..

ثم بدأت الإذاعات وقنوات التليفزيون الأوروبية تحمل فى اليوم التالى موجات جديدة من الأخبار والتطورات المثيرة..

الثورة تعم مصر . . تمرد شعبى شامل ضد نظام السادات . . المتمردون يقيمون المتاريس، البوليس يرفض إطلاق النار وينضم إلى المتظاهرين . . التظاهرات تهتف بسقوط السادات وأمريكا وإسرائيل . .

وأرى حواراً يجريه التليفزيون الألمانى مع ضابط بوليس . . على رأس فرقة من رجال الأمن فى حى الحسين والأزهر يعلن فيه الضابط رفضه لإطلاق النار على المتظاهرين لأنهم حسب تعبيره أهله وعشيرته . .

وتقرير مصور تذيعه محطة التليفزيون الأمريكى عن التظاهرات فى أسوان التى حاصرت الرئيس السادات وغموض حول مصيره . .

ثم تذيع البى بى سى أن السادات قد غادر أسوان بالطائرة إلى مكان مجهول ثم رسالة عاجلة من مراسليها فى القاهرة تؤكد أن هناك شائعات فى أن السادات قد غادر مصر كلها إلى بلد عربى آخر غير معلوم . .

وتقول «مونت كارلو» إن الثورة فى اليوم التالى قد شملت كل أقاليم ومدن مصر وإن التظاهرات الغاضبة قد أحرقت منزل السادات فى قريته ميت أبوالكوم . .

ويقول صوت أمريكا إنه من الواضح أن الذين يقودون التظاهرات هم الشيوعيون والناصريون الذين يعارضون سياسة السادات فى الانفتاح الاقتصادى والتقارب مع الولايات المتحدة. أما راديو موسكو فيذيع أخبار مصر التى احتلت صدر الأخبار فى الإذاعات العالمية فى آخر النشرة وبشكل مختصر وغير واف وبدون أى تعليق!!

ثم تنفرد «مونت كارلو» بنبأ خاص عن هروب السادات إلى إيران فى ضيافة صديقه الشاه وبدا الأمر بعد ظهر ذلك اليوم كما لو أن نظام السادات قد سقط . . ولكن فى نفس الوقت كان من الواضح أنه ليس هناك قيادات سياسية واضحة ومحددة تقود العمل الجماهيرى أو تنظمه سوى بعض القيادات الشابة المتحمسة التى أفرزتها الحركة فى هذا الموقع أو ذاك . .

ولم يكن من الصعب إدراك أن حركة الجماهير حركة تلقائية وأنها فاجأت الأحزاب والقوى السياسية المنظمة حتى قبل أن تفاجئ الحكومة نفسها. الأمر الذى كشف بوضوح أن هناك فراغا سياسيا هائلا فى مصر . .

وكان هذا أخطر ما فى الموضوع . .

فلقد تعلمت من واقع العمل السياسى، أنه ليس من المهم أن تحتج أو تثور، بل الأهم أن تعرف إلى ماذا تهدف بالاحتجاج أو الثورة . . وإلا تحول الأمر إلى طلقة

طائشة تنطلق بلا هدف، بل وقد تصيب قوى الثورة نفسها. . أو صرخة احتجاج غير ناضجة قد تؤدى إلى إجهاض الثورة وحصارها وقد تسفر عن نتائج عكسية تماما لما كانت تطمح له. .

وكم من حركات جماهيرية واسعة أمكن حصارها وتصفيتها لأنها كانت تفتقد الهدف الواضح والقيادة الواعية، بل واستخدمت كمبرر لمزيد من تضييق الخناق على الجماهير وتسليح القوى المعادية لها بوسائل وأساليب أكثر فعالية.

وقد بدا لى ذلك واضحا فى بعض الأفلام التليفزيونية التى أراها فى صورة مجموعات غريبة من الغلمان والصبية تحرق الأتوبيسات وعربات الترام. . وأخرى تلقى الطوب والنيران على بعض المرافق والمنشآت. .

وجماعات ملتحية يبدو أنها منظمة جيدا تلقى بالنيران الحارقة على ملاهى شارع الهرم ودور السينما. .

إذن فقد بدأت فرق التخريب المعروفة ليتحول الأمر كله من ثورة إلى تمرد مجهض يسهل اتهامه بالتخريب والتدمير. .

ولقد حدث نفس الشىء فى القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ حين أمكن تحويل الاندفاعة الجماهيرية الوطنية ضد الملك والإنجليز إلى حرائق وتخريب، وبالتالى إلى أداة فى يد الملك والإنجليز لضرب الحركة الوطنية بأكملها.

وفى المساء حملت الأخبار أنباء نزول الجيش إلى الشوارع ليمسك زمام الموقف وإعلان الأحكام العرفية وحظر التجول.

وأدركت ساعتها أن العصافير التى لم تستطع أن تبنى عشها الآمن الجديد قد أصبحت فريسة سهلة مرة أخرى وبشكل مكثف لهجوم الحدأة والصقر.

ثلاثة أيام لم أنم فيها سوى ساعات قليلة ما بين السحر والفجر على «شيزلونج» فى غرفة المكتب، أتابع من خلال التليفزيون والراديو والتليفزيون ما يجرى على أرض قاهرتى الحبيبة تتقاذفنى موجات مكثفة لانفعالات أسيرة، أصرخ أحيانا فى وجه جندى من رجال الأمن يضرب جماعة من المتظاهرين بشومة فى يده، وأنهر فى أحيان أخرى بعض الصبية والغلمان وهم يحرقون الأتوبيسات ويقذفون زجاج المؤسسات بالطوب والحجارة. . وأصفق لضابط يرفض إطلاق النار على مواطنيه، وأكاد أحطم شاشة التليفزيون أمامى وأنا أرى وزير الداخلية فى ذلك الوقت وهو يعلن فى سذاجة وتبلد غريب أنها قلة منحرفة من الشيوعيين. مكررا بذلك أسطوانة مشروخة مستهلكة. وأضع يدى على وجهى حتى لا أرى صورة القتلى والجرحى.

أعيش الأحداث لحظة بلحظة بالصورة المرئية وبالكلمة المسموعة، ولا أملك سوى انفعالات عاصفة محبطة. فما أصعب على النفس أن تكون متفرجا على ما يجرى فى بلدك من أحداث ساخنة ملتهبة وأنت على بعد آلاف الأميال.

وغمرنى إحساس ثقيل. بأن تلك الانتفاضة الشعبية المجهضة سيكون لها نتائجها الواسعة والخطيرة، بل قد تكون بداية لمرحلة جديدة يندفع فيها الرئيس السادات فى خط مضاد تماما لأمانى الجماهير وطموحاتها. . بعد أن كان فيما يبدو مترددا يحاول إيجاد لون من ألوان التوازن فى العلاقات والقوى الاجتماعية بحيث يعترف الجميع له بالعمودية. . وتذكرت كلمات الشرقاوى وهو يصف طموحه الجامح وحساسيته المفرطة بالذات التى تجعل من ردود أفعاله وانفعالاته العاطفية إزاء الأحداث هى العامل المحدد لسياسته. . إنه مثل ابن الليل فى القرية، يجلس مع المجموعات السهرانة على القهوة ملكا فى القعدة، يثير النكات والقفشات ويملك ناصية الحديث، وفى نفس الوقت، يدور فى ذهنه وفى خطوط متوازية أكثر من مشروع قابلة كلها للتنفيذ فى أعقاب انفضاض تلك الجلسة. .

كيف سيطلق الرصاص على رأس هذا الجالس أمامه. .

وكيف سيهدم جدار الحظيرة فى بيت الآخر ليمضى بماشيته. .

وكيف سيقفز على سطح البيت المجاور ليضاجع زينة النساء التى أعجبته.

ويعتمد كل ذلك على مزاجه الخاص فى تلك الليلة.

وقد بدا ذلك واضحا حينما عاد إلى الظهور إلى مسرح الأحداث بعد الأيام الأولى وأدلى بتصريحاته الغاضبة الملتهبة عن «انتفاضة الحرامية» كما كان يحلو له أن يسميها واتهامه الواضح لمن أسماهم بالناصريين والشيوعيين الذين قادوها.

ولم يكن من الصعب اكتشاف تلك النغمة الممرورة العصبية والمتعصبة فى أحاديث السادات بعد ذلك والتى لازمته حتى النهاية، فلقد كادت الانتفاضة أن تقضى عليه وعلى نظامه الذى لم يكن قد مر عليه إلا حوالى ست سنوات.

وعندما سأله مراسل تليفزيون البى بى سى. .

- لماذا يطلق على ما حدث بأنه انتفاضة حرامية.

قال: لأن الذين قاموا بها وشاركوا فيها مجموعة من الرعاع والأوباش.

وعندها قال له المراسل الإنجليزى:

ألا تجد تحرجا يا سيدى أن تطلق على شعبك بأنهم مجموعة من الرعاع والأوباش .

صرخ فيه السادات :

- إعنى ما أقول ، فهم مجموعة من الرعاع والأوباش .

وبدأ النظام حملة صليبية ضد اليسار والقوى التقدمية ، كما صدرت بعض القوانين الجديدة التى تحد من الحريات وتشدد العقوبات بالنسبة للتظاهر وحرية العمل السياسى ، وقدم مئات المواطنين الى المحاكم العسكرية . حتى عبدالرحمن الشرقاوى الذى كان السادات يحرص على علاقة معه باعتباره حلقة الوصل مع اليسار أخرجه من روزاليوسف بعد أن طلب منه أن يغير من سياسة المجلة ويطرد من أسماهم بالكتاب الشيوعيين والناصريين ورفض الشرقاوى واستقال . .

عاد السادات إلى الحكم هذه المرة مجروحا ممرورا ولديه إحساس مركب بالإهانة بل والمهانة التى لحقت به أثناء الانتفاضة وأسقطت عنه طموحاته السابقة بأن يكون «عمدة للجميع» . وتركزت كراهيته وبالتالى عداؤه وتوجهاته السياسية بعد ذلك ضد اليسار بشكل لم يسبق له مثيل ، وتداعت سياساته ومنذ ذلك التاريخ فى خط بيانى متصاعد أفقدته حتى تلك الحاسة أو بمعنى أدق الرطانة الشعبية التى كان مأخوذا بها بعض الوقت ، وبدأ يبنى جدارا سميكا من الافتنان بالذات والارتباط بأية قوة مهما كانت هويتها قادرة على أن تدغدغ حواسه وطموحاته الذاتية . وقد كانت هناك قوى كثيرة فى الداخل والخارج على استعداد لأن تلعب هذا الدور ، بل وتنتظره بل وأكاد أقول لعبت دورا أساسيا فى رسم السيناريو كله . .

كانت هناك بقايا الطبقات أو الأسر القديمة التى اجترت طوال السنوات الماضية مخزونا هائلا من الآلام والأحقاد التى سعى السادات إلى التصالح معها بل والتصاهر وزوج ابنته أحد رموزها .

وكانت هناك طبقات البيروقراطية والتكنوقراط التى شكلت لنفسها طوال الستينيات والسبعينيات وضعا خاصا متميزا وأصبحت تشكل فئة امتازت بالشراسة والنهم للمال والطموح إلى السلطة وزوج ابنته الأخرى لأحد رموزها .

وكان هناك فئات البرجوازية الزراعية التى استفادت بشكل مطلق من كل إجراءات ثورة يوليو وفرضت نفسها كطبقة محافظة تحكم الريف بديلا عن الإقطاع وشبه الإقطاع وقاهرة للفلاحين . . وزوج ابنته الثالثة لأحد رموزها .

كان هناك الإخوان المسلمون والتيارات الدينية التى كانت محاصرة وعاجزة أحيانا فمد السادات يده إليها وبقوة ووضع فى يدها السلاح لمواجهة قوى اليسار . .

ثم كانت هناك قبل ومع كل هذا الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد ظل السادات يعتقد بعد أن رأى الموت بعينيه أن اليسار هو العدو الذى يمكن أن يطلق عليه رصاصة الرحمة . . ولم يكن يدرى أن الرصاصة ستأتى بعد ذلك من الاتجاه الآخر المعاكس تماما . .

[٣٩]

قال الله للإنسان.
وحدك أنت لا يقيدك قيد إلا إذا اتخذته بالإرادة
التى وهبناك إياها.. وفى مركز الدنيا وضعتك
ليسهل عليك أن تتلفت وترى كل ما فيها..
لقد صنعتك مخلوقا لا أرضيا ولا سماويا لا
فانيا ولا خالدا لكى تكون خالق نفسك وتختار

بيكوديلا ميراندوا
كاتب فلورنسى قديم

مايو سنة ١٩٧٧

فردريش شتراسا . . أو شارع فردريك . . أغرب وأخطر شارع فى التاريخ المعاصر . . تستطيع أن تقطعه بالسيارة فى أقل من ٢٠ دقيقة . ولكنك لابد وأن تتوقف عند منتصفه لتقدم جواز سفرك وأوراق عربتك ثم تتعرض للتفتيش فهنا بوابة شارلى . . وهى أشهر بوابة تعبر من خلالها من برلين الشرقية إلى برلين الغربية والعكس . . أقل من مائة متر ثم تخرج بعدها إلى الجانب الآخر . . وعلى نفس الشارع وتستقبلك وجوه حرس جديد من قوات الحلفاء يلقون نظرة على الأوراق ثم تنطلق . .

أنت الآن فى بلد آخر وعالم آخر تماماً . . رغم أنها أيضا برلين ورغم أن الشارع مازال يحمل نفس الاسم . . فردريش شتراسا وهذا العبور الذى لا يستغرق أكثر من خمس دقائق ولا يزيد بأية حال من الأحوال عن عشرين دقيقة ينقلك مرة واحدة من برلين الاشتراكية إلى برلين الرأسمالية ، برلين حلف وارسو إلى برلين حلف الأطلنطى . . برلين المتحالفة مع الاتحاد السوفيتى وبرلين المرتبطة بالولايات المتحدة .

ولعل التاريخ المعاصر بل والقديم لم يشهد وضعا خاصا وفريدا مثل وضع برلين الغربية فعندما اجتمع الحلفاء فى مدينة بوتسدام التاريخية للبحث فى وضع ألمانيا بعد استسلام النازية ونهاية الحرب العالمية الثانية كان من رأى الرئيس الأمريكى روزفلت الذى توفى أثناء انعقاد المؤتمر وتولى ترومان مكانه أن تنقسم ألمانيا إلى أربع ولايات رئيسة يشرف على كل ولاية منها دولة من دول الاحتلال الأربعة، وهى أمريكا والاتحاد السوفيتي وفرنسا وإنجلترا . . وكان رأى ستالين الذى قاد الوفد السوفيتى إلى المؤتمر الإبقاء على وحدة ألمانيا ومساند سلطة القوى الديمقراطية الألمانية المعادية للنازية، الأمر الذى رفضه بقية الحفاء، بشدة لأن ذلك معناه من وجهة نظرهم أن يسيطر الشيوعيون والاشتراكيون.

وبعد مباحثات طويلة ومتعثرة شارك فيها أربعة من أكبر القادة الذين عرفهم التاريخ المعاصر ستالين وروزفلت وتشرشل وديجول . . استقر الرأى إلى تقسم ألمانيا إلى منطقتين أساسيتين، منطقة تخضع للاحتلال الروسى، ومنطقة تخضع للاحتلال الأمريكى الفرنسى الإنجليزى المشترك يفصل بينهما نهر الإلب وأصر الحلفاء فى نفس الوقت على تقسيم برلين نفسها رغم أنها، أى المدينة تقع بالكامل فى وسط منطقة الاحتلال الروسى وذلك تحت دعوى أن عاصمة الرايخ الثالث لها أهمية خاصة، وكاد المؤتمر أن يتحطم بالكامل إزاء هذه النقطة التى رفضها الروس فى البداية . . وأخيرا تم الاتفاق على الوضع الخاص لبرلين بتحويلها إلى مدينتين . .

وحينما أعلنت جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) على منطقة احتلال الحلفاء ثم أعلنت جمهورية ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) فى منطقة الاحتلال السوفيتى، بقيت برلين الغربية تمثل جيبا عميقا داخل أراضى ألمانيا الديمقراطية باعتبارها ووفقا لاتفاقية بوتسدام تمثل وحدة سياسية مستقلة تخضع لاحتلال الحلفاء مع الاعتراف ببعض الروابط الإدارية مع ألمانيا الاتحادية . .

وحتى الآن وبالرغم من الاتفاقيات العديدة التى أبرمت بعد ذلك إلا أن وضع المدينة ظل من الناحية الرسمية وحدة مستقلة يحكمها سينات خاص بها (مجلس الشيوخ) ويرأسه عمدة المدينة وهذ الوضع الغريب والخاص قد خلق حول النصف الغربى للمدينة حساسية مرهفة وزائدة فأصبحت كلغم قابل للانفجار فى أى وقت أو بركان قد تنطلق منه الحمم القاتلة والمدمرة فى أية لحظة . .

وقد كتم العالم أنفاسه مرتين حين تأزمت الأمور على الخط الفاصل بين برلين الشرقية والغربية وبدا للبعض كما لو أن شرارة الحرب العالمية الثالثة على وشك الانطلاق . .

مرة فى أواخر الأربعينيات حين فرض السوفيت حصارا حول المدينة ورفض ضمها إلى ألمانيا الغربية والتمسك بوضعها «كوحدة مستقلة» ويومها أعلنت القوات الأمريكية والفرنسية والإنجليزية حالة التأهب القصوى ووقفت الدبابات الروسية والأمريكية ولعدة أيام فى حالة مواجهة مباشرة لا يفصلها سوى عشرات الأمتار من الحزام الفاصل بين برلين الشرقية والغربية وفى انتظار الضوء الأحمر لإطلاق القذيفة الأولى . .

ولكن التعقل ساد، ومن حسن الحظ فى النهاية، أمكن الاتفاق مرة أخرى على صيغة " استقلالية المدينة " .

والمرة الثانية فى أوائل الستينيات حين فوجئ العالم والولايات المتحدة بشكل خاص فى صبيحة يوم من أيام أغسطس سنة ١٩٦١ أن ألمانيا الديمقراطية قد أقامت سورا متكاملا حول برلين الغربية يعزلها تماما عن برلين الشرقية وعن أراضى ألمانيا الديمقراطية ويمتد مئات الكيلو مترات . ومرة أخرى التهب الجو ووضعت القوات على الضفتين فى حالة استنفار كامل وتبادلت ألمانيا الغربية والشرقية ومن ورائهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الاتهامات والإنذارات . .

فالغرب يقول إن بناء السور انتهاك صارخ لاتفاقية بوتسدام وفرض حصار على المدينة بقصد احتوائها والاستيلاء عليها . .

والشرق يقول إن برلين الغربية تقع وسط أراضى ألمانيا الديمقراطية التى تحيطها من كل جانب وإن من حق الأخيرة كدولة مستقلة ذات سيادة أن تحمى حدودها بشكل واضح ضد عمليات التخريب والاستنزاف التى يقوم بها الغرب من خلال هذه القلعة الرأسمالية المتقدمة فى أعماق المجتمع الاشتراكى . .

وبالرغم من صيحة الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت روبرت كينيدى . . وبالرغم من كل التهديدات والإنذارات وبعض الإجراءات المشحونة والانفعال الغاضب . . إلا أن الأزمة حوصرت فى هذا الإطار، إذ لم يكن هناك من هو على استعداد لإشعال نيران حرب عالمية جديدة من أجل مدينة ألمانية حتى ولو كانت برلين . .

وقد ظل هذا الوضع الخاص والمتميز لتلك القلعة الرأسمالية المتقدمة فى أعماق المجتمع الاشتراكى وحتى يومنا هذا، وإن كان قد فقد الكثير من الإثارة والسخونة والتوتر، وخاصة بعد مجموعة الاتفاقات التى عقدت فى أوائل السبعينيات بين

الألمانيتين والتى أدت إلى اعتراف كل منهما بالأخرى ودخولهما للأمم المتحدة، وكذلك الاتفاقيات التى أجرتها ألمانيا الغربية مع الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا وبولندا والتى اعترفت فيها بالحدود التى أسفرت عنها الحرب العالمية الثانية باعتبارها حدودا دولية بعد أن ظل كونراد أديناور المسيحى الديمقراطى المتعصب أول مستشار لألمانيا الغربية يرفض وفى عناد غريب طوال الخمسينيات والستينيات الاعتراف بالأمر الواقع . .

وقد كان من الطبيعى أن تنعكس سياسة الوفاق والتعايش بين الألمانيتين على الوضع فى برلين الغربية التى ظلت محتفظة بطابعها «كوحدة مستقلة» مع اعتراف الجانب الآخر بشكل من أشكال الإشراف الإدارى لألمانيا الغربية . .

إلا أن برلين الغربية ظلت، وحتى اليوم، تلعب دورا خطيرا وبشكل خاص فى العلاقات الدولية وفى العلاقات بين الألمانيتين .

أحد هذه الأدوار أن عمدة برلين الغربية يعتبر من الناحية العملية المرشح الأول لتولى منصب الرئيس أو المستشار فى ألمانيا الغربية كلها . .

وقد حدث ذلك فى أواخر الستينيات حتى انتخب ويللى براندت عمدة برلين ورئيس الحزب الاشتراكى الديمقراطى مستشارا لألمانيا الغربية وقاد دفة الأمور فى اتجاه الوفاق مع الشرق فيما عرف بعد ذلك بسياسة الأوستن بوليتيك . .

كما حدث فى أوائل الثمانينيات حين انتخب ريشارد فون فايتسكه عمدة برلين فى السبعينيات، رئيسا لجمهورية ألمانيا الاتحادية . .

أى أن برلين الغربية تحولت إلى المطبخ الأساسى لإخراج القادة من ألمانيا الغربية كلها . . ومن الناحية الأخرى فإن برلين الغربية التى كانت تمثل إزعاجا شديدا لألمانيا الديمقراطية ولدول المعسكر الاشتراكى كله طوال الخمسينيات والستينيات باعتبارها مركزا للتجسس والتخريب داخل أراضيهم قد أصبحت مرتعا خصبا تمارس من خلاله ألمانيا الديمقراطية سياسة دولية فى الوجود النشط بل وحتى الاحتواء . .

وتحس أن إسرائيل الألمانية كما وصفها لى أحد الصحفيين فى ألمانيا الديمقراطية فى الستينيات مشبها إياها بالوجود الإسرائيلى داخل الكيان العربى، قد أصبحت بمثابة أرض محايدة "يطل فيها الشرق على الغرب" ومركز للتفاعل والحوار وأحيانا للضغط وزيادة الدخل وعقد الصفقات . .

أى أن مركز الانفجار والتوتر قد تحول إلى رئة صحية للتنفس المزدوج بين المعسكرين. حتى إنه يقال اليوم إنه لو لم يكن هناك برلين الغربية لسعت ألمانيا الديمقراطية إلى خلقها. . ثمة دور آخر متميز لتلك المدينة إذ تعتبر أكبر مركز صناعى وتجارى فى ألمانيا الغربية رغم أن أقرب مدينة ألمانية غربية لها تبعد بما لايقل عن ٢٥٠ كيلو متر. . وقد اكتسبت برلين الغربية هذه الوضعية نظرا لاهتمام الولايات المتحدة والدول الغربية بشكل عام على أن تكون القلعة المتقدمة فى عمق الأراضى الاشتراكية مرآة نموذجية لما يمكن أن يقدمه المجتمع الرأسمالى، وقد أمكن التغلب على عزلتها الجغرافية بشبكة واسعة من الطرق والسكك الحديدية وبشبكة طيران مكثفة وصلت إلى درجة أن مطار تيجيل فى المدينة يستقبل ويودع طائرة كل دقيقتين. .

الوجه الثالث البارز لتلك المدينة أن الجيوبوليتك «أو الجغرافيا السياسية» قد جعلتها مركز جذب خطير لنشاطات دولية متعددة ثقافية وسياسية وأمنية وتهريبية، يزدهر على أرضيتها الكوزموبوليتايية نشاطات إبداعية فكرية وأدبية وفنية جنبا إلى جنب مع مراكز المخابرات والتجسس العالمى للدول الكبرى بشكل عام ومركزا دوليا لتهريب المخدرات من جميع الألوان والأصناف. . كما جذب لها ذلك الوضع أيضا مئات الآلاف من المهاجرين والنازحين بحثا عن عمل أو عن دور أو هروبا من اضطهاد أو سعيا لخلق بؤر للنشاط الثورى أو الإرهابى. .

فمن بين سكان المدينة التى يبلغ تعدادهم حوالى ٢,٥ مليون هناك حوالى ٢٥٪ من الأجانب غالبيتهم العظمى ممن يطلق عليهم «العمال الضيوف». . نصفهم جاءوا من تركيا منذ أواخر الأربعينيات والخمسينيات وأقاموا أحياء بأكملها على النمط التركى فى أسلوب الحياة والمعيشة والسكن وحتى أسماء الشوارع. .

يليهم اليوغسلاف والأسبان والإيطاليون الذين جذبهم الازدهار المبكر للمدينة فى أعقاب الخراب الشامل الذى خلفته الحرب العالمية، وفرص العمل الواسعة المتاحة. .

وفى السبعينيات بدأت تزداد الهجرة العربية التى تكونت فى البداية من عشرات الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين الذين قامت الحرب الأهلية اللبنانية بدور عامل الطرد الأساسى لهم ثم لحق بهم المصريون وبشكل مكثف منذ منتصف السبعينيات مع بضعة ألوف محدودة من عرب شمال إفريقيا. .

والغالبية العظمى للعمال الأجانب، حتى من قضى منهم سنوات طويلة، يعيشون على هامش المجتمع فى المدينة ويقومون بالأعمال اليدوية الصغيرة التى كف الألمان منذ فترة طويلة عن القيام بها مثل أعمال النظافة والحراسة والخدمة فى الفنادق والمقاهى ورصف الطرق . .

وحتى ذلك يتم فى إطار غير شرعى أى ما يسمى بالعمالة السوداء، مع انعدام وجود عقود عمل قانونية لهم، وبالتالى أى ضمانات أو تأمينات بحيث يسهل طردهم فى أى وقت وطبعا يتقاضون أجورا أدنى بكثير مما يتقاضى الألمانى عن نفس العمل . .

ويمارس الوافدون الجدد وسلطات المدينة لعبة «اللجوء السياسى» . .

فالوافد الجديد والذى يدخل المدينة دون تأشيرة دخول يقدم طلبا للإقامة للسلطات باعتبار أنه «لاجئ سياسى» ويعطيه هذا الطلب الحق فى الإقامة فى المدينة حتى تبت السلطات فى الأمر . . .

وعندما تزايدت موجات الهجرة العربية وخاصة الفلسطينية واللبنانية فى السبعينات أعدت السلطات معسكرات خاصة لهم يقيمون فيها بين شهر وثلاثة أشهر ويتعرضون فيها لاختبارات عدة تدخل فيها اعتبارات أمنية وسياسية كثيرة . .

وعلى ضوء هذه الاختبارات ومدى التقدير لنوعية المهاجر واستعداداته للتفاهم يتم اتخاذ القرار، إما بقبول الطلب الخاص باللجوء مجرد قبول الطلب وإما الطرد . .

وقد كان هذا فى واقع الأمر أول موضوع أرسله لصحيفة الوطن العربى فى باريس بعد أن رأيت واختلطت بعدد من الفلسطينيين واللبنانيين الضائعين فى المدينة والذين وقع بعضهم فى براثن أجهزة الاستخبارات الأجنبية بما فى ذلك الموساد نفسه . .

وهكذا تكونت بابل الجديدة . .

وتجاورت واختلطت الأجناس بشكل واضح مثلما تجاوزت واختلطت المهام . .

ففى قلب المدينة تجد مبانى جامعة برلين الحرة التى تعتبر أحد معاقل الفكر الثورى فى أوربا كلها والتى تحتضن حركات التحرر العالمى ابتداء من قضية فلسطين وجنوب إفريقيا حتى ثوار تشيللى وجرينادا . .

وإلى جوارها وفى وسط المدينة أيضا مراكز الاستخبار الأمريكية والإسرائيلية وجنوب إفريقيا والتى تنتشر فى المدينة كلها وبشكل مكثف . .

وهناك قاعات الفيللى هارمونى والمسارح الكبيرة التى تقدم أعمال بريخت وشيللر وجوته وشكسبير وسارتر وماكس فريش ودورنمات وملاصق لها قاعات «العروض الجنسية الحية» ومسارح المتعة وبيوت البغاء العلنى . .

ويطل عليها المتحف المصرى العريق فى برلين والذى يضم آلاف القطع الأثرية النادرة بما فى ذلك رأس نفرتيتى الشهير . . وعلى أطرافه تنتشر مقاهى الشواذ جنسيا ومحترفى تهريب المخدرات والأسلحة والبشر .

وتمضى فى شارع «الكودام» مأخوذا مبهورا بالحياة المتألقة على الجانبين ، ذلك الشارع الذى كان يريده هتلر أن يكون أجمل شارع فى العالم يتفوق على الشانزليزيه فى باريس «وفيا فينيتو» فى روما . .

ثم تعرج على ميدان المحطة والكنيسة المهدمة لترى عشرات السكارى المترنحين أو النائمين على الأرصفة ، المئات ممن يمكن أن يطلق عليهم "سقط المتاع" من بلطجية ونصابين وقوادين ونساء التهبت عيونهن وتعرت أجسادهن يتعاركن أو يتعاشقن على قارعة الطريق وتضطر أن تهرول وأنت تضع يدك على أنفك حتى لا يصيبك رذاذ من معاركهن أو رائحتهن . .

وقد كان على أن أطرق أبواب بابل الجديدة فى بعض الأحيان يوميا . .

فقد أدركت ومن الأيام الأولى أننى ككاتب وكصحفى وكإنسان لا يمكن أن يكتفى بالفرجة على هذا العالم الآخر فى زيارات متقطعة بين الحين والحين . .

وذهبت إلى مركز اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية أقدم طلبا لاعتمادى كمراسل للجمهورية وروزاليوسف والوطن العربى ، ويضم هذا الاتحاد أكثر من ١٥٠ مراسلا يمثلون تقريبا كل الصحف ووكالات الأنباء وأجهزة الإذاعة والتليفزيون فى جميع أنحاء العالم من نيويورك تايمز حتى البرافدا ومن بى . بى . سى حتى أيرلندا الحرة . .

بل إنى عرفت بعد ذلك . . أن هذه الصحف ووكالات الأنباء العالمية تختار أفضل مراسليها للعمل فى برلين الغربية وهو أمر طبيعى ومفهوم للمكانة العالمية الخاصة التى تحتلها أورشليم الجديدة حيث يعيش يهوذا ويسوع . .

وقد أتاحت لى عضويتى فى اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية ، بالإضافة طبعا إلى عملى كمراسل فى برلين الشرقية التى أقيم بها ، فرصة ذهبية نادرة لأكون فى مركز الأحداث الساخنة والمتفاعلة على حدود التماس ليس فقط بين الدولتين الألمانيتين ، بل وبين المعسكرين الشرقى والغربى . .

واعتقد أننى أول صحفى غير أوربى يحقق هذا التزاوج الصحى والغنى فى عمله وحركته، ففى كثير من الأحيان كنت أحضر مؤتمرا صحفيا فى برلين الشرقية صباحا وآخر فى برلين الغربية بعد الظهر أو مساء وفى بعض الأحيان كانت تضطرنى ظروف العمل أن أعبر بوابات الحدود مرتين أو ثلاثة فى اليوم.

ولابد أن أعترف أن هذا الوضع كان ومازال واحدا من أهم الخطوط المؤثرة فى حياتى التى وسعت وعمقت بدرجة كبيرة استعدادى الدائم للتفتح على أية أفكار جديدة والحوار معها خارج الأطر التقليدية وبعيدا عن أى جمود أو مقولات سلفية.. فقد كان معروضا ومطروحا أمامى كل يوم نمط الحياة بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والفكرية فى الشرق وفى الغرب أعايشها وأراقبها وأتحاور معها أتعاطف مع بعضها وأنفر من بعض مظاهرها دونما انحياز أو تعصب سابق ومفروض..

كنت ألتقى مثلا صباح أحد الأيام بهرمان كانت رئيس اتحاد الكتاب وواحد من أهم كتاب القصة المعاصرين فى ألمانيا الديمقراطية فى برلين الشرقية، وفى المساء أحضر ندوة فى جامعة برلين الغربية يحضرها جونترجراس ألمع كاتب فى ألمانيا الغربية، أو ألتقى بالرفيق لامبرز عضو المكتب السياسى للحزب الاشتراكى الألمانى الموحد وهو الحزب الحاكم فى ألمانيا الديمقراطية، وفى نفس اليوم قد يكون هناك موعد آخر فى برلين الأخرى مع فرانز جوزيف شتراوس رئيس الحزب المسيحى الاجتماعى ورئيس وزراء بافاريا فى ألمانيا الغربية.. أو مع فيللى براندت رئيس الحزب الاشتراكى الديمقراطى ومستشار ألمانيا الغربية السابق. هذا الانتقال اليومى الغنى والمتنوع والذى لا يمكن أن يتاح لك إلا فى بلد كبرلين يركز لك عصارة الواقع العالمى الراهن بمعسكريه فى بوتقة صغيرة أو قل من خلال عين سحرية نادرة..

ولما كنت واحدا من المراسلين القلائل المعتمدين فى ضفتى برلين والوحيد من دول العالم الثالث، فلقد كان من الطبيعى أن أدرك، وبتلك الحساسية الخاصة التى نمت وتطورت عندى من خلال حياتى السياسية والاعتقالات والملاحقات، أننى موضوع تحت الملاحظة والرقابة المتصلة وخاصة فى المراحل الأولى، كنت أشم دائما من هو ورائى، وإن اختلفت العطور والروائح من الشرق والغرب..

وذات يوم كنت عائدا من لقاء مع فون فايتسكه عمدة برلين الغربية فى ذلك الوقت نظمه اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية وقاربت بوابة شارلى حين سمعت ذلك الصفير المزعج والمتلاحق لعربة بوليس من خلفى، وتوقفت وجاء أحد رجال البوليس وأعطيته أوراق العربة ورخصة القيادة متصورا أن هناك خطأ ما قد ارتكبته

بالنسبة لقواعد المرور . . ولكن رجل البوليس قال فى صوت آمر وجاد :

- جوازك . .

وأعطيته الجواز الذى أخذ يقلب فيه لحظة ثم قال :

تفضل ، انزل من العربة وتعال معى . . .

- إلى أين؟

- مركز البوليس :

- لماذا؟

- ستعرف هناك . . .

لم يترك فرصة لاحتجاجى وانفعالى الذى كان أغلبه بالعربى وقليله بلغة ألمانية مكسرة وركيكة ، وفتح باب العربة وأمسك بذراعى فى شكل المقبوض عليه .

كان وجه الجندى الجامد ونظرته الحادة وشاربه البسماركى قد أصبح مألوفا لدى وحين رفع يده يحيينى وهو يقبض على ابتسمت وأنا أتذكر ما قالته لى من أيام فتاة ألمانية وهى غارقة فى الضحك مشيرة إلى أحد رجال البوليس الذى كان يقف كتمثال أمام إحدى البنايات .

- انظر . . إنه كالدمية ولكنه سعيد للغاية . . فالبروسى الحق لا يجد نفسه إلا فى بدلة الجندى . .

أخذنى الرجل فى عربة البوليس حتى كوخ شتراسا حيث المركز الرئيس للبوليس فى برلين الغربية وقادنى إلى الدور الثالث وسط ردهات وصالات وتعرجات هذا المبنى الكبير والذى كان ممتلئا ويعج بالمئات بل والآلاف من البشر غالبيتهم من الأجانب . .

وتوقف بى أمام إحدى الغرف ، ولأول مرة يتكلم منذ أن ألقى القبض على طالبا منى أن أنتظره فى الخارج ، ودخل الغرفة . .

كنت طوال تلك الفترة أجهد ذهنى فى محاولة لفهم ما يحدث . . أى خطأ يمكن أن يكون قد ارتكبته . . وأحسست أننى تماما مثل "جوزيف ك" ذلك الرجل الذى وجد نفسه فى يوم من الأيام متهما فى قضية لا يعرفها مثلما صوره كافكا فى رواية «القلعة» و"التحقيق . . " ولما لم يكن هناك ما قلق بشأنه ، أقنعت نفسى وببساطة أن هناك خطأ ما سرعان ما ينكشف ويتضح . .

وفتح باب الغرفة وأشار لى الشرطى بالدخول، ووجدت نفسى فى مواجهة رجل مدنى قدم نفسه على أنه المسئول عن الأجانب، كان الرجل بدينا ملتحيا يرد على التليفونات الكثيرة التى ملأت مكتبه بصوت رفيع حاد منفعل ذكرنى على الفور بصوت جوبلز وزير دعاية هتلر وبادرنى وهو يقلب صفحات جواز سفرى بعصبية . .

- كيف دخلت إلى برلين الغربية؟

- إننى صحفى معتمد هنا . .

وقدمت له بطاقتى الصحفية الصادرة عن اتحاد الصحفيين الأجانب ولم يعرها التفاتا مما يؤكد أنه كان يعرف ذلك سلفا وواصل حديثه وبنفس اللهجة الجادة :

- ليس لديك تأشيرة إقامة فى ألمانيا الغربية .

قلت وأنا لا أفهم حتى الآن ما يهدف إليه :

- إننى صحفى أقيم فى برلين الأخرى فى ألمانيا الديمقراطية وعندك فى الجواز ما يدل على ذلك . كما أننى معتمد هنا أيضا كمراسل ولى الحق فى ذلك، لأن برلين الغربية لها وضع خاص، قال منفجرا فى انفعالات موجهة بدقة وموزعة على صوته ووجهه :

- إن برلين الغربية جزء من ألمانيا الغربية لابد أن تعرف ذلك جيدا ولا يحق لك الدخول هنا بدون تأشيرة . . لن أضيع وقتى معك . . المسألة ليست فوضى . . وبصم جوازى فى عصبية بخاتم أحمر كبير . .

ثم أعطى الجواز للجندى وهو يردد فى ضيق شديد :

- هؤلاء الأجانب!!!

قلت وقد أحسست بخطورة الإجراء الذى اتخذه الرجل :

- ماذا فعلت . . ماذا يعنى هذا الخاتم؟

قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تشف غريبة، وبألفاظ يقولها فى تأن وكأنما سيصدر حكما على قاتل أبيه . . .

- يعنى أيها الأجنبى العزيز، أنك شخص غير مرغوب فيه هنا وأن عليك أن تغادر برلين الغربية فورا ولا تعود إليها بأية حال من الأحوال . . أفهمت . . اتفضل .

وسحبنى الجندى من يدى مأخوذا ومذهولا وأنا أردد كلمات متقطعة . . أرجوك . . يبدو أن هناك . . مش ممكن . . ولكن بدا واضحا أن الرجل والجندى كانا يعلمان جيدا ماذا يفعلان ويصران عليه .

وفى دقائق كان الجندى قد أوصلنى بعربة البوليس إلى بوابة شارلى القريبة . . ولم يكن أمامى سوى أن أعبر البوابة إلى برلين الشرقية حتى دون أن أتذكر أننى تركت عربتى فى أحد الشوارع فى الغرب . .

رميت بنفسى على أول كرسى فى مقهى فى شارع ليبزج وأنا أحاول أن ألملم شتات نفسى وأسترجع ما حدث، وكلما وقع نظرى على ذلك الخاتم الأحمر الذى ملأ صفحة كاملة فى الجواز وأعيد قراءة ما هو مكتوب أسارع بغلق الجواز ويغلى الدم فى عروقى . . ويمر شريط الأحداث فى ذهنى مثل حلم مزعج ويتجسد لى وجه ذلك الألمانى البوليسى فى أشكال غريبة نابضة بالكراهية والتشفى . .

ما معنى هذه الكلمات الحمراء المشينة . . عاجل . . غير مرغوب فيه . . يغادر برلين الغربية فورا . .

لقد جئت إلى برلين الغربية عشرات المرات ولم يتعرض لى أحد، بل إننى ومنذ شهر اعتمدت كمراسل أجنبى فيها . .

كتبت بالفعل أول موضوع لى عن العرب فى برلين الغربية هل يمكن أن يكون ذلك هو سببا لطردى بهذا الشكل المهين . .

وهل أمثل خطرا حقيقيا على الوضع فى برلين الغربية لأطرد منها . . وفورا . .

هل وراء ذلك العداء التقليدى الألمانى- وخاصة البوليس- للأجانب والوافدين من العالم الثالث بشكل خاص . .

أم أن السيطرة والنفوذ الصهيونى فى المدينة وراء ذلك . . ولكن لماذا أنا بالذات؟!

هل يمكن أن يكون هناك خطأ ما من جانبى أو جانبهم . . وانتبهت إلى تليفون فى ركن المقهى . .

واتصلت بالسفارة المصرية وسألت عن السفير فلم أجده فطلبت رءوف غنيم المستشار الأول، وحكيت له ما حدث فى صوت متهدج وفى شبه انهيار . .

وأبدى رءوف استغرابه الشديد فهو يعرف مثلما أعرف أن الدبلوماسيين الأجانب والصحفيين المعتمدين فى الشرق يقومون بزيارات شبه يومية إلى برلين الغربية فما بالك وأنا صحفى معتمد هناك أيضا . .

وأكد رءوف أنه سيتصل برئيس البعثة الدبلوماسية لألمانيا الغربية فى برلين الشرقية ليحتج على هذا التصرف ويطلب تفسيرا لذلك . .

ولمعت فى ذهنى فكرة، وطلبت من رءوف أن يؤجل هذا الاحتجاج حتى استكشف بنفسى الموقف. . فلقد كنت أعرف الهر جيس رئيس البعثة والتقيت به أكثر من مرة فى بعض الحفلات، وضعت السماعة واتجهت فورا إلى شارع فردريش حيث يقع «البيت الألمانى الأبيض» مثلما يطلق عليه سكان برلين الشرقية وهو مقر البعثة الدبلوماسية لألمانيا الغربية. .

وطلبت أن ألتقى بالهر جيس وهو بمثابة السفير، وإن كان يطلق عليه الممثل فوق العادة لجمهورية ألمانيا الفيدرالية فى ألمانيا الديمقراطية. . وهى تسمية اتفق عليها الطرفان الألمانيان كبديل عن تبادل السفراء. .

استقبلنى الرجل فى مكتبه، وقد كان معروفا عنه دماثة الخلق إضافة إلى أنه يعتبر واحدا من أهم الكوادر السياسية للحزب الاشتراكى الديمقراطى الحاكم فى ألمانيا الغربية وأحد المقربين إلى هيلموث شميت مستشار ألمانيا الغربية، واستمع إلى حكايتى ولاحظ بالتأكيد انفعالى رغم أنى جاهدت فى أن أكون هادئا ومتماسكا. . وقد سألنى وقد بدا على وجهه اهتمام واستنكار لما حدث:

– هل تعرف هذا الرجل؟

– شخصيا لا. . ولكنه قدم نفسه على أنه المسئول عن الأجانب أو مدير إدارة الجوازات والهجرة. . شىء من هذا القبيل. .

وأخرج الهر جيس تليفونا خاصا من أحد الأدراج فى مكتبه غير تلك التليفونات المتراصة أمامه، وطلب أحدهم فلم يجده ثم طلب رقما آخر. . وكان على الطرف الآخر فيما يبدو شخصية مهمة للغاية. . والتقطت من حديثه الطويل الذى اتخذ طابع الحدة بعض الشىء أنه يروى حكايتى ويؤكد أن هناك غلطة كبيرة فى حقى وأنه يعرفنى كواحد من أنشط الصحفيين ويطالب بتصحيح الأمر فورا. .

ثم قال وهو يضع السماعة وفى ابتسامة ودودة. .

– أنا آسف جدا يا هر فتاح لما حدث. . يمكن أن تذهب فورا إلى برلين الغربية. . إن الرئيس العام للبوليس فى انتظارك هناك لتصحيح الخطأ وستنال حقك تماما. . اطمئن. . وقبل أن أنطق بكلمات اهتزت لها شفتاى قال:

– كنت أود أن آتى معك لولا موعد وشيك فى الخارجية هنا ولكنى سأرسل معك المستشار الأول. . أرجو أن تعذرنى. . وتصافحنا فى مودة حقيقية.

وركبت مع مستشار البعثة عربة الليموزين السوداء وعبرنا البوابة، وفى دقائق كنا

فى مكتب رئيس البوليس وهو الشخصية الثانية فى برلين الغربية بعد عمدة المدينة وذلك فى الدور الرابع لمبنى البوليس المركزى فى كوخ شتراسا.

نفس المبنى الذى طردت منه شر طردة منذ ساعة.

واستقبلنا الرجل بترحاب شديد وبود بالغ وقال وهو يضع يده فوق كتفى:

- إذن فأنت صديقنا المصرى المجنى عليه.. وضغط على زر فى مكتبه وجاءت سكرتيرته الحسناء وطلب منها إحضار الهر.. مدير إدارة الجوازات..

ودخل الرجل مهرولا وهو يمر بيديه على أزرار الجاكيت..

وحالما لمحنى اتجه نحوى فورا فى انحناءة ذليلة، أى والله ذليلة وفى صوت مستعطف مستضعف ذكرنى ببعض النماذج الفجة لمديرى مكاتب الوزراء ورؤساء مجالس الإدارات عندنا..

- أنا آسف.. آسف جدا يا هر فتاح لما حدث.. لقد ارتكبت جريمة شنعاء فى حق رجل شريف اعذرنى، فالعمل كثيف عندنا، عشرات الآلاف كل يوم تصور!!.. حدث سوء فهم فظيع أرجو أن تغفر لى هذا الذنب.. إننى تحت أمرك وعلى استعداد لأن أعوضك بالشكل الذى تريده.. إننى..

سيل من الاعتذارات المذلة الخانعة لرجل كان يعاملنى ومنذ ساعة واحدة مثلما يعامل السيد الأبيض فى جنوب إفريقيا عاملا أسود فى مناجم الفحم أو مثلما عامل نيرون عبيد روما الثائرين.. وتحول الأسد المتعصب القادر إلى ثعلب يتماوت فى أرض الغرفة، بل إلى فأر صغير يثير الشفقة والرثاء وهو يرتعد أمام قط كبير..

وأنهى رئيس البوليس هذا الموقف الذى أثار سخريتى وتقززى بأمر حازم لمرءوسه الصغير:

- خذ جواز الهر فتاح، وأعطه إقامة لمدة عام فى ألمانيا الغربية تتجدد تلقائيا مع استمرار عمله كمراسل صحفى

واستغرق اللقاء كله حوالى النصف ساعة عاملنى فيها رئيس البوليس كما لو كنت ممثلا فوق العادة للشعب المصرى مع تأكيد بأن مكتبه مفتوح دائما لى فى أى وقت، الأمر الذى أعاد ترتيب الأمور بشكل رائع فى أعماقى وأزال تماما آثار العدوان والصدمة الداخلية التى لم يكن قد مضى عليها وقت طويل.. بل إننى قد حققت فى واقع الأمر مكسبا كبيرا لم يكن يخطر لى على بال ولم أطلبه.. فلربما أصبحت من

بين الصحفيين الأجانب فى البرلينيتين الذى يملك إقامة دائمة فى الألمانيتين شرقا وغربا . . وقبل أن يودعنى الرئيس على باب غرفته ، قلت له :

- ماذا كان يعنى ذلك الخاتم الأحمر الذى ألغى . . وضحك الرئيس فى استغراق قائلا :

: - كان يعنى أنك واحد من اثنين ، إما مهرب دولى كبير ، أو إرهابى خطير . . وقد كان ذلك يعرضك للقبض عليك فى أية دولة من دول السوق الأوروبية المشتركة . .

ووجدتنى أصرخ فى انزعاج وبدون وعى :

- يخرب بيتك . . . . !!

[٤٠]

ضحكة ضائعة.. طقس كاذب جارف وجميل
حفل راقص وبدون راقصين وبدون ترانيم وبلا
جدوى

لويس اراجون - العيد

نوفمبر سنة ١٩٧٧

مرة أخرى وفى عام واحد . . تقطع قنوات التليفزيون الألمانى والتليفزيون الأوربى برامجهما لتعرضا أحداثا عن مصر . . ويتجمع الناس فى برلين حول أجهزة التليفزيون ليروا من خلال عرض حى مباشر بالأقمار الصناعية زيارة الرئيس المصرى أنور السادات لإسرائيل . .

بدأت الحكاية بكلمة لم ينتبه إليها أحد، ثم توالت التكهنات التى كانت تأخذ أحيانا شكل الحواديت ثم أصبحت وفى خلال يومين فقط حقيقة واقعة . . وتحس أنك أمام مؤلف مسرحى قادر ومتمكن درس كل قوانين المسرح وتطوراته منذ أرسطو حتى أشكال مسرح اللامعقول وأحيانا الفارس . .

والممثل البارع والذى يقوم بدور الفتى الأول ماثل أمام عيون العالم كله يؤدى دورا فريدا ومتميزا . .

والممثلون الآخرون مناحم بيجن وعزرا وايزمان وجولدا مائير يقفون على سلم الطائرة ليتكامل واحد من أهم الأحداث التاريخية على الأقل فى النصف الثانى من القرن العشرين . وهو حدث تاريخى ولاشك ومسرحى أيضا . .

ولكن القضية هى إلى أى لون أو جنس يمكن تصنيفه، فالأحداث التاريخية المهمة مثلها مثل الأعمال المسرحية فيها التراجيديا المأساوية وفيها الكوميديا الإنسانية وفيها

أيضا «الفارس» أو المسرح المبتذل، ولاشك أن الإجابة على كل هذا ليست فى يد الممثل الأول ولا حتى بقية الممثلين . .

فلقد كان هناك وراء كل هذا مخرج محترف وكاتب سيناريو يتقن صنعته من هو؟ . .

منذ أيام فقط وقف الرئيس أنور السادات فى مجلس الشعب المصرى ليعلن فى خطاب افتتاح الجلسة وبحضور ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أنه على استعداد أن يذهب إلى إسرائيل بحثا عن السلام العادل فى الشرق الأوسط . وأيقن كثيرون حتى أكثر الناس تشككا فى سياسة السادات أنها مناورة بارعة لتأكيد السعى الحقيقى للسلام وإظهار إسرائيل بمظهر الدولة المعتدية والمتعنتة . . حتى وزير الإعلام فى ذلك الوقت حذف الجملة حين أعيدت إذاعة الخطاب فى نفس اليوم ثم تطورت الأحداث فى شكل موجات من الصدمات الكهربائية المتلاحقة والسريعة مرسومة جيدا وبإتقان تخللها رحلتان مكوكيتان للرئيس السادات لدمشق وعمان لتبدأ أحداث المأساة أو الملهاة أو الفارس أو سمها مثلما شئت . . لكنها ورغم كل شىء حدث تاريخى . .

يعلن رسميا أن السادات قرر زيارة إسرائيل يستقيل وزير خارجية مصر، وينفجر الخبر قنبلة متوهجة فى جميع الصحف ووكالات الأنباء والإذاعات العالمية . . وأخيرا تصل الطائرة إلى مطار اللد «بن جوريون» فى إسرائيل وها هو الرئيس مصطحبا معه سيدة مصر الأولى ورجل أعمال مصر الأول يهبط سلم الطائرة . . ويدق التليفون، الصديق عادل الجيار من برلين الغربية :

– هل ترى ما أراه . .

– طبعا . . أرى كل شىء بوضوح

– على أى قناة

– كل القنوات عندى ممتلئة به

– انظر إليه جيدا . . ألا تلاحظ شيئا من القلق والرهبة على وجهه

– ما رأيك فيما يجرى؟

– هل هذا وقت الرأى دعنا نرى ما يحدث

ويتقدم السادات يصافح رئيس إسرائيل ثم مناحم بيجن الذى يقدمه إلى جولدا مائير وموشى ديان . .

ويدق التليفون، هذه المرة من باريس، يقول أمير إسكندر:

- هل سمعت ما قاله لجولدا مائير عندما جلجلت ضحكته، أنا لم أسمع بوضوح.

ويصافح السادات إسحق رابين وعزرا وايزمان ويدور حوار سريع..

ويدق التليفون، هذه المرة من موسكو، ويصيح عبدالملك خليل:

- إنى أتابع من خلال الراديو، تليفزيون موسكو لا يذيع الزيارة على الهواء. هل كل شىء واضح عندك.. قل لى كيف يبدو السادات.. هل يبتسم، هل هو متجهم.. هل يبدو عليه القلق.

- بعدين يا ملك.. بعدين يا ملك الزمان

هكذا ولمدة يومين شاهد العالم كله وتابع سواء بشغف وسعادة أم بهموم وتوتر ذلك الحادث التاريخى المسرحى الحى المتحرك.. السادات فى القدس، يصلى فى المسجد الأقصى يخطب فى الكنيست الإسرائيلى..

كل الصحف والإذاعات وقنوات التليفزيون فى أوربا لا هم لها إلا تغطية أحداث هذه الزيارة..

والعناوين الكبيرة مثيرة فى الصحف الغربية «السلام على أرض الأنبياء» «أخيرا التقى فرعون وموسى» «لقاء تاريخى لأقدم حضارتين»..

وصور السادات وسيدة مصر الأولى فى كل مكان.. ومعهما مناحم بيجن وجولدا مائير وموشى ديان وحاييم هرتزوج وعزرا وايزمان..

قلت للسفير المصرى ونحن نتابع خطاب السادات فى الكنيست فى منزله فى برلين:

لعلها المرة الأولى التى تحتل أخبار مصر وتحركات رئيسها العناوين الرئيسة فى أجهزة الإعلام الأوربى ولعدة أيام متوالية..

قال السفير أبوجبل فى هدوء:

- حدث ذلك من قبل مرتين.. حينما أمم عبدالناصر قناة السويس وأثناء العدوان الثلاثى على مصر..

واستدرك فى ابتسامة هادئة:

- مع الفارق طبعا..

كان خطاب السادات- وبغض النظر عن ملابسات الزيارة- قويا ومتماسكا صاغه من صاغه فى عبارات دقيقة استهدف به مخاطبة العقل الأوربى . . دافع فيه عن الحقوق المشروعة لشعب فلسطين وعن مفهوم السلام الشامل والعادل . . ووضح فكرة الأرض مقابل السلام وهاجم فكرة البحث عن حل منفرد بين مصر وإسرائيل، قال إنه لم يأت لإسرائيل من موقع الضعف وإن قرار السلام ربما كان أخطر من قرار الحرب . .

لكن بيجن لم يترك له الفرصة حتى فى بناء الأحلام . . جاء خطابه حادا ومحدداً عبر فيه وبشكل مباشر عن روح المنتصر، وهو يستقبل عدوا مهزوما جاء يطلب الصلح فالضفة الغربية وقطاع غزة هما يهودا والسامرا، وعلى من يريد السلام أن يأتى ليجرى حوارا مباشرا . . وبدون شروط . . وعلى عكس صورة البطل والفارس ورجل العصر التى كانت تضفيها أجهزة الإعلام الغربية على السادات، كانت هناك صفات أخرى تنهال عليه من كل العالم العربى . . الخائن . . العميل اليهودى . . ويهوذا . .

وتبرأت كل الأنظمة العربية من الزيارة، حتى المغرب والسعودية اللتين كانتا فيما يبدو لهما دور فى المراحل التمهيدية للإعداد لهذه الزيارة سواء من خلال اللقاءات السرية التى تمت فى المغرب مع موشى ديان وزير الخارجية آنذاك وبحضور ممثلين مسئولين مصريين أو الدور الخاص الذى لعبه الملياردير السعودى عدنان خاشقجى فى إعداد لقاءات فى قصره الأسطورى فى مايوريكا بإسبانيا .

وراحت السكرة وجاءت الفكرة . . وماذا بعد؟

فالزيارة نفسها وعلى قدر ما أثارت من ضجة عالية، لم تسفر عن شيء على عكس كثير من التوقعات والتحليلات . . اللهم إلا إعلانا تقليديا عن تبادل الزيارات واستمرار الحوار . .

ومناحم بيجن أعلنها بوضوح فى أول تصريح له بعد الزيارة أنه ليس على استعداد لأن يبيع أمن إسرائيل ! ! مقابل زيارة مثيرة وعاطفية . . فالأمر ببساطة أن السادات طلب زيارة إسرائيل فاستقبلناه . . وبدون شروط . . أما السادات نفسه فقد أعلن أنه قام بهذه الزيارة لكسر ما أسماه بالحاجز النفسى بين العرب وإسرائيل، وإن فكرة الزيارة قد لمعت فى ذهنه مثل الوحى وهو فى الطائرة على ارتفاع أكثر من ٣٠ ألف قدم بعد لقائه مع الرئيس الرومانى شاوشيسكو . .

وأعلن البيت الأبيض استعداد الولايات المتحدة المشاركة والمساهمة فى دفع الحوار المباشر بين مصر وإسرائيل . .

فى حين حرصت كل الأنظمة العربية على إدانة الزيارة وغسل أيديهم من تبعاتها بما فى ذلك الأردن والمغرب وتونس والسعودية، وهو الأمر الذى كان لا يتوقعه الرئيس السادات فيما يبدو. . ولكن الحقيقة التى تكشفت بعد ذلك سواء من خلال مذكرات برجنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر أو سيروس فانس وزير خارجيته أسقطت أسطورة الوحى كما كشفت عن دور بعض الأنظمة العربية، وأكدت أن مهندس الوحى الساداتى وكاتب السيناريو للقفز فوق الحاجز النفسى هى الولايات المتحدة نفسها.

وفى ندوة نظمها اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية حول أهداف الزيارة ونتائجها كنت فيها ضيف الشرف قلت فيها ردا على عشرات الأسئلة التى أمطرنى بها الزملاء أعضاء الاتحاد والتى لم أكن فى واقع الأمر أملك إجابات لها. .

- إن القضية لم تكن أبدا وفى أى يوم من الأيام هى عدم الرغبة فى السلام. . فالشعوب العربية وبغض النظر عن أخطاء وأحيانا تواطؤ حكامها لم تكن بها أى مشاعر عنصرية أو حواجز نفسية كما زعم البعض، فلقد كان ومازال العالم العربى - ومصر على وجه خاص - نموذجا فى التعايش والتآخى الوطنى مع كثير من الأديان بمن فيهم اليهود وتحت شعار أخذ شكل التقديس فى مصر هو «الدين لله والوطن للجميع». .

ولكن القضية كانت ومازالت فى العدوان المرسوم والمتعمد والمستمر ليس فقط لمحو شعب تاريخى كامل مثل الشعب الفلسطينى، بل وإخضاع المنطقة كلها لقوى البغى والعدوان ولذلك فإنى اعتقد أن هذه الزيارة مجرد فصل أول فى عملية متكاملة لعبت وستلعب فيها أطراف دولية وعربية أدوارا محددة. .

وحين سئلت وما هو هذا الخطر الذى تراه وشيكا قلت وبلا تردد. .

عزل مصر عن المنطقة. .

كان هذا هو الشيء المؤكد الواضح فى ذهنى. . فبينما كان الجميع بمن فى ذلك المراسلون العرب فى الاتحاد - وقد كان هناك ستة منهم - يتساءلون عن إمكان إسهام هذه الزيارة فى إيجاد حل لمشكلة فلسطين وإنهاء الاحتلال الإسرائيلى للأرض العربية المحتلة، كان ذهنى يجرى وراء خيط رفيع أحسست به قبل أن أراه واضحا وتراقص أمامى وأنا أتابع الزيارة. . خيط أعادنى إلى ذكريات بدأت منذ نزول قوات نابليون بونابرت الإسكندرية منذ ما يقرب من مائتى عام. .

فمنذ ذلك التاريخ كان أى مخطط استعمارى فى المنطقة يستهدف إخضاعها لابد وأن يبدأ بالسيطرة على مصر. . وقد جاء ذلك نتيجة دراسات ووعى وإدراك من جانب

هذه القوى الاستعمارية بأهمية هذا الكيان الجغرافى والبشرى المتماسك تاريخيا وحضاريا ودوره فى تجميع شتات وأجزاء الكيانات الأخرى الصغيرة والمتفرقة فى المنطقة بأكملها . ولقد نبهت تجربة محمد على المبكرة فى إنشاء دول عصرية متقدمة على أرض مصر ثم توسيع قواعد الوحدة بين الكيانات العربية المجزأة حساسية مبكرة لدى قوى الغرب الاستعمارى وأكدت له تجارب الماضى حين فشلت كل غزوات العصور الوسطى على المنطقة ابتداء من الصليبيين حتى التتار والمغول لأنها فشلت فى إخضاع مصر . .

ولذلك اجتمعت أوربا كلها، والتى كانت متحاربة فيما بينها، لتضرب تجربة محمد على ولتلحق به الهزيمة فى نفارين وتعرض عليه معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والتى تنص بشكل واضح لا لبس فيه على أن تقبع مصر داخل حدودها وأن تنفض يدها من قضايا ومشاكل جيرانها . . وبعدها فقط عاش الاستعمار الأوربى فى المنطقة العربية فسادا وفرض سيطرته المطلقة ابتداء من عدن والخليج حتى تونس والجزائر . .

وعندما حاولت مصر نتيجة ظروف تاريخية معينة وأيام إسماعيل أن تعيد سيرة النهوض والتقدم وأسفر الموقف عن ثورة شعبية لبناء دولة عصرية تعتمد على العلم والدستور تدخلت القوات البريطانية بمباركة شاملة من الغرب الأوربى بما فى ذلك فرنسا التى كانت فى تنافس حاد فى ذلك الوقت مع الإنجليز . .

وقد تكرر ذلك مع تجربة عبدالناصر التى حاولت أن تبعث تجربة محمد على فى ظروف دولية متغيرة . أى أن ضرب وتصفية أية محاولة جادة للانبعاث على الأرض المصرية وعزلها عن المنطقة قد أصبح إستراتيجية دائمة لقوى الغرب الاستعمارى . .

كان ذلك هو الضوء الذى حاولت فى ظلاله أن أشرح زيارة السادات للقدس . . كان من الواضح أن الكثيرين من المراسلين لا يوافقوننى على ذلك أوعلى الأقل لم يستوعبوا ما قلته . الوحيد الذى أبدى تفهما لبعض هذه الآراء هو مراسل إذاعة ال بى . بى . سى ببرلين والذى سألنى هل يصح هذا القول مع بروز عدة دول نفطية تتمتع بثراء أسطورى فى المنطقة . . ؟!

قلت . . إن الحقبة النفطية التى نحن بصددها قد جعلت من هذا القول ضرورة . . أكثر . . ولربما أصبحت هناك حاجة مشتركة وملحة لدى الغرب ولدى البعض فى العالم العربى فى ضرورة عزل مصر وفى هذا الوقت بالذات . .

ولكن مراسلا عربيا كان يعمل فى الأصل ممرضا فى أحد المستشفيات الألمانية انتفض هائجا ثائرا وهو يقول :

إنهم دائما كذلك المصريون . . يتحدثون عن مصر وكأنها مركز الكون . . لقد انتهت مصر يا صديقى لابد أن تعرف ذلك .

ولم يكن المراسل أو الممرض العربى يدرك أنه حتى بكلماته المنفعلة كان يؤكد الهواجس التى كانت تدور فى ذهنى . .

* * *

وجاء خالد محيى الدين إلى برلين لحضور اجتماعات مجلس السلام العالمى ودعوت عددا من الأصدقاء المصريين العرب للقاء فى منزلى على شرف الضيف الكبير بمن فى ذلك السفير المصرى فى برلين الأستاذ صلاح أبو جبل وأعضاء السفارة فخالد محيى الدين ليس فقط القائد السياسى البارز فى مصر والعالم العربى وأحد أبطال ثورة يوليو ، بل إنه رئيس لحزب شرعى فى مصر هو حزب التجمع الوطنى . . واعتذر السفير عن عدم الحضور قائلا :

– كان المفروض أن أذهب إلى المطار لأستقبله فرئيس أى حزب فى مصر لابد وأن تكون له حيثية قومية ، والسفراء هنا يذهبون إلى المطار لاستقبال رؤساء أحزاب المعارضة . . كان بودى ولكنك تدرك الظروف ، لقد غضبوا على سفير مصر فى فرنسا لأنه استقبل محمد حسنين هيكل . . بلغه تحياتى الحارة وأيضا تقديرى .

وحضرت مجموعة من الأصدقاء أذكر منهم عبدالحكيم قاسم الكاتب القصصى وعادل الجيار الذى كان يعد رسالة الدكتوراه فى جامعة برلين الغربية ودكتور ناجى نجيب أستاذ الأدب المقارن فى الجامعات الألمانية ونبيل السلمى رسام الكاريكاتير المعروف ومصطفى هيكل المثقف المصرى الذى يعيش فى برلين وأخاه دكتور فتحى هيكل الأستاذ بالجامعات الألمانية وأحمد حسن الخبير بالمعهد القومى للتخطيط والذى كان يعد رسالة الدكتوراه فى الأكاديمية الاقتصادية ومنى الخميسى ، وكذلك عدد آخر من المصريين سواء العاملين أو الدارسين فى البرلينيتين الشرقية والغربية . .

وشرح خالد محيى الدين وجهة نظره ووجهة نظر التجمع فى أسباب ونتائج زيارة القدس ورفضه ورفض الحزب لهذه الزيارة وإدانته لها وأثار خالد فى رده على التساؤلات عدة قضايا منها :

* إن السادات بهذه الزيارة خرج على نصوص الدستور المصرى الذى يحرم أى اتصال بالأعداء بانفراده بالقرار فى قضية مصيرية كهذه ، كما أنه خرج على ميثاق الجامعة العربية .

* إن الجماهير المصرية التى خرجت تستقبل السادات لدى عودته من القدس

واقعة تحت تأثير ظروفها الاقتصادية والاجتماعية الحادة وتحت عملية تضليل واسعة النطاق حاولت أن تحمل القضية الفلسطينية والعرب بشكل عام أسباب المعاناة الاقتصادية التى تعايشها الجماهير إذ إن السلام يمكن أن يفتح الطريق لحل المشاكل والرخاء.

* إن التجمع هو القوة الوحيدة فى مصر التى أدانت الزيارة فى حين أن كل الأحزاب والقوى السياسية الأخرى إما أيدتها أو لم تفصح عن معارضتها الواضحة بما فى ذلك حزب الوفد الجديد والإخوان المسلمون، ولذلك ركز السادات أجهزة إعلامه فى الهجوم على حزب التجمع وجريدته بشكل خاص مستفيدين من عملية التضليل الواسعة وخلق أحلام كاذبة عن الرخاء وانتهاء المشاكل وأعطى خالد محيى الدين أمثلة من أشكال الهجوم الشخصى عليه والذى جاوز الحدود. .

وقد أحسست بصوت خالد يتهدج ويمتلئ بالتأثر العميق حتى خيل إلى أنى ألمح دموع التأثر المتحجرة فى عينيه وهو يعطى أمثلة من أشكال الهجوم الشخصى عليه والذى تمتلئ به الصحف والمجلات وأجهزة الإعلام بشكل عام عليه ويوميا. . وبعد انتهاء العشاء والجلسة قمت بتوصيل خالد بعربتى إلى فندق شتات برلين الذى يقيم فيه. .

قلت له وأنا أوصله إلى غرفته

- عاهدتك دائما مناضلا صلبا لا يلين حتى فى أصعب الظروف، لكن يبدو أن هذه المرة قد نجحوا فى إثارة أعصابك. .

وانفجر هذا الصديق الكبير الذى أحببته وعملت معه فى بداية عملى الصحفى فى جريدة المساء واختلفت أيضا معه بعد ذلك فى عدد من المواقف.

- نعم لابد أن أعترف، أنا. . . لا تتصور مدى هذه الحملة المسعورة التى تتجدد صباح كل يوم مستغلين عزلة الحزب فى الموقف الذى اتخذه وأعلنه، لقد عانيت كثيرا من قبل واختلفت مع عبدالناصر فى أوج مجده ونفيت أنا وعائلتى لسنوات وقاسيت أياما مرة كثيرة. . ولكن الخلاف لم يصل أبدا إلى تلك الدرجة. . هل تتصور أننى أحيانا أحاول أن أخفى الجرايد والمجلات التى تمتلئ بالشتائم والادعاءات الوقحة عن زوجتى وابنتى. .

قلت له وقد مس أعماقى صورة البطل المصلوب الذى ظل يدافع عن حقوق الناس وإذا به يضرب أمامهم بل وبسهامهم أحيانا. .

– ولا يهمك . . كل تلك الغمة ستنكشف وسيتضح فى ما بعد صحة الموقف المبدئى الذى اتخذته . .

وقال فى عفوية قدرية عرف بها :

نحن مقبلون على أيام سوداء مثل قرون الخروب . . ربنا يسهل . . ويقدرنا .

[٤١]

أنت ماهر فى الرقص يا ولدى جسدك رشيق
مطواع وفى داخلك شىء يُريد أن يخرج كأنه
النقمة أو الغضب مع أنك لا تشكو شيئا

حنا مينا- *الشمس فى يوم غائم*

١١ مارس سنة ١٩٧٨

أنتردن لندن .

تحت ظلال الزيزفون . .

شارع عريض ممتد، فى وسطه وعلى الجانبين أشجار الزيزفون تضفى لمسة شاعرية هادئة وإيحاءات رومانسية فياضة، وخاصة مع نسمات الربيع وإرهاصاته حين تنفض الأشجار العارية عن أفرعها نتف الثلوج وتخضر براعم الأوراق على الأغصان وتبدو الزهور الشابة المنتعشة بألوانها البنفسجية والمبانى الممتدة على الجانبين يتداخل فيها تناغم واتساق العمارة الجرمانية التاريخية التى اختلط فيها الفنان القوطى والرومانى بأعمدتهما الباسقة وصالاتهما الفسيحة وقبابهما المتداخلة جنبا إلى جنب مع العمارة الحديثة بواجهاتها الزجاجية وأشكالها المستطيلة . فهناك مبانى جامعة همبولت وهى واحدة من أقدم الجامعات الأوروبية ومبنى الأوبرا وقصر الضيافة ومتحف برجامون والكاتدرائية القديمة . . وهى كلها تكاد تكون من المبانى التاريخية النادرة التى لم تدمر تماما أثناء الحرب العالمية، وأمكن إصلاحها مع الحفاظ على تراثها ومعمارها القديم الذى يرجع بعضه إلى القرن الخامس عشر . ثم هناك أيضا القصر الجمهورى الحديث الذى بنى على أحدث طراز وبرج وزارة الخارجية ونصب الجندى المجهول وبعض المبانى الجديدة لعدد من السفارات والمراكز الثقافية، ثم ينتهى كل ذلك عند بوابة براندنبرج الشهيرة والعملاقة والتى تقع تماما عند الحد الفاصل بين برلين الشرقية والغربية .

فى هذا الشارع العريق الذى يتبلور فيه التراث البروسى كان هتلر يستعرض قواته العاصفة وسط الصيحات الهيسترية والأحلام المجنونة التى أثارها فى السيطرة على العالم. وفى هذا الشارع الحديث الذى يمتلئ بالمكتبات وصالات الفنون والموسيقى تتوهج شعلة لا تنطفىء يقف أمامها جنديان ينتصبان دائما طيلة الليل والنهار فى ذكرى ضحايا الحرب ودفاعا عن سلام باسم مشرق. وعند تقاطع انتردن لندن مع شارع فردريك الذى لا يقل عنه أصالة وحداثة يقبع فندق صغير أنيق وحديث يحمل اسم شارع أحببته وارتبطت به منذ البداية. .

كنت كافيتريا الفندق التى اتخذتها مقرا لمواعيدى ولقاءاتى قد أصبحت بمثابة مكتب لى أقرأ فيها جرائدى ورسائلى وألتقى فيها مع أصدقائى وأكتب فيها مقالاتى. .

وقد أغرانى على هذا الهدوء الذى كان يسود الكافيتريا أغلب الوقت إضافة إلى الموقع الممتاز الذى تستطيع فيه من خلال الزجاج أن ترى أهم ناصية يلتقى فيها شارعان تاريخيان كما أن وجودها فى موقع قريب من كل الأماكن المهمة التى أحتاجها قد جعل منها شبه مكتب دائم لى، فعلى بعد عشرات أو مئات الأمتار هناك المركز الصحفى العالمى وإدارة الصحافة بوزارة الخارجية وأشهر بوابتين للانتقال إلى برلين الغربية والقطار العلوى. .

ثم هناك وعلى مرمى النظر الأوبرا ومسرح بولينر إنسامبل مؤسسة بريخت الشهيرة ومسارح الدتش تياتر، وفريدرك بلاس ومسرح جوركى واتحاد الصحفيين الألمان والمركز الثقافى المصرى. .

وفى أقل من عامين ومن خلال تلك القاعدة الثابتة فى كافيتريا انتردن لندن كنت قد استطعت أن أبنى شبكة واسعة من العلاقات مع الألمان بين صداقات حميمة إلى أشكال العلاقات القائمة على الود والاحترام، وشملت كتابا وصحفيين ومفكرين وسياسيين وفنانين وممثلين وحرفيين وأطباء، بعضهم أو بعضهن من الأسماء اللامعة المعروفة وتشعبت تلك العلاقات إلى مدن ألمانية أخرى فى ليبزج وفايمر ودرسدن وروستوك بل وحتى بعض القرى.

ووصل الأمر إلى أن الركن الذى كنت أجلس فيه قد أصبح محجوزا بشكل دائم بورقة معلقة عليه لا يرفعها الجرسون إلا عندما أحضر أو عندما يأتى أحدهم ليسأل عنى فيقوده الجرسون إلى الركن قائلا. .

- هنا مكتب هر فتاح . . تستطيع أن تنتظره

على أن أهم عامل لاختيارى كافيتريا هذا الفندق هو بعدها عن مركز التجمعات العربية فى المدينة . ولم يكن ذلك من قبيل الرغبة فى العزلة عن هذه التجمعات، ولكن الأمر أننى منذ بداية عملى فى ألمانيا كنت قد وطدت العزم والرغبة على أن أعيش وأعايش المجتمع الألمانى وأحاول الغوص فى أعماقه وأعماق التجربة مستغرقا ومجربا لأبعادها الثقافية والاجتماعية متفتحا على التجربة فى محاولة لاستيعابها وهضمها من خلال جذورها ومنابعها دون الاكتفاء مثلما يفعل الكثيرون من المصريين والعرب فى أوربا حين يتجمعون ويلتقون فى أماكن معينة تتحول إلى شبه جيتو مغلق ويعيشون دائما على السطح فى انعزال عن المجتمعات التى يعيشون ويعملون بها . .

وقد كان فى برلين حلقات أو جيتو عربى فى أماكن أصبحت معروفة عنهم ومغلقة عليهم . . فالعراقيون مثلا يجتمعون فى كافتيريا أو بار فندق شتات برلين حتى أطلق البعض على الفندق اسم شتات بغداد . . والليبيون يلتقون يوميا فى كافتيريا وبار فندوق «بيرولينا» حتى إنك تسمع حوارهم العالى الصارخ أحيانا وأنت على أعتاب الفندق، وقد أطلق بعض الألمان على الفندق اسم «بيروليبا» والسوريون واللبنانيون كونوا شبه مركز دائم لهم بفندق "البالاست" . . والفلسطينيون والمصريون يتجولون بين هذه المراكز الثلاثة، وغالبيتهم يلتقون ليلا فى المراقص والنوادى الليلية لهذه الفنادق .

لقد كانت المجموعات العربية فى برلين الشرقية محدودة يتكون غالبها من أعضاء السفارات ومن الطلبة الدارسين فى الجامعات الألمانية، ولكن هذه المجموعات كانت تتضخم عندما ينضم إليها العرب الذين يغدون يوميا من برلين الغربية والذين وصلت أعدادهم إلى عشرات الآلاف وغالبيتهم من العمال العاطلين أو الذين يمتهنون بعض المهن بعض الوقت فى الغرب، ثم يقومون برحلة شبه يومية إلى الشرق حيث يتوفر الأكل والشراب وأيضا النوادى الليلية بأسعار زهيدة للغاية . ولقد كنت طبعا بين الحين والآخر أطل على هذه التجمعات أشارك فى مناقشاتهم، أحيانا أطرح آرائى فى هدوء وأيضا بوضوح وبدون انفعال أو صياح حتى إننى أصبحت معروفا بينهم بـ«الأخ الكاتب المصرى الهادئ» وتكونت لى علاقات وصداقات مع بعض المثقفين العراقيين والسوريين والفلسطينيين واللبنانيين ولكن فى نفس الوقت كنت حريصا على ألا أغرق فى عالمهم، وخاصة أنه فيما عدا قلة محدودة فالغالبية منهم لم تكن تشغلهم هموم ثقافية أو فكرية حقيقية . .

كما أنى لم أكن على استعداد لأن أشغل نفسى بالصراعات التى كانت تنشأ بينهم أحيانا تحمسا للبعث العراقى أو البعث السورى أو انحيازا لهذه المجموعة الفلسطينية أو تلك، أو اندفاعا فى إبراز التجربة الجماهيرية الشعبية والكتاب الأخضر أو الهجوم عليها، لكل ذلك حافظت وبشكل متعمد على تلك المسافة والابتعاد فقد كان واضحا لدى أننى لم آت لألمانيا لأعيش فى جيتو عربى أو لأقود الصراعات العربية المستعرة على بعد آلاف الأميال. على أنى وجدت نفسى مرتين فى ظروف دفعتنى دفعا إلى أن أخرج على تلك المعادلة الدقيقة فى الابتعاد والإطلال. .

المرة الأولى كانت فى الأسابيع التى أعقبت زيارة السادات للقدس، فقد كنت أحضر حفل استقبال فى النادى الدبلوماسى دعى إليه السفير الفلسطينى فى برلين الدكتور عصام كامل والذى كانت تربطنى به علاقة صداقة وتعاطف فكرى وهو واحد من ألمع الكوادر الفلسطينية.

وحضر الحفل كالعادة عدد كبير من القادة فى الحزب والدولة فى ألمانيا الديمقراطية، كما حضر أعضاء السلكين الدبلوماسيين العربى والأجنبى الذين يعترفون بمنظمة التحرير الفلسطينية، وقد كنت أعرف غالبية الحاضرين بمن فى ذلك بعض السفراء العرب الذين ربطتنى ببعضهم علاقة ود واحترام. . وكان موضوع زيارة القدس والآثار المترتبة عليها وخاصة بالنسبة للقضية الفلسطينية هما اللذان كانا يجريان بين المجموعات التى حضرت حفل الاستقبال، وكنت منهمكا فى مناقشة مع عدد من الكتاب والصحفيين الألمان حول الموضوع ثم أخذت أدور بين مجموعات الحاضرين، ونادانى الدكتور عصام كامل الذى كان يتوسط مجموعة من السفراء العرب وكان بينهم القائم بالأعمال الجزائرى الجديد والذى لم نكن قد تعارفنا من قبل. . وقدمه لى الدكتور عصام كامل ثم قدمنى إليه ككاتب مصرى. وفجأة وجدت القائم بالأعمال يسحب يده بسرعة وعصبية قائلا:

- أنا لا أصافح مصريا بعد ما قام رئيسهم بزيارته الخيانية للقدس. .

قالها فى انفعال أضافت إلى لهجته الجزائرية وعربيته الضعيفة لكنة غريبة بين الفرنسية والعربية، ووقفت ويدى نصف ممدودة وقد أحسست للحظات بامتهان شديد. . وأسرع الدكتور عصام كامل يشرح للقائم بالأعمال الجزائرى أننى كاتب يسارى وطنى معروف وأننى ممن يعارضون زيارة القدس ثم أخذ عصام بدوره يعتذر لى ويحاول أن يخفف عنى، ولكن يدى ظلت نصف ممدودة وذهنى يتحرك ينفعل يشتعل يكاد يمد يدى لتهوى على صدغ الرجل. .

ويبدو أن الدكتور عصام قد لمح ذلك بسرعة ووقف بينى وبين القائم بالأعمال الجزائرى مواصلا محاولاته لتهدئتى وإرضائى .

ولكن الكلمات انطلقت من فمى مثل زخة رشاش سريع الطلقات بالعربية أحيانا وبالألمانية أحيانا أخرى مما أدى إلى تجمع الحاضرين حولنا . . قلت له . .

: - لو أنك جزائرى وطنى حقا لقبلت كل يد مصرية ، لأن مصر هى التى ناضلت وعانت وتعرضت لعدوان مدمر على أرضها من أجل إشعال الثورة فى أرض الجزائر ومساندتها . . ولو كنت جزائريا عربيا حقا لكان الأجدى بك أن تعرف لغتك العربية ثم تعرف آدابها وأخلاقياتها . . وما قلته الآن هو تعبير عن الجزائر الفرنسية وليس الجزائر العربية . إننى لا أتكلم باسم حاكم مصر بل واختلف معه علنا ، لكنى على يقين أنك لن تختلف فى يوم من الأيام مع أى حاكم فى بلدك ، أيا كانت السياسة التى يتخذها وأخشى ما أخشاه هو أن أمثالك سيكملون المخطط الذى بدأه السادات . .

كنت منفعلا وفى غاية الانفعال فلقد عبثت كلمات القائم بالأعمال الجزائرى بجرح كان مازال يدمى فى الأعماق ، مثلما جسدت كل المخاوف التى كنت أتحسب لها . .

***

أما المرة الثانية فقد جاءت فى أعقاب مأساة مطار لارناكا التى اغتيل فيها المرحوم يوسف السباعى الكاتب المصرى ورئيس تحرير الأهرام فى ذلك الوقت والسكرتير العام والدائم لمنظمة التضامن الآسيوى الإفريقى وما أعقب عملية الاغتيال من محاولة فرقة خاصة مصرية القبض على المتهمين مما أدى إلى مزيد من الضحايا وشحن الجو بكثير من التعقيدات الدولية . .

لقد اغتال السباعى مجموعة من الفلسطينيين الذين يتبعون أبا نضال القائد الفلسطينى الذى انشق على فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وكان السباعى يوم اغتياله فى قبرص على رأس وفد منظمة التضامن لحضور اجتماع للنظر فى الهجمة الإمبريالية على العالم العربى . .

ولقد كان مثيرا ومحيرا حقا أن يقع الاختيار على السباعى بالذات تحت دعوى أنه من أنصار السلام مع إسرائيل . . فالسباعى وبغض النظر عن الاختلاف أو الاتفاق معه فى قضايا سياسية أو فكرية هو أحد الكتاب المصريين اللامعين والذين تختلط فى رواياتهم النغمة الرومانسية مع لمسة وطنية صادقة وله جمهوره ومحبوه ، فهو ليس رجل أمن ولا يمكن أن يعد بأى معيار من الوجوه القبيحة التى ارتبطت بسياسة التحالف مع إسرائيل أو الولايات المتحدة .

بل إن السباعى ومن خلال عمله كسكرتير عام لمنظمة تضامن الشعوب الآسيوية الإفريقية كان ومن الناحية العملية يلعب دورا تقدميا عربيا وعالميا . فمن المعروف أن تلك المنظمة التى أعلن جمال عبدالناصر إنشاءها على أرض القاهرة فى أول يناير ١٩٥٨ تضم أكثر من ٨٠ لجنة تضامنية فى آسيا وإفريقيا وبعض الدول الأوربية ، ومن مهامها ملاحقة الاستعمار والإمبريالية والعنصرية والصهيونية وعقد المؤتمرات والندوات العالمية دفاعا عن حركات التحرر العالمى وتأكيدا لمصالح الدول النامية .

وزاد الأمر إثارة وغرابة وريبة ذلك الحماس الزائد الذى نشرت به بعض الصحف العربية الخبر وكأنه عمل تحررى .

وتأكد أكثر من ذى قبل أن هناك أياد خفية كثيرة بدأت تلعب على الساحة لاستكمال المخطط الإمبريالى الصهيونى الواضح لعزل مصر . وكانت زيارة السادات للقدس بمثابة إطلاق شرارة البدء . .

وقد سمعت أنه فى بعض النوادى الليلية التى كان يتجمع فيها الجماعات العربية ، وخاصة هؤلاء القادمين من الغرب جرت احتفالات صاخبة بهذه المناسبة فتحت فيها زجاجات الشمبانيا والكونياك احتفالا بمقتل «الكلب المصرى» مثلما أطلقوا عليه .

وزعم أحدهم أنه اشترك فى عملية لارناكا وقد كان ذلك مدعاة لتأكيد شكوكى إزاء الدور الحائر والغريب الذى يمكن أن يلعبه عشرات الآلاف من الشباب الفلسطينى واللبنانى الذين توافدوا بشكل مكثف على برلين الغربية ، وخاصة بعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية ، فغالبيتهم يسجل نفسه فى ملفات البوليس فى الغرب باعتباره لاجئا سياسيا للحصول على إقامة مؤقتة ، وغالبيتهم لا يحترفون مهنا معينة أو محددة ويفتقدون النضج والوعى السياسى ويقومون أحيانا ببعض المهن الوضيعة التى تتيحها لهم السلطات فى برلين الغربية ، ويمارسون كل أشكال الضياع والحاجة والرحلات اليومية التى يقومون بها من برلين الغربية إلى الشرقية مستفيدين من رخص الأسعار والحياة السهلة فى الشرق . .

ولقد لفت نظرى من قبل خطورة هذا الوضع وكتبت عنه فى مجلة الوطن العربى وتناقشت حوله مع عدد من المسئولين فى منظمة التحرير ، ومع السفير الفلسطينى فى برلين ، على أساس أن هذا الجيش العاطل والتائه من الشباب الفلسطينى والذى يقضى حياة ضائعة بين المخدرات والنساء والتهريب لا يحرم القضية الفلسطينية من قدراتهم وطاقاتهم فحسب ، ولكن يعطى أيضا صورة مشوهة وغير صحيحة عن الشعب الفلسطينى إزاء الغرب ، بل ويجعلهم فى ظروف تعرضهم لانحرافات وإغراءات

أخطر فى بلد تنشط فيه مراكز التجسس والمخابرات الدولية وخاصة الموساد الإسرائيلى . .

وكان الشيء المؤكد والواضح لدى بعض المسئولين الفلسطينيين أن بعض الأنظمة العربية تنشط بشكل واسع بين تلك المجموعات وتجند أعدادا منهم للعمل معهم واستخدامهم فى بعض العمليات الخاصة . .

وفى أثناء انشغالى وبحثى وسعيى لجمع أكبر قدر من المعلومات والوثائق حول هذا الموضوع تعرفت على إحدى الفتيات فى برلين الشرقية والتى كانت صديقة بعض الوقت لأحد زعماء هذه المجموعات (أحمد أبو . . . . . .) وقدمت لى معلومات مثيرة وخطيرة حول نشاطهم قمت بنشر جزء منها . .

كان مما قالته الفتاة أنها تعرفت على الشاب الفلسطينى فى أحد النوادى الليلية ولأنها كانت تتعاطف بصدق مع قضية الشعب الفلسطينى وتعرف مأساته وما يتعرض له على أيدى العنصرية الصهيونية فقد حاولت أن تقوم بدور ما لمساعدته . .

فتحت له بيتها بل أعطته المفتاح ليأتى فى أى وقت يشاء هو وأصدقاؤه .

وكانت تترك له أحيانا أكثر من نصف مرتبها مساعدة له لمواجهة المهام الثورية التى يدعى القيام بها . . وفى أكثر الليالى كانت تأتى الشلة الثورية من برلين الغربية إلى بيتها يأكلون ويشربون ويمرحون ثم يذهبون إلى أحد النوادى الليلية لاستكمال السهرة . .

وكانت الفتاة الألمانية الشرقية (آنجليكا) والتى تعمل فى أحد المراكز التجارية سعيدة بهذا الدور الذى تلعبه مقتنعة به وتعلنه فى جرأة وتحد فى مواجهة بعض المتاعب والمضايقات التى أثيرت فى الحى وفى العمل على أساس أنها تفتح بيتها للأجانب ، وقد صرخت فى وجه رئيسها فى العمل ذات يوم وهو ينبهها إلى ما تفعله قائلة . . .

: - نحن بلد اشتراكى يدافع عن حقوق الإنسان فى كل مكان ثم يضايقك أنى أستضيف فى بيتى شبابا حكم عليهم الاستعمار والصهيونية بالتشرد والطرد من بلده . . هل أنت اشتراكى حقا أم أن الأمر مجرد شعارات . .

وقد ظلت آنجليكا على موقفها المتحمس والمدافع عن هذا الشاب الفلسطينى إلى أن جاء يوم كان من المفترض ألا تأتى إلى بيتها لأنها تقضى هذا اليوم دائما مع أمها الوحيدة ، ولكن أمها كانت قد دخلت المستشفى ، فعادت آنجليكا إلى بيتها على غير عادة وفتحت الباب . .

كان الزعيم هناك ومعه بعض أفراد شلته فى حالة من السكر الشديد . . والانبساط الزائد وتسمرت عند الباب وهى تسمع وترى أشياء لا تصدق على لسان الزعيم نفسه، واكتشفت أن الزعيم والشلة يتاجرون فى المخدرات والحشيش وأنهم اتخذوا من بيتها وكرا لتخزين البضاعة وتصريفها . .

واكتشفت أيضا أن الزعيم يعمل بلطجيا فى «أوربا سنتر» وهو واحد من مراكز لعب الورق الشهيرة فى برلين الغربية . .

وعرفت من لسان بعض أفراد الشلة أن البعض يستأجرهم أحيانا لعمليات سرقة ونهب بل والقتل أحيانا . .

بل ورأت الزعيم نفسه يخرج من دولابها بعض الحقائب التى أودعها عندها تحت دعوى أنها تحوى أسرارا ووثائق مهمة، خاصة بالثورة الفلسطينية ليخرج منها طرب الحشيش والكوكايين والهيروين والحبوب المخدرة لتوزيعها على أفراد الشلة محددا لكل منهم المكان الذى يسوقون فيه بضاعتهم . .

وساعتها صرخت فيهم وهى فى حالة من الانفعال الشديد . .

- بره . . اخرجوا بره . . بره . .

وحالما انتبهوا إلى وجودها أسرع أفراد الشلة بالخروج حاملين معهم البضاعة، بينما بقى الزعيم وحده وبعد أن تأكد من خروج الشلة والبضاعة . .

وأقبل عليها فاردا يديه فى محاولة لاحتضانها وتهدئتها . .

ولكنها صدته بعنف وطلبت منه وبنفس حالة الانفعال الشديد بأن يخرج فورا وألا يريها وجهه ثانية . .

وحينما أدرك الزعيم أنها جادة فيما تقول وأنها لم تعد مثلما كان يظن خاتما فى أصبعه . أسقط من فوق وجهه مسحة البراءة والطهر التى كان يدعيها وظهر بوجهه الحقيقى كبلطجى محترف . . فانهال عليها ضربا فى قسوة حتى أحدث بها بعض الكسور فى مفصلى اليدين والركبة وكسر لها سنتين ثم قال وهو يلقى بها كومة مهدودة يمتزج الدم بالكدمات على كل جسدها . .

- اسمعى أنا خارج، ويمكنك أن تبلغى البوليس، ولكن ثقى أن ذلك يعنى كارثة بالنسبة لك، فأنت مشتركة معى فى كل شىء والكل يعرف ذلك ومعى الصور والوثائق . . كما أن رجالى قادرون على الوصول إليك وكتم أنفاسك فى أى مكان . . اذهبى يا شاطرة إذن وبلغى البوليس . .

كانت آنجليكا تحكى لى ذلك وجسدها كله يرتعد بالخوف والرهبة والصدمة رغم مرور أكثر من ستة أشهر على الحادث، ورغم أنها كانت قد بدأت تثق فى من خلال العائلة الألمانية الصديقة التى قدمتنى إليها وتدرك أنه ليس بالضرورة أن يكون كل عربى من طراز هذا الزعيم البلطجى، وأن العالم العربى- والشعب الفلسطينى بشكل خاص- زاخر بآلاف الشباب المناضل والمثقف والواعى والإنسان، ورغم ذلك فقد كانت تكرر الرجاء- وخاصة وقد عرفت أنى كاتب صحفى- بألا أنشر شيئا من ذلك. وعرفت منها أنه هو وشلته مازالوا يأتون إلى برلين الشرقية، ولقد كف عن محاولة الاتصال بها بعد أن صدته، ولكنه لا يكف بين الحين والآخر عن الاتصال بها تليفونيا ويجدد تهديداته ووعيده مستعرضا قدراته ونفوذه الواسع فى الشرق والغرب على حد زعمه. وعبثا حاولت أن أقنعها بأن من الخير لها ولكل الشعوب العربية والشعب الفلسطينى أن تفضح هذه العناصر التى تعطى صورة مشوهة عن العرب وتضر بالمصالح الحقيقية والمشروعة للشعب الفلسطينى، وأن كشف هذه العناصر سيكون حماية لها مثلما هو حماية للوجه الحقيقى للثورة الفلسطينية، وأن أمثال هؤلاء البلطجية أضعف مما تتصور حينما يجدون من يواجههم ويتصدى لهم..

ولكنها كانت تقول دائما وقد اكتسى وجهها برعشة خفيفة..

- أنت لا تعرفهم.. إنهم وحوش

التزمت بوعدى مع آنجليكا، وحينما نشرت سلسلة التحقيقات عن الشباب الفلسطينى الضائع فى برلين الغربية اكتفيت بإعطاء بعض الأمثلة المهمة واكتفيت فى ذكر الأسماء بنشر الحروف الأولى. ولقد أحدثت تلك التحقيقات صدى واسعا واتصل بى رئيس تحرير الوطن العربى ليشكرنى باسم مجلس التحرير على الجهد الواضح الذى بذلته كما أكد لى السفير الفلسطينى أن المسئولين فى منظمة التحرير قد اهتموا بشكل خاص بما أوردته من حقائق وأنهم يدرسونها.. بينما أبدى الكثير من المثقفين المصريين والعرب المقيمين فى البرلينيتين تقديرهم لتفجير تلك القضية.

وهنأنى الصديق سعيد السعدى الصحفى العراقى المقيم فى برلين ومدير مكتب وكالة الأنباء العراقية على شجاعتى فى تناول هذا الموضوع، وإن كان قد قال فى لهجة بين المزاح والجد:

- بس من هنا ورايح تخلى بالك شوية.. دول مش سهل.. ووراهم بلاوى..

على أنى بعد ذلك نسيت الأمر كله، وإن كنت قد حرصت بين الحين والآخر أن ألتقى.. بآنجليكا ربما لتحسين صورة العرب عندها وربما لتبديد مخاوفها وربما لإحساس كان يتحرك فى أعماقى إشفاقا عليها وتقديرا وإعجابا بها..

ومرت الشهور إلى أن جاءت زيارة القدس ثم اغتيال يوسف السباعى . . وقد زارنى فى تلك الفترة الصديق علاء الطاهر، وهو أحد الأصدقاء الذين توطدت علاقتى بهم منذ فترة الدراسة فى الجامعة، بالرغم من أنه كان دائما ممن ينأون بأنفسهم عن السياسة والعمل بها، إلا أنه ونظرا لكفايته الشديدة فى العمل وإتقانه للغة الإنجليزية فقد وجد نفسه فى أواخر الستينيات مديرا لمكتب ضياء الدين داوود عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى، فمنذ ذلك الوقت الذى رآه عندما كان وزيرا للشئون الاجتماعية أخذه معه إلى الاتحاد الاشتراكى، وكان من الطبيعى أن يتعرض علاء للفصل والاضطهاد بعد أحداث مايو سنة ١٩٧١ والقبض على ضياء الدين داود والمجموعة الناصرية الأخرى فيما عرف أيامها بمراكز القوى . .

وقد ذهب علاء إلى السعودية بعد ذلك للعمل مدرسا للغة الإنجليزية، ولكنه بعد فترة وكالعادة برز فى عمله مما دفع أحد أمراء الأسرة المالكة السعودية إلى اختياره سكرتيرا له ومديرا لأعماله، وحينما عرف بانتقالى إلى برلين والعمل بها، كان ينتهز أى فرصة يكون فيها فى مهمة فى أوربا ويمر على ليوم أو ليومين نجتر فيها ذكرياتنا الحلوة والمرة ونمنى النفس بالعودة إلى القاهرة مرة أخرى . .

وفى تلك المرة دعوت آنجليكا وذهبنا إلى أحد النوادى الليلية نحتفل بعيد ميلاد علاء فلقد أحسست وبعد كل هذه التوترات التى عشتها أنى بحاجة لأن أقضى ليلة مع الموسيقا والرقص، مع صديق عزيز قديم ومع صديقة ألمانية أحسست معها بالتعاطف والود . .

كان مرقص موسكو وهو أحد المراقص المشهورة فى برلين، ممتلئا كالعادة فى ليلة نهاية الأسبوع حيث يهرع الألمان إلى تلك المراقص، وخاصة فى الشتاء يعوضون بالمرح والموسيقا والرقص كل متاعب العمل طوال الأسبوع . .

وجلس ثلاثتنا إلى منضدة قريبة من مكان العرض الفنى الذى يقدم وبناء على طلب علاء الذى كان يقول ضاحكا . .

- حرام عليكوا طول السنة فى الصحرا والمجتمع الرجالى خلونى أملأ عينى بالفرجة على العالم الحلو واعمل «رصيد» ينفعنى زى الجمل فى الصحراء الناشفة . .

كان المكان غارقا فى الضوء الأحمر الخافت وأصداء الموسيقا والرقص والضحكات والمرح تمسح من النفس أدران الهموم والجهد وتضفى لونا من السعادة وحب الحياة . . وسحبت آنجليكا إلى البيست . . نرقص على نغمة موسيقية أحبتها . .

وفجأة أحسست بجسد آنجليكا ينتفض بين يدى ويكتسى وجهها بتعبير مخيف ثم تسحبنى إلى المنضدة حيث يجلس علاء وهى تقول فى توتر بالغ :

- هيا بنا نبحث عن مكان آخر . . .

- لماذا . . . ؟

- دعنا نترك هذا المكان فورا . . .

- إيه الحكاية . . اتكلمى . . مالك . . .

- إنه هنا هو وشلته . . يجلسون على البار . . وقد رآنى . .

- هذا الوغد . .

والتفتُّ ناحية البار ورأيت مجموعة من الشباب العربى يحتلون ركنا كاملا . . . . لا أتبين وجوههم بوضوح فى ظل الضوء الخافت، ولكنى استطعت أن أميز بينهم الزعيم بجسده الممتلئ وشاربه الكث وشعره الأسود اللامع الذى يصففه على فورمة الكانيش، تماما مثلما وصفته آنجليكا من قبل وأمسكت بيد آنجليكا أهدئ قلقها وانفعالها . .

-دعيك منهم . . انسيهم تماما . . إنهم لا شىء . .

لكنها عادت تصر على ترك المكان رغم محاولاتى أنا وعلاء . وفى أثناء ذلك لاحظت أن الزعيم الكانيش ترك البار واقترب من المنضدة وأخذ يدور حولنا مركزا ومتنقلا بنظراته بينى وبين آنجليكا وهو يبتسم فى محاولة تمثيلية فجة ويضرب بشىء ثقيل على يده . .

وأخذت بدورى أتأمل هذا الكائن الغريب عن قرب والذى كان فى شكله وجسده وتحركاته نموذجا مجسدا لصورة البلطجى التقليدى ببلادته وحيوانيته والادعاء المبالغ فيه فى الثقة الكاذبة بالنفس وضحكت قائلا لعلاء . . .

- بس يا عم . . آهو جالك فريد شوقى ولا محمود المليجى . .

وضحك علاء قائلا . . .

- يا راجل . . دا ما ينفعش يكون إسماعيل يس

وانسحب الزعيم الكانيش بعد أن حولنا تمثيليته الغبية إلى كاريكاتير ضاحك . . ولكنه عاد بعد دقائق ومن خلفه اثنان من شلته وتقدم إلى آنجليكا قائلا . .

- هو ده بقى الواد الصحفى المصرى اللى نشر الكلام إياه . .

قومى معايا نرقص وسيبك منه . . وإحنا لسه الأسبوع الماضى مخلصين على نقيب الصحفيين المصريين . . ديته راخر رصاصة . .

تقليد سيئ للغاية وغير متقن لنمط البلطجي الذى قدمه فريد شوقى فى السينما المصرية وتحاملت على نفسى بقدرة خارقة وناديت الجرسون القريب طالبا منه أن يطلب من ذلك السيد أن يبتعد عن السيدة وعن المنضدة .

كنت أضع فى اعتبارى وأنا أفعل ذلك كراهية الألمان الشديدة لأى عراك أو تشابك بالأيدى فى تلك الأماكن ، وأيضا السمعة السيئة عن العرب فى هذا المجال والتى جعلت بعض المراقص تمنع دخولهم إليها . وحاولت بكل جهدى أن أتجنب ذلك ولكن الزعيم لم يترك لنا أية فرصة فأمسك بيد آنجليكا محاولا جرها ، وحينما حاولت أن أدفعه أو أوقفه هجم الاثنان الآخران على وأوسعونى ضربا بالقبضات الحديدية فى أيديهم .

وتفجر الموقف وزاد الهرج والصراخ وصاحت إحدى الألمانيات . . العرب يتشاجرون مرة أخرى . وكل الذى أعيه فى تلك الليلة التى مازالت مخضرة فى عقلى وقلبى أننى اندفعت نحو الزعيم الكانيش وقد تفجرت داخلى كل الآلام والتوتر والكراهية واستطعت أن أشل حركته بضربة قاضية بقدمى المنفعل فى بطنه وأيقظت صرخاته أعماقا بربرية سحيقة داخلى لم أكن قد مارستها وأهاجت كل أحاسيس الكراهية والحقد على كل الجلادين والطغاة . وأخذت أضربه وأنا أتصوره عميلا لمن اغتال أطفال مدرسة بحر البقر ومن قتلوا العمال الأبرياء فى أبى زعبل ومن ذبحوا الأطفال فى دير ياسين ومن شردوا شعبا بأكمله وطردوه من أرضه ، ومن يعملون الآن لعزل مصر عن أشقائها ومن وضعونى فى المعتقل لسنوات طويلة .

بينما كان علاء وهو قدير ومشهود له فى ذلك المجال ، يتكفل بالاثنين الآخرين . وحينما حاول آخرون من الشلة إنقاذ زملائهم تعرض لهم الألمان الذين رأوا وسمعوا كل شيء بوضوح وكانوا حتى هذه اللحظة يأخذون موقفا سلبيا مما اضطر العصابة إلى الفرار والهروب من المكان . .

أما آنجليكا فلقد فعلت تماما مثلما تفعل بنت البلد المصرية ، فخلعت حذاءها وأخذت تضرب الزعيم على رأسه ووجهه ، وهو يحاول الإفلات والهرب هو الآخر مرددا صيحات الألم التى لم تنقطع منذ تلقى الركلة فى بطنه ، وأسفر الموقف عن

تمزيق ملابسى وكدمات ثقيلة فى وجهى ووجه علاء وفرار الزعيم وشلته، بينما وقفت آنجليكا تشرح للألمان وللبوليس الذى جاء متأخرا تفاصيل الموقف.

وعاد الألمان إلى مقاعدهم وعادت الموسيقا تملأ المكان من جديد وامتلأ البست بالراقصين والراقصات.. وكأن شيئا لم يكن.. وراحت انجليكا تتحدث بارتياح شديد ممزوج بفرحة تلمع فى عينيها وكأنما أزاحت من فوق كاهلها حملا ثقيلا وذكريات مريرة، بينما استرد علاء مرحه التقليدى وضحكاته المشرقة وهو يقول مداعبا..

- يخرب بيتك.. دا انا اكتشفت الليلة دى أنك مقاتل جسدى شرس مش بس مقاتل فكرى.. وطبعا لم يتملكنى شعور بالزهو والانتصار فلقد كان الموقف كله بالنسبة لى سخيفا بل وأكاد أن أقول مقززا. ورأسى ممتلئ بل مشتعل بما جرى وفى أعماقى تموج مشاعر مختلفة ومختلطة من الأسف والخجل والحزن. فأيا كان الأمر فلقد كانت خناقة عربية لعلها تعبر وتجسد نوعية هذه الخلافات المستعرة والتافهة التى بدأ العالم العربى يغرق فيها وتوافد إلى ذهنى وجه القائم بالأعمال الجزائرى المعروق وجسد يوسف السباعى فى مطار لارناكا ينزف دما والوجه الغبى والمتبلد للزعيم الكانيش والضحكات الخشنة المصطنعة للسادات على سلم الطائرة فى مطار اللد والصرخة التى أطلقتها السيدة الألمانية.. العرب يتشاجرون مرة أخرى وانتابنى هم وحزن ثقيلان..

لم يكن ذلك حزنا على ما كان، بل تحسبا وإشفاقا مما سيكون..

[٤٢]

عشقوها كالبحارة يقبلون ويذهبون

يتركون وعدا ولا يعودون أبدا

وفى كل ميناء امرأة تنتظر

بابلونيرودا - *الوداع*

يوليو سنة ١٩٧٨

خذنى إلى البلد الذى تشرق فيه الشمس دائما . .

وتتفتح فيها أزهار الليمون

واكتشف سر الخلود

هذه الأمنية التى عبر عنها شاعر ألمانيا الكبير فولف جانج فون جوته على لسان بطله المأساوى «فاوست» الذى تحرق شوقا لرؤية مصر فى اندفاعاته البكر وشغفه المشروع فى حب الحياة والمعرفة، ترددت فى قلبى وأنا أتأمل ذلك الصباح الباكر هذا الكم الكبير من السياح الأجانب الذين ملئوا طائرة الإيرفرانس المتجهة إلى القاهرة . . والغريب أنى كنت المصرى الوحيد عليها . . ظاهرة جديدة . . ولكنها أثارت فى نفسى دوامات أخرى غريبة. وطوال ثلاث ساعات والطائرة تسبح فوق السحب البيضاء أحيانا والداكنة أحيانا أخرى، وأنا أسمع همسات وحوارات بلغات مختلفة الإنجليزية والفرنسية والألمانية وحتى العبرية، ولكن ليس من بينها العربية. حتى تسرب الشك إلى نفسى لحظة فى أننى ربما أكون قد أخطأت الطائرة. وجدتنى أسأل المضيفة فى خجل:

- ألسنا متجهين إلى القاهرة. . . . ! !

توقفت لحظة تتأملنى ثم قالت ضاحكة:

- بالتأكيد . .

سؤال غبى أثار ولا شك دهشة المضيفة الحسناء، بل وأثار دهشتى أنا نفسى واستغرابى لأن يخطر ذلك على بالى . . وتذكرت الحدوتة التى تناقلناها صغارا عن فلاح بلدنا الذى ركب القطار إلى الإسكندرية ليزور ابنه أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكن حظه العاثر أوقعه فى قطار امتلأت عرباته بالجنود الإنجليز والأستراليين .

وحينما سألهم للتأكد عن وجهة القطار، قالوا له ساخرين إنه ذاهب إلى الجحيم فألقى الرجل بنفسه من نافذة القطار . .

ولكن طبعا لم أفكر فى أن ألقى نفسى من نافذة القطار . . هاجس كان يقتحم على ذهنى محاولاته للهدوء والاسترخاء، ولكن أى هدوء وأى استرخاء والرحلة كلها من بدايتها وحتى نهايتها كانت انتهاكا صارخا لأى هدوء واسترخاء .

طوال تلك السنوات الماضية كانت الطائرة المنطلقة من القاهرة تحمل أعدادا غفيرة من المصريين تذهب بهم إلى أرجاء الدنيا؛ فى العالم العربى وفى أوربا وأمريكا وأستراليا وكندا .

فلاحون ومثقفون وعمال ورجال أعمال وجميع المهن والتصنيفات الفئوية والطبقية يجربون وربما لأول مرة فى التاريخ خروجا جماعيا للمصريين من مصر ساعين إلى الرزق وإلى مواطن المال والبترول والثروة أو باحثين عن ملجأ أو مهجر يأوى أفكارهم وطموحاتهم . . وكأنما فقد الوادى ولأول مرة سحره الطاغى عليهم وجاذبيته الآسرة التى جعلت من مصر وحتى هذه الأيام النموذج الوحيد على الأقل فى دول البحر المتوسط الذى لم يسع أهله إلى الهجرة أو النزوح إلى الخارج .

بالعكس لقد ظلت مصر دائما مركزا للجذب البشرى فى المنطقة وفى كل حوض البحر المتوسط . وطوال القرن التاسع عشر وحتى منتصف العشرين كانت هناك هجرات جماعية ومنتظمة تتوافد على أرض النيل من فرنسا وإيطاليا واليونان بالإضافة طبعا إلى البلدان العربية حتى كونوا أقليات كبيرة لها دورها فى الحياة المصرية فهل بدأ يا ترى عصر الخروج . . !!

لقد جاء على لسان موسى فى سفر الخروج فى التوراة :

«لأن البلاد التى تذهبون إليها ليست مثل أرض مصر التى خرجتم منها والتى كنتم تلقون البذور فى حقولها وتروونها بأقدامكم، ولكن الأرض التى تذهبون إليها لتضعوا أيديكم عليها هى جبال وأودية تسقيها مياه أمطار السماء» .

لقد قال موسى ذلك لبنى إسرائيل وهم يخرجون من مصر . . ولكن أى نبى كاذب قد جاء هذه المرة ليخرج المصريين . . من مصرهم . .

أى نبى كاذب قد بشر هذه المرة بعودة الإسرائيليين إلى مصر . . فى أى كتاب وفى أى سفر . .

هواجس وخواطر مزعجة متداخلة غير واضحة فى أحيان كثيرة . . أثارتها تلك المجموعة الأجنبية التى كانت غالبيتهم من يهود أوربا الغربية ، والبعض من إسرائيل نفسها وهم يذهبون إلى القاهرة لأول مرة . . وضاعف منها تلك التعليقات والصور والكاريكاتير التى حفلت بها الصحف الأوربية بعد زيارة مناحم بيجن للقاهرة فى فبراير من هذا العام لحضور مؤتمر ميناهاوس . . وزيارته لمنطقة الأهرام والتصريحات التى نقلتها عنه وكالات الأنباء بما يوحى بأن اليهود كان لهم الفضل فى بناء الأهرام . . حتى إن مجلة مثل ديرشبيجل الألمانية نشرت صورة لأبى الهول بوجه مناحم بيجن وتحتها عنوان . . لقد عدنا . . مع أن اليهود أو بنى إسرائيل لم تأت لهم ذكرى فى التاريخ إلا بعدما لا يقل عن ١٥٠٠ عام من بناء الأهرام . .

أى عودة؟ . . وأى خروج؟ . . وعودة لمن؟ . . وخروجا لمن؟ . . ومن هو موسى؟ . . ومن هو فرعون؟ . .

أحلام يقظة مزعجة أو قل هلوسة مصرى محموم مهموم تتداخل فى ذهنه المرئيات والتصورات فى أشكال خيالات مجسدة يختلط فيها الواقع بالتاريخ مع قدر ليس بالقليل من الفانتازيا . إننى لم أكن فى يوم من الأيام معاديا لليهود ، بالعكس ، لقد كان أول نبض حقيقى للقلب مع فتاة مصرية يهودية من السكاكينى أيام الجامعة ، كما أن لى صداقات حميمة مع بعض اليهود المصريين الذين أمضوا معى أكثر من خمس سنوات فى معتقل الواحات . .

ورفضوا العرض الذى قدم إليهم فى ذلك الوقت ليخرجوا من المعتقل إلى الطائرة خارج مصر . .

. . صادق سعد ، ريمون دويك ، يوسف درويش . .

بل مازلت أذكر بانفعال حى وعميق صيحة ريمون دويك فى قائد المعتقل وهو يلقى فى وجهه بجواز السفر قائلا . .

– أنا مصرى أكثر منك يا ابن الـ . .

لكن اليهود شىء والصهيونية العنصرية شىء آخر

استيقظت على صوت المضيفة وهى تطلب ربط الأحزمة والتوقف عن التدخين فالطائرة بصدد الهبوط على أرض مطار القاهرة الدولى . .

كانت زيارة لم تكن فى الحسبان ولم استعد لها . .

بدأت بتليفون من باريس كان المتحدث نبيل المغربى رئيس تحرير الوطن العربى يطلب منى القيام برحلة صحفية إلى القاهرة لأكتب عن تطورات الأحداث هناك . .

وحينما حاولت أن أعتذر نظرا لارتباطاتى فى برلين ولأن الولدين وحدهما قال المغربى بشكل قاطع

أستاذ . . هناك إجماع من لجنة التحرير أنك الوحيد الذى يمكن أن يقوم بتغطية موضوعية لما يجرى فى القاهرة . . معى الأستاذ وليد أبو ظهر وأمير إسكندر وغالى شكرى وجورج بهجورى وعبدالسلام مبارك كلهم مجمعون على ذلك . . أرجوك أن تحضر عندنا باريس غدا لنناقش الموضوع . .

وذهبت من برلين إلى باريس وكلى يقين أننى لن أسافر إلى القاهرة ، وقلت هذا لأنجليكا التى توطدت علاقاتى بها بعد حادث المرقص والتى كانت قد أخذت ترعى الولدين . وطلبت منها أن تبقى معهما يوما أو يومين على الأكثر سأعود بعدهما . .

وفى باريس ووجهت بإصرار من جانب أصحاب المجلة وكل الزملاء والأصدقاء على ضرورة سفرى ، فالأحداث تتوالى والمجلة معزولة عما يجرى فى القاهرة . .

قال وليد أبوظهر بصراحة . .

اسمع لقد سبق أن قلت لك إننى تاجر ، والكل هنا بمن فيهم أصدقاؤك يجمعون على أنك كصحفى وككاتب سياسى له علاقاته الواسعة أقدر من يقدم صورة عن الأوضاع السياسية هناك .

إن عيون العالم كله مركزة على القاهرة الآن ، ولا يمكننى كمجلة عربية أن أكتفى ببعض التقارير الباهتة التى يرسلها مراسلون شبان ليسوا على قدر وعيك ودرايتك . .

وأنا فى النهاية تحت أمرك . كل ما تطلبه مجاب تذاكر السفر جاهزة . . النقود . . المجلة كلها ستخصص من الأسبوع القادم لكل ما تكتبه . . هل لك شروط أخرى . .

وضاعت كل أسبابى واعتراضاتى فى موجة الحماس الشديد الذى تولاه الأصدقاء المصريون وتعهد أمير إسكندر بأنه سيطمئن يوميا على الولدين بالتليفون وعاد وليد أبوظهر يقول . .

لقد احترمتك كثيرا حينما رفضت أن تكتب عن مصر وأنت على بعد آلاف الأميال والآن اذهب إلى هناك لترى الحقيقة ليس فقط لنطلع القراء عليها، ولكن لتراها أنت بنفسك . .

وربما كانت هذه الكلمة الأخيرة هي التى حسمت فى النهاية ترددى . . إننى أيضا فى حاجة ماسة لأن أعرف الحقيقة .

كانت هذه أول زيارة لى للقاهرة بعد زيارة القدس وما تلاها من أحداث . . رغم أنه لم يكن قد مر على أكثر من عام، إلا أننى أحسست وكأنه قد مضى على سنوات ، الشوارع أكثر ازدحاما والمرور أكثر اختناقا حتى إن رحلتى من منزلى فى العجوزة حتى مبنى الجريدة صباح ذلك اليوم قد استغرقت أكثر من ساعة . فأغلب الشوارع غارقة فى مياه المجارى أو يجرى العمل فيها . إما لحفريات عميقة أو لإقامة كبارى علوية . وعلى طول الطريق تغيرات وتطورات على واجهات المحلات مع زيادة ملحوظة لمحلات الكوافير والبوتيكات وحتى محلات البقالة العادية وضع أغلبها عنوانا كبيرا «سوبر ماركت» وقد أفزعنى كثيرا أن شارع أحمد عرابى الذى كان ساكنا غارقا فى الخضرة يوم سكنت فيه أواخر الستينيات والذى كانت تمتد المزارع والحقول عند أطرافه قد امتلأ بالأساسات الخرسانية وببعض الإنشاءات والأبراج التى كان العمل يجرى فيها على قدم وساق مع ضجة الأوناش الكبيرة وآلات الدق العملاقة والمزعجة ، وتراجعت بل واختفت المزارع والحقول على مرمى البصر . .

كما كان من السهل أن ترى عشرات اليافطات المعلقة على واجهات العمارات بما فى ذلك عمارتنا الصغيرة تعلن عن شركات جديدة للمقاولات والاستيراد والتصدير ، وكلها تنتهى بلفظ كو . . «مندور كو للاستثمار» «انوركو» للاستيراد والتصدير «ايوب كو» للاستثمار . . ثم مراكز السماسرة . . أما الأسعار فقد كانت مفاجأة بالنسبة لى فكل شيء تقريبا وفى خلال ذلك العام قد تضاعف سعره تقريبا مع توفر كبير لكل السلع وبشكل خاص السلع الترفيهية والمستوردة . .

وفى السوبر ماركت المجاور لمنزلى كان هناك أكثر من عشرين صنفا من الجبن من هولندا وبلجيكا وفرنسا والنرويج وإسبانيا وكندا حتى أستراليا ، ولم يكن بينها على أى حال صفائح الجبن الدمياطى الذى كنت أتوق إليه . .

كما لاحظت تنوعا كبيرا فى أصناف البارفانات والعطور وأدوات الزينة . . وقد ظللت اليوم الأول كله أتجول فى الشوارع ربما لشوق زائد لإعادة التعرف على قاهرتى الحبيبة ، وربما سعيا للتحقق بنفسى من أفكار تتردد بين الحين والحين بأن سياسة

الانفتاح وزيارة القدس قد أجرتا أو بدأتا تجريان تغييرات واسعة فى حياة الناس وأفكارهم .

وإن الأبواب قد تفتحت لمزيد من الكسب بل والرخاء الذى كانت تبشر به أجهزة الإعلام الرسمية . ورغم تلك المظاهر التى لا يستطيع أحد أن يتجاهلها ، وخاصة إذا كان مغتربا مثلى إلا أننى أحسست بالإرهاصات الأولى للخطر على الاقتصاد القومى كله . . فمن الواضح أن الأبواب أصبحت مفتوحة تماما لاستيراد كل شىء من الخارج من أستراليا إلى كندا والبرازيل كما أن الهجرة المصرية إلى الخارج ، وخاصة إلى بلاد النفط قد أحدثت نوعا من الانتعاش الاستهلاكى كذلك زادت إيرادات البترول بدرجة ملحوظة نتيجة ارتفاع أسعاره .

لقد شهدت البدايات الأولى لهذه السياسات قبل أن أسافر إلى ألمانيا ، بل كان عجزى وتوجسى من نتائجها أحد أسباب قبولى للسفر ، وفى كل زياراتى السابقة ألمس تلك التغيرات الوافدة ، ولكنى لم أرها تنعكس بوضوح على الناس والشوارع بقدر ما رأيتها هذه المرة . .

فهل هناك بالفعل مرحلة من الرخاء والانتعاش الاقتصادى . . وفى المساء كنت على موعد مع أحمد طه وقبارى عبدالله فى كافتيريا بفندق ناسيونال . وتوافد على الجلسة فى تلك الليلة الدكتور محمود القاضى وأحمد مجاهد وكلهم كانوا أعضاء فى مجلس الشعب ويلعبون دورا بارزا فى قيادة المعارضة سواء بالنسبة لزيارة القدس أم بالنسبة لسياسة الانفتاح . .

كان محمود القاضى يخوض أيامها معارك مع النظام ، وخاصة مع عثمان أحمد عثمان صهر السادات والمخطط للسياسة الاقتصادية لحزب مصر ، وهو الحزب الحاكم فى ذلك الوقت وفضح بالأرقام بعض مظاهر سياسة الانفتاح والنزيف الذى تسببه للاقتصاد المصري وخاصة فى صفقات مشبوهة مثل استيراد الأتوبيسات من إيران والعمولات الكبيرة التى يحصل عليها المستوردون كما كان يسعى فى ذلك لإنشاء حزب الجبهة الوطنية مع ممتاز نصار وكمال الدين حسين . .

وكان قبارى عبدالله وأحمد طه لا يكفان عن تقديم الأسئلة والاستجوابات عن الأوضاع الاقتصادية وهجرة العمالة الفنية إلى بلدان النفط مما يؤدى فى واقع الأمر إلى خسارة اقتصادية مزدوجة والافتقاد إلى كثير من الخبرات والكوادر الفنية . الأمر الذى أدى من ناحية أخرى إلى استيراد كوادر وخبراء أجانب لسد الفراغ يحصلون على أجور عالية . . كان أحمد مجاهد يركز على الخلل الذى حدث فى الزراعة والافتقار

إلى العمالة الزراعية المدربة التى هاجرت بأعداد واسعة للعمل فى بلاد نفطية سعيا وراء الرزق، مما أدى إلى انتشار ظاهرة تبوير وتجريف الأرض وفوضى كاملة فى الإنتاج الزراعى. الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى كارثة قومية قال أحمد طه: إن بلدان النفط العربية تستورد العمالة المنتجة ثم تصدر إلينا الأنماط الاستهلاكية.

وعلق قبارى ضاحكا..

- على أية حال فهم ليسوا على استعداد لاستيراد المعارضة من أمثالى وأمثالك

ولكن القاضى قال فى جدية وحسم:

- لا تتعجل فأنا على يقين من أنهم سيسعون لاستيراد المعارضة حسب المقاس

وأعلن القاضى ليلتها توجسه من موقف الدول العربية، وخاصة دول النفط من زيارة السادات للقدس والمباحثات التى تجرى من أجل عقد اتفاقية سلام مع إسرائيل، فبالرغم من أنها أدانت الزيارة وتلك السياسة إلا أنها لم تتخذ سياسة أو مبادرات معينة لمواجهتها.

وحينما سأله قبارى عما يمكن أن تفعله هذه الدول قال القاضى..

- إن جوهر المشكلة اقتصادى ومن الواضح أن السادات يتجه الآن بكل ثقله إلى أمريكا وإسرائيل كحل للمشكلة الاقتصادية.. إن فى مقدور هذه الدول لو أرادت أن تقوم بمبادرات اقتصادية فعالة مثل تقديم معونات ملموسة أو الإسهام بشكل واضح فى مشاريع التنمية فى مصر.

ولكن يبدو لى أن الدول العربية والنفطية منها بشكل خاص ليست معنية بذلك، بل ربما كان بعضها يسعى بشكل مباشر أو غير مباشر إلى بيع مصر لأمريكا وإسرائيل.

والتقط القبارى الخيط وقال فى تساؤل مدهش بدون محاولة للتنظير:

- ولماذا نلوم الدول العربية وحدها على هذا الموقف.. ألا ترون أن الاتحاد السوفيتى يتخذ هو الآخر موقفا يكاد يكون سلبيا للغاية. خلاصته دعنا ننتظر لنرى تاركا الساحة بأكملها لإسرائيل وأمريكا..

أما أحمد طه الذى كان صامتا حتى تلك اللحظة فلقد أبدى بعض التحفظ على ملاحظات قبارى الخاصة بالسوفيت وحتى اعتبارات القاضى الخاصة بالدول العربية قائلا..

- إن السادات يندفع فى إستراتيجيته الخاصة واضعا الجميع فى خانة اليك وظهرهم للحائط

ولكن قبارى انطلق فى غضب صادق :

- إذا كان مقبولا بالنسبة للدول العربية . فهو ليس مقبولا بأية حال من الأحوال من دولة كبرى وصديقة مثل الاتحاد السوفيتى . إنه يتخذ موقف الإدانة والفرجة فقط وأخشى ما أخشاه أن يكون بصدد تنفيض يده من مصر والبحث عن بدائل فى المنطقة .

قال أحمد طه فى انفعال :

- ليس هناك ما يصلح أن يكون بديلا عن مصر . إن لها ثقلها الخاص والسوفيت لا شك يدركون هذا تماما

قال قبارى مستسلما مع عدم اقتناع :

- أرجو هذا

وأخذت أتطلع إلى وجه قبارى الأسمر والابتسامة الحلوة التى كانت دائما علامة هذا الوجه تضيع وسط موجة من القلق والتوتر الذى ارتسم عليه . وتذكرت موقفه الصعب منذ أكثر من عام وفى أعقاب الانتفاضة الشعبية فى يناير من العام الماضى حينما اختاره السادات فى مجلس الشعب ليجرى معه حوارا أو بمعنى آخر استجوابا علنيا فى جلسة أذاعها التليفزيون على الهواء . .

كان السادات يومها يهاجم فى عنف ومرارة اليسار المصرى من شيوعيين واشتراكيين وناصريين ويتهمهم بالتخريب وبالعمل ضد مصلحة مصر .

ووقف قبارى يومها ليقول للسادات :

- إن اليسار هو أكثر القوى الوطنية حرصا على مصر ودفاعا عن مصالحها .

وكأنما استثار بذلك غضبة الضبع الجريح فراح السادات يوجه له أسئلته الغريبة والمثيرة عن موقفه إذا هاجم مصر بلد من البلدان وما رأيه فيما يذيعه راديو موسكو عن مصر وهل هو مع مصر أم مع موسكو . .

وقبارى يرد فى ثبات أن اليسار المصرى سيكون أول من يدافع عن مصر إذا تعرضت لأى هجوم من الخارج سواء كان من موسكو أو من واشنطن أو من تل أبيب ، ولكن هناك فرقا بين مهاجمة أو إدانة سياسة معينة تتبعها إدارة أو سلطة معينة وبين مهاجمة مصر نفسها . .

والسادات بإصراره المعهود لا يترك الفرصة لقبارى ويصر على أن يجعل من نفسه وسياسته تجسيدا لمصر كلها ، وبالتالى فأى هجوم عليه وعلى سياسته هو هجوم على

مصر . . أكثر من نصف ساعة أذاعها التيلفزيون على الهواء والسادات بكل ما يملك من سلطة يحاول ويعمل على حصار قبارى والنيل منه ، وقبارى يعلو بصوته بين الحين والآخر مؤكدا موقفه أحيانا يسمع وأحياناً كثيرة يضيع فى ضجة نواب الحكومة ومقاطعاتهم . . لقد سمعت من قبارى نفسه تفاصيل ما جرى ووجهه يموج بانفعالات حادة وصوته صادر من أعماق ، وفى عينيه دموع لا تسقط . . نصف ساعة وأنا أقف وحدى فى مجلس الشعب بين السادات الذى يجلس على المنصة ويكيل التهم والكلمات المنتقاة جيدا ولا يترك لى فرصة للرد وبين نواب الحكومة وضجيجهم ومقاطعاتهم حتى إن أحدهم جذبنى من الجاكيت قائلا :

- اتنيل واقعد . . أنت مين علشان ترد على رئيس الجمهورية ! !

ولكن كل ذلك يهون . . المصيبة بل والكارثة أن البعض داخل حزب التجمع هاجم قبارى بعنف بعد هذه الجلسة على أساس أن موقفه كان ضعيفا متخاذلا أمام السادات .

وكان قبارى يقول فى حدة :

- قل لى بصراحة هل كان موقفى ضعيفا وهل هناك خطأ فيما قلته؟ وكنت أقول له :

إن الظروف وضعتك فى موقف صعب للغاية لكن موقفك كان عظيما . . أما هؤلاء الذين هاجموك من اليسار من مناضلى الشعارات فلا تلتفت إليهم . .

تذكرت كل هذا وأنا أتأمل هذا العامل البسيط الصديق الذى اجتاح الانتخابات مرتين متتاليتين فى دائرة قصر النيل قافزا فوق كل العقبات والسدود والحواجز التى وضعها النظام امامه ، وكلى لهفة ورغبة فى أن أمسح من فوق وجهه سحب اليأس القاتمة التى كانت تتجمع لتحاصر ابتسامته المتفائلة التى كانت تميزه . وحينما أوصلنى قبارى بعربته فجر تلك الليلة إلى منزلى فى العجوزة قال فى هدوء .

- إننى حائر بالفعل فموقف السادات واضح فهو يمضى فى الاعتماد على أمريكا وإسرائيل ، ولكن الذى يحيرنى هو موقف الآخرين إنهم لا يفعلون شيئا سوى الصياح والإدانة فهل اتفق الجميع على دفع مصر إلى الهاوية . .

لقد كانت تساؤلات مشروعة بل وأكاد أقول صادقة وأكثر تعبيرا عن الحقيقة .

فى اليوم التالى كنت على موعد مع عبد الرحمن الشرقاوى فى مكتبه فى الأهرام . . وكان الشرقاوى بعد استقالته من روز اليوسف عام ١٩٧٧ وفى أعقاب انتفاضة ١٨ ، ١٩ يناير التى دافع عنها كما دافع عن اليسار فى مواجهة الهجمة البربرية التى تعرض

لها فى ذلك الوقت قد نقل كاتبا فى الأهرام ، ثم وقع عليه الاختيار بعد اغتيال يوسف السباعى سكرتيرا عاما لمنظمة تضامن الشعوب الآسيوية الإفريقية . وقد تحمس السوفييت لهذا الاختيار باعتبار أن الشرقاوى واحد من أبرز الكتاب التقدميين المصريين والعرب ، كما أنه يكاد يكون الوحيد من ذلك التيار الذى مازالت له علاقة بشكل أو بآخر برأس النظام فى مصر . .

وقد التقيت فى مكتب الشرقاوى بكل من لطفى الخولى وعبد العزيز عبد الله ومكرم محمد أحمد .

كان الشرقاوى – فيما هو واضح – مختلفا مع توجهات السياسة الرسمية ، وخاصة فيما يتعلق بأمريكا وإسرائيل ، وكان فى كل لقاءاته مع السادات لا يتردد فى التحذير من مغبة هذه السياسة التى ستؤدى من وجهة نظره إلى عزل مصر عن الدول العربية وعن أصدقائها التقليديين . وكان السادات بالرغم من ذلك بل وربما من أجل ذلك حريصا على إبقاء الطريق بينه وبين الشرقاوى مفتوحا بعد أن أوصد كل الأبواب تقريبا مع كل قوى اليسار ، بل ومع العناصر التى كانت تختلف معه فى توجهاته وأفكاره .

وكان الشرقاوى متحمسا فى ذلك اليوم لدعوته التى نشرها فى الأهرام من أجل جبهة وطنية تضم كل القوى بما فى ذلك حزب مصر ، وهو الحزب الحاكم لوضع ميثاق عمل وطنى جديد تلتزم به .

وكان منطق الشروقاى أن ذلك قد يعيد الثقة من جديد لدى السادات حتى لا يمضى فى سياسته الخطرة التى ينتهجها معتمدا على وجود قوى وطنية داخل الحزب الحاكم نفسه ، منها ممدوح سالم رئيس الحزب ورئيس الوزراء وعبد العظيم أبو العطا السكرتير العام للحزب ، كما كان يراهن على تعثر المفاوضات بين مصر وإسرائيل وأمريكا نتيجة التعنت والصلف اللذين يتخذهما الجانب الإسرائيلى . .

أما لطفى الخولى والذى كان قد أثار ضجة واسعة فى صفوف اليسارين المصرى والعربى بسلسلة مقالاته فى الأهرام عن مدرسة السادات السياسية ، فقد أخذ يردد وجهة نظره من أنه حاول أن يوضح دائما أن السادات – وبغض النظر عن الاختلاف مع سياسته – هو وحده الذى يقدم حتى الآن إستراتيجية واضحة المعالم ترتكز على الاعتماد على الولايات المتحدة والتصالح مع إسرائيل ، بينما تفتقر القوى الأخرى – وبشكل خاص اليسار – إلى إستراتيجية بديلة متكاملة وهذا فى رأيه هو مكمن الخطر . فكل القوى التى تختلف مع السادات تقوم على سياسات رد الفعل فقط دون أن يصاحب ذلك خط أو إستراتيجية سياسية مواجهة . .

ولقد تصور البعض من اليسار كما تصور السادات أن لطفى يدافع عن سياسته إلى درجة أن السادات حاول أن يقربه له ودعاه ذات ليلة إلى منزله بالقناطر وطلب منه أن يقوم بكتابة مذكراته . . الأمر الذى اعتذر لطفى عنه فى ذكاء موضحا أنه يختلف مع الرئيس السادات سواء فى توجهاته السياسية أم الاقتصادية ولم يغفر السادات للخولى ذلك أبدا . .

ولقد ظل لطفى الخولى يردد أن البعض - وخاصة فى أوساط اليسار - قد فهم مقالاته وأفكاره بطريقة عكسية وأنه ما لم تنتبه القوى الوطنية واليسار بشكل خاص فى مصر والعالم العربى إلى ذلك الخلل فإن السادات سيمضى بسياسته إلى النهاية الحزينة . وكاد أن يكرر بالحرف المخاوف التى عبر عنها قبارى عبدالله بالأمس .

كنت أتابع تلك المناقشة التى يتبادلها الشرقاوى والخولى وأنا أتأمل مكرم محمد أحمد الذى جلس صامتا أغلب الوقت . . ولقد توطدت علاقتى بمكرم بل وأكاد أقول تعرفت عليه بشكل حقيقى حينما شملنى وإياه مع عدد آخر من الكتاب والصحفيين قرارت الفصل المعروفة التى أصدرتها لجنة النظام فى الاتحاد الاشتراكى سنة ١٩٧٣ .

ولقد اكتشفت فيه طاقة وإمكانية مقاتلة ومتحركة إذ كان له دور بارز فى تلك الأيام ونحن نجلس فى النقابة نتدبر الأمور فى تنظيم وأشكال وأساليب الاحتجاج الذى لم نكف عن القيام به حتى أصدر السادات قراره بعودتنا إلى العمل قبل أسبوع واحد من معركة أكتوبر المجيدة .

وأذكر حينما ذهبت مجموعة منا بعد قرار العودة للالتقاء بعدد من الشخصيات التى تعاطفت مع قضيتنا ولعبت دورا فى حلها من أجل شكرهم ، وكان من بينهم السيد حافظ إسماعيل مستشار الرئيس للأمن القومى فى ذلك الوقت والسيد شفيق غربال وصديقى العزيز عادل الجيار الذى كان يعمل فى ذلك الوقت فى مكتب المعلومات فى رئاسة الجمهورية والأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام . .

وقد التقينا بالأستاذ هيكل فى مكتبه بالأهرام وقال كلاما كثيرا مؤداه أننا كنا مثل «كورة» فى ملعب يحاول البعض من خلالنا أن يسجل أهدافا لصالحه . .

كان هيكل يتكلم بطريقته المعهودة السريعة ويلعب بقلم فى يده وحينما سأله بعض الزملاء فيما إذا كان هذا القلم هو الذى يكتب به مقالاته يوم الجمعة . .

قال هيكل إنه سيهدى هذا القلم إلى من يتوسم فيه القدرة على أن يكون تلميذا حقيقيا له قريبا منه ومن أفكاره . . وكان هيكل يقول ذلك وعينه على مكرم محمد

أحمد. وحينما خرج هيكل من الأهرام وانفض كثيرون من حوله لم ينس مكرم مقولة هيكل التى أشعلت فيما يبدو طموحه المشروع . .

وقد وجد مكرم فى صحبة الشرقاوى فى ذلك الوقت بعض العزاء والأمل، فقد كان بينهما من الناحية النسبية تقارب فكرى يعوض ذلك الاغتراب الذى أحس به مكرم مع القيادات التى جاءت بعد هيكل . .

وحينما انتهى اللقاء مع الشرقاوى وانفردت بمكرم أسأله عن رأيه فى كل ما يجرى قال ضاحكا

– الدنيا تتغير يا أبوالفتوح ولم تعد الأساليب والوسائل القديمة تكفى. هناك مخاطر حقيقية ولا يكفى موقف الفرجة والإدانة . .

– ماذا تعنى؟

– أعنى أن الإنسان يمكن أن يلعب دورا فعالا من داخل الظاهرة وليس من خارجها

* * *

ولكن أين حزب الوفد الجديد وأين فؤاد سراج الدين من هذا كله. هذا ما كنت أحاول أن أبحث عنه

لقد كان موقف القوى الأخرى واضحا

اليسار ابتداء من حزب التجمع حتى بعض شخوصه المستقلين يواجهون السياسة الجديدة بأساليب تقليدية ويقفون وحدهم فى الساحة رافعين الصوت بالمعارضة ومعرضين فى نفس الوقت لهجمات متلاحقة من جانب السلطة فى مصادرة صحيفتهم الأهالى وفى هجوم إعلامى مركز من الصحف والإذاعة والتليفزيون . .

والناصريون مقسمون بين التجمع وبين بعض الجماعات الصغيرة التى يقودها كمال أحمد يقلل من تأثيرهم الهجوم المكثف المستتر أحيانا والواضح فى أحيان كثيرة من جانب النظام على عبدالناصر ونظامه . . وكذلك غياب رموزهم الحقيقية داخل السجون بعد انقلاب القصر فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ . .

وحزب العمل الاشتراكى الذى يرأسه إبراهيم شكرى يعيش حالة انعدام وزن بعد أن لعب السادات بذكاء دورا فى تبنيه له حينما كان أول الموقعين على إنشائه كما فرض صهره محمود أبو وافية سكرتيرا عاما له . .

أما حزب الأحرار الصغير ففى حالة تأييد متصل للسادات . . أما الجماعات الدينية

التى بدأ وجودها محسوسا ملموسا بعد أن قدم النظام لها كل المساعدات الممكنة لإبرازها فى مواجهة اليسار فى الجامعات والنقابات فهى تعيش فى حالة وفاق مع النظام يشوبه بين الحين والآخر انفلاتة فى بعض الجماعات المنشقة عن الإخوان المسلمين مثلما كان الأمر فى صالح سرية ومحاولته السيطرة على الكلية الفنية العسكرية بوسائل بدائية أو جماعة شكرى مصطفى واغتيالها الشيخ الذهبى . ولكن الرءوس المفكرة والقائدة للاتجاه الدينى المتمثلة فى جماعة الإخوان المسلمين وبعض رموزها الواضحة مثل التلمسانى وصالح عشماوى وأبو رقيق كانت فى هذه اللحظة تحرص على علاقة حوار طيب مع السادات مرددة بين الحين والآخر فضله عليها فى إخراجهم من السجون وتمكنهم من إصدار جرائدهم ومجلاتهم ، مثل الدعوة والاعتصام موجهة كل سهامها ضد اليسار والناصريين بشكل خاص .

وبالرغم من تحفظهم المعلن إزاء زيارة القدس إلا أنهم ظلوا يعيشون فى حالة انتقام من الماضى دون محاولة جادة حتى ذلك الوقت لاستشفاف المستقبل . .

ولكن أين حزب الوفد الجديد من هذا كله؟!

كنت أتابع فى برلين المحاولات التى كانت تبذل من أجل إعادة تشكيل هذا الحزب فى تعاطف إيجابى .

فمن فى جيلنا يستطيع أن ينسى الدور الكبير الذى لعبه حزب الوفد فى حياة مصر الوطنية والديمقراطية وفى مواجهة الاستعمار والملكية المستبدة . ومن منا لم يبدأ خطواته الأولى فى العمل السياسى بين صفوف هذا الحزب العريق . وحينما مات مصطفى النحاس ١٩٦٥ كنت واحدا من مئات الألوف التى ذهبت تودع هذا الزعيم الوطنى العظيم الذى أعتبره- وأعتقد أن التاريخ سيؤيدنى فى ذلك- واحدا من أهم إن لم يكن أهم زعيم وطنى فى حياة مصر فى النصف الأول من القرن العشرين . وربما كان الزعيم الوحيد الذى امتزجت فيه الأبعاد الثلاثة البعد الوطنى والبعد الديمقراطى والبعد الاجتماعى .

ولقد كان يحلو لى دائما أن أقدم نفسى مازحا :

- وفدى النشأة اشتراكى الهوى والعقيدة . .

ولقد سعدت للغاية حين عرفت أن الصديقين أحمد طه وقبارى عبدالله قد وقعا لحزب الوفد الجديد مساهمة منهما فى إخراجه من الأزمة التى واجهها لاستيفاء الشرط الذى وضع لإعلان أحزاب جديدة حيث لم يستطع أن يستكمل قائمة العشرين

نائبا المطلوبين . . ولذلك رحت أبحث عن الزملاء والأصدقاء من شباب الطليعة الوفدية فى الخمسينيات والتى كانت تمثل الجناح اليسارى الاشتراكى فى حزب الوفد والذين خطوت معهم أولى خطواتى فى العمل السياسى وأنا بعد أزغب يروض الجناح . . .

وفى السابعة مساء توجهت ومعى سيد البكار وأحمد ترابای للقاء مع الباشا . .

فؤاد سراج الدين السكرتير العام لحزب الوفد الجديد .

جلسنا وحدنا فى غرفة من غرف القصر فى جاردن سيتى والذى كان يموج بالعشرات بل والمئات من القادمين والرائحين . . ولم ينس الباشا أن ينبه سكرتيره أنه مشغول ولمدة ساعة . . وهكذا حدد من البداية مدة اللقاء . . ولكنه استغرق فى واقع الأمر أكثر من ساعتين . .

أخذت أتأمل الرجل الجالس أمامى وقد تعدى السبعين بمزيج من الحب والإعجاب وأيضا التحفز ، وأود أن أضيف أيضا بعض الرهبة التى تحس بها فى حضورشخصية آسرة تملك كل مقومات الكاريزم .

لقد رأيته أربع مرات من قبل . . وعن قرب .

المرة الأولى فى ميت غمر فى انتخابات سنة ١٩٤٩ وكان عمرى وقتها لايتعدى العاشرة كان يقوم بجولة انتخابية لمساندة المرشح الوفدى . . وذهبت مع والدى الذى كان أحد المسئولين فى الوفد فى لجنة المركز وظللت طيلة الخطاب الذى استمر أكثر من ساعة أركز على وجهه الممتلئ وتلك الحسنة الكبيرة على صدغه وهذا السيجار المنطفئ أغلب الوقت الذى يضعه بين يديه وكلماته الهادئة التى كانت تنتزع دوما تصفيقا ساخنا وهتافا ممتدا . . وقلبى يخفق بحب كبير له وللنحاس الذى كان هو سيد الناس فى ذلك الوقت . .

والمرة الثانية فى سنة ١٩٥١ فى منزل النحاس فى جاردن سيتى حيث تجمع عدد من قيادات العمل الطلابى فى الجامعة والمدارس الثانوية وكنت أحد القلائل الذين يمثلون المدارس الثانوية للالتقاء بالزعيم مصطفى النحاس للاحتجاج على اعتقال بعض شبان الطليعة الوفدية فى ذلك الوقت . . وتقدم زعماؤنا إلى الزعيم الجليل الذى كان يقف إلى جواره فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فى ذلك الوقت مطالبين بالإفراج الفورى عن هؤلاء الشبان . .

وقال النحاس : مش ممكن . . كيف يحدث اعتقال فى عهدى . .

ورد سراج الدين . . ليس هناك اعتقال إنهم مجموعة من الشبان الذى أثاروا بعض الشغب وكلهم شيوعيون . . وقد احتجزتهم الأقسام يوما أو يومين وأمرت بالإفراج عنهم . .

وهنا تعالت صيحات زعمائنا : لا . . لا . . مازالوا فى الأقسام إنهم وفديون .

وهنا قال النحاس بحسم طيب .

- افرج عنهم يا فؤاد فورا . . وفديون ولا شيوعيون ولا حتى هباب أزرق . .

مش كفاية عليهم الإنجليز . .

وهتفنا فى مرح : يحيا الهباب الأزرق . .

وضحك الجميع بمن فى ذلك فؤاد سراج الدين .

والمرة الثالثة فى مستشفى سجن مصر بعد الانفصال السورى سنة ١٩٦٢ كنت مرحلا من معتقل الواحات إلى مستشفى قصر العينى للعلاج بعد أن تدهورت حالة عينى فى الصحراء ووضعت فى مستشفى سجن مصر بعض الوقت . . وهنا رأيته وجالسته وهالنى بل وأعجبنى ثباته ورباطة جأشه وتحمله لمشاق السجن ، بل وتعايشه مع المساجين على عكس البعض من السياسيين القدامى الذين كانوا فى حالة انهيار كامل وعاشوا فى عزلة فى عنبر مستشفى السجن .

ويومها أيقنت وبغض النظر عن أى خلاف أو اتفاق معه أننى أمام سياسى من طراز خاص لاتنقصه القدرة على النضال .

والمرة الرابعة : فى أواخر الستينيات حينما كنت أقوم بجولة وسط البلد وجذب نظرى تجمع حول أحد محلات المزاد ، وكان المعروض بعض العاديات والتحف الأثرية الجميلة ووجدت فؤاد سراج الدين جالسا يشارك فى هدوء فى المزاد وبخبرة واضحة فى الممارسة وانحنيت له من بعيد ومضيت . .

واليوم أجلس إليه بعد تلك السنوات لأجرى معه حوارا باعتباره سكرتيرا عاما لحزب الوفد الجديد .

اتفقت معه ووافقنى على ذلك بأن نبعد عن صيغة الأسئلة والأجوبة وبأن يُجْرى حوار شامل حول الظروف الراهنة . .

برنامج الحزب الجديد . . مدى ارتباطه أو ابتعاده عن قيم الحزب القديم . . الديمقراطية الليبرالية . . العلمانية . . الانتماء العربى ومواجهة الاستعمار والصهيونية .

الأوضاع الاقتصادية والموقف من إنجازات ثورة يوليو، وخاصة الإصلاح الزراعى والقطاع العام والعدالة الاجتماعية.

وأخيرا زيارة السادات للقدس.. والتقارب المصرى الأمريكى الإسرائيلى.

وتحدث سراج الدين كما لم يتحدث من قبل وكما لم يتحدث من بعد.

ساعتان كاملتان نشرت ما جرى فيهما بالكامل فى عدد خاص من مجلة الوطن العربى فى يوليو سنة ١٩٨٧..

كان أهم ماقاله:

إن الحزب الجديد هو امتداد طبيعى للوفد واضعين فى الاعتبار الظروف والأوضاع المتغيرة على الساحة المحلية والإقليمية والعالمية خلال أكثر من ٣٥ عاما توقف الحزب فيها عن النشاط.

- إنه حريص بل وسعيد أن يكون فى الحزب الجديد تيار يسارى واضح ممثلا فى عدد من أعضاء الهيئة العليا مثل د/ محمد أنيس ود/ حلمى مراد وعدد آخر من قيادات العمل فى لجان المحافظات والأقسام، فذلك كان وسيظل تراث الوفد باعتباره ممثلا للتيار الوطنى الديمقراطى العريض.

- إن الديمقراطية والعلمانية والانتماء العربى ومواجهة الاستعمار والصهيونية هى القواعد الأساسية لبرنامج الحزب القادم، وللوفد تراث كبير فى هذه المجالات وليس من المعقول أن يتخلى الحزب عن هذه المبادئ وخاصة بعد أن ثبت فعاليتها وضرورتها.

- إن الخلاف بين الوفد وثورة يوليو كان خلافا مصطنعا لعبت فى تعميقه عوامل كثيرة.. فالوفد هو الذى كان يقود النضال ضد الاستعمار والملكية.. كما كانت العدالة الاجتماعية أو فلنقل الاشتراكية الديمقراطية هى أحد أهدافه الرئيسة. فالوفد هو الذى أصدر التشريعات العمالية وحق تشكيل النقابات كما كان دائما متعاطفا مع مطالب الفئات الشعبية وصغار الموظفين، كما أن الوفد كان هو الذى قدم قوانين الضريبة التصاعدية والحد من الملكيات الزراعية الكبيرة وقانون من أين لك هذا.. ومجانية التعليم وتقديم الخدمات الصحية والتعليمية المجانية لجماهير الشعب ومد القرى بالمياه العذبة الصالحة..

ولذلك كله فالوفد كان أقرب الأحزاب ومازال إلى مبادئ ثورة يوليو ولكن التطبيق ذهب بهذه المبادئ وانحرف فيها فى كثير من الأحوال.

- إننا مع القطاع العام المنتج ولكننا ضد احتكار الدولة لكل النشاط الاقتصادى ومع الإصلاح الزراعى، ولكن ضد فوضى الإنتاج والتفتيت الشديد فى الملكية الزراعية الذى يؤثر على الإنتاج.

- واذهب وحلل جميع نتائج الانتخابات التى أجريت قبل سنة ١٩٥٢ من كان يمثل القاعدة الانتخابية للوفد.. العمال والفلاحون والمثقفون وصغار الموظفين والرأسمالية الوطنية أليس هذا صحيحا..؟

- إن الوفد يقدر للرئيس السادات إنهاءه لنظام الحزب الواحد وفتح الباب أمام تشكيل الأحزاب المختلفة والذى هيأ الفرصة الموضوعية لقيام حزب الوفد الجديد، لكن القوانين المعمول بها مازالت أبعد كثيرا من أن تحقق الديمقراطية الحقيقية، وأعتقد أن المسيرة ستكون شاقة وطويلة فى هذا المجال، ففى خلال الثلاثين عاما الماضية تشكلت فئات داخل السلطة تعادى الديمقراطية وتعمل للحفاظ على مواقعها وامتيازاتها.

قلت قرب نهاية الحديث...

- ولكن السكرتير العام لحزب الوفد الجديد، لم يقل حتى الآن رأيه فى زيارة السادات للقدس والتقارب المصرى الأمريكى الإسرائيلى.

ضحك الباشا وطلب للجميع فنجانا آخر من القهوة ثم قال:

- اسمع يا أخ فتحى.. أعرف أنك واقعى النظرة.. إننا حزب يقوم وينهض بعد ٣٥ عاما من الحظر والجمود وأحيانا الملاحقة.. ومن الطبيعى أن يكون الهم الأول لنا هو إعادة تشكيل الحزب وإرساء بنيانه..

أما زيارة السادات للقدس فإن أحدا لم يستشرنا قبلها، ولذلك أخذنا موقف الانتظار والترقب.. ولكن موقفنا واضح بالنسبة للدفاع عن حقوق شعب فلسطين فى إقامة دولته المستقلة وبقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، كما أننا سنقف ضد أى حلول جزئية لاتقدم حلا شاملا للمشكلة بما فى ذلك انسحاب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة.

أما بالنسبة لتطوير العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية فنحن بالطبع لسنا ضدها، ولكننا نطالب فى نفس الوقت بإجراء توازن فى العلاقة مع الدولتين العظميين أى نطالب أيضا بعلاقات جيدة مع الاتحاد السوفيتى، ونحن نقدر جيدا المساعدات التى قدمها السوفيت للشعب المصرى..

ولا تنس أن حزب الوفد هو الذى أقام العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى، كما أننا رفضنا فى أوائل الخمسينات الحلف الدفاعى الذى اقترحته أمريكا وبريطانيا فى ذلك الوقت كما أننا رفضنا الاشتراك فى الحرب الكورية التى كانت تقودها أمريكا وأخذنا موقفا حياديا ولذلك فالحياد أو عدم الانحياز هو مبدأ ثابت وأصيل لدى الوفد.

كان سراج الدين طوال الحديث الممتد يتكلم فى هدوء وأيضا فى بساطة مسترجعا بين الحين والآخر بعض الذكريات والأحداث السياسية التى يعود تاريخ بعضها إلى أكثر من.. أربعين عاما..

والغريب أن هذا الشيخ الذى جاوز السبعين عاما، لم يبد عليه أى شكل من أشكال الإرهاق بالعكس كانت الكلمات تتدفق منه حية نابضة وبإحساس شاب بالمستقبل.

وقبل أن أصافحه بل وأقبله مودعا قلت:

هل يرد فى تصورات فؤاد سراج الدين إمكانية أن يرأس وزارة مصرية فى المستقبل؟! وضحك حتى اهتزت وجنتاه واختفت عيناه قائلا..

- ليس ذلك هو المهم، لكن الأهم أننى ظللت طوال تلك السنوات الماضية أحلم بهموم مصر ومشكالها، ولم أسقط فى هوة اليأس والآلام..

ولست أرى أى سبب اليوم لأن أكف عن تلك الأحلام..

[٤٣]

كنت أحلم يوما بأني جان دارك التى أنقذت وطنها، ولكني عندما أفكر فى الرجال الذين عرفتهم أسأل نفسى كيف يستطيع مثل هؤلاء الرجال أن يحاربوا دون أن تلحق بهم الهزيمة.

فتحى غانم - زينب والعرش

نوفمبر ١٩٧٨

سوق عكاظ . . . فى بغداد . .

أمم شتى من جميع الجنسيات والألوان واللغات، أكثر من ٧٠٠ صحفى ومراسل أجنبى يتجمعون صباح ذلك اليوم من أيام نوفمبر البارد فى ساحة المركز الإعلامى على الضفة الأخرى من نهر دجلة جاءوا ليشهدوا واحدا من أهم وأخطر مؤتمرات القمة العربية إن لم يكن أخطرها على الإطلاق كان ومازال له آثاره وبصماته على العالم العربى كله .

لقد وقعت الواقعة وكان ما كان وتم توقيع اتفاقية كامب ديفيد منذ أيام . . وهنا أى بعد وقوع الكارثة تنادت عدد من الدول العربية لعقد مؤتمر طارئ للقمة العربية ، أما قبل ذلك وفى الفترة بين زيارة القدس حتى توقيع الاتفاقية وقد مضى عام كامل توقفت فيه المفاوضات أكثر من مرة وواجهت تموجات عنيفة متناقضة ، لكن أحدا من الأنظمة العربية لم يحرك ساكنا اللهم إلا الإدانات اللفظية والمباريات الإذاعية والإعلامية . .

هل هو المنهج العربى التقليدى فى تناول الأمور الذى ينتظر دائما وقوع الفعل ليبنى رد فعله أم هى الإرادة الأمريكية المهيمنة بشكل أو بآخر على غالبية الأنظمة العربية فحالت دون اتخاذ مبادرات أو تحركات عملية من جانب تلك الأنظمة حتى تكون لها مشيئتها .

أم إن السوفيت وهم القوة الأخرى والتى كان لها حتى عهد قريب دور إيجابى مؤثر قد وقعوا أو وقعت قيادتهم فى خلل آخر، وقد تركوا الأمور تمضى تحت مقولة فلننتظر ونر . . متأثرين فيما يبدو بل وربما منفعلين بتجاوزات سياسة السادات ضدهم، تاركين الساحة فى نهاية الأمر لأمريكا وإسرائيل . .

سوق عكاظ مع فارق أساسى أنه ليس هناك معلقات شعرية تنقش على أستار الكعبة . .

ولكن مبالغات لفظية وخطابات تتراوح بين لهجة الغضب المنفعل والإدانة الشكلية تلقى فى قاعة الرياسة فى بغداد .

والقبائل المتحدثة بالعربية وزعماؤها وصحفيوها يشكلون حلقات فى ساحة قصر الإعلام . .

هذا شيخ قبيلة جاء ليعلن مساندته ومعاضدته . .

وهذا شيخ قبيلة يصيح ويقول . . لقد حان الوقت لنعرف من هم العرب العاربة ومن هم العرب المستعربة . . ومن هم عرب أمريكا ومن هم عرب فلسطين . .

وينهض أحد الشيوخ من أهل الشرق صائحا . .

على مهلكم ياقوم، فلربما يكون الوقت لم يفت بعد، والفرصة لم تضع، فوضونى وأقسموا معى القسم لأذهب إلى القاهرة ألتقى بسلطانها المارق الآبق لعلى أستطيع أن أعيد رتق ما تمزق وأصل ماكان قد انقطع .

واعروبتاه . . وا إسلاماه . . وا فلسطيناه . . . .

كيف تجرأ هذا الرجل على توقيع اتفاقية مع إسرائيل المزعومة؟

ياللهول ويالدمار . . والأعلام الإسرائيلية سترفرف فى القاهرة . . ياللعار . .

والشعب المصرى . . ساكن ضائع، بل مؤيد . . الويل لهم جميعا . . هؤلاء الفراعنة إنهم ليسوا عربا عاربة . أخذوا بالسيف . . بل الجوع والفقر . . لا . . تموت الحرة ولا تأكل بثديها . . ولماذا يبيع هذا الرجل السمسم المقشور بغير المقشور . .

فى كامب ديفيد قضى الأمر . . الويل لمصر وللمصريين . . لننبذهم كما نبذنا إسرائيل . . المقاطعة . . المقاطعة . .

ويأتى قائد عربى همام شارعا سيفه ممتطيا حصانا عربيا أصيلا . . ليلتقى بأهل الإعلام وليقول دعونى وأنا أحرر القدس والقاهرة وواشنطن . .

اتبعونى وسأخوض بكم البحار والأهوال، أهديكم النصر المظفر . .

وزعيم آخر، وضع أمواله وتجارته بل ومصيره الشخصى مع أمريكا، يترك القمة المنعقدة منذ الصباح الباكر ليأتى إلى قصر الإعلام ليعلن أنه قد آن الأوان للجهاد

المقدس . . وإنه شخصيا قد أعلن هذا الجهاد وتصفيق متصل وهتافات بحياة الزعيم الأبدى . . .

وثالث ورابع وخامس . .

كلهم يتركون قاعة الاجتماعات ليلتقوا برجال الإعلام وليقولوا تصريحات نارية ملتهبة فيها من الويل والثبور وعظائم الأمور . . .

مولد وأصحابه ليسوا متغيبين إنهم موجودون ومغيبون . . مولد كبير ورهيب يختلط فيه الدراويش بالسحرة والمشعوذين ، تجد فيه الشيخ والمسيخ الدجال ، وعيسى ويهوذا ومحمدا ومسيلمة . .

والحقيقة ضائعة في موجة من الانفعال الحماسى الأصيل أو المصطنع ، والكل غارق فى حالة الدروشة الانفعالية . .

وكل ساعة ، بل وبين الساعة والساعة ، يأتى زعيم ليلقى خبرا . . المقاطعة . . لمن . . لمصر تكوين جبهة الصمود والتصدى . . ضد من؟ . . . ضد النظام المصرى . . لا وضد كل من يؤيد من الشعب المصرى؟

وأمريكا والمصالح الأمريكية . . نعم نعم . . سننظر فى هذا فيما بعد .

طوال اليوم وأنا أدور حدائق وممرات قصر الإعلام ، صامتا أغلب الوقت ، مشتركا أحيانا فى بعض المناقشات مع صحفيين مصريين وعرب وأجانب ، أرى وأسمع وأراقب ، أذهب إلى الكافيتيريا لأتناول فنجانا من القهوة فى محاولة لفهم مايجرى . .

وانتابنى إحساس غريب ومرير . . . .

إن دور مصر التاريخى ، ذلك الدور الذى تواصلت فيه عوامل جغرافية وبشرية وطبيعية ليجعل منها مفتاح المنطقة بأكملها ، هذا الدور الذى استمر وفرض نفسه وطوال عدة قرون متوالية وممتدة فى أعماق التاريخ ، هذا الدور الذى استوعبه تحتمس ورمسيس . .

وحرصت عليه كليوباترا وشجرة الدر . . والمعز لدين الله الفاطمى وصلاح الدين والظاهر بيبرس وأكده محمد على وإسماعيل ، وأبرزه مصطفى النحاس وجمال عبدالناصر .

هذا الدور التاريخى الرائد والقائد . .

بدا لى اليوم وكأنه يطرح فى المزاد العلنى . .

وحينما جاء محمود رياض أمين عام الجامعة العربية بعد ظهر ذلك اليوم الطويل إلى ساحة قصر الإعلام ليعلن قرار القمة كان وجه الرجل يقول كل شىء . . .

التف حوله مئات الصحفيين يمطرونه بوابل من الأسئلة والاستجوابات . . هل

وصلتم إلى قرار؟ كيف تستمر - وأنت مصرى - أمينا عاما للجامعة العربية؟ . .

من الذى انتصر عرب المهادنة . . أم عرب الصمود والتصدى؟ . . .

جلس الرجل صامتا بعض الوقت فى مواجهة عشرات التصايحات والاستفسارات التى لم تخل من استفزاز شخصى له . . ثم أخيرا أعلن القرار المؤقت الذى توصل إليه القادة المجتمعون بإرسال وفد يضم ثلاثة من الرؤساء والملوك العرب إلى القاهرة للالتقاء بالرئيس السادات فى محاولة أخيرة لإثنائه عن طريق كامب ديفيد . .

وكيف؟ بعرض معونة عاجلة تقدمها الدول العربية الى مصر وتقدر بـ٣ مليارات دولار ومتى؟ إن الوفد فى طريقه الآن إلى القاهرة فى طائرة خاصة، ومن المنتظر أن يعود هذه الليلة . . والقمة فى حالة انعقاد دائم حتى يعود . .

وهاج قصر الإعلام وماج بخليط من الآراء والانفعالات بين مؤيد ومعارض . . لا هذه رشوة للسادات . . بل هذا عين العقل فالشعب المصرى فقير ومحتاج . . إذا كان جوهر المشكلة اقتصاديا فلماذا لم يتحرك أحد من قبل . إنها محاولة لتمييع قرارات المؤتمر . . هناك طابور خامس للسادات فى داخل القمة العربية . . وماذا لو رفض السادات؟ . . . لا . . بالتأكيد سيقبل . .

صح . . غلط . . سيرفض . . سيقبل . . مراهنات تجرى كما لو كنا فى ساحة سباق الخيل . . أو فى أحد كازينوهات القمار المعروفة . . ورئيس تحرير إحدى الصحف العربية يؤكد لمن حوله أنه لو كان قد كلف بهذه المهمة لعاد ومعه توقيع السادات بإلغاء كامب ديفيد . . .

ومراسل رويتر يملى تقريرا له بالتليفون للمركز فى لندن ليقول إن مجرد إرسال هذه البعثة يعنى أن مؤتمر القمة لم يستطع أن يتفق على قرار موحد بشأن الموقف من مصر والسادات . .

والزميل فتحى خليل الصحفى المصرى الذى يعمل فى العراق منذ سنين يقترب حاملا معه فنجانا من القهوة متسائلا . .

- ترى هل يوافق؟

- من؟

- السادات

- على ماذا؟

- حيلك . . أنت مش هنا خالص . . على ذلك العرض العربى . .

- هل أصبحت القضية بيعا وشراء . . إذا كان الأمر كذلك فأمريكا وإسرائيل أقدر . .

وتسرى الشائعات والأخبار . . البعثة وصلت مطار القاهرة . . السادات استقبلهم . . اللقاء استمر وقتا طويلا . . هناك ما يؤكد أن السادات قبل . . بل إنه سيأتى معهم لحضور القمة فى بغداد . . ويضيع ذلك فى خبر آخر . . لا . . . . السادات رفض لقاءهم أصلا . . الوفد العربى فى مطار القاهرة لايعرف أين يتجه . .

ويتجه الكثيرون إلى أجهزة الراديو ، يضبطون المؤشر على راديو القاهرة . . .

فالسادات فى طريقه الآن إلى مجلس الشعب ليلقى خطابا مهما لابد وأنه سيقول شيئا عن وفد القمة التى قابلها أو التى لم يقابلها . . ولم يكن هناك أحد فى موقع ليؤكد أو ينفى كل هذا الكم الهائل من التوقعات أو الشائعات أو الرغبات التى يحولها البعض إلى أخبار . . وأخيرا بدأ السادات خطابه فى مجلس الشعب . . وراح كعادته ينتقل من الهدوء المشحون إلى الانفعال المتفجر ويسرد الروايات والحكايات التى أدمنها فى كل لقاءاته وخطاباته والتى يجسد فيها رغباته وآراءه على أنها رغبات وآراء الشعب المصرى برمته . . وأخذ يقدم تبريراته بتوقيع كامب ديفيد مشيدا بدور أمريكا والرئيس كارتر ثم معرجا على رد الفعل العربى ، وخاصة مؤتمر القمة المنعقد فى بغداد . .

وهنا جال السادات وصال كما لم يفعل من قبل واستنزل اللعنات على العرب أجمعين واصفا إياهم ببعض الألفاظ الخارجة ثم أعلن رفضه بلقاء الوفد الذى أرسله مؤتمر القمة وأنهى خطابه كالعادة وسط تصفيق متصل من مجلس الشعب . .

وأحسست حقيقة بالضياع . . بل تواصل هذا التصفيق الحاد والمتصل فى مجلس الشعب فى ذهنى بذات هذا التصفيق الحاد والمتصل الذى كان يجرى لبعض الزعماء العرب المجتمعين فى بغداد . . نفس المنهج ، نفس الأسلوب ، كأن الأمر قضية ذاتية خاصة يتبادلها هؤلاء الذين يتلقون التصفيق المتصل الحاد . أما شعب مصر ، أما شعب فلسطين أما الشعوب العربية كلها فلهم الله أو الشيطان . .

أما الحقيقة نفسها فقد ضاعت ولم يهتم بها أحد . .

وتأكدت فى لحظة كل توجساتى وهواجسى منذ زيارة القدس . . إن المطلوب هو عزل مصر ، قام السادات بالخطوة الأولى بكامب ديفيد ، وهناك فى العالم العربى على مايبدو من كانوا فى انتظار تلك اللحظة لاستكمال المخطط . .

عزل مصر . . وفى تلك الفترة بالذات التى تتراكم فيها الثروات البترولية الهائلة فى العالم العربى والتى تتيح من الناحية الموضوعية فرصة تاريخية لا تعوض لتحضير وتحديث وتطوير الوطن العربى . .

فى تلك الفترة الفريدة التى يتوافر بها لبلدان المنطقة ثروات هائلة يمكن من خلالها ومن خلال بعض الترشيد والتعقل توجيهها لإقامة مشاريع التنمية والتطور التى يمكن

أن تغير من الوضع العربى الراهن تغييرا جذريا . . فى تلك الفترة بالذات تأتى كامب ديفيد لتقدم مبررا موضوعيا وجاهزا لمن يريد أن يفصل القلب عن الجسد . . .

وإذا تم ذلك فهناك الدمار المحقق . . وهناك الضياع لكل شيء ليس فقط لفلسطين بل والأموال والإنسان والأمانى المشروعة والطموحات الغالية التى جالت وتعمقت وتعتقت لسنوات فى عقول وأحلام المثقفين العرب .

ومضى كل شيء فى بغداد على الطريق الذى كان يبدو أنه مرسوم ومحسوب بدقة . .

وفى اليوم التالى صدرت القرارات التاريخية ، قرارات تنحصر كلها فى كلمة المقاطعة . .

* مقاطعة النظام المصرى . .
* نقل مقر الجامعة العربية من مصر . .
* نقل الاتحادات والمنظمات الجماهيرية من مصر . . .

ثم كلمات عامة وغير محددة عن التشاور والتباحث لتوحيد الصفوف العربية فى مواجهة كامب ديفيد والمؤامرة الإمبريالية الصهيونية . .

ولم يدرك المجتمعون أنهم بتلك القرارات كانوا فى واقع الأمر يدشنون تلك المؤامرة ويعمقونها . .

ولم يكن أحد ليستطيع أن يقدم لى تفسيرا مقنعا فى ذلك اليوم، وأنا أصيح وأكاد أصرخ لمن حولى ، كيف يمكن محاصرة المؤامرة الإمبريالية والصهيونية بعزل الاتحادات والمنظمات الجماهيرية فى مصر . . كيف يمكن أن يكون هناك اتحاد عمال عربى فعال بدون اتحاد عمال مصر . . وكيف يمكن أن يكون هناك اتحاد للصحفيين العرب مع عزل نقابة الصحفيين المصريين . .

أى منطق هذا الذى ساد ، لقد كان المطلوب والمتوقع وفى مواجهة كامب ديفيد هو دعم المنظمات والهيئات الجماهيرية فى مصر ومساندتها إلى الحد الأقصى لكى تقوم بدورها فى محاصرة ومواجهة آثار ونتائج كامب ديفيد . . .

ثم ماذا بعد قرارات الشجب والإدانة والمقاطعة . . التى كانت كلها من نصيب نظام السادات ومصر بشكل عام . . أين أمريكا والمصالح الأمريكية . . وهى منتشرة ومنتعشة ومتحصنة فى أعماق التجمعات العربية . .

تلك المليارات المؤلفة التى تستثمرها بعض الأنظمة العربية وتودعها فى البنوك الأمريكية والتى تصرف منها ومن فوائدها على إسرائيل وعلى كل مايحاصر ويضرب المصالح العربية الحقيقية . .

وتلك الواردات الهائلة من السلع الأمريكية التى تغرق العالم العربى وتستنزف طاقاته ومدخراته، وتصل نسبتها فى الموازنة التجارية لعديد من البلدان العربية إلى أكثر من ٧٠٪ . . . . ولكن جرى عن عمد تجميد بل وأكاد أقول تحييد لدورى أمريكا وإسرائيل، وأصبح المذنب الأول والوحيد هو نظام السادات الذى لم يكن فى واقع الأمر يختلف جوهريا عن الغالبية لكل الأنظمة العربية الموجودة على الساحة فى ذلك الوقت . .

وهكذا انتهت قمة بغداد أو هوجة بغداد دون قرارات حقيقية فعالة سوى القرار التاريخى بمقاطعة مصر وتجميد عضويتها فى الجامعة العربية ونقل الاتحادات الجماهيرية العربية من القاهرة . .

وهكذا دشنت قمة بغداد واستكملت مافعله السادات . . . ووقع الملوك والروساء العرب على الملحق التكميلى لمعاهدة كامب ديفيد . .

وفى المساء التقينا كما كنا نلتقى كل ليلة فى فندق بغداد فى شارع السعدون . . مجموعة من الكتاب والصحفيين العرب وغير العرب منهم طلال سليمان رئيس تحرير السفير وزياد عبدالفتاح رئيس تحرير وكالة وفا ومصطفى الحسينى وعدد آخر من الكتاب المصريين المقيمين فى بغداد، وفتحى خليل وعبدالمنعم الغزالى وعباس صالح . . .

وجرى الحوار حول كل شئ، وتناوب الجميع كل يدلى برأيه أو تصوراته وتوقعاته . . البعض يؤيد القرارات ويرى أنها كفيلة بإسقاط نظام السادات ويبرر منطقه بالأوضاع الاقتصادية المتردية فى مصر، وأن قطع المعونات العربية ومقاطعة المصالح والشركات المصرية ستؤديان إلى انهيار النظام . . والبعض يرى أن قرارات المقاطعة غير كافية وغير حاسمة إذ كان يأمل فى إجراءات أشد وأقوى .

ووصل البعض إلى حد المطالبة بتكوين جيش عربى مشترك لتحرير مصر التى وقعت فى براثن الصهيونية والاستعمار . . . وحينما تساءل أحدهم إذا كان هناك إمكان لتكوين جيش عربى موحد، فلماذا لاتحرر القدس أولا؟! رد الزميل الذى كان مازال فيما أعتقد يعمل رئيسا لتحرير إحدى الصحف العربية التى تصدر فى أوربا وبلهجة ثقة زائدة : -

إن تحرير القدس يأتى عبر القاهرة، وكاتب مصرى يقيم فى الخارج قال وهو يوزع كلماته فى صورة نبوءة نظرية . .

- لقد انتهى الآن دور القاهرة التاريخى فى قيادة الأمة العربية، وانتقل الآن بشكل حاسم إلى . . . . .

وحينما سئل ولماذا هذه العاصمة بالذات، وضع ساقا على ساق وأفرغ كأس الويسكي في جوفه ثم هز يده القصيرة عدة مرات قبل أن يقول . . .

- لأن هذه العاصمة تتوافر لديها كل الإمكانات الموضوعية لذلك . .

تحفز صحفي عربي آخر كان يرى أن عاصمة أخرى هي الأكثر تأهيلا لهذا الدور . . ثم غرق الاثنان في نقاش نظري حاد حول تلك القضية . .

ظللت طوال تلك السهرة التي امتدت حتى الثالثة صباحا صامتا أتأمل الوجوه حولي وبين الحين والآخر أتطلع إلى الفتاة المصرية التي تعمل في مكتب الاستقبال بالفندق، وهي تروح وتجيء أحيانا لتنادي أحد الصحفيين للرد على هاتف عاجل، وتتعرض بين الحين والآخر لمداعبات ومعاكسات الحضور بعضها كان ثقيلا، وهي تردهم بلطف حاسم . . .

قال طلال سليمان ضاحكا وعينه على فتاة الاستقبال:

- والله إن العالم العربي سيظلم في غيبة الشمس المصرية . .

وعقب كاتب عربي آخر صنع اسما مرموقا في عالم الشعر الحديث:

- إن المقاطعة بالطبع لن تشمل الفتيات المصريات .

وثار فتحي خليل على هذه النكتة السخيفة واندفع في حماس غاضب يلعن هذا الكاتب وآراءه وأفكاره ويتهمه بأنه كان دائما معاديا لمصر وللشعب المصري . .

ولكزني طلال سليمان . .

- تجلس صامتا طوال الوقت وكأن الأمر لايعنيك .

قلت . . . مادمتم قد قررتم مقاطعة كل شيء في مصر حتى نقابة الصحفيين فبأي صفة أتكلم . .

قال طلال الذي كان يشاركني كثيرا من أفكاري:

- دعك من السخرية، تعرف أنني أعترض على منهج المقاطعة ولكن أين يكمن الحل في رأيك . .

قلت محاولا إغلاق الحوار . . .

- ليس هناك وصفات جاهزة للحل . . .

قال في إصرار من يريد أن يسمع رأيه على لسان الآخرين . .

- لاتحاول الهرب إنني مصر على أن أسمع رأيك، فأنت مصري اشتراكي تعارض كامب ديفيد وفي نفس الوقت تعارض قرارات بغداد . . فأين يكمن الحل في رأيك . . أو بتعبيركم الاشتراكي أين الحلقة الرئيسية التي يمكن أن تجذب كل الحلقات . .

قلت . . . . . الديمقراطية .

قال . . . . ثم ماذا

قلت . . . الديمقراطية

صاح أحد الجلوس . . وما دخل الديمقراطية بكامب ديفيد .

قلت . . . . . لأنها هى التى ستفرج عن طاقة وإمكانية ١٥٠ مليون عربى بعيدا عن أسوار الأنظمة الفردية وحساباتها . . .

وانفض السامر وذهب كل إلى غرفته بالفندق ولم أكن راغبا أو حتى قادرا على النوم .

وخرجت إلى الشارع فى تلك الساعة المتأخرة من الليل بحثا عن نسمات الهواء البارد والمنعش وعن الصمت النائم خلف الأضواء الخافتة .

ووضعت يدى فى جيبى وأحكمت أزرار الجاكت ثم أخذت أصفر لحنا من ألحان عبدالحليم حافظ وقدماى تدكان وتسمعان على أرض الشارع الخالى ، وذهنى المكدود مازال متوهجا بما جرى خلال اليومين الماضيين مهموما بما يمكن أن يجرى بعد ذلك ، والشارع ممتد أمامى بلا نهاية قريبة وعلى ضى القناديل . . وفجأة استيقظت من كل تلك الأحلام والأوهام على شئ ثقيل يرتطم بى من الخلف حتى كدت أنكفئ على وجهى والتفت ورائى لأرى عربة سوداء . .

وأخذت أردد مع وقع المفاجأة وأنا أبتعد عن العربة . . إيه دا . . مش معقول . . مش معقول . . ونزل عملاقان جسيمان من العربة يبرز فى وجهيهما الممتلئين عيون نفاذة صامتة وشاربان كثيفان وشعر أسود يغطى كل الرأسين .

ودارا حولى فى هدوء تمثيلى وأخذا يتأملاننى بتركيز شديد وأنا أردد احتجاجاتى وأبرز شارة المؤتمر فى عروة الجاكيت كنوع من الحماية . .

ثم عادا إلى مقعديهما فى العربة السوداء وبدون كلمة واحدة وتحرك الموتور وانطلقت العربة تقطع الشارع الطويل ، ولاحظت وأنا أتأملهما من الخلف أنه ليس هناك أرقام لها . . وعدت مسرعا إلى الفندق واتجهت إلى الفتاة المصرية فى الاستقبال أطلب منها أن تحجز لى على أول طائرة تقلع اليوم . . وفى الساعة الخامسة صباحا كنت فى المطار ضمن ركاب الطائرة المسافرة إلى فيينا ومنها إلى برلين . .

[٤٤]

من يتساقط ؟

الرماد.. الحديد... الرجال..

الموت والعويل ... واللهب...

من؟.. . من؟.. .

آه يا أماه... من . .

وإلى أين؟

بابلو نيرودا - سقوط مدريد

مارس سنة ١٩٧٩

آه من الوحدة فى الغربة فى ليلة باردة يختنق قمرها وسط سقيع مثلج . . ماكنت يوما ممن يهيضون الجناح ويستعذبون الآلام، ولكن ماذا أفعل والهم ثقيل على القلب ودواماته لاتكاد تنزاح قليلا حتى تعود تضيق الخناق، والبحر من ورائى بلا سفن ومن أمامى بلا مجداف أو حتى بوصلة، وحتى المرافئ التى قد تبدو على البعد يسكنها الغيلان والقردة . . .

لقد جربت من قبل الحرب والسجن، أصعب وأدق ظروف يمكن أن يمر بها إنسان حيث يكون وحيدا تماما مع نفسه عاريا تماما فى مواجهة نفسه وعليه فى كل لحظة أن يتخذ القرار الذاتى إما الاستمرار أو الاستسلام . إما تحمل المعاناة المكثفة التى تحمل معها فى كل لحظة الموت البدنى أو النفسى واستيعاب ذلك ومواجهته، وإما الانكسار والتفكك الداخلى وكلا الخيارين مر . . .

وفى قرية الطويحر بين الإسماعيلية وبورسعيد، وقفت وأنا على أعتاب العشرين من العمر فى صفوف القتال الأولى حيث كانت القوات الفرنسية والإنجليزية تحتل بورسعيد وكنا نحن مجموعة الشبان والشابات العاملين فى جريدة المساء فى ذلك الوقت نتلقى التدريب العسكرى فى تلك القرية ونمارس تسللا خلف خطوط العدو . .

ولكنا كنا نواجهة أخطار الموت باسمين بل ضاحكين، بل وفى كثير من الأحيان نغنى فى مرح . . كانت قيمة الوطن والتضحية عندنا أغلى بكثير من كل قيمة أخرى، وجنبنا ذلك إحساس التمزق والتشتت والخوف . .

وفى معتقلات الواحات وأبى زعبل والقلعة والحربى وسجون أسيوط وسجن مصر حيث قضيت فيها أكثر من خمس سنوات متصلة فى الستينيات، وعرفت ماذا تعنى الزنازين الرهيبة وعانيت من تعذيبين بدنى ونفسى مع مجموعة من الرفاق والأصدقاء، وفوق كل ماهو معروف من تعذيب ومعاناة . .

ولكن وطوال تلك الفترة كنت قادرا على خلق ابتسامة داخلية مفعمة بالأمل تعبر بى مفازات الخوف وتعالج ضعفى، كلما خنقوا واحدة أو أطفئوها أبادر فى إشعال أخرى لتظل تلقى بظلالها الوارفة بردا وسلاما على جحيم السجن المستعر . .

ولكن الغربة . . . آه من الغربة . . . إنها ليست السجن أو الحرب . . ولكنها أخطر بكثير وأقسى بكثير . .

فأنت فى السجن أو الحرب، تعرف خطأ أو صواب الإجابة على سؤالين خالدين . . لماذا وكيف . . . ؟

تعرف أرض المعركة وأسلحتها، تعرف مع من أنت وضد من تريد أن تكون، ومن أجل ماذا تفعل كل هذا . .

وهى كلها أمور ضرورية فى اللحظات الحاسمة . .

ولكن الوحدة فى الغربة شىء بارد وثقيل مرير . . فليس هناك معركة ظاهرة واضحة، بل خفية مستترة، سلاحها لايدوى وآلامها لاتصرخ وحتى ضحاياها لايعرفون . .

والأرض تحت قدميك مثل الرمال المهتزة وعلى مرمى البصر تبدو لك صور ومرئيات لا تستطيع أن تقطع على وجه اليقين إن كانت سرابا أحكمه عطش الغربة أم الحقيقة نسجتها أحلام العودة .

والويل لمن يسقط فى متاهة الضياع، وهذا على الأقل ماكنت أعيه جيدا . . وإن كانت الظروف قد جعلت منها فخا محكما منصوبا . .

فمنذ حوالى ثلاث سنوات وحينما وافقت على أن أعمل مراسلا لجريدة الجمهورية فى برلين كنت أحسب أنى بإزاء مرحلة استرخاء من التوترات أو فلنقل هربا لبعض الوقت من معارك أثخنتنى بالجراح والعذاب لأعيش فى غربة محدودة أستطيع فيها أن أعالج بعض الثغرات فى عائلتى الصغيرة، فأنقذ عين ابنى وأواصل عملية تثقيف ذاتى مع خبرة أحاول اكتسابها من معايشة مجتمع أوربى متقدم . . ولم أكن

واهما لأتصور أنى ذاهب إلى المانيا للنضال، فلقد كان النضال ومازال يعنى لدى مواجهة الأمر الواقع ومعايشة من الداخل وليس من الخارج من أجل تغييره . . كما لم يخطر لى على باب أننى سأواجه بعد ذلك فى الغربة ماهو أشد وأقسى من أى تعذيب بدنى أو نفسى، وأنى سأواجه مرة أخرى بصورة مكثفة ذلك الخيار الإنسانى التراجيدى فى أن أكون أو لا أكون . . وأن كيانى كله سيتعرض لموجة عاصفة عاتية تهب هذه المرة من الجهات الأربع الأصلية . .

منذ أكثر من شهرين قطعت جريدة الجمهورية راتبى الذى كانت تحوله، وحينما حاولت أن أستفسر عن ذلك جاءنى الخطاب الشهير بأنه قد تقرر إلغاء مكتب الجمهورية فى برلين وعودتى للجريدة فى فترة أقصاها ١٥ يوما وإلا أعتبر نفسى مفصولا من العمل . . إمضاء . . . . واتصلت بالأستاذ محسن محمد رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة فى ذلك الوقت استفسر عن دواعى هذا القرار وأسبابه، كذلك اتصلت بالأستاذ عبدالحميد حمروش العضو المنتدب وكان الرد كلمات متعاطفة من الاثنين دون إعطاء تفسير واضح سوى الجملة الساخرة التى قالها محسن محمد :

– ياأخى الشغل عايزك، عاوزينك معانا فى مصر .

واتصلت بالأستاذ عبدالمنعم الصاوى الذى كان يشغل منصب وزير الإعلام والذى كان يجمعنى به علاقة ود واحترام متبادل وفهمت منه أنها توجيهات رئيس الجمهورية بخصوص الصحفيين والكتاب العاملين فى الخارج بشكل عام . . كان من الواضح أن الرئيس السادات بعد الهجوم الشديد على سياسته فى مصر والعالم العربى قد تكونت لديه «حساسية» خاصة إزاء أى نقد لدرجة أنه فى كثير من خطبه ولقاءاته كان قد أسقط تماما الحد الفاصل بينه كرئيس للجمهورية وبين مصر نفسها، وأصبحت مصر من وجهة نظره هى السادات وأن أى هجوم أو نقد لسياسته هو هجوم على مصر، ولذلك قرر إنزال العقاب بهؤلاء الكتاب الذين يهاجمون سياسة كامب ديفيد باعتبارهم يشوهون سمعة مصر فى الخارج ويقفون ضد بلادهم .

ولم أكن فى الواقع عازفا عن العودة لمصر لأنى أيضا لم أذهب إلى ألمانيا تحت أوهام النضال فى الخارج أو تحت إغراء حل مشاكلى المادية . . ولكن الأمر ببساطة أن الهدف الذى سعيت إليه من غربتى المحدودة لم يكن قد تحقق بعد وهو استكمال عملية التثقيف إذ كنت لم أنته بعد من رسالة الدكتوراه التى سجلتها فى جامعة ليبزج عن الإجراءات الاجتماعية والاقتصادية التى اتخذت فى مصر سنة ١٩٥٢ - ١٩٧٠ وانعكاس ذلك على البنيان الطبقى، كما أن عين ابنى ياسر التى كانت تحت العلاج المتصل خلال تلك السنوات الثلاث لم تستكمل شفاءها بعد . .

فشلت كل الجهود التى بذلتها على التليفونات بين برلين والقاهرة لحل المشكلة، وكان الحل الأخير هو اعتبارى فى إجازة بدون مرتب حتى استكمال رسالة الدكتوراه . . ومن الذى يعطينى المرتب إذن الذى أواجه به الحد الأدنى للحياة فى المهجر والغربة أنا وولداى؟

لقد جربت الفصل من العمل بل والاعتقال أكثر من مرة . . وواجهت متاعب كثيرة مادية ونفسية قاسية، ولكن ذلك كان فى مصر . . حيث الأهل والأصدقاء والدفء فى أحضان الوطن .

ولكن الفصل فى الغربة . . بلا دخل . . وفى أوربا . . . . فى عز البرد . .

كان واجب الأمانة وتحسبا من أى تعقيدات للموقف يقتضيان منى أن أبلغ جهتين بذلك الموقف الجديد . . . قسم الصحافة الأجنبية بوزارة الخارجية الألمانية التى تشرف على اعتماد المراسلين الأجانب . . والسفارة المصرية فى برلين . . قال رئيس قسم الصحافة الأجنبية فى الخارجية الألمانية بعد أن شرحت له الموقف . .

- هر فتاح . . أنت وحدك الذى يستطيع اتخاذ القرار بالاستمرار أو التوقف كمراسل . . أما بالنسبة لنا فأنت معتمد كمراسل جريدة الجمهورية القاهرية ومجلة روزاليوسف . . ولم تخطرنا أية جهة من الجهتين بإنهاء عملك كمراسل حتى الآن، ولذلك فكل التسهيلات السابقة ستستمر . . أما فى السفارة المصرية فلقد ضحك الصديق رءوف غنيم المستشار الأول قائلا . .

- ياعم إحنا نتعامل بالرسميات . . . ولم تخطرنا الجهات المسئولة فى مصر . . والذى تقوله الآن هو بالنسبة لنا كأن لم يكن . . إحنا بتوع الجهات المسئولة فقط . . فأنت لدينا المراسل المصرى المعتمد حتى إخطار آخر . .

كان ذلك بمثابة قطرة أمل عذبة فى هذا المحيط المالح . .

ولكن استمرار التسهيلات لعملى كمراسل سواء من جهة الألمان أم من جانب السفارة المصرية لم يكن يعنى فى واقع الأمر الشىء الكثير . .

فالحقيقة أننى وقفت عاريا تماما أنا وأسرتى وسط ثلوج أوربا القاسية . . .

ولما لم أكن فى يوم من الأيام ممن يوفرون القرش الأبيض لليوم الأسود أعيش حياتى بنهم شديد للمعرفة وفقر شديد فى المدخرات رحت أبحث عن بعض الدفاتر القديمة، وكانت هذه الدفاتر تتمثل فى مقالاتى التى كنت أنشرها فى المجلة العربية فى باريس . .

وبالرغم من أنى فى الفترة الأخيرة لم أجد ترحيبا لنشر آرائى كاملة، وخاصة تلك التى كانت تنتقد قرارات مؤتمر القمة العربى الأخير والتى كانت تحمل الأنظمة العربية

جزءا كبيرا من مسئولية كامب ديفيد إلا أنه كان قد تراكم لى عندهم فى الفترة الماضية حوالى ٨ آلاف فرنك وهو مبلغ ضئيل، ولكنه يمكن أن يسد خانة فى مثل تلك الظروف البائسة . .

وفى كل الشهور الماضية وحينما كنت أسأل عن إرسال مستحقاتى كان الجواب من المسئولين فى المجلة . . إن النقود ستصلنى خلال أيام، وإن الشيك قد وقع وأرسل بالفعل للبنك لتحويله . .

وكانت الظروف المادية الملحة تدفعنى إلى الاتصال يوميا للسؤال عن ذلك المبلغ . .

وكان التهرب المستمر من جانب رئيس التحرير والمسئولين معه يزيد من إحساسى بالضيق والمهانة والموقف المتردى الذى بدأت أحس به، وأعتقد أن كل المصريين أحسوا به من معاملة البعض من ذوى النفوذ والمال فى العالم العربى، وخاصة بعد مؤتمر القمة فى بغداد .

وفى صباح ذات يوم، وعلى غير توقع، طلبت رئيس التحرير فى منزله فى ساعة مبكرة لأذكره بأنه حتى الآن وبعد مرور أكثر من ثلاثة شهور لم تصلنى مستحقاتى من المجلة . . ضبطت كلماتى جيدا وحاولت أن أكون مهذبا فلقد كنت فى حاجة ماسة إلى تلك النقود . . .

وجاء رده متأففا شاكيا من أنى أيقظته فى تلك الساعة المبكرة من الصباح، وأنه كان فى سهرة ولم ينم إلا فى الثالثة صباحا . . .

قلت له وأنا أحاول جاهدا ضبط كلماتى حتى لاتفلت . .

– إنى طوال هذا الشهر أحاول الاتصال بك فى المجلة وفى المنزل ودائما لا أجدك .

قال فى لهجة ناشفة متضررا . .

– كل هذا من أجل حفنة دراهم لاتستحق . .

قلت مواصلا وبوعى اختيار كلماتى ومتجاهلا رده غير المهذب . .

– لأنى فعلا فى حاجة لهذه الدراهم فأنا لست تاجرا أو سمسارا ولا أملك إلا قلما وعقيدة

قال بانفعال مصطنع :

– : خلاص بقينا إحنا تجار وسماسرة وإنتو المفكرين . . آهو إنتم كده يامصريين . . حسنة وأنا سيدك . . فقر وعنطظة . .

وضاعت كل محاولات لضبط النفس ووجدتنى أصرخ فى التليفون . . .

- بتقول إيه يا بن الـ . . . . ياجاهل . . أمثالك هما اللى بيسرقوا جهدنا وعملنا وانت لحم كتافك من خير مصر والمصريين . أنا سمعت أن عندك أكثر من ٨٠ مليون فرنك خليهم ٨٠ مليون و٨ آلاف . . . والله يلعنه زمن اللى خلاك تعمل فى الصحافة . . ويلعنه اللى إداكم الفرصة تحكموا فينا وتتحكموا . .

وكلمات أخرى كثيرة خرجت ولاشك فى تلقائية متفجرة لإنسان جرحت كرامته على يد أحد الذين دنسوا شرف الكلمة ومرغوها فى التراب . .

ولابد وأن صوتى كان عاليا ومحتدا كما كان وجهى يموج بعلامات الغضب والقرف الشديد الأمر الذى جعل ولدىّ «عمرو وياسر» وقد كانا يستعدان للذهاب إلى المدرسة يلتصقان بى فى إشفاق وتساؤل . . . . .

وبالرغم من إيمانى بالمثل القائل : «إن الصدفة ليست صدفة» إلا أن ماحدث فى نفس هذا اليوم قد جعلنى أحك رأسى فى عنف بحثا عن المنطق الخاص الذى يكمن أحيانا خلف الأحداث القدرية ، فلم أكد أجاهد نفسى لإزالة آثار العدوان من فوق وجهى واسترجاع الإبتسامة ، بل وضحكة أقدمها لولدىّ حتى أبدد قلقهما الطفولى بعدما سمعاه ليذهبا إلى المدرسة وهما على يقين بأن كل شىء على مايرام ، حتى دق جرس التليفون وكان الزميل مصطفى الحسينى ليخبرنى أنه هو وطلال سليمان رئيس تحرير السفير فى زيارة عابرة لبرلين ، وأنهما استطاعا بعد جهد أن يعثرا على تليفونى . .

والتقيت بطلال ومصطفى وعرفت أنهما فى طريقهما إلى باريس وأنهما قررا المرور يوما ببرلين من أجل مقابلتى ومن أجل التباحث مع الألمان حول مطبعة جديدة للسفير . .

كان طلال نموذجا مشرفا لرئيس تحرير مجلة عربية ويقدم تعويضا كاملا عن النموذج الآخر . . وقد كان لنا لقاءات سابقة فى القاهرة وبغداد فهو نموذج للصحفى الجاد والباحث عن الحقيقة ، فهو قد يتحمس لهذا الموقف أو ذاك ، وقد يندفع أحيانا فى ذلك الحماس ، وقد يرتبط لظروف خاصة بهذا النظام أو ذاك ، ولكنه يبقى دائما محافظا على جوهر قومى ديمقراطى حاول أن يشيعه فى «السفير» حرصا على تعدد الآراء وتباينها محاولا تأكيد مقولته التى يضعها على رأس صحيفته بأنه «سفير العرب إلى العرب» كما أنه - والحق يقال - كان يتصدى فى شرف وإيمان حقيقى للمحاولات التى كان يبذلها البعض على الساحة العربية للنيل من الشعب المصرى وتاريخه . .

ولذلك لم أتردد كثيرا حينما عرض على أن أكون مراسلا للسفير فى برلين ووسط أوربا وأن أكتب مقالا أسبوعيا . .

ولكنى واضعا أيضا فى الاعتبار ظروفه والحساسيات الكثيرة المحيطة به، وخاصة وأن الجريدة تصدر فى بيروت وأن أفكارى قد تغضب وتثير البعض عليه ممن يملكون القدرة على نسف الصحيفة بالعربيات المفخخة. . حاولت أن أعرف منه أى حدود أو قيود أو محظورات. . فقال طلال بابتسامته الهادئة الذكية:

- شو. . العمى. . أنت تعرف أنه فى عالمنا العربى السعيد وأنظمته المسيطرة فإن كل شىء جميل ومبدع يمكن أن يعتبر من المحظورات. . أنا أدرك وأقدر موقفك المنفرد، اختلافك مع نظام السادات واختلافك أيضا مع الأنظمة العربية الموجودة على الساحة. .

اكتب ما تشاء أن تكتب ومن ناحيتنا سنقوم بالنشر، فإذا كانت لديك الجرأة على الكتابة فلن نكون أقل جرأة فى نشر ماتكتب ولتكن مشيئة الله هى الغالبة.

وكتبت فى السفير رسالة أسبوعية أحارب من خلالها فى جبهتين. . جبهة كامب ديفيد وجبهة بعض الأنظمة العربية التى تسابق كل منها فى العمل على وراثة الدور المصرى بما ذلك تجنيد أكبر عدد من الكتاب والصحفيين واستيعابهم للدفاع عنهم.

ووقفت أحارب تلك «الموجة» التى بدأت تبرز بوضوح بين البعض من المثقفين العرب يشاركهم فى ذلك قلة من المصريين فى الهجوم المستتر والواضح أحيانا ضد الشعب المصرى بتراثه وحضارته وحتى انتمائه العربى. . فلقد تبارى كثيرون فى ذلك الوقت ليتكلموا وبغير علم عن «الفرعونية» وعن تراث الخنوع الموروث لدى الشعب المصرى بعد فترات الاحتلال الأجنبى الطويلة.

ولست أريد أن أذكر هنا نماذج فجة للكثير الذى كتب فى ذلك الوقت للحط من دور مصر التاريخى فى المنطقة والذى قاده شاعر فينيقى معروف ينتمى إلى الحزب القومى السورى ومن لفوا حوله حين أدان أمجد مرحلة تعتز بها مصر والعالم العربى فى الستينيات بأنها محاولة فرعونية لاستعادة إمبراطورية مصر على حساب العرب، بل وتجاوز البعض ذلك فى الهجوم على التراث الثقافى المصرى الحديث باعتباره مزيجا من الفرعونية القديمة والماسونية الحديثة وصل إلى حد اتهام طه حسين بالدفاع عن الفكر الصهيونى والهجوم المكثف على الرموز الثقافية المعاصرة مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ والشرقاوى ولويس عوض مع أن الشرقاوى ولويس عوض كانا من المعارضين لكامب ديفيد. .

وتم خلط كثير من الأوراق عن عمد أو غير عمد وخرجت أقلام صفراء تساندها ثروات بترولية هائلة تشوه وتحط من قدر كل ماهو مصرى. . وكنت أدافع عن طه حسين والشرقاوى ولويس عوض، بل ودافعت عن توفيق الحكيم وحسين فوزى

ونجيب محفوظ ودورهم فى إثراء الثقافة العربية رغم اختلافى معهم فى تأييدهم لكامب ديفيد وضربت مثلا بجون شتاينيك الكاتب الأمريكى العظيم الذى أبدع «عناقيد الغضب» و«شرق عدن» و«رجال وفئران» وغيرها من الروايات التى أثرت الفكر التقدمى كله، وقلت إن تأييد شتاينيك للحرب الأمريكية ضد الشعب الفيتنامى فى الستينيات خطأ سياسى وقع فيه ويحسب، ولكننا لايمكن وبجرة قلم أن نتجاهل تراثه وتاريخه المدافع عن البشرية وتقدمها.

كذلك بليخانوف الذى أثرى الفكر الاشتراكى العالمى، وخاصة كتابه الرائع «دور الفرد فى التاريخ» ورغم أنه بعد ذلك وقف ضد الثورة إلا أن لينين كان يقول دائما إنه من لم يقرأ بليخانوف لايعرف حقيقة الاشتراكية.

وكذلك الأمر بالنسبة للمفكر الألمانى كاوتسكى الذى ارتد بعد ذلك، ولكن أحدا لايمكنه أن ينكر إسهاماته الخلاقة فى كثير من قضايا الفكر الاشتراكى.

وفى كل ذلك كنت لا أمل من ترداد أن الهدف الرئيسى من كامب ديفيد هو عزل مصر عن العالم العربى وعزل العالم العربى عن مصر . . .

ففى وقت تتراكم فيه الثروات البترولية الهائلة ويرتفع ثمن البرميل الواحد من عشرات السنتيمات إلى عشرات الدولارات فى أعقاب حرب أكتوبر وتشهد المنطقة العربية أكبر حركة للتراكم الرأسمالى أو للتراكم المالى والذى جرى بوتيرة سريعة غير مسبوقة تفوق بكثير حركة التراكم الرأسمالى التى جرت فى أوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ذلك التراكم الذى جاء بعيدا إلى حد كبير عن تطور وسائل وأدوات وقوى الإنتاج نفسها بعكس الذى تم فى أوربا فى قرنين من الزمان. .

فى هذه الفترة بالتحديد التى تحتاج مصر للعرب ويحتاج العرب فيها إلى مصر للمزج الصحى والإيجابى بين الخبرة الفنية المتقدمة والأموال الهائلة المتراكمة ولتحويلهما إلى مشروعات حضارية عملاقة يمكن أن تغير من وجه الحياة كلها فى المنطقة. . يتم توقيع كامب ديفيد لتعطى المبرر المنطقى لأخطر مؤامرة استعمارية تعرض لها العالم العربى ويشارك فيها بوعى أو بدون وعى غالبية الأنظمة الموجودة على الساحة. .

ولذلك بدأت إحدى الإذاعات الموجهة فى إحدى الدول العربية والتى كان يشرف عليها أحد المصريين توجه هجوما شديدا على وتتهمنى بإشاعة أفكار خطرة تتستر تحت دعاوى تقدمية دفاعا عن كامب ديفيد ونظام السادات. .

وهكذا تحولت كامب ديفيد إلى شماعة يعلق عليها الجميع أخطاءهم ويحققون مآربهم الخاصة ويتاجرون بها فى استثمارات مريبة رغم أنهم كانوا فى واقع الأمر،

سواء أدركوا ذلك أو لم يدركوه . . . . يستكملون خطوط المؤامرة التى بدأت بتوقيع هذه الاتفاقية المشئومة . . على أن أهم ماكان يجرح أعماقى بل ويدميها هو أن عددا من المصريين فى أوربا والخارج والذين كنت أكن لبعضهم كل التقدير والاحترام وجمعتنى بهم ظروف نضالية فى الماضى وقعوا هم الآخرون فى ذلك الخطأ . .

وراح بعضهم يعمل مع هذا النظام أو ذاك . .

لم يكن يهمنى أسماء بعينها من المصريين فى الخارج وضعت فى أيديهم الأموال وتذاكر الطائرات للمرور على المصريين لتجنيدهم للعمل والدفاع عن الأنظمة العربية المختلفة، فهم كانوا دائما كذلك حتى أثناء إقامتهم فى مصر، ولكن الذى آلمنى حقا أن أرى زملاء نضال دفعوا الكثير من حياتهم فى السجون والمعتقلات وارتبطت أسماؤهم بمواقف مشرفة فى الماضى، يقعون فى هذا الخطأ التاريخى وتختلط عليهم الأمور.

صديق كان - ومازال - عزيزا على القلب زارنى فى برلين وجلسنا ليلة كاملة نجتر ذكريات الماضى ونتحسب لواقع الغربة حاول جاهدا وطوال الليلة أن يقنعنى بأن النظام فى بلد شقيق هو أفضل القوى الموجودة على الساحة العربية وأنه يمتلك القوة والقدرة لتحقيق الثورة الوطنية الديمقراطية على نطاق العالم العربى، وأن النظام هناك فى البلد الآخر دكتاتورى طائفى الخ . . . . .

والغريب أنه فى نفس الأسبوع زارنى صديق مصرى آخر كان يعمل فى إذاعة ذاك البلد الآخر وكرر نفس الكلام عن دور النظام الخلاق والموقف الصلب فى مواجهة الإمبريالية والصهيونية وأن واجبنا وواجب كل عربى هو مساندة ذلك النظام فى المعركة التى يخوضها من أجل العزة والوحدة العربية.

وحينما قلت له رأى رفيق النضال الآخر الذى كان عندى منذ أسبوع فى ذلك النظام اندفع غاضبا . .

- وهل هذا الكلام . . . إن الدكتاتورية الحقيقة موجودة هناك. إنهم يسحلون القوى التقدمية . . واتسع المزاد لمن يستطيع أن يشترى الدور المصرى المفقود وتدفقت أموال البترول العربى تنساب إلى الخارج من خلال أنظمة هيئ لها أنها مرشحة للفوز بالدور المصرى وبالزعامة . . ومن أجل هذا الهدف تم تدمير وتخريب كل شئ بمن فى ذلك البعض من المصريين فى الخارج . .

وزاد التفتت والتشتت فى العالم العربى واندفعت الطموحات الفردية للحكام العرب فى محاولة لتحقيق أحلام مستحيلة، ولم تعد القضية هى وحدة الشعوب العربية ضد الصهيونية والاستعمار والدفاع عن قضية شعب فلسطين ومحاصرة منهج

كامب ديفيد لطرح منهج آخر متكامل، بل كان كل نظام يطرح نفسه على الساحة منفردا باعتباره المنقذ مدعوما بالثروات الهائلة التى تدفقت فى تلك السنوات مهاجما كل الأنظمة والحكام الآخرين متهما إياهم بأحط التهم.

وإزاء هذا الاندفاع البدائى والذى لا يسنده منطق أو واقع ضاعت القضايا الرئيسية للشعوب العربية وضاعت الديمقراطية والحرية وأبسط حقوق للإنسان فى اندفاعة الأوهام الزعامية للحكام والأنظمة العربية.

وفى تلك الفترة جاءنى زميلان عزيزان كان أحدهما رئيسا لتحرير إحدى المجلات الشهرية المحترمة فى الستينات وأوائل السبعينات، كانا يحملان اقتراحا بتشكيل اتحاد للكتاب المصريين فى الخارج ناقشاه مع عدد كبير من الكتاب والصحفيين المصريين العاملين فى البلدان العربية وفى بعض البلدان الأوربية.

وفهمت منهما أن هناك موافقة واسعة بينهم، كما أن هناك اتفاقا قد تم مع الاتحاد العام للكتاب العرب بقبول الاتحاد الجديد.

استمعت فى هدوء حزين إلى كل ماقاله الزميلان المدعوم بوثائق تحمل توقيعات عدد لا بأس به من الكتاب المصريين فى الخارج مع تأكيدهما بأنهما حرصا على القدوم إلى برلين لمقابلتى بشكل خاص تقديرا منهما لدورى فى الحركة الديمقراطية المصرية ولظروفى الخاصة بعد أن قطعت الجمهورية راتبى وبوعد بأن أحتل مركزا فى الاتحاد الجديد يمكن أن يعوضنى الكثير عما فقدته. . قلت للزميلين بعد أن فرغا من الحديث عن مشروعهما الذى أعد له بدقة إننى أرفض ذلك الاتحاد من ناحية المبدأ كما أرفض أى شكل من أشكال تنظيمية أو منظمات تكون بديلة عن المؤسسات الجماهيرية داخل مصر. .

وقلت لهما إنه كان من الأولى أن تبذل الجهود لوقف تلك المأساة التى تجرى من جانب الأنظمة العربية بمقاطعة الاتحادات والمؤسسات الجماهيرية فى مصر وخلق تنظيمات شكلية بديلة فى الخارج.

وقلت أيضا إن هذه التنظيمات فى الخارج لن تكون مصرية إلا من ناحية الشكل. أما تحركاتها وأهدافها فسيحددها من يمولها وبالتالى فستكون فى خدمة هذا النظام العربى أو ذاك وليس فى خدمة الشعب المصرى والأهداف القومية العربية.

وحذرت من أن هذا الاتجاه بتشكيل اتحاد للكتاب المصريين فى الخارج يمكن أن يؤدى إلى نتائج خطيرة مثل التفكير فى تشكيل اتحاد للعمال المصريين فى الخارج واتحاد للشباب المصريين فى الخارج ومن يدرى قد يقترح أحدهم إقامة حكومة مصرية فى الخارج.

وطلبت منهما كصديقين التخلى عن هذه الأفكار الخطرة التى لاتخدم سوى بعض الطموحات الفردية لدى بعض الحكام العرب، وبأن دورنا الحقيقى هو دعم ومساندة المنظمات الجماهيرية داخل مصر لكى تلعب دورها فى الضغط من أجل تغيير السياسات الخاطئة للنظام وفى الوقت نفسه محاولة وقف هذا الاتجاه الخطر الذى يمزج بين مواجهة سياسة كامب ديفيد وبين مقاطعة الشعب المصرى الذى بات واضحا منذ قمة بغداد . . . .

من الواضح أن الزميلين لم يقتنعا بمنطقى، ليس هذا فقط، بل كان وجهاهما - وبالذات رئيس التحرير السابق - يقولان الكثير وأنا أودعهما صباح اليوم التالى وهما فى طريقهما للمرور على جماعة باريس ولنفس الغرض . .

قال أحدهما مصافحا . .

- كنت أحسب أنك أنت بالذات ستكون أكثرنا حماسا بعدما جرى لك ماجرى . .

وقال الآخر :

- على أية حال لقد استمعنا إلى وجهة نظرك، ولكن كل ما نرجوه ألا تحارب الفكرة وإلا ستؤدى إلى انقسام الصفوف وعليك احترام آراء الأغلبية .

قلت ضاحكا . . إننا لسنا فى تنظيم تنطبق فيه قواعد الأقلية والأغلبية . . وحتى تكون على بينة فلقد كتبت بالأمس مقالين حول رأيى فى الموضوع : أحدهما لجريدة السفير فى بيروت والآخر لجريدة الأهالى فى القاهرة . .

ولقد نشرت المقالتان بالفعل، إلا أن فكرة إنشاء الاتحاد ظلت تراود البعض لفترة وشكلوا هيئة تأسيسة اجتمعت فى بغداد، ولكن الضجة التى أثرتها كذلك وقوف بعض الكتاب من أمثال محمود أمين العالم ونبيل بدران وعدد آخر من المصريين المقيمين فى الخارج استطاعا فى النهاية أن يحاصرا هذا الاتجاه، ولم تلتق اللجنة التأسيسية لاتحاد الكتاب المصريين فى الخارج بعد ذلك أبدا، إلا أن فكرة إنشاء اتحادات ومنظمات جماهيرية مصرية فى الخارج ظلت تراود البعض، وخاصة هؤلاء الذين كانوا قد قرروا فيما بينهم البقاء فى الخارج فى بعض العواصم الأوربية، وحاولوا أن يلبسوا مصالحهم الخاصة ثوب العمل الوطنى العام، فحاول هذا البعض إنشاء اتحاد للعمال المصريين فى الخارج، تزعمه واحد ممن كان قد أمضى بالفعل أكثر من عشرين عاما فى أوربا دون أن يقوم بزيارة واحدة لبلده . .

وتحول هذا الاتحاد الشكلى فى واقع الأمر إلى مكتب سفريات لعدد محدود للغاية .

مزاد حزين . . اشترك فيه المهرجون والأفاقون ووقع فى مصيدته البعض من

أصحاب النيات الحسنة والتاريخ النضالى الطويل . . ولم أكد أفرغ من حكاية الاتحاد ومسانديه حينما جاء إلى برلين كاتب مصرى معروف كان يقيم فى بغداد ثم استقر المقام به فى موسكو . كنت أحب هذا الكاتب والشاعر الذى تعلمنا منه ونحن صغار أغانى الثورة والتحرر ، وكانت انطلاقاته التلقائية فى مجالات الشعر والحب وخفة دمه الممزوجة دائما بروح شابة متوثبة تغفر له عند الكثير من مريديه ومحبيه بعض الشطحات الفكرية وغير الفكرية .

- أهلا يا أبوالفتوح . . أنا جاى من موسكو مخصوص أهنيك على موقفك الرائع بالنسبة لفكرة اتحاد الكتاب فى الخارج . .

طول عمرك أصيل وجدع . .

- أهلا ياقديس . . . إحنا تلامذتك برضه .

كنت سعيدا فرحا به ، ولقد كانت خفة دمه التى لاتبارى ونهمه بل وشبقه المعروف للحياة وتعليقاته الساخرة التى تفجر الضحك من قلبك والدموع فى عينيك كفيلة بأن تضفى على الحياة فى برلين بسمة أمل موحية كنت فى أشد الحاجة إليها . ولم أر فى حياتى ولقاءاتى معه سواء فى السجن أو فى جريدة الجمهورية أو فى بعض السهرات المشتركة التى كانت تجمعنا أحيانا فى القاهرة . . سوى إصرار عنيد على حب الحياة ومواجهة أعقد المشاكل .

ومازلت أذكر حين دخل على أحد رؤساء التحرير فى الستينات والذى كان يمنع مقالاته قائلا له :

- حتى أنت يا أخنف نوتردام .

وظلت الكلمة لصيقة بالرجل الذى كان يتكلم أكثر من أنفه حتى مات . .

كذلك الوصف الذى أطلقه على أحد الزملاء فى السجن والذى كان عنيفا حادا فى مناقشاته وآرائه بأنه . . هولاكو الأهتم . .

وذهبنا فى المساء لزيارة ابنته التى كانت تدرس آداب اللغة الألمانية فى جامعة هامبولت ببرلين وتقيم فى المدينة الجامعية مع أربع من زميلاتها الألمانيات فى شقة واحدة . . وجلس القديس متوهجا متألقا بين الفتيات الألمانيات يحكى ونحن نترجم للطالبات الألمانيات فيغرقن فى الضحك والانبهار ثم التفت إلى بعد فترة قائلا بنبرة لايخطئها من يعرفه .

- اتفضل أنت يا أبوالفتوح روح لولادك . . أنا هبات الليلة مع بنتى أصلها وحشانى قوى وفى الصباح طلب منى أن أذهب إلى فندق «متروبول» حيث هناك مسئول عربى

كبير يعرفه وفى الطريق إلى الفندق أخذ يهاجم كل الأنظمة العربية ويدافع فى نفس الوقت عن هذا المسئول والنظام الذى ينتمى إليه باعتباره نظاما وطنيا على رأسه شبان متحمسون قد تنقصهم الخبرة ولكنهم متميزون بالإخلاص. ولما أبديت له خلافى معه فى هذا الرأى واقتناعى بأن هذا النظام مثله مثل بعض الأنظمة الموجودة على الساحة العربية يسعى إلى فرض زعامة فردية.

قال القديس:

- خلى آراءك دى لنفسك. المهم تقعد ساكت وماتتكلمش حين نلتقى بالرجل عدنى بذلك.. ووعدته..

والتقينا بالرجل الذى كان يعد واحدا من ألمع المسئولين فى نظام عربى بترولى مسئول عن تنظيم يمتلك إمكانات مادية هائلة.. وبالرغم من أنه كان مهذبا وودودا مع ترحيبه الواسع بالقديس وبى إلا أنه حينما بدأ يتحدث عن الأوضاع فى العالم العربى تتقمصه روح الوهم الكاذب بأنه هو وتنظيمه ونظامه منوط بهم مهمة مقدسة فى تحرير العالم العربى كله من الاستعمار والصهيونية وكامب ديفيد ومن كل الأنظمة الموجودة على الساحة.. أخذت أستمع إلى الرجل وفى صبر مكتوم، وكلما هممت بأن أنطق لأوضح له حقيقة الأوهام التى يرددها، أسرع القديس يضغط على يدى مطالبا الالتزام بوعدى ثم يقوم ويحتضن المسئول العربى قائلا فى لهجة مسرحية توحى بالكثير وبأكثر من معنى...

- ياسلام.. ياسلام.. أنا مش عارف العالم العربى كان يقدر يعمل إيه من غيرك..

وكلما سمع المسئول العربى ذلك يندفع أكثر فأكثر فى تكرار آرائه الساذجة وكأنه ينطق بمقولات نظرية خطيرة يكمن فيها الشفاء الناجع لكل موبقات الأمة العربية، ثم تطرق بحديثه إلى مصر والأوضاع فيها مرددا كل تلك الدعاوى المريضة عن خنوع الشعب المصرى ورضوخه للاستبداد نظرا لفقره الشديد، وبأن عبدالناصر كان فلتة لن تتكرر.. ولما لم أعد قادرا على احتمال ترهات هذا الزعيم العربى كذلك التزامى بالعهد الذى قطعته على نفسى مع القديس بألا أتكلم فقد قمت مستأذنا بأن لدى موعدا مهما، وجريت إلى الشارع أفضفض بينى وبين نفسى وبصوت عال مسموع لاعنا هذا الزمن الردىء الذى جاء بأمثال هؤلاء الناس على رأس الأنظمة العربية....

فى المساء التقيت بالقديس الذى عاتبنى على تصرفى قائلا.....

- خليك واقعى.. إن هذا المسئول هو من أكثر الناس معقولية وعلى استعداد لأن يفهم ويتعلم وهذا دورنا مع أمثاله، فهو قرأ لنا وقرأ لك أنت بالذات كتابك «شيوعيون وناصريون» فأبدى إعجابه به، ولذلك فلقد اتفقت معه على أن تكتب لهم مقالات فى

مجلاتهم وسيدفعون لك أجرا محترما يعوضك عن الملاليم التى كانت ترسلها الجمهورية لك .

صرخت فى الرجل الذى كنت ومازلت أحبه :

– لا كله إلا ده ياقديس لقد تعلمنا منك أن تموت الحرة ولا تأكل بثديها .

– ياسيدى اكتب اللى أنت عايزه وهما ينشروه أو لا ينشروه . . مش مهم . . المهم تحل مشكلتك أنت وأولادك . . . أنت مش بتكتب فى السفير . . ماهم لهم فيها .

– أنا لايهمنى من له ومن ليس له فى السفير . . لكنهم ينشرون كل ما أكتبه دون تدخل ورئيس التحرير ملتزم بوعده معى . أما أن أكتب فى صحافة نظام معين من تلك الأنظمة فدون ذلك ألف سبب وسبب .

قال القديس فى خفة دم الأستاذ الذى يقدر تلميذه . . والله هدنك فلاح وأهبل . . . يابنى يا حبيبى دول قاعدين على تلال من الذهب جت لهم من السماء . . نعلمهم إزاى يصرفوها فى أمور جادة ومفيدة . . دا حقنا وواجبنا أيضا ، هى كانت فلوس أبوهم دى فلوس الشعب العربى كله . . الله يرحمه عبدالناصر كان فارض عليهم هذه الحقيقة أما أبوالأسود الدؤلى «يعنى أنور السادات» الله . . هو الذى خلق هذا الوضع . . قلت ضاحكا . .

كان أبوالأسود صديقك يوما ما .

قال القديس فى انفعال . . لعنة الله عليه إلى يوم الدين؟ لقد ضيع مصر وضيع العرب . . ثم انفرد عملاقا عظيما وهو يقول :

قم بنا نغز بنات الچرمان . . فهن على الأقل أكثر تحضرا . .

[٤٥]

أستطيع الليلة أن أكتب أشد القصائد حزنا فالليلة
ساطعة النجوم..
والأفلاك زرقاء على البعد ترتعش بردا.
وعواصف الليل تطوف بالسماء.
تغنى فى وحدة...

بابلو نيرودا - اغنية بائسة

ديسمبر سنة ١٩٧٩

نسمات أعياد الميلاد تهب فى كل مكان . .

وسواء أردت أو لم ترد، حتى لو كنت مهموما غارقا ومستغرقا فى تلال من المشاكل فلابد أن تتذكر أنك على أعتاب عام جديد . .

إن أحدا لايترك لك الفرصة . . الناس والشوارع والأشجار . . ثم دقات الكنائس التى لاتكف طوال الشهر . .

ليس المهم أن تذكر المسيح وأمه المطاردة فى مثل هذا اليوم، أو تتذكر طريق الآلام وهو يحمل صليبه وحول عنقه تاج الأشواك ويصلب بجوار اللص . . هذا الذى تجرأ ليقول إن ملكوت الأرض للمساكين والكادحين وأبناء الله الطيبين . .

لا، ليس عليك أن تتذكر كل هذا، فالمحلات المفتوحة حتى ساعة متأخرة من الليل والشوارع الغارقة فى عرس من الضوء، والنساء والرجال والأطفال الذين يقفزون من مكان إلى مكان باحثين عن الهدايا وأشجار أعياد الميلاد التى تقتلع فى قسوة من الغابات لتزدان بها الشقق والبيوت . . وحتى موسيقا الأرغن التى تصدح ساعات طويلة من الليل والنهار فى الكنائس العتيقة . . كل ذلك لايذكرك أبدا بالمسيح وأمه المطاردة فى مثل هذا اليوم . .

حتى طفليّ انشغلا مع مجموعات من زملائهما فى المدرسة وراحوا يمرون على الشقق والبيوت للحصول على أى فائض لايحتاجه أهل الشقة من ملابس قديمة وزجاجات فارغة وبعض الأدوات واللعب ليقوموا ببيعها وليشتروا بها هدايا للأطفال الذين فقدوا والديهم أو العجائز من الرجال والنساء الذين يقيمون وحدهم .

وذات مساء سألنى ياسر الصغير . .

– هل نحتفل فى مصر أيضا بعيد ميلاد النبى .

قلت له مطمئنا .

– نعم . . المسلمون فى كل أنحاء العالم يحتلفون بمولد النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

قال فى إصرار طفولى :

– ما الفرق بين عيد ميلاد المسيح وعيد ميلاد النبى .

قلت له وأنا أحاول أن أجيب على خواطره وتساؤلاته :

– إن المسيح كان إنسانا عظيما ، وقف ضد الظلم والطغيان ومن أجل الفقراء والمضطهدين . . ثم جاء بعده النبى محمد عليه الصلاة والسلام فأكمل الرسالة ودافع عن العدالة والمساواة فى وجه أعداء العدالة والمساواة من أهل الجاهلية . .

والواقع أن الاحتفالات بأعياد الميلاد فى ألمانيا الديمقراطية كانت تأخذ أبعادا واسعة ربما أكثر من غيرها من البلدان الأوربية ، ولعل ذلك يعود إلى تلك السياسة التى انتهجها النظام والحزب الحاكم هناك فى محاولة المزج بين الاشتراكية والدين . . . أو بمعنى آخر محاولة إسقاط التهم التى كانت توجه إلى النظام بأنه ضد الدين ، فالدستور الجديد الذى كان قد صدر منذ أعوام ينص بوضوح على حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية ويعد أى تدخل من جانب فرد أو مجموعة أفراد للحد من هذه الحرية أو المساس بهذه الشعائر جريمة يعاقب عليها القانون .

وهناك حزب علنى هو الاتحاد المسيحى الديمقراطى يمارس نشاطه ويملك صحيفة يومية تعبر عنه ويمثله فى البرلمان عدد من النواب يمثلون ١٠٪ من مجموع أعضاء مجلس الشعب ، بل وأكثر من ذلك . . فقد رأس ايرك هونبكر السكرتير العام للحزب الاشتراكى الألمانى الموحد «الحزب الشيوعى» وهو الحزب الحاكم اللجنة الخاصة التى شكلت هذا العام للاحتفال بمرور ٥٠٠ عام على ميلاد المفكر والزعيم الدينى الكبير مارتن لوثر ووقف ليقول فى خطاب عام :

«إن مارتن لوثر واحد من أبرز القادة الإنسانيين الذين ناضلوا من أجل عالم أفضل ومما لا شك فيه أن التراث التقدمى الذى نواصله يشمل ميراث وأعمال كل هؤلاء الذين شاركوا من أجل تطوير الثقافة العالمية بغض النظر عن وضعهم الاجتماعى

والطبقى، ولذلك وفى المجتمع الاشتراكى الذى يسعى للقضاء على استغلال الإنسان للإنسان فإن جهود لوثر الخلاقة والهادفة قد أصبحت دافعا أساسيا للجهود المشتركة بين المسيحيين وغير المسيحيين لبناء الاشتراكية . . . »

ولقد شغلت نفسى بهذه القضية فترة من الوقت واستطعت أن ألتقى بالهر جيرالد جوتنج رئيس الحزب المسيحى الديمقراطى ونائب رئيس مجلس الدولة، وقد سألت عن الدور الذى يلعبه حزبه أو الذى يمكن أن يلعبه فى مجتمع يعتنق الاشتراكية العلمية .

قال لى الرجل بصراحته المعروفة عنه :

- إننا لسنا ماركسيين طبعا . . وهذه نقطة خلافية مع الحزب الحاكم، ولكننا لانتوقف كثيرا عند هذا الخلاف لأننا نهتم بما هو أجدى وأنفع، نحن نتفق مع الحزب الحاكم على غالبية البرامج الاجتماعية والاقتصادية التى تتخذ، وخاصة تلك التى تعمل على رفع الظروف المعيشية للمواطن، ونحن داخل الجبهة الوطنية نتفق ونختلف، ولكننا غالبا ما نصل إلى برامج وأهداف مرحلية مشتركة .

قلت له مرة أخرى .

- هل ترى هناك دورا للكنيسة فى المجتمع الاشتراكى .

قال فى ابتسامة مقنعة ومقتنعة .

- أرى أن هناك دورا أكبر للكنيسة فى المجتمع الاشتراكى . . ما هو دور الكنيسة الحقيقى؟ . . . ماهو الهدف الأساسى للدين المسيحى، بل ولكل الأديان؟ . . . أليس الدفاع عن الإنسان عن حريته واستقراره . . ورخائه . . عن توفير الأمن والعدالة . أليس للقضاء على كل الموبقات وعلى رأسها استغلال الإنسان لأخيه الانسان . . إذا كان الأمر كذلك، أليس من الطبيعى أن يجد رجال الكنيسة فى المجتمع الاشتراكى فرصة أكبر لتحقيق أهداف الدين الحقيقية . . ولخلق ملكوت الله على الأرض فى إشاعة الحق والعدل والتعاون الإنسانى المثمر . . . .

ولكن إذا كان الموقف كذلك فى ألمانيا الديمقراطية . . فإنه يختلف فى بلد اشتراكى مجاور مثل بولندا التى كانت الأحداث تجرى فيها بشكل معاكس تماما ويتعمق التناقض بين النظام الحاكم والكنيسة .

فمنذ اختيار الكاردينال كارول فيتوليا أسقف كنيسة كراكوف البولندية ليكون البابا الجديد فى الفاتيكان باسم يوحنا بولس، والكنيسة البولندية تفرض نفسها بشكل قوى على النظام والمجتمع البولندى يساعدها فى ذلك ولاشك الدور القومى الذى لعبته الكنيسة «الكاثوليكية» فى الدفاع عن مصالح القومية البولندية الصغيرة والمضطهدة

تاريخيا من قوميتين كبيرتين على الحدود هما الروسية والبروسية ، واللتان كانتا تتبادلان أو تتقاسمان السيطرة والنفوذ على بولندا ، تم ذلك أيام القياصرة فى روسيا وأيام الأباطرة فى ألمانيا ، مثلما تم فى بداية الحرب العالمية الثانية ومع اتفاق عدم الاعتداء الذى وقعه ستالين مع هتلر . .

ومن ناحية أخرى فإن الحزب الشيوعى البولندى الذى كان حزبا صغيرا قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية وتحرير الجيش الأحمر الروسى لبولندا من الاستعمار النازى ، لم يستطع وخلال ثلاثين عاما فى السلطة أن يوسع قواعده الجماهيرية نتيجة أخطاء ذاتية وموضوعية . .

ولذلك فعندما أضرب العمال فى حوض لينين فى مدينة جدانسك البولندية والتى تقع على البلطيق ، سرعان ما تحول هذا الإضراب إلى أزمة سياسية عكست التناقضات الكامنة فى المجتمع البولندى ، وخاصة بين الحزب الحاكم والكنيسة .

ولقد كان من الواضح انعكاس أحداث بولندا وبشكل ملموس على المجتمع الاشتراكى فى ألمانيا ، وخاصة بين أوساط المثقفين ، ولذلك حرص النظام الحاكم أن ينتهز فرصة الاحتفال بمرور ٣٠ عاما على إنشاء ألمانيا الديمقراطية ليقدم استعراضا حيا للمجتمع الدينامكى الحى وإنجازاته الكبيرة . . فى محاولة ليقول بوضوح . . إن هنا شيئا آخر تماما . .

وبدون أية محاولة للمبالغة أو الإسقاط . . فإن البناء الاشتراكى فى ألمانيا الديمقراطية قد حقق بالفعل الكثير ، فهى ثامن أو تاسع دولة صناعية فى العالم رغم أنها بدأت بعد الحرب العالمية الثانية من الصفر ، أو بمعنى أكثر تحديدا بعشر درجات تحت الصفر ، ورغم أن هذا الجزء من ألمانيا يخلو تماما من أية مادة خام فعالة ربما سوى الفحم العادى ، ويقال إن فردريك الأكبر قد قال يوما عن هذه الأرض التى تقع الآن عليها ألمانيا الديمقراطية إن القيامة عندما تقوم فإن كل شيء سيزول من فوق الأرض إلا هذه المنطقة لأن الله قد نسيها من فترة طويلة . . ومع ذلك فقد أصبحت هذه الدولة الصغيرة ، وفقا لمصادر غربية عضوا فى نادى الاثنى عشر ، وهو النادى المجازى الذى يطلق على أكثر ١٢ دولة فى العالم حققت أعلى دخل للفرد . .

. . . . ويأتى على رأس القائمة فى هذا النادى عدد من الدول البترولية العربية التى تدفقت عليها الثروات البترولية فى السبعينيات ثم عدد من البلدان الأوربية مثل السويد وسويسرا والدنمارك والولايات المتحدة وألمانيا الغربية ثم تأتى ألمانيا الديمقراطية ثم اليابان . . وقد يحلو للألمان الغربيين أحيانا عندما تضع أمامهم تلك الحقيقة أن يقولوا لك . . .

إن ذلك يرجع إلى طبيعة الشعب الألمانى ، ولذلك تميزت ألمانيا الشرقية عن بقية الدول الشرقية رغم الحرب والدمار الذى لحق بهم . . .

ولكن هذا التفسير العنصرى لعوامل التقدم لايمكن أن يصلح أساسا ومعيارا .

وأحسب ، ومن خلال معايشتى كل تلك السنوات للتجربة أن هناك عاملين أساسيين قد لعبا دورا فى ذلك .

* العامل الأول وهو أن الحزب الشيوعى الألمانى ، حزب عريق وقوى من الناحية التاريخية فمنذ تأسيس العصبة الاشتراكية الألمانية فى الستينيات من القرن الماضى على أيدى لاسال وماركس وأوجست بيبل ، والحزب الاشتراكى الألمانى يلعب دورا قياديا فى حياة ألمانيا منذ بسمارك حتى هتلر ، وفى آخر انتخابات حرة جرت فى ألمانيا عقب استيلاء الحزب النازى الهتلرى على السلطة حصل الحزب الشيوعى وحده على أكثر من ٢٠٪ من أصوات الناخبين بينما حصل الحزب الاشتراكى الديمقراطى على نفس النسبة تقريبا ، ولو كان هناك تحالف حقيقى بين الحزبين فى ذلك الوقت لكان قد أمكن سد الطريق أمام النازية .

ومن الطبيعى وبعد اندحار النازية أن يبرز هذا الحزب وكوادره ورموزه الباقية لما لهم من تراث نضالى ارتبط بمصالح الجماهير وما كابدوه وقاسوه على يد العصر النازى . .

* أما العامل الثانى فهو التحدى الهائل الذى وجدت ألمانيا الديمقراطية نفسها فى مواجهته ، وخاصة من جانب الجزء الآخر من ألمانيا الذى تضافرت أمريكا من خلال مشروع مارشال وبقية دول أوربا على مساندته وإعطائه دفعات ومقومات فعالة لإعادة البناء السريع .

إن هذا التحدى ، أو فلنقل التنافس الألمانى ، كان بمثابة الحافز القوى أو المهماز الذى لايترك فرصة للحصان بأن يغفل فى حلبة سباق متصل . . .

وقد كان الأمر المحير لى حقا كاشتراكى مصرى هو أنه رغم كل تلك الإنجازات الاقتصادية من الضمانات المتوافرة للمواطنين سواء بالنسبة للمسكن أو الصحة أو التعليم والعمل إلا أن انعكاس ذلك على المواطنين لم يكن إيجابيا تماما . . .

أو بمعنى آخر إن البعض هناك لم يكن مدركا أو مستوعبا لأهمية ما يتمتع به من ضمانات ومستوى معيشى قد يفوق كثيرا من الدول الغربية التى زرتها .

ولداى يحملان لى كل أسبوع تقريبا قائمة ببعض المشتريات لزملائهما فى المدرسة من برلين الغربية . . وكلها مشتريات هايفة ينحصر غالبها فى الشيكولاتة وبعض الملابس . . والتى تتوافر بكثرة عندهم . .

وبعض العائلات الألمانية الصديقة تطلب منى إذا كان ذلك ممكنا أن أشترى لهم من برلين الغربية أو فى سفرياتى إلى الدول الغربية بعض الحاجيات البسيطة ، وطبيبة

وزوجها المهندس يملكان شقة فاخرة التأسيس ومنزلا صيفيا على بحيرة له حديقة تبلغ نصف فدان، ولديهما عربة فارثبورج وقارب بخارى . . ولكنهما وفى كل لقاء معهما لايكفان عن إبداء الرغبة فى السفر إلى الغرب .

وكانت الطبيبة بشكل خاص مشغوفة بأن تسمع منى أدق التفصيلات عن برلين الغربية . . . الشوارع والناس والمحلات . . . وحتى أماكن اللهو . . حتى إنها سألتنى يوما .

- كيف تبدو الشمس فى برلين الغربية؟!!

وحينما كنت أحاول أن أذكرهما بأن نمط الحياة الذى يعيشونه يعتبر بكل المعايير طموحا للغالبية العظمى من سكان دول أوربا الغربية . .

كانا ينظران إلى فى دهشة ممزوجة أحيانا بذلك الشبق الإنسانى المشروع للمعرفة ثم يقولان فى تساؤل :

- لماذا لايسمح لنا إذن بالسفر إلا للدول الاشتراكية، أليس من حقنا أن نعرف ونرى بأنفسنا .

أما الطبيبة التى تفوقت فى عملها ونالت أكثر من مرة شهادات تقدير فكانت تنهى تلك المناقشات بمنطق ساحق .

- فتاح . . آدم وحواء فى الميثولوجى الإنسانى كانا يملكان كل شىء فى الجنة ويعيشان فى رفاهية . . فقد كانت شجرة التفاح ممنوعة عليهما . . ولكنها تذوقا الثمرة المحرمة . . لاتنس أننا آدميون، من حقنا أن نجرب لنمسك بالحقيقة فى أيدينا . . حتى ولو كان ذلك يعنى طردنا من الجنة .

تلك هى القضية فى واقع الأمر، حرية السفر من ناحية، ووسائل الإعلام وبشكل خاص الصحافة التى مازال أغلبها يعيش فى مرحلة الدعاية والدفاع من ناحية أخرى .

برونو آبتز . . الكاتب المشهور الذى أبدع رواية «عريان بين الذئاب» التى فضح فيها مأساة المعتقلات النازية وترجمت الرواية إلى كل اللغات قال لى يوما فى منزله الكائن بميدان شتراوس بيرجر وذلك قبل وفاته بعدة شهور :

- لقد اعتقلت وعانيت لسنوات طويلة بسبب الاشتراكية ولأن الاشتراكية كانت ومازالت تعنى تحرير الإنسان من كل ما يشل قدراته الإبداعية الخلاقة، ولذلك فأنا مع إطلاق الحرية إلى أبعد مدى فليسافر من يريد السفر وليكتب من شاء أن يكتب . . وسيكون كل ذلك فى صالح الاشتراكية وشهادة لها أنها النظرية الحقيقية التى تتيح تحرر الإنسان . أما وضع القيود ورنة الدفاع الثابت الذى لايتغير ولا يتحول والتى أصبحت مثل مونولوج ممل فى صحافتنا وإعلامنا فإنهما أصبحا غير فعالين حتى ولو

كانا ممتلئين بالحقيقة . . وستيفان هايم أحد ألمع الكتاب الألمان على الإطلاق والذى أثار البعض ضجة حوله لأنه نشر قصته المعروفة «كوليت» فى إحدى دور النشر الغربية قال لى فى لقاء خاص وردا على سؤالى عن مدى صحة الضغوط التى يتعرض لها بعد صدور روايته :

– لقد هاجرت إلى أمريكا أيام النازية تماما مثلما فعل بيرثولد بريخت وتوماس مان وعندما اندحرت الهتلرية ، اخترت أن أعود إلى ألمانيا الاشتراكية لأن هذا كان حلمى وهدفى ، ولن أتركها بالرغم من محاولات البعض ممن لايفهمون الاشتراكية على حقيقتها .

والواقع أننى كنت لا أمل من مناقشة هذه السلبيات مع من أعرفهم من الألمان مسئولين وغير مسئولين . .

قال لى نائب لرئيس تحرير إحدى الصحف اليومية وهو صديق قديم عرفته حين كان يعمل فى القاهرة . .

– أعترف لك أن هناك بعض النواقص فى أجهزة الإعلام وفى وجود بعض القيود المؤقتة وخاصة بالنسبة لحرية السفر والتنقل ومناقشة القضايا الخلافية بشكل علنى . . ولكن لاتنس أيضا أننا مستهدفون فى الأساس لوسائل الإعلام المعادية التى تحيط بنا من كل جانب .

وكنت أقول له بعد مناقشات طويلة :

– بالعكس هذا أدعى لكى يكون إعلامكم وصحافتكم أكثر انفتاحا وحرية فى مواجهة الإعلام المضاد . . إن الفكر الاشتراكى لم يعد طفلا صغيرا يجب فرض الحماية عليه تحت دعوى الحرص والخوف عليه من نزلة برد أو حتى نزلة معوية . . لابد من الثقة بالمواطن فهو الأصل والأساس الذى تبنى من أجله الاشتراكية اطرحوا كل الحقائق واتركوا الفرصة للنقد العلنى واختلاف الآراء .

وحقيقة فقد كنت أجد تفهما أو على الأقل إدراكا لأبعاد المشكلة مع الكثيرين الذين كنت أناقشهم فى تلك القضايا أو السلبيات ، وخاصة بعض المسئولين فى الحزب والمثقفين ولكنى أيضا كنت أواجه أحيانا بالبعض من هذه النوعية التى أعتقد أن إيمانها بالاشتراكية أقل بكثير من تمسكها بالسلطة ، التى تأتى فى نظرها امتيازات السلطة والتسلط أولا وقبل كل شئ وتدرك من منهجهم المصطنع وترديدهم الشعارات بلا تعمق أو حتى فهم ناضج أنهم انضموا للحزب فقط لأنه فى السلطة . . وأنهم من النوع الذى هو على استعداد للانضمام إلى أى حزب أو جماعة وبغض النظر عن الشعارات والأهداف التى تكون فى يدها مقاليد الأمور . . وقد اصطدمت ببعضهم حتى إن واحدا من هؤلاء قال لى فى غرور ساخر . .

- يبدو أنك ليبرالى أكثر منك اشتراكيا .

وكان ردى عليه وبعنف .

- الحقيقة أننى آمنت بالاشتراكية باعتبارها قمة تحرير الإنسان وعانيت وكافحت من أجل ذلك ، أما أنت فقد آمنت بالاشتراكية باعتبارها قمة السلطة والمصالح الضيقة .

وقد كان ذلك أحد الهواجس التى كانت تفرض نفسها فى إصرار وتثير فى داخلى مخاوف كثيرة . . إن الاشتراكية قد حققت فى تلك البلدان إنجازات لايمكن أن يتجاهلها أو يغفلها أى مكابر ، وأهم تلك الإنجازات هى الضمانات الإنسانية فى العمل والصحة والتعليم والسكن ، وهى الخانات الرئيسة التى تشغل بال كل إنسان أو هى الحقوق الأساسية للإنسان . .

ولكن الاشتراكية كنظرية بشرت ليس فقط بتحرير الإنسان من كل الموبقات والمشاكل الاقتصادية ، بل ومن كل الهموم والمشاكل التى تشل قدراته الإبداعية وانطلاقته الحرة . . أى بضمانات أوسع لحرية الخلق والإبداع والابتكار . . حرية بلا ضفاف أو حدود قاهرة أو كاتمة .

وحتى إذا تصورنا أن الظروف الأولى لبناء المجتمعات الاشتراكية ووجهت بمحاولات عنيفة من جانب قوى الرأسمالية والتخلف لحصارها وخنقها بل وتدميرها . الأمر الذى أدى إلى فرض بعض القيود والحدود فى المراحل الأولى . .

ولكن الذى لم يكن مفهوما أن تستمر هذه القيود والحدود رغم تغير الظروف ورغم الإنجازات الملموسة التى تحققت .

الأمر الذى يودى بالضرورة إلى تضخم سلطة الدولة ، مع أن النظرية الاشتراكية فى الأساس تسعى إلى إلغاء الدور المتسلط لجهاز الدولة .

كما كان من الضرورى أن يعاد النظر فى دور الحزب وتشكيله ، فالأحزاب الاشتراكية التى عانت الكثير وهى فى المعارضة من سجون ومعتقلات وتعذيب حتى إن هناك رأيا مدعما بالوقائع والإحصائات يقول إن المعاناة التى لاقاها أصحاب الفكر الاشتراكى فى العالم فاقت إلى حد كبير كل المعاناة التى واجهها أصحاب العقائد الجديدة على مر التاريخ . . منذ ثورة سبارتاكوس والمسيحيين الأوائل حتى ضحايا محاكم التفتيش ، هذه الأحزاب التى كانت لاتجذب لها فى المعارضة سوى المناضلين الحقيقيين من أجل تحرير الإنسان والمؤمنين بالمثل الإنسانية العليا والقادرين على التضحية والفداء ، من الطبيعى وبعد أن تصل إلى السلطة أن ينجذب إليها البعض من الانتهازيين والوصوليين والنفعيين الذين يجيدون لعبة السلطة

ويحترفون خلق الهالات المقدسة حول بعض القيادات وترديد كلماتهم كما لو كانت وحيا مقدسا . . ويضيع بل يتعرض للاضطهاد أحيانا العناصر الاشتراكية الحقة، ويطفو على السطح وتتضخم بعض الشخصيات الإسفنجية التى تجيد فن العلاقات العامة ومسح الجوخ . .

ثم هناك مفهوم الطبقة العاملة أو البروليتاريا فى ضوء تطور التكنولوجيا وسقوط كثير من الحدود الفاصلة بين العمل اليدوى والعمل الذهنى . . الأمر الذى أدى فى بعض الأحيان إلى بروز الفئات المحظوظة من «العمال» التى تتمتع بكثير من الامتيازات الغير شرعية . . مثل الحرفيين والعاملين فى الفنادق والمطاعم والمقاهى وبعض العاملين فى أجهزة الخدمات المختلفة . .

وهو أمر غير مقبول ومفهوم أن ترى أستاذ الجامعة أو الطبيب يسكن فى شقة متواضعة ويمتلك عربة «ترابانت» وهى العربة الشعبية الرخيصة فى حين أن جرسونا فى أحد المطاعم أو بارمان فى أحد البارات أو الحرفى يمتلك بالإضافة إلى الشقة منزلا صيفيا فاخرا على إحدى البحيرات ويركب الفولفو السويدية أو الرينو الفرنسية أو الفولكس الحديثة من دخول غير مشروعة . . . حتى إنه كانت هناك موضة فى فترة من الفترات أن يترك بعض المثقفين أعمالهم الأصلية ليعملوا كجرسونات أو حراس لبعض النوادى الليلية باعتبارها أربح وأكسب . . وأنا شخصيا عرفت طبيبات ومهندسات ومدرسات تركن مهنهن واحترفن العمل فى المقاهى والمطاعم والمراقص . .

ولقد جاءت أحداث بولندا لتكون بمثابة ناقوس الخطر المزعج . . . .

أكثر من ١٠ ملايين عامل يمثلون أكثر من ٨٠٪ من القوى العاملة فى بولندا كلها يعلنون تمردهم على النظام ورفضهم له، هذا النظام الذى يستمد شرعيته من أنه يمثل الطبقة العاملة . .

ولم يعد من الممكن مثلما كان فى الماضى أن يفسر ذلك فى ضوء المقولات التقليدية عن المؤامرات الاستعمارية وأجهزة التخريب . .

فإذا كان دوبشيك وربيع براغ فى تشيكوسلوفاكيا قد اتهما وأدينا على أنهما مجموعة من المثقفين المنعزلين عن الجماهير رغم أن الأمر استدعى تدخل قوات حلف وارسو . . إذا كان ما حدث فى المجر وبولندا نفسها من قبل قد أمكن إخماده وتصوير الأمر كله على أنه محاولات فئات محدودة معادية للاشتراكية ولمصالح الجماهير وتتحرك وفق مخططات إمبريالية . .

إلا أن الأمر لم يعد كذلك فى بولندا فكيف يمكن تفسير ماحدث فى إطار هذه

المقولات كيف يمكن للعمال أن يرفضوا نظاما يحكم باسم الطبقة العاملة . . وحتى إذا كانت هناك محاولات للتخريب من جانب القوى المعادية فكيف أمكنها تحقيق مثل هذا النجاح الساحق . . لقد بدا واضحا للجميع أن هناك خللا ما . . يذكرك بتحذيرات برلنجوير سكرتير الحزب الشيوعى الإيطالى فى المؤتمر الذى عقدته الأحزاب الشيوعية والعمالية سنة ١٩٧٦ بأن أخطاء النظم الاشتراكية فى أوربا وآسيا قد بدأت تعكس نفسها فى الحركة الثورية والعالمية والتى بدأت تفقد قوة الدفع .

وبغض النظر عن كل شيء فقد كان هناك فى ألمانيا الديمقراطية من هو مهموم بذلك حقا .

وعلى عكس هؤلاء البعض من «كدابى الزفة» الجاهزين دائما لتبرير وتنظير كل ماهو قائم كان المسئولون الكبار يفتحون كل آذانهم وحواسهم لأنهم كانوا أكثر إدراكا ووعيا لأن الواقع يتغير وأن كل شيء يتحول ويتبدل وأنك لايمكن أن تقتحم عصر الفضاء والثورة التكنولوجية الهائلة بمقولات عصور مضت وبإعلام يغلب عليه الطابع الدعائى .

ولكن المشكلة أن الطريق إلى أى من هؤلاء المسئولين المهمومين بالجديد الذى يطرح نفسه على المجتمع ، كان ممتلئا بمن كنت أسميهم بنباتات الصبار أو بأشواك الاشتراكية . . ولقد أضاف ذلك إلى همومى هما آخر أكثر تعقيدا . .

حتى إن الصديق علاء الطاهر الذى كان قد ترك السعودية واشترك مع زميل آخر فى فتح مكتب تجارى فى برلين صاح فى وجهى ذات ليلة :

- أمرك غريب حقا . . تختلف مع كامب ديفيد ونظام السادات ومع ذلك تدخل معارك ضارية ضد بعض القوى والنظم التى تهاجم كامب ديفيد .

وضيعت حياتك دفاعا عن الاشتراكية ودخلت من أجل ذلك السجون والمعتقلات ، ومع ذلك تنتقد بشدة بعض الجوانب فى المجتمع الاشتراكى الذى تعيش فيه . . هل هى هواية خاصة أن تكون دائما فى الشط الآخر . .

والله لو حدث وجاء نظام اشتراكى فى مصر ، فإننى أخشى أنك ستدخل السجن أيضا يا أخى دعك من هذه الأحلام أو الأوهام المثالية التى تحركك . إنها غير قابلة للتحقيق . . حاول أن تكون واقعيا مرة فى حياتك . . إنك لم تعد وحدك . . عندك أولاد يكبرون ويحتاجون إلى الكثير . .

قلت له بمرارة من يحس بمنطقه ويرفضه فى نفس الوقت :

- تعنى أن أصبح انتهازيا على آخر الزمن . . ! !

وانفجر علاء فى جدية شديدة بل وفى قسوة فى بعض الأحيان :

- لاياسيدى . . . عايزك تتصالح مع الواقع . . عامل زى دون كيشوت وعمال تحارب فى كل الجهات . . وبسيف خشبى مكسور أصلا . .

حتى أصدقاءك فى الفكرة نازل هجوم عليهم . .

أنت فاكر نفسك إيه . . مصلح الكون . .

يا أخى اتلهى . . دانت مافيش فى جيبك ١٠٠ مارك على بعضهم . .

قلت على الفور :

لا من فضلك . . ٥٠ مارك فقط . .

كانت كلمات علاء قاسية حقا استمدت قسوتها من أنها حاصرتنى فى واقع أعيشه وأرفضه وأحس بثقله . .

ووجدت نفسى غير قادر على الرد، بل لم أستطع أن أجمع بعض الكلمات لأقذفها فى وجهه دفاعا عن نفسى . . كانت الكلمات مخنوقة فى حلقى ومبللة بدموع صامتة ساكنة غير مرئية . . رغم محاولات السخرية والمرح التى كنت أدعيها . . ويبدو أن وجهى كان يموج بكل تلك الانفعالات المكبوتة والأعاصير الداخلية المحيطة والعاجزة حتى أن تعبر عن نفسها . .

كما أن عينىّ كادتا أن تغرقا فى إرهاصات دموع جاهدت فى أن أحبسها ولم ينقذنى من هذه الحالة المكثفة بالضعف والعجز إلا صوت علاء نفسه، وهو يحتضننى ويقول فى كلمات صدق عميق . .

- أنا آسف . . آسف جدا . . أنت عارف كم أحمل لك من تقدير فأنت تجسد لى كل القيم الحلوة التى حلمت بها يوما دون أن أستطيع تحقيقها . . إننى فقط أخاف عليك . . فأنت تتعرض لهجوم شديد من جانب البعض . . وتقف وحدك تماما . .

وعندما ذهبت إلى المنزل فى تلك الليلة، قال لى ابنى الأكبر عمرو إن هناك شخصا ألمانيا قد اتصل بى لأمر عاجل وإنه يعمل فى إدارة الصحافة فى وزارة الخارجية واتصل الرجل فى الصباح وأصر على المرور على المنزل . .

التقيت بالرجل . . كان من الواضح ومن اللحظة الأولى أنه لايعمل فى إدارة الصحافة الدولية كما قال، فأنا أعرفهم كلهم تقريبا من خلال العمل . . كما أنه لم يشأ أن يفصح عن مركزه تماما . . سوى أنه مسئول حزبى عن نشاط الأجانب . .

كان ودودا للغاية مهذبا يجيد اختيار الكلمات . . الموجهة . .

قال تبريرا لزيارته إنه سمع عنى كثيرا ككاتب له كلمته الجادة والمسموعة فى مصر والعالم العربى . .

وأخذ يتكلم فى أمور كثيرة ابتداء من زيارته لمصر فى الستينيات ووقفته أمام الأهرام وأبى الهول متمثلا عظمة الحضارة والتاريخ إلى الظروف الصعبة التى عاشتها

بلاده فى الخمسينيات والحصار المفروض عليها من الغرب . . وتحدث عن تجربة سور برلين الذى اشترك هو شخصيا فى بنائه وكيف أنه أوقف النزيف الحاد الذى كانت تعانى منه التجربة الاشتراكية فى ألمانيا . .

ثم تعرج إلى وضع الأجانب فى الجزأين الشرقى والغربى من برلين وكيف أن أجهزة المخابرات الدولية تحاول أن تلعب بالبعض منهم . . وفى كل الأحوال يعطى أمثلة دقيقة ومحددة مما يؤكد أنه على علم وصلة بأسرار وخفايا كثيرة .

أخذت أستمع إلى الرجل المهذب فى صمت وترقب ، وأنا أحاول أن أستكشف الغرض الحقيقى من زيارته . . وقبل كل ذلك . . من يكون حقا؟

إلى أن بادرنى بسؤال مفاجئ أحسست به كصاروخ اختبار موجه :

- والآن وقد مضى عليك ثلاث سنوات بيننا . . ما رأيك فى المجتمع الذى نبنيه؟

وابتسمت لصدق توقعاتى فى الرجل منذ البداية . . وقلت فى لهجة باردة متعمدة .

- إنها تجربة خصبة لها إيجابياتها الكثيرة . . ولها أيضا سلبياتها .

هذا معروف لدى الجميع . . . أقوله وأكتبه علنا . .

قال وقد أحس بنبرتى الباردة الهادئة :

- نعم . . نعم . . ليس هناك مطلقات . . هناك قطعا بعض السلبيات ، لكن على الإنسان ألا يضخم من هذه السلبيات . . فهو بذلك يعطى سلاحا لأعداء الاشتراكية .

قلت وبنفس النبرة الهادئة :

- إن هذه السلبيات نفسها واستمرارها دون علاج هما من الناحية الموضوعية سلاح ضد الاشتراكية .

قال مبتسما مؤكدا فيما يبدو فكرة مسبقة لديه :

- أعرف أن هذا رأيك الذى تردده كثيرا ، بالرغم من أنك كاتب ومفكر اشتراكى .

قلت ببعض الانفعالات وبغيظ مكتوم :

: - بل أقوله لأنى اشتراكى وحريص على الاشتراكية من أى محاولة لتجميدها أو تحجيمها .

ويبدو أنه أحس بإرهاصات الانفعال والضيق فى عينى وعلى وجهى فأسرع قائلا فى ود شديد .

- أرجو ألا أكون قد أغضبتك فى شىء .

وبصراحة فكل التقارير التى تصلنى عنك فى السنة الأخيرة تقول إنك على خلاف مع الجميع مع النظام فى بلدك ومع الأنظمة العربية الأخرى ، بل إن علاقتك بالتنظيمات الثورية فى الخارج ليست على مايرام . .

ثم أردف موجها صاروخا آخر :

- هل تعتقد لو عدت إلى بلدك فى هذه الظروف فستتعرض للاضطهاد أو الاعتقال. . وأصابتنى كلماته فى القلب وقلت منتفضا ومنفعلا . . .

- اسمع ياهر . . لقد جئت إلى منزلى تحت دعوى أنك تعمل فى مركز الصحافة الدولية مع أن هذا غير صحيح، ثم قدمت نفسك على أنك مسئول عن الصحفيين الأجانب. . ثم أخذت تتحدث لأكثر من ساعة فى موضوعات شتى. . وتحملت ثم أخذت تمطرنى باستفسارات وتساؤلات غريبة. . وتحملت أيضا. . وأنا كاتب مفتوح العقل والقلب. . وليس هناك ما أخفيه أو أدعيه.

وأيا ما تكون، فهذا أمر لايهمنى من قريب أو بعيد. . ولكن لا أسمح لأحد أيا كان بأن يوجه إلى إهانة سواء فى بلدى أو فى أى مكان آخر. . لأنى ببساطة لا أملك إلا فكرا وعقيدة، ولست على استعداد تحت أى ظروف وفى أى وضع أن أتنازل أو أساوم على أفكارى ومعتقداتى. .

وأحب أن أوضح لك نقطة مهمة. . إنى لست لاجئا. . ولست مضطرا إلى البقاء ولكنى أحاول استكمال علاج عين ابنى واستكمال رسالة الدكتوراه ومع ذلك فإنى أبلغك الآن بأنى وبعد حديثك قد قررت أن أحزم أمتعتى وأعود مع ولدىّ على أول طائرة إلى القاهرة فى الأسبوع القادم. .

كانت الكلمات تخرج من فمى مثل طلقات رشاش آلى. . سريعة ساخنة منفعلة ويبدو أن الرجل قد فوجئ برد الفعل العنيف الذى لم يكن يتوقعه أو أنه كان خارج الحسابات. . وحاول أن يقول شيئا من قبيل الاعتذار أو التبرير، ولكنى لم أكن فى حالة لأن أسمعه أو أستوعب ما يقوله. .

فلقد أحسست بجرح الامتهان فى الغربة. .

وودعته على الباب وهو يردد فى انزعاج. . لا . . . لم أكن أقصد، أرجو أن تفهمنى لابد من توضيح الأمور . لابد من لقاء آخر. .

وفى الصباح كنت فى مكتب شركة الطيران «إنترفلوج» أحجز ثلاثة مقاعد لى ولولدىّ إلى القاهرة. . ثم اتصلت بشركة النقل الخارجى «دوترانز» للقيام بإجراءات لشحن أغراضى وحاجياتى.

كنت ممتلئا بقرارى بل ومرتاحا له. . وربما كان الرجل مظلوما فيما تصورته إهانة لى. . وربما أدت الحساسية الخاصة التى نمت لدى فى الغربة وتحديدا فى السنة الأخيرة إلى تصورات دون كيشوتية وهمية. . وربما كان الرجل صادقا فيما قال بأنه جاء ليناقشنى ككاتب اشتراكى سمع به. .

ربما كان كل ذلك صحيحا. . ولكن المؤكد أننى وجدت فى قرار العودة إلى مصر

خروجا من الأزمة المحكمة التى كانت تحاصرنى وتشل من قدراتى وتغرقنى فى لجة من الضيق والألم والحزن . .

وعندما عدت بعد ظهر ذلك اليوم إلى البيت ، وجدت صديقا ألمانيا ينتظرنى على غير موعد على غير العادة الألمانية .

كان الصديق يحتل أحد المناصب الرفيعة فى الحزب والدولة ، كنت قد تعرفت به فى القاهرة فى الستينات هو وزوجته التى كانت تعمل فى ذلك الوقت مستشارة ثقافية فى القاهرة . . ومنذ انتقالى للعمل فى برلين كنا نتزاور ونلتقى بين الحين والحين ، وجمعتنا علاقة ود واحترام متبادل .

بادرنى الصديق الألمانى محتجا على أنه اضطر لانتظارى أكثر من ساعة شغل نفسه فيها بالحديث واللعب مع ولدىّ . . ثم دخل إلى الموضوع مباشرة . .

كان الواضح أنه سمع بما حدث مساء أمس مع الزائر الألمانى الآخر وبقرارى بالعودة . . وحاول أن يفسر لى بعض الحقائق وبأن الرجل الذى التقى به يعمل فعلا كمسئول حزبى وسياسى فى قسم العلاقات الخارجية ، وبأنه كان مشوقا إلى مناقشتى والتعارف بى . . وأنه لم يكن يقصد توجيه أى إهانة لى أو أى محاولة للإسقاط .

قلت له مهدئا .

*- لا عليك . . على أى حال إننى لم آت هنا لأبقى . فلابد وأن أعود لبلدى يوما . . قال الصديق الألمانى .

*- طبعا وهذه قضيتك تحسمها وفقا لظروفك الخاصة والعامة ، ولكن ليس بهذا الشكل . . إنى مكلف لأن أقول لك بأن الكل هنا يحمل لك تقديرا عاليا . . لست أقول لك ذلك كصديق ، بل إنى أحمل لك رسالة . . . إنك هنا ضيف عزيز وغال ، هذا رأى الجميع . . وليس هناك أدنى رغبة أو محاولة للضغط عليك أو تغيير آرائك . . فإذا كنت تريد أن تعود لبلدك فهذا حقك وقرارك . . ولكن ليس بهذا الشكل المفاجئ وفى هذه الظروف الملتبسة .

إن الرجل على استعداد أن يلتقى بك ليفسر لك كل ما التبس فى حديثه . .

إننى أناشدك وأرجو كصديق أن تعيد النظر فى قرارك فى هده الظروف بالذات . .

وتركنى الصديق الألمانى . . .

وجلست فى الصالة أرقب عمرا وياسرا ولدىّ وهما منهمكان فى زخرفة شجرة عيد الميلاد فى جد وحب ومثابرة . .

وانتقل بصرى إلى صورة كبيرة لأخناتون معلقة على الحائط وهو يتلو ترانيمه لآتون . . إله الشمس الجديد . . ثم إلى آية كريمة تتوسط الصالة تقول : «إن بعد العسر يسرا» مكتوبة بالخط الكوفى الجميل المنمق .

والثلوج فى الخارج تغطى محطة المترو القريبة . . وضحكات المرح الملونة تصل إلى أذنى من الجماعات التى بدأت تتحرك احتفالا بليلة عيد الميلاد .

ورن جرس التليفون ، كان علاء هو المتحدث :

– أين ستقضى الليلة الخالدة .

قلت بلا وعى . . . فى القاهرة . .

ضحك وقال :

– ليكن كذلك . . سآتى لك ومعى مجموعة من الأصدقاء . . . ولنجعلها ليلة قاهرية . . وسط برلين . .

[٤٦]

أمضى وسط العالم دون أن أشكو ودون أن يحميني الناس، أمضى كشجرة وحيدة فى الخريف غريبا.. أحمل فى قلبى كلمة..

لويس أراجون - كلمات ضائعة..

مايو سنة ١٩٨٠

التنوير . .

كلمة موحية لها رنين وصدى . . . إنها تجسد لك معنى محددا وفضفاضا فى نفس الوقت . . حين تلقى بشحنة من الضوء على مكان معتم فتبين لك ملامحه وتفاصيله، بقدر درجات الضوء المتسلطة وبقدر اتساع انعكاساته، فتكشف لك طريقا وسط الظلمة أو حتى تفتح ثغرة فى طبقات السحب الداكنة والمتراكمة تستطيع من خلالها الطيور القادرة على التحليق أن تنطلق إلى آفاق واسعة رحبة . . .

وفكرة التنوير لاتبرق وتلمع إلا مع الإحساس بالظلام . .

وما سمى بعصر النهضة فى أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ليس هو فى واقع الأمر سوى عصر تنوير إنسانى حاول أن يخرج بالإنسان من كهوف التخلف والجمود الذى فرضته أباطرة العروش والكنيسة لإعادة اكتشاف عظمة الإنسان الفرد وقدراته الإبداعية والخلاقة . .

والمفترض فى التنوير أنه يمثل المرحلة الأولى التى لابد وأن يعقبها ازدهار وتألق . .

ولذلك كان من الغريب أن أحس مثلما أحس كثيرون فى العالم العربى بأنه رغم ومضات الإشراق فى تاريخنا الحديث والإرهاصات القوية للانفتاح على الطبيعة والحياة إلا أن سحبا كثيرة قد عادت لتتكثف وتحجب الرؤيا ولتجهض محاولات نبيلة بذلت طوال هذا القرن فى مصر وفى العالم العربى، ولتفرض الحاجة مرة أخرى إلى

مرحلة تنويرية جديدة وإلى دفعة ثقافية وفكرية لتشعل مصابيح الفكر والحضارة . .
ولقد تحمست لهذه الدعوة التى خرج بها عدد من المفكرين والمثقفين المصريين والعرب، وشاركت فى اللجنة التحضيرية التى أعدت للمؤتمر الأول للحركة التنويوية للعالم العربى الذى عقد فى باريس .

خرج بالفكرة لطفى الخولى وسانده فيها صلاح البيطار . . وسرعان ما وجدت صدى واسعا بين الكثير من المثقفين المصريين والعرب على مختلف اتجاهاتهم ومنابعهم الفكرية . .

واستمدت الفكرة جاذبيتها من حالة التشتت والتمزق والضياع الذى اجتاح العالم العربى مع أعاصير كامب ديفيد وهجمة العصر البترولى الرهيب الذى أغرق هذا العالم فى حمى الاستهلاك والاستمتاع الحسى . وقام بدور المخدر للعقل العربى الذى بدأ يشهد تراجعا بل وانحسارا لكثير من قيمه الثقافية والفكرية ولطموحاته الوطنية والقومية . كانت الفكرة بسيطة بل وتبدو ساذجة للبعض . . وانحسرت الدعوة فى أن يلتقى المثقفون من جميع أنحاء العالم العربى ليتحاوروا بحرية وبعيدا عن أى التزام فكرى أو حزبى مسبق لتدشين مبدأ حرية الحوار .

وبعيدا عن هؤلاء الفرسان الذين ينخر سوس التآكل والعفن فى عظامهم والذين لايكفون عن الصياح والصراخ حاملين معهم سيوفهم الصدئة زاعمين أنهم يملكون زمام الحقيقة . . بل والحقيقة المطلقة .

لم يضع المؤتمر شعارات ضخمة رنانة أو يطرح على جدول الأعمال قضايا مصيرية وإستراتيجية تتفرع منها آلاف القضايا الأخرى .

ولكن قال ببساطة . . ليلتق المثقفون على اختلاف ألوانهم ليناقشوا بعيدا عن الخوف والتسلط دون أن يتصور أحد منهم أنه ممثل لحزب أو لفئة وبدون ادعاءات بأن هذا الفكر أو هذا الحزب هو مبعوث العناية الإلهية لإصلاح العالم العربى وأنه وحده يمتلك الحقيقة .

وهكذا اجتمعت فى باريس مجموعة من المثقفين المصريين والعرب وليس على جدول الأعمال سوى مبدأواحد . . الحوار . .

كان هناك البعثيون والشيوعيون والليبراليون ورجال الدين والذين يمثلون فى الواقع كل الاتجاهات العقائدية والفكرية الموجودة على الساحة العربية . .

كان هناك صلاح البيطار ومحسن العينى ، وأديب الجادر ، ولطفى الخولى وأبوسيف يوسف ومحمود العالم والشيخ سعاد جلال وعادل حسين وميلاد حنا من مصر والعراق والسودان وسوريا ولبنان والجزائر واليمن والمغرب وكان منهم من

جرب السلطة وكان رئيس وزراء أو وزيرا أو حتى نائبا لرئيس جمهورية ، كما كان منهم مثقفون يخوضون المعارك الفكرية والثقافية .

وعلى مدى يومين دار حوار خصب حر ومفتوح لم يحاول فيه أحد استعراض عضلاته أو إخفاء الحقيقة أو تلوينها ، بل حرص على مواصلة الحوار وتأصيله كمنهج مع كثير من الاعترافات والنقد الذاتى .

قال صلاح البيطار المفكر ورجل الدولة المعروف

– أعترف اننى فى السلطة ارتكبت أخطاء جسيمة حين كنت أتصور أن الحقيقة تنحصر فى مفهوماتى البعثية وأن الآخرين دائما على خطأ .

وقال لطفى الخولى :

– إن الخلل الذى جرى فى العالم العربى يرجع إلى أن الاتجاهات الأربعة المتأصلة وذات الجذور فى العالم العربى وهى الفكر القومى والبعثى والماركسى والدينى لم تحاول أن تجرى حوارا فيما بينها .

وقال محسن العينى :

– لنختلف ماشاء لنا أن نختلف فى تصور المستقبل ، ولكن الواقع المر الذى يعيشه الإنسان العربى يحتاج إلى اتفاق أولى حول قضية أساسية هى ضمان حقوق الإنسان العربى . . حقوقه الفطرية فى التعبير والتنظيم ، فى الموافقة أو الرفض أو الاحتجاج . . إن كل المشروعات ذات النسيج الواحد قد سقطت فى الامتحان عندما أتيحت لها الفرصة فى الحكم فى العالم العربى . .

الذين يحكمون باسم الدين ، والذين يحكمون باسم الاشتراكية ، والذى يحكمون باسم القومية .

وقال أبو سيف يوسف :

– يمكننا القول إن هناك نمطا واحدا تقريبا لأشكال الحكم فى العالم العربى هو النمط الفردى المعتمد فى الأساس على تنظيمات عسكرية أو بوليسية مع تغيب شبه كامل لدور الجماهير المنظمة . . والغريب أنه يشترك فى ذلك من يزعمون أنهم يرفعون رايات التقدم ، ومن يدافعون عن مخلفات وحصون التخلف . .

. . لقد فقدت كثير من الشعارات مغزاها ومعناها . . وعلينا أن نبحث عن عودة الجماهير إلى الساحة . . ثم فلتكن سيئتها . .

وقلت فى كلمة مختصرة :

– إن هناك فجوة حضارية واضحة بين الفكر النظرى والتطبيق العملى ، بل أصبح هناك انفصال شبه مطلق بين الشعارات وواقع الحياة المتحرك ، وقد حكمت الناصرية

باسم الاشتراكية ومع ذلك فليس هناك اشتراكى واحد فى مصر لم يتعرض للاعتقال أو للاضطهاد فى تلك الفترة.

كما وصلت أحزاب عقائدية تحمل فكرا قوميا إلى السلطة فى أكثر من بلد عربى ومع ذلك كان الصراع بين هذه الأنظمة ذات التوجه الفكرى الواحد أقسى وأعنف من أى صراع آخر.. ولم يعد هناك من حل سوى استعادة الفكرة الليبرالية السياسية وتأكيدها مرة أخرى.. التعددية الحزبية.. والتنوع الفكرى.. والحوار.

وأسهب آخرون فى توصيف مخاطر المرحلة النفطية على الفكرين القومى والاجتماعى، وخاصة أن هذه الثروات الهائلة قد جاءت بعيدا عن تطور وسائل وقوى الإنتاج التى ماتزال فى الأساس متخلفة، كما أنها تركزت فى أيدى قلة متميزة تحكمها علاقات أو روابط قبلية أو عرقية، الأمر الذى أكد سلطة الفئات الحاكمة على حساب طموحات الجماهير الواسعة..

وتكلم محمود العالم عن أن الديموقراطية بأشكالها السياسية هى اليوم المطلب الملح والعاجل، وحاول عادل حسين أن يستعرض بعض الإرهاصات الفكرية عن العودة إلى الجذور والبحث عن التراث وخاصة فى الدين.

أما سعد زهران فقد تكلم عن قراءة جديدة لتاريخنا العربى والحاجة إلى منظور حضارى جديد وأفكار أخرى كثيرة نوقشت وطرحت بمنهج جديد وبروح جديدة.

وكان من الواضح أن الحاضرين من جمهرة المثقفين العرب لم يحاولوا استمرار خداع النفس وإطلاق مقولات تقليدية تكتفى بتنصيب وتجسيد بعض الرموز وإطلاق الرصاص عليها لتفريغ الشحنة العاطفية أو الفكرية وكان الله بالسر عليما.

لم يحاول أحد أن يصب النيران كلها على الإمبريالية والرجعية، أو يرفع شعارات الاشتراكية.. ويقدم روشتات العلاج الجاهزة والتقليدية.

فلقد كان الهم والإحساس بالمسئولية بين الجميع أعمق من ذلك بكثير.. كما أن خبرتهم وتجربتهم المعتقة قد أقنعتاهم أن نقطة البدء لابد وأن ترتبط باستعادة الإنسان العربى نفسه وضمان حرياته وحقوقه.. وهذا هو الكفيل بعد ذلك بأن يبعث الحياة مرة أخرى فى الأزهار التى جفت ويضفى عليها رائحتها الطبيعية.. ويهبها ألوانها الحقيقية.. بعد أن تداخلت الألوان واستشرى الزيف والخداع.. وانسحق الإنسان العربى تحت بعض أنظمة تعددت راياتها وتوحدت فى القدرة على الكبت والتحكم..

لم يصدر المؤتمر أو الاجتماع بيانا يرص فيه الكلمات الضخمة المختارة كما هى العادة فى المؤتمرات العربية.. ولكن أصدر ورقة صغيرة تحكى عن بعض الأفكار

التى طرحت وتؤكد ضرورة الديمقراطية وحرية الإنسان العربى باعتبارهما الشيء الوحيد الملموس والذى ليس باطل الأباطيل ولا قبض الريح . .

وضرورة اعتماد الحوار والتفتح الفكرى كمنهج بديلا عن المنولوج الذاتى المنغلق . .

أثار المؤتمر التنويرى الأول ضجة وردود فعل عنيفة وخاصة بين بعض الأحزاب العقائدية فى العالم العربى ، ورأى بعضها أنه يجرف النضال الحقيقى ضد الإمبرايالية والصهيونية والرجعية كما أن البعض الآخر الأكثر كرما ، اعتبرها فكرة توفيقية ساذجة . .

أما الأنظمة فلا أعتقد أن نظاما واحدا فى العالم العربى كان سعيدا بهذا المؤتمر ، وكان انعقاد المؤتمر فى باريس دليلا فى حد ذاته على ضيق الأرض العربية وانغلاقها فى وجه حوار جاد وهادف يسعى إلى استعادة إنسانية العربى المهدرة . . ولذلك ظل المؤتمر الأول فريدا حتى الآن ، أولا وليس له ثان . . ولم يجتمع مرة أخرى . .

ومع ذلك فعندما عدت إلى برلين بعد تلك الجرعة الفكرية والإنسانية النشطة ، أحسست مرة أخرى بأننى أستعيد نفسى وأسقط الكثير من الضيق والإحساس بالإحباط ، وأحيانا العجز الذى كان يستبد بى طوال العام الماضى . .

وربما لأنى وجدت أنى لست بدعة بين المثقفين العرب ، وأن هناك كثيرين يحملون صليب الحقيقة بكل مافيه من آلام وتضحيات ، وليسوا على استعداد لأن يساوموا على إنسانيتهم وآدميتهم حتى ولو كان ذلك باسم التقدم . .

وربما لأنى رأيت فى انعقاد هذا المؤتمر اليتيم بارقة أمل مشرقة يستطيع الإنسان من خلالها أن يرى فتحة النور فى أعماق الكهف المظلم ، بل إن اغتيال صلاح البيطار بعد المؤتمر بعدة شهور فى باريس وهو فى طريقه إلى مبنى المجلة التى أنشأها للدفاع عن الفكرة والتنوير والحوار قد أكد لى ، وبرغم الألم والحزن والدموع التى ذرفتها على الرجل الذى لم أعرفه ولم ألتق به وأحبه وأعجب به إلا من خلال أيام المؤتمر القليلة إلا أن اغتيال هذا الانسان العربى الناضج أقنعنى أن الصيحة التى أطلقناها لن تذهب سدى وأنها رغم التعتيم الإعلامى الذى فرض عليها من قبل صحف الأنظمة والهجوم الذى تعرضت له من قبل بعض أدعياء الاشتراكية من الجامدين وحملة الأبخرة وعبدة النصوص ، إلا أنها قد فجرت شيئا حقيقيا دفع أعداء الإنسان العربى إلى القتل وإطلاق الرصاص . .

وانطلقت مرة أخرى أعانق الحياة وأنفعل بها متجاوزا مشاعر الغربة المريضة وأحاسيس الوحدة والعزلة التى كادت أن تحكم حولى حصارا قاتلا . .

وضاعفت من نشاطى فى الكتابة ليس فى السفير وحدها، بل وفى مجلات وصحف عربية أخرى تصدر فى لندن وباريس أو فى العالم العربى مثل الدستور والراية القطرية والوطن الكويتية مؤكدا نفس الآراء والمنطلقات التى كنت أدافع عنها طوال العامين الماضيين والتى كنت أحس أننى أقف فيها وحيدا معزولا محاصرا.

لقد انفك الحصار ولم تعد المعادلة صعبة. . وسقطت كل الأوهام والمخاوف التى كانت تحاصرنى وبعنف لتفرض علىّ منولوجا داخليا أواجه به نفسى، وأنا أتساءل فى حيرة هاملتية أو فى شك فاوستى هل أواصل أم أتوقف. .

فى تلك الليالى القاتمة كثيرا ماكنت أنهض من أمام مكتبى والقلم عاجز عن أن يكتب جملة مفيدة ونبض القلب ثقيل، مشحونا بالإحساس بالوحدة والغربة والاغتراب، وأتأمل ولدىّ النائمين وأذنى ممتلئة بهمسات التحذير التى كانت تواجهنى فى كل مكان، وأكاد أصرخ وبأعلى صوتى. . رباه لماذا تركتنى. . إنى لا أرى مايراه الآخرون. . ولا أفعل مايفعلون. . . التفت يمينا فلا أرى صحبتى. . وأنظر يسارا فيحذرنى رفاقى. . وأمامى طريق شاق ملىء بالأشواك. . فكيف لى أن أصمد. . ولماذا أصمد؟ . . وأولاد الأفاعى فى كل شق ومكان. . والوطن بعيد. . .

ولكن مؤتمر التنوير فى باريس. . وذلك الجو الدافئ من الحوار الإنسانى البناء بين مجموعة من المثقفين متجردين من الارتباط بالأنظمة الموجودة على الساحة وعينهم على الإنسان العربى المقهور والمحاصر فى كل مكان، أمدانى بطاقة قوية من الأمل. .

لقد كنت مثل برلنجوير بطل يونسكو فى مسرحية الخرتيت والذى وجد نفسه فجأة فى مدينة يتحول أهلها إلى خراتيت حتى إنه فى لحظة ضعف واستسلام قد ظن أنه قد أصبح شاذا لأنه يتمسك بآدميته أو مثل بروميثيوس كما صوره جوته عندما غضب عليه زيوس وآلهة جبل الأوليمب وطردوه من مملكتهم الكاذبة إلى أرض الإنسان عقابا له. .

كنت فى حاجة ماسة لأن أحس أننى لست وحدى، وأن هناك مثلى ممن طرحوا الكثير من الشعارات الفارغة المضمون جانبا والتزموا بالدفاع عن الإنسان بعيدا عن رائحة النفط القاتلة وصراخ المقولات التقليدية الجامدة التى انتفت عنها الواقعية والقدروة.

ولذلك وعندما ألتقى فى برلين ممثلون لحوالى ١١٦ حزبا شيوعيا واشتراكيا ووطنيا لمدة يومين لمناقشة النضال المشترك لحركة الطبقة العاملة وحركات التحرر القومى الوطنى ضد الإمبريالية ومن أجل التقدم الاجتماعى حرصت على الحضور

ومتابعة المؤتمر والالتقاء بالممثلين البارزين العرب لأكثر من ١٦ حزبا وتنظيما بينهم عدد لابأس به من رؤساء هذه الأحزاب . .

كنت عن عمد ومع سابق إصرار أفتش عن الفكر الجديد فى المؤتمر، وخاصة بين ممثلى الأحزاب الشيوعية والعقائدية العربية وأبحث عن إرهاصات للتغيير كانت قد بدأت فى مؤتمر سابق وفى برلين أيضا سنة ١٩٧٦ وعن جديد أراه وأحسه وأعيشه وأتمنى أن أسمع التبشير به . . وخاب ظنى . . واستمعت مرة أخرى إلى موشحات تقليدية لا تشغل بالها سوى بتسجيل مواقف والتأكيد على مقولات نظرية عامة استنفد الكثير منها أغراضه فى عالم زاخر بالحركة والتغييرات غير المسبوقة . .

كان منهج موريس بوناماريوف نجم المؤتمر هو المنهج السائد . .

ترديد مقولات عن الاشتراكية وحركة التحرر ربما كانت تصلح فى الخمسينيات أو الستينيات، ولكنها بالتأكيد لايمكن أن تنطبق على واقع السبعينيات وأوائل الثمانينيات . .

جرى حديث عن الرأسمالية العالمية المحتضرة، وبالقطع لم تكن الرأسمالية تحتضر، بل كانت تبتكر أشكالا وأساليب جديدة للاستغلال المكثف يفوق كل أشكالها السابقة وتزودها بدماء جديدة ليس فقط لتعيش بل ولتزدهر . . وجرى حديث عن انتصارات حركات التحرر العالمية واتساع رقعة الأراضى المستقلة والمحررة فى دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . . فى حين كان من الواضح أن الاستقلال الصعب الذى فرضته كثير من شعوب العالم الثالث وبثمن هائل من التضحيات والآلام، يتحول أكثر وأكثر إلى استقلال شكلى بعد أن حوصرت الطموحات السابقة فى بناء مجتمعات ديمقراطية، ولاتزال السلطة فى غالبية تلك البلدان تنحصر فى نخبة من العسكريين والتكنوقراطيين فرضت أشكالا دكتاتورية فى الحكم وأحكمت عزل الجماهير مما وفر لقوى الاستعمار والاستغلال العالمى فرصة أخرى لإحكام سيطرتيها الاقتصادية والثقافية فى أشكال جديدة مستحدثة . . وأحيانا ماكانت هذه الأنظمة تنتشر تحت شعارات تقدمية أو حتى اشتراكية مما ألحق أضرارا بالغة بالفكر التقدمى الاشتراكى .

لم يحاول أحد أن ينبه إلى أهمية الديمقراطية ومخاطر الديون وتراجع الزراعة وأشكال وأنماط التنمية المشوهة واللحاق بثورة التكنولوجيا والاتصال، وأصبحت المؤامرات الإمبريالية والرجعية هى وحدها المسئولة عن كل الموبقات، وتاهت بل وضاعت صيحات التحذير التى أطلقتها بعض الأحزاب الشيوعية والاشتراكية مثل الحزب الشيوعى الإيطالى عن خطورة الأوضاع فى أفغانستان وبولندا وفى كثير من دول العالم الثالث . .

أما غالبية الأحزاب العربية التى حضرت المؤتمر، كان بعضها مشغولا بجمع كل المحسنات البديعية التى عرفتها اللغة العربية فى مدح النظام الذى يمثله والقائد المناضل البارز الذى يقوده.

وبعضها الآخر يؤكد أنه يقود نضال الشعب العربى فى جبهة قوية تقودها الطبقة العاملة العربية ثم لاينسى فى النهاية أن يردد بعض الهتافات التقليدية المعروفة.. !

وكتبت يومها فى جريدة السفير عرضا وتقييما للمؤتمر نشر على صفحة كاملة..

وبعد يومين فوجئت بتعليق للصديق ميشيل كامل فى الجريدة يتهمنى فيه بأننى تجنيت على المؤتمر وشوهت بعض الحقائق مشيرا بشكل مستتر كما لو أن لى مصلحة خاصة فى ذلك.. وقد وقع على هذه الكلمات باسمه مقرونا بأنه «عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى» وابتسمت ابتسامة لاتخلو من مرارة وأسى وأنا أقرأ كلمات ميشيل، متى كانت عضوية المكتب السياسى وظيفة تكتب على كارت.. ما أسهلها من وظيفة مضمونة.. بعيدا عن شعبك وبلدك.. كان ميشيل أحد الأصدقاء الذين أعتز بهم رغم اختلافنا فى كثير من الآراء والأفكار.. فلقد كنت أقدر فيه اتساقه ووضوحه مع نفسه وفهمه لقدراته وإمكاناته دون إدعاء أو استعلاء كما كان يشدنى إليه أخلاقياته النبيلة واستعداده الدائم لمشاركة الآخرين فى آلامهم حتى ولو بالكلمة.

ولقد سمعت عن ميشيل فى أواسط الخمسينيات وأنا بعد طالب فى الجامعة باعتباره واحدا من رواد الفكر الاشتراكى وأنه قدم مساعدات كثيرة من الناحية المادية للحركة الاشتراكية المصرية باعتباره من أسرة غنية.

ولذلك عندما عرفت أنه أعلن استقالته من الحزب الشيوعى سنة ١٩٥٩ عندما بدأت حملة الاعتقالات المكثفة على الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين فى تلك الفترة، لم أهاجمه مثلما هاجمه الآخرون ولم أتهمه بأنه حاول أن ينجو بنفسه من الاعتقال.. بل احترمت فيه اعترافه بأنه غير قادر على مواجهة تلك الظروف الصعبة.

وعندما خرجت من المعتقل سنة ١٩٦٤ بعد أكثر من خمس سنوات من الاعتقال كان ميشيل كامل من أوائل الذين التقيت بهم، وكان يعمل فى ذلك الوقت سكرتيرا لمجلة الطليعة.. كان متحمسا للنظام فى تلك الفترة، ويلتقى بالرفاق فى منزله لإقناعهم بضرورة حل الحزب والالتحاق بالتنظيم الطليعى الذى كان يشكله النظام سرا.. وبالرغم من أننى قلت له بوضوح فى ذلك الوقت إننى قررت وبشكل قاطع عدم الانضمام إلى أية منظمات سرية بعد ذلك سواء مع السلطة أو ضدها وإننى سأعتمد على قدراتى ككاتب فى الدفاع عن الاشتراكية كما فهمتها وأفهمها إلا أن ذلك لم يفسد للود قضية بيننا.. واتصلت علاقتنا بل وتعمقت وتعاونا مع مجموعة من

الكتاب الآخرين فى إصدار مجلة الطليعة التى لعبت دورا لاشك فيه فى تعميق الفكر الاشتراكى المصرى والعربى وتجديده نظريا وعمليا حتى أغلقها السادات فى منتصف السبعينيات.

بل إن ميشيل قدم لى مساعدة مالية فى ظروف حرجة ساعدتنى على إتمام زواجى فى أواخر الستينيات ومازلت حتى اليوم مدينا له بمبلغ ١٥٠ جنيها.

وذهبت أنا وهو فى رحلة مشتركة إلى بلغاريا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا لمدة تزيد على ثلاثة أسابيع كانت من أمتع الرحلات فى حياتى، فقد كان نعم الصديق فى السفر، وخضنا خلالها الكثير من الأحداث والمغامرات التى لاتنسى من بينها أننا وبعد سهرة طويلة فى أحد محلات براغ القديمة، كنا من أول الذين شاهدوا الدبابات السوفيتية فى فجر ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٨.. عندما قرر حلف وارسو التدخل لإنهاء ربيع براغ..

وعندما فصلتنا لجنة النظام فى الاتحاد الاشتراكى سنة ١٩٧٣ مع ٣٦ كاتبا وصحفيا فى أول دفعة أعلنت تحت دعوى أننا من الذين يعملون على إثارة وتهييج القاعدة الطلابية السليمة والتى كانت تنظم سلسلة من الإضرابات والاحتجاجات لتقاعس النظام عن العمل من أجل تحرير الأرض المحتلة، جاء اسمه تاليا لاسمى فى قائمة الشرف التى نشرت فى جميع الجرائد اليومية وفى صفحاتها الأولى... أعنى قائمة الفصل.

وعندما قرر مثل الكثير من الزملاء الذين تعرضوا للفصل أو للنقل إلى مؤسسات أخرى السفر إلى البلاد العربية للعمل هناك، كنت أودعه فى شقته فى الزمالك حتى الصباح، وقد خصنى بأن طلب منى مراعاة بعض أموره الخاصة وكشف لى بوضوح أنه قرر ألا يعود إلى مصر، وبعد ذلك بخمس سنوات، وبعد عملى فى برلين فلقد كنت أعتقد أننا مازلنا صديقين رغم أننا اختلفنا فى النهج ومنذ زمن بعيد، فهو قد أصبح عضوا قياديا نشطا فى الخارج عن الحزب الشيوعى الذى تشكل فى أواسط السبعينيات..

وأنا أبتعدت عن أية منظمات سرية منذ أواسط الستينيات داخل مصر وخارجها مقتنعا بأننى أستطيع من خلال قلمى أن أدافع عن الاشتراكية كما آمنت بها وفهمتها.

ولكل هذا كانت مفاجأة لى حقا.. هذا الهجوم الجارح وغير المبرر من ميشيل لمجرد أننى عرضت رأيا يختلف معه فى تقييم هذا المؤتمر الذى لم يحضره هو شخصيا...

وجلست ليلة كاملة فى حيرة، أكتب ردا جارحا على نفس المستوى ساردا بعض الحقائق المريرة ومشيرا فى النهاية إلى أن النضال الحقيقى فى مصر وليس فى

الخارج، وأن عضوية المكتب السياسى لايصح أن تكتب كما لو كانت على كارت فى الخارج، مثلما يكتب البعض مثلا «مدير عام أو قائم بأعمال».

ثم أعود فأمزق كل ماكتبته. . مدركا أن هناك فارقا كبيرا بين أن تختلف مع صديق وبين أن تشتمه أو تجرحه حتى ولو كان ذلك من خلال الحقيقة. . ومشفقا فى نفس الوقت على الدخول فى قضية فرعية وتبادل الاتهامات القاسية، ذلك النهج الذى ساد بين القوى الوطنية العربية وكان يثير حفيظتى وسخطى الشديد. .

فما أسهل عندنا أن يكون بطل الأمس خائن اليوم، وعميل الغد مناضلا فيما بعد الغد. . لأننا فيما يبدو لسنا مؤهلين بعد لأن نفهم أهمية الحوار وقررت ألا أرد وأنسى الموضوع كله فاكتفيت بكلمات يوليوس قيصر الخالدة. . حتى أنت يا . . . . .

على أن تلك السحابة العابرة رغم مافيها من مرارة، سرعان ماتبددت واستعادت الحياة نبضها الممتلئ بالأمل وقوة الدفع، أملأ قلبى وعينى بكل ماهو جوهرى وأصيل فى المجتمع الذى أعيشه بمزيد من الثقة وقليل من التردد والحيزة. . ووجدت أنه قد آن الأوان لأن أصحب الولدين فى إجازة فى ربوع ألمانيا، وخاصة أنهما لم يستطيعا طوال العامين الماضيين زيارة القاهرة نظرا لضيق ذات اليد من ناحية ولحالة انعدام الوزن التى كابدتها طوال تلك الفترة. .

وذهبنا نجوب ألمانيا الديموقراطية بالعربة من درسدن جنوبا حتى إيرفورت وأيسناخ غربا وحتى بحر البلطيق شمالا ثم روستك وفارنمندا الساحرة. .

ونظرا لأنه كان موسم الإجازات فقد كان من الصعب أحيانا أن نعثر على غرفة فى فندق ولكن ذلك لم يشكل لنا أية عقبة، فلقد كنا ننام فى العربة وأحيانا نفرش البطاطين فى الغابة أو على شط البحر. .

عشرة أيام تسلقنا فيها جبال الهارتز العالمية وتجولنا فى منطقة ثورنج الجميلة سويسرا ألمانيا ودفعنى الولدان ولأول مرة فى حياتى لأن أشاركهما، رياضة الزحلقة على الجليد فى مرتفعات أوبرهوف الرائعة ودفعانى فى زحافة صغيرة انقلبت بى أكثر من مرة، وهما يضحكان من الأعماق وأقوم من كل دفعة أنفض الثلج عن ثيابى، وأنا أسب وألعن ثم سرعان ما أستغرق معهما فى الضحك. . ومن الأعماق. .

ياه. . كم هى عزيزة وجميلة تلك الضحكات التى كنت قد نسيتها. . وفهمت ساعتها المغزى الحقيقى لكلمات شاعر فرنسا العظيم لويس أراجون. .

ما أجمل الضحكة حتى ولو كانت على وجه مشوه. .

ثم انتقلنا إلى جزيرة روبين، أكبر جزيرة فى بحر البلطيق نستكشفها وسط طبيعة خلابة آسرة وطول الطريق وفى حضن الغابات الكثيفة، وعلى قمة المرتفعات

الجبلية ، وعلى شاطئ البحر الممتد تنطلق أغانى عبدالحليم حافظ وأم كلثوم وشادية من كاسيت العربة ، ونحن نرددها وبصوت عال .

بل إننا صباح يوم من أيام الإجازة فى أعماق الجزيرة الألمانية الغارقة فى حضن البلطيق تذكرنا فجأة أن ذلك أول أيام عيد الأضحى . . وارتديت أنا والولدان الجلابيب البيض التى كانت معنا وعيون الألمان تتابعنا فى دهشة وابتسامة ، ونحن سعداء على قدرتنا بالاحتفال بالعيد فى تلك المنطقة النائية التى ربما لم يرتدها عربى وربما أجنبى من قبل . .

واقترح ابنى الأكبر عمرو بألا نتكلم اليوم إلا باللغة العربية مهما كان الأمر ، حتى إننا فى المطعم طلبنا سمكا . . ولما لم يفهم الجرسون بالطبع ، أخذ عمرو يشرح له بحركات اليد والعين والوجه ماذا نريد حتى صاح الجرسون الألمانى فى النهاية . .
آه فهمت . . فش . . فوريلا . . . . ثم استدار وهو يقول ساخطا . .
عربى من أثرياء البترول . . . ترك الجمل فى الصحراء وجاء يأكل سمكا فى البلطيق . .

والولدان فى غاية السعادة لهذه الإجازة التى طال انتظارها ، وأنا أستمد من سعادتهما وضحكاتهما البريئة إحساسا بالدفء ومشاعر هادئة ناعمة تسرى فى جسدى وكأنها حمام داخلى يغسل كل أدران الغربة ويمحو تعرجات الآلام التى عانيتها . .

أيام عشرة كان كل يوم يقدم تعويضا إنسانيا غاليا عن كل المعاناة السابقة ، اندمجنا فيها مع الطبيعة حتى أصبحنا جزءا منها .

وأحسست فيها بل وأمسكت فى يدى المغزى الحقيقى لحب الحياة . .

وأدركت أيضا الخطأ أو الخطيئة التى يقع فيها الإنسان حين يترك نفسه محاصرا فى دائرة صغيرة من الهموم والمشاكل دون أن يقفز خارجها وتذكرت كلمات كازنتزاكس الرائعة فى الأخوة الأعداء . . .

أيها الإنسان البائس ، تستطيع أن ترفع الجبال وأن تصنع المعجزات ، ولكنك تمرغ نفسك فى الخمول . . . الله فى داخلك تحمله دون أن تدرك . . قم واقفز من فوق سور الحظيرة . .

وقد كانت كل تلك الأيام العشرة . . محاولة جيدة من الحملان للقفز من فوق سور الحظيرة .

[٤٧]

ابق مكانك رغم كل شىء، ودع السهام الفولاذية
تخترق جسدك والأفكار تغمرك..
ولكن انتظر واقفا كالأشجار
فلابد وأن تغمرك الشمس فجأة وبلا حدود.

فرانزكافكا - *الكراسات*

أكتوبر سنة ١٩٨٠

فى أواسط الخمسينات، والشارب لم يخضر بعد، والطريق لم تتحدد معالمه وإرهاصات الطموح الإنسانى والذاتى تتداخل وتتصارع أحيانا لتحدد المسار لطالب جاء من أعماق الريف ليدرس الأدب والحضارة والفلسفة فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب ويلتقى الأستاذ. . والطالب وكأنما كانا على موعد. .

كنت واحدا من هؤلاء الذين اختارهم الدكتور لويس عوض ليشربوا الشاى فى منزله عصر يوم الخميس من كل أسبوع . . وأجلس مع مجموعة محدودة من الطلبة والطالبات الذين وقع عليهم الاختيار فى منزله فى شارع قصر العينى . . لأستمع إلى أحاديثه الحلوة الغنية خارج مدرجات القسم، مأخوذا مستوعبا وأحيانا فى قلق ودهشة .

كان لويس عوض يتحدث عن الموسيقا والمسرح والباليه والأوبرا والفلسفة والتاريخ والرواية والكونشرتو والفن التشكيلى، كما لو كان يتحدث عن موضوع واحد . كان ينتقل من حديثه عن مسرح الكوميدى فرانسيز ومسرحيات راسين وموليير وسارتر إلى قاعة الأوبرا فى فيينا أو لندن وأوبرا حلاق أشبيلية وكارمن إلى المسرح الإنجليزى الحديث «والغاضبون» من أسبورن وجون آردن إلى بريخت ومسرحه التعليمى الجديد إلى فرقة البولشوى وإبداعاتها فى الباليه إلى موسيقا تشايكوفسكى وخاتشودريان وفاجنر إلى اتجاهات الرسم التشكيلى الحديث عند

سلفادور دالى وبيكاسو إلى وقفة جاليليو جاليلى أمام محاكم التفتيش الرهيبة التى طلبت منه أن يتخلى عن اكتشافاته العلمية، ثم وهو يصرخ فى النهاية وآلات التعذيب الرهيبة تكسر عظامه . . « . . . أقسم أن الأرض تدور . . أقسم أن الأرض تدور . . أقسم أن الأرض تدور . . . » .

وكان الأستاذ الدكتور يضع أيادينا بشكل عملى على وحدة الإبداع والخلق والابتكار . . كانت الأوبرا والباليه أو الفن التشكيلى حتى الكونشرتو بالنسبة لى طلاسم لا أعرفها، وحينما ادخرت مرة مبلغ خمسين قرشا لأحصل على تذكرة فى الأوبرا المصرية القديمة والتاريخية لأشاهد فرقة إيطالية زائرة تعرض أوبرا كارمن خرجت ليلتها وأنا ألعن سذاجتى التى دفعتنى لأن أضيع هذا المبلغ الكبير على عمل لم أستطع أن أفهمه أو أستوعبه . .

وأذكر أننى كنت يوما عند الدكتور لويس عوض فى منزله وحدنا، أحدثه بانفعال زائد فى ذلك الوقت عن مشكلة الفقر والتفاوت الطبقى والاجتماعى الشديد مركزا على أحوال القرية والفلاح المصرى البائس . .

واستمع الدكتور إلى انفعالاتى حتى النهاية ثم نصحنى أن أذهب إلى دار الأوبرا لأستمع إلى فرقة فيلاها رمونى لندن، وهى تعزف الليلة بعض مقطوعات هاندل وباخ وبتهوفن وحينما لمح على وجهى إعصار التمرد والامتعاض والاحتجاج، صرخ فى وجهى قائلا . . .

- اذهب وتعلم كيف تسبح بأفكارك وأحاسيسك لتصل إلى أعماق الأمور . . لابد أن تكون أحاسيسك مثقفة متحضرة متعمقة هذا إذا كنت تريد أن تكون مؤثرا ونافعا . .

وقد تكرر نفس الشيء مع أستاذى الدكتور محمد مندور الذى كنت أيضا ضمن مجموعة ممن يجتمعون إليه فى منزله فى المنيل، وقد أثارنا واستثارنا فى ذلك الوقت بأفكاره الجريئة وثقافته الغزيرة وبساطته الشرقاوية .

ولقد أجبرنى ليلة على أن أظل صامتا فى غرفة مكتبه لمدة تزيد على الساعة، وأنا الذى كنت قد جئت إليه فى أمر عاجل، لأنه كان يستمع إلى السيمفونية التاسعة لبتهوفن، وقال لى ليلتها وقد أحس بأننى كنت طوال الوقت فى ضيق وضجر . .

- اسمع يابنى . . إذا لم تستطع أن تستوعب جميع الأشكال الفنية الجادة وتتفهمها فأنا أنصحك بالابتعاد عن مجال الإبداع والابتكار . .

وقد كان علىّ أن أنتظر فترة أخرى من النضج الذهنى والروحى لأدرك أهمية هذا الترابط والتوحد الفنى بين كل أشكال الإبداع فى مجال الفن والثقافة . . والعلوم . .

ولأستوعب القيمة الحقيقية لهذين العملاقين لويس ومندور اللذين يملكان ثقافة موسوعية واسعة افتقدها وابتعد عنها الكثيرون من جيلنا ولأدرك أن كل عمليات

الإبداع البشرى متكاملة ومترابطة ومتصلة تنبع من عمق إنسانى واحد. . يتلاقى فيه حب الحياة مع إحساس عميق مركز بها ثم محاولة تطويرها وتطويعها فى خدمة الإنسان. . سيد هذا الكون. .

وأدركت أيامها أن هناك ارتباطا عضويا بين الفن والعلم. . تتساوى قيمة اللوحة الجميلة والسيمفونية الشجية والرواية الممتعة مع قيمة اكتشاف كروية الأرض ونظريات الجاذبية والنسبية. .

ولقد بلور كثير من العلماء والمفكرين الموسوعيين ذلك فى إبداعاتهم على مر التاريخ الحضارى. . ابن سينا وابن رشد والفارابى. . . . الذين جمعوا بين الفلسفة والحكمة والطب والكيمياء والأدب والموسيقا. .

وجوته وبرتراند رسل ونيوتين وأينشتاين وأدركت مخاطر القصور والإحباط الذاتى التى تصيب جمهرة من المثقفين المصريين والعرب الذين عجزوا عن ممارسة واستيعاب أعلى مراحل الإبداع الإنسانى. . فعاشوا مثل حكامهم فى أفق ضيق محدود غير قادرين على الانطلاق والتحليق والإبداع والابتكار. .

تذكرت كل هذا وأنا أغرق نفسى فى مسارح برلين لأعوض جوعا حضاريا للاستزادة من هذه الأشكال. .

وأذكر أننى وفى بداية عملى فى برلين وضعت قائمة كاملة بكل الأعمال المسرحية الكلاسيكية والأوبرات والأوبريتات والباليه والسيمفونيات لأشاهدها وأقتنى تسجيلات لها. .

وقد ساعدنى على ذلك ازدهار النشاط الثقافى وتوافره فى المدينة التى يوجد فيها أكثر من ١٨ مسرحا وأوبرا تقدم كل الأشكال الفنية الكلاسيكية والمعاصرة، كما أن برلين بقسيمها الشرقى والغربى تشهد احتفالات ومهرجانات فنية سنوية، منها مهرجان برلين المسرحى الذى يقام فى سبتمبر من كل عام وتحضره أكثر من ٣٠ فرقة مسرحية فنية عالمية. .

ثم (المهرجان الموسيقى الدولى) الذى يقام فى درسدن فى مايو وتشهده فرق عالمية مرموقة فى الموسيقا والباليه والأوبرا، من بينها فريق البلشوى، فريق الفيلا هارمونى فى لندن وفيينا ومهرجان الأغنية الذى يقام فى فبراير ومهرجان الأفلام التسجيلية الذى يقام فى ليبزج فى نوفمبر، ومهرجان الأفلام الروائية الذى يقام فى يناير. .

بالإضافة إلى عشرات من صالات العرض للفن التشكيلى التى تنظم عروضا دولية لفنانين كلاسيكيين ومعاصرين من جميع أنحاء العالم. .

كنت أحيانا أحس وسط هذا النشاط الفنى الثقافى المتنوع، أننى مثل أرنب برى صحراوى جائع، وجد نفسه فجأة وسط مساحات لانهائية من المروج الخضراء..

وقد كنت عائدا ذات ليلة بعد مشاهدة أوبرا عايدة.. على مسرح الكوميش أوبرا فى برلين.. وأحكى لولدىّ اللذين كانا معى بنبرة تشي بالفخر والاعتزاز عن حقيقة أن فردى قد كتب هذه الأوبرا العظيمة التى تتناول التاريخ المصرى القديم خصيصا لافتتاح مبنى الأوبرا فى القاهرة فى ستينيات القرن الماضى والتى كانت تعد فى ذلك الوقت رابع أو خامس دار أوبرا فى العالم كله وأول دار من نوعها فى آسيا وإفريقيا.

ورن جرس التليفون قرب منتصف الليل:

- أنت مش جاى باريس واللا إيه.. المؤتمر بعد بكرة.

- جاى فين.... ومؤتمر إيه؟

- مؤتمر الصحفيين المصريين فى الخارج...

الدعوة والتذكرة أرسلا لك من فترة.. أرجوك اتصل بـ..... هتلاقى كل حاجة هناك..

لازم تأتى إلى باريس غدا.. فى انتظارك.. كل الزملاء موجودون.

كان المتحدث صديقا صحفيا قديما يعمل فى إحدى الدول العربية..

وكانت فكرة عقد مؤتمر للصحفيين المصريين فى الخارج قد طرحت منذ فترة، طرحها نفس الزملاء الذين كانوا قد تحمسوا لفكرة تشكيل اتحاد للكتاب المصريين فى الخارج.. ولكن هذه الفكرة ووجهت بتحفظات من جانب عدد من الزملاء، خاصة وأن نقابة الصحفيين المصريين فى القاهرة كانت نشطة كعادتها كما كانت مواقفها الوطنية والمهنية البارزة لاتترك فرصة لأحد بأن يزايد عليها..

كان النقيب فى ذلك الوقت هو الأستاذ كامل زهيرى كما كان مجلس النقابة يضم عددا من الزملاء المرموقين والمشهود لهم بالتفانى فى خدمة قضية الصحافة وحرية الصحفيين، من بينهم عبدالعزيز عبدالله وأمينة شفيق ومحمود المراغى وصلاح الدين حافظ.

وقد كان أمرا غير مفهوم بالطبع نقل مقر اتحاد الصحفيين العرب من القاهرة.. ضمن هوجة قرارات مؤتمر بغداد التى أعقبت اتفاقية كامب ديفيد والتى أحكمت الحصار فى واقع الأمر على المنظمات الجماهيرية المصرية وحاولت عزلها. كما كانت مسألة تثير أكثر من التساؤل البرىء بأن تعزل القيادات المصرية فى اتحاد الصحفيين العرب بعد نقله إلى بغداد ويستبعد كامل زهيرى رئيس الاتحاد وصلاح حافظ سكرتيره وعبدالعزيز عبدالله أمين الصندوق رغم المواقف المشرفة لهؤلاء ليس

فقط فى مواجهة كامب ديفيد، بل وفى الدفاع الأمين عن حرية الصحافة والصحفيين. . ولذلك لم تجد الفكرة فى بدايتها حماسا يذكر إلا من قلة محدودة. .

وقد كنت أحسب أنها أسقطت تماما، إلى أن جاءنى هذا التليفون الغريب والمفاجئ من باريس. .

وفى الصباح وصلتنى الدعوة الرسمية من اتحاد الصحفيين العرب لحضور المؤتمر للتضامن مع الصحفيين المصريين من ٢٠ إلى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٨٠ فى فندق الهيلتون فى باريس ومع الدعوة تذكرة السفر وتأكيد بأن نفقات الإقامة والاستضافة فى الفندق مدفوعة من اتحاد الصحفيين العرب.

المسألة تستحق. . إقامة مجانية فى هيلتون باريس لعدة أيام وأنا الذى لم أجرؤ فى كل زياراتى لباريس الاقتراب حتى من فنادق الدرجة الثالثة أو بنسيونات الحى اللاتينى لأنها كانت تعتبر إرهاقا لميزانيتى المحدودة وكنت أنزل ضيفا على بعض الزملاء أو الأصدقاء فى بيوتهم. .

وطوال اليوم لم يكف جرس التليفون عن الرنين. . .

والمتحدث دائما صديق أو زميل من باريس من الذين تجمعوا فى الهيلتون وكلهم يحثوننى على الإسراع بالحضور قبل افتتاح المؤتمر. . غدا. .

وقد قررت فعلا المساهمة فى هذا المؤتمر. . ولكن بشكل آخر. .

وطلبت جريدة السفير فى بيروت وأمليتهم رسالة مفتوحة إلى رئيس اتحاد الصحفيين العرب حول مؤتمر الصحفيين فى باريس. .

كانت الرسالة تحمل فى البداية اعتذارا مهذبا عن عدم الحضور. . ثم تبدى بعد ذلك حيثيات هذا الاعتذار على النحو التالى. .

* إنه رغم أن اتحاد الصحفيين العرب قد تكبد عبء دعوة الصحفيين المصرين من خارج مصر الذين يقدر عددهم بحوالى ٢٥٠ صحفيا إلا أنه لم يوجه مع الدعوة جدولا لأعمال أو قضايا محورية مطروحة للمناقشة مما جعل هدف المؤتمر يكتنفه غموض شديد.

* إننا إذا أخذنا بقانون الاحتمالات لتفسير الدعوة لهذا المؤتمر فسنجد أمامنا. .

الاحتمال الأول: وهو مناقشة ظروف الصحافة والصحفيين فى مصر. . وهذا الاحتمال إذا صح هو من حق نقابة الصحفيين المصريين فى القاهرة باعتبارها المؤسسة الشرعية الوحيدة والمنتخبة انتخابا حرا من مجمل الصحفيين المصريين (حوالى ١٨٠٠ صحفى).

والنقابة المصرية لها تاريخها المشرف فى الدفاع عن حقوق الصحفيين ليس فى مصر وحدها بل وفى العالم العربى.

وهنا نجد أنفسنا أمام موقف غريب وليس له تفسير منطقى من جانب اتحاد الصحفيين العرب الذى قام بتجميد عضوية النقابة المصرية بعد انتقاله إلى بغداد وقام بتنحية القيادة الشرعية المنتخبة للاتحاد العربى ، هذا علما بأن مجلس نقابة الصحفيين المصريين أعلن ومن البداية معارضته لكامب ديفيد ، كما واصل ويواصل الدفاع عن حقوق الصحفيين وحرية الصحافة فى بيانات علنية آخرها البيان الخاص بقانون العيب وقوانين تنظيم الصحافة . .

بل إن نقابة الصحفيين المصريين تكاد تكون النقابة الوحيدة من نوعها فى العالم العربى التى تعارض علنا السياسة المعلنة لحكومتها (هذا مع الاعتذار للنقابات الأخرى) .

وإذا كان الأمر كذلك ، وهو كذلك بالفعل ، تصبح هذه الدعوة الموجهة من اتحاد الصحفيين العرب ، دعوة ممن لايملك شيئا حول قضية لاتستحق . .

أما الاحتمال الثانى فهو أن مؤتمر باريس يهدف إلى مناقشة ظروف ووضع الصحفيين المصريين فى الخارج فى محاولة لتأمين أحوالهم المهنية وحماية حقوقهم فى المؤسسات التى يعملون فيها فى الخارج . . ومع أنه من الواضح أن هذا ليس الهدف أو الغرض ومع ذلك فالصحفيون المصريون فى الخارج جزء لايتجزأ من جموع الصحفيين فى الداخل وعلاقتهم باتحاد الصحفيين العرب تأتى من خلال عضويتهم فى نقابتهم الأصلية ، وبالتالى فنقابة الصحفيين المصريين هى صاحبة الحق الأول والأخير فى الدعوة لهذا المؤتمر ، ولايمكن تفسير هذا التجاوز من جانب الاتحاد العربى إلا محاولة لإنعاش أفكار حوصرت من قبل فى إمكانية خلق بديل فى الخارج للنقابة المصرية (مثل المحاولات التى جرت سابقا لتشكيل اتحاد للكتاب المصريين فى الخارج) .

وفى كل الأحوال فهو أمر مرفوض واتجاه خطر ومدمر يهدف إلى خلق أشكال صورية معزولة عن الجذور الأصلية لخدمة أغراض ذاتية بعيدا عن الروح القومية والوطنية .

أما الاحتمال الثالث وهو إذا صدق فسيكون مدعاة للسخرية المريرة أى أن يكون مؤتمر باريس يهدف مناقشة حرية الصحافة والصحفيين فى العالم العربى كله . . وأصدقكم القول إنه لو كان هذا هو الهدف لكنت أول الحاضرين لهذا المؤتمر . . ولهذا فأنتم لم تتركوا فرصة لمثل هذا التفسير وحصرتم القضية كلها فى الصحافة فى مصر لأن الكثير من النقابات الصحفية العربية لاترغب بالقطع فى مناقشة حرية الصحافة والصحفيين فى بلادها . .

فكلنا يعلم، كما يعلم اتحاد الصحفيين العرب يقينا، أن هناك على طول البلاد العربية وعرضها العديد من الصحفيين العرب الذين يقبعون وراء أسوار السجون والمعتقلات، وقد كان سعيدا من استطاع أن يهرب منهم بجلده لمجرد أنهم يحملون أفكارا متعارضة مع نظام هذا البلد أو ذاك . .

ولماذا ياسيدى اختيرت الصحافة المصرية وحدها للحديث عن حرية الصحافة فى العالم العربى، ومع ذلك فدعنى أقول لك بصراحة إنه من حسن حظنا نحن الصحفيين المصريين أنه لدينا نقابة عظيمة تدافع بلا هوادة عن شرف المهنة، وأن الغالبية العظمى للزملاء الصحفيين العرب يعرفون ذلك ويقدرونه ويغبطوننا عليه ويتمنون أن يتحقق ذلك فى بلادهم . .

ولذلك . . فاسمح لى مع اعتذارى عن عدم الحضور أن أؤكد لكن أنى لست على استعداد للمشاركة فى هذا الأمر . .

وسأكون أول من يلبى دعوتكم إذا قررتم عقد مؤتمر آخر لمناقشة حرية الصحافة فى العالم العربى . .

مع كل الإعزاز والتقدير . .

برلين فى ٢١/٨/ ١٩٨٠

ونشرت الرسالة فى اليوم التالى مع صورة افتتاح المؤتمر فى هيلتون باريس والذى حضره رئيس اتحاد الصحفيين العرب وسكرتيره العام وعدد آخر محدود من الاتحادات الصحفية العربية . .

كما حضره عدد قليل من الصحفيين المصريين فى الخارج لايتعدى عددهم العشرين . .

كانت الرسالة أشبه بحجر ضخم ألقى فى وادى السكون المفروض . .

وتردد صداها بدرجة لم تكن فى حساباتى على الإطلاق . .

وطوال شهر كامل نشرت جريدة السفير ردودا متلاحقة على الرسالة حتى إنها خصصت صفحة كاملة لهذا الموضوع، تعتبر وبكل المعايير أضخم معركة صحفية ثارت حول قضية معينة بين الصحفيين والكتاب أنفسهم وحول قضية الصحافة نفسها . .

بدأت المعركة برد منفعل وغاضب من الزميل حنا مقبل سكرتير اتحاد الصحفيين العرب يهاجمنى لأننى لم أحضر وحاولت أن أشوه صورة المؤتمر .

وجاء الرد عليه من الزميل صالح قلاب عضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الذى أكد وجهة نظرى ثم فجر قضية ما أسماه بمحاولات وضع اليد على مكانة مصر عربيا ودوليا . . وانتهى إلى القول بأن مؤتمر باريس الذى عقد تحت شعار التضامن مع الصحفيين المصريين قد كشف عن مدى محاولات فرض الوصاية على الشعب المصرى وهيئاته ، ومدى محاولات استغلال ما يواجهه هذا الشعب للتطبيل والتزمير لهذا النظام أو ذاك .

ومن العجيب أن أكثر الذين ملئوا الدنيا صراخا لمقولة إن كامب ديفيد على الصعيد الإستراتيجى يستهدف موقع مصر فى الكيان العربى . . هم الذين رفعوا لواء احتلال موقع مصر القومى ، وهم الذين يواصلون السعى مستخدمين أموالهم ونفوذهم لمصادرة مكانة القاهرة على كل صعيد .

وحاول الزميل حسن الكاشف فى مقال طويل على مساحة صفحة كاملة أن يدافع عن اتحاد الصحفيين العرب باعتباره عضوا فى أمانته العامة ويبرر الأسباب التى أدت إلى عقد مؤتمر باريس ويعلن نوعا من الشفقة بالنقابة المصرية ويفسر غيابها بأن (النقابة المصرية والنقيب زهيرى تحديدا لايستطيعان المشاركة فى الاتحاد ولا يستطيعان تحمل النتائج المترتبة على هذه المشاركة لأن المشاركة تعنى فتح النار علنا على سياسة الحكم ، وهذا كما هو واضح غير ممكن لا بالنسبة لكامل زهيرى ولا لنقابة الصحفيين المصريين ولا للكثيرين من أبناء مصر . . .) .

ويبرر الكاتب رأيه بأنه كان من المحتم بعد زيارة السادات للقدس أن تنقل المنظمات النقابية والشعبية من القاهرة . .

ورد عليه الزميل مصطفى الحسينى الذى كان يعمل فى السفير فى ذلك الوقت بمقال تحت عنوان «بديهيات غير بديهية» .

يقول فيها بأن مصدر جدارة القاهرة أن تكون مقر اتحاد الصحفيين العرب وللمنظمات الشعبية العربية ليس فقط لأنها كانت عاصمة عبدالناصر ، وإنما مصدر الجدارة الحقيقى هو وزن مصر - البلد والشعب والتراث القومى والوطنى والديمقراطى وهو مالا يستطيع السادات أن يغيره ، كما لا يستطيع تغييره أولئك الذين يتمنون سرا لو استطاع السادات أن يفعل ذلك . . كما أن الجدارة فى هذا الشأن النقابى الصحفى فى مصر تستمد أيضا من التقاليد النقابية العريقة التى يثبت يوميا أنها فى مصر ونقابتها مازالت بخير وعافية .

ثم كتب ميشيل النمرى عضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين تحت عنوان «اتحاد الصحفيين العرب وقضية الديمقراطية» قائلا :

«فى رد اتحاد الصحفيين العرب على وجهة نظر الزميل فتحى عبدالفتاح بشأن مؤتمر التضامن مع الصحفيين المصريين قال الأمين العام للاتحاد حنا مقبل «واتحادنا -أى اتحاد الصحفيين العرب- يحاول أن يكون طليعيا فى هذا الميدان يقصد ميدان الحريات الديمقراطية «ويؤكد بحسم» أن مواقف الاتحاد واضحة ومعلنة ومعروفة.

ويتصدى النمرى لهذه المقولة ليفندها فى صفحة كاملة وليسجل عددا كبيرا من التجاوزات والملاحقات للصحفيين والكتاب العرب. . ويتساءل عن دور الاتحاد وصوته الذى لم يسمعه أحد. .

بل يذهب إلى توجيه الاتهام بأن كثيرين ممن جرى اعتقالهم، أو حتى تصفيتهم من الصحفيين العرب فى عدد من الأقطار العربية قد تم بناء على توصيات من قادة نقابيين بارزين فى نقاباتهم القطرية. .

ويتساءل النمرى فى مقاله الملتهب.

أما بعد هذا أن يدعو اتحاد الصحفيين العرب لعقد مؤتمر للتضامن مع الصحفيين المصريين فى الخارج «فهذا هو التضليل المنظم، فحيث إنه لايجوز ومن غير المسموح بالتضامن مع الصحفيين الأردنيين أو العراقيين أو التونسيين أو الجزائريين أو. . . . . . إلى آخر القائمة فليس هناك من مشجب سوى المشجب المصرى. .

وهذه أصبحت نكتة سخيفة وسمجة. . .

وأرجو من الزميل مقبل أن يرشدنا إلى نظام عربى واحد غير النظام المصرى، قدم صحفيى بلاده المعارضين إلى محاكم دستورية وعلنية. .

والمفارقة المضحكة أن إرهاب السادات أكثر ديموقراطية ورحمة من إرهاب أنظمة تدعى التقدمية والقومية. وكتب آخرون يكشفون تفاصيل ماجرى فى المؤتمر نفسه بعد أن حضروا كمراقبين وشهود وكشفوا عدة حقائق منها:

* إن المؤتمر لم يحضره من الصحفيين المصريين سوى عدد محدود لايتجاوز ٢٠ صحفيا. أما غالبية الحاضرين من المصريين - فيما عدا اثنين - أكدوا فى كلماتهم أن البيان لايفى بالغرض، ولكن رئاسة المؤتمر تجاوزت ذلك لتعلن أنه قد تمت المصادقة على البيان، وانفضت الجلسة وانفض المؤتمر. .

وقد لخص أحد كتاب السفير وقائع المؤتمر فى عدة سطور.

«إن اتحاد الصحفيين العرب نظم مؤتمرا، أو بمعنى أصح سمح بأن ينظم باسمه مؤتمر هو فى الحقيقة تظاهرة سياسية وأنه فى سياق هذه التظاهرة، استخدم اسم مصر ووطنيتها وديموقراطيتها استخداما أقل ما يوصف به أنه غير مشرف. . .»

وكتب مصطفى الحسينى مرة أخرى تحت عنوان «قصة مؤتمر . . وقصة مصر» تفصيلات مثيرة عما جرى فى المؤتمر وكان قد لحق بالمؤتمر فى آخر يوم له . .

وقال فى النهاية «إن ماكشف عنه مؤتمر هيلتون باريس هو أن اتحاد الصحفيين العرب يستخدم كأداة سياسية ودعائية فى أغراض لاتتصل بأهدافه؟ إن اتحاد الصحفيين العرب قد خرج بمؤتمر هيلتون باريس عن نقابيته والأمر يستحق الدعوة إلى مؤتمر استثنائى يعيد النظر فى تشكيلات الاتحاد ويعيد إليه النقابة الأم أو يعيده إلى النقابة الأم . . نقابة الصحفيين المصريين» .

مرة أخرى يستعيدالإنسان ثقته بأفكاره ومواقفه ، ويملؤنى إحساس لعلى كنت فى حاجة وشوق إليه بأننى قد استطعت أن أكسب نفسى فى معركة طويلة محدودة من لون ونوع جديد بينما كنت أتصور ومنذ عام واحد فقط أننى خسرت العالم كله ، ومرة أخرى أدرك وأمتلئ بالمغزى الحقيقى لتلك الكلمة التى أطلقها السيد المسيح وماذا يفيد الإنسان إذا كسب العالم وخسر نفسه . . .

وانكسرت حدود الغربة الصارمة المتجهمة ، بل ملأنى شعور قوى يفرض نفسه بأن سنوات الغربة والضياع على وشك أن تنتهى ، وأن هناك رنة أمل موحية قد بدأت تتردد فى العالم العربى حتى ولو كانت مازالت خافتة باهتة مترددة . .

ولقد تأكد لى ذلك عندما وصل إلى برلين فى نهاية أكتوبر وفد برلمانى مصرى على مستوى عال للاشتراك فى المؤتمر البرلمانى الدولى . .

كان يرأس الوفد دكتور صوفى أبوطالب رئيس مجلس الشعب ويضم فى عضويته الأستاذ إبراهيم شكرى رئيس حزب العمل الاشتراكى ورئيس المعارضة البرلمانية والأساتذة محمد عبداللاه رئيس لجنة العلاقات الخارجية ، وحسن حافظ رئيس اللجنة العربية ومحمد عبدالحميد رضوان وكيل المجلس وفتح الله رفعت رئيس اللجنة الاقتصادية وعددا آخر من الزملاء الصحفيين منهم الصديقان فاروق أباظة المحرر البرلمانى فى المصور والتونى المحرر فى التليفزيون لقد أتاح لى حضور هذا الوفد إلى برلين إطلالة واقعية وتفصيلية على الأوضاع فى مصر وخاصة بعد غياب أكثر من سنتين . .

حكى لى إبراهيم شكرى فى ليلة استضفته فى شقتى عن الموقف الواضح الذى يتخده حزبه من كامب ديفيد ومن قضية الديموقراطية . الأمر الذى استثار الرئيس لسادات فبدأ يهاجم الحزب ورئيسه ، وخاصة أنه كان يحسب أن الحزب فى جيبه بعد ان وقع له ورعاه فى بداية إعلانه وقدمه على أنه يمثل المعارضة الحكيمة والصحيحة على عكس حزب التجمع .

لقد جلست استمع إلى هذا الرجل الطيب الصادق الذى أحب بلاده وعمل على قدر طاقته وطوال تاريخه على دفع الحياة والتقدم وبغض النظر عن الاختلاف أو الاتفاق معه فى أفكاره وفى أساليبه من أجل تحقيقها، وهو يشرح محاولات السادات لاحتوائه هو وحزبه بل وفرض بعض القيادات المرتبطة به شخصيا، ثم كيف استدعاه يوما للقائه فى القناطر ليناقشه فى «انحراف» الحزب عن الخط الوطنى السليم، وفق تعبير السادات، وانضمامه وتحالفه مع التجمع والناصريين والشيوعيين حينما أعلن إبراهيم شكرى سحب تأييده لكامب ديفيد والمطالبة بوقف التطبيع مع إسرائيل، كذلك المطالبة بإلغاء القوانين الاستثنائية التى كان السادات قد استصدرها فى استفتاء شكلى، وهى قوانين العيب والوحدة الوطنية وغيرها من القوانين التى عرفت بالقوانين المشبوهة سيئة السمعة والتى تستهدف كلها الحد من حرية الحركة والعمل للقوى الوطنية.

ثم يذكره بالقسم الذى سمعه منه فى العام الماضى حين قام بحل مجلس الشعب لا لشيء إلا لأن هناك ١٥ عضوا فيه عارضوا اتفاقية كامب ديفيد معلنا بشرفه أنه لن يسمح بأن يدخل المجلس الجديد أى واحد منهم أو من يعارضون الاتفاقية..

وحين رفض إبراهيم شكرى هذا التهديد الواضح من جانب السادات مدافعا عن وجهة نظره، انفجر فيه السادات قائلا:

هل تعارضنى يا إبراهيم، فى الوقت الذى قال لى رئيس لجنة العلاقات الخاصة فى الكونجرس الأمريكى الأسبوع الماضى إننى لو رشحت نفسى للانتخابات الأمريكية لانتخبنى الشعب الأمريكى بأغلبية ساحقة..

كان حديث إبراهيم شكرى وحكاياته عن اتساع المعارضة السياسية لسياسة الرئيس السادات تشيع الطمأنينة فى قلبى، وتأكد لى أن قطاعات كبيرة وواسعة من الجماهير التى خدعتها ولفترة أحلام الرخاء السرابية قد بدأت تدرك بوضوح الخطأ الإستراتيجى القاتل الذى استدرجوا إليه والذى يستهدف فى الأساس عزل مصر عن العالم العربى، وخاصة أن تلك الأحلام قد بدأت تكشف عن بروز فئات طفيلية على السطح كونت ثروات هائلة من خلال التفريط فى المقدسات الوطنية والعبث بها وبدأت رائحتها العفنة تزكم الأنوف.

كما أن مناقشاتى المستمرة وطوال الأيام الخمسة لانعقاد المؤتمر مع دكتور صوفى أبوطالب ومحمد عبدالحميد رضوان وبعض أعضاء الوفد المصرى كانت تؤكد لى من ناحية أخرى أنه حتى داخل صفوف السلطة نفسها بدأ الإحساس بأن هناك خللا لابد من تداركه..

كان صوفى أبوطالب يستمع إلى وجهة نظرى مليا ثم يحاول أن يقطع علىّ الطريق قائلا :

– ولكن ما رأيك فى رد الفعل العربى الذى جاوز كل الحدود .

– إننى لا أبرر أخطاء رد الفعل العربى ، ولكن القضية أن الفعل نفسه هو الذى جاوز كل الحدود .

أما محمد عبدالحميد رضوان فقد كان ينهى المناقشات التى لم تكن تخلو من السخونة أحيانا ، بخفة دم ومرح وهو يتأبط ذراعى قائلا :

– ياعم سيبك من دا كله وتعال نبحث لنا عن سهرة ظريفة . .

فى حين كان حسن حافظ يختلى بى أحيانا فى ردهات المؤتمر ليؤكد لى أنه يوافقنى على كثير مما قلته ، وخاصة فيما يتعلق بالديموقراطية وكامب ديفيد .

على أن المفاجأة لى حقا كانت محمد عبداللاه . . فلقد شدنى إليه ثقافته الواسعة واجتهاده وإلمامه الجيد بخريطة الصراعات الدولية والإقليمية . . وشهدت قاعة النادى الدبلوماسى المطل على البحيرة فى قرية زويتن فى أطراف برلين الجنوبية حوارا بينى وبينه وامتد لأكثر من ثلاث ساعات لا أعتقد أن أحدا منا كان يحاول أن يخفى أفكاره عن الآخر . .

قلت له رأيى بوضوح فى كامب ديفيد وفى الانفتاح وفى عزل مصر عن العالم العربى فى تلك الفترة بالذات التى يتدفق فيها البترودولار بلا حدود ليصب فى النهاية فى طاحونة بعض الفئات فى الدول البترولية وشركات البترول الأمريكية والغربية .

وقال لى إنه يوافقنى على كثير مما ذهبت إليه . . فقد كان من المفروض فى سياسة الانفتاح أن تجذب رأس المال العربى والأجنبى لخلق مشروعات استثمارية عملاقة ، ولكن هذا لم يحدث بل ربما حدث العكس وذلك نتيجة خلل فى التطبيق .

كما كان من المفترض أن تسفر محادثات السلام مع إسرائيل على اتفاقية شاملة تضمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطين والانسحاب الإسرائيلى الكامل من كل الأراضى المحتلة ولكن الانفعال وعدم إدارة المفاوضات بطريقة حكيمة وقادرة قد أديا إلى اتفاق جزئى محدود كما انتقد فى سخرية مريرة تلك السياسة الانفعالية والذاتية التى ينى السادات عليها سياسته مع الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية ، الأمر الذى ضيق مجال الحركة أمامه وجعله مضطرا لأن يضع كل البيض فى السلة الأمريكية .

كما أن السياسة الداخلية التى مضت لفترة فى تدليل وإبراز الاتجاهات الدينية كبديل عن الاتجاهات الناصرية والماركسية قد أدت فى واقع الأمر إلى فراغ سياسى

تحاول الجماعات الدينية بفكرها المتعصب والمتخلف أن تملأه ومضى فى حماس منطقى يشرح ذلك وما يمكن أن يترتب عليه بالنسبة لتطور المجتمع المصرى مؤكدا أن مواجهة هذه الاتجاهات المتطرفة الخطرة هى قضية حضارية تتطلب تحالف كل القوى.

كان واضحا صريحا فى كلماته بدون أدنى محاولة للتبرير أو لخداع النفس . . وحينما قلت له فى بعض من الدهشة . .

– ولكنك رغم كل ماقلت فأنت واحد من المسئولين عن هذه السياسة من خلال موقفك الحساس كرئيس للجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشعب وقريب جدا من دكتور فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء . .

قال فى هدوء :

– ليس هناك أدنى تناقض ولاتحاول أن تفهمنى بطريقة خاطئة ، فأنا لست يساريا وأنا أويد المنطلقات العريضة لسياسة السلطة ، ولكن التطبيقات ذهبت بها فى واد آخر .

إننى أرى الخطر مثلك بل وأكثر منك ، فأنا أكاد ألامسه كل يوم ويملؤنى الانزعاج الشديد وأحاول من موقعى أن أنبه وأحذر .

– وهل تعتقد أنك ستنجح .

انطلق ببصره عبر البحيرة والغابات الممتدة وراءها ثم أخذ نفسا عميقا من السيجار والتفت إلىّ بهدوء قائلا :

– هل تعرف سيادة النائب حسنى مبارك؟

قلت له وقد فاجأنى وحسبت أنه يهرب إلى موضوع آخر .

– نعم عرفته أيام حرب أكتوبر ، وأجريت معه حوارا ليلة كاملة نشر فى الجمهورية فى ذلك الوقت . .

قال وقد عاد إلى الانطلاق ببصره إلى الشمس التى كادت تغرق خلف الغابات .

إنه لم يزر إسرائيل مرة واحدة ، كما أنه غير راض عما يجرى باسم الانفتاح . .

– ماذا تعنى .

– أعنى أن هناك من يحاول تصحيح المسار من موقعه داخل السلطة .

– وهل تنجحون . .

قال وهو يحاول أن يحل لوغارتمات معقدة دارت ولاشك فى ذهنه . .

– من يعرف . . . دعنا نأمل . .

[٤٨]

إن وراء إرادتنا دنيا وشياطين تهزأ من
تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة..

نجيب محفوظ - بين القصرين

إبريل سنة ١٩٨١

تونس . . . الخضراء

وذكريات الطفولة عما جرى فى هذه الرقعة العربية عندما كان الشاعر الضرير على قهوة الحاج المجاورة لبيتنا فى القرية يشدنا إلى ساعات متأخرة من الليل، وهو يحكى عن «أبو» زيد الهلالى سلامة وصراعه الطويل المرير مع الزناتى خليفة . . .

وأبوزيد يقول لدياب . . تعال ياشاطر

وناعسة ست البنات حيرانة مهمومة . .

ومدينة قارطاجة التى بناها الفينيقيون القدماء متأثرين بالعمارة المصرية القديمة وبمدينة الإسكندرية بوجه خاص . .

وجامع الزيتونة الذى بنى بعد حوالى ثمانى مائة عام من بناء الأزهر على يد أحد أبناء الأزهر نفسه محمد بن زيتونة . .

وابن خلدون الذى انتقل من تونس إلى مصر بعد أن بلغ سن الخمسين وأقام بها وتوفى وكتب مقدمته التاريخية التى أدخلت الفكر العربى إلى رحاب الحضارة الحديثة من أوسع الأبواب وقال عن مصر . . إنها حاضرة الدنيا وإيوان الإسلام . .

وداى تونس أو خديوى تونس الذى ثار على القنصل الفرنسى وضربه بمروحة فى يده فى منتصف القرن الماضى والذى كان يحاول أن يفرض شروطا جائرة لصالح التجار الفرنسيين . . وكان الثمن فادحا ممثلا فى عشرات البوارج الحربية التى أخذت تدك حصون تونس لتحويلها إلى مستعمرة فرنسية . .

وبيرم التونسى الذى ظل حائرا على مركب تجوب به البحر المتوسط بعد أن طردوه من مصر فلا هو قادر على أن ينزل فى تونس حيث رفات الأجداد، ولا هو يستطيع أن ينزل بأرض مصر حيث المولد والنشأة والحب الكبير للى بنى مصر والذى كان فى الأصل «حلوانى».

والحبيب بورقيبة طريد الاستعمار الذى اتخذ من القاهرة وأزهرها مرفأ له ولأفكاره ووجد من المصريين سندا ودعما ثم قام بعد ذلك بلعن مصر والمصريين وكأن بينه وبينهم ثأرا بايتا . . والجامعة العربية التى انتقلت منذ ثلاث سنين من مقرها الدائم على كورنيش النيل وميدان التحرير إلى مجموعة من المبانى فى بعض الشوارع والنهج فى تونس . .

كل ذلك تداعى إلى ذهنى وأنا أطأ هذه الأرض العربية لأول مرة قادما من برلين وبناء على دعوة من السكرتير العام لجامعة الدول العربية لحضور مؤتمر وزراء الإعلام العرب كمستشار وخبير إعلامى . .

وأصل الحكاية أنه فى أحد لقاءاتى فى برلين مع الصديق عبدالله حورانى مدير الدائرة الإعلامية والثقافية فى منظمة التحرير الفلسطينية دار الحديث حول الإعلام العربى بشكل عام وتصوره الواضح فى مخاطبة الرأى العام العالمى والأوروبى بشكل خاص وتشعبنا إلى الجامعة العربية . . والدور الذى تلعبه مكاتبها فى الخارج . .

وسوء التوزيع الجغرافى والمعملى لهذه المكاتب، فبينما يوجد مكتب تقريبا فى كل دولة أوروبية غربية وفى أمريكا أكثر من مكتب، فإن مكاتب الجامعة العربية فى دول آسيا وإفريقيا معدودة ومحدودة، كما أنه لايوجد أى مكتب للجامعة فى الدول الاشتراكية . .

واستفزت تلك الحقيقة الصديق الفلسطينى الذى طالبنى بأن أعد دراسة حول هذه المكاتب وباقتراح محدد بإنشاء مكاتب للجامعة فى الدول الاشتراكية ودراسة إمكانات ذلك.

ولما تولى هو رئاسة دورة المجلس الإعلامى للجامعة قام من خلال السكرتير العام للجامعة بدعوتى لمناقشة هذا الاقتراح مع وزراء الإعلام العرب . .

تحمست لهذا الموضوع لعدة أسباب . . على رأسها أننى واحد من هؤلاء الذين أخذوا يصرخون كما فى البرية عشية قمة بغداد . . بالله عليكم يا أحفاد وأبناء أورشليم الجديدة لاتنقلوا مقر الجامعة من القاهرة ولا تنساقوا وراء اندفاعات وانفعالات قد تؤدى إلى تدشين الغرض الذى وقعت من أجله كامب ديفيد.

ولكن الجامعة نقلت وجرى حول ذلك حسابات ومصالح ليس لها أية علاقة بأى هدف قومى حقيقى.

ومنها أنى حسبت أن يذهب مصرى إلى محفل الجامعة فى تونس كخبير أو مستشار قد يكون فيه شيء من التعويض عن الجرح الذى عانى منه كل المصريين سواء على يد من صنعوا كامب ديفيد، أو على يد من عارضوها بالاندفاع الأهوج.

ومن ذلك أيضا أننى صارحت نفسى بالأحوال المادية المتدنية التى أعيشها.. وإذا كنت قد رفضت إصلاح هذه الأحوال بالعمل مع هذا النظام أو ذاك، فالجامعة فى النهاية مؤسسة قومية قد يكون العمل فيها بديلا موفقا لحل هذه المشكلة دون أن يكون هناك شبه استرزاق أو استرقاق..

حضرت دورة مجلس إعلام الجامعة الذى كان يضم تقريبا كل وزراء الإعلام العرب. واستمعت إلى المناقشات التى جرت حول الحرب العراقية الإيرانية والوضع فى لبنان والقضية الفلسطينية..

ورأيت وسمعت وتأكدت بعينى وأذنى عن مدى الخلافات والمشاحنات والانقسامات والتى كانت تعكس صورة محزنة من التشتت والتشرذم ثم الجهود التى يحاول بها وزراء الإعلام العرب أن يستخدموا كل خبرتهم اللغوية والدبلوماسية لصياغة قرارات أو توصيات مطاطة يمكن تأويلها وتفسيرها على أكثر من وجهة ومعنى.. حفاظا على ماء وجه الأخوة العربية المفتقدة بالفعل..

وفى اليوم التالى بدأ المجلس فى مناقشة دور المكاتب وأجهزة الإعلام العربى وطلب منى رئيس المجلس أن أقدم ملاحظاتى واقتراحاتى..

ولمدة نصف ساعة وضعت أمام وزراء الإعلام العرب أفكارى، بل وأحيانا هواجسى دارت كلها حول أربع قضايا:

* تخلف الإعلام العربى فى الشكل والمضمون سواء من زاوية عدم قدرته على مخاطبة الرى العام العالمى بمنهج حضارى ومنطقى من ناحية أو من زاوية تخلفه فى استخدام وسائل وأدوات التكنولوجيا الإعلامية التى بدأت تتكامل فى شكل ثورة جديدة من المعلومات..

* الخلط فى أحيان كثيرة بين مفاهيم الإعلام والإعلان الأمر الذى أفقد الإعلام العربى عموما مصداقيته وفعاليته سواء على المستوى القومى أو العالمى..

* القيود والحدود الشديدة والمعقدة سواء داخل كل قطر عربى أو بين الأقطار العربية نفسها والتى تحول دون التدفق الحر للمعلومات الصحيحة.

* عدم وجود خطط أو مخططات علمية لدور مكاتب وأجهزة الإعلام الثابتة للجامعة والفوضى الشديدة فى التخطيط وترك مساحات كبيرة فى الرأى العام العالمى دون جهد حقيقى لشرح القضايا العربية. الأمر الذى أدى إلى تغلغل الإعلام الصهيونى والمعادى للعرب بشكل عام..

ومن أبرز الأمثلة التى ضربتها لذلك أننا تجاهلنا تماما الدور الذى يجب أن يلعبه الإعلام العربى بين شعوب الدول الاشتراكية وشعوب كثيرة من آسيا وافريقيا مكتفين بالموقف الرسمى المساند للقضايا العربية من جانب حكومات هذه الشعوب . .

وأحسب أننى قد استطعت أن أشرح أفكارى بشكل معقول، أو هكذا أكد لى الصديقان عبدالله حورانى ولطفى الخولى اللذان حضرا الجلسة . .

كما تأكد ذلك عندما اتخذ مجلس وزراء الإعلام العرب قرارا بتكليفى بوضع خطة مدروسة لافتتاح مكتب للجامعة فى مدينة برلين تمشيا مع الأفكار التى طرحتها فى هذا الموضوع .

وحسبت أننى بذلك قد حققت انتصارا سواء من الناحية الموضوعية أو حتى من الناحية الذاتية ، ولكن يبدو ان هذا الانتصار قد أثار حساسية لدى البعض الذى كانت تمضى حساباته على أسس أخرى . .

فعندما ذهبت فى اليوم التالى لألتقى برئيس الدائرة الإعلامية فى الجامعة لأتفق معه حول التفصيلات العملية لتنفيذ قرار وزراء الإعلام العرب وكلى حماس يتفجر استطاع الرجل بهدوء شديد وبأسلوب تمرس عليه جيدا أن يخفض كثيرا من درجة هذا الحماس ، بل ويحاصره عندما بدأ يتكلم عن قضايا كثيرة لابد من حسمها فى البداية وتشكيل لجان خاصة لذلك وانتظار العام القادم لطلب طرحه فى الميزانية ولاتنس يا أخ عبدالفتاح جوانب أخرى لها حساسية ، وخاصة فى هذه الفترة بالذات - هكذا قال لافض فوه - أعنى يعنى . . مدى تقبل البعض لفكرة أن يكون هناك مصرى على رأس أحد أجهزة الإعلام بالجامعة بعد أن جرى ماجرى . . !!

وخرجت من عند هذا المسئول العربى الكبير الذى لم يكف لحظة عن الابتسام والإطراء المبالغ فيه لشخصى وقد تلقنت درسا كنت فى حاجة إليه لأعرف المصير الحقيقى لأى قرار عربى والهوة السحيقة التى مازالت قائمة فى عالمنا العربى المبارك بين الأقوال والأفعال ، بين القرار وتطبيق القرار ، بين القدرة على الحلم والقدرة على العمل .

وتمنيت الرحمة لنفسى وللآخرين وشددت الرحال إلى برلين حاملا معى نصرا نظريا مبينا يتمثل فى قرار واضح بإنشاء مكتب للجامعة العربية فى برلين أتولى مسئولية تجهيزه وإعداده وموقنا فى نفس الوقت أن هذا القرار لن يرى أو لن يسمح له بأن يرى النور . .

وقد كانت ومازالت الحال كذلك حتى اليوم . . . أى بعد مرور أكثر من ست سنوات على اتخاذ القرار . .

وعلى أية حال لم يكن هناك مجال كبير للندم على لبن مسكوب فى الجامعة العربية أو حتى فى تونس نفسها .

فلقد كانت الرحلة وبالنسبة لى كسبا كبيرا على المستوى الشخصى . إذ أتاحت لى الفرصة للتعرف عن قرب على شعب عربى أحببته كثيرا ليس فقط من خلال التاريخ أو الجغرافيا أو أبى القاسم الشابى الذى تعلمنا منه جميعا أنه إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر ولكن من خلال روح التسامح الحضارى والفكرى الذى لمسته بين الكثيرين من التونسيين الذين التقيت بهم رجالا ونساء من مختلف الأعمار ومن مختلف الاتجاهات السياسية والعقائدية . فلقد حاولت وخلال الأيام العشرة التى قضيتها هناك أن أقترب من الشخصية التونسية ساعدنى على ذلك عدد من الأصدقاء المصريين الذين يعملون هناك مثل أحمد حجى ومحمد قناوى ، واكتشفت أننى أمام مجتمع دخلت فى نسيجه العضوى عوامل حضارية أصيلة تقترب إلى حد كبير من الطبيعة المصرية .

ففى تونس لاتحس بسيادة الروح القبلية أو العشائرية ، كذلك من الصعب أن تعثر على جماعات متعصبة دينيا أو مذهبيا أو حتى فكريا . . كما شدتنى المرأة التونسية ودرجة التحرر والثقافة التى وصلت إليها . .

بل وأسعدنى للغاية وأنا أنتقل فى بعض الشوارع التونسية وحواريها أن أجد شارعا باسم مصطفى النحاس وآخر باسم جمال عبدالناصر ، وهو أمر لانجده فى عاصمة عربية أخرى ، بل وحتى فى القاهرة نفسها . . التى تخلو شوارعها حتى الآن من اسم مصطفى النحاس . . . فلقد كنت ومازلت مؤمنا أن الاثنين هما أخطر زعيمين وطنيين شهدتهما مصر والعالم العربى إذ إن الاستقلال والتحرر ارتبطا فى عقيدتيهما بالانحياز إلى الطبقات الفقيرة والشعبية ، وهما دون غيرهما من الزعماء الوطنيين الذين سبقوهما فهما الوطنية ببعدها الاجتماعى ، ولم تكن مجرد مشاعر وحماس وطنى عاطفى عام يقف عند حدود أن تكون مصر للمصريين مثلما نادى عرابى ومصطفى كامل أو حتى سعد زغلول . .

***

واستعادت الحياة فى برلين نبضها مرة أخرى . . . .

وكان علىّ أن أكثف من عملى كمراسل سواء فى الشرق أو الغرب لأضمن استمرار الحد الأدنى من الحياة لى ولولدىَّ بعد أن ضاعت بارقة الأمل التى كانت قد أشرقت فى تونس كما أن تولى الصديق صلاح الدين حافظ مدير تحرير لجريدة الراية القطرية فتح مجالا محددا للكتابة ، فقد كان صلاح يعرف تماما وضعى المالى السيئ وبادر هو بإرسال خطاب إلى برلين يطلب منى المساهمة بمقالاتى فى الجريدة . .

ولابد من الاعتراف بأن المبلغ الشهرى الذى كانت ترسله لى الراية القطرية والذى كان يتراوح بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ دولار قد ساعدنى كثيرا على استعادة التوازن الاقتصادى فى حياتى فى برلين بعد أن افتقدت هذا التوازن لفترة طويلة . .

وفى تلك الفترة أتيحت لى فرصة واسعة للقاء والتعرف عن قرب على عدد من الكتاب والسياسيين فى ألمانيا الغربية، وخاصة بعد أن تأكد وضعى ودورى فى اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية . .

فالتقيت بالكاتب الروائى جوتنز جراس والمستشرق شتوبه أستاذ الأدب المقارن فى جامعة برلين الحرة، كما التقيت بكل من هيلموت شميث مستشار ألمانيا الغربية وفيلى برانت رئيس الحزب الاشتراكى الديموقراطى والمستشار الأسبق فى ألمانيا الغربية وكذلك ريتشارد فون فايتسكه عمدة برلين الغربية والذى أصبح بعد ذلك رئيسا لجمهورية ألمانيا الفيدرالية، كذلك أجريت حوارا مطولا مع أسد بافاريا الشهير فرانز جوزيف شتراوس رئيس الحزب المسيحى الاجتماعى فى ألمانيا الغربية . .

وفى هذا اللقاء الذى تم فى بيت الحزب المسيحى الاجتماعى فى بون جرت مناقشة لم تخل من بعض الحرارة حينما بدأ شتراوس يهاجم الاتجاهات الدينية فى العالمين العربى والإسلامى ويصفها بالجمود والتخلف . . وضرب مثلا على ذلك بحكم آية الله الخمينى فى إيران . . وبالرغم من أننى لم أكن يوما من المدافعين عن استغلال الدين كشعار فى العمل السياسى ومعارضتى بشكل خاص لنظام الحكم فى إيران، إلا أننى وجدت نفسى مندفعا، وربما متجاوزا حدودى بعض الشىء وأنا أقول له . .

– هر شتراوس اسمح لى أن أقول إنك تناولت هذه القضية بشكل واضح التحيز ، فأنت شخصيا ترأس حزبا مسيحيا يدافع عن الكنيسة فى مواجهة ماتسمونه بالاتجاهات العلمانية سواء كانت شيوعية أو اشتراكية أو حتى ليبرالية . . كما أن الأحزاب المسيحية موجودة فى كل أوروبا . . بل إنك تتحيز لإسرائيل وهى فى النهاية دولة قائمة على أساس دينى . . فلماذا إذن تحرم على العرب والمسلمين أن تكون هناك أحزاب دينية بينها . . .

إننى أوافق ومن وجهة نظر أخرى على ماقلته بالنسبة لحكم آيات الله فى إيران ، بل ولا أوافق على أى نظام ثيوقراطى يستخدم الدين كواجهة فأنا واحد ممن يقولون ويؤمنون بأن الدين لله والوطن للجميع . .

ولكن ما رأيك فى حكم آيات المسيح فى بعض البلدان الأوروبية وآيات موسى فى إسرائيل . .

وضحك الداهية العجوز حتى اهتز جسده المكتنز وضاعت عيناه فى وجهه الممتلئ وهو يقول:

- هل تتصورنى فعلا شكلا من أشكال آيات الله على النمط المسيحى أعدك بأن أطرح هذه القضية فى أول اجتماع لهيئة الحزب لمناقشتها . .

ولعل هذا هو سر جاذبية هذا الرجل الذى يقول أفكارا غاية فى الرجعية تثير عليه ليس فقط غالبية الشعب الألمانى فى الشرق والغرب، بل وفى أوروبا كلها، ولكنه فى النهاية يتمتع بخفة دم لاتبارى وبقدرة فائقة على الحوار مع من يختلف معهم . . خرجت من لقائى مع هذا الرجل وأنا أختلف مع كل كلمة قالها ولكنى فى الوقت نفسه لم أملك إلا الإعجاب به على المستوى الشخصى، فهو ولاشك من تلك الأنماط النادرة التى ترفضها منطقيا ولكنك تقبلها بل وربما تحبها إنسانيا، وهو يقدم ذلك نقيضا كليا للبعض الذى قد تتفق معه فى أفكاره أو مقولاته ولكنك لاتستطيع أن تحترمه أو تقترب منه إنسانيا لإحساسك بأنه غير صادق مع نفسه أو متسق مع مايقول . .

وقد شاءت الظروف أن أدخل فى معركة فكرية مريرة فى أعقاب هذا اللقاء ليس مع فرانز جوزيف شتراوس، ولكن مع بعض الزملاء المصريين والعرب الذين من المفترض أننا نلتقى فكريا أو ننتمى إلى مدرسة سياسية واحدة . .

فلقد فوجئت وأنا أتصفح جريدة السفير التى تصلنى أسبوعيا بمقال كتبه أحد الأصدقاء من المناضلين المصريين المقيمين فى الخارج يهاجم فيه بعنف وفدا يمثل لجنة التضامن المصرية كان فى زيارة لبيروت بناء على دعوة من الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات . .

لم يترك الصديق المناضل المقيم فى الخارج كلمة فى قاموس الشتائم والاتهامات لم يستخدمها ليوجهها إلى هذا الوفد المصرى الذى كان يزور بيروت لأول مرة منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد . . فهم عملاء السادات ومبعوثوه . . وهم خارجون عن الخط الوطنى باعوا ضمائرهم وسلموا وطنيتهم . . وهم جاءوا إلى بيروت ليثيروا الفرقة والانقسام وليقوموا بالدعوة لعراف كامب ديفيد . . . وهم . . . وهم . . . كلاب السلطة . . . . وهم . . صفحة كاملة من السباب والشتائم والاتهامات لهذا الوفد الذى جاء من مصر لإجراء حوار مع ياسر عرفات، ويطالب المناضل المقيم فى الخارج بمقاطعة هذا الوفد ليعود إلى أسياده فى القاهرة الذين غرقوا فى أوحال الخيانة فى إسطبل داود . . .

وممن يتشكل هذا الوفد؟ . .

عبدالرحمن الشرقاوى . . أحمد حمروش ، فؤاد مرسى ، مصطفى بهجت بدوى ، يحيى الجمل ، لطفى الخولى . .

يا ألطاف الله . . أهؤلاء ممن يقال لهم هذه الكلمات . .

إن كل واحد منهم نجم من نجوم الوطنية الصادقة له دوره المشهود والمعروف . .

فهل يأتى اليوم الذى يقال فيه على الشرقاوى أو حمروش أو فؤاد مرسى إنهم غرقوا فى أوحال الخيانة . . ومنْ مَنْ؟ . . من مصرى لايكاد يعرفه أحد فى مصر سوى مجموعة من الرفاق الذينَ جمعته بهم مرحلة الاعتقال ثم هاجر إلى الخارج متنقلا بين العواصم الأوروبية والعربية يناضل بصوت ضخم وبقلم يستمد مداده من نفايات البترودولار . .

وعلى صفحة أخرى من السفير وجدت مقالا آخر لأبو صالح العضو البارز فى حركة فتح وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية يكرر فيها نفس أفكار المناضل المصرى المقيم فى الخارج ويطالب ياسر عرفات بألا يستقبل الوفد . .

- أهانت الأمور إلى هذا الحد؟

ووجدتنى أصرخ فى غرفة مكتبى وأنا ألقى بالجريدة . .

- يخرب بيتكم . . ومن أنتم؟

ويبدو أن صرختى التلقائية كانت عالية وتردد صداها فى هذا الوقت من الليل المتأخر حتى إن ابنى الأكبر عمرو جاءنى منزعجا يفرك عينيه وهو يقول :

- وتمالكت نفسى وكتمت انفعالاتى وأنا أحتضن الصغير وأطمئنه وأقوده إلى سريره . . وأعود إلى مكتبى وقد أدركت أننى قد وقعت فى نفس الخطأ وتجاوزت الحدود فى انفعالاتى ، أخذت أتصفح بنهم الأعداد اللاحقة من السفير لأعرف ماجرى بعد ذلك ، وقد هدأت نفسى وارتاح بالى عندما عرفت بأن الوفد قد التقى بعرفات وبعدد من الزعماء الفلسطينيين وقادة الحركة الوطنية اللبنانية ، وصدر بيان مشترك عن هذه اللقاءات يؤكد ضرورة وحدة وتلاحم كل القوى الوطنية العربية للوقوف فى وجه المخاطر والتحديات العنيفة للهجمة الإمبريالية والصهيونية على الوطن العربى .

وأدان البيان كامب ديفيد كما أدان فى نفس الوقت كل القوى التى تحاول عزل مصر والشعب المصرى تحت أى شعارات أو ادعاءات . .

كما عبر ياسر عرفات وقادة الحركة الوطنية اللبنانية عن تقديرهم العميق للشخصيات التى يتضمنها الوفد المصرى ودورها القومى البارز . .

كان البيان المشترك بمثابة تعويض نسبى فى مواجهة هذه الحملة الظالمة والبائسة والعاتية التى تعرض لها الوفد من قبل مناضلى الشعارات والمكاتب ، ولكن الأمر

بالنسبة لى كان له بعد آخر . .

وجلست أكتب مقالة للسفير تحت عنوان :

«من يتهم من؟ . . . دعوة إلى الحوار وليس للشتائم»

قررت أن أتجاهل تماما هذا المنتفخ المفتون الذى توهم أنه يقود نضال الشعب المصرى من فنادق الدرجة الأولى التى ينزل بها فى العواصم العربية والأوروبية . . . لا لشىء إلا ليقينى أن أحدا لايعرفه كما أن من يدفعون له لايأخذونه مأخذ الجد . . وتوجهت فى الرد بالمقال على أبوصالح . . وتضمن المقال عدة محاور :

* إن وفد اللجنة المصرية للتضامن الذى زار بيروت أخيرا يضم مجموعة من أبرز الشخصيات الوطنية المعروفة جيدا لجماهير الشعب المصرى وللجماهير العربية بمواقفهم العملية للدفاع من أجل التحرر والتقدم ليس لمصر وحدها ، بل وللعالم العربى ، كما أنهم كانوا ومازالوا من أبرز المساندين والمدافعين عن حقوق الشعب الفلسطينى . . فلا أنت ياسيدى ولا أحد غيرك يستطيع أن يزايد عليهم فى هذا المجال . .

* إن وجودهم فى مصر هو شرف كبير لهم كمناضلين لأنهم يدافعون ويناضلون على أرض المعركة ولايترزقون بأفكارهم ولايتاجرون فى مصير أمتهم بمعارك وهمية لفظية بعيدا عن أرض المعركة وقريبا من نسمات آبار البترول . .

* إن الهجوم العنيف الذى تعرضوا له يؤكد حقيقة خطيرة كنا نود طوال السنوات الماضية ألا نصدقها ، وهى أن البعض يحاول أن يستغل كامب ديفيد لإحكام الحصار حول مصر والشعب المصرى وقواه الوطنية جريا وراء سراب لايمكن أن يتحقق فلا أحد بقادر على أن يرث دور مصر ، ولا أحد بقادر على أن ينوب عن القيادات الوطنية والجماهيرية المصرية . .

* القول بأن الوفد ماكان ليسمح له للسفر إلى بيروت إلا بمباركة الرئيس السادات هو قول ساذج ، يعكس جهلا شديدا بأوضاع المجتمع المصرى . .

قد يريح ذلك البعض لأنه يبرز وجودهم فى الخارج لتشكيل جمعية المنتفعين بالنضال الخارجى ، وقد يكون ذلك مقنعا للبعض الآخر من الأخوة العرب من واقع بعض الأنظمة العربية التى لاتسمح لأى تنظيم سياسى وجماهيرى إلا أن يكون بوقا لها . .

ولكن فى مصر مجتمعا توجد فيه الطبقات وتتصارع على قاعدة إنتاجية عريضة تتحدد حولها قوى وعلاقات ووسائل الإنتاج ، فهو ليس مجتمعا قبليا أو عشائريا .

ولقد فرض ذلك مساحة معقولة من حرية الحركة والصراع بين الطبقات المختلفة ، واللجنة المصرية للتضامن مثلها مثل نقابات الصحفيين والمحامين والأطباء وغيرها

من الاتحادات الجماهيرية والأحزاب السياسية ، ليست فروعا ملحقة بالنظام أو الحزب الحاكم مثلما هى الحال فى بعض الأنظمة العربية ، ولكنها مؤسسات جماهيرية حقيقية قادرة على معارضة ورفض سياسة الحزب الحاكم . .

وأخيرا ياسيدى . . .

فإن من يمد يده وسط نيران البترول لكى يطفئها . . .

ليس مثل من يمد يده لأموال البترول لكى ينفقها . . .

وأحسست بعد كتابة المقال بارتياح شديد كمن أفرغ شحنة من التوتر والألم كانت تعصف برأسه وصدره ، وزاد ذلك الإحساس عندما نشر مقالى بعد عدة أيام فى السفير وفى نفس الصفحة التى كتب فيها أبوصالح وغيره مقالاتهم التى تطاولت على الشعب المصرى وقياداته الوطنية .

وأعتقد أنه منذ ذلك التاريخ أى منذ الزيارة الناجحة التى قام بها وفد اللجنة المصرية للتضامن لبيروت ، بدأ بالفعل العد التنازلى لانفضاض جمعية المنتفعين بالنضال المصرى فى الخارج . .

ويبدو أن المقال أصاب هدفا آخر لم يكن يخطر على بالى . . فقد فوجئت صباح ذات يوم بالمشرف على السفارة الليبية فى برلين أو بمعنى آخر المكتب الثورى للشعب العربى يتصل بى ويطلب أن نلتقى على فنجال قهوة عنده فى المكتب . .

ولما قلت له إننى لا أتردد على السفارات إلا فى الحفلات العامة وافق على اقتراحى بأن نلتقى فى مكتبى العام . . أى فى كافيتيريا فندق إنتردن لندن . .

وجاء الرجل ومعه زميل ليبى آخر قال إنه يعرفنى أثناء إقامته فى القاهرة فى أوائل السبعينيات وتردده على اتيليه القاهرة ، وبالرغم من أننى لم أستطع أن أتذكره إلا أنه كان يذكر وقائع محددة عن لقاءاتى مع أحمد طه وقبارى عبدالله فى الاتيليه . .

لم أتردد فى الموافقة على لقاء المسئول الليبى فلم يكن هناك ما أخفيه وما أخشاه كما أنى من خلال بعض اللقاءات السابقة فى بعض الحفلات تكون لدى انطباع عنه بأنه مهذب وعلى قدر ليس بالقليل من الثقافة . .

ولم يترك الرجل فرصة طويلة للتخمين بل دخل إلى الموضوع مباشرة . .

فهم يفكرون فى إقامة مركز ثقافى عربى فى برلين الغربية . .

وسيحتوى المركز على مكتبة كبيرة تضم مختلف المؤلفات العربية فى الآدا‍ والثقافة والعلوم ، كذلك معرض دائم للفنون العربية ، وقاعة سينما ، وقاعات للندوا‍ وللحلقات الدراسية وأخذ يشرح لى الفكرة من إقامة هذا المركز الذى يمكن أن يكو نقطة إشعاع وجذب لنشر الثقافة العربية ويؤكد أن هدفه ثقافى قومى بحت ولن يدخل

مجال الدعاية ثم توقف قليلا وأخذ يتفرس فى وجهى بتركيز مقصود وقبل أن يقول:

- مارأيك؟

- فكرة جيدة أهنئكم عليها . .

- لا أعنى هذا . .

- ماذا تعنى؟

- أنت تتولى مدير المركز . .

- أنا؟

- نعم أنت . . لقد اختاروك فى طرابلس وطلبوا منى أن أفاتحك فى الأمر . .

كانت مفاجأة لى لم أتوقعها على الإطلاق . . أوقفت لسانى وتفكيرى عن الحركة . . وقبل أن أقول شيئا واصل المسئول الليبى:

- نعم نحن نعرف أنك تختلف معنا، ونقرأ كل ماتكتب، ولكن هذا سيكون مركزا للثقافة العربية وليس للسياسات العربية المتناقضة والمتناحرة . . وأنت أفضل من يدير هذا المركز . .

- لكن . . .

- إن هذا ليس رأيى أنا، فلقد طلبوا منى فى طرابلس أن أفاتحك فى هذا الأمر . .

لم أكن قد استطعت بعد أن ألملم نفسى وقد فوجئت بالأمر كله كما جرى ذهنى وبسرعة وراء الاحتمالات أو الخلفيات التى يمكن أن تكون وراء هذا الأمر . .

هل هو البديل الليبى عن اقتراحى الذى وافق عليه وزراء الإعلام العرب بفتح مكتب للجامعة العربية فى برلين . .

أم أنها محاولة لكسب أو على الأقل ضمان صمت قلم مصرى معارض فى الخارج كثيرا ماتعرض للسياسة الليبية بالنقد المباشر وغير المباشر . .

أم أن معركة زيارة وفد اللجنة المصرية للتضامن لبيروت والرد الذى نشرته أثارا انتباههم إلى أبعاد أخرى لم تكن على البال . .

أم أن الأمر كله لايعدو أن يكون فكرة تفتقت عليها قريحة المسئول الليبى المهموم بالمشاكل الثقافية وبالثقافة المصرية على وجه خاص . .

دارت كل تلك الاحتمالات فى ذهنى وأنا بدورى أتأمل الوجهين الليبيين أمامى وأرتشف فنجال «الموكا» على مهل لعلى ألمح منهما شيئا يمكن أن يساعدنى على تفسير معقول . .

وتكلم الليبى الآخر الذى كان يعمل فى القاهرة مشيدا بالفكرة، مشيرا وبشكل مستتر إلى دور له فى عملية اختيارى مؤكدا وبلهجة لاتخلو من مبالغة، فى أننى

الوحيد الذى يمكن أن يضطلع بإدارة مركز ثقافى عربى فى برلين، مضفيا علىّ الكثير من الصفات والنعوت التى أخجلتنى . . ولم ينس فى حديثه أن يلمح أيضا إلى وضعى المادى الحرج الذى يبدو أنه كان على علم تام به . .

كان ميكانيزم اتخاذ القرار فى ذهنى يتأرجح ويتماوج مع أى احتمال يطرأ صعودا أو هبوطا، ولكن لا أنكر أننى كنت أميل أكثر إلى قبول العرض . . .

مركز ثقافى عربى لنشر الثقافة العربية . . . بعيدا عن السياسة!! . . والموافقة على كل شروطى أو اقتراحاتى . . المسألة تستحق! . . ولكنه قد يتحول إلى مركز إعلامى تنحصر مهمته فى الدعوة إلى أفكار ومقولات اختلف معها . . مستحيل!! ولكنهم يعرفون جيدا رأيك فى هذا الموضوع وليسوا من السذاجة ليتصوروا أنك ستتغير هكذا بسرعة . . ممكن!!

قد تكون بواكير سياسة جديدة ممكن أن تشغل بالها بأهداف إستراتيجية قومية بعيدة المدى والأثر . . من يدرى؟!

لن تخسر شيئا . . ويمكنك أن تنفض يدك من الأمر كله إذا حاولوا فرض أشياء لاترضاها . . صح . .

بل إنك ستخسر الكثير، وستفقد كل ما استطعت أن تبنيه طوال سنوات الغربة من مواقفك المستقلة . . وارد . .

هو مركز ثقافى . . وليس وكالة أنباء أو مجلة . . وحول الثقافة يتوحد العرب وتسقط الحدود والاعتبارات السياسية المؤقتة . . تمام . .

ثلاثة آلاف أو حتى أربعة آلاف دولار فى الشهر . . تعوض لك سنوات الحرمان والاحتياج وتؤمن احتياجاتك المادية لسنوات طويلة قادمة . . رائع . . ولكن هل تبيع بهذا الثمن . . ياخبر . . . !

ومن قال إنك ستبيع . . وماذا ستبيع . . إنه نضال مشرف فى أنبل معركة . . معركة الثقافة . . مضبوط . . وليبيا أولا وأخيرا بلد عربى شقيق . .

كان رأسى يموج بكل تلك الخواطر المتضاربة مع استعداد تلقائى ينمو ويتزايد لقبول العرض . . هذا بينما كان المسئول الليبى وزميله يحكيان طويلا عن ذكرياتهما عن القاهرة والإسكندرية والمسارح والجامعة والأوبرا وكباريهات شارع الهرم . . والمرأة المصرية التى لاتفضلها امرأة فى العالم . . التاريخ القديم والحديث . . وعبدالناصر . . والأمجاد العربية . .

كان حوارا أو بمعنى أصح ديالوجا غير مترابط بين الاثنين يطرحان فيه كل ذكرياتهما عن مصر . . سواء تلك التى عاشاها أو تلك التى سمعا بها . . بينما كنت أنا فى أغلب الأحيان غارقا فى منولوج داخلى عميق . .

على أنه أحيانا ماكان يتداخل ديالوجهما مع منولوجى فى بعض نقاط التقاطع حينما يسألان عن مكان فى القاهرة أو اسم لكاتب مصرى أو ممثلة مصرية . .

كما أن حديثهما بدأ ينعرج أكثر وأكثر حول طبيعة الشعب المصرى والروح الفرعونية التى مازالت كامنة داخله رغم جهود عبدالناصر فى ربطه بالعرب . .

ثم بدأ الحوار يدخل فى دائرة أخرى حول ما أسماه المسئول الليبى بالاستعداد الطبيعى للشعب المصرى لخلق فرعون يحكم . .

ثم التعرض لأفكار طه حسين وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ولويس عوض بالنقد بل وبالتجريح وعندما قال أحدهم إن طه حسين ماسونى صهيونى ، انقطع تماما حبل المنولوج الذى كان يجرى داخلى . .

وقبل أن أحاول الرد على هذا المنطق المغلوط ، فاجأنى المسئول الليبى الآخر بسؤال حاسم :

- قل لى يا أخ فتحى ، هل فشل عبدالناصر فى تغيير طبيعة الشعب المصرى؟

- ماذا تعنى؟

- أعنى أن عبدالناصر بذل جهودا كبيرة لإقناع الشعب المصرى بالقومية العربية ولكى يغير من روح الاستسلام والخضوع الذى تعود عليها . .

قلت له وأنا أحاول أن تكون كلماتى محدودة ومهذبة بقدر الإمكان . .

- الشعب المصرى لم يكن فى يوم من الأيام مستسلما أو خاضعا ، بالعكس فهو الذى قاد حركة التغيير والتقدم فى المنطقة ، ليس فقط أيام عبدالناصر ، بل أيام مصطفى النحاس وعرابى ومحمد على والظاهر بيبرس . .

- فلماذا يستسلم إذن ويرضخ لحكم السادات . .

قلت على الفور :

- ولماذا تستسلم كل الشعوب العربية للأنظمة الحاكمة فيها؟

ويبدو أن الرد كان مفاجئا وكانت الكلمات أكبر بكثير من أن يستوعبها وقبل أن يفتح الله عليه بكلمة ناديت الجرسون وأعطيته حساب ثلاثة فناجين من القهوة . . . وغادرت المكان بعد التحية . . وطارت الفرصة . .

وقد أكون قد زودتها حبتين . .

وقد يكون الأمر اندفاعا دون كيشوتيا من ناحيتى لايقدم ولايؤخر .

وقد يكون من الحكمة والحنكة أن أبلع بعض الإهانات الشكلية مقابل بضعة آلاف من الدولارات شهريا ومن أجل هدف نبيل فى النهاية فى خدمة الثقافة العربية بين الشعب الجرمانى . .

وقد أكون من هؤلاء المنحوسين ماديا على حد تعبير أحد الأصدقاء الذى كان يصفنى دائما بأننى غاوى فقر أو حتى أغرى بالفقر . .

قد يكون كل هذا صحيحا . .

ولكن على أية حال انطلقت فى شارع الزيزفون ، يداى فى جيبى وأصفر فى مرح صبيانى لحن بلادى بلادى . .

[٤٩]

فلتكن السماء زرقاء أو سوداء أو حتى حمراء..
لقد عرف الناس كيف يموتون فهل عرفوا..
كيف يعيشون. !!

لويس اراجون - بيان

أكتوبر سنة ١٩٨١

بالتأكيد أننا نقيم فى بيت واحد، ونسعى لأن يكون هذا البيت دافئا بهيجا يضفى السعادة والابتسامة الحلوة المفعمة بالأمل لكل السكان، وطالما توجد صواريخ وألعاب نارية خطرة داخل هذا البيت أو حتى فى الحديقة فسيخيم على البيت التوتر والخوف المدمر، ومن هذا المنطلق أعارض إقامة الصواريخ الذرية الأمريكية المتوسطة المدى فى أوروبا، كما أعارض وبنفس الدرجة الصواريخ السوفيتية، ولا أعتقد أن الصواريخ الأمريكية هى وحدها المدمرة وأن الصواريخ السوفيتية وديعة مثل حمامة تحمل غصن السلام.

هكذا قال جونتر جراس الكاتب والروائى الألمانى الغربى وهو ينفض البايب ويحاول أن يملأه بتبغ جديد.

وضحكت كريستينا فولف الكاتبة والروائية الألمانية الشرقية وهى تقول:

- أود أن أؤكد للهرجراس أن الصواريخ السوفيتية ربما كانت أكثر فتكا وتدميرا، وحينما نتحدث عن الصراع والصواريخ والحرب بشكل عام فإننا نتناول شياطين العصر وليس هناك بالتأكيد شيطان طيب. . وربما كنا نحن الألمان أكثر الناس إدراكا ومعاناة لمخاطر الحروب وشرورها، فقد انطلقت من برلين أول شرارة لحربين عالميتين راح ضحيتهما ملايين من البشر وأحرقت فى نارهما طموحات إنسانية

واسعة . . دعنا نتفق أن المثقفين الألمان لهم دور خاص فى مواجهة هذه الشياطين القادرة والغادرة وبغض النظر عن أى خلافات ذهنية أو فكرية . . ولنعمل معا على تنظيف البيت وزراعة الحديقة بالأشجار والأحلام الإنسانية . . وهكذا دار هذا الحوار الممتع وعلى مدى يومين بين مجموعة ممتازة من الكتاب الألمان فى الشرق والغرب فى الصالة التى تقع فى الدور الأول لفندق «شتات برلين» . .

لقد أسعدنى للغاية أن أتيحت لى فرصة متابعة هذا الحوارالذى كان الأول من نوعه ، فأنت أمام مجموعة لامعة ومرموقة من الكتاب الألمان يناقشون هموم شعبهم الذى انقسم بعد الحرب العالمية الثانية وعاش جزء منه فى المانيا الاشتراكية وجزء آخر فى المانيا الرأسمالية .

اتسع الحوار وتشعب ليتناول قضايا كثيرة ابتداء من دور الكاتب فى الدفاع عن هموم العصر إلى إشكاليات اللغة حتى الموقف المتوتر الذى تعيشه أوروبا والألمانيتان بشكل خاص بعد التصعيد الخطر فى عملية التسليح والتهاب الطقس الدولى ، وخاصة بين الدولتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . . وبعد انتخاب الرئيس الأمريكى رونالد ريجان الذى جاء بشعار إعادة الروح إلى السيادة الأمريكية وتجاوز عقدة الهزيمة فى فيتنام بل وتصفية إمبراطورية الشر فى العالم . .

ولقد كان من الطبيعى أن يسود الانزعاج الشديد فى أوروبا بشكل عام شرقا وغربا وفى الألمانيتين الشرقية والغربية بشكل خاص . .

فلقد تحولت الأراضى الألمانية إلى مزرعة نووية مسلحة تثبت صواريخ كروز وبير شنج على الضفة الغربية وعلى الضفة الأخرى صواريخ إس إس السوفيتية .

وبناء على مبادرة من اتحاد الكتاب فى ألمانيا الديمقراطية ودعوة من رئيسه هيرمان كانت تم هذا اللقاء الذى أتاح لى فرصة نادرة لأن أرى وأسمع وأستمتع بهذا الحوار المثمر والخلاق بين هذه النخبة من الكتاب المرموقين على المستويين الألمانى والعالمى والذى جسد لى وبشكل ملموس الدور الرائد الذى يمكن أن يلعبه المثقفون المبدعون فى مواجهة مشكلات الأمة والعصر .

كانت هناك بالطبع خلافات عميقة ولكنه كان هناك وفى نفس الوقت حرص من جميع الأطراف على أن يدور ويستمر الحوار فى محاولة الالتقاء على أرضية مشتركة . . لم يكن هناك من يحاول إخفاء رأيه أو التحايل على الحقائق ولوى عنقها ، بل انسابت وتلاقت وتناقضت هموم فكرية وثقافية بينما حملت الكلمات المعانى بدقة متناهية وبعذوبة فنية .

أثار اللقاء لدىّ الكثير من الشجون والإسقاطات، ولم أستطع أن أمنع نفسى أحيانا وأنا أرى وأسمع قدرة واقتدار كاتب كبير مثل جراس وهو يقول أخطر الأفكار فى هدوء وثقة، والعمق الفنى والفكرى لروائى عملاق مثل هيرمان كانت وكلاهما يقف على الضفة الأخرى من النهر، وهما يتحاوران وأحيانا يتبارزان بسلاح الفن والفكر وينسجمان معا بسيمفونية إنسانية قد تتضارب أنغامها وتتنوع مصادرها، ولكنها فى النهاية تسجل نسيجا واحدا مترابطا

كانت تجرى فى ذهنى بسرعة الصورة الطفلية والبدائية أحيانا للحوار الدائر فى العالم العربى الممزق والمشتت حيث انفصلت الكلمات انفصالا شبه تام عن مضمونها، وحيث الحوار يتحول إلى صراخ متشنج والخلافات إلى تناحر، والمصالح الخاصة الضيقة تفرض نفسها فى صورة ثأر قبلى أو عشائرى، وحيث الأفكار أو بمعنى أصح الانفعالات تنطلق مثل زخة رشاش سريع الطلقات فى يد مرتعشة لاتعرف لمن توجه الرصاص. هؤلاء كتاب ألمان يعيش بعضهم فى المخفر الأوروبى الأمامى للاشتراكية بينما يربض البعض الآخر فى المخفر الأمامى للرأسمالية ولكنهم قادرون على الحوار الهادئ الخصب، فى حين أن مثقفينا فى العالم العربى أو غالبيتهم غرقوا فى صراعات أنظمتهم غير محدودة الهوية، وهاهى الاستعدادات تجرى على قدم وساق بين الألمانيتين الشرقية والغربية للقاء تاريخى مزمع عقده فى نهاية هذا العام بين كل من إيرش هونيكر رئيس مجلس الرئاسة وسكرتير عام الحزب الاشتراكى الألمانى الموحد فى ألمانيا الشرقية وبين المستشار هيلموت شميت مستشار ألمانيا الغربى، والكل مهموم فى البلدين للبحث عن إيجاد أرضية مشتركة للتفاهم والتواصل والحوار رغم كل ماكان وماهو كائن بينهما من تناقضات وخلافات جذرية.

ولكن أين حكامنا أو أنظمتنا العربية التى لاتكف يوما عن التأكيد وبأقوى الكلمات وبأضخمها عن إيمانها الذى لايتزعزع بالقومية والوحدة العربية ومساندة حقوق الشعوب العربية المشروعة وفى القلب منها القضية المحورية.. قضية فلسطين.

جبهة الصمود والتصدى.. ضاعت وتشتتت ولم تعد تعرف تماما ماذا تعنى بالصمود فى مواجهة من؟ والتصدى لمن؟

واستدرجت كل من العراق وإيران لحرب ضروس ممتدة غير مقبولة وغير مفهومة تأكل نيرانها التى اشتعلت منذ أكثر من عام إمكانات وطاقات البلدين الجارين البشرية والمادية وتجهض فى نفس الوقت إمكانات وطموحات حقيقية كانت تلوح فى الأفق، سواء فى العراق من خلال بناء تجربة رائدة فى التنمية بعد أن توافرت لديها قدرات

تمويلية هائلة، أو فى إيران التى بدأت كتجربة ثورية لها بعداها الشعبى والديمقراطى ثم انحصرت فى يد فئات محدودة من المشايخ والملالى الذين يعيشون بعقولهم وقلوبهم فى عصور سحيقة مضت وأصبحت هناك معركة أخرى على الحدود الشرقية للأمة العربية . .

ودول الخليج فى حالة من الخوف والوجل تحاول أن تلملم نفسها والحرب تجرى على أطراف حقول البترول الجاهزة للاشتعال وتبحث عن حماية لها هنا أو هناك .

والجزائر والمغرب يتصارعان ويتشابكان أحيانا بشكل ساخن وأحيانا بصورة مستترة حول مشكلة الصحراء .

والتفتت ليبيا جنوبا إلى تشاد وأصبحت عاملا رئيسيا فى الصراع الدائر هناك بين القوى المختلفة .

وتحولت لبنان إلى هم مضاعف لسوريا وللقوات السورية وغرقت فى محاولة لفك طلاسم الصراع هناك بأشكاله الطائفية والمذهبية والعشائرية .

أما السودان فقد كان نميرى يعلن عن بيعه فى المزاد أرضا وجوا لمن يدفع الثمن من الشركات المتعددة الجنسيات، بل وحتى لإسرائيل فى صفقات مشبوهة مثلما حدث فى فضيحة نقل الفلاشا «اليهود الأثيوبيين» إلى إسرائيل عبر الأراضى السودانية، كما أن الحرب الدائرة فى جنوب السودان كانت تستنزف ماتبقى من طاقة لدى هذا البلد العربى الأفريقى الأصيل . .

وبعد اغتيال العقيد الحامدى رئيس جمهورية اليمن الشمالية فى ظروف غامضة فى صنعاء عادت الحدود لتلتهب مرة أخرى بين الشمال والجنوب فى اليمن .

هكذا أصبحت خريطة الصراع فى الوطن العربى . .

تمزق وتشتت وضياع . . والرصاص ينطلق من كل مكان . . ولكن دائما فى الاتجاه الخاطئ ومصر . . غائبة أو مغيبة وراء أسوار كامب ديفيد .

وليس هناك أية محاولة لمد الجسور وتحطيم الأسوار واختراق حالة التشتت والضياع . . وأصبح من الواضح أن كامب ديفيد لم تستهدف فى الأساس قضية فلسطين أو سيناء أو الجولان، بل استهدفت هدفا استراتيجيا خطيرا هو عزل مصر عن العالم العربى لتصبح مصر والعالم العربى أرضا مستباحة للأعداء يحققون فيها ماعجزوا عن تحقيقه فى ظروف سابقة وذلك من خلال الصراعات الطائفية والعشائرية والدينية والإقليمية . .

ولم يكن هناك فيما يبدو أى محاولة من أية طرف لمد الجسور وتحطيم الأسوار واختراق حالة التشتت والضياع . . ثمة بارقة أمل كانت تشع بين الحين والآخر فى مصر . .

ولقد أصبح من الواضح أن سياسة الرئيس السادات بدأت تخسر أرضا واسعة بين صفوف الشعب المصرى ، واتسعت قواعد المعارضة لسياسته ، ولم تعد محصورة بين صفوف المثقفين أو بعض طلائع العمل الوطنى مثلما كان الأمر عند زيارة القدس وتوقيع كامب ديفيد عندما وقف اليسار وحزب التجمع وحده يعارض ويشجب .

فحزب العمل الاشتراكى الذى كان يأمل الرئيس السادات فى أن يكون قائدا للمعارضة المستأنسة سرعان مانفض عن نفسه شبهة التبعية ودخل فى معركة مع النظام حول عدد من القضايا الاقتصادية والاجتماعية ثم توج هذا الموقف بإعلان رفضه لاتفاقية كامب ديفيد . . وحزب الوفد الجديد الذى ساند النظام لفترة فى سياسته المعلنة حول الانفتاح الاقتصادى والليبرالية السياسية وأغمض عينيه عن كامب ديفيد أعاد النظر فى سياسته ، وخاصة بعد صدور عدد من القوانين المقيدة للحريات وخاصة قوانين العزل السياسى التى كانت تمس قيادات الحزب فأعلن المعارضة بل وتجميد نشاطه العلنى وراحت قياداته وقواعده تهاجم النظام فى السر والعلن . .

حتى الإخوان المسلمون الذين كانوا يحمدون للنظام إعطاءهم الفرصة العملية لإعادة تنظيم أنفسهم وإصدار مجلاتهم والهجوم الشرس على اليسار وجدوا أنفسهم وقد اشتد عودهم واتسع نشاطهم أن دولة العلم والإيمان التى أعلنها السادات وباركوها من قبل لم تعد كافية لتحقيق مآربهم وبدءوا يشنون حملة من أجل تطبيق الشريعة على حسب فهمهم ودخلوا معركة مع النظام فى بعض القوانين التى أصدرها ، وخاصة قانون الأحوال الشخصية والذى كانت تدعو له وتحبذه زوجة الرئيس السادات .

وبدءوا من خلال صحفهم وتجمعاتهم يشيرون بطرف خفى ثم بشكل واضح إلى معارضتهم لمعاهدة الصلح مع اليهود بعد أن صمتوا لفترة وغضوا البصر عن المعاهدة ، بل وخرجت صحفهم بعد زيارة القدس بالآية الكريمة وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وفى محاولة أخيرة من جانب الرئيس السادات لتجديد تحالفهم معه فى اللقاء العاصف الذى تم بينه وبين عمر التلمسانى مرشد الإخوان وعدد آخر من زعمائهم حاول السادات أن يذكرهم بجميله عليهم حين أتاح لهم فرصة العمل

والتنظيم من جديد ويهدد فى نفس الوقت بأنه قد يغير من رأيه ووقف عمر التلمسانى وبشكل مسرحى مثير رافعا يده إلى السماء قائلا للسادات:

- إننى أشكوك إلى الله تعالى . .

لقد كان كل هذا يعكس فى واقع الأمر وبغض النظر عن الظروف والعوامل الخاصة، عدة حقائق موضوعية بدأت تعكس نفسها بوضوح، وخاصة فى العامين الأخيرين وتشير إلى الخلل الإستراتيجى الخطير الذى جرى فى سياسة الرئيس السادات . . لقد انطلقت الحسابات السياسية للسادات لدى زيارة القدس وتوقيع معاهدة السلام مع إسرائيل من فرضية اقتصادية فى الأساس . .

ولنترك بعيدا الكلمات الضخمة التى يحلو للبعض أن يرددها دائما عن الخيانة والعمالة لنحاول أن نرى المعادلة التى قامت عليها هذه الحسابات .

كانت المعادلة تقوم فى الأساس على فكرة حل المشكلة الاقتصادية الحادة التى يعانيها المجتمع المصرى ولايجب أن ننسى أن زيارة القدس وماتداعت إليه جاءت بعد الأحداث المثيرة التى عاشها المجتمع المصرى فى الانتفاضة الشعبية فى ١٨ , ١٩ يناير سنة ١٩٧٧ .

كان من الواضح أن سياسة الانفتاح الاقتصادى التى اعتمدها النظام لم تؤد إلى تدفق رءوس الأموال الأجنبية أو العربية البترولية، مثلما كان يتوقع النظام كما أن الليبرالية السياسية المحدودة والانفتاح على الولايات المتحدة لم يؤديا إلى تغيير يذكر فى السياسة الأمريكية إزاء مصر . .

ولاشك أن الرئيس السادات تصور أنه بزيارته للقدس قد يستطيع تحقيق طموحات كثيرة وبضربة واحدة أو بصدمة كهربائية على حد تعبيره . .

* سلام عادل تسترد به مصر وسوريا سيناء والجولان مفهوم السلام مقابل الأرض . .

* حل المشكلة الفلسطينية فى اتجاه إقامة كيان فلسطينى يتحول إلى دولة . .

* علاقات وثيقة بالولايات المتحدة تحتل فيها مصر مركز الصدارة فى المنطقة .

إن كل هذا يمثل فى النهاية عائدا اقتصاديا ضخما تتحول فيه مصر إلى مركز للاستثمارين العالمى والعربى بمباركة أمريكية .

كانت تلك فيما أعتقد حسابات الرئيس السادات .

وتمثل الخلل القاتل فى هذه الحسابات فى أمرين أولهما : عدم إدراك حقيقى واقعى لجوهر الصراع العربى الإسرائيلى، والمصرى والإسرائيلى بشكل خاص

وموقف الولايات المتحدة المساند لإسرائيل والذى قام فى الأساس على عدم أعطاء الفرصة لمصر أن تكون القوة الأساسية فى المنطقة باعتبار ذلك الخطر الرئيسى والمؤثر على المصالح الأمريكية والإسرائيلية . .

ثانيهما : إنك لايمكن أن تلقى سلاحك وتذهب إلى الذئب فى بيته فى انتظار أن يقدر الذئب نياتك الحسنة ويكافئك على ذلك . .

وفى زيارة القدس أعلن السادات بوضوح أنه لم يأت ليعقد صفقة منفردة بل ليبحث عن حل سلمى عادل بما فى ذلك حقوق الشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة . .

ومنذ زيارة القدس حتى توقيع كامب ديفيد اضطر السادات وظهره إلى الحائط إلى عملية متصلة من التراجعات المشينة بعد أن وضع كل البيض فى السلة الأمريكية . . وليس لدىّ أدنى شك فى أن إسرائيل والولايات المتحدة كانتا تستعذبان فى أحيان كثيرة إذلال السادات ، وهما تعنيان بالتأكيد إذلال مصر كلها . . وهناك الكثير من الشواهد التى تؤكد ذلك لعل أبرزها هو ضرب المفاعل الذرى العراقى بعد يوم واحد من لقاء سلامى بين السادات وبيجن فى سيناء . .

وليس لدىّ أدنى شك أن الرئيس السادات نفسه كانت تساوره هذه الأحاسيس .

ولكنه كان يراهن على استرداد سيناء التى ظلت تمثل له هاجسا حتى إنه يمكن القول إنه أصبح ممسوسا بتلك القضية .

حكى لى الشرقاوى أنه استدعاه يوما فى القناطر . .

وظل لأكثر من ساعتين يتحدث فى أمور خاصة وعن شوقه للعودة إلى الكتابة حتى ظن الشرقاوى أنه ليس هناك أمر مهم ، واستأذن فى الانصراف وفجأة انفجر الرئيس السادات على غير عادته . .

– ياعبدالرحمن ، أنا عارف أن اليسار يتهمنى بالعمالة ، وحتى مشايخ اليمين رافعين علىّ قميص عثمان . . معلهش . . كله يهون . .

أنا مستعد أبلع الزلط وآكل التراب . . لحد ماترجع سينا . . وبعدها يبقى لنا كلام تانى . .

وقد كان الشرقاوى فى جلساته الخاصة يصف السادات بأنه نموذج يكاد يكون نمطيا لشخصية ابن الليل فى القرية المصرية . .

هذا الذى تجده متحدثا بشوشا فى أية جلسة حاضر النكتة والبديهة يمازح الحاضرين ولكن وفى نفس الوقت يجرى داخله فى صمت إعداد محكم للخطة التى

سيغتال بها أحد الحاضرين بعد أن تنتهى الجلسة ويصطاده بعيدا فى الحارة الضيقة أو فى الحقل أى أنه تجرى داخله وفى نفس اللحظة رؤيتان، ولعل ذلك كان السبب فى انفلات أعصابه الواضح فى الشهور الأخيرة . .

ففى خطبه التى ألقاها فى مايو ويوليو من عام ١٩٨١ شن هجوما قاسيا على أحزاب المعارضة وزعمائها واستخدم ألفاظا تجاوزت كل الحدود، وحملها مسئوليات كل الموبقات التى كانت تجرى ابتداء من الأزمة الاقتصادية حتى بعض المشاكل والأحداث الطائفية التى كانت تقع هنا وهناك والتى كان من الواضح أن هناك من يحاول أن ينفخ شرارها لكى تتحول إلى فتنة طائفية، ولم يحاول أن يتوقف قليلا ليدرك أن كل هذه المشاكل ربما كانت ليست بعيدة عن الأيدى الأمريكية والإسرائيلية . .

كان يمضى فى سياسته مثل حجر ألقى من فوق مئذنة عالية، فقد كانت كل حساباته وتصوراته تجرى على أساس أنه باستعادة سيناء تحت أى ظروف وبأى شكل فإن كل شىء محتمل .

وربما كان ذلك وراء اندفاعه المبالغ فيه أحيانا فى استرضاء أمريكا وإسرائيل . . وقد حكى لى السفير صلاح شعراوى الذى كان وكيلا للخارجية، أن فريق الخارجية المصرى والذى كان يضم عناصر ممتازة كان يجد تعنتا واضحا من جانب المفاوضين الإسرائيليين سواء فى محادثات الإسكندرية أم الإسماعيلية، وفى مفاوضات الإسماعيلية أصر الفريق المصرى على بعض النقاط المهمة عند مناقشة قضية انسحاب إسرائيل من سيناء الأمر الذى أثار غضب مستر بيجن الذى كان يقود بنفسه الفريق الإسرائيلى، وقد وصف بيجن فريق الخارجية المصرى بأنهم «فهميين» نسبة إلى إسماعيل فهمى وزير الخارجية الأسبق الذى قد استقال بعد زيارة القدس . .

وأصر بيجن على أن يلتقى بالرئيس السادات على انفراد، وبعد ساعة من لقاء الاثنين خرج عليهم الرئيس السادات متأبطا ذراع بيجن وقال ضاحكا:

– لماذا تغضبون صديقى مناحم، إن الأمر لايستحق .

وفى إثر ذلك صدر قرار بتعيين صلاح شعراوى سفيرا فى ألمانيا الديموقراطية . .

لقد كان مثل نبى يعيش فى حلم نبوءة يخشى ألا تتحقق . .

استضاف شاه إيران المخلوع الذى رفضت دول كثيرة أن تستضيفه بما فى ذلك أمريكا نفسها، وعندما حدثت الفضيحة العسكرية الخاصة بمحاولة كارتر الإفراج عن

الرهائن الأمريكيين فى إيران، كان هو من الأصوات القلائل فى العالم كله التى دافعت عن حق أمريكا فيما فعلته، بل وطالب الرئيس الأمريكى ألا يسمح لليأس أن يتسرب إلى نفسه بعد ذلك الفشل، بل عرض أن تنطلق المحاولة الثانية من الأراضى المصرية . .

ويحكى برجنيسكى مستشار كارتر للأمن القومى فى مذكراته أنه فى زيارة للسادات فى أعقاب هذا الحادث لواشنطن، فوجئ ذات ليلة بأن الرئيس السادات يستدعيه هو والرئيس كارتر فى قصر الضيافة الذى يقيم فيه دون سابق موعد أو إخطار . .

وحينما ذهبا إليه أدخلهما فى قاعة القصر المخصصة لعقد الاجتماعات وجلس برجنيسكى وكارتر فى القاعة وحدهما بينما وقف السادات على المنصة وأمامه شكل كبير مجسم للكرة الأرضية ولأكثر من ساعة أخذ الرئيس السادات يشرح تصوراته عما يمكن أن تكون عليه الإستراتيجية الأمريكية المقبلة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى والقوى المعادية وبدون الوقوع فى الأخطاء السابقة مثلما حدث فى فيتنام وإيران . .

ويقول برجنيسكى إنه جلس والرئيس كارتر كتلميذين غير قادرين على الاستيعاب بينما كان الرئيس السادات يشرح نظرياته كأستاذ متمكن فى رسم الإستراتيجية العالمية وبحماس شديد .

ويضيف برجنيسكى أن الرئيس السادات عرض أفكارا واقتراحات كثيرة ليس هنا مجال لسردها، ولكن يكفى القول بأنه لو كنا قد أخذنا بواحدة منها لكانت الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت منذ فترة .

كان حماسه الشديد للسياسة الأمريكية يقابله عداء شديد للاتحاد السوفيتى كان لايخفيه ويعلنه بشكل لم يسبق له مثيل، فهو حين يتحدث عن القادة السوفيت ينعتهم بأوصاف غير متداولة فى العرف الدولى فيقول مثلا إنهم جاءوا إليه فى أحد الاجتماعات تفوح من أفواههم رائحة البصل .

ويخلط فى سياسته المعادية للسوفيت بين مشاعره الخاصة ومصالح البلاد حتى إنه فضَّل أن تتوقف بعض المصانع العسكرية والمدنية التى كانت قد أنشئت بمعاونة السوفيت حتى لايضطر إلى طلب قطع الغيار أو بعض الخبراء الضروريين لتشغيل تلك المصانع .

بل إنه أمر بوقف تصدير القطن إلى الاتحاد السوفيتى، وعلى مدى عامين تراكم المحصول فى الميناء وتلف معظمه حيث لم تكن هناك أسواق بديلة لتصدير القطن إليها . .

ولقد ارتبطت تلك النبرة الانفعالية فى اتخاذ القرار فى السنوات الأخيرة بإحساس متزايد لديه بصوفية مبهمة بدأت تتبلور فى فكرة الإلهام والوحى لدى اتخاذ القرارات . .

ولقد عبر عن ذلك فى كثير من خطبه وفى كتابه المثير «البحث عن الذات» .

فهو قد اتخذ قرار زيارة القدس ، حسب تعبيره حينما أغفى قليلا فى الطائرة التى كانت تقله عائدا من رومانيا ، ثم استيقظ ممتلئا بالفكرة وكأنها وحى هبط إليه . .

وحينما سألته صحفية أمريكية عن كيفية اتخاذه القرارات الحاسمة . .

يقول إنه فى مثل تلك الأحوال يعتزل ويصوم ثم تأتيه الفكرة الملهمة . . كيف؟ . . لا أعرف؟ ولا أشك لحظة أن الرئيس السادات عندما اتخذ قراراته الخطيرة فى ٥ سبتمبر باعتقال أكثر من ١٦٠٠ شخصية جمعت كل قيادات العملين السياسى والدينى فى مصر من اليسار إلى اليمين ومن المشايخ إلى القساوسة بما فى ذلك قيادات كانت تعمل معه حتى عهد قريب فإنه كان يعتقد أن ذلك هو الطريق الوحيد لضمان عودة سيناء بعد أن انتابته الهواجس بأنه قد لايستطيع أن يحقق حلمه . .

إن أحدا لا يستطيع ولايجرؤ أن يقوم على مثل هذه الخطوة إلا إذا كان لديه يقين بأنه هو وحده الذى يعرف الحقيقة ، وهو وحده القادر على إنجازها . . . وهو يقين لم يجربه سوى الأنبياء . . . الصادقين أو الكاذبين .

* * *

استيقظت مبكرا صباح ذلك اليوم ، فلقد كان علىّ أن أعبر الحدود إلى برلين الغربية لأستقل الطائرة من مطار تيجل إلى بون ، وذلك فى جولة لمدة يوم واحد مع عدد من المراسلين نظمتها هيئة المراسلين الأجانب فى ألمانيا الغربية . .

والتقينا فى بون بالمستشار هيلموت شميت وبعدد من المسئولين فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الحاكم ، وكانت القضية الرئيسية المثارة هى قبول ألمانيا الغربية زرع صواريخ أمريكية نووية من طرازى برشنج وكروز فى الأراضى الألمانية . .

لقد أثار هذا القرار ضجة واسعة ، وخاصة بين صفوف الحزب الحاكم وأعلن عدد من قياداته منهم هربرت فينر وايجون بار معارضتهم للقرار ، بينما أعلن المستشار شميت موافقته ويسانده حزب الأحرار والحزب المسيحى الديمقراطى المعارض .

وفى لقاء لنا مع وزير الدفاع الألمانى الغربى تسابق المراسلون يمطرونه بالأسئلة حول المخاطر التى قد تسفر عن زرع هذه الصواريخ النووية، وخاصة وأن ألمانيا الغربية تقف على خط المواجهة الأول مع الاتحاد السوفيتى وأثر ذلك على العلاقة بين الألمانيتين وتذكرت الحوار الذى كنت قد حضرته فى برلين الشرقية بين الكتاب الألمان وتحددت فى ذهنى كلمات جونتر جراس وكرستينا فولف حول هذه الديناصورات الوحشية المعاصرة ولعبة الأزرار التى يحملها أى رئيس فى البيت الأبيض أو فى الكرملين تكفى لمسة واحدة منها ليشمل البشرية ظلام الفناء ووجدتنى أسأل الوزير الألمانى . .

– فى حالة زرع هذه الصواريخ، من الذى يملك حق قرار إطلاقها . . هل هو أنت أم وزير الدفاع الأمريكى .

ويبدو أن السؤال كان مفاجئا وغير متوقع .

فصمت الوزير لبرهة ثم قال فى ابتسامة ذكية :

– إننا فى كل الأحوال نأمل ألا يصدر قرار بإطلاق هذه الصواريخ البشعة . .

وفى نهاية اللقاء قام الوزير يصافحنا ويودعنا . .

وعندما مددت يدى إليه أمسك يدى لفترة قائلا :

– لقد عرفت أنك مصرى، أرجو أن يكون ماحدث اليوم عندكم مجرد حدث عارض .

قلت ولم أستوعب تماما كلماته :

– أرجو هذا . . فاعتقال هذا العدد الكبير من قادة الرأى والفكر أمر مؤسف .

ولكن عاد ليقول فى نبرة واضحة :

– يبدو أنك لم تعرف بعد . . لقد أطلق أحدهم الرصاص على الرئيس السادات أثناء العرض العسكرى منذ ساعة، ولكنهم يؤكدون فى القاهرة أن الرئيس لم يصب بسوء . . .

ومضى الوزير بعد أن ألقى قنبلة ظلت تشتعل طوال اليوم . . فلقد نسى المراسلون المهمة التى جئنا من أجلها إلى بون . . ولم يعد أحد يفكر فى صواريخ كرور وبرشنج، بل كان كل هم الجميع معرفة ماجرى ويجرى فى القاهرة . .

ووجدت نفسى فجأة محاطا بكل الزملاء المراسلين يمطروننى بوابل من الأسئلة وكأنهم قطعوا كل تلك المسافة من برلين إلى بون لإجراء حديث معى . .

من تعتقد أنه أطلق الرصاص على السادات؟

أتظن أنه فلسطينى أم ليبى؟

هل الصلح مع إسرائيل هو السبب؟

ماهو رد الفعل الذى تتوقعه من جانب السادات؟

هل تعتبر نفسك عربيا أم مصريا؟

ماهى القوى صاحبة المصلحة فى ذلك؟

هل تتوقع حربا بين مصر وليبيا؟

هل . . هل . . . .

عشرات الأسئلة وأنا أحاول أن أجمع شتات ذهنى بل وجسدى الذى أحسست أنه قد أصيب فجأة بحالة انعدام وزن غريب، لقد كانت كلمات الوزير الألمانى أشبه بدوامة هائلة أخذت تلف بى وأنا أحاول عبثا أن أوقف هذه المرئيات التى توافدت على ذهنى كأشباح أسطورية . .

القاهرة . . السادات . . العرض العسكرى . . ولا أدرى أيضا لماذا تجسد لى وجه أمى فى تلك اللحظات . .

واستطعت أخيرا أن أجمع بعض الكلمات أقذفها بلا رابط . .

أرجوكم . . لقد جئت معكم من برلين . . إذاعة . . راديو . . تليفزيون أرجوكم . .

وانتبه الزملاء أنه من الأجدى متابعة الأخبار بدلا من تعذيب زميل مصرى معهم تفصله عن بلده آلاف الأميال . .

وذهبنا إلى نادى الصحافة فى بون حيث كان مقررا لنا غداء عمل مع المتحدث باسم الحكومة وترك الجميع صالة الطعام والتفوا حول جهاز التليفزيون الضخم الذى كان قد قطع برامجه العادية وأخذ يذيع تفاصيل الحادث الساعة الثانية ظهرا . . مراسل التليفزيون الألمانى يقدم تقريرا مصورا من القاهرة . . يقف ووراءه المنصة التى كان يجلس عليها الرئيس السادات وعدد من رجال الدولة والسفراء والملحقون العسكريون ويصف ماحدث . . المنصة خالية إلا من بعض رجال الأمن، وكراسى كثيرة مقلوبة وملقاة . . على الساحة الممتدة أمام المنصة لاشىء سوى عربة مصفحة

وسط الطريق . . والمذيع يحكى ماحدث . . أثناء العرض العسكرى بمناسبة حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، توقفت هذه العربة وانطلق منها الرصاص فى اتجاه الرئيس السادات ، ثم قفز اثنان . . لابل ثلاثة من العربة واتجهوا إلى المنصة وأمطروها بوابل من الرصاص .

. . يبدو أن الرئيس السادات قد أصيب فقد تم نقله إلى المستشفى العسكرى بالمعادى . . حيث تجرى له عملية نقل دم ، بيان رسمى يؤكد أن إصابة الرئيس السادات طفيفة وأنه بصحة جيدة . . حتى الآن لم يعرفوا عدد الضحايا والمصابين .

الساعة الثالثة . . التليفزيون الألمانى مازل يذيع على الهواء صورة مستشفى المعادى . . السيدة جيهان تدخل المستشفى . . الموقف لم يتضح بعد . . مسئول كبير يؤكد أنه تم إلقاء القبض على الجناة والتحقيق يأخذ مجراه ، أنباء متضاربة عن حالة الرئيس السادات ، البعض يؤكد أن الإصابات خطيرة . . الكاميرا تنقل لقطات من شوارع القاهرة ، حالة من الهدوء والترقب . .

الساعة الرابعة . . أيها المشاهدون الأعزاء . . سنذيع عليكم بعد قليل الفيلم النادر الذى سجلته عدسات مراسلنا لما حدث فى القاهرة وعلى الطبيعة ، يبدو أن الأمر خطير وأن المحاولة وراءها جماعة منظمة تتبع تنظيم الجهاد الدينى المتطرف ، هذه المجموعة هى جزء من الجناح العسكرى للتنظيم وقد عرفنا للتو أن قائد المجموعة يدعى خالد الإسلامبولى ، وهو ضابط فى الجيش المصرى وشهود العيان يؤكدون أن الرصاصات التى أطلقت على الرئيس السادات أصابته فى العنق والصدر . . وإن هذه الإصابات قد تكون قاتلة . . لا أحد يستطيع أن يقطع حتى الآن بمصير السادات . .

أيها المشاهدون . . الآن سنذيع عليكم الفيلم .

وبدأت أحداث أغرب فيلم واقعى مثير شاهدته فى حياتى .

كل شىء يمضى على مايرام . . طابور العرض يتقدم والسادات فى ابتسامة منتشية يتصدر المنصة فى بدلته العسكرية المميزة ، وحوله كبار رجال الدولة والجيش ثم تتجه الرءوس والعيون إلى أعلى وتركز الكاميرا على سرب من الطائرات تحلق فى الجو فى تشكيل استعراضى ثم تعود الكاميرا إلى المنصة ، والسادات يقف فجأة . البعض يحاول أن يسنده ثم تدوى طلقات رصاص آخر . .

ثلاثة يقفزون من عربة مصفحة فى ميدان العرض وينطلقون نحو المنصة وأصوات الرشاشات مرة أخرى ، والهرج الشديد يسود المنصة . . البعض يقفز من فوق الكراسى والبعض يحتمى خلف الكراسى . . ثم يجرى تبادل إطلاق الرصاص بين

بعض الحرس والمهاجمين للمنصة، أحدهم يسقط على الأرض، الصور تتوالى مع اهتزاز فى الكاميرا . .

خفت صوت الرصاص بل سكت . . وصرخات تخرج بين الحين والآخر . . البعض يحمل شيئا بين يديه، يمضى بسرعة . . يبدو أنه الرئيس السادات . .

١٧ دقيقة والكاميرا تسجل وحدها دون توجيه أو تعليق ولكنها تقول كل شيء بوضوح ثم يبدو أن هناك عاملا خارجيا أوقف التصوير .

ويدخل صوت المذيع فى بون ليقول فى لهجة يغلب عليها حزن حقيقى . .

لقد تأكدنا الآن أن الرئيس السادات قد توفى متأثرا بجراحه . . ويبدو أنه قد قضى حياته مع الطلقات الأولى القاتلة التى انطلقت من الإرهابيين، وبالرغم من أن القاهرة لم تعلن رسميا حتى الآن خبر وفاة السادات إلا أنه يبدو أن هناك اجتماعا مهما يضم كبار رجال الدولة والجيش لاتخاذ التدابير اللازمة قبل إعلان مقتل الرئيس السادات .

ومضى المذيع يضفى على الرئيس السادات أوصافا كثيرة مثل الرجل الشجاع وصاحب مبادرة السلام ويروى تاريخ حياته ونضاله . .

وأخذت أتابع أمامى على شاشة التليفزيون صورا من تاريخ مصر المعاصر من خلال بعض المقتطفات عن حياة رئيس مصر الراحل . .

صورته فى الإسكندرية مع محمد نجيب قبل ساعات من رحيل الملك فاروق، ثم اجتماع لمجلس قيادة الثورة سنة ١٩٥٣، ثم وهو سكرتير للمجلس الإسلامى ثم رئيس لمجلس الأمة، وبعض الأفلام التى يظهر فيها مع عبدالناصر ثم وفاة عبدالناصر وخطاب السادات فى هذه المناسبة .

ثم رئيس للجمهورية، وتخلصه من الجناح اليسارى الناصرى، وخطبه فى مجلس الشعب أثناء تظاهرات الطلبة . .

وحرب سنة ١٩٧٣ والسادات يقود المعركة من مقر القيادة العسكرية فى القاهرة ثم عندما كان مفاوضا مع كيسنجر ولقاءاته مع نيكسون أثناء زيارة القاهرة .

السادات يعبر قناة السويس على ظهر طراد بحرى فى بدلة ربان بحرى أنيقة بعد إعادة فتحها . . يضحك من الأعماق . .

زيارة القدس، وضحكة قلقة على سلم الطائرة تعليقا على كلمات لجولدا مائير، لقاءاته مع بيجن وبيريز . . ثم كارتر وفانس . .

ثم وهو منفعل يرد على أسئلة صحفى أمريكى فى أعقاب اعتقالات سبتمبر .

ظل التليفزيون الألمانى لساعات يذيع أفلاما عن حياة السادات وبين الحين والآخر يسجل حوارا أو تعليقا مع إحدى الشخصيات الألمانية أو الأوروبية حول الأوضاع فى مصر بعد غياب السادات . .

ويبدو أن الزملاء المراسلين قد أدركوا أخيرا مغزى الأزمة بالنسبة لى وهذا الصراع المرير الهادئ الذى يغمرك وأنت ترى أخطر الأحداث عن بلدك ولاتملك إلا أن تراها من خلال بعض الصور المتحركة وأنت على بعد آلاف الأميال . . .

وأخذت ركنا منعزلا مع فنجال من القهوة أحاول تجميع ذهنى المشتت والذى تزاحمت عليه صور ومرئيات كثيرة متداخلة . .

لقد شاهدت رحيل فاروق من الإسكندرية وأنا صبى كنت يومها أكاد أطير من الفرح . . بل أخذت أرقص وأمرح وأغنى بانفعال مع مجموعة من تلاميذ القرية ونحن نستمع إلى الراديو وهو يذيع تلك اللحظات الخالدة . .

وشهدت موت عبدالناصر وأنا شاب فتى وانتابنى حزن شديد وها أنا أرى على شاشة التليفزيون الألمانى مقتل السادات وأنا كهل فى الأربعينيات فينتابنى القلق والخوف والتوجس . . واقترب منى مراسل الإذاعة البريطانية (بى بى سى) وقد كان يجمعنا تآلف وألفة قائلا :

-هل أطمع فى أن أخترق تأملاتك لتطلعنى عليها .

- قلت له : كما ترى ، مهموم بما سيكون .

- وماذا تعتقد أنه سيكون؟

قلت وأنا أقف فى محاولة لتنفيض مشاعر القلق والتوتر :

- لا أعرف . . ولكن آمل أن يأتى الغد بما هو أفضل .

[٥٠]

وأسمع عظام عهد جديد وهى تنمو
والإنسان يرعى ظله
على منحدرات الارتحال العظيم
سان جون بيرس

فبراير سنة ١٩٨٢

وشددت الرحال إلى . . فايمر . . .

كعبة الثقافة والفكر ليس فى ألمانيا وحدها بل وفى أوربا المعاصرة . .

ففى هذه المدينة التاريخية التى تقع فى حضن الجبال والغابات فى الجنوب الغربى لألمانيا الديمقراطية ، يحتشد هذه الأيام نخبة واسعة من رجال الفكر والثقافة من جميع أنحاء العالم جاءوا للاحتفال بمرور ١٥٠ عاما على وفاة يوهان فولفجانج فون جوته الكاتب والشاعر والفيلسوف الألمانى الكبير . .

ولقد عشقت تلك المدينة الصغيرة منذ رأيتها لأول مرة فى أواخر الستينيات ، شدنى ومازال يشدنى عبق التاريخ ونسمات الثقافة والحضارة التى تكاد تشمها فى مبانيها وشوارعها ، بل وحاراتها وأزقتها العتيقة ، وفى كل ركن منها تقف مبهورا مأخوذا أمام أثر ثقافى أو فكرى . . فى هذا المنزل المواجه للبلدية كان يعيش جوته العظيم . . كل شىء فى مكانه . . المكتب ، السرير ، المكتبة . . حتى ريشة الكتابة وبعض الأوراق بخط جوته نفسه . . وفى شارع آخر لايبتعد عشرات الأمتار يشدك منزل صغير من طابقين ، كان يعيش فيه الشاعر الكبير فردريك شيللر صديق ورفيق جوته . .

وفى ركن آخر من المدينة ، منزل فيلان الفيلسوف والمفكر الألمانى ، ثم فرانز لست الأستاذ والمعلم للموسيقا الأوربية المعاصرة ، وفى هذه القاعة العتيقة كان

يعزف سباستيان باخ على الأرغن منذ أكثر من مائتى عام . . وعلى خشبة هذا المسرح تحركت شخصيات «فاوست» و«وليام تل» و«جان دارك» وبحضور المبدعين الكبيرين جوته وشيللر . ويجتاحك الإحساس أنك ترتمى فى حضن الثقافة نفسها تمارس معها إنسانيتك الحقيقية وتتفتح كل حواسك لترى وتسمع وتفكر على هدى هؤلاء الأئمة الذين أثروا التراث الحضارى الإنسانى كله . .

ارتبطت مدينة فايمر بجوته منذ أن جاء إليها فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٧٥) بدعوة من أميرها المحب للثقافة والفنون ليصبح رئيسا لمجلس الولاية أو بتعبيرنا المعاصر رئيسا للوزراء، ومنذ ذلك التاريخ وحتى سنة ١٨٣٢ عندما مات جوته تحولت فايمر إلى مركز أساسى لحرية الثقافة والفكر فى أوربا ولعبت دورا تاريخيا .

الألمان يعتزون بجوتة ويقدسونه، وفى استفتاء أجرى فى أواخر السبعينيات عن أهم شخصية فى التاريخ الألمانى كله القديم والمعاصر اختار الألمان فولفجانج فون جوتة . . الشاعر والكاتب الروائى والمسرحى والعالم والفيلسوف والرسام ورجل الدولة . .

وفى الاحتفال الكبير الذى أقيم فى المسرح القومى فى فايمر قال وزير الثقافة فى ألمانيا الديمقراطية إننا نعتز بهذه العبقرية الإنسانية الفذة تلك الموهبة المتعددة الجوانب والتى أثرت التراثين الألمانى والإنسانى كلهما فى العلم والثقافة والفن والسياسة .

ويوضع جوته ضمن خمسة من أعظم شعراء البشرية على الإطلاق «هوميروس، فرجيل، عمر الخيام، شكسبير، جوته» فلقد كتب العديد من القصائد الشعرية كما كتب حوالى عشر مسرحيات شعرية تعد كل واحدة منها من عيون الشعر العالمى . .

ومازال بروميثيوس وكذلك «فاوست» تبهران النقاد والمبدعين بتلك القدرة الخلاقة فى البناء الشعرى الذى يتوافق فيه اللفظ مع الموسيقا والذى يصب فى النهاية فى مضمون إنسانى عميق، فهو يتناول فى بروميثيوس تلك الأسطورة الإغريقية القديمة لذلك الإله الذى ثار على رب الأرباب «زيوس» وترك السماء ونزل إلى الأرض ليعيش مع البشر وليعلمهم كيف يشعلون النار رمزا للمعرفة والنور . .

ويثور زيوس ويقرر إلحاق العقاب بالإله الإنسان الذى قرر اختيار الحياة على الأرض مع البشر يعلمهم أسرار الحياة، ويرسل زيوس زبانيته ليشدوا وثاق بروميثيوس إلى صخرة، ويأتى نسر كبير لينهش كبده، ثم ينمو له كبد جديد ليأتى

النسر وينهشه إلى مالا نهاية. اختار جوته هذه الأسطورة وكتب واحدة من أجمل اللوحات الشعرية على الإطلاق دفاعا عن البشرية والإنسان وحقه فى العلم والمعرفة . .

وقد قرأت بعض أعمال جوته فى الجامعة، ولا أحسب أننى انفعلت قدر هذا الانفعال، وأنا أقرأ رفض بروميثيوس العودة إلى جبل الأوليمب ورده على نداء زيوس رب الأرباب الذى نزل إلى الأرض ليقنعه بالعودة:

اذهب . . اذهب بعيدا . .
اذهب إلى سمائك وسحبك يازيوس
ودعنى على هذه الأرض، فهى لاتقع فى حدود مملكتك
ليس هناك أفقر منكم أيها الآلهة
تعيشون فى سمائكم . . وغيبوبتكم . .
فى تعال ليس له مايبرره . . .
بعيدا عن المشاعر والإنسان
لماذا أقدسك؟
إنك لاتعرف كيف تتألم
أو كيف تمرح
دعنى مع هؤلاء البشر
إنهم أهلى ورعيتى . . .
سأعلمهم كيف يضحكون، وكيف ينفعلون
وكيف يعلمون ويفعلون . .
وسأعلمهم أيضا ألا يقدسوك
لأنك وهم منتفخ
لاتستطيع لهم شيئا

وإذا كان جوته فى بروميثيوس قد انحاز للإنسان ضد الآلهة، وللحرية ضد القهر والطغيان، فإنه فى فاوست دافع عن حق الإنسان فى العلم والمعرفة بلا قيود أو حدود . .

فهنا أيضا يستخدم أسطورة شاعت فى أوروبا فى القرون الوسطى فى عالم تملكه الرغبة العارمة للمعرفة فعقد صفقة مع الشيطان «مفيستو» يحقق له فيها الشيطان كل نهمه للمعرفة والاكتشاف والعلم، فيطير به إلى جميع أنحاء العالم ويخترق به الماضى والحاضر ليقابل بعض مشاهير التاريخ وليطلعه على بعض أسرار المستقبل فى مقابل أن يقبض الشيطان روحه بعد ذلك. . طور جوته الأسطورة وجعل من فاوست نموذجا لمعاناة البحث عن الحقيقة والمعرفة وتجسيد الرغبة الإنسانية المشروعة فى الحرية والعلم والاكتشاف.

حلوة. . حلوة

بها بعد المرارة والجهد. .

ولكنها مرارة الحقيقة الحلوة

ليس علينا أن ننتظر حتى تأتى. .

علينا أن نسعى لها ونكابد. .

يالروعة العقل حين يتجدد مع الهواء الطلق

فى حركة. . دائمة

ومثلما كان جوته شاعرا عظيما كان روائيا كبيرا ففى «آلام فيرتر» «وسنوات تجوال فيلها لم مايستر» أطلق جوته صرخة احتجاج إنسانى مدوية ضد الظلم والطغيان وأعلن الانحياز للإنسان البسيط الذى يعانى فى ذلك الوقت فى مواجهة عنف وتسلط أمراء وأباطرة وقياصرة ذلك العهد، مثلما كان رساما عظيما كذلك أبدع أكثر من ١٢٠٠ لوحة فنية بعضها بالزيت حول موضوعه المفضل الإنسان والطبيعة، فهو مفتون بالاثنين مؤمن بأنهما يمثلان قصيدة هارمونية متكاملة ومتوحدة عندما تتوافر أرضية من الحرية والقوة.

كما كان عالما طبيعيا له العديد من المؤلفات والاكتشافات العلمية، ونظريته فى الألوان الأصلية والفرعية هى النظرية العلمية المعتمدة الآن لكل من يدرس علوم الطبيعة والكيمياء. . بقى جانب مهم فى تلك الشخصية الفذة، فجوته يعتبر بكل المقاييس ليس فقط من أوائل المستشرقين فى أوربا بل وأكثرهم إنصافا للفكر والثقافة العربية وقرأ لابن رشد والفارابى وابن سينا والكندى. . وفى كتابه «ملحمة الشرق والغرب» عكس فهما عميقا للتراث الثقافى العربى وأوضح دور هذا التراث فى تطوير الثقافة الأوروبية المعاصرة، كما عكف على دراسة القرآن وكتب عنه، كما شرع

فى كتابة مسرحية عن «النبى محمد» الذى كان معجبا به بدرجة كبيرة . . وبعد كل هذا، ألم يكن لدى الحق فى أن أترك كل شىء لأشد الرحال إلى فايمر لأشهد ذلك الاحتفال التاريخى بهذا الهرم الثقافى الكبير .

هذا الرجل الذى سأله أحد أصدقائه . .

– من أنت؟ . . وماذا تحب أن يقول الناس عنك . .

فأجاب

– أحاول أن أكون إنسانا . . وأتمنى أن يقول الناس إننى لم أكف عن المحاولة حتى الرمق الأخير . .

إننى أدرك تماما لماذا يشدنى هذا المبدع العملاق، ولماذا كنت ومازلت أحرص فى أية إجازة أو فى أية فرصة متاحة أن أذهب الى فايمر التى أصبحت بالنسبة لى أشبه بمعبد مقدس . .

حفظت شوارعها وحواريها وأزقتها العتيقة وكونت شبكة من الأصدقاء هناك حتى إنى لم أعد فى حاجة إلى أن أحجز غرفة فى فندق «الإيلفانت» التاريخى، لقد كانت حياة جوته نفسها إضافة إلى إبداعاته، تشدانى وتبهراننى وتخاطبان أعماقى، فهو واحد من القلائل الذين امتلكوا الحلم والقدرة على تحقيقه، وضع التصور النظرى وقام بالتطبيق العملى فى نفس الوقت . .

ولم تكن الكلمة منفصلة عنده عن العمل أو مجرد طلقة إنذار أو تنبيه أو تحذير، بل تحولت إلى حركة دافقة وطاقة مبدعة ومنتجة .

ولهذا لم يكن غريبا أن يتوقف نابليون بجيوشه على أطراف مدينة فايمر ليطلب لقاء مع جوته قبل أن ينطلق جيشه الفتى فى ذلك الوقت ليجتاح الولايات الألمانية . . وحينما أبدى القادة العسكريون الفرنسيون دهشتهم لأوامر قائدهم المنتصر قال نابليون . . إن هذا الرجل هو الذى أخشاه، وأطمع فى أن يفهم أهدافى لأنه كان يبشر بها .

وجرى ذلك اللقاء التاريخى فى مدينة إيرفورت فى أكتوبر سنة ١٨٠٨ على بعد بضعة أميال من فايمر، واجتمع الرجلان الكبيران لمدة يومين متتاليين حاول فيهما نابليون أن يقنع جوته بأن جيوشه ماجاءت إلا لتحرير ألمانيا من الاستبداد والإقطاع مثلما كان يدعو جوته .

والواقع أن جوته - مثله مثل صديقه شيللر - كان من أكثر الناس حماسا للثورة الفرنسية ولنابليون فى مرحلته الأولى، إذ كانت شعارات الحرية والإخاء والمساواة التى انطلقت على ضفاف السين تقترب من أحلام وطموحات جوتة فى تخليص فارتر من آلامه وفاوست من خطيئته وبروميثيوس من عذابه، ولكن جوتة كان قد بدأ يفقد حماسه لنابليون، وخاصة وبعد أن تحول هو نفسه إلى إمبراطور وتخلى عن مبادئ الثورة نفسها.

وسجل جوته فى مذكراته «الشعر والحقيقة»:

إن هزيمة نابليون سنة ١٨١٥ لم تكن نتيجة تفوق الجيوش الأوروبية الأخرى التى تحاربه، بل لأن نابليون كان قد هزم نفسه بنفسه حينما تخلى عن القيم الجديدة التى بشرت بها الثورة الفرنسية.

* * *

عدت من فايمر هذه المرة مشحونا بطاقة متجددة فى إمكان أن تشرق الشمس مرة أخرى ولاتغرب وتجسدت لى أفكار وطموحات جوتة بشكل مصرى أو عربى.

وفى ذات الليلة التى عدت فيها إلى برلين جلست الى مكتبى ليلة كاملة أحاول أن أعبر عما اختمر فى ذهنى ووجدانى طوال الشهور الماضية.

ولأول مرة أكتب أمامى عنوان المقال قبل أن أبدأ..

مبارك ليس السادات

دعوة مفتوحة إلى المثقفين المصريين والعرب..

قلت فى هذا المقال الذى نشر فى جريدة السفير فى أوائل فبراير إن ماحدث فى مصر يمكن أن يكون بمثابة تباشير جديدة لعهد جديد.

ليس فى مصر وحدها بل وفى العالم العربى كله..

وأنا لا أردد هنا كلمات ضخمة رنانة وشعارات مدبلجة تتحدث عن الثورية والنضالية والتحررية..... و..... و.... وإلى كل ماينتهى بحرفى «ية»...

والتى رددناها طوال الثلاثين عاما الماضية حتى فقدت معناها بعدما فقدنا نحن الإحساس بالعمل بها..

إننى أعنى شيئا أبسط وفى نفس الوقت أعمق..

أعنى تلك الخطوات التى تحاول إرساء قاعدة لديمقراطية حقيقية فى مصر..

قاعدة تبنى وتواصل مبدأ الحوار والاختلاف والاتفاق لكل مصرى ومصرية بعيدا عن مخاوف الكبت والقهر ومخاطر التعذيب الجسدى أو النفسى . .

إننى أكتب هذا وقد جرت فى مصر فى الأشهر الأربعة الماضية بعد تولى حسنى مبارك رئاسة الجمهورية أمور كانت منذ شهور قليلة تعد ضربا من الخيال المستحيل . .

أقطاب المعارضة يخرجون من السجن إلى لقاء مع مبارك فى القصر الجمهورى . . صحف المعارضة تعود إلى الظهور من جديد .

الدعوة لمؤتمر قومى لكل الأحزاب والتيارات السياسية لمناقشة خطة عمل للوضع الاقتصادى فى مصر . .

وقف الهجوم على أية دولة عربية .

الشعار البسيط الذى رفعه حسنى مبارك ويحاول تحقيقه عمليا بإجراءات متتالية بأن «مصر للمصريين» . . لكل الأحزاب . . لمن يتفق أو يختلف . .

ولست هنا فى مجال الحديث أو الدفاع عن حسنى مبارك ، فقلمى لم يطاوعنى طوال الخمس والعشرين عاما الماضية والتى احترفت فيها الكتابة أن أكتب لأمجد شخصا ولقد عرفت الرجل عن قرب عام ١٩٧٣ وجلست إليه ليلة كاملة أسمع عن حرب أكتوبر ، ولعل هذا كان أول اقتراب حقيقى مع جنرال من المؤسسة العسكرية وأستسمح القارئ فى بضعة سطور أروى بها وبسرعة حكاية صغيرة لها مدلولها . .

كان ذلك فى الأيام الأخيرة التى سبقت حرب أكتوبر ، وكانت الطائرات الإسرائيلية قد قامت باختراق حاجز الصوت فوق القاهرة مما سبب انزعاجا شديدا لرئاسة الجمهورية فى ذلك الوقت إذ خشيت أن تكون إسرائيل قد كشفت الاستعداد الذى كان يجرى لعملية العبور وحاول حسنى مبارك قائد سلاح الطيران فى ذلك الوقت أن يقنع الرئاسة المنزعجة أن ماقامت به الطائرات الإسرائيلية هو من قبيل الاستعراض المظهرى وأن اختراق حاجز الصوت مسألة عادية يمكن أن يقوم بها أى طيار مدرب . .

ولما أحس أن الرئاسة لم تقتنع وتطالب باتخاذ إجراءات معينة مثل فتح باب التحقيق فى هذا الموضوع الأمر الذى كان يعنى فى ذلك الوقت الحرج إرباكا شديدا لكل الاستعدادات التى كانت قد أوشكت على الانتهاء ، وجد حسنى مبارك نفسه فى موقف حرج لايحسد عليه ، ولم يكن لدى مصر فى ذلك الوقت سوى عدد محدود من

طائرات الميج التى تستطيع اختراق حاجز الصوت، والطيارون المدربون عليها كانوا فى أماكن مختلفة وفقا للخطة، لذلك اتخذ مبارك قرارا فيه قدر كبير من المغامرة المحسوبة، فقد جهز نفسه واستقل طائرة ميج واختفى فى الجو لمدة نصف ساعة وحينما عاد إلى مكتبه كانت الرئاسة مرة أخرى على الخط وتتساءل عن الأنباء التى أذاعتها الإذاعة البريطانية بأن طائرة ميج اخترقت حاجز الصوت فوق تل أبيب . .

وطمأن مبارك الرئاسة بأن الطائرة كانت مصرية ولكنه لم يقل إنه هو الذى كان يقودها ولعل هذه الحكاية تقدم المفتاح الأساسى فى فهم هذه الشخصية . .

العمل والإنجاز أولا، ثم تأتى الكلمة لتعبر تماما عن العمل المنجز . .

والآن . . ماذا بعد . .

إن هناك فرصة سانحة لتأكيد مبدأ الحوار والديمقراطية ولاسترداد إنسانية الإنسان المصرى والعربى القادر على تحقيق التقدم والتطور .

وأخشى ما أخشاه أن يغرقنا البعض أو نغرق نحن أنفسنا بالنهج القديم فى تناول الأمور فنجد أنفسنا وقد ضاعت منا الفرصة التى لاحت تباشيرها . .

إننى أدعو وبملء الفم كل المثقفين والمفكرين المصريين والعرب، وخاصة العقائديين منهم لدراسة واستيعاب درس الثلاثين عاما الماضية من خلال منظور الديمقراطية وحرية الحوار .

لقد بررنا نظرية «الحزب الواحد» تحت دعاوى الوحدة الوطنية والظروف الخاصة لمجتمعات العالم الثالث . .

وشطرنا الديمقراطية نصفين وجعلنا واحدة اسمها الديمقراطية الاجتماعية والأخرى الديمقراطية السياسية . .

ونسينا أن الوحدة الوطنية، هى وحدة الإرادة الحرة لكل المواطنين، وهى بالتالى لاتتحقق إلا بالتعددية والديالوج الديمقراطى وليس المونولوج الموحد النغمة والكلمة .

وإن القضايا القومية والمصيرية هى القضايا التى حسمها كل المواطنين وليس فردا أو مجموعة أفراد أو حتى حزب واحد مهما ادعى لنفسه الكمال والنضج .

وكانت الحصيلة، وبعد ثلاثين عاما، أن قضايا التحرر والتقدم الاجتماعى مازالت مطروحة دون حل جذرى وعلى جدول الأعمال .

ولقد ضاعف من ذلك كله الازدهار «المؤقت» لمرحلة البترودولار التى أجرت فى واقع الأمر تغييرا عبثيا فى كل القيم السائدة، فهناك رءوس أموال هائلة تتراكم وبمعدلات غير مسبوقة فى مجتمعات كانت تعيش حتى سنوات قليلة مضت فى علاقات قبلية أو عشائرية وعموما كان تطورها يقف عند مراحل ماقبل الرأسمالية . .

وهذا التراكم الرأسمالى الهائل والسريع لم يأت من خلال تطور قوى الإنتاج أو علاقاته ووسائله، الأمر الذى خلق وضعا جديدا تماما لاتستطيع كل النظريات السابقة ماركسية كانت أم رأسمالية أن تشرحه . .

وعلينا أن نتوقع، وهو حادث بالفعل، أن هذه المرحلة المؤقتة ستفرز قيما غيبية وعتيقة وستدشن الصراعات العشائرية والمذهبية والدينية على حساب الصراعات القومية والطبقية، كما ستقدم قيم الكسب السريع والطفيلى على حساب قيم الإنتاج والعمل والجهد، ولكل هذا وفى مواجهة كل هذه المخاطر فإن هناك أربع قضايا رئيسة مطروحة للنقاش أمام كل المثقفين والمفكرين العرب بمختلف اتجاهاتهم ومنابعهم الفكرية سواء كانوا اشتراكيين أو قوميين أو ليبراليين أو متدينين .

أولا : قضية الليبرالية فى مصر والعالم العربى . . فلقد زرعنا فى نفوسنا وفى كلماتنا كراهية الليبرالية السياسية متأثرين بتجربتها الأوربية، وحذرنا من أن الليبرالية فى أوربا أوصلت إلى الإمبرالية والاحتكار، ونسينا الفروق التاريخية الكبيرة بين نشأة البرجوازيات الأوربية ونشأة وتطور البرجوازيتين المصرية والعربية .

وتحت حمى نقل النظريات دون استيعابها، وتجاهل التطورات التى طرأت على العالم كله وغيرت الكثير من أوضاعه السابقة، نسينا أن سلاح الحريات السياسية كان ومازال أقوى سلاح فى يد قطاعات واسعة من الشعب العربى فى السعى وراء تقدم حقيقى لهذه المجتمعات

وفى مواجهة تحديات الإمبريالية والصهيونية، وتشهد على ذلك وتؤكده تجربتنا فى مصر منذ كان مطلب وسلاح ثورة عرابى الدستور والحريات، مرورا بثورة سنة ١٩١٩ التى ربطت الاستقلال بالدستور، ولطالما كانت الحركة الوطنية المصرية ومعها الحركة الوطنية العربية تتنفسان وتنتعشان بانتعاش الليبرالية السياسية، وتنتكسان وتتقوقعان بضرب الليبرالية وتكميم الأفواه . . والثابت أنه - وعلى نطاق العالم الثالث كله - فإن تجربة الليبرالية السياسية فى الهند هى التجربة الوحيدة المتصلة والناجحة نسبيا .

إنها قضية تستحق إعادة النظر والتحليل . . أليس كذلك . .

ثانيا: ويرتبط بهذه القضية الكف عن تجزئة الديمقراطية وشطرها إلى نصفين، مايسمى بالديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية، فمن البديهى أن الحقيقة الواحدة لاتتجزأ ووجه واحد للعملة يفقدها قيمتها.

ولقد أجهد بعض المثقفين وأجهدونا معهم فى الفصل بين الوجه الاجتماعى والوجه السياسى للديمقراطية مبررين بذلك بدعوات نظرية متعددة الأسلوب الفردى فى الحكم، فالإصلاح الزراعى مثلا إجراء ديمقراطى فى صالح الفلاحين، ولكنه يفقد ديمقراطيته وفاعليته إذا لم يكن معتمدا فى التنفيذ والتخطيط على حركة الفلاحين الحرة والمنظمة.

ويقاس على ذلك كل الإجراءات من هذا النوع «التأميم- القطاع العام» بل إنه من الثابت أن هذه الإجراءات فى ظل انعدام حركة جماهيرية منظمة وحرة، تفرخ أخطر أشكال الاستغلال وأكثر الفئات البيروقراطية والطفيلية عداء لمصالح الجماهير، والواقع على ما أقول شاهد فى مصر وفى العالم العربى.

ثالثا: الفكر الدينى: فلاشك أن الفكر الدينى المتحرر لعب ومازال يمكنه أن يلعب دورا إيجابيا فى مراحل تطورنا الراهنة وفى المستقبل.. وفى التاريخين المصرى والعربى الحديثين خرج من أحضان الفكر الدينى والأزهر مجددون عظام من أمثال محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين وعلى ومصطفى عبدالرازق ومئات المفكرين فى مصر والعالم العربى الذين أثروا حياتنا الثقافية والفكرية والروحية.

فهناك من ناحية اختلاف تاريخى ومرحلى لدور الدين عندنا عن الدور الذى لعبه فى أوروبا لأسباب كثيرة..

ومن ناحية أخرى فإن الفكر الدينى المتحرر يلعب دوره الإيجابى فى ظل الحوار والديمقراطية ويتجمد وينكمش فى ظل الكبت والإرهاب وتتحول قطاعات منه إلى أداة للكبت والإرهاب وتخرج لنا فقهاء الحكام بديلا عن مفكرى الشعب..

رابعا: قضية الإرهاب: إن الإرهاب والحركات السرية المتشنجة هى نتيجة قبل أن تكون سببا، وتتوافر الظروف الخصبة للإرهاب حيث تتوقف أساليب الحوار الديمقراطى فى المجتمع، وحين تبدأ الدولة نفسها معتمدة على أجهزتها، أو حتى حزبها الوحيد، فى قمع المعارضة والخصوم..

والحكم الفردى، أيا كانت الشعارات التى يرفعها هو الذى يولد الإرهاب والإرهاب المضاد وهو الذى يخلق التنظيمات السرية باختلاف أشكالها وانتماءاتها

ويحول الصراع الحر والصحى بين صفوف الجماهير إلى صراع مريض تحت الأرض وبعيدا عن الجماهير . . وتؤكد التجربة أن المناقشة والحوار على أسس ديمقراطية ثابتة هما المخرج الأوحد من أدغال الإرهاب والإرهاب المضاد سواء كان هذا من جانب الدولة أو من جانب بعض الأفراد والجماعات .

إنها رءوس موضوعات تتطلب الكثير والكثير من البحث والمناقشات، وهى دعوة لكل المثقفين المصريين والعرب على اختلاف أفكارهم واتجاهاتهم، اشتراكيين وقوميين وليبراليين ومتدينين بأن يتحدوا ويتكاتفوا بصفة رئيبة فى اعتماد الحوار والحوار الديمقراطى وسيلة وحيدة للاختلاف والاتفاق .

وأنا أزعم أن ٩٠٪ من المثقفين فى مصر والعالم العربى وبمختلف اتجاهاتهم يمينا أو يسارا تعرضوا لشكل من أشكال الاضطهاد وحتى هؤلاء الذين كانوا يبررون أو يدافعون عن هذا النظام أو ذاك كانوا يجدون أنفسهم فجأة مسجونين أو مطرودين أو ممنوعين عن الحديث والكتابة لسبب أو لآخر . .

فليس هناك ضمان لإنسانية الإنسان تحت ظل الحكم الفردى . . وبالتالى ليس هناك تحرر أو تقدم تحت ظل مثل هذا الحكم أيا كانت الشعارات التى يرفعها . . وكفانا استلابا وتعذيبا للنفس . .

نشر المقال فى أوائل فبراير فى السفير .

وبعد أيام قلائل بدأت القذائف من جميع الاتجاهات .

وانهالت على الشتائم والاتهامات مرة تحت دعوى أننى قد هجرت النضال والأفكار النضالية بعد استمتاع بحياة أوربا اللذيذة . .

ومرة تحت دعوى أننى سقطت فريسة فى يد الرجعية فأدافع عن الديمقراطية البورجوازية ومرات تحت دعوى أننى أصبحت أروج للنظام المصرى العميل ، وإن الهدف من كل ماكتبت هو تجميل وجه حسنى مارك الذى جاء به الأمريكيون ليواصل سياستهم فى مصر . . !! وكم كان قاسيا على النفس، وأيضا على القلب ، أن يخرج أحد المصريين من جماعة مستثمرى النضال فى الخارج بمقال على صفحة كاملة فى الجريدة ليشن هجوما جارحا على شخصى تحت عنوان «دعوة مفضوحة لتأييد مبارك» .

ولم تكن القسوة والمرارة اللتان أحسست بهما نابعتين عن الكلمات التى استخدمها، ولكن لأنه هو بالذات كان من أكثر الناس ارتباطا بى بالقاهرة وأكثرهم حماسا وإطراء لى . .

لقد كان يعيش فى إحدى العواصم العربية يقضى وقته متجولا فى ربوع أوربا ينزل أفخم الفنادق وينفق عن سعة ، ولقد زارنى مرتين فى برلين ورأى بعينه أحوالى المادية المتردية وحاول إقناعى بحلوله الناجعة ولأعمل معه فى الجبهة التى ترعاها وتمولها العاصمة العربية التى يعيش فيها .

وحينما سهرت معه ليلة كاملة فى منزلى فى برلين أشرح له بأن مصريتنا ليست ولا يمكن أن تكون معروضة للبيع تحت أى ظرف . . وإننى عندما تضيق على الحال فلن أتردد فى أن أحزم أمتعتى وأذهب إلى القاهرة ، قال وهو يعب من زجاجة ويسكى كأنها ماء قراح فى لهجة المغلوب على أمره . .

– قلبى معك . . ولسانى عليك . .

ولكن لسانه كان وقحا هذه المرة .

غفر الله له . .

[٥١]

هاهم هناك..
فى المواطن والمنافى والمهاجر
يبكون أعراس موتاهم
تهز الأرض دبكتهم
ولنا التمزق والتفجر والجنون

سميح القاسم

أغسطس سنة ١٩٨٢

وبدون ترتيب سابق، وقافزا فوق كل المواعيد التى رتبت والقضايا الكثيرة التى كان على أن أجد حلا لها، رأيت نفسى مدفوعا لأن أطير صباح ذات يوم من أيام إبريل إلى القاهرة..

رأيت برنامجا عن سيناء فى تليفزيون ألمانيا الغربية قبل أن تجلو القوات الإسرائيلية أقنعنى على الفور أنه حرام على أن أكون على بعد آلاف الكيلومترات من بلدى فى تلك الأيام التاريخية.

كان البرنامج يعرض لبعض المستعمرات الإسرائيلية التى أقيمت فى سيناء فى فترة احتلالها، وخاصة مستعمرة ياميت التى تقع بين رفح والعريش.

وقد استفزنى البرنامج بدرجة عالية فهو يركز على الذين استوطنوا المستعمرة وأعلنوا أنهم لن يغادروها لأن عرقهم ودماءهم سالت على هذه الأرض حتى استطاعوا أن يخلقوا جنة خضراء وسط الرمال!! وكانت الكاميرا فى تحركاتها تؤكد هذه المعانى الغريبة، فهى تنتقل من البيوت الأنيقة والمزرعة المحيطة بياميت إلى قرية بدوية مجاورة لنرى امرأة بدوية تجرى وراء قطيع من الماعز وأطفالا حفاة عراة يلعبون بين الخيم المهلهلة.

المستوطنون والهنود الحمر . . هذه الفكرة الكولونيالية التى سوقوها وروجوا لها وقدموها ذريعة ومبررا لكل عمليات النهب والإبادة التى تعرضت لها الشعوب . . . . الحضارة تأتى دائما مع الرجل الأبيض . . الوافد الجديد ، أما الأهالى أو أصحاب الأرض الأصليون فيتحولون بقدرة بعض دوائر الإعلام الغربى إلى هنود حمر مصيرهم الانزواء والفناء أو الإبادة التاريخية . .

اتخذت القرار بالليل وفى اليوم التالى كنت فى القاهرة لأستقل الأتوبيس إلى العريش ولأرى العلم المصرى يرفع بعد غياب دام أكثر من خمسة عشر عاما على رفح . .

وحكايتى مع سيناء ارتبط فيها الكثير من العوامل الوطنية والتراثية على مدى الثلاثين عاما الماضية . .

فبعد اعتقالى سنة ١٩٥٩ لم تستطع أختى مواصلة الحياة فى القاهرة وأصيبت بحالة نفسية جعلت زوجها يطلب نقله إلى العريش ويصطحبها معه لتغيير الجو بناء على نصيحة الأطباء . .

وعندما خرجت من المعتقل بعد أكثر من خمس سنوات ، قمت بأول زيارة فى حياتى لشبه الجزيرة التى كانت معلوماتى عنها مثل المعلومات التى كانت متاحة لكل المواطنين أنها مجرد مساحة متسعة من الرمال والجبال تتخللها بعض مضارب البدو مع بعض الحقائق التاريخية ابتداء من هرب موسى وبنى إسرائيل من مصر خلالها حتى دخول العرب والأتراك إلى مصر عن طريقها .

وعندما احتلت سيناء سنة ١٩٥٦ ، كنت أيامها طالبا فى الجامعة ، كان احتلال تلك الرقعة الشاسعة المبهمة يثير الحماس الوطنى ، ولكن ودعنى أعترف أن وطأة هذا الحماس الذى دفعنى للتطوع كان ثقيلا للغاية بعد احتلال بورسعيد . . وأحسست بينى وبين نفسى أن مشاعرى التلقائية تفرق بين جزء من الوطن لا أعرفه ، وجزء مشيت بالفعل على ترابه . وتكررت زياراتى لسيناء فى الستينيات وزاد إحساسى بها وبدأت تدخل فى دمى كجزء حقيقى وأصيل من أرض الوطن وليست مجرد فكرة تاريخية معتقة ، وكتبت أيامها أطالب بالاهتمام بهذه الرقعة الغالية من أرض الوطن وتنفيض التراب عنها وإشاعة الحياة فيها .

فلقد أدركت أيامها أن هناك خطأ قاتلا موروثا فى إهمالها لابد من تداركه ، فهى ليست مجرد البوابة الشرقية إلى مصر ، كما أن أهميتها الإستراتيجية لاتكمن فقط فى الجانب العسكرى ، بل إنها يمكن أن تتحول إلى رئة حقيقية تتنفس مصر كلها من

خلالها. وطالبت بإلغاء التصاريح العسكرية التى كان لابد أن يحصل عليها الإنسان لكى يقوم بزيارة سيناء باعتبارها منطقة عسكرية، كما طالبت بوضع مشروعات زراعية وصناعية طموحة لإلحاق سيناء بوادى النيل ولتغيير طبيعتها الجغرافية والسكانية.

ثم جاء العدوان الإسرائيلى فى يونيو سنة ١٩٦٧ وخيم ظلال الاحتلال الإسرائيلى الثانى بعد أن ارتوت صحراؤها بدماء عشرات الألوف من الضباط والجنود.

وتفجر الإحساس الشعبى بالألم وأيقن الجميع الخطأ الفادح الذى وقعوا فيه والذى جعل من تلك الأرض الغالية لقمة سائغة يستطيع أن يبتلعها بسهولة أى غاز أو معتد بدلا من أن تكون قلعة بشرية إنتاجية تحمى نفسها وتحمى مصر معها..

ولكن آلامى كانت مضاعفة مع الاحتلال الثانى، فمع فقدان سيناء فقدت الاتصال بأختى وزوجها وأولادها لفترة امتدت لأكثر من ستة شهور عشت أيامها كعديد من المواطنين الذين فقدوا أهلهم على أرض سيناء ولم يعرفوا عن مصيرهم شيئا، فى عذاب قلق ومتصل، وعرفت من خلال هذه التجربة المريرة أنه أيسر على النفس والعقل أن يعرفا مصير من يحبهم القلب حتى ولو كان هذا المصير يعنى الموت، من أن يتوه خيط الاتصال بهم وتظل معلقا على حبال واهية متقطعة من الأمل واليأس..

وظللت أحمل هذا الهم الثقيل متنقلا مابين الإذاعة والصليب الأحمر أكتب الرسائل وأسجلها بصوتى أحيانا فى انتظار رد أو خبر أو حتى إشارة رمزية من أختى وزوجها وأولادها..

وكان أبى رحمة الله عليه يضاعف إحساسى بالألم والمرارة فى ذلك الوقت، فلقد ترك الرجل القرية التى استقر بها بعد إحالته إلى المعاش وجاء ملهوفا مأخوذا إلى القاهرة يتابع أخبار ابنته الوحيدة وقلبه يتمزق ودموعه التى كانت عزيزة من قبل تملأ عينيه بشكل دائم وهو يبادرنى صباح مساء بسؤاله الحزين:

- إيه أخبار أختك وأولادها.

وسقط فريسة لمرض الحزن والاكتئاب المكثف وقد أثرت عليه تلك الصدمة بشكل قاتل.. وحينما ركعت بجوار سريره فى ليلة من ليالى أكتوبر سنة ١٩٦٧ أزف إليه البشرى التى كنت قد عرفتها للتو بأن أختى وزوجها وأولادها قد وصلوا مساء اليوم بورسعيد بعد رحلة هرب خلال الصحراء من العريش استمرت عشرة أيام ساروا فيها على الأقدام وكابدوا فيها الأهوال انبسطت أساريره ونطق بصوت خافت.. الحمد لله.. الحمد لله ثم فاضت روحه..

لهذا كله طرت من برلين إلى رفح لأرى علم مصر يرتفع مرة أخرى على تلك البقعة الغالية وظللت أراقب فى مواجهة قرص الشمس العلم وهو يتحرك فى قفزات إلى أعلى وأنا فى حالة من النشوة الغريبة، بل وجربت تلك المشاعر الصوفية التى يتوحد فيها الزمان والمكان والتاريخ والجسد والأبدية ورأيت وجه أبى مطبوعا على العلم الذى يرفرف حرا طليقا فى مواجهة سماء صافية عميقة وممتدة.

وأفقت على هزة فى الكتف من مصطفى زوج أختى الذى كان يحضر هذا الاحتفال المهيب باعتباره أحد مسئولين فى المحافظة وهو يقول:

- مالك.. فيه إيه.. دموعك تجرى طول الوقت.

قلت له فى بهجة:

- لقد رأيت أبى.. هل تصدق..

وجلست ليلتها فى بيت أختى فى العريش أكتب مقالة «ياميت التى كانت» والتى نشرت فى جريدة الجمهورية قلت فيها فلتكن هذه آخر مرة يقال فيها إن هناك من احتل سيناء وفصلها عن الوطن الأم، ولنكف عن ترديد المزامير والأناشيد عن الفرحة بعودة سيناء وترديد المقولات التقليدية عن التعمير، وليكن قرارنا هو إلحاق شبه الجزيرة الغالية بالوادى، لننقل إليها ماء النيل فى شبكة واسعة من الترع والقنوات ولتغطها شبكة كثيفة من المواصلات الحديدة وغير الحديدية وليذهب إليها مع كل هذا فلاح الوادى ليزرع ويعمر وينشر الخضرة والحياة..

وبقيت أسبوعين بين العريش والقاهرة أحاول أن أتنسم وبشكل عملى وعلى الطبيعة ملامح العهد الجديد أو الجمهورية الثالثة أو الرابعة على حد تعبير البعض.. وتأكد لى ماسبق أن كتبته من أن هناك عصرا جديدا يبدأ فى مصر بالفعل..

كانت حركة الشارع فى القاهرة تبدو هادئة بعد الأحداث الدرامية التى واكبت تطورات الأحداث فى العام الماضى، ولم يكن من الصعب أن تلمس رنة أمل موحية تشى بها أحاديث من التقيت بهم من الأصدقاء على اختلاف آرائهم السياسية..

صحف المعارضة تعود إلى الظهور، والأحزاب تنفض عن نفسها أدران مالحق بها فى العهد الماضى، والرئيس مبارك يكسب تعاطفا حقيقيا بين الناس ويؤكد أنه ليس عبدالناصر وليس السادات، ويبدو واضحا أنه قد اختار قضية الديمقراطية لتكون رايته المميزة.

وأنا أفتش فى عيون الناس والأصدقاء عن إجابة لسؤال غير مسموع تمتلئ به نفسى . .

البعض كان يفهم السؤال الذى أطرحه ولايجيب . .

وآخرون ألمح على تعبيرات وجوههم إجابة غير شافية . .

ربما كان عبدالرحمن الشرقاوى هو الصديق الوحيد الذى فجر السؤال والجواب .

- لم لاتعود . . الأمر يستحق التفكير .

كانت كلمات الشرقاوى كفيلة بتحطيم ستار الصمت الذى كان مفروضا على أعماقى لم لا أعود . .

كانت هذه القضية قد بدأت تطرح نفسها وتلقائيا ومنذ شهور . .

أما آن الأوان للعودة . . ؟!

***

وقبل أن أغادر القاهرة هذه المرة ذهبت مساء إلى الحارة الضيقة المتفرعة من شارع معروف وفى أعماق الحارة الغارقة فى الظلام والرطوبة وصلت إلى حوش البيت القديم، وصعدت السلالم التى تآكلت درجاتها وأنا أشم رائحة العرق والجهد والذكريات التى امتلأ بها الحوش . .

قلبى يرتجف وعقلى يموج بتيارات متلاحقة، ووجهه وعيناه وابتسامته وضحكاته تملأ المكان والزمان وتصهر الحاضر والماضى فى توليفة ذات عبق خاص . . وطرقت باب الشقة العتيق وفتحت الباب امرأة لم تستطع أن تهدها السنون رغم بصرها الكليل وفمها الخالى إلا من بضعة أسنان تفرقت دون ترتيب . . هى نفسها أم سيد . . المرأة العفية القادرة التى تشتبك يوميا مع الحياة فى معركة مضنية تخرج منها دائما منتصرة . . هكذا كان يصفها المرحوم . . يالغرابة الكلمة ووحشتها . . المرحوم . .

ولما لم تستطع أم السيد أن تعيد التعرف على بسهولة قدمت لها نفسى ويبدو أنها أخذت تقلب وبسرعة فى الذاكرة حتى اكتشفتنى وصدرت عنها صرخة فرح مفعمة بالحزن العميق وهى تحتضننى بين يديها . .

- الأستاذ صديق المرحوم . . أهلا يابنى، نورت . . فين أيامك وأيامه . .

ودخلت المحراب الذى قضينا فيه سويا سنوات نفكر وندبر ونعمل ونختلف ونتفق . . ووجدت نفسى أمضى فى الشقة أتلمسه فى كل ركن . .

كانت شقة قبارى عبدالله الصديق الغالى عضو مجلس الشعب، المناضل، والإنسان البسيط القادر على العطاء الذى اعتقله السادات ضمن من اعتقلهم فى سبتمبر ١٩٨١ ثم أفرج عنهم مبارك والتقى بهم فى القصر الجمهورى.

ولكن شيئا ما عابثا ساخرا لاهيا قدر له أن يموت فى حادث مفاجئ بعد شهرين فقط من خروجه من السجن.

وجلست صامتا حول المنضدة العتيقة التى طالما جلسنا حولها نفكر ونخطط للمجلة التى أصدرناها سويا ولمعاركه الانتخابية التى كان يكتسحها، وحين يأخذ بنا التعب والإرهاق، تتحفنا أم سيد بطبقها المفضل..

شربة المواسير والفتة بالخل والتوم..

واحترمت أم سيد صمتى فلم تتكلم، ولعلها هى الأخرى غرقت فى ذكريات الماضى الذى لم يكن بعيدا.

ولا أدرى تماما هل قضيت ساعة أو ساعتين.. ولا أستطيع أن أحدد تماما هل كنت حزينا أو راضيا لأنى أجلس فى حضرته رغم غيابه..

لا أذكر أن دموعا انسابت من عينى، ولكن الذى أذكره بوضوح أن شوقا مستبدا عاتيا عصف بقلبى وتمنيت أن أراه ولو مرة، بل كدت أجسد رؤيته.. قبارى العظيم.

وغادرت القاهرة فى اليوم التالى إلى برلين..

***

ذهبت إلى مسرح البرلنير انسامبل الذى بناه العظيم الشامخ برتولد بريخت، وعمل فيه حتى الموت.. بعد أن حثنى كثير من الأصدقاء على ضرورة مشاهدة المسرحية الجديدة التى تعرض هناك للكاتب الشاب «فولكربراون» الذى يعتبر نفسه أحد تلامذة بريخت..

المسرحية اسمها (تنكا) وهى تقوم على شخصية محورية لفتاة شابة تعمل فى أحد المصانع المملوكة للشعب تحمل اسم المسرحية.

والمؤكد أنها مسرحية غير عادية، بل إنها كانت مفاجأة لى..

والأغرب من هذا أن العرض يستمر دون أية محاولة للتدخل أو حتى للهجوم عليها رغم أن المسرحية تنقد وبوضوح وأحيانا بلهجة ساخرة مريرة كثيرا من السلبيات فى المجتمع الاشتراكى. تنكا.. فتاة محملة بطاقة شبابية خلاقة، وتمتلئ بالمثل العليا

حول خلق المجتمع الإنسانى الذى تدعو إليه الاشتراكية حيث يكون كل شىء من صنع الشعب ومن أجل الشعب، ولكن هذه المثل والقيم النبيلة سرعان ماتصطدم بالواقع المرير الذى قد يكون أحيانا معاكسا، بل مناقضا لكل القيم التى آمنت بها المهندسة الشابة، وهنا يكمن جوهر العمل المسرحى الخلاق الذى قدمه المؤلف من خلال تلك الرحلة الطويلة والصعبة التى تبدؤها تنكا من خلال صراعاتها مع عدد من الشخصيات العامة المسئولة فى المصنع الكبير الذى يملكه الشعب..

رئيس مجلس الإدارة البيروقراطى الذى يريد أن يكون كل شىء تماما «على السطح» بالرغم من أن كل القيم مهدرة، لايهمه سوى أن يقدم للمسئولين فوق أرقاما وإحصائات متناسقة عن زيادة الإنتاج وسعادة العاملين بغض النظر عن أى شىء ودون التحقق من التقارير المصنوعة والمطبوخة.

ثم هؤلاء الموظفون العاملون مع رئيس مجلس الإدارة كل ميزتهم أنهم يعرفون تماما كيف ينحنون ويبتسمون ويطرون بسخاء على أى كلمة هايفة ينطق بها المسئول الكبير، كل همهم أن ينقلوا إليه تقارير عن المشاغبين الذين ينتقدون من أمثال تنكا.. وكيف السبيل إلى التخلص منهم.. ثم والأهم من ذلك «البروباجاندست» أو المسئول الحزبى فى المصنع.. شخصية باهتة ضحلة تردد كلمات ضخمة عن ملكية الشعب وزيادة الإنتاج لصالح الجماهير والبناء الاشتراكى كما لو كان يقرأ نصوصا لايفهمها من كتاب لم يقرأه.. ثم لايفعل شيئا سوى مساندة رئيس مجلس الإدارة ومساعدته على تغطية بعض المشاكل حينما تحضر لجنة وزارية عليا للتفتيش...

ثم العمال والمنتجون الحقيقيون الذين يقعون فى تناقض شديد بين الواقع الذى يعيشونه والشعارات التى يسمعونها..

فيقعون فى بئر السلبية ومشاعر اليأس والإحباط..

وتصطدم تنكا بالمسئول الكبير والمسئول الحزبى وعصابة الكبار الذين يتشدقون بالكلمات ويسفحونها فى تصرفاتهم.. بل وتصطدم باللجنة الوزارية التى جاءت للتفتيش.. تحاول أن تتكلم عن الإنسان الاشتراكى الحقيقى، الإنسان الحر المنتج والمبدع الذى لايخاف ولاينافق.. تحاول أن تكشف الخلل والتجاوزات، ولكنها تحاصر من قبل الجميع الذين يعتبرونها عنصرا مشاغبا وغير مؤمن بالاشتراكية.

وتصل المأساة إلى قمتها فى أن خاطبها وصديقها الذى يعرف تماما أن تنكا عندها كل الحق فيما تقوله يتنكر لها عند أول صيحة إنذار من الديك.. فيهرب منها ويتخلص من علاقته بها، بعد أن قرر رئيس مجلس الإدارة والمسئول الحزبى فصلها، بل ويسعى لتوطيد علاقته بفتاة أخرى مقربة «للغاية» من رئيس مجلس الإدارة.

وفى المشهد الأخير الرائع تحاول تنكا أن تتماسك وألا تفقد آدميتها رغم كل المعاول التى انهالت عليها لتنهشها وتهمشها، وتلتقى بخاطبها فى محاولة يائسة لاسترداد ذاتها بعد أن فقدته وفقدت عملها ووصمت بأنها مشاغبة . .

- قل لى . . دعك من كل ماحدث . . قد أكون مخطئة . . قد أكون قد تصرفت بغباء . . هل تحبنى . . هل مازلت تحبنى . .

لا أتصور أن الدماء فى القلب يمكن أن تتحول هكذا وببساطة إلى ماء بارد . .

لقد كان لديك قلب . . المهم أن نبقى آدميين . . قادرين على الحب، فالإنسان هو الغاية والوسيلة هكذا تقول الاشتراكية الحقة أليس كذلك . . !!

وينتهى المشهد بأن يضرب الخاطب المذعور تنكا على رأسها بزجاجة البيرة التى كان يشربها . . وتسقط وهى تتخبط فى دمائها وهى تتأوه . .

«رباه . . أين الحقيقة» . .

المسرحية جديدة . . جريئة . تتناغم فيها الفكرة مع الشخصيات مع الحبكة الفنية لتقدم عملا رائعا .

ولكن الجديد حقا أن المسرحية أثارت نقدا واسعا خصبا فى الأوساط الأدبية والفنية، لم يهاجم أحد فولكر براون، مثلما توقع الكثيرون ولم يصفه أحد بأنه كاتب منشق مثلما جرى فى سنوات سابقة، بالرغم من أن بعض الصحف وأجهزة الإعلام الغربية هللت للمسرحية . .

ولم يقل أحد إن براون يحاول التعريض بالنظام وبالاشتراكية رغم النقد اللاذع الذى حفلت به المسرحية .

ولقد واكب عرض مسرحية «تنكا» عرض آخر لمسرحية لكاتب سوفيتى تحت عنوان «حصان أزرق فى مروج خضراء» . . عرضت المسرحية فى مسرح «جوركى» فى برلين واستمر عرضها لفترة طويلة، وهى الأخرى تتناول بالنقد اللاذع بعض نماذج المسئولين فى المجتمع الاشتراكى والبعيدين تماما عن الروح الحقيقية للاشتراكية .

وتقوم فكرة المسرحية على أن لينين مؤسس أول دولة اشتراكية خرج من قبره وقام بالزيارة لإحدى المؤسسات بالاتحاد السوفيتى واصطدم بعدد من المسئولين الذين يرددون اسمه وكلماته فى كل مناسبة، ولكنهم فى الواقع يسفحون أفكاره وتطبيقاته، وقد أثارت المسرحية هى الأخرى مناقشة غنية وخصبة وغير مسبوقة ليس فقط بين الناقد والمثقفين، بل وبين قطاعات واسعة من الجماهير التى أقبلت على المسرحيتين بشكل واسع . .

وأحسست باليقين أن هناك رياحا منعشة جديدة تهب على المجتمعات

الاشتراكية، وقد تكون تجربة بولندا ومايجرى فيها قد ألقيا بعض الضوء على بعض من الخلل الذى يجرى فى التنظيمات الحزبية الحاكمة . .

وقد تكون الإنجازات المادية التى تحققت قد أكسبت المجتمعات الاشتراكية مزيدا من الثقة بالنفس ، فانطلقت الطاقات المبدعة دون قيود . .

وأيا كان السبب ، فلقد كنت سعيدا بهذه النسمات الجديدة والمنعشة التى تحمل معها مرة أخرى فكرة أن الاشتراكية تعنى فى الأول والآخر تأكيد إنسانية الإنسان وإطلاق طاقاته الإبداعية بلا حدود أو قيود اقتصادية أو غير اقتصادية ، على أن هذه السعادة والفرحة اللتين رحت أغرق فيهما فى مناقشات ممتعة مع عدد من المثقفين والأصدقاء الألمان سواء فى اتحاد الكتاب أم فى اتحاد الصحفيين أم فى الجامعات سرعان ما أجهضهما ماكان يجرى فى بيروت . .

كانت القوات الإسرائيلية قد قامت فى يونيو ١٩٨٢ باجتياح جنوب لبنان .

وكان من الواضح من الحشد العسكرى الهائل ومن قيام ايريل شارون وزير الدفاع بقيادة الغزو أنه ليس مجرد تكرار للعربدة التى كانت تقوم بها إسرائيل طوال السنوات الماضية فى احتلال بعض الأجزاء من الجنوب اللبنانى ثم الانسحاب بعد فترة تطول أو تقصر . .

وكان اندفاع قوات الغزو إلى بيروت ومحاصرتها بما فيها من القوات الفلسطينية وقيادة منظمة التحرير يمثلان نقلة كيفية فى الأهداف الإسرائيلية فى لبنان ويؤكدان أن المخططين الإسرائيليين قد قرروا الاستفادة إلى الحد الأقصى من التمزق والتشتت اللذين يعيش فيهما العالم العربى .

بتوجيه ضربة ساحقة بإخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان .

٧٥ يوما بيروت محاصرة من قوات الغزو الإسرائيلى، والقوات الفلسطينية ومعها القوى الوطنية اللبنانية تدخل فى معركة شرسة يسقط فيها كل يوم آلاف القتلى والجرحى ، والعالم العربى يصرخ فى عجز والأنظمة تشجب بلا فاعلية . . والأمم المتحدة تأخذ التوصيات والقرارات ، ولكن الفيتو الأمريكى ومعايير وسلطات المحافل الدولية تقف بها عند حدود الإدانة المعنوية للغزو . . وشارون يقود بنفسه المعارك والحصار مع إصرار على دخول بيروت عنوة . . وإسقاط أول عاصمة عربية فى أيدى القوات الإسرائيلية .

كنت مثل الملايين من أبناء عالمنا العربى التعيس أتابع مايجرى يوما بيوم وساعة بساعة المقاومة البطولية الفذة للفلسطينيين واللبنانيين، والعجز المطلق فى العالم العربى ولا أملك إلا القلم أحمله صرخاتى وآلامى وعجزى .

وأخيرا سقطت بيروت ودخلت القوات الإسرائيلية أول عاصمة عربية وخرجت

منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عرفات بعد اتفاقية مشرفة وغير مسبوقة لعب فيها الاتحاد السوفيتي وفرنسا ومصر دورا خاصا يسمح لقوات التحرير الفلسطينية بالانسحاب من بيروت بكامل أسلحتهم ومعداتهم . . وهو الأمر الذى يحدث لأول مرة . . وكتبت يومها مقالا نشر فى السفير البيروتية والراية القطرية والوطن الكويتية تحت عنوان «حريق بيروت والنار التى لم تنطفئ» قلت فيه : «إن الحريق الذى اشتعل فى معارك بيروت الخالدة لم ينته ولن ينتهى ، وإذا كانت النار قد خمدت إلى حين بعد أن استشهد من استشهد ، وبقى المقاتلون الآخرون وقد تصلبوا فى آتون المعركة وتحولوا إلى معادن نادرة فى عالمنا العربى ، فإن نارا أخرى أشد تهب الآن على هذا العالم التعيس ، ولست أريد أن أشارك فى جوقة «الندابين» اللاطمين الخدود والمهيلين التراب على أنفسهم وعلى الآخرين .

أو مع جماعات المزايدين الذين زايدوا ومازالوا فى سوق الكلمات الضخمة الفخمة الرنانة والتى ليس لها أى رصيد من الفعل والأثر الحقيقى .

ولكن ومع كل ماجرى ويجرى ، ومن خلال أحدث وأخطر دراما شهدها العالم العربى المعاصر ، وبمنهج تعاطى الواقع وتفهمه والتعامل معه بغية تغييره ، وبعيدا عن التعلق بأوهام وأكاذيب لاتملك الحقيقة المطلقة .

وبحثا عن الأمل الحقيقى من واقع الرماد الذى يملأ أفواهنا فإنه يمكن رصد بعض المؤشرات التى ستلعب دورا مهما فى صياغة وضع وظروف العالم العربى لمرحلة تاريخية مهمة وهى مرحلة مابعد حريق بيروت» .

وأشرت فى المقال إلى أربعة مؤشرات مهمة لمرحلة المستقبل .

أول هذه المؤشرات هو بروز الدور النضالى لمنظمة التحرير الفلسطينية وتأكيد دوريها السياسى والعسكرى على النطاقين العربى والعالمى بعد صمود بطولى لأكثر من ٧٦ يوما فى مواجهة الآلة العسكرية الإسرائيلية والمدعومة والمترسنة من أمريكا . . أى أن القضية الفلسطينية أصبحت وبشكل مطلق فى أيدى الفلسطينيين أنفسهم . وثانى هذه الموشرات ، أنه فى كل الأوضاع الراهنة فى الساحة العربية ومع عدم وجود «هانوى» عربية يمكن أن تكون فى الوقت الحالى قاعدة لانطلاق النضال الفلسطينى . . فإن منظمة التحرير الفلسطينية ومن خلال تجاربها المريرة والعظيمة قد استوعبت الدرس جيدا ، وسيدفعها هذا بالتأكيد إلى الطريق الشاق والأكثر صعوبة ، ولكنه الوحيد المضمون النجاح وذلك بتركيز الجهد والعمل داخل الأراضى الفلسطينية المحتلة نفسها . .

ثمة مؤشر ثالث يرتبط بسقوط الأقنعة ، كل الأقنعة وانكشاف الواقع العربى البالغ المرارة فلم يعد مثلما هو واضح فرق بين زيد وعمرو . . بين من قالوا بالصمود والتصدى وبين من لاذوا بشعار «اللهم إنا لسنا بقادرين» .

لقد تساوى الجميع فى الخيبة وقلة الحيلة.

كما أن من يرفعون شعار «الثورة والاشتراكية . . لم يقدموا أكثر من أصحاب الثروة الرأسمالية» .

وهذا يعنى أن الأنظمة الموجودة على الساحة قد تعرت كلها حتى من ورقة التوت التى كانت تتستر بها .

ورياح الحرية والديمقراطية على الطريق لاقتلاع الجذور العفنة .

ولذلك فإن النار التى اشتعلت فى بيروت ستكون آخر النيران المدمرة التى أشعلتها مرحلة النفط والبترودولار ، لأن هذه المرحلة سندخل ، بل هى قد بدأت بالفعل تدخل فى مرحلة الهبوط والعد التنازلى ، بعد ازدهار قاتل استمر لأكثر من عشرة أعوام .

وإذا كانت كارثة سنة ١٩٤٨ قد فجرت الوعى القومى العربى ، فإن ملحمة بيروت سنة ١٩٨٢ ستفجر لامحالة الوعى الإنسانى العربى . . حرية الإنسان فى أن يكون إنسانا أولا وقبل كل شىء .

حريته فى التعبير والتنظيم والمعارضة والاحتجاج والمشاركة الفعالة فى اتخاذ القرار . .

ولم يعد مسموحا ولن يكون مقبولا لأى تنظيم أو حزب فى العالم العربى أن يدافع أو يبرر قهر الإنسان العربى تحت أى مسميات .

هذه بعض المعطيات التى أعتقد أن ملحمة بيروت قد فجرتها وسيكون لها مابعدها . أما من ينظرون إلى ماحدث على أنه أزمة أو هوجة انتهت وأن الأمور ستمضى بوتيرتها السابقة ، فلعلهم أكثر الناس وهما وبعدا عن الواقع أو بمعنى أصح عن المستقبل القريب فى عالمنا العربى القادم والآتى مع الغد . . وبالضرورة .

وضعت القلم . . ثم أخذت أعيد قراءة ماكتبته بهدوء . .

ولا أدرى لماذا اجتاحنى شعور جارف بالذنب بعد الانتهاء من هذه المقالة . . لقد أحسست أننى واحد من هؤلاء المدانين الهاربين من المعركة والباحثين عن جزر السلام والأحلام الصغيرة والخاصة . .

ووجدتنى أتساءل متهما نفسى . . بأى حق أطلق تلك الآراء والأحكام ، وأنا على بعد آلاف الأميال من الوطن . . لقد أصبحت مثل عواجيز الفرح أو ندابات المآتم . .

يفرغ شحنة عاطفية من القلب دون مشاركة حقيقة فيما يجرى ليريح الضمير المعذب . . لابد من العودة . . شعور أصبحت ممتلئا به يطاردنى ، يعذبنى .

ولقد سقطت كل الأعذار . . فلماذا التردد . .

كان ثمة قضية ولابد وأن تحسم . .

[٥٢]

وإن سألت عنى فأنا بخير، لا أتعب ذهنى
بتوالى الخطوب والأكدار،
ولا أتألم من طول الغربة ودفع الشدة، فترانى
فكرى هو رفيقى وقلمى هو نديمى، ولكل
شدة.. مدة

عبدالله النديم . رسالة إلى صديق

يونيو سنة ١٩٨٣

محمد عبده . .

طه حسين . . .

اثنان من أحب المفكرين إلى قلبى وعقلى، اعتبرهما - وأعتقد أن لدى كل الحق فى ذلك - القطبين اللذين لعبا الدور الأكبر فى صياغة العقل المصرى الحديث فى بداية القرن العشرين . .

أولهما أبحر فى الدين بروح العالم المجدد ودعا إلى اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معا حتى نستطيع أن نواجه ما تطرحه الحياة من تحديات وخلق مدرسة قوية الأثر واضحة المعالم تصدت بمنهج علمى واقعى يقوم على أساس دينى متفتح للإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى، كما أنه لم يكن فى منهجه للإصلاح مجرد مؤلف أو منظر، بل كان يحاول دائما أن يربط الكلمة بالفعل ويغوص فى الواقع بغية تغييره . . تحت شعار إذا كانت هناك مصلحة للخلق فثمة شرع الله . .

وثانيهما قاد ثورة ثقافية طوال تاريخه «لنأخذ من التراث مافات منا، ولنستعد

للحاضر وللمستقبل ماتخلفنا فيه من علم وتقدم» ، رافعا لواء العقل والعلم طامحا إلى بناء مجتمع متحضر عادل ومثقف وقادر على الابتكار والإبداع . كلاهما ذهب إلى أوربا فى غربة بحثا عن العلم والمعرفة .

وكلاهما واجه فى اندفاعاته الفكرية الأولى أثناء الدراسة فى الأزهر الشريف المشاكل والعقبات ، وكلاهما اختار الطريق الصعب . . وسبح ضدالتيار ولقى الأهوال وعاناها وأثبتا فى نفس الوقت أن ذوى الفكر المتفتح والمتسامح هم الذين يصمدون ويقاتلون وينتصرون دفاعا عن آرائهم .

محمد عبده . . واجه الشيخ عليش الذى كان مشهورا بعصبيته وضيق أفقه ورميه الناس بالكفر لمجرد الاختلاف معه فى الرأى حتى إنه كان مصرا على حرمان محمد عبده من شهادة العالمية لأنه فى نظره غير جدير بها ، بل ربما رماه بالإلحاد والزندقة ولكن الشيخ حسن الطويل النموذج المقابل والمشرف لمدرسة الأزهر الحقيقية بما عرف عنه من حكمة وسعة أفق وتفتح على المجتمع والناس أنقذ محمد عبده فى الامتحان العسير وأضاف بذلك إلى التراث الإسلامى جوهرة حقيقية مازالت تشع حتى الآن بنور حضارى . .

وطه حسين وقف إلى جانبه الشيخ المرصفى لينقذه من حكم ظالم صادر من الشيخ المهدى الذى لم يعرف من العلم والإيمان سوى متون محفوظة من خرج على لفظ فيها فهو مارق آبق وملعون إلى يوم الدين والذى حاول أن يحرم طه من الشهادة تحت دعوى أنه «أعمى البصر والبصيرة» . .

ولكن طه حسين حصل على شهادته قائلا ومؤكدا «إن طول اللسان لايمحو حقا ، ولايثبت باطلا» . .

والغريب أننى وجدت نفسى فى ألمانيا أواجه أمثال الشيخ عليش والشيخ المهدى . . وأثناء دراستى للدكتوراه . . وكان ذلك هو السبب الحقيقى وراء عدم اتخاذ قرار سريع بالعودة . . أو أخر القدرة على تنفيذ قرار كنت قد أصبحت ممتلئا به فكريا وعاطفيا وجسديا ، وكلها تشير إلى طريق واحد . . . القاهرة . .

بل إننى فى واقع الأمر ومنذ الزيارة الأخيرة للقاهرة . . بدأت كل أفكارى وتصوراتى تتركز على استئناف مسيرة العمل والحياة مرة أخرى على ضفتى النيل الغالى . . وأخذت استكشف الإمكانات العملية لهذه العودة . .

مدارس الولدين ، العمل فى الجريدة ، بل وبدأت مقالاتى تعود للظهور مرة أخرى فى الجمهورية .

لم أكن فى حاجة إلى الكثير من الحسابات، فأنا فى كل الأحوال أعيش على الكفاف فى أوربا، وكان من الواضح أننى رفضت كل محاولات الترويض المباشرة وغير المباشرة التى تعرضت لها خلال تلك السنوات الماضية. . ولقد كان أكثر مايزعجنى ويملؤنى بالهم والأسى فى تلك السنوات الصعبة وأنا أرى بعضا من المصريين والعرب الذين اغتربوا عن بلادهم فترات طويلة امتدت إلى أكثر من عشرين سنة، وهم يهيمون فى المجتمع الألمانى وقد فقدوا جذورهم الأصلية وبهتت هويتهم كما أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا ألمانا أو أوربيين رغم زواجهم بألمانيات ووجود أبناء وبنات لايعرفون لغة الآباء الأصلية. كانوا بالنسبة لى مثل الأشباح الهاملتية المعذبة تملؤنى بالخوف والرعب من أن ألاقى نفس المصير. لقد كانت أسباب ودوافع الغربة واضحة لى تماما، فأنا لم أسمح لنفسى كل تلك السنوات بأن أعيش فى وهم كاذب بأننى أناضل فى الخارج أو أنى أقوم بمهمة مقدسة. .

كما أنى لم آت إلى هنا بحثا عن مال أو عن شهرة أو طمعا فى جزر الأحلام الخاصة. . لقد تحسنت عين ياسر الصغير وأصبحت بعيدة عن الخطر. هكذا أكد الأطباء وخضت تجربة خصبة غنية، رغم مافيها من مرارة ومعاناة فى بلاد الإفرنج كان حصادها الحقيقى ثروة ثقافية ومتاعا فكريا وتأصيلا للجذور.

وعادت القاهرة تموج مرة أخرى بالحركة السياسية والفكرية والاجتماعية ولم يعد من الممكن لأسماك النيل أن تعيش بعيدا عن مياهه ولأشجار التوت والنخيل أن تبحث عن مرفأ على سواحل الراين والبلطيق.

وذات ليلة دعتنى الكاتبة والفنانة الألمانية كريستينا جروتر لمنزلها مع مجموعة من الكتاب والفنانين الألمان بمناسبة صدور كتاب جديد لها ولا أعرف ليلتها ماذا جرى لى ونحن نلتف حول حمام السباحة فى حديقة المنزل الريفى الذى تملكه. . فقد انتابتنى حالة من الوجد وأخذت ليلتها أحكى لهم فى صوفية غريبة عن مصر والقاهرة حتى إن مضيفتنا قطعت الحديث قائلة فى مرح.

إننى لم أدعكم هنا ليقوم فتاح بإلقاء قصائد شعر فى بلده، فهناك كتابى الجديد وأنا أنتظر رأيكم. . وقبل أن أغادر منزل الصديقة الألمانية الذى كان يقع فى إحدى ضواحى برلين انتحت بى جانبا وهى تقول:

– يبدو أنك قررت العودة إلى بلدك. . ؟

قلت ضاحكا. .

- أمر طبيعى . . هل كان لديك شك فى ذلك . .

قالت فى جدية

- هل زالت كل المخاطر بالنسبة لك؟

قلت على الفور

- كريستينا . . لم يكن هناك مخاطر ، فأنا جئت إلى هنا كمراسل صحفى ولست لاجئا ، هل سمعت منى طوال السنوات الماضية شيئا غير ذلك .

قالت :

- أعنى . . هل درست الموضوع جيدا من ناحية الكتابة ، إن هذا هو أهم شيء بالنسبة للكاتب . . لقد عاش همنجواى بعيدا عن بلده وأبدع كل روائعه فى الغربة ، وكذلك إليا آهرنبرج وبوكاشيو وغيرهم ، فالعالم كله وطن للكاتب والفنان ، كما أنى لاحظت أن لديك طاقات وقدرات للتعايش مع المجتمعات الأوربية واستيعابها وهذه ميزة ليست متكررة .

قلت وأنا أعبث بأوراق نخلة صغيرة تربيها داخل المنزل :

- التعايش وحتى التفتح على المجتمعات الأوربية أمر جيد وأعترف أننى قد استفدت كثيرا من هذا التعايش ، بل كنت مشوقا له ، ولكنى لست قابلا للذوبان .

قالت عاتبة وهى تضربنى على يدى :

- الذوبان . . ! ! ومن قال ذلك . . دائما تحاول السخرية من كلماتى . .

قلت لها وأنا أمسك بجريدة النخلة الصغيرة . .

- كريستينا . . لاتنسى . . إننى نخلة . .

- لا أفهمك . .

- أعنى أننى مثل هذه النخلة . . أحتاج إلى الشمس والجو الدافئ لتنطلق الجذور إلى الأعماق ولتعلو النخلة فى السماء . . ولكنها هنا تبقى دائما داخل البيوت ، صغيرة ومحاصرة ولاتعلو أبدا . .

إننى لست شجرة صنوبر أو بلوط تستطيع أن تنمو وتكبر وسط الثلوج .

* * *

كـان الذى أربك تصـرفـاتى وأجـرى الخلل فى حسـاباتى فى العـودة هى رسـالة الدكتوراه . . فمنذ الشهور الأولى لقدومى إلى برلين منذ ست سنوات كـانت الفكرة واضـحـة تـمـامـا فى ذهنى للاستـفـادة من هذه الفـرصـة للقـيـام بـمـزيد من الدرس والتحصيل ، ومنذ اللقاء الذى جرى بينى وبين البروفسور لوثر راتمان مدير جامعة ليبزج والأستاذ الدكتور أرمين بارنر تم الاتفاق على موضوع الرسالة . .

وقدمت المشروع ووافق عليه مجلس الجامعة .

كان موضوع الرسالة الذى اقترحته هو «الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى مصر منذ سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٧٠ وانعكاسها على البنيان الطبقى» .

الأمـر الـذى يعنى دراسـة الـمـرحلة الناصرية من كل جـوانبـهـا وبكل إيجـابيـاتـهـا وسلبياتها ، ولقد دفعنى إلى ذلك فى واقع الأمر ذلك السؤال الكبير الذى كان يطرحه الجميع وبالذات الباحثون الأجانب عن التغييرات السياسية الحادة التى جرت فى توجهات السياسة الرسمية المصرية فى فترة قصيرة بعد موت الرئيس الراحل جمال عبـدالناصـر وتولى الرئيس أنور السـادات السلطة . . من أقصى اليـسـار إلى أقصى اليمين ، وفى فترة زمنية قصيرة وبدون وقوع انقلاب عسكرى أو تغيير جذرى فى السلطة . . كـانت الغالبية العظمى للتفسيرات تركز على مظاهر هذا التغيير فى جوانبة السياسيـة والاقتصادية دون أن تبذل محـاولة حقيقية لتقديم تفسير طبقى للتطور الاجتماعى نفسه . .

لم يكن الأمـر مقنعـا للكثيـرين للتركيـز على الخـلاف بين شخصيـة عبدالناصر وشخصية السادات فالمسار التاريخى لأى مجتمع لايمكن أن يكون مرتبطا بشخصية فرد أو مجموعة أفراد . . كما أن استمرارية السلطة ممثلة فى رجال ثورة يوليو وفى شكل ونظام الحكم بعـد تولى الرئيس السـادات السلطة والذى كـان هو نفسـه نائبـا للرئيس فى الستينيات مع استبعاد مجموعة صغيرة لم يكن يسند الدعاوى القائلة بأن هناك انقلابا شاملا قد حدث فى هذا الصدد .

كذلك فـإن بقاء شكل وأسلوب الحكم فى الأسـاس مثلما كـان حتى بالكثير من شخوصه وضع الكثير فى حيرة حقيقية .

كان الأمر يحتاج إلى أكثر من تفسيرات سياسية سريعة . .

وهذا هو بالتحديد القضية التى اخترتها فى محاولة لدراستها .

قدمت تصورا للأستاذ الدكتور بيرنز الذى تولى الإشراف المباشر على الرسالة نظرا لانشغال البروفسور راثمان مدير الجامعة . .

وركزت فى هذا التصور على أربع قضايا رئيسة :

- المنابع والجذور الحقيقية للأفكار الإصلاحية التى جاءت بها قيادة ثورة يوليو فى مجتمع ماقبل الثورة .

- الإجراءات التى اتخذت، وخاصة فى مجال الإصلاح الزراعى، باعتباره كان بمثابة إعلان الهوية لثورة يوليو . . طبيعة هذه الإجراءات ومداها . .

- أسلوب الحكم وجهاز الدولة ودوره فى إدارة الصراع الاجتماعى وتنفيذ الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية .

- الافتقاد إلى حركة جماهيرية منظمة وإلى أيديولوجية متكاملة واعتماد الأشكال البرجماتية والتجريبية مع افتقاد للديمقراطية السياسية .

- التغيرات الحقيقية التى جرت على الخريطة الطبقية نتيجة هذه الإجراءات والإصلاحات وبروز دور أغنياء الفلاحين والتكنوقراط الذين قدموا أرضية طبقية جاهزة ولإجراء التغيرات فى السبعينات فى اتجاه آخر . .

كانت هذه هى المنطلقات الرئيسة للبحث التى وافق وتحمس لها الأستاذ الدكتور أرمن بيرز المشرف على الرسالة . .

كان الدكتور بيرز بحق نموذجا نقيا للأستاذ الباحث المتجرد من كل غرض إلا البحث عن الحقيقة مع اهتمام وتعاطف شديد حول موضوع الرسالة باعتباره واحدا من المهتمين بدراسات الشرق الأوسط ومصر بشكل خاص، ولذلك كنت أضع ملاحظاته دائما فى اعتبارى .

ولم يحاول الرجل أن يغير من أفكارى أو منهجى فى البحث رغم اختلافنا الواضح على بعض التفاصيل والقضايا، فلقد كان يؤكد دائما أن المهم فى أى بحث أن تكون الأفكار الواردة فيه مخدومة بشكل وثائقى ومدعومة بالمنطق الذى يسندها .

وطوال ثلاث سنوات عكفت فيها على دراسة الموضوع مع تجميع كل الوثائق والمراجع المتاحة فى مصر وفى ألمانيا . .

ألتقى فيها بالأستاذ المشرف مرة كل أسبوع . وأحيانا كل أسبوعين أعرض عليه ماوصلت إليه ويدور بيننا نقاش أحيانا ماكان يشترك فيه بعض أساتذة قسم دراسات الشرق الأوسط فى الجامعة . .

وأخيرا أصبحت الرسالة جاهزة وقدمتها للأستاذ المشرف الذى قدمها بدوره إلى مجلس الجامعة . .

وانتظرت تحديد موعد للمناقشة . .

وطال الانتظار شهرين أربعة ، سنة ، سنة ونصفا وأنا بين الحين والآخر أتصل بالدكتور بيرز استفسر وأستعجل ، والرجل العالم يطمئننى بأن كل شىء على مايرام وأنها فقط ازدحام جدول الأساتذة والخطط الخاصة لمناقشة رسائل الدكتوراه والماجستير وفقا لترتيبها .

وحينما كنت أبدى له قلقى أحيانا من أن الأفكار التى أوردتها فى الرسالة قد لاتكون على وفاق مع الأفكار السائدة فى قسم دراسات الشرق الأوسط فى الجامعة كان يرد فى حسم العالم الواثق . .

– لقد انتهينا من هذه القضية وناقشناها مرارا ، فالمهم أن تكون متمكنا من أفكارك وتقدمها مسنودة مدعومة بالوثائق ، وقد قمت بهذه المهمة خير قيام . .

وذات يوم طلب منى الدكتور برنر أن أقابله فى مكتبه فى الجامعة فى ليبزج ثم أخذ يشرح لى وهو يبدى اعتذاره أن هناك ضرورة قبل مناقشة الرسالة لأن أدخل امتحانا فى مادة «الماركسية اللينينية» باعتبارها أحد الشروط الضرورية لنيل الدكتوراه . . وأن جميع الطلبة الأجانب والألمان يدخلون هذا الامتحان . . وأنه قد حاول أن يعفينى من هذا الامتحان على اعتبار أننى مفكر اشتراكى له كتبه ودراساته وله تجربته النضالية ولكن مجلس الجامعة أصر على الامتحان . .

قلت له ضاحكا وأنا أقدر نبله الحريص ، إننى على استعداد طالما ذلك هو الإجراء المتبع ، وإنى لا أرى فى ذلك أية غضاضة .

وقد كنت أعرف أن كل المبعوثين إلى الدول الاشتراكية لدراسة الماجستير والدكتوراه عليهم أن يدرسوا الماركسية اللينينية ويمتحنوا فيها وفقا لتقاليد هذه الجامعات حتى هؤلاء الذين يدرسون فى تخصصات علمية كالهندسة والطب والزراعة . وكنت أعرف أيضا أن بعض المبعوثين إلى بعض الجامعات فى الدول الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى وألمانيا قد طلبوا إعفاءهم من هذه الدراسة ، وأثيرت مشكلة حسمتها الحكومة المصرية بالموافقة على أن يقوم المبعوثون إلى الدول الاشتراكية باحترام القواعد والأسس التى تقوم عليها الدراسة فى الجامعات فى تلك الدول ، وقد كنت أعرف كذلك أن المسئولين فى الجامعات فى الدول الاشتراكية

يضعون فى اعتبارهم ظروف المبعوثين الأجانب، وفى كل الأحوال كان كل المبعوثين المصريين فى الجامعات الألمانية يحصلون على تقديرات جيد جدا وممتاز فى مادة الماركسية اللينينية حتى ولو كان بعضهم ممن يعارض الماركسية أو حتى يعاديها . . فلقد كان يُحدد للطالب كتاب معين يقرؤه ثم تناقشه لجنة من ثلاثة أساتذة فى فترة لاتتجاوز نصف ساعة أو ساعة . .

وحينما سألنى دكتور برنر عن الكتاب الذى أرغب الامتحان فيه قلت له ضاحكا أعتقد أننى تلميذ مجد قرأ تقريبا كل الأدبيات الاشتراكية من ماركس وإنجلز ولينين حتى يومنا هذا، وأيضا كل ماكتب عنها مدحا أو قدحا وأنا أترك للجنة الامتحان اختيار الموضوع .

وفى يوم اللقاء أو الامتحان، وجدت نفسى مع اللجنة التى شكلت من ثلاثة أساتذة كان على رأسهم البروفسور «   » أستاذ مادة الماركسية فى الجامعة . .

وبدأ الحوار أو الامتحان، أو المحاكمة . . وعلى مدى ثلاث ساعات واجهت فيها ماواجهت وتذكرت خلالها محمد عبده وطه حسين وهما يجلسان نفس الجلسة أمام الشيخ عليش والشيخ المهدى . .

كان من الواضح أننى أواجه أساتذة ممتازين درسوا وحفظوا جيدا كل متون الماركسية والحواشى التى تشرح المتون والتقارير التى تشرح الحواشى . .

ولكن من أين لهم أن يتفهموا إجابات طالب عرف الاشتراكية فى الأساس من خلال عيون المجهدين والمتعبين ونادى وعانى من أجل إشاعة ابتسامة أمل حقيقية على هذه الوجوه المتعبة لكى يصبح الإنسان إنسانا حقيقيا يبدع ويفكر دون أن تكبله ضغوط وهموم اقتصادية وغير اقتصادية ودون أى حسابات إلا حسابات الحقيقة . سألنى الأستاذ رئيس لجنة الامتحان عن مفهومى عن الديمقراطية وشرحت له وجهة نظرى فى الديمقراطية فى إسهاب، وكان مما قلته إن الديمقراطية كل متكامل لايتجزأ ولايمكن تقسيمها إلى ديمقراطية اجتماعية وديمقراطية سياسية .

وقلت كذلك إن ضمانات العدالة الاجتماعية من مسكن ومأكل ورعاية صحية وتعليم وعمل وأجر متواز مع الجهد المبذول يمكن أن تفقد مغزاها الحقيقى إذا لم تكن مرتبطة بحرية المواطَن فى التعبير عن رأيه وفى اختيار التنظيم الذى يرتبط به وفى المشاركة الحقيقية والفعالة فى صياغة القرارات المهمة المتعلقة بمستقبله ومستقبل بلده . .

كما أن كفالة حرية التعبير والتنظيم دون ضمانات اجتماعية واقتصادية تتحول إلى مظهر شكلى خادع . .

وكان من الواضح أننى ارتكبت هرطقة لاتغتفر . . فقال مقاطعا استطراداتى . .

– ولكن هذا هو المفهوم الليبرالى للديمقراطية .

وعدت أشرح نفسى مستندا أحيانا إلى بعض مقولات لماركس وإنجلز ولينين ومعتمدا على أن جوهر الفكر الاشتراكى هو تحرير الإنسان من الاستغلال وشارحا التطورات والظروف المختلفة التى تجعل هناك فروقا واضحة بين ماكان صالحا فى أواخر القرن التاسع عشر وماكان مفيدا فى أوائل القرن العشرين وما يجب أن تتطور إليه الأمور فى أواخر القرن العشرين . . إن جوهر الفكر الاشتراكى نفسه يقوم على أساس أن كل شىء يتغير وكل شىء يتحول وأنه ليس هناك مطلقات أو مقدسات ، فالاشتراكية تدعو دائما إلى التجديدات الثلاثة فى أى تحليل أو توصيف . .

المكان المحدد ، والظرف المحدد ، والزمن المحدد وإنه ليس هناك وصفات جاهزة تفسر كل شىء فى كل زمان ومكان وضربت أمثلة كثيرة بالتطبيقات التى قام بها لينين بعد الثورة الاشتراكية فى روسيا وكيف أنه تجاوز عن بعض ماقاله ماركس لإنجاح الثورة . .

بل إن قيام أول ثورة اشتراكية فى روسيا جاء على عكس توقعات ماركس التى كان ينتظرها فى إنجلترا وفرنسا أو إحدى الدول المتقدمة رأسماليا .

– ماذا تقول . . لقد كان لينين تلميذا مخلصا لماركس . .

– كان تلميذا مخلصا للاشتراكية فى خطوطها العريضة كما بشر بها ماركس ، ولكنه لم يلتزم بكل ماقاله ماركس ولقد هاجمه كثير من المفكرين الماركسيين الجامدين والحرفيين منهم كارل كاوتسكى الذى قال عنه «إنه مهرج» لم يستوعب الماركسية جيدا وخرج على كل كلمة قالها ماركس» .

كانت الهوة بيننا واسعة والشقة تبعد ، وكان يبدو ذلك واضحا على وجه البروفسير والأستاذ الآخر ، وإن كنت قد أحسست دون يقين أن الأستاذ الثالث لم يكن على نفس الموجة ، بل كان يتطلع إلى أحيانا ويومئ برأسه ، وكأنما يشد من أزرى فى المعركة الحامية التى دارت بين أساتذة درسوا الماركسية بكل دقة وحفظوا كل كتبها وموسوعاتها حتى أصبحوا جديرين بالتعبير الذى أطلقه ماركس على أمثال هؤلاء

بأنهم مثل ذلك المارد الذى صوره هوميروس فى الأوديسا والذى كان يضع البشر فى صندوق أحكم مقاساته فمن زادت أطرافه على الصندوق بترها ومن قل جسمه عن مساحة الصندوق قام بشده حتى يكون على المقاس، وبين طالب من دول العالم الثالث قررت الظروف التى تعيشها بلده والمشاكل والتحديات الهائلة التى يواجهها شعبه أن يختار الاشتراكية طريقا للفكر والعمل. . والواقع الحى المتحرك هو الأساس الذى يدفعه ثم يأتى بعد ذلك الإطار النظرى العام.

لم أكن أبحث عن معركة، كما أنى كنت مدركا تماما أنى لست فى ندوة أو محاضرة على أن أسهب فى استعراض أفكارى وآرائى، بالعكس كنت أحاول دائما أن أقصر خطوطى وأكتفى بأقل قدر ممكن من التعبيرات التى تعكس رأيى. .

ولكن البروفسير رئيس لجنة الامتحان لم يكن يعطينى الفرصة على الأقل للتركيز على مايمكن الاتفاق عليه، كان من الواضح أنه اكتشف مارقا أو مرتدا من وجهة نظره فراح يفتل الحبال ويجهز الخية للإجهاز على زنديق من وجهة النظر الماركسية. .

وخرجت أسئلته طلقات موجهة. .

مفهومك عن الطبقات. . الفلاحون طبقة أم فئة. . حتمية انهيار العالم الرأسمالى. . التطور الرأسمالى سماته مميزاته. . مارأيك فيما يسمى باليوروكومنزم (الشيوعية الأوربية). .

ثلاث ساعات، أجهدت فيها عقلى ونفسى وصراعاتى، وأنا أضبط ردودى على قدر الأسئلة دون استطراد، والأسئلة تتوالى وانتابنى إحساس أنى فى قاعة محكمة متهم فى قضية لاأعرفها. .

وعندما سألنى البروفيسور سؤالا أشبه بالصاروخ الموجه عن الإضافات الخلاقة لبوريس بوناماريوف المفكر السوفيتى المعاصر فى كتابه حول حركات التحرر قلت، وكان قد فاض بى، وقررت أن أنهى المحاكمة:

- إننى أختلف مع الكثير مما قاله بوناماريوف حول حركات التحرر.

وكانت هذه الكلمات كافية لإنهاء المحكمة وإصدار الحكم. .

وتركت القاعة، واتجهت فورا إلى محطة السكة الحديد لأستقل القطار من ليبزج إلى برلين تاركا عربتى فى ساحة الانتظار أمام الجامعة، فلم أكن لأستطيع أن أمضى بها أكثر من ٢٥٠ كيلومتر. .

بل إنى ولأكثر من أسبوع حاولت أن أنسى ماجرى . . وكنت قد أتيت بالجزء الثانى من أيام «طه حسين» أعيد قراءة ماكتبه عن لجنة الامتحان والشيخ المهدى أيام الجامعة وعن مذكرات محمد عبده وقصته مع الشيخ عليش ولأعيد أيضا قراءة مسرحية «جاليلو . . جاليلى» للعظيم برتولد بريخت «والمحاكمة» لفرانز كافكا .

الشيخ المهدى . . . الشيخ عليش . . الأساقفة الرسوليون للبابا فى محاكم التفتيش ، المحقق الجامد فى قلعة كافكا العتيقة . . رأيتهم جميعا يتجسدون فى شخصية واحدة . . الوجوه الجامدة والعقول المغلقة والقلوب التى لاتعرف الحب ، بل وربما تكره الحياة . . هولاء الذين لايعرفون كيف يبتكرون ولاكيف يبدعون . . يكرهون أى جديد ويحاولون اغتياله . . هم كلهم نمط تاريخى واحد سواء كانوا شيوخا دراويش أو قساوسة ومبعوثين للبابا فى محاكم التفتيش أو قضاة شحبت الحياة النابضة عن وجوههم ، أو ماركسيين متحجرين حددوا فهمهم للاشتراكية عند مجموعة من النصوص العتيقة «أو التعاليم المقدسة» «والتوجيهات السامية» لمن يمسكون بالسلطة . .

بالفعل نسيت الأمر كله أو هكذا حاولت وغرقت فى الاستعدادات والترتيبات الخاصة بعودتى أنا وولدىّ إلى القاهرة وبدون الدكتوراه .

وجاءنى تليفون من ليبزج . . وكان المتحدث دكتور بيرنز :

– أين أنت . . لم أسمع عنك منذ الامتحان الأخير .

– مازلت فى برلين إلى حين . . وغالبا فى القاهرة بعد شهرين على الأكثر . .

– ومناقشة الرسالة . .

– أى رسالة . . هل مازالت تذكر . . !!

وضحك دكتور بيرنز ضحكته التلقائية البسيطة المعبرة :

– أعرف أن امتحان الماركسية كان عسيرا . . ولقد سمعت بذلك ولكن مناقشة الرسالة مازالت واردة . . وعلى كل سأحضر مع البروفيسور راتمان إلى برلين بعد غد فلدينا عمل هناك . . دعنا نلتقى على فنجان قهوة فى مقهى الأوبرا الساعة الثانية عشرة . .

ولم أعترض بالطبع ليس من أجل الرسالة ، بل لأنى بالفعل أحمل تقديرا عاليا واحتراما صادقا للبروفيسور لوثر راتمان مدير جامعة ليبزج ذلك الرجل الذى يمتلك عقل عالم حقيقى وقلب إنسان صادق .

حتى إننى قلت يوما إنه إذا أردنا أن نقيم تمثالا لأبى الهول المعاصر فإننا لن نجد أفضل من لوثر راتمان، على اعتبار أن أبا الهول القديم كان يجسد فكرة القوة والحكمة ممثلة فى جسد الأسد، وعقل الإنسان، ولكن راتمان يجسد العقل القوى المتفتح والإنسانية المتدفقة . .

والتقينا فى مقهى الأوبرا الذى يطل على ميدان بيبل بلاتز ويشرف على مبانى جامعة هامبولت العتيقة .

وفتحت قلبى للرجل الذى أحببته وقدرته، وقلت له كل أفكارى، بل وهواجسى فيما يتعلق بالرسالة التى تأخرت مناقشتها أكثر من عامين والامتحان أو المحاكمة التى جرت ثم قرارى بالعودة النهائية إلى القاهرة . .

استمع إلى البروفيسور فى صمت واستيعاب، ومن الحين للآخر كان ينظر إلى الدكتور بيرنز الذى كان يبدى تعاطفا وفهما وتفاهما لما أقوله بملامح وجهه دون أن يقول كلمة . .

وأخيرا قال البروفيسور، وبطريقته الجادة للغاية والمشبعة فى نفس الوقت بروح المرح والتفاؤل . .

- اسمع يافتاح . . بالنسبة لعودتك إلى مصر فهذا عين الحكمة والعقل وأنت تعرف رأيى جيدا فإننى لا أحبذ على الإطلاق أن يأتى دارسون وطلبة علم من العالم الثالث إلى أوربا ليقيموا أو يعملوا فيها، فبلادهم فى أمس الحاجة إليهم بل إنى أعتبر ذلك هروبا مشينا لمثقفى العالم الثالث وشكلا خطيرا من أشكال سرقة العقول التى تمارسها الدول المتقدمة بالنسبة للدول النامية .

أما بالنسبة لأى أخطاء قد تكون قد حدثت هنا أو هناك، فهذا أمر وارد وطبيعى ولاتحمله أكثر مما يحتمل . . والمفكر الحقيقى هو الذى يتناول الأمر الواقع بعيدا عن الحساسيات . أما بالنسبة للرسالة نفسها فقد قرأتها وبغض النظر عن الخلاف أو الاتفاق فيما ورد بها حول المرحلة الناصرية، إلا أن أحدا لايمكن أن ينكر عليك الجرأة والاقتحام الفكرى وطرح قضايا وزوايا جديدة بجدارة الباحث واستحقاق العالم المدقق . قد يكون قد حدث تأخير بعض الشىء لأسباب قد يكون بعضها بعيدا تماما عما ذهبت إليه . .

وعلى أية حال فقد عرفت أن مجلس الكلية والجامعة قد وافقا على المناقشة وحددا الموعد خلال الأسبوعين القادمين . .

وتدخل الدكتور بيرابر :

- نعم يوم الخميس ٢٠ يونيو فى قاعة الملحق الجامعى الساعة التاسعة صباحا وتتكون لجنة المناقشة من البروفيسور فويخت أستاذ الاقتصاد السياسى بقسم دراسات

الشرق الأوسط وبروفيسور جرينج أستاذ الدراسات الشرقية فى جامعة هامبولت ومنى . .

وضحك بروفيسور راتمان وهو ينهض مودعا قائلا :

– هكذا ترى أنك لن تعود إلى القاهرة قبل مناقشة الدكتوراه .

وفى يوم المناقشة احتشدت القاعة بعدد كبير من المصريين والألمان . .

كان هناك السفير المصرى صلاح شعراوى والمستشاران الثقافى والاقتصادى ، كما كان هناك عدد من الأساتذة العرب والمصريين العاملين فى الجامعات الألمانية ، إضافة إلى مجموعة من الأساتذة والباحثين الألمان المهتمين بقضايا الشرق الأوسط ومصر بشكل خاص . . وكان هناك ابنى عمرو التلميذ فى الفصل العاشر فى المدارس الألمانية . . والصديقة الألمانية انجيليكا التى قدمت لى معونة لاتنسى سواء فى توفير المراجع أم مراجعتها وتنقيح اللغة أو كتابتها على الآلة .

وبدأ الأساتذة كل يقدم تقييمه وتقريره النقدى .

البروفيسور فويخت أبدى بعض التحفظات على بعض ماوصلت إليه الرسالة ، ولكنه أشاد بالمجهود الكبير الذى بذل وبالكم الهائل من المعلومات التى تؤكد أن الباحث له خبرة عملية ونظرية عميقة بالقضية المطروحة . . مصر فى عهد عبدالناصر . .

البروفيسور جرينج ، قال إن الرسالة لم تغن مفاهيمنا إزاء التطورات الاجتماعية والاقتصادية فى مصر فى مرحلة عبدالناصر فقط ، بل وتعتبر إسهاما كبيرا فى الدراسات الاشتراكية حول قضايا التطور فى الدول النامية بشكل عام . .

والدكتور بيرنر . . قال : إن الدراسة قدمت تفسيرا علميا للتطورات والتغييرات المفاجئة التى حدثت فى المجتمع المصرى بعد موت عبدالناصر . .

ثم فتح الباب للحاضرين ، كما هى تقاليد الجامعات الألمانية ، للمشاركة فى إلقاء الأسئلة والاستفسارات .

واستمرت المناقشة أوالدفاع كما يسميه الألمان حوالى ثلاث ساعات . .

وعندما أعلنت لجنة المناقشة منح الطالب شهادة الدكتوراه فى فلسفة الدراسات الاجتماعية ، جرى ابنى عمرو ليكون أول من هنأنى واحتضننى بعنف .

– مبروك يابابا . . قصدى يادكتور . . هنرجع مصر إمتى .

– فورا . .

[٥٣]

عطشان

عطش يلاحقنى فى الليالى الجائعة

عطش مجنون

عطش غابة يدمرها الجفاف

عطش إليك يازهرتى

قاس وحلو

بابلو نيرودا

يناير سنة ١٩٨٤

قالوا لنا ونحن صغار . . إذا أردت تعلم العوم فاقفز فى الترعة المجاورة . . وإياك والخوف من الغرق . .

وأعتقد أن ذلك كان ومازال الدرس الغريزى الأول الذى تعلمته واستوعبته بل وأصبح منهجا للحياة . .

المهم أن تأخذ القرار وتكون ممتلئا به مقتنعا بأسبابه مدركا لأبعاده عارفا بطبيعة المياه التى تريد أن تسبح فيها . .

وبالرغم من كل ذلك فقد اكتشفت أن المجتمع الذى عدت إليه فى القاهرة يختلف إلى حد كبير عن المجتمع الذى تركته منذ سبع سنوات . لا أعنى بذلك تلك التغيرات التى أعادت تشكيل السطح بعنف وأحيانا فى قسوة ، سواء تلك الكبارى العلوية أو الأبراج الزجاجية العملاقة التى أضاعت لمسة الانسجام النسبى الذى كان يلملم القاهرة كلها حتى أحيائها الشعبية . .

ولا أعنى ذلك الازدحام الممزوج بالضجة المكثفة والذى أصبح العلامة المميزة فى كل الشوارع تقريبا حتى إنك تحس كما لو أن هناك وعلى الدوام تظاهرة صاخبة تتحرك . . كما أني لا أعنى كم المخلفات الملقاة فى الشوارع مضافا إليها مسحوق التراب الذى يقضى على زهوة الأشياء والبشر، ولا فوضى المرور مع ازدياد كم العربات والتعامل البدائى مع الآلة كما لو كانت حمارا أو حصانا . .

كذلك إشغالات الطريق التى جعلت أكثر من ثلث شوارع القاهرة فى ذلك الوقت مفتوحا إما لأعمال مترو القاهرة أو لإقامة كبارى علوية أو إعادة بناء شبكات المياه والصرف والمجارى والتليفونات . .

كما أن القفزة الكبيرة وغير المسبوقة فى الأسعار فى بضع سنوات قليلة إضافة إلى التناقض الصارخ بين أشكال الاستهلاك النزق الذى تراه ببساطة فى محلات السوبر ماركت فى بعض الأحياء والفقر الآسن الذى تلمسه فى أحياء أخرى . .

كل ذلك كان مفهوما لدى ومبررا حيث كنت مستوعبا لطبيعة ومراحل الانتقال الصعبة التى أجرتها مرحلة الانفتاح بلا رابط، وسيادة النمط الذى أفرزته مرحلة البترودولار فى تأكيد قيم الفهلوة والكسب السريع والشطارة . .

كما كنت على يقين بأن هذه المرحلة آخذة فى الانقراض بالضرورة مع كل إفرازاتها وموبقاتها . . ولكن الذى أزعجنى حقا هو اختفاء الضحكة بل وأحيانا البسمة وانزواء تلك اللمعة الموحية فى العيون التى عرف بها المصريون قديما وحديثا . .

الأمر الذى اعتبرته مناقضا على طول الخط لكل التراث المصرى الأصيل فى حب الحياة والبهجة والإصرار على التشبث بالأمل حتى فى أحلك الظروف . .

ربما كان السبب فى ذلك هو وطأة المشاكل الاقتصادية التى تراكمت بعد انحسار موجة الأمل الكاذب التى أشاعها البعض فى مرحلة سابقة . .

وربما تعود إلى التقلبات العنيفة التى شهدتها السياسية المصرية من خلال فترة وجيزة كانت أشبه بالساونا التى أفقدت الاتجاه .

وربما أيضا لظهور بعض تيارات العنف وكراهية الحياة متمثلة فى بعض ممن فقدوا الثقة فى الحاضر وعجزوا عن الحلم بالمستقبل فراحوا يستعيدون الماضى ويعيشون فيه بعقولهم ووجدانهم ويحاولون فرض منهجهم اللامعقول على المجتمع كله وراحوا يبشرون بالجلباب الأبيض القصير وبالذقن السوداء الكثيفة وبالنقاب المخيف معلنين حربا حقيقية على كل ماهو جميل وإنسانى فى الحياة . .

وخرجت ذات ليلة مع ولديّ لنرى القاهرة من فوق كوبرى أكتوبر، فلقد كنت أحاول تجنيبهما أى صدمة قد تصيب عقليهما الصغيرين بأى خلل، وخاصة أن كليهما أمضى أكثر من نصف عمره حتى الآن فى مجتمع أوربى. . سنوات مابعد سن التمييز.

وارتحت فى أعماقى وأنا أرى «ياسر وعمرو» وقد أخذتهما نشوة المنظر الخلاب ليلا حين تختفى كل الموبقات وتنعكس الأضواء على مياه النيل وتتكامل لوحة رائعة حيث يلتقى فرعا النيل عند الجزيرة الخضراء وتقفز مياه النافورة الملونة فى عمق النيل ويعيدان الانسجام والتواصل مع القاهرة.

وفجأة رأيت الاثنين يكفان عن حالتى الاسترخاء والاستمتاع وعيونهما تتعلق فى دهشة بل وبخوف بشبحين يمران بجوارنا. .

شبح يمشى كأنه خيمة سوداء لايبين منه سوى فتحتين صغيرتين تماما مثل عفريت الحوارى مثلما تصورناه صغارا، وشبح آخر يلبس جلبابا أبيض قصيرا وطاقية تغطى رأسه الحليق تماما وتضيع ملامح الوجه القاسى المتجهم فى ذقن سوداء كثيفة ومتشعبة. .

كان الولدان يتناقشان فيما بينهما. . عمرو يقطع بأنهم ليسوا مصريين بينما ياسر يعبر عن تصورات مخيفة ويتكلم عن المافيا وعصابات الليل فى لغة غريبة مطعمة بالكثير من الألمانية التى كان يجيدها بشكل أكثر حيث إنه ذهب إلى ألمانيا وعمره لم يتجاوز السنوات الخمس. .

تركت الولدين يسقطان مخاوفهما وتحاليلهما التلقائية لهذه الظاهرة. . بينما كنت غارقا فى التاريخ المعاصر أسترجع رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وقاسم أمين وطه حسين أساتذة عصر التنوير فى مصر المعاصرة، وأؤكد لنفسى وربما لأطمئنها أن الذى رأيته الآن مجرد بثور طارئة على وجه مصر المشرق المضئ المتفتح دائما للحضارة والتقدم. . ورأيت نفسى أتابع مع ولديّ الشبحين بنفس الرهبة والخوف وكأنى أرى كابوسا من الماضى السحيق وأسرعت أخطو بالولدين بعيدا. .

وحينما كنت ألتقى ببعض الأصدقاء لأزف إليهم خبر عودتى وبشكل نهائى من الغربة كان البعض ينظر إلى فى دهشة غريبة، بل إن البعض كان يتجاوز هذه النظرة الغريبة ليقول فى لامبالاة أزعجتنى. .

- ولماذا تعجلت العودة. . هل اشتقت إلى المعاناة. .

وحينما كنت أحكى لأحمد طه وهو الاستثناء الوحيد من الأصدقاء الذى رحب بالعودة وشجعنى عليها، عن احتياجاتى إلى شقة وأننى بلا مدخرات قال ضاحكا:

- طول عمرك متفائل.. المهم ألا تستنفد هذا الرصيد فى شهور قليلة.. وربنا يسهل..

وبعد شهرين جاءنى إخطار الشحن من ميناء الإسكندرية لاستلام حاجياتى التى شحنتها من برلين..

وذهبت إلى الجمرك مع أحد الأصدقاء العاملين فى الجريدة لاستلام الصندوق الخشبى الكبير الذى كان يزن أكثر من طن ونصف...

وقمنا بالإجراءات المطلوبة وقدمت الأوراق والمستندات.. وسألنى الكشاف فى استنكار وهو يفحص الأوراق التى قدمتها..

- كل هذا الصندوق الكبير.. كتب.. يا أستاذ أرجوك ريحنا وريح نفسك واكتب لنا إقرارا بالمحتويات الحقيقية وسنتساهل معك فى الرسوم الجمركية... المهم أن تكون الأدوات الكهربائية فى إطار الاستهلاك الفردى..

قلت مؤكدا..

- رسوم على ماذا.. إنها لاتحوى بالإضافة إلى الكتب سوى مكتبى القديم ومكتبتى..

وقام الرجل غاضبا مستنكرا إصرارى على الإنكار فتناول بلطة خاصة أعطاها لبعض العمال طالبا أن يفتحوا الصندوق الضخم من جوانبه المختلفة..

ومع كل ألواح تتحطم على ضربات البلطة، كانت تتساقط الكتب من كل اتجاه..

وظل الرجل يعمل هو ومن معه أكثر من نصف ساعة يستكشف أعماق الصندوق الخشبى الكبير.. وهو فيما يبدو يرفض الاقتناع، إلى أن أسقط فى يده وألقى بالبلطة بعيدا عن أكوام الكتب المتساقطة حول الصندوق وهو يقول فى حزن ورثاء حقيقيين.

- كتب.. سبع سنين فى ألمانيا.. والبيه شاحن كونتار كبير كله كتب.. مش غريبة بالذمة..

وتأملت وجهه البسيط وهو يموج بمشاعر الإشفاق الذى يصل إلى حافة الازدراء.. ولعل مشاعر الإشفاق والازدراء كانت ستتضاعف لو عرف أننى وبعد سبع

سنين من الغربة عدت وليس لدى أى رصيد فى البنك أو فى الجيب، وأن على البحث عن شقة . .

ثم عاد الرجل يتأملنى وهو يهرش بمؤخرة رأسه ويمسك بكتاب فى يده وكأنما يستحثنى لأقول شيئا يفسر له هذا اللغز الذى يبدو أنه عاجز عن فهمه ثم انطلق يقول :

– بحق . . بحق . . هو ده كل اللى رجعت بيه بعد سبع سنين فى ألمانيا . . مافيش شحنة تانية فى السكة . .

قلت ضاحكا فى محاولة لإشاعة البهجة على وجهه المتجهم :

– وهما دول شوية ، دا أكثر من تلات آلاف كتاب . . دى ثروة كبيرة . .

انفجر الرجل ساخرا ثائرا . .

– يا أستاذ . . يا أستاذ . . . . فوق ، أنت باين عليك عايش فى عالم تانى . . أنت جاى فى بلد الحيتان فيها اتوحشت والفلوس بقت كل شىء . . جاى تقوللى كتب . . !!

قلت وأنا مصر على إشاعة روح البهجة والمرح :

– ماهو كل كتاب من دول يساوى مليون جنيه . . عد بقى .

قال الرجل يائسا :

– ابقى قابلنى . . خليهم ينفعوك . .

ولكن التفاؤل كان يغنى فى قلبى ، ولم يكن هناك من يستطيع أن يسكته . .

ففى مصر كل المشاكل ستحل ، فلقد مضى عهد الغربة والخروج . .

دعنا نأمل . .

رقم الإيداع ٢٨٩٢ / ٩٨
I.S.B.N. 977 - 09- 0930- 9

مطابع الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس. ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

ثنائيـــة السّجن والغـربَـة

التداخل بين التاريخ والرواية أصبح أحد القضايا المهمة فى قراءة ودراسة واستيعاب التاريخ .

وتقدم الإبداعات الروائية التاريخ الحقيقى للمجتمع وللمرحلة التى تتناولها فى شكل الصراعات والعلاقات الاجتماعية والإنسانية . وهذا ما قام به المؤلف وهو يسجل تجربتين عاشهما وعانى خلالهما فى العقود الأربعة الماضية .

تجربة السجن والمعتقل فى المرحلة الناصرية ا مرحلة الإنطلاق القومى والأحلام المجهضة ا

وتجربة الغربة التى عاشها فى المرحلة الساداتية ا مرحلة الإنفتاح وكامب ديفيد وازدهار النفط وجماعات الهوس الدينى .

وهو يقدم لنا هذه التجارب بنفس درجة الصدق والمعاناة التى خاض بها التجربة ..

وهــل يمكن أن يكون هناك خداع للنفس فى تلك الفترات التى يعانى فيها الإنسان من السجن والغربة ؟!

إننا أمام عمل ينسحب للمستقبل رغم أنه يتناول أحداثا فى الماضى . ويجمع فى اقتدار بين التاريخ والرواية ...

دار الشروق